

فوائد تربوية من سيرة خير البرية

الجزء الأول

قدم له فضيلة الشيخ
أحمد فريد
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

قدم له فضيلة الشيخ
محمد حسين يعقوب
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

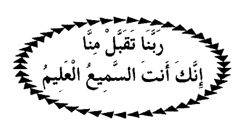
تأليف

أحمد عبد الفتاح الزواوي

عفا الله عنه







ربنا تقبل منا
إنك أنت السميع العليم




للناشر

دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

مقدمة الشيخ
أحمد فريد

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

ثم أما بعد...

فإني قد تصفحت موسوعة أخي الحبيب الأخ أحمد الزواوي، التي سماها «فوائد التربوية من سيرة خير البرية» فألفيتها جامعة نافعة، وقد وفّق - حفظه الله - في اختيار الموضوع، فإن الكلام عن أخلاق النبي ﷺ ومعجزاته ونهجه ووجوب متابعته، وما يؤخذ من ذلك من فوائد تربوية جَمَّة، كلام حبيبٌ إلى نفوس المؤمنين، لمحبتهم لشخصه الكريم ﷺ، وذلك عقد من عقود الإيمان، فلا يكمل إيمان عبد حتى يحب رسول الله ﷺ أكثر من محبته لأبيه وولده والناس أجمعين، بل حتى يكون أحب إليه من نفسه، وموضوع الكتاب مما يزيد هذه المحبة، ثم يكثر في موضوع الكتاب ذكر النبي ﷺ، ويستلزم ذلك كثرة الصلاة عليه ﷺ، وأولى الناس بشفاعة النبي ﷺ أكثرُهم عليه صلاة، وقد بذل الباحث جهدًا كبيرًا في جمع مادته الطيبة من كتب السنة المعتبرة، وقد تحرى الصحيح المسند من أخبار النبي ﷺ، مما ورد في الصحيحين أو أحدهما، ومن خاض غمار هذا البحث فقد وُفق إلى دخول بستان فسيح، فيه الثمار اليانعة، والأزهار الفواحة، فهو ينتقل من شجرة إلى شجرة، ومن ثمرة إلى ثمرة، ومن زهرة إلى زهرة، فهنيئًا للمسلمين هذا العسل المصفى، مما يزيدهم حبًّا واتباعًا وتعظيمًا وتوقيرًا لرسول الله ﷺ، وأسأل الله - تعالى - أن يتقبل هذا العمل الصالح، والبحث العلمي من أخي الزواوي، وأن يجعله له ذخرًا يوم الورود عليه، وأن ينفع به من انتهى إليه، وأن لا يحرمنا معه من الثواب، فإن المُصَاب مَنْ حُرِمَ الثوابَ، وصَلَّى الله وسلم وبارك على المبعوث رحمة للعاملين، وقدوة للعالمين، وحجة للسالكين، وحجة على العباد أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه أحمد فريد بالإسكندرية

مقدمة الشيخ/ محمد حسين يعقوب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، رب يسر وأعن بخير يا كريم، قال الله تعالى: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا** ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال سبحانه: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال جل شأنه: ﴿ **وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ** ﴾ [النور: ٥٤]، أما بعد..

فرسول الله ﷺ له علينا حق عظيم، ومهما قدمنا فلن نوفيه بعض حقه صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وكيف لا وكل خير من خيري الدنيا والآخرة أصبناه فسببه النَّبيّ محمد ﷺ، وإن بعض حقه علينا معرفة سيرته العطرة وتفاصيل حياته المباركة، ونشر ذلك وبثه وتعلمه وتعليمه، والمؤلفات في سيرة الرسول ﷺ مهما بلغت لن تؤدي شيئًا من حقه، ومازلنا بحاجة إلى سد ثغرات تحتاج أن تجتنى لها فوائد من سيرة الرسول ﷺ. لذا جاء هذا الكتاب الذي دفعه إليّ صديق قديم وأخ حبيب هو الأستاذ/ عاطف أحمد شرف الدين، وهو صديق عمري ترجع مدة أخوتي له وعلاقتي به إلى أكثر من ثلاثين سنة، وهذا الكتاب الذي بين أيدينا لأحد إخوانه وأصفيائه وهو الأستاذ/ أحمد الزواوي أكرمه الله، وقد طوفت بأبواب الكتاب طوافًا سريعًا فوجدته كتابًا قيما يعتمد طريقة السلف الصالح في التأليف وهي سرد النصوص من الكتاب والسنة مع التبويب والترجمة التي تستخرج الفوائد، ورأيته في بعض النصوص قد ذكر أكثر من عشرين فائدة، وفي بعض الفوائد ذكر عشر نقاط في الفائدة الواحدة، وهذه طريقة جليلة أسأل الله أن ينفع بها، ورأيته في بعض المواضع الأخرى قد استطرد استطرادات طويلة تناسب ما يحتاجه أهل عصرنا فجمع الكتاب الحسنيين: الأصالة والمعاصرة.ولم يقع في يدي في هذه النظرة العجلى على الكتاب ما أنكره إلا كلامه على سؤال الرسول ﷺ في القبر، فإنه خلص في النهاية إلى أنه ينبغي السكوت عن هذه المسألة، فكان من الأولى عدم عرضها أصلاً، ثم الكتاب في مجمله كتاب قيم جامع شامل أرجو أن يكون كذلك، أنصح باقتنائه، وأسأل الله أن ينفع به.

وأسأل الله عز وجل أن يجزي مؤلفه كل خير، وأن يجزي الأستاذ عاطف شرف الدين الذي عرفنا به كل خير، فالدال على الخير كفاعله، وأسأل الله جل وعلا أن يستعملنا لنصرة الدين، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، وأن يعافينا من البلاء، وأن ينجينا من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يرزقنا حسن الخاتمة، والجنة بغير حساب إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وكتب / محمد بن حسين يعقوب

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. وبعد..

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** (١٠٢) ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** (١) ﴾ [النساء: ١]. ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا** (٧٠) **يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا** (٧١) ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

ثم أما بعد.. فإن الله – تعالى – منَّ على هذه الأمة بأكبر وأعظم منّة على الإطلاق تلك المنة التي غبطتنا عليها الأمم السابقة ويتمناها بعضهم، لكن حالَ بينهم وبينها الكبر تارة والعناد تارة أخرى، تلك المنة هي رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ خاتم النبيين وسيد المرسلين وحبيب رب العالمين، وقد ذكر الله – تعالى – ذلك في كتابه صراحة حيث قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** (١٦٤) ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ورغبة مني في خدمة ديننا الحنيف، فقد استخرت الله عز وجل أن أجمع وأرتب مصنفًا يشتمل على فوائد تربوية مهمة، ولما كانت أحب الموضوعات وأكثرها تشويقًا إلى قلوبنا جميعًا تلك التي تتعلق بالنبي ﷺ، فقد رأيت أن تكون موضوعات الكتاب شمائل وخصوصيات وصفات النبي ﷺ، بالإضافة إلى دلائل نبوته ومكانته عند خالقه عز وجل، وحب الصحابة ﷺ لشخصه الكريم، وبذلك يتسنى للقارئ الحبيب معرفة قدر النَّبيّ ﷺ فيزداد حبًا له واتباعًا لسنته الشريفة، وتعظيمًا وإجلالاً لقدره وهي أمور نحن في أمسِّ الحاجة إليها، كما يقف القارئ من خلال فوائد الكتاب على أمور كثيرة من هديه ﷺ وسنته الشريفة، وقد اقتصرتُ في الأدلة على آيات الذكر الحكيم، وما ورد في الصحيحين.

وأسأل الله العليّ القدير أن ينفع به كل من قرأه وعمل به وساهم في نشره وتوزيعه إنه وليّ ذلك والقادر عليه. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

منهج البحث

قسمت الكتاب إلى :

١ - مقدمة .

٢ - تمهيد .

٣ - الباب الأول : أهمية السنة النبوية ، ووجوب اتباعها .

٤ - الباب الثاني : إثبات نبوته ﷺ بالدلائل والمعجزات .

٥ - الباب الثالث : في خصائص أفضل المخلوقين وسيد الأنبياء وخاتم المرسلين ﷺ .

٦ - الباب الرابع : صفات وجوانب من شخصية الرسول ﷺ .

٧ - الباب الخامس : مكانة النبي ﷺ عند خالقه سبحانه وتعالى

٨ - الباب السادس : مظاهر حب وإجلال الصحابة رضي الله عنهم للنبي ﷺ .

٩ - الباب السابع : أيام من حياة النبي ﷺ .

١٠ - وضعت خاتمة مختصرة في نهاية الكتاب .

١١ - وضعت فهارس للكتاب تسهل البحث فيه بأسهل عبارة وطريقة :

فهرست كل ما يمكن أن يفهرس على النحو التالي :

١ - فهرس للآيات الكريمة .

٢ - فهرس لأطراف الأحاديث .

٣ - فهرس للأشعار .

٤ - فهرس للفوائد .

٥ - فهرس للموضوعات .

وأسأل اللّه - تعالى - أن ينفع به كل من نظر فيه ، أو قرأه أو استفاد به ، إنه على ذلك قدير

كتبه مؤلفه

أبو محمد/ أحمد عبد الفتاح الزواوي

بمحافظة الطائف

تمهيد

آثرت أن أضع بين يدي القارئ الكريم بعض الأصول والقواعد الهامة التي يدور عليها موضوع الكتاب وهي من المسلمات عند أهل الحق والأتباع فمن ذلك :

١- ذكر الآيات القرآنية في أمر النبوة والرسالة والشمائل على سبيل الإجمال

أولاً: تسلية الله عز وجل للنبي ﷺ:

أ - تسليته ﷺ بذكر استهزاء الكفار لمن قبله من الرسل :

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝٤﴾ [فاطر: ٤].

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝١٠﴾ [الأنعام: ١٠].

ب - تسليته ﷺ بذكر أسباب تولي الكفار وتكذيبهم :

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٣٣﴾

ج - تسليته ﷺ بتعذيب أعدائه والانتقام منهم :

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد: ١].

د - تسليته ﷺ بالنصر على عدوه في الدنيا :

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝٤٥﴾ [القمر: ٤٥].

ثانياً: الشفقة عليه ﷺ وتخفيف حزنه على عدم هداية الناس

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٨﴾ [فاطر: ٨].

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧﴾ [النحل: ١٢٧].

ثالثًا: أمره ﷺ بأعظم شرائع الدين

أ - بإخلاص العبادة لله:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝﴾ [الزمر: ٢].

ب - بإخلاص حياته ومماته ﷺ وكل شأنه لله:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝﴾ [الأنعام: ١٦٢].

ج - بالتوكل على الله:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝﴾ [التوبة: ١٢٩].

د - بشكر الله ﷻ على آلائه العظيمة:

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ۝﴾ [الزمر: ٦٦].

هـ - بالاعتصام بالوحي:

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝﴾ [الزخرف: ٤٣].

و - بالاقتداء بأفضل خَلْقِه:

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ ۝﴾ [الأنعام: ٩٠].

ز - بالصبر على الدعوة وأذى الأعداء:

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَـٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ۝﴾ [الأحقاف: ٣٥].

رابعًا: تزكيته ﷺ في نفسه وفي كل ما يخصه

أ - تزكيته ﷺ بالصدق:

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝﴾ [الزمر: ٣٣].

ب - تزكيته ﷺ بعظيم حسن الخلق:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [القلم: ٤].

ج - تزكية مَنْ علمه ﷺ:

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝﴾ [النجم: ٥].

د - تزكية من نزل عليه بالوحي

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣].

هـ - تزكية كتابه ﷺ:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[الإسراء: ٩].

و - تزكية سنته ﷺ:

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩].

ز - تزكية قلبه ﷺ:

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [البقرة: ٩٧].

ح - تزكية لسانه ﷺ:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾﴾ [النجم: ٣].

ط - تزكية بصره ﷺ:

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النجم: ١٧].

خامسا: نهيه ﷺ عن سوء الأخلاق واتباع الأهواء:

أ - نهيه ﷺ عن اتباع الهوى:

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الشورى: ١٥].

ب - نهيه ﷺ عن سماع الباطل وحضوره:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: ٦٨].

سادسا: أمر المؤمنين بتعظيمه ﷺ وحبه وإيثاره على كل من سواه

أ - بتوقيره وإجلاله ﷺ:

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠]، ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾ [الفتح: ٩].

ب - الوعيد لمن أحب شيئا من الدنيا أكثر منه ﷺ:

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٤﴾ [التوبة: ٢٤].

ج - إعلامهم أن إرضاءه ﷺ مقدم على إرضاء الناس:

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٦٢﴾ [التوبة: ٦٢].

د - إلصاق أقبح الصفات بمن رغب بنفسه عنه ﷺ:

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ۝٨١﴾ [التوبة: ٨١].

هـ - رفع الحرج عن ضعفاء المسلمين وفقرائهم شريطة النصح له ﷺ:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٩١﴾ [التوبة: ٩١].

ز - إرشادهم أن ملازمته ونصرته ﷺ سبب من أسباب توبة الله على العباد:

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١١٧﴾ [التوبة: ١١٧].

ح - تربية المسلمين على تقديمه ﷺ على النفس:

﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ۝٦﴾ [الأحزاب: ٦].

سابعا: تعظيم أمر طاعته ﷺ وتغليظ العقوبة على مخالفته ﷺ

أ - بجعلها طاعة لله عز وجل:

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۝٨٠﴾ [النساء: ٨٠].

ب - هي علامة حب العبد لله - تبارك وتعالى -:
﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

ج - بترتيب الجزاء العظيم على التمسك بها:
﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧١].

د - الوعد بمرافقة أفضل الخلق ومن يَلُونهم في جنات الفردوس لمن أطاعه ﷺ:
﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩].

هـ - التحذير الشديد من مخالفة أمره ﷺ:
﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

و - ذم من أعرض عن التحاكم إليه ﷺ:
﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [النور: ٤٨-٥٠].

ثامنًا: إثبات عموم رسالته ﷺ للثقلين (الإنس والجن)

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

تاسعًا: حفظ الله ﷻ ورعايته البالغة له ﷺ

أ - ذكر الرعاية الشاملة:
﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ [الطور: ٤٨].

ب - ضمان رزقه ﷺ:
﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٣٢].

ج - تأييده ﷺ بأحسن الحجج والبراهين:
﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: ٣٣].

د - تهيئة صدره ﷺ للقيام بأعباء الرسالة على أحسن وجه:
﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ [الشرح: ١].

عاشرًا: تربيته ﷺ على أحسن التربية وأقومها

أ - بالأمر بقيام الليل منذ بدء البعثة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝﴾ [المزمل: ١، ٢].

ب - أمره ﷺ بحسن معاملة الناس:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝﴾ [الأعراف: ١٩٩].

ج - تعليمه ﷺ حسن التأدب مع الله عز وجل:

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝﴾ [سبأ: ٥٠]

د - توجيهه ﷺ بطلب الاستزادة بما ينفعه:

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ۝﴾ [طه: ١١٤].

هـ - أمره ﷺ بالدوام على ذكر الله تعالى آناء الليل والنهار:

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ۝﴾ [طه: ١٣٠].

و - إرشاده ﷺ بإلانة الجانب والكلام تواضعًا لمن اتبعه:

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الشعراء: ٢١٥].

ز - أمره ﷺ بتعهد القرآن وتلاوته:

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ۝﴾ [العنكبوت: ٤٥].

ح - أمره ﷺ باتباع أفضل الملل:

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝﴾ [النحل: ١٢٣].

ط - أمره ﷺ بالإعراض عن الزائل الفاني:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝﴾ [الكهف: ٢٨].

ي - أمره ﷺ بمواصلة العبادة حتى انتهاء الأجل:

﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝﴾ [الحجر: ٩٩].

ك - تربيته ﷺ على الأخذ بعزائم الأمور:

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان: ٥٢].

ل - عدم أخذ الأجر على الدعوة:

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الشورى: ٢٣].

الحادي عشر: رفع ذكره ﷺ في الأولين والآخرين

أ - دعا ببعثته ﷺ إبراهيمُ الخليل:

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩].

ب - بشّر به ﷺ عيسى:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦].

ج - الثناء عليه ﷺ في التوراة والإنجيل:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

د - رفع ذكره المطلق ﷺ إلى يوم الدين:

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ [الشرح: ٤].

هـ - تقديم ذكره ﷺ على بقية الأنبياء مع أنه آخرهم بعثة:

﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: ١٦٣].

و - قَسَمُ الله سبحانه بحياته ﷺ:

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: ٧٢].

ز - نعته ﷺ باسمين من أسماء الله الحسنى:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨]

الثاني عشر: امتنان الله عز وجل على الأمة ببعثته ﷺ

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝١٦٤﴾ [آل عمران: ١٦٤].

الثالث عشر: ذكر منته عز وجل بفضله الواسع السابغ على النبي ﷺ

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ۝٨٧﴾ [الإسراء: ٨٧].

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ۝١١٣﴾ [النساء: ١١٣].

الرابع عشر: ذكر منّته ﷺ على أمته

﴿رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ۝١١﴾ [الطلاق: ١١]

الخامس عشر: إثبات سلامته ﷺ مما رماه به المشركون

أ - من الجنون:

﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ [القلم: ٢].

ب - من الشعر:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ۝٦٩﴾ [يس: ٦٩].

ج - من الكهانة:

﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢﴾ [الحاقة: ٤٢].

د - من السحر:

﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢﴾ [الذاريات: ٥٢].

السادس عشر: وعده ﷺ بالأجر الدائم الموصول

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝﴾ [القلم: ٣].

السابع عشر: توالي المنح عليه ﷺ في الدنيا والآخرة والتي منها

أ - مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر ﷺ:

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝﴾ [الفتح: ٢].

ب - الفتح المبين:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝﴾ [الفتح: ١].

ج - إظهار دينه ﷺ على كل الأديان:

﴿هُوَ الَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

د - المقام المحمود:

﴿وَمِنَ الَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

هـ - إعطاؤه ﷺ الكوثر:

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ الْكَوْثَرَ ۝﴾ [الكوثر: ١].

و - إرضاؤه ﷺ بتحويل القبلة:

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤].

ز - ضمان ترضيته ﷺ (في الدنيا والآخرة):

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝﴾ [الضحى: ٥].

الثامن عشر: تعظيم البلد الحرام بإقامته فيه ﷺ:

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ۝ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ۝﴾ [البلد: ١، ٢].

التاسع عشر: الثناء عليه ﷺ وعلى كل ما جاء به ودعا إليه:

أ - الثناء على شخصه الكريم ﷺ:

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ۝﴾ [النمل: ٧٩].

ب - الثناء على دعوته ﷺ:

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٣﴾ [المؤمنون: ٧٣].

ج - الثناء على هديه ﷺ:

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ۝٦٧﴾ [الحج: ٦٧].

العشرون: تعدد وسائل نصر الله عز وجل له ﷺ

أ - النصر بالرعب:

﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٥١﴾ [آل عمران: ١٥١].

ب - النصر بالملائكة الأطهار البررة:

﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝١٢٥﴾ [آل عمران: ١٢٥].

ج - النصر بإنزال السكينة على قلبه ﷺ

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢٦﴾ [التوبة: ٢٦].

د - النصر بتقليل العدو في عينيه ﷺ:

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤٣﴾ [الأنفال: ٤٣].

الحادي والعشرون: تعظيم أمر صلاته واستغفاره ﷺ للمؤمنين وبيان أن الزهد فيها سيمة المنافقين:

أ - صلاته ﷺ على المؤمنين طمأنينة للقلوب:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٠٣﴾ [التوبة: ١٠٣].

ب - الحث على الإنفاق طمعًا في صلاته ﷺ عليهم :

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ

ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٩﴾ ﴾ [التوبة: ٩٩].

ج - استغفاره ﷺ للمؤمنين سبب لتكفير الذنوب والخطايا:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ ﴾ [النساء: ٦٤].

د - ذم المنافقين على الزهد في صلاته ﷺ:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ وَرَأَيۡتَهُمۡ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [المنافقون: ٥].

الثاني والعشرون: كفاية الله - تعالى - له ﷺ من كل الوجوه

أ - كفايته ﷺ شرعًا:

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

ب - كفايته ﷺ قدرًا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة: ٦٧].

ج - كفايته ﷺ العامة الشاملة:

﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزمر: ٣٦]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٤].

الثالث والعشرون: إثبات عصمته ﷺ

أ - عصمته ﷺ في أمره كله (عاداته وعباداته):

﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ب - عصمته ﷺ في التبليغ عن ربه:

﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦].

ج - عصمته ﷺ عن الميل للباطل ولو يسيرًا:

﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٤].

الرابع والعشرون: ضمان نصره ﷺ ولو تخلى عنه الناس جميعًا:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠].

الخامس والعشرون: بعثته ﷺ رحمة عامة وخاصة:

أ - رحمة عامة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ب - رحمة خاصة: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١].

السادس والعشرون: تغليظ العذاب لمن آذاه أو حادّه أو استهزأ به ﷺ.

أ - لمن استهزأ به ﷺ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

ب - لمن آذاه ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧].

ج - لمن حادّه ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾﴾ [المجادلة: ٥].

السابع والعشرون: صلاة الله - تعالى - وملائكته عليه ﷺ وأمر المؤمنين بذلك

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

الثامن والعشرون: تأديب أصحابه في التعامل معه ﷺ من كل وجه

أ - عدم رفع الصوت في حضرته ﷺ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحجرات: ٢].

ب - عدم تسوية دعائه ﷺ بدعاء غيره:

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣].

ج - عدم التقديم بين يديه ﷺ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحجرات: ١].

د - وجوب إجابة دعائه ﷺ على الفور (ولو في الصلاة):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: ٢٤].

التاسع والعشرون: تعظيم نسائه ﷺ وأهل بيته.

أ - تحريم الزواج من نسائه ﷺ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب: ٥٣].

ب - لنسائه ﷺ ما للأمهات من التوقير والإجلال:

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾ [الأحزاب: ٦].

ج - تطهير أهل بيته ﷺ من كل سوء ودَنَس:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

د - نساء الأمة دون منزلة نسائه ﷺ:

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾ [الأحزاب: ٣٢].

هـ - تربيتهن على أحسن الأخلاق والأفعال والأقوال:

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

الثلاثون: ولاية الله عز وجل وأهل السماء وصالح أهل الأرض له ﷺ.

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [التحريم: ٤].

الواحد والثلاثون: تكليفه ﷺ بما لا يطيقه غيره.

﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ [النساء: ٨٤].

الثاني والثلاثون: رؤية الله عز وجل له ﷺ.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢١٩].

الثالث والثلاثون: تثبيت قلبه ﷺ.

أ - تثبيت القلب بإنزال القرآن مفرقًا بخلاف بقية الكتب:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

ب - تثبيت القلب بذكر قصص الأنبياء وسنن الله عز وجل في الذين خلوا من قبل:

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

* * *

الباب الأول

أهمية السنة النبوية ووجوب اتباعها

تقديم

في البداية لا بد لنا من تعريف مبسط لمعاني السنة عند علماء اللغة وعند أهل العلم بالحديث.

تعريف السنة في اللغة: عرف اللغويون السنة بتعريفات عدة منها:

الأول: السنة هي الطريقة الحميدة أو غيرها: قال - تعالى - : ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء: ٧٧].

وقال ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»[1]. غير أنها إذا أسندت للنبي ﷺ فإنها لا تكون إلا حسنة.

الثاني: هي القيام على الشيء ورعايته حسن الرعاية.

الثالث: وهي الأمة والأمم كسنة وسنن، قال - تعالى - : ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧].

الرابع: وتطلق على العُود إذا كان معوجا أو مستقيما.

الخامس: تطلق أيضا على القائد، وعلى الماء، وكل هذه المعاني ترجع من وجه أو آخر على المعنى الأول.

قال القنوجي[2] في (أبجد العلوم): السنة صنو القرآن الكريم وإنما فارقها لكونه للتحدي، وهي مشاركة له في التشريع، وقد تكفل الله بحفظ الكتاب، ويلزم منه حفظ السنة لكونها وُصِفَتْ بأنها وحي.

تعريف السنة في الاصطلاح: اصطلح أهل الحديث فيما بينهم على تعريف السنة والحديث والخبر، وكذلك الأصوليون ومن أهم التعريفات وأشملها التعريف التالي:

---

(١) مسلم، كتاب: الزكاة، باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة، برقم (١٠١٧)، من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) هو محمد صديق خان بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي، أبو الطيب: من رجال النهضة الإسلامية المجددين، ولد ونشأ في قنوج بالهند، وتعلم في دلهي، توفي عام (١٣٠٧هـ).

السُّنة كل ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خِلْقية أو خُلُقية حقيقة أو حكما حتى الحركات والسكنات في اليقظة والمنام .

وبعد هذا التعريف أستفتح الكتاب بالصلاة والسلام على خير الأنام نبينا وحبيبنا سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم حيث قال ربنا جل في علاه : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦] .

١ - للرسول ﷺ طاعة مستقلة:

إن من أعظم ما تقرب به المتقربون لربنا، جل وعلا، طاعة رسوله ﷺ وامتثال أوامره واجتناب نواهيه؛ فإن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله، ومعصية الرسول من معصية اللّه - تعالى.، وقد أمرنا ربنا - جل وعلا - في كتابه العزيز باتباعه حيث قال - تعالى : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧] .

أولاً: مدخل لفهم الآية:

أمر اللّه عَزَّوَجَلَّ عباده المؤمنين بطاعة النبي ﷺ وألزمهم بها في مواضع كثيرة من القرآن العظيم، وكذا على لسان نبيه ﷺ فيما أوحاه اللّه إليه من الحكمة، وهذا الأمر معلوم في الدين بالضرورة لا يَسَعُ أحدًا إنكارُه، ولكن الذي أحب أن يعلمه الناس في هذا الموضع، وهو مدخل لفهم عنوان الباب، أن الأمر بطاعة النبي ﷺ جاء في القرآن على ثلاثة أَضْرُبٍ:

الأول: أن طاعة الرسول ﷺ داخلة ضمنًا في طاعة اللّه عَزَّوَجَلَّ :

قال - تعالى.: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٢﴾ [آل عمران: ٣٢]، وتلك الطاعة تمثل الانقياد لما أمر به الرسول ﷺ من أوامر قد أمر بها اللّه عَزَّوَجَلَّ ، مثل عموم الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والحج والصوم وكذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

الثاني: وجوب طاعة الرسول ﷺ فيما شرعه اللّه من أمر ونهي وتحريم وحلال:

فقد جاءت السنة الشريفة لتبين مجمل الكتاب وتوضح ما اشتمل عليه من الأوامر، بل وتخصص عمومه، يدلنا على ذلك، قوله - تعالى.: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩]، فالسنة هي التي بينت أركان الصلاة وواجباتها وسننها ونواقضها ومكملاتها، وليس في القرآن شيء من ذلك، وكذلك فرائض الصيام والزكاة والحج، وقد تأتي السنة بما يخصص عموم القرآن، كقوله - تعالى -: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ

بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [النساء: ٢٤]، فجاءت السنة فخصصت عموم الآية بتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو المرأة وخالتها. وذلك في قوله ﷺ: «لا يجمع بين المرأة وعمتها، ولا بين المرأة وخالتها»(١).

الثالث: طاعة مستقلة للنبي ﷺ في أوامر ونواهٍ لم تُذكر في القرآن:

وهي أوامر النبي ﷺ المستقلة - أي التي ليس فيها نص من القرآن الكريم - أكثر من أن تعد أو تحصى، ومنها على سبيل المثال في الصلوات: تشريع صلاة الاستسقاء والجنازة وصلاة العيدين وسجود الشكر، وفي الزكوات: سن زكاة الفطر، وفيما يحرم لبسه: تحريم الذهب والفضة على الرجال، وفيما يتعلق بآداب الأكل والشرب وتحريم الأكل في آنية الذهب والفضة وسنة الأكل والشرب قاعدًا وحمد الله بعد الأكل، كما أن في السنة: الأمر بحضور الجماعات وتغسيل الميت وتكفينه ودفنه، ودليل وجوب طاعة النبي ﷺ في مثل تلك الأوامر والنواهي هو قوله - تعالى -: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور: ٥٦]، مع آية الباب الصريحة الواضحة: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

وأجمل وأبلغ ما يؤكد أن المراد بالآية أن للنبي ﷺ من الأوامر والنواهي التى ليس لها ذِكْرٌ في كتاب الله ﷻ، وأننا ملزمون بطاعة النبي ﷺ فيها كالتزامنا بطاعة الله سواء بسواء، ما رواه عَبْدُ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُوتَشِمَاتِ، وَالْمُتَنَمِّصَاتِ، وَالْمُتَفَلِّجَاتِ(٢) لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللَّهِ». فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا: أُمُّ يَعْقُوبَ، فَجَاءَتْ فَقَالَتْ: إِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ لَعَنْتَ كَيْتَ وَكَيْتَ. فَقَالَ: وَمَا لِي لا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَنْ هُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟! فَقَالَتْ: لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ اللَّوْحَيْنِ فَمَا وَجَدْتُ فِيهِ مَا تَقُولُ. قَالَ: لَئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ، أَمَا قَرَأْتِ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾؟ قَالَتْ: بَلَى. قَالَ: فَإِنَّهُ قَدْ نَهَى عَنْهُ. قَالَتْ: فَإِنِّي أَرَى أَهْلَكَ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب: لا تنكح المرأة على عمتها، برقم (٥١٠٩)، ومسلم، كتاب النكاح، باب: تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، برقم (١٤٠٨).

(٢) الواشمات: جمع واشمة، وهي التي تقوم بعمل الوشم وهو أثر وخز الجلد بالإبر.
المؤتشمات: جمع موتشمة أو مستوشمة وهي التي تطلب لنفسها الوشم.
المتنمصات: جمع متنمصة وهي التي تطلب إزالة الشعر من الوجه أو الحاجب.
المتفلجات: المفرقات بين الأسنان طلبًا للجمال.

يَفْعَلُونَهُ. قَالَ: فَاذْهَبِي فَانْظُرِي، فَذَهَبَتْ فَنَظَرَتْ، فَلَمْ تَرَ مِنْ حَاجَتِهَا شيئا. فَقَالَ: لَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ مَا جَامَعْتُهَا [١].

ثانيا: بعض أقوال العلماء - رحمهم الله - في تفسير الآية: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾:

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله -: (أي مهما أمركم به فافعلوه ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمركم بخير وإنما ينهى عن شر)[٢]، ونقل القرطبي عن المهدوي أنه قال في تفسير الآية: (هذا يوجب أن كل ما أمر به النبي ﷺ أَمْرٌ من الله - تعالى -، والآية وإن كانت في الغنائم فجميع أوامره ﷺ ونواهيه دَخَل فيها)[٣]، وقال الشيخ السعدي - رحمه الله -: (وهذا شامل لأصول الدين وفروعه، ظاهره وباطنه، وأن ما جاء به الرسول ﷺ يتعين على العباد الأخذ به واتباعه، ولا تحل مخالفته، وأن نص الرسول ﷺ على حكم الشيء كنص الله - تعالى -، لا رخصة لأحد ولا عذر له في تركه، ولا يجوز تقديم قول أحد على قوله ﷺ)[٤].

بعض فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: الأصل في أوامر النبي ﷺ الوجوب، إلا ما دل دليل على أن الأمر فيه للاستحباب، كما أن الأصل في نهي النبي ﷺ التحريم إلا ما دل الدليل على أن النهي فيه للكراهة، ودليله أن أوامر الله - سبحانه وتعالى - في القرآن للوجوب والآية تقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾.

الفائدة الثانية: الزعم بأن اتباع أوامر ونواهي القرآن فحسب، واعتقاد البعض أن القرآن يكفيهم هو ضلال، وردٌّ للقرآن الذي أمرنا صراحة بطاعة النبي ﷺ في كل ما أمر ونهى، ولولا أن للنبي ﷺ طاعة مستقلة، وأنه ﷺ يأمر وينهى بأمور لم يرد ذكرها في القرآن، ما كان لهذه الآية الكريمة من معنى، ويؤكد ذلك ما رواه البخاري: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ؛ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[٥].

---

(١) البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾، برقم (٤٨٨٦)، ومسلم، كتاب: اللباس والزينة، باب: تحريم فعل الواصلة والمستوصلة والواشمة، برقم (٢١٢٥).
(٢) انظر تفسير القرآن العظيم، (٤/ ٣٣٧).
(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ١٧).
(٤) انظر تيسير الكريم الرحمن، (٨٥١).
(٥) البخاري، كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ، برقم (٧٢٨٨).

الفائدة الثالثة: عظيم اعتناء اللّٰه - سبحانه وتعالى - لسنة النبي ﷺ مع حث المسلمين أبلغ الحث على اتباعها، وقد ظهر هذا الاعتناء جليًا واضحًا على أحسن ما يكون في الآية الكريمة، وقد جاءت مظاهر هذا الاعتناء على النحو التالي:

١ - جاءت ألفاظ الآية الكريمة مطلقة بوجوب اتباع السنة، فقال - تعالى -: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾. فلم تقيد الآية وجوب اتباع أمر دون أمر أو حال دون آخر، ولا زمان دون زمان، فَعُلِمَ من ذلك وجوب الاتباع على كل حال وفي كل زمان وفي كل الأمور.

٢ - لم تقتصر الآية على عموم الأمر بالاتباع مثل قوله - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، ولكن جاء الأمر مفصلاً بوجوب الأخذ بما وردت به السنة ووجوب الانتهاء عما نهت عنه، فقال - تعالى -: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾.

٣ - أمرت الآية الكريمة المؤمنين بتقوى اللّٰه عز وجل بعد الأمر باتباع كل ما ورد بالسنة واتقوا الله، للدلالة على أن اتباع السنة علامة على تقوى الله، فالتقوى واتباع السنة أمران مطردان فكلما زادت تقوى المسلم كلما كان أشد اتباعا للسنة وأكثر تمسكا بها، كما علمتنا الآية ومِنْ ثَمَّ فَمَنِ ادعى تقوى اللّٰه عز وجل وهو مفرط في اتباع السنة فإنه كاذب في دعواه.

٤ - ختمت الآية بالوعيد الشديد لمن رغب عن سنة النبي ﷺ أو جفاها، بذكر صفة من أعظم صفات اللّٰه التي ترد لتخويف العباد، وهو أنه - تبارك وتعالى - شديد العقاب، ولا شك أن هذا التهديد موجه لمن فرط في السنة أو رغب عنها.

الفائدة الرابعة: استحالة وجود تعارض بين أوامر اللّٰه عز وجل في كتابه الكريم وبين أوامر النبي ﷺ في السنة الشريفة الصحيحة، لأن اللّٰه عز وجل أمرنا بطاعته وطاعة رسوله ﷺ ولو قُدِّرَ وجودُ تعارض بين الكتاب والسنة لاستلزم الأمر أن اللّٰه عز وجل قد أمرنا بالشيء ونقيضه، وهذا يستحيل في الشرع الحكيم الذي أنزله فاطر السماوات والأرض، ويتفرع عليه أن الذي ادعى وجود التعارض لم يقدح في النبي ﷺ إنما قدح في المولى - سبحانه وتعالى - كما بينت، فما كان من تعارض في ظاهر اللفظ فقد أزال العلماء هذا التعارض، بإثبات النسخ أو حمل المطلق على المقيد، أو العام على الخاص، وقد قال الإمام الشافعي - رحمه اللّٰه - تعالى -: (على أهل العلم طلب الدلالة من كتاب الله، فما لم يجدوه نصًا في كتاب الله، طلبوه في سنة رسول الله، فإن وجدوه فما قبلوا عن رسول اللّٰه

فَعَنِ اللهِ قَبِلُوه، بما افترض من طاعته)(١).

الفائدة الخامسة: دلت الآية الكريمة دلالة مباشرة على عصمة النبي ﷺ في كل ما فعله وكل ما أمر به أو نهى عنه، ووجه ذلك أن اللَّه عَزَّوَجَلَّ ما كان ليأمرنا أمرًا مطلقًا باتباع كل ما جاء بالسنة، إلا لعلمه بعصمة صاحب هذه السنة ﷺ في جده وضحكه، في رضاه وغضبه، في صحته ومرضه، بل في يقظته ومنامه وفي حِلِّه وترحاله، فمن شكك في تلك العصمة فقد طعن في حكمة اللَّه عَزَّوَجَلَّ.

٢ - الاتباع دليل محبة اللَّه وسبب مغفرة الذنوب:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]. قال الشيخ السعدي - رحمه اللَّه - في تفسير الآية الكريمة كلامًا جامعًا مانعًا، حيث قال ما نصه: (هذه الآية فيها وجوب محبة الله، وعلاماتها، ونتيجتها، وثمراتها، فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾، أي: ادعيتم هذه المرتبة العالية، والرتبة التي ليس فوقها رتبة فلا يكفي فيها مجرد الدعوى، بل لا بد من الصدق فيها، وعلامة الصدق اتباع رسوله ﷺ في جميع أحواله، في أقواله وأفعاله، في أصول الدين وفروعه، في الظاهر والباطن، فمن اتبع الرسول دل على صدق دعواه محبة اللَّه - تعالى -، وأحبه اللَّه وغفر له ذنبه، ورحمه وسدده في جميع حركاته وسكناته، ومن لم يتبع الرسول فليس محبًا لله - تعالى -؛ لأن محبة اللَّه توجب له اتباع رسوله فما لم يوجد ذلك دل على عدمها وأنه كاذب إن ادعاها، مع أنها على تقدير وجودها غير نافعة بدون شرطها، وبهذه الآية يوزن جميع الخلق، فعلى حسب حظهم من اتباع الرسول يكون إيمانهم وحبهم لله وما نقص من ذلك نقص) (٢).

بعض فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن اللَّه عَزَّوَجَلَّ يُحِبُّ ويُحَبُّ، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافًا لمن أنكر أن اللَّه عَزَّوَجَلَّ يُحب، لحجج عقلية، دفعوا بها النصوص الصريحة الصحيحة، ومن تلك الحجج أن الحب فيه ليونة، واللَّه عَزَّوَجَلَّ منزه عن ذلك، وأن الحب يكون من اثنين من جنس واحد، ويؤولون الحب بأنه إرادة الثواب(٣)، وهذا المذهب خاطئ، من عدة وجوه:

---

(١) انظر «الرسالة» للشافعي، (١/ ١٣٨).
(٢) تيسير الكريم المنان (ص ١٢٨)
(٣) قال بذلك الإمام النووي على صحيح مسلم، (٦/ ٩٥)، وانظر «فيض القدير»، (١/ ١٧٩).

الوجه الأول: نقول كيف تقيسون صفات اللَّه عَزَّ وَجَلَّ على صفات البشر؟! فتقولون إن حب اللَّه عَزَّ وَجَلَّ إن حدث منه الحب، يقتضي أن يكون عنده، مثل ما عند البشر من رقة وليونة، واللَّه - تعالى - يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

الوجه الثاني: إن إرادة الثواب ليست هي الحب، فمن ادعى اشتراكهما في المعنى، فقد عارض اللغة التي نزل بها القرآن الكريم، فمعلوم أن الثواب يأتي بعد الرضى والحب.

الوجه الثالث: هل يعقل أن اللَّه - سبحانه وتعالى - يأتي يوم القيامة، يسأل الناس لِمَ أثبتم لي صفة الحب، وهي صفة نقص لا تليق بجلالي؟! مع أنه سبحانه أثبت لنفسه تلك الصفة في كتابه وأثبتها له رسوله ﷺ في سننه، وعليه فإن المذهب الصحيح، هو مذهب أهل السنة والجماعة، حيث لا اجتهاد مع النص، وقد أثبت اللَّه عَزَّ وَجَلَّ لنفسه صفةالحب في آيات كثيرة، منها:

قوله -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وتأمل كيف بدأ اللَّه المؤمنين بالحب، فقال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، كما بدأهم بالتوبة، فقال - تعالى -: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨]، بل بدأهم بالرضى فقال - عز من قائل -: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا﴾ [المائدة: ١١٩].

وعلى المسلم الحريص على دينه، ألا يقدم عقلاً على نصٍّ في جميع أمور الدين، سواء كانت مسائل أصولية أو فرعية، وما تفرقت الأمة إلا بعد تقديم العقل على النقل، وإذا كان اللَّه عَزَّ وَجَلَّ قد تعبدنا بالعقل، فلماذا أرسل الرسل، وأنزل الكتب، والحاصل أن الآية أثبتت أن اللَّه يُحَب لقوله - تعالى - ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾، وأنه يُحِب قال - تعالى -: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾، وكيف تنكرون أن اللَّه يُحب وقد أثبت ما هو أعظم من المحبة، بل منتهى المحبة وهو الخلة، لإبراهيم ومحمد - صلى اللَّه عليهما وسلم تسليمًا كثيرًا، قال - تعالى -: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وسيأتي ذلك إن شاء اللَّه مفصلاً عند الكلام عن الخلة.

الفائدة الثانية: لما ادعى قوم حب اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، وكان لكل دعوى دليل لإثبات صدقها، اشترط اللَّه لصدق هذه الدعوى -بل أقول: والمثوبة عليها- متابعة الرسول ﷺ فإن كانت دعوتهم صادقة اتبعوه، وإلا حادوا عن الاتباع، قال الحافظ ابن كثير - رحمه اللَّه - تعالى -: (هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة اللَّه وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي، والدين النبوي

في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، كما ثبت في الصحيح عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ»[1] ولهذا قال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[2] . وفي الآية أن الشرط الوحيد لإثبات حب العبد لله، وما يترتب عليه من حب الله، هو الاتباع، فإن قال قائل: كيف يكون هو الشرط الوحيد، فالجواب من جهتين:

الجهة الأولى: أن النص الذي معنا هو النص الوحيد، الذي اشترط المتابعة لنيل حب اللَّه عَزَّوَجَلَّ ، ولو كان هناك شرط آخر، أو سبيل آخر للفوز بحب اللَّه لبينه - سبحانه وتعالى- .

الجهة الثانية: أن كل عمل يحب اللَّه عامله، مثل إقامة الصلاة وبقية فروع الشريعة، لن يتقبله اللَّه عَزَّوَجَلَّ إلا بمتابعة النبي ﷺ بل المتابعة شرط لصحة هذا العمل، الذي يرتضيه اللَّه عَزَّوَجَلَّ ، ويرتب عليه الجزاء، ومن ذلك يتأكد لنا أن المتابعة هي الشرط الوحيد، لحب اللَّه عَزَّوَجَلَّ ، فلا غرابة في ذلك، وكفى ذلك تشريفًا لسنته ﷺ وتعظيمًا لأمر متابعته، وقد فهم الصحابة رضي الله عنهم ذلك، فلم يألوا جهدًا في متابعته ﷺ في كل ما أمر ونهى، بل تجاوزت المتابعة الأمر والنهي، فشملت عاداته التي قد لا تتصل بالشرع، كما ذكرتُ ذلك في مواضع كثيرة.

الفائدة الثالثة: يؤخذ من الآية الكريمة، أنه كلما كان الإنسان صادقًا في حب اللَّه عَزَّوَجَلَّ ، كانت المتابعة عليه أسهل وأخف والعكس بالعكس.

الفائدة الرابعة: إذا كان شرفًا لك أن تُحب اللَّه عَزَّوَجَلَّ ، فإن الله يكافئك على هذا الحب (إذا اتبعت) بما هو أعظم من حُبك، ألا وهو أن يُحبك الله، وشتان بين الأمرين، وكما قالوا: ليس الشأن أن تُحِب ولكن الشأن أن تُحَب، وهل في الوجود أعظم مِنْ أن يحبك اللَّه عَزَّوَجَلَّ ، وهل يعذب اللَّه أحدًا يحبه، فتأمل ما يترتب على هذه المتابعة. على وما يترتب على المخالفة الظاهرة والباطنة.

الفائدة الخامسة: كما أن الناس يختلفون في متابعة النبي ﷺ فكذلك يختلف حب اللَّه لهم، فكلما قوي الاتباع قوى الحب، وكلما ضعف الاتباع ضعف الحب؛ لأن القاعدة: (أنه إذا ارتبط الحكم بوصف معين، قوى الحكم كلما قوى الوصف)، وهذا كثير في القرآن

---

(١) و(٢) انظر تفسير القرآن العظيم، (١/ ٣٥٩)، والحديث رواه مسلم، كتاب: الأقضية، باب: نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، برقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

والسنة، ومثاله قوله - تعالى -: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝﴾ [البقرة: ٢، ٣]، فكلما قوي إيمان العبد بالغيب، وكان على الصلاة محافظًا و للزكاة فاعلاً، كان له نصيبٌ أكثر من هدي القرآن، ورأى في القرآن من الآيات والهدايات ما لم ير غيره، وهذا مُشاهَد، وكلما كثرت الشبهات في قلب الإنسان، وانقاد لها ولم يجاهدها، بل دعا إليها، كان انتفاعه بهدايات القرآن أقل، حتى يصل إلى عدم الانتفاع بالكلية، بل يكون سماعه القرآن وبالاً عليه، كما في قوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]، فلا يرتاب أحد أن أناسًا يسمعون القرآن فلا يؤمنون، بل يجادلون ويخاصمون ويجدون في كل آية شبهة، والله بعدله يجازيهم على ظلمهم لأنفسهم، وتكبرهم على الحق وتكذيبهم لأنبيائه، فيجعل على قلوبهم أغطية، وفي آذانهم صممًا، فلا تتدبر القلوب موعظة، ولا تسمع الآذان نصحًا، فسبحان الذي بيده قلوب العباد يقلبها كيف يشاء، يسمع أقوام ذكر الله عز وجل، فَتَوْجَل قلوبهم، وتخشع أبدانهم وتدمع عيونهم، قال - تعالى-: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝﴾ [الأنفال: ٢]، ويسمع آخرون ذكر الله عز وجل، الذي تخشع له الجبال الصم، فتشمئز قلوبهم، قال - تعالى-: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝﴾ [الزمر: ٤٥].

الفائدة السادسة: إن ادعى أحد أمامك، مهما كانت منزلته بين الناس، أنه يحب الله عز وجل، فلا تغتر بهذه الدعوى، إلا إذا رأيت منه حسن الاتباع، ولو مشى على الماء، وطار في السماء، كما قال الإمام الشافعي - رحمه الله - تعالى - ويبقى بعد ذلك الإخلاص في العمل، وهذا لا يعلمه إلا الله عز وجل، فوالله رأيت بعيني، رجلاً يدعي أصحابه أن له من الكرامات ما لا يعد ولا يحصى، ويحفونه بكل أنواع الإجلال والإعظام، حتى إنهم أنكروا عليَّ كيف أسلم عليه ولا أقبل يديه، وأنا لم أره من قبل، فلما سألته لماذا لا تَحُفّ شاربك، وقد تعدى شفتيك، ولماذا لا تقص أظافرك مع اتساخها الظاهر، ذكر لي أنها مقامات، فلنا نحن العوام مثل هذه الأمور الشكلية كما يعتقد، أما أصحاب الكرامات، فقد انشغلوا بما هو أعظم من ذلك، فبينت له ولهم، أن النبي ﷺ صاحب المقام الشريف، هو الذي أمر بذلك، وأبلغنا أنها من سنن الفطرة، ويأثم المسلم بتركها، وذكرت له في معرض الجدال آية الباب، وأنها حجة عليه، فكاد أصحابه في المسجد أن يوقعوا بي، لولا

أنه أمرهم بالترفق بي بحجة جهلي بمقاماتهم، وما أنعم اللَّه عليهم من العلوم والفهوم.

وأقول: إن الذي شغلهم عن الاتباع، في أمر مثل سنن الفطرة، هو الشيطان، واتباع الهوى، فإنه مصدر كل ردى. وبلوى كل من غوى، فسبحان الذي بيَّنَ طريق الهدى، فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾. فليس بعد ذلك البيان بيانٌ.

الفائدة السابعة: لم يَعِدِ اللَّه عَزَّوَجَلَّ المتبعين للسنة بمحبته فقط، وإن كان فيها الكفاية والوقاية، بل زاد على ذلك مغفرة الذنوب ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، فماذا بقى، فسينال العبد المطلوب بحب اللَّه إياه، ويأمن من المرهوب بمغفرة الذنوب، فتأمل كيف كان في الاتباع كل خير، وفي الابتداع كل شر، ومن المهم أن نشير هنا إلى أن المسلم قد يجد حلاوة، عند القيام ببدعة، خاصة فيما يتعلق بالذكر الممنوع شرعًا، الذي يحتوي على ألفاظ وحركات لم ترد في السنة، يكون فيها الرجل أشبه بالسكران، ويقولون: إن هذا هو الوجد، الذي لا تشعر به، إلا بمثل هذا الذكر، والذي قد يصاحبه طبل ومزمار، فكيف تنكرون هذا الذكر؟ مع عظيم ما يشعر به المتلبس من روحانيات وقرب من اللَّه عَزَّوَجَلَّ، يسميها البعض الجذب والفناء، وما أشبه ذلك من الألفاظ التي لم ترد في الآيات المنزلة، ولا في السنة المطهرة، والإجابة على كل هذه الأسئلة سهلة، بعون اللَّه - تعالى-، الذي أبان كل حق و أبطل كل باطل.

فأقول: إنَّ ما تفعلونه ليس عليه دليل من سنة النبي ﷺ التي أُمِرتم باتباعها، وجعل اللَّه عَزَّوَجَلَّ اتباعها شرطًا في محبته. فإن قالوا: هي من السنة.

قلت لهم: قال - سبحانه وتعالى - لكل مُبْطِل أو مُدَّعٍ: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١] وحيث لا دليل على هذا الذكر، علم كذبكم على النبي ﷺ.

فإن قالوا: لم تأتِ به السنة، ولكن فيه خير كثير، وما المانع إن كان هذا يقربنا إلى اللَّه زلفى.

قلت: قولكم: لم تأتِ به السنة، حجة عليكم لأن النبي ﷺ قال في الحديث المتفق عليه: عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ»[(١)]. أي مردود على صاحبه، لن يقبله اللَّه عَزَّوَجَلَّ.

أما قولكم: فيه خير كثير، فهذا طعن في نبيكم ﷺ فكيف يكون خيرًا ولم يدلنا عليه ﷺ قبل موته؟! فإن كان يعلم أنه خير ولم يُبَلِّغه، فقد اتهمتموه بعدم البلاغ، وكتمان

---

(١) سبق تخريجه، انظر ما قبله.

الوحي، فقد روى مسلم عن عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قالت: (ثَلَاثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ[(١)]، وفيه: مَنْ زَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَتَمَ شيئا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾، وفيه: لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ كَاتِمًا شيئا مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ لَكَتَمَ هَذِهِ الآية ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾)[(٢)]. وإن لم يكن ﷺ يعلم أنه خير، فقد اتهمتموه بجهل ما يحبه الله ويرضاه، وحاشاه ذلك، والمتبعون لسنته ينزهون النبي ﷺ عن كل ما ذكر.

- **وإن ادعيتم**: أن هذا يقربكم إلى اللَّه زلفى.

- **قلت لكم**: كيف تدعون أن شيئا ليس في الكتاب والسنة يقرب إلى اللَّه ويرضى به، وقد أحكم اللَّه أمر الدين، وأكمل الشرع، وامتن على عباده المؤمنين بذلك فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فأمْرُكم لا يخرج عن قولين: إما أن تقولوا: إن الذى تفعلونه دينًا، فبذلك تكونون قد كذبتم القرآن، لقوله - سبحانه وتعالى -: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.

وإما أن تقولوا: إن هذا ليس بدين.

- **فأقول لكم**: أتستهزئون باللَّه ﷻ! تعبدونه بما لم يشرعه لكم.

- **أما قولكم**: إننا نشعر بلذة وقرب، لا نعهده فيما سوى ذلك من أذكار.

- **فأقول لكم**: إنكم أثبتم لأنفسكم مقامات وأحوالاً، لم تثبت في السنة لأصحاب النبي ﷺ وهم أفضل من سجد وركع لله ﷻ، كما أن هذه المقامات والأحوال من تلبيس وتزيين الشيطان، قال - تعالى -: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]، وقال - تعالى -: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣]. وقطعنا أن ذلك التزيين من الشيطان، لأننا أثبتنا أن اللَّه لا يرضى بذلك الفعل، ولا يثيب عليه، وإن لم يكن هذا من البدع ومن المحدثات في الدين، فما البدعة التي حذرنا نبينا ﷺ منها؟!. وأي فائدة من هذه المقامات والأحوال إن كنا لن نثاب عليها؟!، وهذا التفصيل ينسحب على كل بدعة، فعلى المسلم أن يسأل عن كل أمر، قبل أن يأتيه، إن كان من السنة أو ليس

(١) الفرية: الكذب.

(٢) مسلم، كتاب: الإيمان، باب: معنى قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣]، برقم (١٧٧).

منها، فقد حكم اللّه على كل من اتبع بالهدى، وعلى كل من ابتدع بالردى.

الفائدة الثامنة: ما ثواب حب اللّه للعبد في الدنيا قبل الآخرة؟ أقول: إن الثواب عظيم، لما حدَّث به أبو هُرَيْـرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبَّهُ. قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ. فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ. قَالَ: ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلاَنًا فَأَبْغِضْهُ. قَالَ: فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ. ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلاَنًا فَأَبْغِضُوهُ. قَالَ: فَيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الأَرْضِ»(١).

الفائدة التاسعة: قد يسأل سائل: هل في آية الباب اشتراطُ حبِّ المسلم للنبي ﷺ لنيل حب اللّه عَزَّ وَجَلَّ، أم يكفي الاتباع وحده؟ أقول: يجب حب النبي ﷺ لأن الآية اشترطت المتابعة، وهي الطاعة الكاملة، في كل ما أمر النبي ﷺ ونهى، فيدخل في ذلك حبه أكثر من النفس، لما ورد عَنْ عبداللّه بن هشام بن زهرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: وَاللَّهِ لأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلاَّ نَفْسِي. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ عِنْدَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ». قَالَ عُمَرُ: فَلأَنْتَ الآنَ وَاللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الآنَ يَا عُمَرُ»(٢). وفي رواية عند مسلم، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»(٣).

٣ - ليس للمسلم اختيار في اتباع سنته ﷺ ومن خالفها فقد ضل ضلالاً مبينًا:

ونحن في عصر يتشدق الناس جميعا، إلا من رحم ربي، بمتابعة الغرب وعاداتهم وتقاليدهم، وصدق الصادق المصدوق ﷺ حيث يقول في الحديث الذي يرويه أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ». قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ؟!»(٤). وتركوا هدي

---

(١) البخاري مختصرًا، كتاب: بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، برقم (٣٢٠٩)، ومسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: إذا أحب الله عبدًا حببه إلى عباده، برقم (٢٦٣٧).

(٢) البخاري، كتاب: الأيمان والنذور، باب: كيف كانت يمين النبي ﷺ، برقم (٦٦٣٢).

(٣) مسلم، كتاب: الإيمان، باب: وجوب محبة رسول الله ﷺ، برقم (٤٤).

(٤) البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، برقم (٣٤٥٦)، ومسلم، كتاب: العلم، باب: اتباع سنن اليهود والنصارى، برقم (٢٦٦٩).

نبيهم، وهذا من شدة الجفاء لسنة النبي ﷺ، فتحولت عباداتهم عادات واستشكلت عليهم أمور دينهم فينكرون منها أكثر مما يعرفون والأدهى والأطم أنهم يقارنون أقوالهم بأقوال الرسول ﷺ ويعرضون أعمالهم على الغرب قبل عرضها على الهدي النبوي الشريف وما ذلك إلا جزاء تركهم وبُعْدهم عن سنة النبي ﷺ وقد قال - تعالى - : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦].

أولاً: سبب نزول الآية الكريمة:

قال القرطبي - رحمه الله - : (روى قتادة وابن عباس ومجاهد في سبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ خطب زينب بنت جحش وكانت بنت عمته فظنت أن الخطبة لنفسه فلما تبين أنه يريدها لزيد كرهت وأبت وامتنعت فنزلت الآية فأذعنت زينب حينئذ وتزوجته)[1].

وهذا ذكره الحافظ ابن كثير والشيخ السعدي - رحمهما الله - وغيرهما من المفسرين.

ثانياً: بعض فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: عَظَّمَتِ الآية وجوب الامتثال والانصياع لكل ما قضى الله ورسوله ﷺ وأكدت الآية من أولها إلى آخرها هذا المعنى على نسق بديع وبيان ذلك على النحو التالي:

١ - بدأت الآية بقوله - تعالى - : ﴿وَمَا كَانَ﴾ قال الإمام القرطبي: (معناها الحظر والمنع فتجيء لحظر الشيء والحكم بأنه لا يكون، وربما كان امتناع ذلك الشيء عقلا، كقوله - تعالى - : ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ [النمل: ٦٠]، وربما كان للعلم بامتناعه شرعًا، كقوله - تعالى - : ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَٰبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٩])[2].

وأقول: إنما تأتي هذه الصيغة لتأكيد شدة الانتفاء واستحالة حدوث الأمر لمعارضته الشرع أو العقل أو الاثنين معًا، كقوله - تعالى - : ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ [مريم: ٣٥]. وتصدير آية الباب بقوله - تعالى - : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ يفيد استبعاد مخالفة أمر الله ورسوله لمن اتصف بالإيمان سواء كان رجلا أم امرأة.

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، (١٤/١٨٦).
(٢) انظر المصدر السابق، (١٤/١٨٧).

٢ - جاءت الآية الكريمة بلفظ: ﴿أَمْرًا﴾، نكرة للتقليل، لتفيد أي أمر وإن صغر، فبذلك أوجبت الآية الطاعة في كل الأمور.

٣ - نفت الآية الكريمة عن كل ذَكَرٍ أو أنثى قد لبس لباس الإيمان أن يكون له حق الاختيار في أوامر اللَّه ورسوله ﷺ فبينت الآية الكريمة أن العقل ليس له مجال في تلك الأوامر، من حيث اختيار الفعل وعدمه، أي أن العقل لم يُخْلق لمثل هذا، إنما خلق لتدبر الأمر من حيث كيفية تنفيذه على الهيئة التي يرضاها اللَّه ورسوله.

وأهمس في أذن العقلانيين فأقول لهم: إذا كان العقل لم يخلق لمثل هذا الاختيار (وهو أفعل أو لا أفعل) فمن باب أولى لم يخلق للحكم على شرع اللَّه الحكيم الخبير (أصالح هو أم لا) حاشا لله - سبحانه وتعالى -.

٤ - نسبت الآية الكريمة الأمر الذي ليس للمؤمنين اختيار فيه إلى أنفسهم فقالت: ﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾؛ لتدلل على أن المؤمن ليس له اختيار في طاعة اللَّه ورسوله، وعليه أن ينطرح بين يدي ربه يصرف له أموره ويدبر له شئونه، ليس في شئون العبادات وحدها ولكن في أخص شئونه المنسوبة إليه، وأفسر ذلك فأقول: ليس للمؤمن حق أن يقول: هذا أمر خاص بي أفعل فيه ما أشاء إذا كان لله ورسوله في هذا الأمر حكم وأمر، وهل هناك أمر أَخَصُّ من زواج المرأة، التي نزلت الآية بشأنها؟!.

٥ - من أبلغ مظاهر تعظيم الآية لطاعة اللَّه ورسوله ﷺ ما جاء في ختامها وهي قوله - تعالى -: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾، فهو حكم إلهي على كل من أبى طاعة اللَّه ورسوله في أموره العامة والخاصة وفي عاداته وعباداته بالضلال في الدنيا والآخرة، وهذا الضلال من شناعته وعظم أمره أنه ضلال بَيِّنٌ ظاهر لا يخفى على أحد، ولكن الشيطان يوحي لأوليائه أنهم على الحق ويزين لهم ذلك بينما هم في ضلال مبين.

وأختم هذه الفائدة بكلام نفيس للشيخ السعدي - رحمه اللَّه - يُجْمِل ما قلت ويؤكده، قال رحمه الله: (لا ينبغي ولا يليق ممن اتصف بالإيمان، إلا الإسراع في مرضاة اللَّه ورسوله، والهرب من سخط اللَّه ورسوله، وامتثال أمرهما، واجتناب نهيهما، فلا يليق بمؤمن ولا مؤمنة: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ من الأمور، وحَكَمَا به وألْزَمَا به ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾، أي: الخيار هل يفعلونه أم لا؟ بل يعلم المؤمن والمؤمنة، أن الرسول أولى به من نفسه، فلا يجعل بعض أهواء نفسه حجابًا بينه وبين أمر اللَّه ورسوله ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾، أي: بينًا، لأنه ترك الصراط المستقيم الموصلة إلى كرامة الله، إلى

غيرها من الطرق الموصلة للعذاب الأليم، فذكر أولاً السبب الموجب لعدم معارضته أمْرَ اللَّه ورسوله، وهو الإيمان، ثم ذكر المانع من ذلك، وهو التخويف بالضلال الدال على العقوبة والنكال)[١].

الفائدة الثانية: مدى البلاء والاختبار الذي تعرض له الصحابة ﷺ في طريقهم إلى اللَّه ورسوله، فهذه امرأة حسيبة شريفة في قومها تؤمر أن تتزوج من رجل كان بالأمس عبدًا وهو الصحابي الجليل زيد بن حارثة ﷺ وينزل بشأنها قرآن يخبرها أنه ليس لها اختيار في رفض أو قبول مثل هذا الزواج، وهي لا تعرف الحكمة الإلهية من هذا الزواج، ولكن انظر أخي القارئ بركة طاعة الصحابية الجليلة أم المؤمنين زينب بنت جحش لأمر اللَّه ورسوله كان عاقبتها الحسنى في الدنيا والآخرة إن شاء الله، زَوَّجَهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ من نبيه وخليله ﷺ بقرآن يُتْلى.

٤ - من اتبع سنته ﷺ دخل الجنة:

بيان معنى الاتباع في اللغة:

الاتباع مصدر، واتبع الشيء: سار في أثره وتلاه وله معانٍ كثيرة تدور حول التطلب والاقتداء والاقتفاء واللحاق والتأسي ويقال: اتبع القرآن، ائتمَّ به وعمل بما فيه، واتبع الرسول ﷺ: اقتدى به واقتفى أثره وتأسى به)[٢].

إن من أحد أركان الإسلام وركائزه حسن اتباع المصطفى ﷺ فإنه من أساسيات الدين ومُسَلَّماته، وقد استفاضت النصوص القرآنية والسنة النبوية الصحيحة في توضيح ذلك أيما وضوح: فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ أَبَى». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»[٣].

الشاهد في الحديث: قولُه ﷺ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ». وطاعة النبي ﷺ هي اتباع سنته الشريفة، قال الحافظ ابن حَجَر - رحمه اللَّه -: («أَبَى» أي: امتنع، وظاهِرُه أن العموم مستمر؛ لأن كلاًّ منهم لا يمتنع من دخول الجنة ولذلك قالوا: (ومن يأبى؟!) بيَّن لهم أن إسناد

(١) انظر تيسير الكريم الرحمن، (٦٦٥)
(٢) انظر «لسان العرب»، (١٣/ ٤١٢ - ٤١٣)
(٣) البخاري، كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، برقم (٧٢٨٠).

الامتناع إليهم عن دخول الجنة مجاز عن الامتناع عن سنته، وهو عصيان الرسول ﷺ)[١].

قلت: في الحديث أبلغُ رد على من زعم - كذبًا - أن اتباع ما جاء في القرآن - دون الأخذ بالسنة - يكفيه ويُدْخله الجنة.

٥ - جعل الله عز وجل الهداية في طاعته ﷺ:

قال - تعالى -: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

الشاهد في الآية قوله - تعالى -: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾. قال الإمام القرطبي - رحمه الله -: (جعل الاهتداء مقرونًا بطاعته)[٢]، وقال الحافظ ابن كثير - رحمه الله -: (ذلك لأنه يدعو إلى صـراط مستقيم ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٣])[٣]، وقال الشيخ السعدي - رحمه الله -: (وإن تطيعوه تهتدوا إلى الصراط المستقيم قولاً وعملاً، فلا سبيل لكم إلى الهداية إلا بطاعته، وبدون ذلك لا يمكن بل محال)[٤].

بعض فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بلاغة القرآن الكريم وإعجازه، إذ حددت الآية العظيمة المنهج الذي يجب أن تسير عليه الأمة لتضمن الهداية، كما حددت - بمقتضى مفهوم المخالفة - سبيل الغواية، وذلك في ثلاث كلمات، أداة الشرط وفعله وجوابه.

الفائدة الثانية: في الآية أعلى مراتب تزكية النبي ﷺ لأن الآية أثبتت كمال الهداية للمقتدي وهو الفرع، فكيف يكون حال المقتدَى به ﷺ وهو الأصل.

الفائدة الثالثة: تفاوت المسلمين تفاوتًا بينًا في مراتب الهداية، بحسب تفاوتهم في اتباع السنة النبوية - على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم - فبقدر ما يكون عند المسلم من اتباع بقدر ما يكون عنده من الهداية. ويتفرع عليه خطورة تلك الجماعات التي تبتدع في العبادات ما لم يأذن به الله ورسوله ﷺ.

الفائدة الرابعة: يجب على كل مسلم أن يعتقد اعتقادًا جازمًا لا يخالطه أدنى شك، أن

---

(١) انظر «فتح الباري»، (١٣/ ٢٥٤).
(٢) انظر «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٩٦).
(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٠٠).
(٤) انظر «تيسير الكريم الرحمن» (٥٧٢ - ٥٧٣).

كل مذهب أو فكر أو فلسفة أو نظرية تخالف ما جاءت به السنة الشريفة فهي ضلال وغواية، وهذا الاعتقاد هو مقتضى التصديق بقوله - تعالى -: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾، حيث يستحيل عقلاً أن تجتمع الهداية في الأمر وضده.

٦ - الإيمان به ﷺ سبب السعادة في القبر:

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْعَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتُوُلِّيَ وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ أَتَاهُ مَلَكَانِ فَأَقْعَدَاهُ فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ ﷺ؟ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ». قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا، وَأَمَّا الْكَافِرُ أَوِ الْمُنَافِقُ فَيَقُولُ: لاَ أَدْرِي، كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيُقَالُ: لاَ دَرَيْتَ وَلاَ تَلَيْتَ. ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلاَّ الثَّقَلَيْنِ»[(١)].

الشاهد في الحديث: أن العبد إذا سئل عن النبي ﷺ فأجاب إجابة المؤمنين أراه الله - سبحانه وتعالى - مقعده من الجنة.

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: في علو قدر النبي ﷺ وعظيم شأنه، يتبين ذلك من الأمور الآتية:

١ - أن العبد يُحَاسَب على الإيمان به ﷺ والتصديق برسالته فور تولي أصحابه عنه.

٢ - شهادة العبد أن محمدًا ﷺ هو عبد الله ورسوله وتوفيقه للنطق بها، هي سبب سعادة العبد طيلة بقائه في قبره، وكفى بذلك شرفًا ورفعة للنبي ﷺ فقد ورد في الحديث: «فَيُقَالُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ». قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا»، كما في قول قتادة: (وَذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا وَيُمْلأُ عَلَيْهِ خَضِرًا إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)[(٢)]. وفي المقابل ذكر الحديث العذاب الشديد للمنافق والكافر الذي لا يُوَفَّق لتلك الشهادة.

٣ - في الحديث دليل على أن النبي ﷺ قد بين للأمة أنه عبد لله - سبحانه وتعالى - وأنه لا يشارك الله أبدًا في أي أمر من أمور الألوهية، ولولا أن النبي ﷺ قد بين ذلك أحسنَ

(١) البخاري، كتاب: الجنائز، باب: الميت يسمع خفقة النعال، برقم (١٣٣٨).

(٢) مسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، برقم (٢٨٧٠)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

البيان وأوضحه، ما حاسب اللَّه العباد في القبر على إيمانهم أن النبي ﷺ عبد لله، بل إن شهادة المؤمن يسبق فيها إثبات صفة العبودية للرسول ﷺ على صفة الرسالة، وكأنها الصفة التي غَلَبَتْ عليه ﷺ وأراد أن يحققها طوال حياته وبالفعل حققها ﷺ كأحسن ما يكون.

ويتفرع عليه: أن من اعتقد في النبي ﷺ درجة أعلى من درجة العبودية لله - سبحانه وتعالى - (وهي أعظم منازله ﷺ) بأن أثبت له شيئا يعلم أنه لا ينبغي إلا لله عز وجل فَلَنْ يوفق في إجابة سؤال الملكين.

كما أقول: إن من ابتدع في هذا الدين ما ليس منه، ورغب عن سنته ﷺ قد يؤخر عن إجابة الملكين وقد يتلعثم فيها وقد لا يوفق لها أصلاً وذلك بقدر ما ابتدع في هذا الدين أو رغب عن السنة الشريفة، ودليل ذلك ما ورد عن النبي ﷺ: **«فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ أو الْمُوقِنُ فَيَقُولُ: هُوَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى فَأَجَبْنَا وَآمَنَّا وَاتَّبَعْنَا فَيُقَالُ لَهُ: نَمْ صَالِحًا»**[(١)]، فكيف يوفق اللَّه من ابتدع في الدين لقول: (آمنا واتبعنا). وهو في الحقيقة لم يتبع.

٤ - في الحديث دلالة واضحة على أن النبي ﷺ قد بُعِثَ للناس كلهم جميعًا، وأنهم كلهم مطالبون بالإيمان به وتصديقه ﷺ والدليل على ذلك من الحديث قولُه ﷺ: **«إن العبد إذا وضع في قبره»**، وكلمة العبد تشمل كل جنس البشر، ثم إن قوله ﷺ: **«وأما المنافق والكافر»**. فهو دليل آخر على أن السؤال يشمل الناس جميعًا، فالناس لا يخرجون عن أصناف ثلاثة: مؤمن، ومنافق، وكافر، وأهل الكتاب الذين لم يؤمنوا به ﷺ يدخلون في لفظ (كافر).

فإن قال قائل: كيف يكون سؤال الملكين عن النبي ﷺ كافيًا لدخول العبد الجنة دون السؤال عن اللَّه عز وجل ودين الإسلام؟ قلت: وردت أحاديث أخرى بسؤال العبد عن الرب - تبارك وتعالى -: مَنْ ربك؟ ما دينك، ولكنها ليست في الصحيحين، لذلك لم أُورِدْها في الكتاب، لما التزمت به من التقيد بأحاديث الصحيحين، ثم إنني أحببت أن أورد هذا الحديث الذي ليس فيه إلا ذكر السؤال عن النبي ﷺ ليستقر في قلب وعقل كل مسلم عظيمُ قدرِ النبي ﷺ وأن الإيمان به واتباعه هو سبب السعادة في الدنيا والآخرة وما بينهما وهي حياة البرزخ. ثم أقول: إن إقرار العبد بأن محمدًا ﷺ عبد اللَّه ورسوله، يتضمن الإيمان باللَّه - تعالى - ودين الإسلام، وأوصي نفسي وإخواني من المسلمين بإجلال النبي ﷺ وتوقيره وكثرة الصلاة عليه وحبه أكثر من المال والأهل والولد، لعل اللَّه عز وجل يثبتنا

---

(١) البخاري، كتاب الوضوء، باب: من لم يتوضأ إلا من الغشي المثقل، برقم (١٨٤)، من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما.

في قبورنا ويلهمنا إجابة الملكين، إنه نعم المولى ونعم المجيب.

تنبيه: قال الحافظ ابن حَجَر - رحمه اللَّه - ما نصه: (واختُلِف أيضًا في النبي ﷺ هل يُسْأل)[١]،

أقول - واللَّه تعالى - أعلم: لا ينبغي أن يطرح هذا الاحتمال أصلاً؛ وذلك للأسباب التالية:

أ - علو قدره ﷺ فوق الخلق كلهم جميعًا فكيف يسأله من هو أقل منه مرتبة.

ب - السؤال يستلزم إقعاد المسئول، وأعتقد أن إثبات ذلك للنبي ﷺ من سوء الأدب مع مقامه الرفيع.

ج - لم يأت دليل على أن النبي ﷺ يُسْأل في قبره، فعدمُ الخوض فيه أولى بل أوجب، خاصة إذا كانت صورة السؤال لا تناسب مقام النبوة.

د - ما الحكمة من سؤال النبي ﷺ في قبره، حيث إن الناس يُسْألون؛ فتنة لهم في قبورهم وامتحانًا، ونجزم قطعًا أن النبي ﷺ بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى لن يتعرض لأدنى فتنة أو اختبار، لما ورد في الحديث الصحيح أنه ﷺ قال لفاطمة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - عند موته: «ليس على أبيكِ كَرْبٌ بعد اليوم»[٢]، فهذا يدل على أنه ﷺ لن يتعرض لأدنى أدنى أذى أو فتنة أو امتحان، وأنه في أمن وأمان من ذلك طوال فترة البرزخ اللائقة به ﷺ إلى يوم أن يُحْشر ويَسْتفتح الجنة، مرورًا بنشر الصحف وإقامة الموازين وضرب الصراط على ظهراني جهنم والمرور عليه، والوقوف بين يدي ربه - تبارك وتعالى - شافعًا ومشفعًا في الخلق كلهم جميعًا، كل هذا وغيره لن يمسه فيه ﷺ أدنى خوف أو فزع.

فإن قال قائل: إذا كان النبي ﷺ لن يتعرض قطعًا لسؤال القبر وفتنته، فلماذا كان يتعوذ من هذه الفتنة كثيرًا خاصة قبل السلام من الصلاة؟

قلت: كان ﷺ يفعل ذلك عبودية لله تبارك وتعالى، وإعلان الافتقار إليه والحاجة لعونه ومدده، وتعليمًا للأمة.

الفائدة الثانية: الثناء الحسن على النبي ﷺ وذكره الطيب المبارك دائم وموصول إلى يوم القيامة، ليس فوق الأرض فحسب بل تحتها أيضًا، فها هو كل مؤمن يشهد له بالعبودية والرسالة، ويشهد أن ما جاء به هو الحق والهدى.

الفائدة الثالثة: الإيمان الذي ينجي العبد في قبره وبين يدي ربه، هو الإيمان الذي لا

(١) انظر «فتح الباري» (٣/ ٢٩٣).

(٢) البخاري، كتاب: المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته، برقم (٤٤٦٢)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

يخالطه شك ولا يساوره ارتياب، والدليل على ذلك أن المؤمن يقول: (أشهد). والشهادة لا تكون إلا عن يقين، والمنافق يقول: (كنت أقول ما يقول الناس). فمع أن المنافق كان يقول الشهادتين إلا أنها لن تنفعه يوم القيامة لعدم وجود اليقين.

وقد بينت في باب: (يسمع النبي ﷺ ما لا يسمعه أحد) فوائد عن القبر وسؤاله وعذابه مما يغني عن إعادته هنا.

٧ - نفي إيمان من لا يُحَكِّم سنته ﷺ:

قال - تعالى -: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

أولا: سبب نزول الآية:

عن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ: أَنَّ الزُّبَيْرَ ﷺ كَانَ يُحَدِّثُ أَنَّهُ خَاصَمَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي شِرَاجٍ[1] مِنَ الْحَرَّةِ كَانَا يَسْقِيَانِ بِهِ كِلَاهُمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلزُّبَيْرِ: «اسْقِ يَا زُبَيْرُ ثُمَّ أَرْسِلْ إِلَى جَارِكَ». فَغَضِبَ الأَنْصَارِيُّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ آنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ؟! فَتَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «اسْقِ ثُمَّ احْبِسْ حَتَّى يَبْلُغَ الْجَدْرَ». فَاسْتَوْعَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَئِذٍ حَقَّهُ لِلزُّبَيْرِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ ذَلِكَ أَشَارَ عَلَى الزُّبَيْرِ بِرَأْيٍ سَعَةٍ لَهُ وَلِلأَنْصَارِيِّ، فَلَمَّا أَحْفَظَ الأَنْصَارِيُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتَوْعَى لِلزُّبَيْرِ حَقَّهُ فِي صَرِيحِ الْحُكْمِ، قَالَ عُرْوَةُ: قَالَ الزُّبَيْرُ: وَاللَّهِ مَا أَحْسِبُ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ إِلاَّ فِي ذَلِكَ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾[2].

ثانيا: أقوال أهل العلم في شرح الحديث:

ذكر الإمام القرطبي - رحمه الله - شرحًا مبسطًا للحديث فقال ما نصه: (سلك النبي ﷺ مع الزبير وخصمه مسلك الصلح فقال: «اسق يا زبير»؛ لقربه من الماء، «ثم أرسل الماء إلى جارك»، أي: تَسَاهَلْ في حقك ولا تستوفه وعَجِّل في إرسال الماء إلى جارك فحضه على المسامحة والتيسير، فلما سمع الأنصاري هذا لم يرض بذلك وغضب؛ لأنه كان يريد ألا يمسك الماء أصلاً، وعند ذلك نطق بالكلمة الجائرة المهلكة الفاقرة فقال: آن كان ابن

---

(١) الشراج: أي مسيل الماء.

(٢) البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾، برقم (٤٥٨٥)، وأخرجه في كتاب: المساقاة، باب: شرب الأعلى إلى الكعبين، برقم (٢٣٦٢).

عمتك؟! على جهة الإنكار، أي: أتحكم له عليّ لأجل أنه من قرابتك؟ فعند ذلك تلون وجه النبي ﷺ غضبًا عليه، وحكم للزبير باستيفاء حقه من غير مسامحة له)[١].

أقول: هذه الآية من أعظم الآيات التي تدلل على تعظيم أمر السنة ووجوب الطاعة المطلقة للنبي ﷺ حيث نفت الآية نفيًا قاطعًا إيمان العبد حتى يُحَكِّم النبي ﷺ بل ولن يكتمل الإيمان بمجرد التحاكم، بل يجب توفر الرضى والانقياد ومطلق التسليم، كما سيأتي في الفوائد.

ثالثًا: بعض فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: عظمت الآية الكريمة شأن التحاكم إلى النبي ﷺ (في حياته) وإلى سنته (بعد مماته) أشد التعظيم.

ومظاهر ذلك في الآية:

١ - بدأت الآية الكريمة بصيغة النفي: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾؛ للدلالة على شدة انتفاء المقسم عليه، وهو الإيمان، حتى تتحقق الشروط المذكورة، وهي الرضى بالتحكيم مع الانقياد والتسليم.

٢ - أقسم اللَّه - تعالى - بنفسه الكريمة على انتفاء الإيمان حتى يتم التحكيم والرضى، وأضاف ضمير المخاطب، والذي يعود إلى النبي ﷺ لزيادة تعظيم القسم والمقسم عليه. قال - تعالى -: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾.

٣ - نفت الآية الإيمان ابتداءً عن المسلم حتى يتم التحكيم، ونَفْيُ الإيمان أمرٌ عظيم يدلُّ على خطورة الأمر، وكان يمكن أن تأتي الآية بصيغة اشتراط اكتمال الإيمان فحسب.

قال الحافظ ابن كثير - رحمه اللَّه -: (يقسم اللَّه - تعالى - بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يُحَكِّمَ الرسول ﷺ في جميع الأمور فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له ظاهرًا وباطنًا ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، أي إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجًا مما حكمت به وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليمًا كليًا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة)[٢]. انتهى.

---

(١) انظر «الجامع لأحكام القرآن»، (٥/ ٢٦٧).
(٢) انظر تفسير القرآن العظيم، (١/ ٥٢١).

وتدبر أخي القارئ قول الإمام: (من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة). فيجب على كل مسلم أن يقارن حاله مع أوامر الكتاب والسنة على ضوء هذه الكلمات الثلاث المباركات، ويعمل على استيفائها على أحسن ما يكون حتى يضمن لنفسه كمال الإيمان بإذن اللَّه - تعالى-.

٤ - لم تكتف الآية باشتراط مجرد التحكيم لاستيفاء العبد صفةَ الإيمان، ولكنها اشترطت شرطين، هما: عدم وجود الحرج في القلب مع التسليم، ولا يسعني هنا إلا أن أذكر الكلام الجميل النفيس الذي ذكره الشيخ السعدي - رحمه اللَّه - في تفسيرهذه الآية، حيث قال ما نصه: (ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى ينتفي الحرج عن قلوبهم والضيق، ولا يكفي في هذا التحكيم أن يكون على وجه الإغماض، حتى يُسَلموا لحكمه تسليمًا بانشراح صدر وطمأنينة نفس وانقياد بالظاهر والباطن، فالتحكيم في مقام الإسلام وانتفاء الحرج في مقام الإيمان والتسليم في مقام الإحسان، فمن استكمل هذه المراتب وكَمَّلها فقد استكمل مراتب الدين كلها، ومن ترك هذا التحكيم غير ملتزم له فهو كافر، ومن تركه مع التزامه له فله حكم أمثاله من العاصين)[١].

أي: أن نفي الإيمان المذكور في الآية لا يُقصد به نَفْيُ كمال الإيمان ولكن نَفْيُ الإيمان أصلاً كما ذكره الشيخ - رحمه اللَّه -، وهي الحالة التي لا يرضى فيها العبد بالتحكيم.

الفائدة الثانية: سعة علم اللَّه - سبحانه وتعالى -، الذي أحاط بكل شيء، فوسع مكنون الضمائر وما تخفيه السرائر، التي لا يطلع عليها الجار من جاره، ولا الزوج من زوجته، ولا الأم من ابنتها، ودليله من الآية أن اللَّه - سبحانه وتعالى - رتب كمال الإيمان على عمل قلبي محض وهو التسليم، ولولا عِلْمُ اللَّه - تعالى - بدقائق ما في القلوب ما اشترطت الآية هذا الشرط.

الفائدة الثالثة: أثبتت الآية الكريمة للنبي ﷺ كمال العدل البشري والحكمة وفهم المسائل في القضاء بين المتخاصمين، حيث أوجبت الآية على كل مسلم الرضى بحكمه ﷺ والتسليم له، ولو أن في حكمه ﷺ شيئا (مهما دق وصغر) منافيًا لكمال العدل والحكمة لقال قائل إن اللَّه - سبحانه وتعالى - قد حَمَّلَ العباد أكثر من طاقتهم، وهذا ينافي ما وعد اللَّه به عباده المؤمنين، فكيف يأمر اللَّه عز وجل العباد بالرضى والتسليم لأمر أو حكم يخالف العدل أو الحكمة أو الفهم الصحيح، والذي أقصده من كمال العدل، هو كمال العدل

(١) انظر تيسير الكريم الرحمن، (١٨٥).

الذي ينبني على تساوي المتخاصمين في بيان دعواهما، لقول النبي ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ، إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ وَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شيئا فَلَا يَأْخُذْ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ»[١]، أما عدل الله عَزَّوَجَلَّ بين المتخاصمين فهو العدل المطلق الذي لا يقدر عليه إلا الله - سبحانه وتعالى -. ويتفرع عليه براءة النبي ﷺ براءة ربانية أن يكون قد مَالَ في حكمه - طيلة حياته - لأحد المتخاصمين ضد الآخر ولو كان من قرابته وأهل بيته ﷺ. وأدل دليل على عدله ﷺ في الحكم، هو قول الله - تعالى -: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ۝١٠٥﴾ [النساء: ١٠٥]، قال الشيخ السعدي - رحمه الله - (أي بما علمك الله وألهمك)[٢].

الفائدة الرابعة: الإيمان الذي يُرْضِي الله - سبحانه وتعالى - وَيُرْضَى به على العبد المسلم، هو إيمان قلب وجوارح، إيمان عمل واعتقاد، إيمان رضى وتسليم، حيث إن الله عَزَّوَجَلَّ أمر بالتحاكم إلى سنة النبي ﷺ ثم أمر بمطلق الانقياد والرضى والتسليم.

ويتفرع عليه كذب من ينهمك في المعاصي والذنوب ويدعي بأن الله رب قلوب، يقصد بذلك أنه إذا كان القلب نظيفًا فلا داعي لعمل الجوارح، والآية ترد عليهم، كما هي حجة على من يهتم بالعبادات الظاهرة ويهمل العبادات الباطنة.

الفائدة الخامسة: إذا كانت الآية قد نزلت بمناسبة التحكيم بين اثنين من الصحابة - في أمر من أمور الدنيا - إلا أنها عامة في وجوب الرضى والتسليم بكل ما قضاه النبي ﷺ وأمر به، من أمور الدنيا والآخرة، بل أقول: إن الرضى بأمور الآخرة أوجب وأوجب، والقاعدة الأصولية تنص على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

الفائدة السادسة: لا يدخل شخص النبي ﷺ في عموم نهيه عن حكم القاضي وهو غضبان، فعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ: كَتَبَ أَبُو بَكْرَةَ إِلَى ابْنِهِ - وَكَانَ بِسِجِسْتَانَ - بِأَنْ لَا تَقْضِيَ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَأَنْتَ غَضْبَانُ فَإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَقْضِيَنَّ حَكَمٌ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانُ»[٣]. ودليله من الحديث أن النبي ﷺ لما غضب وتَلَوَّن وَجهُه من قول

---

(١) البخاري، كتاب: الأحكام، باب: موعظة الإمام للخصوم، برقم (٧١٦٩)، ومسلم، كتاب: الأقضية، باب: الحكم بالظاهر واللحن بالحجة، برقم (١٧١٣)، من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) انظر «تيسير الكريم الرحمن»، (١٩٩).

(٣) البخاري، كتاب: الأحكام، باب: هل يقضي القاضي أو يفتي وهو غضبان، برقم (٧١٥٨)، ومسلم، كتاب: الأقضية، باب: كراهة قضاء القاضي وهو غضبان، برقم (١٧١٧).

الأنصاري حَكَمَ في المسألة حكمًا ثانيًا، كما ذكر القرطبي في أسباب نزول الآية، ويتفرع عليه إثبات عصمة النبي ﷺ في حال غضبه، ولولا علمه ﷺ بهذه العصمة في حال غضبه ما حكم في المسألة في المرة الثانية.

قال الإمام القرطبي - رحمه الله -: (ولا يقال: كيف حكم ﷺ في حال غضبه، لأنا نقول: إنه معصوم من الخطأ في التبليغ والأحكام بدليل العقل الدال على صدقه فيما يبلغه عن الله - تعالى - فليس مِثْلَ غيره من الحكام)[1].

الفائدة السابعة: جواز أن يقضي الحاكم بين متخاصمين أحدهما من قرابته، شريطة أن يضمن العدل بينهما وعدم محاباة أهله وقرابته.

الفائدة الثامنة: عَدَمُ رضى أحد المتخاصمين، واعتراضُه على حكم القاضي وتظلُّمُه منه لا يدل على أن الحكم جائر، بل قد يكون الحكم في مصلحة المتظلم، ولكن طبيعة النفس البشرية تأبى إلا أن يكون الحكم حسب هواها، إلا من رحم الله.

٨ - وجوب رد النزاع إلى سنته ﷺ:

قال - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٥٩﴾ [النساء: ٥٩].

سبب نزول الآية الكريمة:

عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً، وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ رَجُلاً مِن الأَنْصَارِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْمَعُوا لَهُ وَيُطِيعُوا، فَأَغْضَبُوهُ فِي شَيْءٍ، فَقَالَ: اجْمَعُوا لِي حَطَبًا، فَجَمَعُوا لَهُ، ثُمَّ قَالَ: أَوْقِدُوا نَارًا، فَأَوْقَدُوا، ثُمَّ قَالَ: أَلَمْ يَأْمُرْكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تَسْمَعُوا لِي وَتُطِيعُوا؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: فَادْخُلُوهَا. قَالَ: فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فَقَالُوا: إِنَّمَا فَرَرْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِن النَّارِ. فَكَانُوا كَذَلِكَ، وَسَكَنَ غَضَبُهُ، وَطُفِئَتِ النَّارُ، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»[2].

بعض فوائد الآية والحديث الوارد في سبب النزول:

---

(١) انظر «الجامع لأحكام القرآن»، (٥/ ٢٦٧).

(٢) البخاري، كتاب: الأحكام، باب: السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، برقم (٧١٤٥)، ومسلم، كتاب: الإمارة، باب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية..، برقم (١٨٤٠).

الفائدة الأولى: أوجبت الآية الكريمة رَدَّ الأمور المتنازَعِ فيها إلى اللَّه ورسوله، ومن مظاهرِ هذا الإيجاب:

١ - قوله - تعالى - ﴿فَرُدُّوهُ﴾ وهو فعل أمر، وفعل الأمر يدل على الوجوب.

قال الشيخ السعدي - رحمه اللَّه -: (ثم أمر بِرَدِّ كل ما تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه إلى اللَّه ورسوله، أي: إلى كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ فإن فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافية، إما بصريحهما أو عمومهما أو إيماء أو تنبيه أو مفهوم أو عموم معنى يُقَاس عليه ما أشبهه؛ لأن كتاب اللَّه وسنة رسوله عليهما بناء الدين ولا يستقيم الإيمان إلا بهما)[١].

٢ - وضحت الآية الكريمة أن رد المتنازع فيه إلى اللَّه ورسوله من مقتضيات الإيمان باللَّه واليوم الآخر، فجعلت علامة الإيمان بهما هو التحاكم إلى الكتاب والسنة. قال الشيخ السعدي - رحمه اللَّه -: «**فالرد إليهما شرط في الإيمان؛ فلهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، فدل ذلك على أن من لم يَرُدَّ إليهما مسائلَ النزاع فليس بمؤمن حقيقة**». وقال الإمام القرطبي: (أي ردوا ذلك الحكم إلى كتاب اللَّه أو إلى رسوله ﷺ بالسؤال في حياته أو بالنظر إلى سنته بعد وفاته ﷺ ومن لم يَرَ هذا اختلَّ إيمانُه لقوله - تعالى -: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾)[٢].

٣ - جعلت الآية الكريمة الرد إلى اللَّه ورسوله فيه خير الدنيا والآخرة، وبذلك يكون عدم الرد سببًا في حصول الشر في الأولى والآخرة، قال الإمام القرطبي - رحمه اللَّه -: (أي رَدُّكم ما اختلفتم فيه إلى الكتاب والسنة خيرٌ من التنازع وأحسن تأويلاً أي مرجعًا)[٣].

وأوضح الشيخ السعدي وجه الخيرية في الرد إلى اللَّه ورسوله فقال: (لأن حكم اللَّه ورسوله أحسن الأحكام وأعدلُها وأصلحها للناس في أمر دينهم ودنياهم وعاقبتهم). وهذا توجيه آخر إذا ضُمَّ إلى كلام الإمام القرطبي كملت الفائدة.

الفائدة الثانية: ليس لولي الأمر طاعة مستقلة عن طاعة اللَّه ورسوله، ولكن طاعته داخلة في طاعة اللَّه ورسوله، بل إن طاعته مشروطة بعدم الأمر بمعصية، أما طاعة

---

(١) انظر «تيسير الكريم الرحمن» ص (١٨٤).
(٢) انظر «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٦١).
(٣) انظر «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٦٣).

الرسول ﷺ فغير مشروطة بشيء، وقد وَضَّحَ ذلك الشيخ السعدي - رحمه اللَّه - بقوله: (أمر اللَّه بطاعة أولي الأمر وهم: الولاة على الناس، من الأمراء والحكام والمفتين فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم، ولكن بشرط ألا يأمروا بمعصية الله، فإن أمروا بذلك فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. ولعل هذا هو السر في حذف الفعل عند الأمر بطاعتهم وذِكْرِه مع طاعة الرسول، فإن الرسول ﷺ لا يأمر إلا بطاعة الله، ومن يطعه فقد أطاع الله، وأما أولو الأمر فَشَرْطُ الأمر بطاعتهم أن لا يكون معصية) (١).

الفائدة الثالثة: عظيم أمر العلماء؛ إذ جعل اللَّه - سبحانه وتعالى - مرجع التنازع إليهم في كل ما اختلفت فيه الأمة، قال الإمام القرطبي - رحمه اللَّه - (فأمر تعالى برد المتنازع فيه إلى كتاب اللَّه وسنة نبيه ﷺ وليس لغير العلماء معرفة الرد إلى الكتاب والسنة، ويدل على صحته كون سؤال العلماء واجبًا وامتثال فتواهم لازمًا). ومظهر تعظيم العلماء في ذلك، أن الأمة كلها مأمورة أن ترجع إليهم في كل المتنازع فيه، ومأمورة بطاعتهم وامتثال أمرهم، أما هم - أي العلماء - لا يرجعون إلا إلى الكتاب والسنة، فدل ذلك إلى علو شأنهم على من سواهم، بالإضافة إلى أن وجود العلماء الربانيين يضمن نجاة الأمة من الفتن والزيغ والضلال.

ويتفرع عليه وجوب قيام الأمة بتبجيل العلماء وتوقيرهم والدعاء لهم بالثبات والسداد.

الفائدة الرابعة: أثبتت الآية أن مسائل الشريعة والأحكام تنقسم إلى قسمين:

الأول: قسم ظاهر الدلالة والمعنى: يستوي في فهمه العلماء والعوام.

ومثاله: وجوب الصلاة والزكاة والصوم وبقية أركان الدين وتحريم عقوق الوالدين وقول الزور والزنا والميسر، وغيرها.

الثاني: قسم غير ظاهر الدلالة والمعنى يُشْكِل فَهْمُه على العوام، ويفهمه العلماء، ويختلف فهمهم له باختلاف رسوخهم في العلم.

ومثاله: ما استحدث من معاملات في التجارة والبنوك، فتلك الأمور لو ردت إلى الراسخين في العلم لرفع الإشكال. ودليل ذلك من الآية الكريمة: أن اللَّه أمرنا جميعًا

---

(١) انظر «تيسير الكريم الرحمن» ص (١٨٤).

بطاعة اللَّه وطاعة رسوله ﷺ ثم أمرنا برد المختلف فيه إلى الكتاب والسنة أي إلى العلماء.

الفائدة الخامسة: اختلف الصحابة ﭫ في فهم أقوال النبي ﷺ المطلق منها والمقيد، والعام والخاص، وهو اختلاف يرجع إلى تفاوتهم ﭫ في الفهم والفقه، فطائفة فهمت أن أوامر اللَّه ورسوله بوجوب طاعة ولي الأمر، تشمل كل ما يأمر به سواء في طاعة أو معصية، وطائفة فهمت أن الأمر بطاعة الأمير لا يفهم منه العموم، فلا طاعة له في معصية، والنبي ﷺ خَطَّأَ الطائفة الأولى بقوله ﷺ: «**لو دخلوها ما خرجوا منها**». وصَوَّبَ الطائفة الثانية لقول الراوي: (وقال للآخرين قولاً حسنًا).

قال الحافظ ابن حَجَر - رحمه اللَّه -: «وفيه أن الأمر المطلق لا يَعُمّ جميع الأحوال؛ لأنه ﷺ أمرهم أن يطيعوا الأمير، فحملوا ذلك على عموم الأحوال حتى في حال الغضب وفي حالة الأمر بالمعصية فبين لهم ﷺ أن الأمر بطاعته مقصور على ما كان منه في غير معصية»[1].

وقد ذكرت في موضع آخر من الكتاب أن اختلاف العلماء في المسائل الفقهية إنما يرجع غالبًا إلى تباين فهمهم في العام والخاص والمطلق والمقيد، ونعذرهم في ذلك لاختلاف من هم أفضل منهم في الفهم، وهم الصحابة ﭫ.

الفائدة السادسة: شعور الصحابة بعظيم فضل النبي ﷺ عليهم والنعمة التي هم فيها ببعثه ﷺ واعتقادهم أنه لولا اتباعه لدخلوا النار يقينًا، لما ورد في الحديث: (إنما فررنا إلى رسول اللَّه ﷺ من النار). ويدل الحديث أيضًا على أن هَمَّ الصحابة الأول في اتباع النبي ﷺ هو اتقاء النار يوم القيامة.

الفائدة السابعة: ليس لأحد حجة شرعية في طاعة الإمام في معصية؛ لقول النبي ﷺ في إحدى روايات الحديث عند مسلم: «**لا طاعة في معصية إنما الطاعة في المعروف**». وهو قول فَصْل بَيِّنٌ، ورد في شرح سنن أبي داود: (هذا يدل على أن طاعة الولاة لا تجب إلا في المعروف؛ كالخروج في البعث إذا أمر به الولاة والنفوذ لهم في الأمور التي هي الطاعات ومصالح المسلمين، فأما ما كان منها معصية كقتل النفس المحرمة وما أشبهه فلا طاعة لهم في ذلك، إنما الطاعة في المعروف، والمرادُ بالمعروف ما كان من الأمور المعروفة في الشرع، وهذا تقييد لما أطلق في الأحاديث المطلقة القاضية بطاعة ولي الأمر على العموم)[2].

---

(١) انظر «فتح الباري» (٨/ ٦٠).

(٢) انظر «عون المعبود»، (٧/ ٢٠٨).

وإذا كان هذا هو حكم طاعة ولي الأمر - الذي وَلاه النبي ﷺ إذا أمر بمعصية، فمن باب أولى وأولى ينسحب هذا الحكم إلى كل من هو دونه من الرئيس والمدير والزوج والزوجة وحتى الوالدين لعموم قوله ﷺ: «**لا طاعة في معصية الله وإنما الطاعة في المعروف**»، وإذا كان النبي ﷺ قد بَيَّنَ لأصحابه أن هؤلاء لو دخلوا النار فلا عذر لهم عند الله في طاعة أمير رسول الله ﷺ لقوله: «**لو دخلوها ما خرجوا منها**»، فهل يعقل أن يكون لغيرهم عذر في طاعة ولي الأمر إذا أمر بمعصية؟!.

الفائدة الثامنة: حب الصحابة ﷺ بعضهم لبعض وتناصحهم فيما بينهم أشد ما يكون النصح، ودليله أن نصح بعضهم بعضًا لم يقتصر على اللسان وبيان الحق في المسألة، وقد يقول قائل: هذا يكفي، ولكنه تعدى إلى تغيير المنكر باليد، لما ورد عند البخاري: (وجعل بعضُهم يُمْسِك بعضًا) [(١)].

الفائدة التاسعة: وجوب طاعة الأمير في حال غضبه - إن لم يأمر بمعصية - لأن أمير السرية قد غضب وأمرهم أن يجمعوا له حطبًا ويوقدوا نارًا ففعلوا وذكروا ذلك للرسول ﷺ فأقرهم على فعلهم ولم يَنْهَهُم إنما أنكر فقط طاعته في دخول النار، قال الحافظ ابن حَجَر - رحمه الله -: (يؤخذ من الحديث أن الحكم في حال الغضب ينفذ فيه ما لا يخالف الشرع وأن الغضب يغطي على ذوي العقول) [(٢)]. وأقول: أما حكم القاضي بين المتخاصمين وهو غضبان فلا يجوز لوجود النهي في ذلك.

الفائدة العاشرة: في الحديث دليل على أن من قتل نفسه خُلد في النار، والتخليد على مذهب أهل السنة هو طول المكث في النار، لما ورد في إحدى روايات البخاري: «**لو دخلوها ما خرجوا منها أبدًا**»، ويؤيده قوله - تعالى -: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ۝٩٣﴾ [النساء: ٩٣]، وما ورد في الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي

---

(١) البخاري، كتاب: المغازي، باب: سرية عبد الله بن حذافة السهمي...، برقم (٤٣٤٠)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
(٢) انظر «فتح الباري» (٨/ ٦٠).

بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»[١]، أما ما نقله صاحب الفتح عن الداودي قوله: (يريد تلك النار لأنهم يموتون بتحريقها فلا يخرجون منها أحياء). فهذا مستبعد جدًّا؛ لأن لا أحد من الصحابة يتصور أنه لو ألقى بنفسه في النار أنه سيخرج منها حيًّا، خاصة إذا كان هو الذي ألقى بنفسه فيها متعمدًا، وأظن أن الأمر الذي كان يريد النبي ﷺ أن يوضحه لأصحابه في هذا المقام هو الحكم الشرعي الذي يتعلق بدخول النار، وليس طبيعة النار، ويؤيده ما ورد أيضًا عند البخاري: «لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة».

الفائدة الحادية عشرة: نقل الحافظ ابن حَجَر - رحمه الله - عن الشيخ أبي محمد بن أبي جمرة قوله: (وفيه أن من كان صادق النية لا يقع إلا في خير، ولو قصد الشر فإن الله يصرفه عنه)[٢]، وهذا حكم يحتاج إلى دليل بذاته، ولا ينهض ما ورد في الحديث، وهو واقعةُ عَيْنٍ، أن يكون حكمًا عامًّا.

ومن الخطأ أن نقول: إن صادق النية لن يقع إلا في خير، والأسوأ أن نقول: ولو قصد شرًّا، فالذي يقصد الشر قد أساء النية، ولكن نقول: الأمر لله إن شاء نجاه وإلا فلا، وقد وقع كثير من الناس (خاصة العوام) صادقي النية في شرور كثيرة لقلة علمهم واتباعهم الغير بدون سؤال أو دراية، وهذا مشاهد لا يحتاج إلى دليل، وخطورة هذه الأحكام بالإضافة إلى أنها حكم على الله بغير دليل، أنها تستلزم منا أن نحكم على كل من وقع في شر أنه سيئ النية وهذا حكم خطير.

٩ - الوعيد الشديد لمخالفة سنته ﷺ:

عن أَنَس بْن مَالِكٍ رضي الله عنه قال: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؛ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ. قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا. فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: «أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟! أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[٣].

---

(١) البخاري، كتاب: الطب، باب: شرب السم والدواء به . . . ، برقم (٥٧٧٨)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه . . . ، برقم (١٠٩).

(٢) انظر «فتح الباري» (٨/ ٦٠)

(٣) البخاري، كتاب: النكاح، باب: الترغيب في النكاح، برقم (٥٠٦٣)، ومسلم، كتاب: النكاح، باب: استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه . . ، برقم (١٤٠١).

الشاهد في الحديث: قوله ﷺ: «فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»، وقد وردت أحاديث كثيرة في التحذير من مخالفة أمر النبي ﷺ وعدم اتباع سنته، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَن أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ يَعْصِنِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ يُطِعِ الأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي»(١).

وهذا مصداق قوله - تعالى -: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠]، بل إن النبي ﷺ قد حكم لكل أمته بدخول الجنة إلا من عصاه: فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ أَبَى» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَأْبَى قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»(٢).

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: عظيم أمر السنة الشريفة، ووجوب اتباعها، والرضى بها منهجًا وسلوكًا، حيث إن النبي ﷺ قد حكم على من رغب عنها بوصف قاس حيث قال: «فليس مني». قال الحافظ ابن حَجَر - رحمه اللَّه -: (وقوله: فليس مني، إن كانت الرغبة عن السنة بضرب من التأويل يُعْذَر صاحبه فيه فيكون المعنى: ليس على طريقتي، ولا يلزم أن يخرج من الملة، وإن كان إعراضًا وتنطعًا يفضي إلى اعتقاد أرجحية عمله، فمعنى «فليس مني» أي ليس على ملتي لأن اعتقاد ذلك نوع من الكفر). انتهى (٣).

الفائدة الثانية: كما أن النقص في أمور الدين مذموم، فإن الزيادة أيضًا مذمومة، فهؤلاء النفر أرادوا أن يزيدوا في أمور العبادة بما لم يفعله النبي ﷺ فزجرهم ﷺ عن تلك الزيادة.

وأقول: إذا كان النبي ﷺ قد وبخ من زاد في عبادة لها أصل في الدين، كان ﷺ يفعلها، بل يداوم عليها، وهي صيام النفل وقيام الليل، فكيف الحال بأناس ابتدعوا في دين اللَّه عز وجل ما ليس له أصل في الكتاب ولا في السنة، وتمسكوا بهذه البدع وتعلقوا بها أشد التعلق أكثر من تعلقهم بسنة المصطفى ﷺ، كابتداع أوراد وصلوات واحتفالات - يزعمون أنها دينية - ليست على هَدْيِ النبوة في شيء، أسأل هؤلاء كيف سيكون توبيخ

---

(١) البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: يقاتل من وراء الإمام ويتقى به، برقم (٢٩٥٧)، ومسلم، كتاب: الإمارة، باب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية...، برقم (١٨٣٥).

(٢) البخاري، كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ، برقم (٧٢٨٠).

(٣) انظر «فتح الباري» (٩/ ١٠٦).

النبي ﷺ لهم يوم القيامة؟ بل كيف سيكون تبرؤه منهم، وهو الذي قال: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ»، وقد عقدت بابًا منفصلاً لهذا الحديث في كتابي هذا لأهميته. ويتفرع عليه أن مدار الأمر ليس على كثرة العبادة والتشدد فيها، ولكن مدار الأمر على اتباع سنة النبي ﷺ، دون تفريط أو مغالاة.

الفائدة الثالثة: قد تُطلق السنة في الأحاديث النبوية ولا يراد بها الأعمال التي يُثَاب فاعلها ولا يعاقب تاركها، بل يُقْصَد بها الهَدْيُ النبوي، كما في قوله ﷺ: «فمن رغب عن سنتي فليس مني». قال الحافظ ابن حَجَر - رحمه اللَّه -: (المراد بالسنة الطريقة لا التي تقابل الفرض، ومعنى الرغبة عن الشيء الإعراض عنه إلى غيره، والمراد من ترك طريقتي وأخذ بطريقة غيري فليس مني) [١].

١٠ - دعاء النبي ﷺ على من استكبر عن سنته ﷺ:

عن سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلاً أَكَلَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِشِمَالِهِ فَقَالَ: «كُلْ بِيَمِينِكَ». قَالَ: لاَ أَسْتَطِيعُ. قَالَ: «لاَ اسْتَطَعْتَ؛ مَا مَنَعَهُ إِلاَّ الْكِبْرُ». قَالَ: فَمَا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ [٢].

الشاهد في هذا الحديث قول النبي ﷺ للرجل: «لا استطعت». واستجابة الدعاء حالاً لقول الراوي: (فما رفعها إلى فيه).

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: وجوب تعظيم أمر النبي ﷺ، والتواضع لسنته والمبادرة إلى طاعته، حيث إن هذا الرجل لما لم يبادر لطاعته ﷺ كبرًا، دعا عليه بأمر عظيم وهي أن تُشَلّ يده، واستجاب اللَّه دعاءه على الفور، مما يؤكد عِظَمَ أمر الطاعة، ووجوب التواضع للسنة، ونخشى أن يصيب هذا الدعاءُ كلَّ مَنْ تَرَفَّعَ عن السنة إلى قيام الساعة، فيصيبه وبالُ ذلك في الدنيا أو الآخرة.

الفائدة الثانية: كيف يدعو النبي ﷺ على أحد من أصحابه بهذا الدعاء العظيم، وهو الذي زكاه اللَّه عز وجل فقال فيه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال عز وجل: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

(١) انظر «فتح الباري» (٩/ ١٠٥).
(٢) مسلم، كتاب: الأشربة، باب: آداب الطعام والشراب وأحكامهما، برقم (٢٠٢١).

أقول: إن هذا الخلق كان هو السّمة الغالبة عليه ﷺ، ولكن لا يمنع ذلك أن يُظْهِرَ الشدة في بعض الأوقات، مضطرًا ويكون ذلك لصالح الفرد والأمة، فهذا الرجل الذي تَكَبَّرَ عن الطاعة فيما أمر، هل ترون أنه سيستمر على ما كان عليه، أم سيتوب إلى اللَّه ويستغفره مما بدر منه، ويستقيم بقية حياته، بالطبع سيستقيم، فيكون الدعاء في حقه، رحمة منه ﷺ؛ لأنه علاج لداء عظيم، فأن يذهب هذا الكبر بذهاب يده، خير له من أن يبقى في قلبه وتبقى يده.

وهناك احتمال آخر أن هذا الرجل كان من المنافقين، لذلك استجاز النبي ﷺ أن يدعو عليه بذلك. وقد نقل النووي في شرح مسلم عن القاضي عياض هذا الاحتمال.

وهناك أمر آخر وهو ظهور معجزة من معجزاته ﷺ وتَجَلِّ ذلك في استجابة الله له في الحال، ومن ثَمّ يكون في هذا الأمر موعظةٌ وزجْرٌ لمن يتكبر على سُنة الرسول ﷺ. وفي هذا مصلحة عظيمة لهذا الرجل ولغيره من المسلمين.

الفائدة الثالثة: في الحديث دليل على أن الصحابة يمكن أن تقع منهم المعاصي بل الكبائر، لأنهم بشر، وغير معصومين، والشاهد على ذلك أن حدود السرقة والخمر والزنى والقذف، قد أقيمت كلها في عصر النبوة وإن كان ذلك على ندرة شديدة.

الفائدة الرابعة: في الحديث تعظيم أمر الكبر وخطورته؛ لأن دعاء النبي ﷺ على هذا الرجل، كان بسبب الكبر الذي منعه من امتثال الأمر، وقد وردت أحاديث كثيرة في ذم الكبر، وتهديد ووعيد لمن تلبس بهذه الصفة، فعَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ**»، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً! قَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ: بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**»[1].

وعَنْ عَبْدِاللَّهِ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ سُورَةَ النَّجْمِ فَسَجَدَ بِهَا فَمَا بَقِيَ أَحَدٌ مِنَ الْقَوْمِ إِلاَّ سَجَدَ فَأَخَذَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ كَفًّا مِنْ حَصًى أَوْ تُرَابٍ فَرَفَعَهُ إِلَى وَجْهِهِ وَقَالَ: يَكْفِينِي هَذَا. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ بَعْدُ قُتِلَ كَافِرًا[2].

يتفرع عليه أن على المسلم إذا وجد في قلبه غضاضة في الانصياع للحق، أو العمل

---

(١) مسلم، كتاب: الإيمان، باب: تحريم الكبر وبيانه، برقم (٩١).

(٢) البخاري، كتاب: المغازي، باب: قتل أبي جهل، برقم (٣٩٧٢)، ومسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: سجود التلاوة، برقم (٥٧٦).

بالتنزيل، فعليه أن يفتش في نفسه، فلعل الذي رده عن الانصياع وعدم العمل هو الكبر والعياذ بالله فيتدارك ذلك بالتوبة.

الفائدة الخامسة: من عظيم أمر الكبر، أنه هو المعصية الوحيدة، التي أبى الله عز وجل، إلا أن يفضح عبده بها في الدنيا، فالإنسان المتكبر المتلبس بهذه الصفة، لا يمكن أن يسترها عن الناس، فتظهر في احتقاره الناسَ، أو رَدِّ الحق كما في الحديث السابق، أو جرِّ ثوبه، لما ثبت من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاَءَ لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَحَدَ شِقَّيْ إِزَارِي يَسْتَرْخِي إِلاَّ أَنْ أَتَعَاهَدَ ذَلِكَ مِنْهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَسْتَ مِمَّنْ يَصْنَعُهُ خُيَلاَءَ»(١).

وقد يظهر الكبر على الرجل من عطف عنقه إذا دُعِيَ إلى الحقّ قال - تعالى -: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩﴾ [الحج: ٩].

أو يظهر ذلك عليه مِنْ لَيِّ رأسه إذا دعي إلى الحق، قال - تعالى -: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾ [المنافقون: ٥]، وفضيحة المتكبر في الدنيا هي أعظم رادع له ليتخلص من هذا الخلق السيئ المشين، ولكن كيف يعلم العبد أن به هذه الصفة؟ وهي الفائدة التالية.

الفائدة السادسة: من السهل واليسير على المسلم، إذا فتش في نفسه أن يعلم أنه متكبر أم لا، ومن ذلك كما أشرنا سابقًا أن يستصغر الناس وأن يترفع عن الحق، وأن يجر ثوبه، وأن يجد صعوبة في أن يُلْقِيَ السلام على الناس خاصة من هو دونه، أو لا يرد السلام على من سلم عليه، أو يرد بصوت خافت لا يكاد يسمعه أحد، أو أن يتعفف عن الأكل مع الفقراء، خاصة خادمه، أو أن يتعاظم في نفسه جدًا أن يساعد من دونه، حتى لو رآه في شدة، بل قد يصل الأمر كما رأيت بنفسي، أن يحب وهو في الصلاة أن تكون هناك فرجة بينه وبين جاره، ويكره أن يَسُدّ هذه الفرجة، ومنها أيضًا أن لا يسلم إلا بأطراف أصابعه، وأن يكون هو الذي يبدأ بنزع يده أولاً، وقد تراه في الصلاة لا يُمَكِّنُ جبهته أو أنفه من الأرض، وأعظم هذه العلامات أن لا تسمع منه أبدًا: (إني أخطأت). فيستكبر عن أن يعترف بخطئه.

---

(١) البخاري، كتاب: المناقب، باب: قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلاً...». برقم (٣٦٦٥).

أما علاج الكبر، فهو كبقية المعاصي، على المتلبس بها:

أن يتذكر عقوبتها، وأن يتدبر ما رواه عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يَطْوِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟**»[١].

فيتأمل كيف ينادي الجبار عَزَّ وَجَلَّ يوم القيامة، وقد غضب غضبًا لم يغضب قبله مثله أبدًا، ولن يغضب بعده مثله أبدًا، فيقول: أين الجبارون أين المتكبرون؟ هل ينادي عليهم نداء رِضًى وحُبٍّ؟ أم نداء سخط وغضب؟ وكيف أن اللَّه - تعالى - قرن المتكبرين بالجبارين؟ وكيف أنه لم يناد على أحد غيرهم؟ وكأنهم أعظم الناس ذنوبًا، كيف لا؟ وهم الذين نازعوا الله في صفة ما يجب أن ينازعه فيها أحد أبدًا، وهي صفة الكبرياء بحقّ التي هي من أعظم صفات الكمال لذي الجلال والإكرام. وعلى من يريد أن يطهِّر نفسه من تلك الصفة القبيحة أن يفعل الأمور الآتيه:

أ - أن يتوب إلى الله تعالى من هذا الفعل توبة نصوحًا.

ب - أن يعتاد مصاحبة الأخيار، ومساعدة الفقراء، ومد يد العون للمساكين.

ج - وأن يكثر من السلام على من يعرف ومن لا يعرف.

د - وأن يتواضع للخدم وأن يأكل معهم بين الفينة والأخرى.

هـ - وأن يبتهل إلى اللَّه عَزَّ وَجَلَّ بالدعاء أن يعافيه من هذا المرض العضال.

الفائدة السابعة: في الحديث ما كان عليه النبي ﷺ من الحرص على تعليم الأمة كلَّ أمور دينها حتى آداب الأكل، قال الحافظ ابن حجر - رحمه اللَّه -: (وفيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل حال حتى في حال الأكل واستحباب تعليم الآكل آدابَ الأكل إذا خالفه)[٢].

ومثاله: ما رواه البخاري عن عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ قال: كُنْتُ غُلَامًا فِي حَجْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يَا غُلَامُ سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**» فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ[٣]. فالنبي ﷺ لم يترك الغلام ويقول:

---

(١) مسلم، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، برقم (٢٧٨٨).

(٢) انظر «فتح الباري» (٩/ ٥٢٣).

(٣) البخاري، كتاب: الأطعمة، باب: التسمية على الطعام والأكل باليمين، برقم (٥٣٧٦).

يعلمه أهله، أو يتعلم لما يكبر ويشب، أو هو صغير لم يُكلّف بعد، بل علمه آداب الأكل، التسمية والأكل باليمين والأكل مما يليه، وانظروا إلى الغلام ماذا قال؟ (فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ)، أي أن الطاعة الفورية، والمحافظة على السنة، لم تكن سمة الصحابة البالغين فقط، بل هي حتى في الغلمان، فالغلام سمع المقال ووعاه عمل به، بل أدَّاه وعلمه عامة المسلمين، فكانت تلك طعمة المتبعين لسنة نبيهم إلى قيام الساعة، وللغلام في ذلك الأجر العظيم.

الفائدة الثامنة: في الحديث وجوب الأكل باليد اليمنى، قال الإمام النووي - رحمه الله: (نص الشافعي في الرسالة، وفي موضع آخر من كتابه (الأُمّ) على وجوب الأكل باليمين، وقال: وما يدل على الوجوب ورود الوعيد في الأكل بالشمال، ثم أورد حديث الباب)[١].

وأنا حريص على تدوين هذه الفائدة لما أراه الآن من تهاون الناس في تلك السنة النبوية، بل وصل الأمر غايته بأن البعض يستحي أن يأكل باليمين، خاصة إذا تناول الطعام بالشوكة.

---

(١) انظر «فتح الباري»، (٩/ ٥٢٢).

الباب الثاني

إثبات نبوته ﷺ بالدلائل والمعجزات

تقديم

إن الدارس لعلم النبوات في أي أمة يرى بوضوح آثار قدرة الله تعالى المؤيِّدة لرسوله محمد ﷺ خير البشر ولو كان هذا الدارس متخصصا في النقد التاريخي مفندا لمزاعم النبوة فإنه يحار عقله وقلبه أمام ما أوتي النبي ﷺ من كثرة المؤيدات والمثبتات لنبوته ﷺ وإن دفعه غروره لإنكار نبوته ﷺ فبالعقل قبل النقل يستطيع أن يقيس تلك المعجزات والدلائل على ما عنده من معايير وأقيسة فإذا به يجد نفسه أمام نبي عظيم أتاه الله سبحانه وتعالى من المعجزات المعنوية والحسية ما على مثله يؤمن الناس كلهم جميعًا .

ثبت عن النَّبِيِّ ﷺ أنه قَالَ : «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلاَّ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ أُومِنَ أَوْ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنِّي أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (١) رواه الشيخان .

وهنا يجدر بنا ذكر الصفات العامة التي عليها يقيس البشر صحة نبوة الأنبياء، وتلك الصفات التي دعت قساة القلوب وغلاظها إلى الإيمان والتسليم، فهذا ضمادٌ يسمع من الرسول بعض الكلمات فيسلم، كما روى مسلم في صحيحه أن ضمادًا لما وفد على الرسول ﷺ قال له ﷺ: «**إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله فقال ضماد: أعِدْ عليَّ كلماتك هؤلاء فلقد بلغن ناعوس البحر، هاتِ يَدَكَ أبايعك . . .**» (٢) .

فقد أظهر الله على يده ﷺ تصديقا لدعوته من المعجزات والدلائل ما لا يحصى ولا يعد، فهو ﷺ أكثر الأنبياء وأظهرهم برهانا وسنذكر لك في هذا الباب من الآيات ما تَقَرُّ به عينك ويزداد به يقينك مما رواه الأئمة الأعلام في صحاح كتب الحديث .

* * *

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: كيف نزول الوحي أول ما نزل، (٤٦٨١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا . . . ، برقم (١٥٢).

(٢) رواه مسلم، كتاب الجمعة، باب: تخفيف الصلاة، برقم (٨٦٨).

أولاً – صفات النبوة العامة

١-خاتم النبوة:

عن السَّائِبَ بْنَ يَزِيدَ يَقُولُ: ذَهَبَتْ بِي خَالَتِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ ابْنَ أُخْتِي وَجِعٌ، فَمَسَحَ رَأْسِي وَدَعَا لِي بِالْبَرَكَةِ، ثُمَّ تَوَضَّأَ فَشَرِبْتُ مِنْ وَضُوئِهِ، ثُمَّ قُمْتُ خَلْفَ ظَهْرِهِ فَنَظَرْتُ إِلَى خَاتَمِ النُّبُوَّةِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ مِثْلَ زِرِّ الْحَجَلَةِ (١). (رواه البخاري).

وهذه أيضًا من الصفات التي اشترك فيها الأنبياء كلهم جميعًا لتبقى شاهدًا على صدق نبوتهم.

بعض فوائد الحديث

الفائدة الأولى: جعل الله تبارك وتعالى لكل نبي دليلاً في نفسه على نبوته، يأنس به ويطمئن به قلبه، خاصة أول البعثة بل ومِنْ قبلها، وهذا من بالغ عنايته تبارك وتعالى بأنبيائه.

الفائدة الثانية: أقام الله تبارك وتعالى الحجة على كل العباد – خاصة من عاصر الأنبياء – على صدق أنبيائه، بشيء مادي ملازم للأنبياء، يسهل على كل أحد أن يراه، ولا يختلف اثنان أن مثل هذا الخاتم لا يمكن أن يصنعه بشر، بل هو خِلقي لا يقدر على صنعه إلا الله تبارك وتعالى.

الفائدة الثالثة: مكان خاتم النبوة من جسد النبي ﷺ هو أعلى الكتف من الجهة اليسرى قدر قبضة الكف على هيئة حبيبات بارزة عن سطح الجسد، لما رواه مسلم في صحيحه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَرْجِسَ قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَأَكَلْتُ مَعَهُ خُبْزًا وَلَحْمًا أَوْ قَالَ: ثَرِيدًا قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: أَسْتَغْفَرَ لَكَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: نَعَمْ وَلَكَ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩] قَالَ: ثُمَّ دُرْتُ خَلْفَهُ فَنَظَرْتُ إِلَى خَاتَمِ النُّبُوَّةِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ عِنْدَ نَاغِضِ كَتِفِهِ الْيُسْرَى جُمْعًا عَلَيْهِ خِيلَانٌ كَأَمْثَالِ الثَّآلِيلِ (٢).

الفائدة الرابعة: اشتهار أمر خاتم النبوة عند الصحابة ومعرفة اسمه ومكانه، لما ورد عند مسلم من حديث عبد الله بن سرجس: فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب: استعمال فضل وضوء الناس، برقم (١٩٠).

(٢) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب: إثبات خاتم النبوة وصفته، برقم (٢٣٤٦).

الفائدة الخامسة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على التبرك بآثار النبي ﷺ ومنها فضلة وضوئه ﷺ.

تنبيه: قال الإمام ابن حجر - رحمه الله -: وأما ما ورد من أنها كانت كأثر محجم أو كالشامة السوداء أو الخضراء أو مكتوب عليها: محمد رسول الله، أو سر فأنت المنصور، أو نحو ذلك، فلم يثبت منها شيء. انتهى (١).

٢ - الرؤية الصالحة:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِن النُّبُوَّةِ (٢).

الشاهد في الحديث:

قوله ﷺ عن الرؤيا: «جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة».

فالرؤيا الصالحة إذن أمر مشترك بين الأنبياء كلهم جميعًا، قال الإمام ابن حجر - رحمه الله - عن طبقات الناس في الرؤيا ما نصه: فالناس ثلاث درجات: الأنبياء ورؤياهم كلها صدق، وقد يقع فيها ما يحتاج إلى تعبير، والصالحون والأغلب على رؤياهم الصدق وقد يقع فيها ما لا يحتاج إلى تعبير، ومن عداهم يقع في رؤياهم الصدق والأضغاث وهي ثلاثة أقسام: مستورون فالغالب استواء الحال في حقهم، وفَسَقة والغالب على رؤياهم الأضغاثُ ويَقِلّ فيها الصدق، وكفار ويندر في رؤياهم الصدق جدًا. انتهى.

وقد بينت في باب: (تزكية أخلاقه ﷺ) بعض الأمور التي تتعلق بالرؤيا فلا حاجة للتفصيل هنا.

وهناك دليل آخر من حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ١-٣] (٣).

٣- الرعي:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلاَّ رَعَى الْغَنَمَ» فَقَالَ

---

(١) انظر فتح الباري (٦/ ٥٦٣).
(٢) رواه البخاري، كتاب التعبير، باب: الرؤيا الصالحة برقم (٦٩٨٩).
(٣) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾، برقم (٤٩٥٥).

أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ» [(١)].

الشاهد في الحديث:

قوله ﷺ: «ما بعث الله نبيًا إلا رعى الغنم».

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: قال الإمام النووي: (والحكمة في رعاية الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم للغنم؛ ليأخذوا أنفسهم بالتواضع وتَصْفى قلوبهم بالخلوة ويترقوا بالنصيحة إلى سياسة أممهم بالهداية والشفقة) [(٢)].

الفائدة الثانية: بيان أن النبي ﷺ قد بلغ المنتهى في التواضع، قال الإمام ابن حجر - رحمه الله -: (وفي ذكر النبي ﷺ لذلك بعد أن عَلِم كونَه أكرمَ الخلق على الله ما كان عليه ﷺ من عظيم التواضع لربه والتصريح بمنته عليه وعلى إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء) [(٣)].

الفائدة الثالثة: في الحديث دليل على أن الله عز وجل يتكفل الأنبياء بالرعاية والحفظ والتربية الربانية مِنْ قبل بعثتهم، وهذا دليل على شرفهم وعلو منزلتهم وعظيم الأمانة التي حملها الله لهم.

٤- التحذير من الدجال:

عن ابْنُ عُمَرَ قال: قَامَ النَّبِيُّ ﷺ فِي النَّاسِ فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ ذَكَرَ الدَّجَّالَ فَقَالَ: «إِنِّي أُنْذِرُكُمُوهُ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ قَدْ أَنْذَرَهُ قَوْمَهُ، لَقَدْ أَنْذَرَهُ نُوحٌ قَوْمَهُ، وَلَكِنْ سَأَقُولُ لَكُمْ فِيهِ قَوْلاً لَمْ يَقُلْهُ نَبِيٌّ لِقَوْمِهِ: تَعْلَمُونَ أَنَّهُ أَعْوَرُ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ» [(٤)].

الشاهد في الحديث:

قوله ﷺ: «وما من نبي إلا قد أنذره قومه، لقد أنذره نوح قومه» فهذا دليل أن التحذير من الدجال من الصفات المشتركة بين الأنبياء عليهم جميعًا الصلاة والسلام.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإجارة، باب: رعي الغنم على قراريط، برقم (٢٢٦٢).
(٢) انظر شرح النووي على صحيح مسلم (٦/١٤).
(٣) انظر فتح الباري (٤/٤٤١).
(٤) رواه البخاري، كتاب الجهاد، باب: كيف يعرض الإسلام على الصبي، برقم (٣٠٥٧).

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: من المهام العظيمة للأنبياء تحذير أقوامهم من الفتن، وهذا يدل على شفقة الأنبياء بمن بُعثوا إليهم. نقل الإمام ابن حجر - رحمه الله - عن ابن العربي قوله: «**إنذارُ الأنبياء قومَهم بأمر الدجال تحذيرٌ من الفتن وطمأنينة لها حتى لا يزعزعها عن حسن الاعتقاد**» (١).

الفائدة الثانية: تفضيل الله تعالى نبيه ﷺ على سائر الأنبياء، من حيث تخصيصه هنا ببعض العلوم التي لم يشاركه فيها نبي من قبله، يتمثل ذلك في قوله ﷺ: «**ولكني سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه: إنه أعور**» ولا يقال: إن الأنبياء من قبله ﷺ كانوا يعرفون هذه الخصلة في الدجال ولم يذكروها لقومهم؛ لأن هذا القول قدح في الأنبياء، حيث يقتضي أنهم أخفوا شيئًا من الوحي وهذا محال في حقهم صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا.

ويتفرع عليه تفضيل الله سبحانه وتعالى هذه الأمةَ على سائر الأمم السابقة من نفس الحيثية.

قال الإمام ابن حجر - رحمه الله - (قيل: إن السر في اختصاص النبي ﷺ بالتنبيه المذكور مع أنه أوضح الأدلة في تكذيب الدجال، أن الدجال إنما يخرج في أمته دون غيرها ممن تقدم من الأمم) (٢) وأقول: لا يناقض ما قال الحافظ - رحمه الله - ما ذكرته آنفًا.

الفائدة الثالثة: عظيم فتنة الدجال، ودليله من الحديث أن كل نبي يحذر أمته من شره المستطير، وذلك لما أعطاه الله سبحانه وتعالى من أمور خارقة للعادة لا يقدر عليها إلا هو سبحانه وتعالى، روى مسلم في صحيحه، عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَدِيثًا طَوِيلاً عَنِ الدَّجَّالِ فَكَانَ فِيمَا حَدَّثَنَا بِهِ قَالَ: «**يَأْتِي الدَّجَّالُ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْهِ أَنْ يَدْخُلَ نِقَابَ الْمَدِينَةِ بَعْضَ السِّبَاخِ الَّتِي بِالْمَدِينَةِ فَيَخْرُجُ إِلَيْهِ يَوْمَئِذٍ رَجُلٌ هُوَ خَيْرُ النَّاسِ -أَوْ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ- فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّكَ الدَّجَّالُ الَّذِي حَدَّثَنَا عَنْكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَدِيثَهُ فَيَقُولُ الدَّجَّالُ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُ هَذَا ثُمَّ أَحْيَيْتُهُ هَلْ تَشُكُّونَ فِي الْأَمْرِ؟! فَيَقُولُونَ: لاَ فَيَقْتُلُهُ ثُمَّ يُحْيِيهِ فَيَقُولُ حِينَ يُحْيِيهِ: وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَشَدَّ بَصِيرَةً مِنِّي الْيَوْمَ فَيَقُولُ: الدَّجَّالُ أَقْتُلُهُ، فَلاَ أُسَلَّطُ عَلَيْهِ**» (٣) ومن رحمة الله تعالى بهذه الأمة أنْ حَفِظَها من فتنة الدجال العظيمة بعمل قليل وهو

(١) انظر فتح الباري (١٣/ ٩٦). (٢) انظر فتح الباري (١٣/ ٩٦).
(٣) رواه مسلم، كتاب الفتن، باب: في صفة الدجال، برقم (٢٩٣٨).

حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف، روى مسلم في صحيحه، عن أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ» (١).

كما أن النبي ﷺ قد بَيَّنَ لأمته كَذِبَ الدجال في ادعائه الألوهية بدليل حسي ودليل عقلي، أما الدليل الحسي الشاهد فهو حديث الباب وما رواه مسلم في صحيحه عَنْ قَتَادَةَ، حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الدَّجَّالُ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ك ف ر أَيْ كَافِرٌ» (٢).

وأما الدليل العقلي، فما رواه مسلم أيضًا في صحيحه من حديث ابن الصياد الطويل: «تَعَلَّموا أنه لن يرى أحدٌ منكم ربَّه عز وجل حتى يموت» (٣).

عَنْ طَاوُسٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُعَلِّمُهُمْ هَذَا الدُّعَاءَ كَمَا يُعَلِّمُهُمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ يَقُولُ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ قَالَ مُسْلِم بْن الْحَجَّاجِ بَلَغَنِي أَنَّ طَاوُسًا قَالَ لابْنِهِ: أَدَعَوْتَ بِهَا فِي صَلاَتِكَ فَقَالَ لاَ قَالَ أَعِدْ صَلاَتَكَ؛ لِأَنَّ طَاوُسًا رَوَاهُ عَنْ ثَلاَثَةٍ أَوْ أَرْبَعَةٍ أَوْ كَمَا قَالَ» (٤).

٥- التخيير بين الدنيا والآخرة:

عنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: «إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ» فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، فَعَجِبْنَا لَهُ وَقَالَ النَّاسُ: انْظُرُوا إِلَى هَذَا الشَّيْخِ يُخْبِرُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ عَبْدٍ خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ وَهُوَ يَقُولُ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ الْمُخَيَّرَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ هُوَ أَعْلَمَنَا بِهِ وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً مِنْ أُمَّتِي لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، إِلاَّ خُلَّةَ الإِسْلاَمِ، لاَ يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلاَّ خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ» (٥)

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة صلاة المسافرين، باب: فضل سورة الكهف، برقم (٨٠٩).
(٢) رواه مسلم، كتاب الفتن، باب: ذكر الدجال، برقم (٢٩٣٣).
(٣) رواه مسلم، كتاب الفتن، باب: ذكر ابن صياد، برقم (٢٩٣١).
(٤) رواه مسلم، كتاب المساجد، باب: ما يستعاذ منه في الصلاة، برقم (٥٩٠).
(٥) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه، برقم (٣٩٠٤).

الشاهد في الحديث

قول النبي ﷺ: «إن عبدًا خيره الله أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده فاختار ما عنده»، وقد حضرت عائشة رضي الله عنها واقعة التخيير، لِمَا ثبت عند البخاري عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كُنْتُ أَسْمَعُ أَنَّهُ لاَ يَمُوتُ نَبِيٌّ حَتَّى يُخَيَّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَسَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ وَأَخَذَتْهُ بُحَّةٌ يَقُولُ: «مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» . . .[1] الْآيَةَ فَظَنَنْتُ أَنَّهُ خُيِّرَ.

بعض فوائد الحديث

الفائدة الأولى: في الشمائل النبوية:

١ - علو منزلة النبي ﷺ وكذا إخوانه من الأنبياء -عليهم جميعًا الصلاة والسلام- ويظهر ذلك في تخييرهم قبل الوفاة، بين الدنيا والآخرة، ودليل اشتراكهم جميعًا في ذلك، قول عائشة، رضي الله عنها: (كنت أسمع أنه لا يموت نبي حتى يخير بين الدنيا والآخرة) ولفظ «نبي» نكرة في سياق النفي فيقتضي العموم.

٢ - تواضع النبي ﷺ حيث قال: «إن عبدًا» ولم يقل: نبيًّا ولا رسولاً، بل أتى بلفظ «عبد» نكرة، وقد مر أكثر من مرة شرف مقام العبودية لله، عز وجل، وأنها أسمى المقامات.

٣ - زهد النبي ﷺ في الدنيا وتقديمه جوارَ الله عز وجل على البقاء في الدنيا، مع أن هذا التخيير لم يقع على الدنيا بما فيها من أفراح وأتراح، مقابل الآخرة، بل وقع التخيير بين ما يختاره النبي ﷺ لنفسه من زهرة الدنيا -أي ما يشاء من صحة وعافية ومال وبنين، ويكون كل ذلك بلا هموم ولا غموم ولا أمراض ولا أسقام؛ لأن الإنسان لا يختار لنفسه إلا كل ما يسعده ويفرحه- وبين ما عند الله سبحانه وتعالى فاختار النبي ﷺ ما عند الله، وذلك من كمال زهده وتمام حكمته وشوقه إلى لقاء ربه.

يتفرع على ذلك، أن ما عند الله، جل وعلا، هو خير وأبقى وأكمل للعبد المسلم، من دنيا فاز فيها بكل مرغوب، ونجا فيها من كل مرهوب، فإن وجدت مثل هذه الدنيا، وهو من أمحل المحال، فلا يفضلها عبد مؤمن على ما عند الله، من مساكن عاليات وأنهار

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته، برقم (٤٤٣٥).

جاريات وحور مقصورات، وزينة من الفضيات، وملابس من الحريرات، وأكوابٌ مذهبات، ونمارق من الاستبرق مشغولات، فضلاً عن رؤية وجه الله العظيم، وصحبة النبي الكريم، ومجالسة الصحب الميامين، مع ما أعده الرب الشكور من دائم السرور وعميم الحبور.

٤ - عظيم وفاء النبي ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم جميعًا، خاصة أبا بكر، صِدِّيق هذه الأمة، وسابقها لكل خير، ودليله من الحديث: **«إن مِنْ أَمَنّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبا بكر ولو كنت متخذًا خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكر»** [(١)]، وهذا منتهى الوفاء والاعتراف بفضل أهل الخير وردّ صنيعهم بما هو أجمل وأكمل. وقد ذكر صاحب الفتح أن معنى: «إن مِنْ أَمَنّ الناس عليَّ» أي أَبْذَلُ الناس لنفسه وماله؛ لأن المن هنا بمعنى العطاء والبذل، لا بمعنى المنة التي تفسد الصنيعة.

وكان من مظاهر رد النبي ﷺ لأيادي أبي بكر البيضاء على الإسلام والمسلمين ما يلي:

أ - وَجَّه النبي ﷺ الخطابَ إليه، وهو على المنبر، بقوله: **«يا أبا بكر لا تَبْكِ»** كما في إحدى روايات البخاري، وهي منقبة عظيمة لأبي بكر، رضي الله عنه، حيث ناداه بكنيته، وواساه في حزنه بأمره بعدم البكاء وذكر فضله.

ب - أثبت له النبي ﷺ أنه أكثر الصحابة صحبةً وملازمة له، ﷺ، وأكثرهم إنفاقًا، ودليله: **«إن من أمن الناس عليَّ في صحبته وماله أبا بكر»**.

ج - أثبت النبي ﷺ أهلية أبي بكر لأن يكون خليلاً له، لولا وجود المانع، وهو أن النبي ﷺ، خليل الرحمن، قال: **«ولو كنت متخذًا خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكر خليلا»**، ولو أن في الصحابة من هو أفضل صحبةً للنبي ﷺ لكان هو أولى من أبي بكر رضي الله عنه بخلة النبي ﷺ؛ لأن المقام بيان فضل الناس ولا ينبغي في حقه ﷺ رفع المفضول على الفاضل.

د - أمر النبي ﷺ بإغلاق جميع الأبواب التي تفتح بيوت الصحابة على المسجد، إلا باب أبي بكر الصديق، قال ﷺ: **«لا يبقين في المسجد خوخة إلى خوخة أبي بكر»**، وفي رواية عند البخاري: **«لا يبقين في المسجد باب إلا سُدَّ إلا باب أبي بكر»** [(٢)]، وهي منقبة عظيمة لأبي بكر، رضي الله عنه، وقد يكون من أسباب الأمر بسد جميع الأبواب، هو إظهار فضل

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب: الخوخة والممر في المسجد، برقم (٤٦٦).

(٢) سبق تخريجه قريبًا.

أبي بكر رضي الله عنه، وقد ذكر الإمام ابن حجر، رحمه الله، في فتح الباري أن باب علي رضي الله عنه قد استثني أيضًا، في غير هذا المقام؛ لأن باب بيته كان إلى جهة المسجد ولم يكن لبيته باب غيره. انتهى كلامه [1]، ومن ثَمّ ترى أن هنا فرقًا بين باب أبي بكر وباب علي رضي الله عنهما.

الفائدة الثانية: في مناقب الصديق رضي الله عنه:

١ - **فقهه:** حيث علم مراد النبي ﷺ بالعبد الذي خيره الله بين زهرة الدنيا وما عنده، ولولا أن أبا بكر رضي الله عنه يعلم أن الأنبياء يُخَيرون قبل قبضهم ما بكى، أو أنه كان يعلم مراد النبي ﷺ من الأمثلة التي كان يضربها للناس، قال الراوي: (وكان أبو بكر هو أعلمنا به)، وهو إقرار من الصحابة بفضل أبي بكر وعلمه رضي الله عنهم جميعًا.

أَضِفْ إلى ذلك توقيرَهم له من قولهم: (وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ) يعنون أبا بكر.

٢ - حبه للنبي ﷺ ومفاداته بالآباء والأمهات ويوضح ذلك:

أ - بكاؤه لما علم بقرب أجل النبي ﷺ وأظن أن البكاء قد غلبه من شدة الحزن، وإلا لما بكى أمام الناس، فهم كانوا أحرص الناس على ملازمة الإخلاص ومجانبة الرياء.

ب - **قوله:** (فديناك بآبائنا وأمهاتنا) وهذا يدل على فرط حبه للنبي ﷺ فكان يود لو سَلِمَ الرسول، ﷺ من كل أذًى، مقابل تعرض الآباء والأمهات لمثل هذا الأذى، وكان هذا أهون عليه.

ويتفرع عليه ما كان عليه الصديق رضي الله عنه من إجلال وإكبار لقدر الآباء والأمهات، حيث أراد أن يفتدي الرسول ﷺ بهما، ولو كان يرى شيئًا أعظم قدرًا منهما لذكره في هذا المقام.

٣ - **مكانته:** يتضح مما سبق أن أبا بكر رضي الله عنه هو خير الأصحاب بلا منازع، ولا يجادل في ذلك إلا مكابر، خاصة إذا أضيف إلى هذا الحديث، أنه هو الذي صحب النبي ﷺ في الهجرة المباركة، وأن الرسول، ﷺ، هو الذي طلب الزواج من ابنته رضي الله عنها، وأن النبي ﷺ أمره أن يصلي بالناس عندما حضرته الوفاة، وهو أدل دليل على أنه الأولى بالخلافة وكان يُسْأل مَنْ أحبُّ الناس إليك، فيقول: أبو بكر. ويضاف إلى

---

(١) انظر فتح الباري (٧/ ١٥).

ذلك كثرةُ الأحاديث التي تظهر فضله، رضي الله عنه، وأحقيته بالخلافة وهي أكثر من أن نحصيها، ونذكر هنا ما (رواه البخاري)، بإسناده عن مُحَمَّدُ بْنُ جُبَيْرٍ أَنَّ أَبَاهُ جُبَيْرَ بْنَ مُطْعِمٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ امْرَأَةً أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمَتْهُ فِي شَيْءٍ فَأَمَرَهَا بِأَمْرٍ فَقَالَتْ: أَرَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ لَمْ أَجِدْكَ قَالَ: إِنْ لَمْ تَجِدِينِي فَأْتِي أَبَا بَكْرٍ [1]. زَادَ لَنَا الْحُمَيْدِيُّ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَعْدٍ كَأَنَّهَا تَعْنِي الْمَوْتَ.

فإن قال قائل: كلام النبي، ﷺ، يدل على الواقع، ولا يدل على الأفضلية والأحقية الشرعية، لأبي بكر في الخلافة، قلت: لو كان الأمر يدل على الواقع فقط، لقال النبي ﷺ للمرأة: (إن لم تجديني فستجدي أبا بكر)، ولكنه ﷺ قال لها: «**إن لم تجديني فأتي أبا بكر**» ومن جهة أخرى، إن لم يكن أبو بكر، رضي الله عنه، هو الأحق بالخلافة، لوجود من هو أفضل منه، لأمرها النبي، ﷺ، أن تذهب إلى الأفضل، وكيف لا يفعل ذلك، وهو الناصح الأمين لهذه الأمة، ﷺ، فأعتقد أن في هذا الحديث إخبارًا من الرسول، ﷺ، بخلافة أبي بكر ورضائه بهذه الخلافة الراشدة.

الفائدة الثالثة: وهي متفرقات:

١ - تفاوت الصحابة رضي الله عنهم في بذل المال والنفس، لقوله ﷺ: «**إن من أمن الناس علي**» فذكر كلمة «**أمن**» على صيغة أفعل التفضيل، مما يدل على التفاوت.

٢ - ليس بالمال وحده يُنْصَر دين الله، ولكن يكون أيضًا ببذل النفس، وهذا لا يعدمه أحد على قدر استطاعته، بل قدم النبي ﷺ الصحبة على المال.

٣ - أخوة الإسلام صلة وثيقة وعظيمة بين المسلمين، يجب على المسلمين اعتبارها في كل معاملاتهم وتصرفاتهم، حيث أثبتها النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه، ولو كان هناك ما هو أعظم من هذه الرابطة لأثبتها النبي ﷺ، ولولا قوتها ومكانتها وفضلها، ما أثبتها النبي ﷺ في مقام يريد فيه أن يكافئ أفضل الصحابة وأحبهم إليه ﷺ.

٦ - عدم أكل الصدقة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أُتِيَ بِطَعَامٍ سَأَلَ عَنْهُ أَهَدِيَّةٌ أَمْ صَدَقَةٌ؟ فَإِنْ قِيلَ: صَدَقَةٌ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: كُلُوا وَلَمْ يَأْكُلْ وَإِنْ قِيلَ: هَدِيَّةٌ ضَرَبَ بِيَدِهِ ﷺ فَأَكَلَ مَعَهُمْ) [2].

---

(١) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب: قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلاً»، برقم (٣٦٥٩).
(٢) رواه البخاري، كتاب الهبة، باب: قبول الهدية، برقم (٢٥٧٦).

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: تختلف الصدقة عن الهدية في الأمور التالية:

١ - تُخرج الزكاة لتطهير مال الغني، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:١٠٣]، أما الهدية فتخرج لكسب وُدّ الناس وحبهم.

٢ - من يستحق الزكاة من المسلمين هم الفقراء والمصارف الأخرى التي ذكرها القرآن، أما الهدية فتخرج للفقراء والأغنياء على حد سواء.

٣ - الزكاة فريضة على كل مسلم غني، قد يدفعها المسلم بغير طيب نفس ولكن بغرض أداء الواجب أو خوف السلطان، أما الهدية فهي ليست واجبة على العبد، فالأصل أنه يخرجها عن طيب نفس.

٤ - قد يشعر الغني بمنة على الفقير عند إعطائه الزكاة، أما الهدية فلا.

٥ - أُمِرَ النبي ﷺ أن يقاتل الناس إذ هم منعوا زكاة أموالهم، روى البخاري في صحيحه عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ: فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّ الإِسْلاَمِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ» [(١)]. وهذا غير موجود في الهدية.

لهذه الأسباب أو لبعضها حَرَّمَ الله على الأنبياء - عليهم جميعًا الصلاة والسلام - الأكل من الصدقات والزكوات.

ويتفرع عليه: إرادة الله تعالى حَفْظَ أعراض أنبيائه وصَوْنَ ماء وجوههم، وأن تكون أيديهم هي العليا.

الفائدة الثانية: ليس التضييق على العباد في أمور أو أحكام معينة معناه أن الله عز وجل لا يحبهم، فهؤلاء هم خير الخلق أجمعين، ضيق الله عليهم بتحريم أكلهم من الصدقة حُبًّا لهم وإعلاءً لشأنهم.

الفائدة الثالثة: بيان ورعه ﷺ حيث كان يسأل عن الطعام قبل أن يأكله، قال الإمام النووي - رحمه الله -: (فيه استعمال الورع والفحص عن أصل المأكل والمشرب) [(٢)].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾، برقم (٢٥).
(٢) انظر شرح النووي على صحيح مسلم (٧/ ١٨٤).

كما يؤخذ من الحديث تواضعه ﷺ حيث كان يأكل من الهدية . فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أُتِيَ بِطَعَامٍ سَأَلَ عَنْهُ فَإِنْ قِيلَ : هَدِيَّةٌ أَكَلَ مِنْهَا وَإِنْ قِيلَ : صَدَقَةٌ لَمْ يَأْكُلْ مِنْهَا . (رواه مسلم) [(١)] .

٧ - عدم التوريث

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَرَدْنَ أَنْ يَبْعَثْنَ عُثْمَانَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ يَسْأَلْنَهُ مِيرَاثَهُنَّ ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ : أَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «لاَ نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ» [(٢)] .

الشاهد في الحديث:

قوله ﷺ : **«لا نورث ما تركنا صدقة»** ومقصود الجمع في قوله ﷺ : **«لا نورث»** أي : نحن معاشر الأنبياء .

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: عدم توريث الأنبياء من الأمور التي حفظ الله بها أعراض الأنبياء من الطعن والذم في حياتهم ، وحفظ بها أهل قرابتهم بعد مماتهم من التطاحن والاختلاف . وعدمُ التوريث من الأمور التي كانت بلا شك تضيقًا في الظاهر على قرابة الأنبياء ، ولكن الله عز وجل عوضهم عن ذلك ما هو أعظم بركة وأجرًا وذكرًا في الدنيا والآخرة ، قال الإمام النووي - رحمه الله - (قال العلماء : الحكمة في أن الأنبياء صلوات الله عليهم لا يورثون أنه لا يؤمن أن يكون في الورثة من يتمنى موته - أي النبي ﷺ فيهلك ؛ ولئلا يظن بهم الرغبة في الدنيا لوارثه فيهلك الظان ، وينفر الناس عنه) [(٣)] .

الفائدة الثانية: في الحديث دليل على فقه عائشة رضي الله عنها ، وسعة حفظها واطلاعها على ما لم يطلع عليه غيرها من أزواج النبي ﷺ ، والدليل على ذلك أنها احتجت بما سمعته من النبي ﷺ في المسألة ، وهي فضيلة ظاهرة لعائشة رضي الله عنها .

الفائدة الثالثة: ليس هناك حرج أن يطلب المسلم (مهما علا قدره في الدين والعلم

---

(١) رواه مسلم ، كتاب الزكاة ، باب : قبول النبي ﷺ الهدية ، برقم (١٠٧٧) .
(٢) رواه البخاري ، كتاب الفرائض ، باب : قول النبي ﷺ : «لا نورث ما تركنا صدقة» ، برقم (٦٧٣٠) .
(٣) انظر شرح النووي على صحيح مسلم (١٢/ ٧٤) .

والوجاهة) حقه الشرعي من الميراث: (مهما صغر مقدار هذا الميراث)، ودليله أن أزواج النبي ﷺ مع فضلهن قد طلبن ميراثهن، وما أنكرت عائشة رضي الله عنها طلبهن إلا من جهة أن النبي ﷺ لا يُوَرث، وفي حديث فاطمة والعباس دليل على ذلك؛ فعَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ: (أَنَّ فَاطِمَةَ وَالْعَبَّاسَ عَلَيْهِمَا السَّلاَم أَتَيَا أَبَا بَكْرٍ يَلْتَمِسَانِ مِيرَاثَهُمَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُمَا حِينَئِذٍ يَطْلُبَانِ أَرْضَيْهِمَا مِنْ فَدَكَ وَسَهْمَهُمَا مِنْ خَيْبَرَ فَقَالَ لَهُمَا أَبُو بَكْرٍ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: يَقُولُ: «لاَ نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ إِنَّمَا يَأْكُلُ آلُ مُحَمَّدٍ مِنْ هَذَا الْمَالِ». قَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللَّهِ لاَ أَدَعُ أَمْرًا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَصْنَعُهُ فِيهِ إِلاَّ صَنَعْتُهُ. قَالَ: فَهَجَرَتْهُ فَاطِمَةُ فَلَمْ تُكَلِّمْهُ حَتَّى مَاتَتْ) (١).

٨ - رؤية مقاعدهم في الجنة

أن عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ صَحِيحٌ يَقُولُ: «إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ ثُمَّ يُحَيَّا أَوْ يُخَيَّرَ». فَلَمَّا اشْتَكَى وَحَضَرَهُ الْقَبْضُ وَرَأْسُهُ عَلَى فَخِذِ عَائِشَةَ غُشِيَ عَلَيْهِ فَلَمَّا أَفَاقَ شَخَصَ بَصَرُهُ نَحْوَ سَقْفِ الْبَيْتِ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى (٢).

الشاهد في الحديث:

قوله: (إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة).

وهذا دليل على علو منزلة الأنبياء عليهم جميعًا الصلاة والسلام، حيث إنهم يرون في الدنيا - قبل موتهم - مقاعدهم من الجنة، ثم يأتي بعد ذلك التخيير، والحكمة من ذلك - والله أعلم - ترغيبهم وحثهم على اختيار جوار الله، وهذا يُعد من عظيم محبة الله لهم وإرادته جوارهم منه سبحانه.

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: زهد النبي ﷺ في الدنيا وتفضيله الدار الآخرة ولقاء ربه، حيث إنه ﷺ ما تردد بل اختار من أول تخيير له الدار الآخرة.

الفائدة الثانية: أدبه ﷺ مع ربه، وحرصه على تعليم الأمة هذا الأدب، حيث

---

(١) رواه البخاري، كتاب الفرائض، باب: قول النبي ﷺ: «لا نورث ما تركنا صدقة»، برقم (٦٧٢٥).

(٢) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته، برقم (٤٤٣٧).

وصف ﷺ الرفيق - الذي هو جوار ربه والدار الآخرة - بوصف أتم أكمل وهو الأعلى.

ويتفرع عليه سوء أدب من يزهد في الدار الآخرة أو يفضل عليها الدنيا، ويأمل فيها ويتعلق بها أكثر من تعلقه بالدار الآخرة.

وليعلم كل مسلم أن النبي ﷺ لما حكم على الدار الآخرة بصفة (الأعلى) فقد تضمن هذا الحكم على هذه الحياة التي نسكنها (بالدنيا) ويُصَدق ذلك قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧].

وإذا كان النبي ﷺ قد اختار الرفيق الأعلى مع أن كل لحظة في حياته كانت بركة ونفعًا لأمته ﷺ، أفلا نختار نحن الرفيق الأعلى وحياتنا كلنا أقل نفعًا - قطعًا - من حياته ﷺ.

الفائدة الثالثة: في مناقب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

١ - فقهها رضي الله عنها حيث علمت من حال النبي ﷺ لما أشخص بصره إلى السقف ثم قال: **«اللهم الرفيق الأعلى»** أنه يُخير، وقد ربطت ذلك بما سمعته منه ﷺ حال صحته حيث قال لها: **«إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير»**، وهذا يدل أيضًا على قوتها رضي الله عنها ورباطة جأشها إذ لم يذهب عقلها أو يذهل قلبها، وهي ترى النبي ﷺ في سكرات الموت، فداه أبي وأمي.

٢ - علمها بحال النبي ﷺ، وزهده في الدنيا وإقباله على الآخرة حيث علمت أنه ﷺ سيختار الرفيق الأعلى، حيث قالت: (إذًا لا يختارنا).

٣ - من فضائلها رضي الله عنها وفضائلُها كثيرة - ولكن هذه فضيلة لا يساميها فيها أحد أبدًا - أن النبي ﷺ خُير واختار ثم قُبِض في حجرها، ودفن في غرفتها، بل لها ما هو أعظم من ذلك وأشد بركة، أنها كانت آخر أحد من البشر اختلط ريقه بريق النبي ﷺ، وورد في الصحيح عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَسْأَلُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: «أَيْنَ أَنَا غَدًا؟ أَيْنَ أَنَا غَدًا؟» يُرِيدُ يَوْمَ عَائِشَةَ فَأَذِنَ لَهُ أَزْوَاجُهُ يَكُونُ حَيْثُ شَاءَ، فَكَانَ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ حَتَّى مَاتَ عِنْدَهَا قَالَتْ عَائِشَةُ: فَمَاتَ فِي الْيَوْمِ الَّذِي كَانَ يَدُورُ عَلَيَّ فِيهِ فِي بَيْتِي فَقَبَضَهُ اللَّهُ وَإِنَّ رَأْسَهُ لَبَيْنَ نَحْرِي وَسَحْرِي وَخَالَطَ رِيقُهُ رِيقِي (١). وما كان هذا إلا بتقدير الله سبحانه وتعالى. وسيأتي ذلك مفصلاً إن شاء الله تعالى في باب أيام من حياة النبي ﷺ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته، (٤٤٥٠).

٩ - تحريم أجسادهم على الأرض:

فقد روى أبو داود في سننه بإسناده عن أوس بن أوس قال: حَدَّثَنَا هَارُونُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ، عَنْ أَبِي الْأَشْعَثِ الصَّنْعَانِيِّ، عَنْ أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ». قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ تُعْرَضُ صَلَاتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرِمْتَ؟ يَقُولُونَ: بَلِيتَ. فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ» [(١)].

ثانيا: ذكره ﷺ في الكتب المنزلة وأخذ العهد على الأنبياء بنصرته

ا- هو دعوة إبراهيم:

قال تعالى (على لسان إبراهيم ﷺ): ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٩].

إجماع أهل التفسير، بل أهل القبلة كلهم جميعًا على أن المقصود بهذه الدعوة هو نبينا محمد ﷺ، قال الإمام الطبري: القول في تأويل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾: هذه دعوة إبراهيم وإسماعيل لنبينا محمد ﷺ، ونقل عن قتادة قوله: (ففعل الله ذلك، فبعث فيهم رسولاً من أنفسهم يعرفون وجهه ونسبه، يخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد) [(٢)].

وقال صاحب «المنتخب» في معنى الآية الكريمة: (ربنا وابعث في ذريتنا رسولاً منهم يقرأ عليهم آياتك ويعلمهم ما يوحى إليه به من كتاب وعلم نافع وشريعة محمودة ويطهرهم من ذميم الأخلاق إنك أنت الغالب القاهر الحكيم فيما تفعل وما تأمر به وما تنهى عنه).

بعض فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: علو مكانة النبي ﷺ ومنزلته الرفيعة العالية عند ربه تبارك وتعالى، ثم

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب: فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة، برقم (١٠٤٧)، وهو حديث صحيح: وقد أوردنا هذا الحديث في خارج الصحيحين لعدم وجود حديث بهذا اللفظ أو المعنى في أحدهما.

(٢) انظر تفسير الطبري (١/ ٥٥٧).

عند أبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام، يتبين ذلك من صيغة الدعاء وكيفية استجابة الله له ونُجْمل ذلك فيما يلي:

١ - استفتح إبراهيم ﷺ دعاءه بلفظ ﴿رَبَّنَا﴾ استدرارًا لرحمات الله تبارك وتعالى وأنه بمقتضى ربوبيته لخلقه التي تستلزم الرعاية والتربية والهداية يبعث في الأمة مثل هذا الرسول الكريم. وقد حَذف الخليل من دعائه حرف النداء (يا) إشعارًا بقربه من الرب جل في علاه.

٢ - اختار إبراهيم ﷺ لنبينا محمد ﷺ أشرف نسب على وجه الأرض، وهي ذرية إسماعيل عليه السلام، قال صاحب التفسير الميسر في تفسير الآية: (ربنا وابعث في هذه الأمة رسولاً من ذرية إسماعيل يتلو عليهم آياتك ويعلمهم القرآن والسنة ويطهرهم من الشرك وسوء الأخلاق).

٣ - اختار إبراهيم ﷺ لختم الدعاء -وهذا من فقهه وعلمه- اسمين كريمين يتوسل بهما إلى الله تعالى لتحقيق دعائه على أحسن ما يكون، وهو العزيز الحكيم، فبعزته تبارك وتعالى أرسل رسولنا الكريم ونصره وأيده بالآيات الباهرات، الكونية والشرعية، فأظهر دينه على كل الأديان والملل والنحل، وبمقتضى حكمته تبارك وتعالى اختار خير خلقه أجمعين ليحقق به دعوة الخليل ﷺ. قال عز من قائل: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

٤ - من فضله ومنته تبارك وتعالى أن أجاب دعوة إبراهيم ﷺ على أحسن ما يكون، بل زاد عليها، بأن جعل النبي المبعوث شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وجعله خير الأولين والآخرين، وختم به سلسلة الأنبياء والمرسلين.

الفائدة الثانية: كان دعاء الخليل ﷺ والذي استجابه الله تبارك وتعالى على أحسن ما يكون، خير تزكية لنبينا عليه الصلاة والسلام من قبل بعثته بقرون طويلة، يتبين ذلك من:

١ - أنه يكفيه ﷺ شرفًا ورفعة أن تكون بعثته ببركة دعاء خير الأنبياء - بعد نبينا ﷺ - الخليل إبراهيم ﷺ.

٢ - أنه ﷺ سيأتي بكتاب يُتَعَبَّدُ لله تبارك وتعالى بتلاوته، وهو الذي سيعلم الأمة قرآنه ويعلمهم تلاوته، كما سيعلمهم السنة الشريفة، جاء في دعاء الخليل ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٢٩] والحكمة هي السنة الشريفة، راجع ما قاله صاحب

التفسير الميسر والذي ذكرته آنفًا، وكفى النبي ﷺ تزكيةً أن تطلق الحكمة على سنته الشريفة.

٣ - أنه ﷺ سيربي هذه الأمة على خير الأخلاق والأقوال والأفعال، بما يضمن لها طهارة القلوب والعقول، ورد في دعاء إبراهيم ﷺ ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

الفائدة الثالثة: وجوب امتنان هذه الأمة للخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام، الذي دعا ربه واجتهد - كما رأينا - في دعائه، فكان من بركة دعائه أن بعث الله فينا وإلينا خير خلقه أجمعين ﷺ.

الفائدة الرابعة: ليس تأخير استجابة الدعاء أو عدم معاينة العبد لاستجابة الله دعائه، شاهدٌ أو قرينة على رد دعاء المؤمن، كلا، فالله تبارك وتعالى قد استجاب دعاء الخليل كأحسن ما يكون ولم يعاين صاحبُ الدعاء الإجابةَ، ولكنْ تأخُرُ الإجابة كان لحكمة بليغة ترفع مقام الداعي الخليل فقد استجاب الله دعاءه في خاتم النبيين.

الفائدة الخامسة: علو مكانة إبراهيم عليه السلام عند ربه، وذلك بأن وفقه لمثل هذا الدعاء وألهمه إياه وجعل هذا الدعاء مقدمة لبعثة خير الأنبياء عليه الصلاة والسلام، ثم جعله أبًا أكبر للمصطفى ﷺ، بل جعل كل الأنبياء من بعده من ذريته، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت: ٢٧]، وهذا الذي جعل العلماء يقولون: إن إبراهيم ﷺ هو خير الأنبياء جميعًا بعد نبينا ﷺ.

٢ - ذكره ﷺ في التوراة والإنجيل:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

من نعم الله سبحانه وتعالى المتتالية والمتعاقبة على نبيه ﷺ أن جاء ذكره بل نَعْتُه وما يؤمر به وما ينهى عنه في التوراة والإنجيل.

بعض فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: من دلائل رفع الله تبارك وتعالى ذِكْرَ النبي ﷺ أنَّ ذِكْرَه قد ورد في

التوراة والإنجيل بأحسن الصفات وأتمها وكان ذلك بمثابة أعظم التزكية له قبل بعثته ﷺ، والصفات هي :

١ - صفة النبوة التي هي أعظم الصفات وأجلُّها .

٢ - صفة الأمية وهي ليست صفةً يُراد بها إثبات الذم والنقص، بل هي صفة يراد بها المدح والكمال، وموطن المدح في اللفظ، أن هذا النبي الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب كان خير معلم للبشرية، أخرج الناس من الظلمات إلى النور، ولا يشك عاقل أن الأمي لا يأتي بكتاب عظيم مثل هذا القرآن إلا إذا أوحى الله له به .

٣ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال الشيخ السعدي - رحمه الله - : (المعروف هو كل ما عُرِفَ حُسْنه وصلاحه ونَفْعُه، والمنكر هو كل ما عُرف قُبْحُه في العقول والفطر، فيأمرهم بالصلاة والزكاة والصوم وصلة الرحم وبر الوالدين والإحسان إلى الجار والمملوك وبذل النفع لسائر الخلق والصدق والعفاف والنصيحة، وينهى عن الشرك بالله وقتل النفس بغير حق والزنا وشرب ما يسكر العقل والظلم لسائر الخَلْق والكذب والفجور ونحو ذلك) انتهى [١] .

وأقول : إن من أوضح دلائل نبوة أي نبي، هو حُسْن ما يَأمر به وقبح ما يَنْهى عنه، وبه استدل هرقل عظيم الروم على صدق النبي ﷺ .

٤ - تحليله ﷺ الطَّيِّبَ من كل شيء، فيدخل فيه المطاعم والمشارب واللباس والأقوال والأخلاق والأفعال، وتحريمه الخبيثَ من كل شيء سواء من المطاعم أو المشارب أو العلاقات السيئة والأخلاق الرذيلة والمعاملات الفاسدة التي توقع في القلوب الحسد والبغضاء .

٥ - رحمته الكبيرة بأمته؛ إذ كان من هديه ﷺ أن يُيَسِّر لأمته أمر الدين وألا يكلفهم ما لا يطيقون، وضرب صاحب التفسير الميسر أمثلة على ذلك فقال : **«ويُذهب عنهم ما كُلفوه من الأمور الشاقة كقطع موضع النجاسة من الجلد والثوب وإحراق الغنائم والقصاص حتمًا من القاتل عمدًا كان القتلُ أم خطأً»** .

أقول أخي الكريم : سبحان من ضمن لنبينا ﷺ الذكر الحسن والثناء الجميل في الكتب

---

(١) انظر تفسير السعدي (٣٠٥) .

المنزلة من عنده وأعظمها - بعد القرآن الكريم - التوراة والإنجيل.

الفائدة الثانية: لم يتعبد الله سبحانه وتعالى هذه الأمة وحدها بالإيمان بخاتم النبيين ﷺ، بل تعبد الله تبارك وتعالى أهل التوراة والإنجيل بالإيمان به ﷺ بصفته واسمه ونعته، والدليلُ على ذلك أنّ ذِكْرَه ﷺ قد جاء في كتبهم وَفَرْضٌ عليهم أن يؤمنوا بما أنزل من عند الله على وجه التفصيل ويتفرع عليه أن من كفر بالنبي ﷺ من أهل الكتاب فقد كفر أولاً بالكتاب الذي أنزل على نبيه.

الفائدة الثالثة: جواز أن ينسب التحليل والتحريم والأمر والنهي إليه ﷺ، من جهة أنه مبلغ الشرع عن الله سبحانه وتعالى سواء بالقرآن أو السنة. ورد في الآية الكريمة: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

الفائدة الرابعة: فصاحة القرآن العظيم وبلاغته إذ قَسَّمَتِ المهام، التي يضطلع بها النبي ﷺ إلى ثلاثة جوانب كلية بألفاظ قليلة جامعة مانعة وهي:

أ - جانب دعوى: يتمثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ويتفرع عليه أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أركان هذا الدين، حيث ذكره الله -تبارك وتعالى- كأول مهام النبي ﷺ، ويتفرع عليه أيضًا بيان شرف من يقوم بهذه المهمة من عموم المسلمين حيث هي وظيفة الأنبياء.

ب - جانب تشريعي: يتمثل في التحليل والتحريم، ونأخذ من الآية قاعدة أصولية عظيمة تنسحب على كل أمر لم يأتِ فيه نص، وهي: كل أمر اجتمع أهل الاختصاص من المسلمين أنه طيب لا ضرر منه فهو حلال، وكلُّ أمر اجتمعوا على أنه ضار مفسد للصحة أو للعقل والمال ولا نفع فيه فهو حرام ولا يحتاج الفتوى بحل القسم الأول أو تحريم القسم الثاني إلى دليل خاص من الشرع، بل يكفي هذا الدليل العام ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فالدخان مثلاً نقطع أنه حرام ويأثم شاربه، لاجتماع أهل الاختصاص كلهم جميعًا على ضرره البالغ الذي لا يقاربه النفع المتوهَّم مِنْ شُربه.

ج - جانب اجتماعي: ويتمثل في التخفيف عن الأمة تلك التكاليف التي كانت تشق على الأمم السابقة.

ويؤخذ من هذا الجانب أن هذه الشريعة التي جاء بها النبي ﷺ ليس فيها أبدًا ما يشق على الأمة أو يسبب لها العنت والحرج، وأن كل أصول وفروع هذه الشريعة قائمة

على التيسير والتسهيل .

الفائدة الخامسة : حددت الآية الكريمة أربعة شروط لفلاح العبد في الدنيا والآخرة، والشروط هي :

١ - الإيمان بالنبي ﷺ، إيمان به وبكل ما جاء به من أصول وفروع، ومن عقائد وشرائع .

٢ - تعظيمه ﷺ وتبجيله : تعظيمه في نفسه وفي كل ما جاء به من كتاب وسنة، وتبجيله، وتبجيل كل ما يتعلق به، من أزواج وأولاد وأهل بيت كرام، وكذا من اتبعه ونصره من المهاجرين والأنصار . شريطة أن يظهر هذا التعظيم في أقوالنا وسلوكنا وجميع تصرفاتنا .

٣ - نصرته ﷺ، وتشمل نصرة كتابه - القرآن الكريم - ونصرة سنته بالعمل بها والدفاع عنها وتطهيرها مما يشوبها من الأحاديث الضعيفة والموضوعة .

٤ - اتباعه ﷺ، أي التقيد بكل ما ورد بالقرآن الكريم والسنة الشريفة، وعدم الابتداع في الدين .

وتلحظ في الآية الكريمة أن كل أسباب الفلاح جاءت مطلقة غير مقيدة، لتشمل جميع ما ذُكِرَ، فالإيمان به مثلاً يجب أن يشمل جميع أوجه الإيمان التي يمكن أن تتعلق به ﷺ وكل ما جاء به، حتى يشمل الإيمان بشمائله ﷺ وحسن صفاته الخِلْقية والخُلُقية ومعجزاته الكونية والشرعية .

قال صاحب التفسير الميسر : (فالذين صدقوا بالنبي الأمي محمد ﷺ وأقروا بنبوته ووقروه وعظموه ونصروه واتبعوا القرآن المنزل عليه وعملوا بسنته أولئك هم الفائزون بما وعد الله به عباده المؤمنين) .

٣ - تبشير عيسى عليه السلام به ﷺ:

قال تعالى : ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف :٦] .

البشرى : هي ما يفرح به العبد ويُسَرُّ له، وسميت بهذا الاسم لتغير بشرة الإنسان بسماعها . فعيسى عليه السلام وهو آخر أنبياء بني إسرائيل زَفَّ إلى قومه ومن سمعه من غير قومه خبرًا سعيدًا وهو مقدم النبي المصطفى والرسول المجتبى ﷺ .

بعض فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: تزكية النبي ﷺ في الإنجيل، حيث ذكر باسم طيب جميل يدل على ثناء الناس عليه لكثرة بركته ووفرة خيره، وأحمد هو الذي يحمد بما فيه من خصال الخير أكثر مما يحمد غيره).

الفائدة الثانية: اشتهار أمر بعثته ﷺ في الأولين والآخرين باسمه الصريح، وخصاله الخلقية وشريعته السمحة، بل والكتاب الذي سيأتي به، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٩٦] قال الإمام ابن كثير - رحمه الله -: (والمقصد أن الأنبياء عليهم السلام لم تَزَلْ تنعتُه وتحكيه في كتبها على أممها، وتأمرهم باتباعه ونصره ومؤازرته إذا بعث، وكان ما اشتهر الأمر في أهل الأرض على لسان إبراهيم الخليل والد الأنبياء بعده حيث دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم وكذا على لسان عيسى ابن مريم) (١).

الفائدة الثالثة: واجب على كل مسلم ومسلمة أن يفرح بالنبي ﷺ وبعثته، وبكل ما جاء به، ومن لم يفعل فقد رد بشرى الله تبارك وتعالى على لسان نبيه عيسى ﷺ.

الفائدة الرابعة: بيان أُخوة الأنبياء عليهم جميعًا الصلاة والسلام مع اختلاف الأعراق والأجناس، فهذا عيسى عليه السلام وهو من أنبياء بني إسرائيل يبشر بمقدم الرسول العربي نبينا محمد ﷺ.

الفائدة الخامسة: ليس بين عيسى عليه السلام ونبينا محمد ﷺ نبي آخر، لقوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦].

الفائدة السادسة: تعدد أسمائه ﷺ فقد ورد في القرآن، محمد وأحمد، وورد عند البخاري عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ لِي أَسْمَاءً: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا المَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِيَ الكُفْرَ، وَأَنَا الحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا العَاقِبُ» (٢).

٤- ذكره في كتب الأولين:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٩٦]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ

(١) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٣٦١).
(٢) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، برقم (٤٨٩٦).

﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦]. والزبر اسم جنس لجميع الكتب المنزلة.

إن كان قد ثبت بالأدلة التفصيلية ذِكْرُ النبي ﷺ على لسان إبراهيم وكذلك في التوراة والإنجيل، كما ذَكَرْتُ سابقًا، فقد أوردت هذا الباب للدلالة على أن ذكره ﷺ قد ورد في جميع الكتب المنزلة من الله على أنبيائه عليهم جميعًا الصلاة والسلام، بدليل عام وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء :١٩٦] ، وإن كان هناك خلافٌ بين المفسرين على مَن المقصود بالآية، هل هو النبي ﷺ في كتب الأنبياء السابقين، أم القرآن الكريم، فالأمر لا يختلف أبدًا، فإن ذكر القرآن يتضمن ذكر من نزل عليه هذا الكتاب العزيز.

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله -: (وإنّ ذِكْرَ هذا القرآن والتنويهَ به لموجود في كتب الأولين) [١] وقال الإمام القرطبي - رحمه الله - (أي أنّ ذِكْرَ نزوله لفي كتب الأولين يعني الأنبياء، وقيل: أي أن ذِكْرَ محمد ﷺ في كتب الأولين، والزبر الكتب، والواحد منها زبور) [٢] وقال صاحب المنتخب: (وإن ذكر القرآن والإخبار عنه بأنه من عند الله نزل على محمد ﷺ لثابت في كتب الأنبياء السابقين).

٥- أخذ العهد على الأنبياء بنصرته ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١].

قال الإمام الطبري - رحمه الله -: (هذا ميثاقٌ أخذه الله على النبيين، أن يصدق بعضُهم بعضًا، وأن يبلغوا كتاب الله ورسالاته إلى قومهم، وأخذ عليهم فيما بَلَّغَتهم رسلُهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ويصدقوه وينصروه) [٣] وقال صاحب التفسير الميسر: (واذكر - يا محمد - إذ أخذ الله العهد المؤكد على جميع الأنبياء: لئن آتيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول من عندي مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه، فهل أقررتم واعترفتم بذلك وأخذتم على ذلك عهدي الموثق؟ قالوا: أقررنا بذلك، قال: فليشهد

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٨).
(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ١٣٨).
(٣) انظر تفسير الطبري (٣/ ٣٣٢).

بعضُكم على بعض، واشهدوا على أممكم بذلك، وأنا معكم من الشاهدين عليكم وعليهم، وفي هذا أن الله أخذ الميثاق على كل نبي أن يؤمن بمحمد ﷺ، وأخذ الميثاق على أمم الأنبياء بذلك). انتهى.

بعض فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: إرادة الله سبحانه وتعالى إظهار فضل نبينا ﷺ على سائر الأنبياء كلهم جميعًا، إذ أخذ عليهم العهود والمواثيق أن ينصروه ويتبعوه، كما ذكر في تفسير الآية.

فإن قال قائل: إذا كان هذا الميثاق قد أخذه الله سبحانه وتعالى على جميع الأنبياء فلماذا فُضِّلَ النبي ﷺ على سائر الأنبياء بهذا الميثاق؟ قلت: فضل الله تبارك وتعالى على نبيه ﷺ في أخذ هذا الميثاق أظهر مقارنة بإخوانه من الأنبياء، وذلك لسببين:

السبب الأول: إذا كان كل نبي أخذ الله عليه العهد بنصرة من يدرك من الأنبياء، فإن نبينا ﷺ، هو خاتم الأنبياء والمرسلين، فلن يبعث معه ولا بعده نبي آخر، لذلك أقول: إنه لم يؤخذ عليه هذا الميثاق، ولو فرض - على سبيل الفرض - أنه أدرك نبيًّا آخر فسيكون هو ﷺ المتبوع المنصور وليس التابع الناصر. ألم تر أنه ﷺ صلى بالأنبياء إمامًا ليلة الإسراء؟!.

السبب الثاني: إذا كان الله تبارك وتعالى قد أخذ الميثاق على كل نبي بنصرة مَنْ سيأتي بعده مِنَ الأنبياء، علمنا أن الأنبياء كلهم جميعًا قد أخذ عليهم العهد بنصرة نبينا محمد ﷺ، حيث إنه ﷺ آخرهم بعثة، فيكون هذا من دلائل فضله ﷺ. قال الشيخ السعدي - رحمه الله -: (وعموم ذلك أنه أخذ على جميعهم الميثاق بالإيمان والنصرة لمحمد ﷺ) (١).

الفائدة الثانية: من مظاهر اعتناء الله عز وجل بنبيه ﷺ، أن جعل العهد الذي أخذه على الأنبياء بالإيمان به ونصرته في غاية التوكيد، يتبين ذلك من:

١ - تسمية العهد (ميثاق)، وهي كلمة تدل على إحكام العهد وشدته والمبالغة في تعظيمه.

٢ - ذكرهم الله عز وجل بمنته عليهم، إذ أعطاهم الكتاب والحكمة، ليرغبهم في الوفاء بهذا الميثاق فيكونوا أشد حرصًا على الالتزام به. قال الشيخ السعدي - رحمه الله -: (هذا إخبار منه تعالى أنه أخذ عهد النبيين وميثاقهم كلهم بسبب ما أعطاهم ومَنَّ به عليهم

(١) انظر تفسير السعدي (١/ ١٣٧).

من الكتاب والحكمة المقتضي القيام بحق الله) [١].

٣ - حث الله عز وجل أنبياءه على اتباع النبي ﷺ ونصرته بإثبات أن الذي سيأتي به موافق لما في أيديهم من كتاب ربهم. قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ [آل عمران: ٨١] وقوله تعالى: ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ هي صفة كاشفة وليست صفة مقيدة يمكن أن تتخلف.

٤ - ورد التوجيه الرباني بوجوب الاتباع والنصرة، بلام التوكيد، في قوله تعالى: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١].

٥ - طلب الله عز وجل إقرارهم على كل ما جاء بالميثاق، قال تعالى: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا﴾ [آل عمران: ٨١]، قال صاحب التفسير الميسر: (فهل أقررتم واعترفتم بذلك وأخذتم على ذلك عهدي الموثق؟ قالوا: أقررنا بذلك).

٦ - لتعظيم الميثاق في قلوب الأنبياء - عليهم جميعًا الصلاة والسلام - بل وفي قلوب أتباعهم، أشهَدَ الله سبحانه وتعالى بعضَهم على بعض بما جاء فيه وبإقرارهم على الوفاء به، قال تعالى: ﴿فَٱشْهَدُوا۟﴾. قال صاحب تفسير الميسر: (قال: فليشهد بعضكم على بعض واشهدوا على أممكم بذلك).

٧ - من أعظم أوجه تعظيم هذا الميثاق، أن الله تبارك وتعالى شهد عليه، فهي شهادة الحق على من أرسلهم عز وجل بالحق، وفي هذا أبلغ التخويف من نقض هذا العهد، وكذا أبلغ الترغيب في الوفاء به.

الفائدة الثالثة: دعوة الأنبياء كلها واحدة من لدن آدم إلى نبينا محمد ﷺ وإن اختلفت شرائعهم وسننهم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ [آل عمران: ٨١].

الفائدة الرابعة: إذا كان على جميع الأمم نصرةُ نبينا ﷺ، فمن باب أولى تكون نصرتنا له ﷺ أولى وأوجب، والحساب على عدم نصرته أشد وأبقى.

* * *

(١) انظر تفسير السعدي (١/ ١٣٦).

ثالثًا: تأييده ﷺ بالمعجزات الباهرات

١- معجزة القرآن العظيم:

إذا كانت معجزة الإسراء بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى ومعراجه إلى السماوات السبع وإلى ما بعدها حتى سمع صريف الأقلام هي أعظم معجزاته الحسية، وإذا كانت الشفاعة العظمى للنبي ﷺ يوم القيامة هي المقام المحمود الذي يغبطه عليه الملائكة الكرام والأنبياء العظام، ويحمده عليه أهل السماوات السبع والأرضين، فإن أعظم ما امتن الله به على عبد من عباده على مر العصور وتتابع الدهور، هو إنزال القرآن العظيم على نبينا محمد ﷺ، فوالله إنه لتشريف يتضاءل عنه وعنده كل تشريف، ويتقاصر عنه وعنده كل تكريم، واعتقد اعتقادًا جازمًا - والله أعلى وأعلم - أنها منزلة لا تساميها ولا تزاحمها، بل لا تدانيها أية منزلة بل أقول بملء الفم: إنها نعمة لا يقدر قدرها إلا الذي أنعم بها - جل في علاه - على خليله وصفيه من خلقه، وإذا كنا لا نتصور تلك المنة العظيمة وتلك المعجزة الخالدة فلا أقل لنا وبنا أن نلتمس بعض ما فيها من المعجزات والأسرار والدلائل؛ لعلنا نقترب من تصور تلك النعمة.

وقد قال الشيخ السعدي - رحمه الله تعالى - كلامًا جميلاً نفيسًا في تفسير صدر سورة «النمل» حيث قال: «هي أعلى الآيات، وأقوى البينات، وأوضح الدلالات، وأبينها على أجلّ المطالب وأفضل المقاصد، وخير الأعمال وأزكى الأخلاق آيات تدل على الأخبار الصادقة، والأوامر الحسنة، والنهي عن كل عمل وخيم، وخلق ذميم، آيات بلغت في وضوحها وبيانها للبصائر النيرة مبلغ الشمس للأبصار، آيات دلت على الإيمان، ودعت للوصول إلى الإيقان، وأخبرت عن الغيوب الماضية والمستقبلة، على طِبْقِ ما كان ويكون. آيات دعت إلى معرفة الرب العظيم، بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وأفعاله الكاملة، آيات عرفتنا برسله وأوليائه، ووصفتهم حتى كأننا ننظر إليهم بأبصارنا، ولكن مع هذا لم ينتفع بها كثير من العالمين، ولم يهتد بها جميع المعاندين؛ صونًا لها عن من لا خير فيه ولا صلاح، ولا ذكاء في قلبه، وإنما اهتدى بها، مَنْ خصهم الله بالإيمان، واستنارت بذلك قلوبهم، وصفت سرائرهم» انتهى.

وقد جمعت ما يوضح عظيم شأن هذا الكتاب الكريم من كلام رب العالمين دون تعليق، حيث إن التعليق والشرح يحتاج إلى مجلد قد يتصدى - إن شاء الله - له مستقبلاً أهل الخبرة والاختصاص.

فأقول وبالله التوفيق:

كتاب لا ريب ولا شك:

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢].

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس:٣٧].

لا يقدر على إنزاله إلا الله:

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس:٣٧].

وصف من أنزله بأحسن الصفات:

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة:٢].

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١].

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل:٦].

وصف من نزل به بأحسن الصفات:

﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:١٠٢].

هو أحسن الحديث:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣].

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ وَعَلَا صَوْتُهُ وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: «صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ» وَيَقُولُ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ، وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى»، وَيَقُولُ: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» (١). (رواه مسلم).

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة، برقم (٨٦٧).

إنزاله في أحسن الشهور وأفضل الليالي:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣].

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].

فيه الهدى:

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢].

فيه البشرى:

﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٢].

فيه الرحمة:

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان: ٣].

فيه الشفاء:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت: ٤٤].

فيه الموعظة والتذكرة:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤].

كتاب مبارك:

﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

بيّن الدلالات والمعاني:

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩].

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [البقرة: ٩٩].

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور: ٣٤].

كتاب يرقق القلوب:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ

جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣] .

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩] .

محكم الآيات:

﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] .

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣] .

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢] .

بشَّرتْ به الكتب السابقة:

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦] .

فيه بيانُ كل شيء:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩] .

يفترق في سماعه أهلُ الحق وأهل الباطل:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت: ٤٤] .

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧] .

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤] .

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] .

إثبات أحسن الصفات لمن يؤمن به:

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢] .

إثبات أحسن الصفات لمن ينتفع به:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩] .

الأمر بالعمل به:

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

الحث على تدبره وذم من غفل عن ذلك:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

أحسن الجزاء على تلاوته:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

نزول الملائكة والسكينة عند قراءته:

هكذا بوب الإمام البخاري لهذا الحديث:

عَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ قَالَ: (بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَفَرَسُهُ مَرْبُوطَةٌ عِنْدَهُ إِذْ جَالَتِ الْفَرَسُ، فَسَكَتَ فَسَكَتَتْ، فَقَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ فَسَكَتَ وَسَكَتَتِ الْفَرَسُ، ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ، فَانْصَرَفَ وَكَانَ ابْنُهُ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ فَلَمَّا اجْتَرَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى مَا يَرَاهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ» قَالَ: فَأَشْفَقْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى وَكَانَ مِنْهَا قَرِيبًا فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَانْصَرَفْتُ إِلَيْهِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ فَخَرَجَتْ حَتَّى لاَ أَرَاهَا قَالَ: «وَتَدْرِي مَا ذَاكَ؟» قَالَ: لاَ. قَالَ: «تِلْكَ الْمَلاَئِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ وَلَوْ قَرَأْتَ لأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا لاَ تَتَوَارَى مِنْهُمْ»، قَالَ ابْنُ الْهَادِ: وَحَدَّثَنِي هَذَا الْحَدِيثَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَبَّابٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ) (١).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِم السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُم الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُم الْمَلاَئِكَةُ وَذَكَرَهُم اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ» (٢). (رواه مسلم).

---

(١) رواه البخاري معلقًا، كتاب فضائل القرآن، باب: نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن، قبل حديث رقم (٥٠١٩).

(٢) رواه مسلم، كتاب الذكر، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، برقم (٢٦٩٩).

أحسن الجزاء على حفظه:

عَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ وَمَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ وَهُوَ يَتَعَاهَدُهُ وَهُوَ عَلَيْهِ شَدِيدٌ فَلَهُ أَجْرَانِ» (١). (رواه البخاري).

عَنْ زَيْدٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا سَلَّامٍ يَقُولُ: حَدَّثَنِي أَبُو أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ؛ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ» قَالَ مُعَاوِيَةُ: بَلَغَنِي أَنَّ الْبَطَلَةَ السَّحَرَةُ (٢). (رواه مسلم).

أحسن الجزاء على الإيمان والعمل به (في الدنيا والآخرة):

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة: ٦٦].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢].

فيه الإنذار والوعيد:

﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢].

يهدي إلى أحسن الطرق وأقومها:

﴿الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

نزل بأحسن اللغات وأفصحها:

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣].

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢].

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

---

(١) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾، برقم (٤٩٣٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب: فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، برقم (٨٠٤).

كتاب مُعَظَّم في الملأ الأعلى :

﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة :٧٨] .

﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ [البينة :٢] .

﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف :٤] .

﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝﴾ [عبس :١٣-١٥] .

أعظم الوعيد لمن كتم شيئًا منه :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة :١٧٤] .

أعظم الوعيد لمن لم يؤمن به :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء :٤٧] .

الوعيد الشديد لمن كرهه، والثناء على من فرح به :

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد :٩] .

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد :٣٦] .

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان :٤] .

الوعيد الشديد لمن ادعى قدرته على الإتيان بمثله :

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ۝﴾ [الأنعام: ٩٣] .

فيه الحكم بين الناس :

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء :١٠٥] .

فيه بيان كل ما اختلف فيه :

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل :٦٤] .

فيه أحسن القصص:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف:٣].

تعظيم الجهة التي جاء منها:

﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه:٢].

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا﴾ [الإنسان:٢٣].

العزة لمن عمل به واتبعه:

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:١٠].

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون:٧١].

كفى به حجة على العباد:

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:٥١].

كتاب تتصدع منه الصم الشامخات:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد:٣١].

هو نور:

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن:٨].

تعظيمه من حيث شهادة الله على إنزاله:

﴿لَّكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء:١٦٦].

تعظيمه من حيث عَلِمَ الله بنزوله:

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود:١٤].

تعظيمه من حيث وجوب الإنصات إليه:

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف :٢٠٤] .

هو القيم على بقية الكتب والمصدق لما فيها:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة :٤٨] .

سلامته من العيوب والخلل والاختلاف:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ﴾ [الكهف :١] .

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر :٢٨] .

﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت :٤٢] .

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء :٨٢] .

فيه خبر من قبلنا:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران :٤٤] .

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود :٤٩] .

ثناء الجن عليه ومبادرتهم بالإيمان به:

﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف :٣٠] .

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن :١-٢] .

ثناء المؤمنين عليه:

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل :٣٠] .

وَصْفُه بأحسن الصفات وأتمها:

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ [البروج :٢١] .

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان :١] .

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢] .

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر :٨٧] .

هدايته إلى أحسن الأخلاق والأقوال والأفعال:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء :٩] .

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة :١٢٤] .

كتاب تحدى الله به الإنس والجن فأعجزهم:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة :٢٣] .

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨] .

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود :١٣] .

تكفل الله تبارك وتعالى بحفظ من قرأه:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء :٤٥] .

تيسير الله تبارك وتعالى قراءته للتالين له:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر :١٧] .

تكفل الله عز وجل بحفظه على الوجه الأتم الأكمل:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر :٩] .

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء :١٩٣] .

جعل الله آدابًا لقراءته وحمله:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل :٩٨] .

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة :٧٩] .

إنزاله منجمـًا خلافًا لبقية الكتب:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان :٣٢] .

فيه الأمثال وتصريف الآيات:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه :١١٣] .

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء :٨٩] .

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد :١٤] .

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد :١٧] .

اعتراف الكفار أن للقرآن الغلبة:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت :٢٦] .

تهافُتُ الكفارِ على سماعه:

(ثُمَّ بَدَا لِأَبِي بَكْرٍ فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ وَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَيَنْقَذِفُ عَلَيْهِ نِسَاءُ الْمُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ وَهُمْ يَعْجَبُونَ مِنْهُ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ) [(١)] . (رواه البخاري) من حديث عائشة رضي الله عنها الطويل عن الهجرة.

المنافق لا يعدم بركة تلاوة القرآن.

عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ كَالأُتْرُجَّةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ، وَالْمُؤْمِنُ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ كَالتَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلاَ رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالْحَنْظَلَةِ طَعْمُهَا مُرٌّ أَوْ خَبِيثٌ وَرِيحُهَا مُرٌّ».

(١) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب هجرة النبي وأصحابه إلى المدينة، برقم (٣٩٠٦).

نعم الرقية هو :

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَتَوْا عَلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ فَلَمْ يَقْرُوهُمْ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ لُدِغَ سَيِّدُ أُولَئِكَ فَقَالُوا: هَلْ مَعَكُمْ مِنْ دَوَاءٍ أَوْ رَاقٍ؟ فَقَالُوا: إِنَّكُمْ لَمْ تَقْرُونَا وَلاَ نَفْعَلُ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلاً فَجَعَلُوا لَهُمْ قَطِيعًا مِنَ الشَّاءِ فَجَعَلَ يَقْرَأُ بِأُمِّ الْقُرْآنِ وَيَجْمَعُ بُزَاقَهُ وَيَتْفِلُ فَبَرَأَ فَأَتَوْا بِالشَّاءِ فَقَالُوا: لاَ نَأْخُذُهُ حَتَّى نَسْأَلَ النَّبِيَّ ﷺ فَسَأَلُوهُ فَضَحِكَ وَقَالَ: «وَمَا أَدْرَاكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟ خُذُوهَا وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ» [(١)].
(رواه البخاري).

٢- الإسراء والمعراج:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَ أَبُو ذَرٍّ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: فُرِجَ عَنْ سَقْفِ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ فَنَزَلَ جِبْرِيلُ ﷺ فَفَرَجَ صَدْرِي ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا فَأَفْرَغَهُ فِي صَدْرِي ثُمَّ أَطْبَقَهُ ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَلَمَّا جِئْتُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا قَالَ جِبْرِيلُ لِخَازِنِ السَّمَاءِ: افْتَحْ قَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا جِبْرِيلُ قَالَ: هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ؟ قَالَ: نَعَمْ مَعِي مُحَمَّدٌ ﷺ فَقَالَ: أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ فَلَمَّا فَتَحَ عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا فَإِذَا رَجُلٌ قَاعِدٌ عَلَى يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ وَعَلَى يَسَارِهِ أَسْوِدَةٌ إِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَسَارِهِ بَكَى فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالابْنِ الصَّالِحِ قُلْتُ لِجِبْرِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَال: هَذَا آدَمُ وَهَذِهِ الأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ فَأَهْلُ الْيَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَالأَسْوِدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى، حَتَّى عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَقَالَ لِخَازِنِهَا: افْتَحْ فَقَالَ لَهُ خَازِنُهَا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُ فَفَتَحَ قَالَ أَنَسٌ: فَذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ فِي السَّمَوَاتِ آدَمَ وَإِدْرِيسَ وَمُوسَى وَعِيسَى وَإِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُثْبِتْ كَيْفَ مَنَازِلُهُمْ غَيْرَ أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ آدَمَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَإِبْرَاهِيمَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا مَرَّ جِبْرِيلُ بِالنَّبِيِّ ﷺ بِإِدْرِيسَ قَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا إِدْرِيسُ ثُمَّ مَرَرْتُ بِمُوسَى فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا مُوسَى ثُمَّ مَرَرْتُ بِعِيسَى فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا عِيسَى ثُمَّ مَرَرْتُ بِإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالابْنِ الصَّالِحِ قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا إِبْرَاهِيمُ ﷺ قَالَ ابْنُ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الطب، باب الرقي بفاتحة الكتاب. برقم (٥٧٣٦).

شِهَابٍ: فَأَخْبَرَنِي ابْنُ حَزْمٍ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ وَأَبَا حَبَّةَ الأَنْصَارِيَّ كَانَا يَقُولانِ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ثُمَّ عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الأَقْلامِ». قَالَ ابْنُ حَزْمٍ وَأَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَفَرَضَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلاَةً، فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حَتَّى مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى، فَقَالَ: مَا فَرَضَ اللهُ لَكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: فَرَضَ خَمْسِينَ صَلاَةً، قَالَ: فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لا تُطِيقُ ذَلِكَ فَرَاجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَهَا فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى قُلْتُ: وَضَعَ شَطْرَهَا فَقَالَ: رَاجِعْ رَبَّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لا تُطِيقُ فَرَاجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَهَا فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لا تُطِيقُ ذَلِكَ فَرَاجَعْتُهُ فَقَالَ: هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ لا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: رَاجِعْ رَبَّكَ فَقُلْتُ: اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي، ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّى انْتَهَى بِي إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لا أَدْرِي مَا هِيَ، ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا فِيهَا حَبَايِلُ اللُّؤْلُؤِ وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ» (١).

لا شك أن معجزة الإسراء والمعراج، هي من أعظم معجزات النبي ﷺ، حيث رأى فيها من آيات ربه الكبرى، وكانت فيها إمامتُه الأنبياءَ، ورفعُه بعد السماوات السبع حتى سمع صريف الأقلام، واطلاعه على النار، وما يجري فيها من عذاب الكفار وأهل المعاصي، ودخولُه الجنة، وما رأى فيها من الحسن والجمال، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وفيها كلم الله تكليمًا. وقبل البدء في التعليق على حديث الباب نذكر بعض النقاط الرئيسة المهمة في حادثة الإسراء:

١ - **مناسبتها**: جمهور العلماء أنها جاءت تُسَرِّي عن النبي ﷺ، همه وحزنه بعد وفاة خديجة بنت خويلد، والتي كانت خير معين له في مسكنه، تصبره وتواسيه بمالها، وكذلك وفاة عمه أبي طالب، والذي حماه من كيد المشركين، فكان خير معين له خارج المسكن، وأيضًا كانت تسليةً له بعد أن رده أهل الطائف، فقد كذبوه وعابوه وأغروا صبيانهم به، فجاءت حادثة الإسراء لتزيل عنه كل تلك الأحزان والأشجان، وتؤكد له أن الأرض إذا ضاقت به وبدعوته، فإن له في السماء منزلةً عاليةً، بين الأنبياء والملائكة، وأن الله عز وجل يسمع ويرى ما يحدث له، من تكذيب وإيذاء وأنه هو الذي يقدر على نصرته وإعلاء دينه، وبحق كانت تلك الحادثة، مظاهرة في إكرام النبي وإعلاء شأنه في السماوات السبع وما بعدها.

٢ - **ثبوت القصة**: وردت حادثة الإسراء -أي الرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب: كيف فرضت الصلاة في الإسراء، برقم (٣٤٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات، برقم (١٦٣).

الأقصى- صريحة في القرآن، فالتكذيب بها كفر بلا شك، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١] .

والآية الكريمة فيها فوائد منها:

أ - بدأت الآية بتنزيه الله -عز وجل- وتمجيده، ليستقر في قلب السامع أنه قادر على كل شيء، فإذا استقر ذلك، أخبر أنه أسرى بعبده، فَيَرِدُ الخبرُ على قلب لا يتعجب من خرق النواميس الكونية، بقدرة الله العظيمة، كما أنه لا مجال لتكذيب النبي ﷺ؛ لأنه لم يَدَّعِ أنه هو الذي سَرَى، بل أُسْرِيَ به، والذي أسرى به هو الله، فالذي يستبعد الواقعة فإنما يكذب الله ويستعظم ذلك على قدرته.

ب - أثبتت الآية أن وقت الإسراء هو الليل، وهذا أدعى لحضور القلب، ومصداق ذلك قولُه تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝﴾ [المزمل: ٦]، كما بينت الآية بداية الإسراء وهو المسجد الحرام، ونهايته وهو المسجد الأقصى، وبذلك يكون المسجد الأقصى هو بادية المعراج بلا خلاف.

ج - أثبتت الآية أن الإسراء والمعراج كان بالجسد والروح لقوله تعالى: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١] ولفظة: «العبد» لا تطلق على الروح فقط، كما نقطع أنها لم تكن رؤية منام، لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، ولا أحد يقول: إن رؤيا المنام فتنة، فكل إنسان يرى في المنام ما يتصوره العقل وما لا يتصوره، ولا أحد يتهمه بالكذب، كما أن الكفار لو فهموا من كلام النبي أن الحادثة كانت رؤيا في المنام، ما كذبوه، وما طلبوا الدليل على صدقه، حيث سألوه أن يصف لهم بيت المقدس، كما ورد في الصحيح - وبوبت له بابًا -وما ارتد بسبب ذلك بعض الناس، بل كانت فضيلة ظاهرة لأبي بكر وذلك أنه صدقها بمجرد معرفته أن النبي هو الذي أخبر بها.

د - مقام العبودية، هو أعظم مقامات الأنبياء بلا شك، علمنا ذلك من الآية حيث ذكرت النبي، بصفة العبودية، وهي في معرض الحديث عن أعظم معجزاته، وأرقى مقاماته، فقطعنا أن العبودية لأي مسلم، خاصة الأنبياء، هي أشرف المنازل؛ ولذلك ذكرها الله في الآية، لتناسب أعظم أحواله ﷺ، فكلما زاد المسلم في تحقيق عبوديته لله، زاد من الله قربًا، يصدق ذلك، أن الله عز وجل قد أتى بنفس الصفة، وهي صفة العبودية

في معرض الحديث عن أعظم نعمة أنعمها على النبي ﷺ، وهي نعمة إنزال القرآن وذلك في أكثر من موضع بالقرآن الكريم، مثاله قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ [الكهف: ١] .

هـ - كما بينت الآية الحكمةَ والسبب في الإسراء، أما الحكمة فهي أن يرى النبي من آيات ربه، قال تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ﴾ [الإسراء: ١] ، فكل ما رآى النبي في تلك الحادثة، فهو من آيات الله، الدالة على قدرته وإعجازه.

أما السبب فقد أشار الله تعالى إليه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١] فأشعرت الآية، أن الحدث جاء بسبب ما سمعه الله عز وجل من نبيه من دعاء، وما سمعه من الكفار من تكذيب واستهزاء، جاءت الحادثة لبيان إحاطة علم السميع البصير بحال النبي ﷺ، عند موت أحب الناس إليه، وأكثرهم عليه شفقة، وأشدهم له ناصرًا ومعينًا، فتأمل كم في الآية من فوائد، غير ما خفي علينا، هذا بالنسبة لثبوت الإسراء في القرآن.

أما المعراج فقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [النجم: ١٣-١٦] ، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣] . فالحمد لله، الذي أقر أعيننا وأسماعنا، بإكرام نبينا في الدنيا والآخرة، وأما في السنة فقد وردت أحاديث كثيرة في الحادثة بلغت بحمد الله حد التواتر، فلا يَسَعُ أحدًا إنكارُها أو التشكيكُ فيها.

أما فوائد الحديث فلا أظن أني أستطيع الإحاطة بها؛ وذلك لكثرتها ودقتها؛ ومن ثم أورد بعضها:

الفائدة الأولى: القدرة العجيبة التي منحها الله ملائكته، فجبريل عليه السلام، قد فرج عن سقف بيت النبي ﷺ ونزل منه، دون مِعْول ولا خراب ولا ترميم، كما أنه أسرى وعرج بالنبي على البراق، وأراه من آيات ربه الكبرى، ثم عاد به إلى بيته بمكة، في جزء من الليل، وقد قص الله تبارك وتعالى علينا في القرآن أمثلة من ذلك، ألم تر كيف أتى جبريل عليه السلام بالعرش العظيم لبلقيس ملكة سبأ، قبل أن يرتد طرف نبي الله سليمان عليه السلام؟ قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ﴾ [النمل: ٤٠]، ألم تر كيف حمل قرية لوط فجعل عاليها سافلها، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢] ، وهذا ليس بمستغرب؛ لأننا لا ننظر إلى عظم المخلوق، ولكن ننظر إلى عظم الخالق عز وجل، الذي خلق هذه

المخلوقات العظيمة وأودع فيها هذه القدرات العجيبة .

الفائدة الثانية : تلطف جبريل مع النبي ﷺ لقوله : «**ثم أخذ بيدي يعرج بي إلى السماء الدنيا**» وكيف لا يتلطف وهو أعلم الخلق بقدر النبي ﷺ ومقامه .

الفائدة الثالثة : السماء الدنيا غير السماء الأولى ، التي عليها خازن ولا تفتح أبوابها إلا بإذن ، وفيها آدم عليه السلام ، وأما السماء الدنيا ، فهي التي زينها الله عز وجل بالمصابيح ، قال تعالى : ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا﴾ [فصلت :١٢] . وذلك لقوله : «**فيعرج بي إلى السماء الدنيا فلما جئت إلى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء : افتح**» ثم قال : «**فلما فتح علونا السماء الدنيا**» .

الفائدة الرابعة : عظيم أمر السماء قدرًا وخَلْقًا ، ويتبين عظيمُ قدرها حيث جعل الله لها أبوابًا مغلقة ، وعلى كل باب خازن لا يفتح الباب حتى يعلم مَن الطارق ومن معه ، وهل أُرْسِل إليه أم لا ، فالخازن مأمور أن لا يفتح إلا لمن أرسل إليه ، والذي يخبره أنه أرسل إليه أم لا ، هو جبريل عليه السلام لأنه الأمين ، علمنا ذلك من قوله : «**قال جبريل لخازن السماء : افتح**» وقد تكرر ذلك في كل سماء ، حسب ما ورد في طرق أخرى صحيحة للحديث .

أما عظم السماء خَلْقًا ، فَبَيَّنتْها بعضُ طرق الحديث ، وفيها أن ما بين كل سماء وأخرى خمسمائة عام ، وعلمنا من عظم السماء قدرًا وخلقًا عظم خالقها سبحانه وتعالى ، فعظم الخلق - كما قلت سابقًا - يدل على عظم الخالق ، لذا أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نتفكر في هذا الخلق العظيم ، خاصة السموات والأرض ، لنستدل به على قدرة المولى سبحانه وتعالى ، وعظيم صنعه ، وإحكام خلقه ، قال تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران :١٩٠] .

الفائدة الخامسة : واجب على كل مسلم ، أن يفرح بالطاعة ويحزن بالمعصية ، خاصة إذا كانت في نفسه أو ذريته ، يدل على ذلك قوله : «**فَإِذَا رَجُلٌ قَاعِدٌ عَلَى يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ وَعَلَى يَسَارِهِ أَسْوِدَةٌ إِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَسَارِهِ بَكَى**» .

الفائدة السادسة : العجيب في الواقعة ، أن آدم وبقية الأنبياء استقبلوا النبي ﷺ ، استقبال من يعرفه ، فيحتمل أن الأنبياء عرفوه من أوصافه المذكورة في كتبهم ، أو أن هذا المكان لا يصعد إليه إلا نبي ، وليس نبي بَعْدُ إلا محمد ، أو أن الله أوحى إليهم بقدومه ﷺ ، ليستقبلوه استقبالاً يليق به ، وهذا الذي حدث ، فما من نبي رآه إلا قال له : مرحبًا بالنبي

الصالح والأخ الصالح، إلا آدم قال له: مرحبًا بالابن الصالح لأنه أبوه الأول، وكذا إبراهيم لأنه جده الأكبر، حيث أن النبي ﷺ من بطن إسماعيل، وبقية الأنبياء من ذرية إسحاق عليه السلام، أما النبي ﷺ فلم يعلمهم قطعًا؛ لأنه كان يَسْأل جبريلَ في كل مرة، عن اسم النبي الذي يسلم عليه، علمنا من ذلك أنه لم يُوحَ إليه بأوصاف إخوانه من الأنبياء، كما أنه لا يعرف الغيب وإلا ما سأل جبريل عنهم.

الفائدة الثامنة: ثبوت حياة البرزخ، وهي الحياة التي بين موت الإنسان ونشوره بعد النفخ، وهي حياة غيبية، لا نعلم منها شيئا، إلا ما علمناه من الكتاب أو السنة، والذي نقطع به أن المؤمن فيها يُنَعّم ويرى مقعده من الجنة، والكافر فيها يُعَذب ويرى مقعده من النار، يُصَدق ذلك قوله تعالى حاكيًا عن عذاب آل فرعون في حياة البرزخ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦]، ويؤيده ما ورد في صحيح البخاري، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الْعَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتُوُلِّيَ وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ أَتَاهُ مَلَكَانِ فَأَقْعَدَاهُ فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ ﷺ؟ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا وَأَمَّا الْكَافِرُ أَوْ الْمُنَافِقُ فَيَقُولُ لاَ أَدْرِي كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ فَيُقَالُ لاَ دَرَيْتَ وَلاَ تَلَيْتَ ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلاَّ الثَّقَلَيْنِ**»[1].

فرؤيةُ المؤمن مقعدَه في الجنة، هو من النعيم، لما فيه من الرؤية والبشارة العظيمة، بالإضافة إلى إفساح القبر، أما عذاب الكافر، فهو واضح في الحديث، وإذا كان للناس كلهم حياة برزخية، المؤمن منهم والكافر، فإن للأنبياء أيضًا حياة برزخية ولكنها أكمل وأتم، ويدلنا على ذلك حديثُ الباب.

الفائدة التاسعة: أن الجنة والنار، موجودتان الآن، ولا عبرة لمن ينكر ذلك، ويرد الأحاديث الصحيحة الصريحة، لشبهة عقلية، وهي أنه لا حكمة لوجودها الآن، فيرد النقل بالعقل، وهذا أسخف ما يكون، وأدلة ذلك كثيرة، لا يمكن استقصاؤها، في هذا الكتاب، ولكن نذكر ببعضها، لعل المنكر يعود لرشده، روى البخاري، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**قَالَ اللَّهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ**

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب: الميت يسمع خفق النعال، برقم (١٣٣٨).

رَأَتْ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ»: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] (١). كما روى عَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ: ﷺ «أُرِيتُ النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ يَكْفُرْنَ، قِيلَ: أَيَكْفُرْنَ بِاللَّهِ؟ قَالَ يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ؛ لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ» (٢). وروى أيضًا، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ، وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ» (٣). وعنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ خَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَصَلَّى قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعْكَعْتَ قَالَ: «إِنِّي أُرِيتُ الْجَنَّةَ فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُودًا وَلَوْ أَخَذْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا» (٤).

فيجب علينا أن نؤمن يقينًا أن الجنة والنار موجودتان، ومن ينكر وجود الحكمة مِنْ خلقهما الآن، أقول له: نؤمن بكل ما جاء في الكتاب والسنة، سواء علمنا الحكمة أم جهلناها، مع تسليمنا أن كل ما يقضي به الله عز وجل إنما يكون لحكمة بالغة، فحاشاه عن اللهو والعبث، ومع ذلك أقول: إن حكمة وجودهما ظاهرة، ولله الحمد، فمن ذلك، أن الكفار يعذبون في قبورهم بعرضهم على جهنم، صباحًا ومساءً، والمؤمنين يُنَعَّمون برؤية مقاعدهم في الجنة، قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦]، كما أن الترهيب والترغيب بالشيء الموجود، أعظم أثرًا من الشيء غير الموجود، وهذا يدركه كل عاقل، وانظر أثر ما قصَّه النبي علينا من مشاهد الجنة والنار، على نفوس المؤمنين.

الفائدة العاشرة: فضل التيامن، فأهل الإيمان والطاعات، على يمين آدم، أما أهل الكفر والمعاصي، فهم على شماله، وقد كان النبي ﷺ يحب التيامن في أمره كله، كما ثبت في صحيح البخاري، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْجِبُهُ التَّيَمُّنُ فِي تَنَعُّلِهِ وَتَرَجُّلِهِ وَطُهُورِهِ وَفِي شَأْنِهِ كُلِّهِ) (٥)، والله عز وجل قد سمى أهل الجنة بأصحاب اليمين، وسمى أهل النار بأصحاب الشمال.

---

(١) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم...﴾ [السجدة: ١٧]، برقم (٤٧٧٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب: كفران العشير وكفر دون كفر، برقم (٢٩).

(٣) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة، برقم (٣٢٤١).

(٤) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب: رفع البصر إلى الإمام في الصلاة، برقم (٧٤٨).

(٥) رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب: التيمن في الوضوء والغسل، برقم (١٦٨).

الفائدة الحادية عشرة: وهي فائدة جليلة، وهي أن الأمر قد ينسب إلى الآمر به، وقد ينسب إلى الموكول بتنفيذه، قال تعالى: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١]، فنسب سبحانه، الفعل إلى نفسه؛ لأنه هو الذي أمر جبريل بالإسراء بالنبي ﷺ. وقد يُنسب الفعل إلى من باشر القيام به، قال: «**ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا**» فنسب الفعل هنا إلى جبريل؛ لأنه هو الذي باشر العروج بالنبي، مأمورًا من الله، وهذه القاعدة، تحل إشكالات قد يقع فيها القارئ. فيقول مثلاً: كيف ينسب الله توفي الأنفس إلى نفسه فيقول: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر:٤٢] وينسب ذلك في موضع آخر إلى الملائكة فيقول: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة:١١]، فالأمر كما أسلفت، أن الله عز وجل هو الآمر بقبض الروح، وهو الذي جعل لها أجلاً تقبض عنده، أما ملك الموت، فهو الذي وُكّل بقبض الروح، عند حلول الأجل المسمى.

الفائدة الثانية عشرة: بيان علو منزلة نبينا محمد ﷺ، وارتفاعه فوق منازل سائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وبلوغه حيث بلغ ما بلغ من ملكوت السموات، وهو دليل على علو درجته وإبانة فضله، هكذا قال القاضي عياض، حيث ورد في الحديث: «**حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام**».

وأقول: عجبت أشد العجب، لمن يتقولون على الله ورسوله، ويذكرون أحاديث موضوعة، ويختلقون حكايات هي أشبه بالأساطير، يريدون بذلك، أن يرفعوا من مكانة النبي ﷺ، وهم في الحقيقة يتبغضون إليه بتلك الحكايات والأقاويل، ويعدون لأنفسهم مقاعد في النار، بشرى النبي ﷺ لهم في قوله: «**مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِن النَّارِ**».

أقول لهم: إن لم يكن للنبي فضيلة، في كتاب ولا سنة، إلا أنه ظهر لمستوى يسمع فيه صريف الأقلام، لكفاه ذلك رفعة وسؤددًا، وإثباتًا لفضله وشرفه ومكانته، عند ربه عز وجل، فما بالكم بما يحتويه الكتاب من شمائل عظيمة في كل ما يخصه وفي كل شئونه، ما ترك الله له من شيء، حتى جعل له من ذلك آية على شرفه، من شعر رأسه إلى أصابع قدمه، ومن ولادته حتى مماته، ومن أحبائه حتى أعدائه، ومن دنياه حتى آخرته، كل ذلك ولله الحمد ثبت في القرآن الكريم والسنة الصحيحة، فلماذا التقول على الله بغير علم؟ قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣].

الفائدة الثالثة عشرة: في سماعه ﷺ صريف الأقلام مسائل نذكر منها:

١ - إثبات كتابة الملائكة المستمرة إلى قيام الساعة؛ لأن صريف الأقلام هو صوت ما تكتبه الملائكة من أقضية الله تعالى ووحيه، ففيه إثبات كتابة الملائكة، وأنها تكتب بأقلام، وأن هذه الأقلام عند كتابتها لها صوت مسموع ويتفرع على ذلك أن الكتابة كتابتان:

الأولى: هي التي في اللوح المحفوظ، وفيه ما كتبه الله وقدره قبل الخلق، لما (رواه البخاري) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْتَقَى آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ مُوسَى لِآدَمَ: آنْتَ الَّذِي أَشْقَيْتَ النَّاسَ وَأَخْرَجْتَهُمْ مِن الْجَنَّةِ؟ قَالَ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَاصْطَفَاكَ لِنَفْسِهِ وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ التَّوْرَاةَ؟ قَالَ: نَعَمْ قَالَ: فَوَجَدْتَهَا كُتِبَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي؟ قَالَ: نَعَمْ، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى» (١).

وعن اللوح المحفوظ قال تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق:٢٩]، فالذي باللوح المحفوظ، لا يتبدل ولا يتغير أبدًا، إذ فيه الأمر الثابت في كل شيء، إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠].

الثانية: الكتب التي في أيدي الملائكة الكرام وهي التي تكون فيها كتابة ما يجري الآن في ملكوت الله، وهي التي ذُكرت في حديث الباب، وهي التي يكون فيها المحو والإثبات، وقد جمع الله عز وجل، ما في اللوح المحفوظ، وما في أيدي الملائكة من كتب في قوله: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩].

٢ - كتابة الله لكل شيء في اللوح المحفوظ، ليس لأنه سبحانه تعالى قد ينسى أو يغفل، سبحانه فإنه منزه عن ذلك، قال تعالى في قصة موسى مع فرعون: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥١-٥٢]، فأثبتت الآية أن الكتابة ليست لغفلة قد تحدث أو نسيان، ولكن الله عز وجل يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد، فلعل حكمة الكتابة إظهار عظمة الله سبحانه وتعالى، وقدرته التي أعجزت العقول، وحيرت الفحول، فالكتابة هي زائدة عن العلم، فالذي علم كل شيء وقَدر على كتابة كل شيء، أقدرُ وأعظم وأحكم من الذي علم ولم يكتب، خاصة إذا كانت الكتابة لا تنقص ولا تزيد عن الذي قَدّره وقضاه، وقد تكون الكتابة ليطمئن العبد، ويتأكد أن الذي

---

(١) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه: ٤١]، برقم (٤٧٣٦).

أصابه لم يكن ليخطئه، وأن الذي أخطأه لم يكن ليصيبه؛ لأن الكتابة عند الناس أبلغ وآكد بكثير من العلم وحده، ألم تسمع لقولهم إذا أصابهم شيء، ويريدون أن يخففوا وقعه على قلوبهم يقولون (هذا مكتوب)، ولا يقولون: معلوم، وقد تكون الكتابة لحكم أخرى لا يعلمها إلا الله سبحان وتعالى.

٣ - نتعلم مما سبق، أن العلم يجب أن يُوَثّق بالكتابة، فإذا كان الله عز وجل قد كتب، وهو الذي لا يلحقه نسيان ولا غفلة، فكيف بنا، فالذي نتعلمه اليوم قد ننساه غدًا، وقد سمي الإنسان إنسانًا لكثرة نسيانه، والكتابة سنة العلماء قديمًا وحديثًا.

٤ - إذا تيقن العبد أن الله علم كل شيء، وكتب كل شيء، وأن الذي كتبه الله كائن لا محالة، وجب عليه الرضا والتسليم، وعدم الجزع للمصائب، وألا يندم على شيء فاته، ولا يحزن على شيء أصابه، فتخفّ بذلك همومُه وتقل غمومه، وكلما يتقين العبد من أنّ كل شيء مكتوب، كلما كان لقضاء الله أرضى، وعند نزول المصائب أصبر.

٥ - إذا احتج العبد بالقدر، وقال: لِمَ يحاسبنا الله، وقد كتب كل شيء علينا؟، قلت له: تدبر ما يلي:

أ - إن الله الذي كتب كل شيء وقدر كل ما هو كائن إلى يوم القيامة، هو الذي أمر ونهى، ووعد المطيع بالثواب، وتهدد المسيء بالعقاب، فهل تتصور أن الله سيحاسبنا على ما أجبرنا على فعله، أو ما اضطرنا لتركه؟ والذي يظن ذلك، فقد أساء الأدب مع الله عز وجل؛ لأنه تصور أن الله يصدر منه الظلم - حاشاه جل في علاه - وهو الذي قال في محكم التنزيل: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، وقال في الحديث القدسي الذي رواه مسلم، في سياق المتمدح لنفسه عز وجل على أفعاله عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا» (١). أتصدق الله أم تكذبه؟ فالذي يحتج بالقدر فهو بلسان حاله وبلسان مقاله في بعض الأحيان، يشكك في عدل الله، بل يدعي كذبًا أنه يظلم العباد، وهذا منكر عظيم يصل بالإنسان للكفر، وهو أعظم من التكاسل عن العمل، احتجاجًا بالقضاء والقدر.

ب - أنت لا تعلم ما كتبه الله لك أو عليك، فمن رحمته أنْ حَجَبَ ذلك عن العباد. لذلك لا ينبغي لك أن تحتج بالقدر.

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر، باب: تحريم الظلم، برقم (٢٥٧٧).

وأسأل سؤلا يبين لك مدى سخف هذه المقولة، وهذا السؤال هو: لماذا إذا وُفقت للطاعة لا تحتج بالقدر، بل تطلب الثواب من الله، وتحتج به فقط على المعاصي والذنوب؟ وهل إذا هممت بالطاعة وجدت من يمسك بتلابيبك عنها؟ ولماذا لم تتقاعس مرة واحدة في أمور دنياك بحجة أن الله كتب كل شيء، فتجتهد في كل أمور الدنيا، ولا تركن لما كتب الله؟ بل إنك إذا احتج عليك ولدك بقضاء الله، فترك المذاكرة أو الذهاب إلى الاختبار، عاقبته عقوبة شديدة، بل تتهمه بالجنون، أو الاستخفاف بك، بل لماذا تأمره بالاجتهاد والمصابرة على طلب العلم، وأنت الذي تحتج على الله بالقدر؟.

والمشاهد في الدنيا أن الذي يسهر ويتعب يفوز بالمطلوب، وأن الذي يتقاعس ويكسل يفوته المرغوب. فهل هي سنة الله في أمور الدنيا دون أمور الدين؟ لا والله، وهذا أكبر دليل على أن ذلك الاحتجاج السخيف من نزغات الشيطان، فهو الذي يزين للعبد كل ما يحول بينه وبين طاعة الرب سبحانه وتعالى.

ج - أنت باحتجاجك بالقدر، قد سلكت مسلك الكفار في احتجاجهم به، وكفى بذلك قبحًا وتشنيعًا لمقولتك، والله قد حكى عنهم ذلك في سياق الذم والإنكار فقال سبحانه وتعالى ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ [الأنعام:١٤٨]، فقد سمى الله احتجاجهم بالقدر كذبًا، وأثبت أن هذه الحجة إنما هي حجة الكفار في عصر البعثة المحمدية والعصور الأولى، وجعل مَغَبّة ذلك وجزاءه، أنهم ذاقوا بأس الله أي عذابه الشديد، فهل ينتظر هذا المحتج بقضاء الله أن يحل عليه العذاب وينزل به الانتقام؟

ولو كانت هذه الحجة حقًّا، فحاشا لله أن يذمها؛ لأنه سبحانه وتعالى هو الحق، ولا يصدر عنه إلا الحق، وحاشاه أن يعاقب عليها، فهو العدل ولا يحكم إلا بالعدل، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]. فضلاً عن أن هذا الاحتجاج من الكفار بالقدر يكون في الدنيا فقط، أما في الآخرة فلن يحدث؛ لأنه لم تأت آية واحدة في القرآن، تثبت أنهم سيحتجون بالقدر يوم القيامة، ولو علموا أنها حجة مفيدة يعتذرون بها إلى الله لقالوها، ولو قالوها لحكاها الله لنا ليدحضها ويبين بطلانها، فلما لم يَحْكِها الله تعالى علمنا أنهم لن يحتجوا بها، ولما لم يحتجوا بها علمنا أنها حجة باطلة، وإذا كانت باطلة في الآخرة فبطلانُها في الدنيا التي هي زمن الأعمال والإمهال من باب أولى فتدبر.

د - الذي يرى أن القضاء والقدر، حجة على الله عز وجل في ترك الأعمال، وعدم

الحساب، قد كذب بظاهر القرآن؛ لأن الله بين في كتابه العزيز، أنه بإرسال الرسل وإنزال الكتب، قد قُطعت حجة العباد على الله، قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٦٥]، فقد بينت الآية، أن حجج العباد، قد انقطعت، وأن أعذارهم قد ردت، بعد إرسال الرسل، فالذي يقول أو يعتقد أن القضاء والقدر حجة له على الله عز وجل، فقد ادعى أن الله لم يقطع حجج الناس، وبهذا فقد كذب ظاهر القرآن؛ لأن الآية تنفي أي حجة بعد إرسال الرسل، وإذا كانت الآية قد خُتمت بإثبات صفة الحكمة لله، بقطع الحجج للناس، فالذي يحتج بالقدر، ويرى أن ذلك حجة، فقد طعن -بل كذب- بحكمة الله؛ لأنه ادعى بقاء حجة للناس لم يستطع الله أن يقطعها أو يردها.

هـ - **وأقول للمحتج بالقضاء:** إذا كان عقلك لا يتصور أن الله كتب كل شيء، ولم يجبر أحدًا على شيء، فَسَلِّمْ أمرك لله، وبادر بالعمل وترك الشبهات، وأَحْسِنِ الظن بالله في كل ما قدره وقضاه، وأسألك في النهاية سؤالاً واحدًا، أتريد من الله أن يخلق الخلق، ويجهل ماذا سيفعلون في الغد؟ أيكون إلهًا ولا يعلم سلفًا ماذا سيفعل العباد! ولو فرض من باب التنزل معك حدوثُ ذلك، لاحتججتَ بذلك على عدم العمل؛ لأن الذي لا يعلم لا يستحق أن يكون إلهًا أبدًا، والعاقل هو الذي يرى في علم الله وقدرته وكتابته، بالغ حكمته وعظيم قدرته، فيدفعه ذلك دفعًا لطاعته وابتغاء مرضاته.

الفائدة الرابعة عشرة: فرض الصلاة على أمة محمد ﷺ في تلك الحادثة وفي ذلك المقام الشريف الأعلى يستحق مِنَّا وقفةً نقول فيها:

١ - كان النبي ﷺ ضيفًا على الملأ الأعلى في هذه الليلة المباركة، وقد مدح الله عز وجل من يكرم ضيفه، قال تعالى مادحًا إبراهيم عليه السلام: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات:٢٦]، ويقولون: لكل ضيفٍ قِرًى، ويختلف القرى بغنى المضيف وكرمه، وكذلك بمكانة الضيف عنده، فالمضيف هنا هو الله سبحانه وتعالى، أغنى من عُبِدَ، وأكرم من سُئل، وأجود من أعطى، والضيف هنا هو أحب الخلق إلى الله، الخليل محمد ﷺ، فأراد الله سبحانه تعالى أن يكرم زائره، بل يكرم كل أمته من بعده، فأمره بعبادة تكون له ولأمته، عزًّا في الدنيا وذخرًا في الآخرة، يرفع الله بها الدرجات، ويمحو بها الزلات، ويكفر بها السيئات، ويُعْلي به الدرجات في الجنات العاليات، فكانت هذه الصلوات -وهي الركن الركين في هذا الدين الحنيف- خير تكليف في هذا المكان الشريف، الذي لا

يقبل الله ممن تركها صرفًا ولا عدلاً، نقول الركن الركين؛ لأن كل الأركان الباقية، الزكاة والصوم والحج، قد تسقط على المسلم كليًا أو جزئيًا، بسبب سفر أو مرض أو فقر، إلا الصلاة، فتفرض على المسافر والمقيم، والصحيح والعليل، والغني والفقير، تلازمه في يومه وليلته، لا تنفك عنه أبدًا، في شغله وفراغه، يؤديها الإنسان قائمًا، فإن لم يستطع فجالسًا أو متكأ أو على جنبه أو نائمًا، بخلاف الأركان الأخرى، فالزكاة تخرج مرة في العام، وتسقط عن الفقير، والصيام شهر واحد في السنة، ويسقط عن بعض المرضى طوال عمرهم، ويأتي الحج مرة واحدة في العمر لمن استطاع إليه سبيلاً، أما الصلوات فهي، خمس مرات في اليوم والليلة، فهي بحق هدية الله لهذه الأمة.

٢ - أما كونها فرضت بغير وحي ولا واسطة، بل كانت تكليفًا مباشرًا من الله إلى رسوله، فهذا يعطينا دلالة واضحة على عظيم قدرها، ومكانة منزلتها، فمن أراد أن يكلم الله عز وجل بغير واسطة فَلْيُصَلِّ، فالله يسمعه ويراه، بل يَرُدّ عليه، كما ورد في صحيح مسلم قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» (١).

فإذا كان الله عز وجل قد عرج بنبيه إلى مستوًى يسمع فيه صريف الأقلام، وكلمه تكليمًا، فهو سبحانه مِنْ كرمه لم يَحْرِم هذه الأمة مِنْ هذا الفضل الكبير، فعوضهم بالصلاة، فالذي لا يصلي، إنما رد على الله هديته وأبى فضله، ورفض لقاءه، ومن فعل ذلك، فقد أساء الأدب مع خالقه وسيده وولي نعمته من كل جهة، من ذا الذي يدعوه الله فلا يقبل دعوته، ويفتح له الباب فلا يدخل، ويأذن له بمناجاته بغير واسطة فَيُعْرِض، أفبعد هذا الذنب من ذنب؟ بل لا أعلم جفاءً بعد هذا الجفاء، فضلاً عما ورد في الأحاديث الصحيحة مِنْ كُفْر تارك الصلاة، فقد روى مسلم عَنْ أَبِي سُفْيَانَ قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرًا يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلاَةِ» (٢)، فمن حَرَم نفسه

---

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، برقم (٣٩٥).
(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب: إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، برقم (٨٢).

الصلاةَ، فقد حرم نفسه فضل حادثة المعراج، وخرج منها صفر اليدين، فكانت للناس فضلاً وإكرامًا، وكانت عليه حسرة ووبالاً، الناس فيها وبها قد سعدوا، وهو بسبب تركها - مع من يماثله - قد خسروا، ولو كان في الإسلام ركن أعظم من الصلاة، أو يساميها لَفُرِضَ في هذه الليلة المباركة، ولكن لم يزاحمها شيء من عظائم التكاليف.

٣ - فَرْضُ خمسين صلاة ابتداءً، ثم تخفيفها إلى خمس صلوات في اليوم والليلة، مع ثبوت أجر الخمسين نأخذ منه:

أولاً: بيان مكانة النبي عند ربه.

ثانيا: علم النبي بهذه المكانة العظيمة.

فالأولى: نعرفها من كون الله سبحانه تعالى قَبِلَ سؤال النبي التخفيفَ حتى جعلها خمس صلوات.

والثانية: من كون النبي تجرأ وراجع ربه عدة مرات، وهو في هذا المكان المقدس، ويراجعه في ماذا؟ في أمر عظيم كالصلاة، لم يفعل ذلك، إلا وهو يعلم أن الله حَفِيٌّ به، ولن يخزيه ولن يسوءه، ألم يقل الله له: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥]، ولا أظن أن هذه المراجعة تحدث بين وزير وملك من ملوك الدنيا، حتى ولو كان الوزير مفضلاً، والملك متفضلاً، فنحمد الله عز وجل أولاً وآخرًا، على ما أنعم به على نبينا في الدنيا والآخرة.

ثالثًا: إرادة الله عز وجل رفع الحرج عن هذه الأمة، والتخفيف عنها، مع شفقه النبي عليها، نأخذه من مراجعةِ النبي ﷺ ربَّه عدة مرات واستجابةِ الله له في مراجعته.

رابعًا: عظيم امتنان الله سبحانه وتعالى على نبيه وعلى أمته، حيث خفف الصلاة عنها، من خمسين إلى خمس صلوات، مع ثبوت أجر الخمسين، وهذا الفضل شمل الضعيفَ صاحبَ الهمة المحدودة، الذي لا يستطيع الخمسين، كما شمل هذا الفضلُ صاحبَ الهمة العالية، الذي قد يتمنى أن تبقى الخمسين لينال أجرها، فَعَمَّ خيرُ الله ووسع فضلُه الجميعَ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

خامسًا: حكم موسى عليه السلام على هذه الأمة أنها لا تستطيع الخمسين، رغم أن الفريضة لم يُعْمل بها بعد، والأمة لم يعالجها من قبل، قياسًا على معالجته لأمة بني إسرائيل.

_ ونحن نمتن لموسى عليه السلام هذا الصنيع، ونشكره على هذا المعروف، فهكذا أهل الخير، خاصة الأنبياء من أولي العزم، ينفع الله بهم العباد حتى بعد وفاتهم، فهم رحماء بعباد الله، حتى بعد انقطاع تكليفهم ولو لم تكن الأمةُ أمتهم، فمن اعتاد على بذل الخير

وإسداء النصح، وأصبح هذا الخلق له سِمةً وهذا الطبع له صفة، لا يعرف للمعروف، زمانًا ولا مكانًا، ولا أمة دون أمة، انظر إلى مؤمن القرية الذي تمنى بعد وفاته أن لو علم قومُه ماذا أعد الله له من النعيم المقيم، حتى يؤمنوا بالله وحده، قال تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يس :٢٦-٢٧] ، فإن كنا نحن من الذين يعرفون للناس فضلهم، ولا يجحدون معروفهم، فقد وجب علينا أن نشكر موسى عليه السلام، عرفانًا منا بهذا الجميل، كما عَلّمنا نبينا ﷺ.

الفائدة الخامسة عشرة: الذي نعرفه من الجنة والنار أسماء فقط، ولكن طبيعة الأشياء تختلف عما نعرفه ونعلمه في الدنيا، وما هي إلا تشابه أسماء، وذلك من قول النبي ﷺ: **«حتى انتهى بي إلى سدرة المنتهى وغشيها ألوان لا أدري ما هي»** فالنبي قد رأى وعلم أن السدرة قد تجملت وتزينت بألوان، ولكنها ألوان لا يعلمها ولا يعرف أسماءها، ولكن يعلم فقط أنها ألوان.

الفائدة السادسة عشرة: يوضح الحديث طرفًا يسيرًا مما أعده الله لعباده المؤمنين في جنته دار كرامته فالنبي ﷺ يقول: **«فإذا فيها حبايل اللؤلؤ وإذا ترابها المسك»**، فإذا كان التراب الذي هو في الدنيا أرخص ما يكون، لا يبالي الناس به يكون في الجنة مسكًا، فإذا كان الذي يمشي عليه المؤمنون في الجنة مسكًا، فما بالكم بالأسِرّة والفرش، والمآكل والمشرب، واللباس والحور العين. إنه - والله- لنعيم مقيم لا يزول ولا يحول، فهل من العقل، أن نبيع جنة عرضها السماوات والأرض، النعيم فيها دائم، والسرور فيها قائم، والأمن فيها شامل، والغل فيها زائل، بدنيا النعيم فيها يزول، والسرور فيها يحول، والغل فيها يطول، وما من صحة إلا بعدها مرض، وما من فرح إلا بعده ترح.

الفائدة السابعة عشرة: هل الاحتفال بليلة الإسراء والمعراج مشروع أما لا؟ أقول:

١ - لم يثبت أن النبي احتفل بهذه الليلة، وهو أولى من يحتفل ويحتفي بها؛ لأنه المقصود بها، وليكون الاحتفال سنة، فيأخذ بذلك الأجر على تعليم الأمة، بل تكون مناسبة - كما يدعي البعض - أن يشكر الرسولُ ربَّه على هذه النعمة العظيمة، ويتذكرها ويُذَكر أصحابه بها، وحيث أن النبي ﷺ لم يحتفل، ولم يأمر الأمة بالاحتفال، علمنا قطعًا أن ذلك غير مشروع، ولو كان في ذلك خيرٌ لدلنا النبي عليه، وكيف لا يدلنا على هذا الخير، وهو الذي علمنا كيف نصلي وكيف نصوم، وكيف يأتي الرجل أهله، وعلمنا أيضًا كيف نأكل ونشرب، حتى شمل التعليم دخول الغائط والخروج منه، كيف يعلمنا كل ذلك، ويغفل أو

ينسى أن يعلمنا شيئًا يتعلق بالإسراء والمعراج، وإن كان غفل أو نسي، فكيف بالذي لا يَغْفل ولا ينسى، لماذا لم يُنبه نبيه على ذلك بل كيف لم يأمره بالاحتفال، ويبين له ما فيه من خير، أيترك الله شيئًا ينفع نبيه وأمته من بعده فلا يبينه؟.

إن من اعتقد ذلك فقد أساء الأدب مع الله، وإذا كان الله سكت عنه، أفلا يسعنا نحن السكوت، وهل نرد قول الله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فالذي يرى أن الاحتفال بالإسراء والمعراج من الدين، ويؤجر العبدُ عليه وأن فيه خيرًا لنا في الدنيا والآخرة، وأن هذا عمل يحبه الله ويرضاه، فكيف يوفق بين قوله هذا مع الآية التي أكدت إكمال الدين وإتمام النعمة، أيكذب بها؟ وكيف يرد ما (رواه البخاري) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ[1]»، أيكون هذا العمل ردًّا على صاحبه ويؤجر عليه، أيحكم الرسول بالرد، ويحكم الله بالقبول؟ هذا من أمحل المحال، وقد تم التنبيه على خطر البدعة، وكيف كان الصحابة يحافظون على السنة ولا يتجاوزونها بقول أو فعل، في مواضع كثيرة من هذا الكتاب، تحذيرًا منها.

وأقول: إن أدل دليل على عدم مشروعية الاحتفال بها، هو عدم علمنا بتاريخها على وجه التحديد، ولو كان الرسول شرع للصحابة الاحتفال بها، لتناقلوا تاريخها، وعلموه لمن بعدهم، فهم الذين لم يفرطوا في حفظ أي أمر من أمور السنة، وإذا لم يحفظوا هذا التاريخ، علمنا من ذلك أنهم لم يتوقفوا عنده، وما كان لهم فيه عبادة، انظر كيف حفظوا خبر الإسراء وتناقلوه، حتى بلغ حد التواتر؛ لأن لهم فيه دروسًا وعبرًا، فلنتبع أثرهم ونكتفي بعملهم، أليس لنا فيهم قدوة وفي رسولنا أسوة؟!

فإذا قال قائل: الأمة الآن مشغولة بأمور عظيمة، أولى أن نبحثها ونتفق عليها، بدلاً من الاختلاف على أمور يسيرة مثل مشروعية الاحتفال أو عدم الاحتفال بليلة الإسراء.

أقول باختصار: إن التمسك بسنة الهادي البشير، والعمل بها، ونبذ البدع، لهو أقرب طريق إلى توحيد الأمة، واستنصار المولى، فالله تعالى قد وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالاستخلاف في الأرض، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الصلح، باب: إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، برقم (٢٦٩٧)، مسلم، كتاب: الأقضية، باب: نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، برقم (١٧١٨)، وأبو داود برقم (٤٦٠٦)، وابن ماجه، برقم (١٤).

لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ﴾ [النور: ٥٥]
والبدعة أبعد ما تكون من العمل الصالح، الذي هو أحد شرطي الاستخلاف.

واعلم أخي المسلم، أن كل بدعة تعملها، تباعدك من الله خطوة، حتى تصير في شق، واللهُ ورسولُه في شق آخر، نعوذ بالله من ذلك. كما يجب أن تعلم أخي المسلم، أن أعظم احتفال بهذه الليلة المباركة، أن تحافظ على الصلوات المكتوبة، وتقيم فروضها ومسنوناتها، وتستشعر فيها أنك تعبد الله كأنك تراه، فتَقَرّ بها عينك، وتهدأ بها نفسك، وتعلم أنها هدية الله إلى خلقه. فهذا بحق أعظم احتفال بهذه الليلة، احتفال يحبه الله ويرضاه.

أما الكلام عن شق صدره ﷺ، في هذه الليلة المباركة، وملأه حكمة وإيمانًا، فقد أفردت له بابًا مستقلاً، حتى أساعد القارئ، أن يتأمل هذه الواقعة العظيمة، ليستشعر فيها اعتناء الله سبحانه وتعالى بخاتم النبيين، وحتى لا تضيع الواقعة في زحمة الكلام، عن الرحلة المباركة.

٣- وصف بيت المقدس:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الْحِجْرِ وَقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ، فَسَأَلَتْنِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أُثْبِتْهَا فَكُرِبْتُ كُرْبَةً مَا كُرِبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، قَالَ: فَرَفَعَهُ اللَّهُ لِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلاَّ أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ» (١).

الشاهد في الحديث:

قول الرسول ﷺ: **«ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به»**.

هذه القصة، وهي سؤال قريش النبيَّ ﷺ عن أوصاف بيت المقدس، غداة إخباره بحادثة الإسراء، كان من المفترض أن أثبتها في سياق الحديث عن الإسراء والمعراج، ولكني وددت أن أفرد لها حديثًا خاصًا لعظيم شأن هذه القصة، ورغبتي أن يستشعر كل مسلم منة الله على عبده ورسوله، وحتى لا يضيع الكلام عنها في خضم الكلام عن معجزة الإسراء والمعراج التي أذهلت العقول وأخذت بالألباب.

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: في الشمائل النبوية:

١ - عظيم اعتناء الله سبحانه وتعالى بنبيه ﷺ وتأييده بالمعجزات الباهرات،

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب: ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال، برقم (١٨٢).

الخارقات للعقول والعادات، والتي هي للأعداء مفحمات ملزمات، وللأصحاب مقويات مُثَبِّتات، ويتضح ذلك من:

١ - سماع الله عز وجل لتحدي الكفار لنبيه ﷺ، وهو سماع تأييد ونصرة، ودليل ذلك أن ثبَّتَه بمعجزة عظيمة على الفور، ترفع عنه ما وجده من كرب عظيم، ففي الحديث، قال رسول الله ﷺ: «**فَكُرِبْتُ كربة ما كُرِبْتُ مثله قط**».

٢ - رفع الله سبحانه وتعالى بيت المقدس لنبيه ﷺ فرآه رؤية عين واضحة جلية لقوله: «**فرفعه الله لي أنظر إليه**» وللعلماء في المسألة أقوال منها: أن الله كشف الحجاب بين نبيه وبين بيت المقدس، أو أنه حمل البيت كله ووضعه أمام النبي ﷺ حتى رآه ثم أُعيد إلى مكانه، أو أنه مثل قريبًا منه، ذكرها ابن حجر في الفتح، وكل تلك الأقوال لا نستغربها ولا نستبعدها في قدرة الله، تبارك وتعالى، وما قصة إحضار عرش بلقيس -من اليمن إلى الشام مع عظمته في أقل من طرفة عين- منا ببعيد. ولكن اللافت للنظر والمثير للدهشة، قوله ﷺ: «**فرفعه الله لي أنظر إليه ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به**». فلا نتصور أنهم سألوا فقط عن أوصاف المسجد من الخارج كحدوده وأبوابه ونوافذه، ولكن من المؤكد أنهم سألوا عن أوصافه الداخلية، ليزيد تعجيزيهم للنبي ﷺ ولذلك أقول: إن النبي ﷺ كان ينظر إلى المسجد من مكانه الذي يقف عند الحجر بمكة، فيرى ما بداخل المسجد كما يرى خارجه سواء بسواء، من جميع الزوايا ومن كل المساقط، حتى يستطيع أن ينبئهم عن كل ما سألوه، فما خفي عليه أي جزء من المسجد. من يقدر على ذلك غير الله تعالى؟!.

٣ - ومن مظاهر اعتناء الله سبحانه وتعالى بنبيه ﷺ الطريقة التي رفع الله بها عنه الكرب الذي ألَمَّ به، فكان من الممكن أن يُلهمه الله، سبحانه وتعالى، إجابات شافية لكل ما سألوا عنه، أو يرسل له جبريل عليه السلام، ليلقنه إياها، أو يجعل نبيه ﷺ يثبتها ليلة أسري به إلى المسجد الأقصى، ولكن كل هذا لم يحدث مع إمكانيته؛ لأن الله، سبحانه وتعالى، أحب أن يكون التأييد بمعجزة ظاهرة عظيمة تُثَبِّتُ قلب نبيه ﷺ.

الفائدة الثانية: خوف النبي ﷺ الشديد على هذه الأمة، ورد في الحديث: «**فَكُرِبت كربة ما كربت مثله قط**»، فهذا الكرب كان من خوفه أن لا يرد على أسئلة المعاندين، فتفتن الأمة، ويُكَذَّب اللهُ ورسولُه، ولكن الله، عز وجل، قد حول هذه الخوف إلى معجزة ظاهرة، وأعجز من أرادوا تعجيزه، وبدلاً من أن يُظْهِروا كذبه - حاشا لله - ظهر لهم كمالُ صدقه، وازداد الذين آمنوا إيمانًا، بل وازداد هو يقينًا من نصر الله سبحانه وتعالى له.

الفائدة الثالثة: إثبات أن كفر المشركين يعود جلُّه إلى العناد والاستكبار عن الحق، وليس إلى عدم رؤيتهم الآياتِ الدالةَ على صدق النبي ﷺ في التبليغ عن ربه.

فالحاصل أنهم كانوا يوقنون أن النبي ﷺ لم ير بيت المقدس من قبل، وإلا لما سألوه عن أوصافه، وإنما سألوه ليعجزوه ويظهروا عدم صدقه في خبر إسرائه، وكان من المفترض مع كل جواب للنبي ﷺ أن يزدادوا تصديقًا به وتشككًا فيما هم عليه من مسلك، ولكن هذا لم يحدث، لما انطويت عليه قلوبهم من الحسد والعناد.

والغريب أيضًا في الأمر، أنه ما قال لهم: إنه مكث أيامًا في بيت المقدس، أو حتى يومًا واحدًا بل أخبرهم ﷺ أنه دخل المسجد وصلى بالأنبياء في جزء من الليل، فهل الذي يدخل مكانًا مثل بيت المقدس في مثل هذا القدر من الزمان بهدف الصلاة، هل يقدر أن يجيب عن كل سؤال يُوَجَّه له؟ خاصة إذا كان السائل يريد تعجيزه، بالطبع لا يستطيع.

فأقول: كان على الكفار لما سمعوا الإجابات الشافية عن كل أسئلتهم ألا يصدقوا فقط بصدق قصة الإسراء، بل كان عليهم أن يعتقدوا أن النبي ﷺ إنما أوحي إليه بأجوبة أسئلتهم، ولكن أين العقول؟.

الفائدة الرابعة: ثبوت بشرية النبي ﷺ وأنه لا يعلم الغيب، في قليل أو كثير، وأن الله عز وجل هو الذي يؤيده بالمعجزات، وأنه ﷺ يعتريه ما يعتري البشر من عدم التثبت من أشياء رآها سريعًا، ودليل كل ذلك، أن النبي ﷺ لما سُئل عن أشياء لم يُثْبتها في حافظته كُرِبَ كربًا شديدًا، فكيف نثبت له علم أشياء لم يرها أصلاً، أو لم يسمع بها من قبل؟. فكل ما يتكلم به النبي ﷺ من ماض أو مستقبل، أو حتى حاضر لم يره، فهو قطعًا وحي من الله عز وجل، ولا داعي أن يقول النبي ﷺ في كل مرة: إن الله تعالى أوحى لي بكذا وكذا، ولكن هذا معلوم لنا من الدين بالضرورة، علمناه من صريح آيات الكتاب الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]، وعلمناه أيضًا من وقائع كثيرة حدثت في السنة الشريفة، مثل واقعة الحديث الذي معنا، وغير ذلك مما ذكرته متفرقًا في هذا الكتاب.

٤- انشقاق القمر:

قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر:١].

عَن ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِرْقَتَيْنِ فِرْقَةً فَوْقَ الْجَبَلِ،

وَفِرْقَةً دُونَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «اشْهَدُوا» [١].

وفي الحديث المتفق عليه، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: (أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً فَأَرَاهُمُ الْقَمَرَ شِقَّتَيْنِ حَتَّى رَأَوْا حِرَاءً بَيْنَهُمَا) [٢].

قصة انشقاق القمر بلا شك من أعظم المعجزات الحسية التي أيد الله تبارك وتعالى بها نبيه ﷺ، حيث شق الله له القمر فلقتين حتى ظهر بينهما جبل حراء، وهي من أعظم المعجزات للأسباب التالية:

١ - حدثت المعجزة بناءً على طلب من الكفار، لما ثبت عند الشيخين من رواية أنس رضي الله عنه: «أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرتين»، ولما ورد في حديث الباب أن رسول الله ﷺ قال: «اشهدوا». والآية التي تكون على طلب المتحدي أبلغ في إظهار قوة المتحدَّى وألزم للخصم.

٢ - حدثت المعجزة في آية من أعظم الآيات الكونية وهي القمر، الذي يتعلق به قلوبُ الناس وأبصارهم كل ليلة، خاصة في مثل هذا الزمن - فكون المعجزة في القمر نفسه أفاد الأمور التالية:

أ - كانت معجزة عامة لا يسع أحدًا أن ينكرها فقد شاهدها المسلم والكافر، والكبير والصغير، والحاضر والبادي، فهي بذلك تختلف عن بقية معجزات النبي ﷺ التي غالبًا ما تقتصر رؤيتُها على أصحابه رضي الله عنهم، كتكثير الطعام.

ب - يُجْمع أصحاب العقول السليمة والفطر السوية أنها معجزة لا يقدر عليها إلا الذي خلق الشمس والقمر، وهو الله تبارك وتعالى، كما يُجْمعون على أنها معجزة لا تأتي عن طريق السحر والشعوذة والإيحاء، وهل قدر السحرة من قبل ومن بعد على مثلها؟!.

فهل يُعْقل أن الحكيم العليم يؤيد مَنْ يكذب عليه - حاشا لله أقولها فقط تنزلاً مع الخصم- بمعجزة تكون في واحد من أعظم مخلوقاته وهو القمر، فيجعل عباده في شك وريب من أمرهم، إن أخف الناس عقولاً يقرون أن حكمة الله سبحانه وتعالى تأبى ذلك.

قال الشيخ السعدي - رحمه الله-: (فمن أعظم الآيات الدالة على صحة ما جاء به محمد بن عبد الله ﷺ، أنه لما طلب منه المكذبون أن يريهم من خوارق العادات ما يدل على صحة ما

---

(١) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾، برقم (٤٨٦٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب: انشقاق القمر، برقم (٣٨٦٨).

جاء به وصِدْقِه، أشار ﷺ إلى القمر بإذن الله تعالى فانشق فلقتين، فلق على جبل أبي قبيس، وفلق على جبل قَيقَعان، والمشركون وغيرهم يشاهدون هذه الآية الكبرى الكائنة في العالم العلوي، التي لا يقدر الخلقُ على التمويه بها أو التخييل، فشاهدوا أمرًا ما رأوا مثله، بل ولم يسمعوا أنه جرى لأحد من المرسلين قبله نظيرُه، فانبهروا لذلك، ولكن لم يدخل الإيمان في قلوبهم، ففزعوا إلى بهتهم وطغيانهم، وقالوا: سحرنا محمد، ولكن علامة ذلك أنكم تسألون من قدم إليكم من السفر، فإنه من قدر على سحركم، لا يقدر أن يسحر من ليس مشاهدًا مثلكم، فسألوا كل من قدم، فأخبرهم بوقوع ذلك) (١).

٣ - هذه المعجزة هي المعجزة الحسية الوحيدة - فيما نعلم - القائمة بأمر الله إلى الآن، ذلك أن علماء الفلك في عصرنا هذا قد ضبطوا أثر الانشقاق في جسم القمر؛ لأن القمر بعد الانشقاق لم يلتئم تمامًا، فقد ترك الانشقاق أثرًا فيه كالشرخ، والذي أفادنا بذلك هو أحد علماء الفلك الأمريكيين الذي أعلن إسلامه بعد رؤيته لهذا الأثر في جسم القمر وقد أسس هذا العالمُ جمعيةً للدعوة إلى الإسلام، وأقول: إن الله عز وجل أراد أن تبقى هذه المعجزة ظاهرة للعيان أبد الدهر، ولو شاء الله لالْتَأَمَ القمر تمامًا بعد الانشقاق.

٤ - أثبت القرآن الكريم تلك المعجزة الحسية للنبي ﷺ دون بقية المعجزات.

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: تتجلى في هذه المعجزة العظيمة قدرةُ الله سبحانه وتعالى، وليس هذا بعجيب، فالله سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وكل شيء في قدرته سواء، فليس في قدرته أصعب ولا أسهل، فكل ما يريده يكون بكلمة كن، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ثم إن القمر خَلْقٌ من خلقه يفعل فيه وبه ما يشاء وقتما شاء.

الفائدة الثانية: حب الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ، وإرادته سبحانه وتعالى إعلاء شأنه ودينه على كل من عاداه وتحداه، ولذلك أيده بمعجزة عظيمة مثل انشقاق القمر، ما سمعنا أنها كانت لأحد من الأنبياء من قبله عليهم جميعًا الصلاة والسلام.

الفائدة الثالثة: نجزم قطعًا أن آية انشقاق القمر قد حدثت فعلاً في مكة زمن

(١) انظر تفسير السعدي (١/ ٨٢٤).

النبي ﷺ، ولا حجة لمن قال: إنها من علامات يوم القيامة واستدلوا لقولهم بقول الله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر :١] أي أن الانشقاق سيكون بعد قيام الساعة كتكوير الشمس وانشقاق السماء، والأحاديثُ الصحيحة حجةٌ عليهم، أما توجيه الآية القرآنية، فقد نقل القرطبي - رحمه الله - عن القراء أن الفعلين إذا كانا متقاربي المعنى فلك أن تقـــدم وتؤخـر واستشهد بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم :٨] ، كما أن قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٌ مُّسۡتَمِرٌّ﴾ [القمر :٢] دليل واضح على أن الآية قد حدثت بالفعل؛ لأن الآيات المصاحبة ليوم القيامة لا يكون فيها تصديق ولا تكذيب، وليس المقصودُ بها إلزامَ المعاندين الحجةَ.

الفائدة الرابعة: وهي فائدة متكررة مع كل معجزة حسية للنبي ﷺ وهي أن الكفار لا يعوزهم المعجزات حتى يسلموا، فقد رأوا من المعجزات الباهرات ما يلزمهم الحجة، وكانت بعضها بناءً على طلبهم ومع ذلك أعرضوا واتهموا النبي ﷺ بالسحر، قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٌ مُّسۡتَمِرٌّ﴾ [القمر :٢] .

٥- حنين جذع الشجرة:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُومُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِلَى شَجَرَةٍ أَوْ نَخْلَةٍ، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ - أَوْ رَجُلٌ -: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلاَ نَجْعَلُ لَكَ مِنْبَرًا؟ قَالَ: «إِنْ شِئْتُمْ». فَجَعَلُوا لَهُ مِنْبَرًا فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ دُفِعَ إِلَى الْمِنْبَرِ فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ صِيَاحَ الصَّبِيِّ ثُمَّ نَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَضَمَّهُ إِلَيْهِ تَئِنُّ أَنِينَ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكَّنُ قَالَ: «كَانَتْ تَبْكِي عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ عِنْدَهَا» (١).

أقول بدون مبالغة أو مغالاة: إن هذه المعجزة البينة للنبي ﷺ هي أعظم من أن يتكلم عنها أحدٌ مهما بلغ شأنه وشأوه، ومن تدبرها عرف جلالة قدر النبي ﷺ ليس عند ربه تبارك وتعالى وعند ملائكته الكرام وليس عند الأنبياء عليهم جميعًا الصلاة والسلام الذين احْتَفَوْا به ﷺ ليلة الإسراء والمعراج غاية الحفاوة وسلموا له بالإمامة والسيادة، أو عند أصحابه وأزواجه رضي الله عنهم جميعًا، ولكن يبين الحديث الشريف جلالة قَدْره عند الشجر الذي نظن أنه لا يسمع ولا يرى ولا يحس، والذي نضرب به المثل بالقسوة والغلظة والجفاء لأنه لا قلب له ولا شعور، ولكن هل كل الجمادات هكذا؟ لا والله! شتان بين حجر

(١) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب: علامات النبوة، برقم (٣٥٨٤).

نمر نحن عليه فلا يشعر بنا ولا نشعر به، وحجر يمر عليه النبي ﷺ فيسلم عليه مُعْلِنًا الإيمانَ به ﷺ نبيًّا ورسولاً، شتان بين نخلة نرويها ونسقيها لننتفع من ثمرها الطيب ليس بيننا وبينها علاقة حب ومودة، وبين نخلة كان النبي ﷺ يتكئ عليها في خطبة الجمعة فكانت تسمع منه الذكر الحكيم وتعيه وتخشع له فأحبتِ النبيَّ ﷺ وأحبتِ الذكرَ الذي كانت تسمعه أعظم الحب، ثم لما تركها ﷺ وخطب على المنبر اشتاقت إليه أشد الاشتياق وشعرت بفداحة المصيبة التي ألمت بها بفراق النبي ﷺ، فلن يمسها - بعد صناعة المنبر - جَسَدُ النبي ﷺ بعد أن كانت تحظى بهذا الشرف وتنال من بركته ما لم يَحْظَ به من جنسها أحد مثلها، فما كان منها إلا أن بكت بكاء الصبي، الذي أصابته مصيبة، وأقول: فارق كبير - واللهِ - بين حبنا وحب النخلة، وأسأل هل قَسَتْ قلوبنا فعجزت أن تحب النبي ﷺ وتشتاق إليه؟! كما أحبته الشجرة واشتاقت إليه؟! هل وصل بنا الأمر أن يكون غاية أملنا أن يصل حبنا كحب الشجرة وقليل منا من يبلغه، والله لا نملك أن نقول في مصيبتنا هذه إلا: إنا لله وإنا إليه راجعون.

أيها المسلمون هل يُقْبل عقلاً أو شرعًا أن يكون حبنا للنبي ﷺ أقل من حب الشجرة، وكان الأجدر والأولى هو العكس؛ لأننا الذين تنعمنا بخيره من كل وجه، حيث خرجنا به من الظلمات إلى النور؛ لأننا الذين استنقذنا الله به من النار ويُدْخلنا به الجنة إن شاء الله؛ لأننا الذين نطمع في شفاعته يوم الدين، ولأننا المقصودون أولاً وآخرًا ببعثته الميمونة ﷺ.

أيها المسلمون: بعد هذا البيان هل لنا أن نتصور حب الله سبحانه وتعالى له ﷺ، وهو سبحانه وتعالى الذي اصطفاه على العالمين ورضي به خاتمًا لأنبيائه ومرسليه، وأمينًا على أعظم كتبه وأكمل شرائعه، وكذا حب أصحابه وأزواجه له ﷺ.

وأختم بكلام جميل يؤكد ما ذكرته آنفًا ويبين ما في نفسي من المعاني التى لم أستطع أن أعبر عنها، قال الإمام الشافعي - رحمه الله - فيما رواه عنه ابن أبي حاتم في «مناقب الشافعي» عن عمرو بن سواء عن الشافعي قال: ما أعطى الله نبيًّا ما أعطى محمدًا، فقلت: أعطى عيسى إحياء الموتى، قال: أعطى محمدًا حنين الجذع حتى سمع صوته، فهذا أكبر من ذلك [1].

فإن قال قائل: كيف يكون حنين جذع نخلة أعظم إعجازًا من إحياء عيسى عليه السلام

---

(١) انظر فتح الباري (٦/ ٦٠٣).

الموتى، قلت: الأمر ظاهر من وجوه:

١ - إحياء الموتى - في الدنيا - على يد نبي معجزة فعلاً وهو أمر قد حدث وتكرر في الدنيا على مرأى ومسمع من الناس من قبل عيسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:٥٦] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:٢٤٣] أما بكاء جذع شجرة ثم تسكينها حتى سكونها هو أمر غير معهود ولم يحدث من قبل فيما نعلم.

٢ - إحياء الموتى سنة من سنن الله في خلقه، فإن حدث في الدنيا فلا غرابة في ذلك، فالإحياء هو الإحياء سواء في الدنيا أو الآخرة، وهذا الذي بُعِثَ بعد موته على يد عيسى عليه السلام كان في الأصل إنسانًا يمشي ويتكلم ويعقل، وكل ما حدث أن الله سبحانه وتعالى رد له روحًا خرجت منه، أما حنين الجذع فهو أمر مختلف، فلم يكن مجرد إحياء لموتى، حيث إنه استلزم أن يخلق في الجذع روحًا جديدة - لم تكن موجودة أصلاً - روحًا أشبه ما تكون بروح الإنسان الذي له عقل يعي الذكر وأذن تسمعه وقلب يفرح برؤية وملامسة الحبيب ويحزن لفراقه، وما كان الجذع ليحزن ويئن إلا إذا توفر فيه ذلك على هيئة لا يعرفها إلا الله تبارك وتعالى، وهذا قطعًا يختلف تمامًا عن مجرد إحياء الموتى.

٣ - إحياء عيسى عليه السلام للموتى كان لإثبات نبوته، وأما حنين جذع النخلة وما بعث الله فيها من روح وغيره إنما كان لإثبات حُبِّ الشجر وحنينه للنبي ﷺ.

٦- يسمع ما لا يسمعه أحد:

عن زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي حَائِطٍ لِبَنِي النَّجَّارِ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ وَنَحْنُ مَعَهُ إِذْ حَادَتْ بِهِ فَكَادَتْ تُلْقِيهِ وَإِذَا أَقْبُرٌ سِتَّةٌ أَوْ خَمْسَةٌ أَوْ أَرْبَعَةٌ فَقَالَ: «مَنْ يَعْرِفُ أَصْحَابَ هَذِهِ الأَقْبُرِ؟» فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا. قَالَ: «فَمَتَى مَاتَ هَؤُلاَءِ؟»، قَالَ: مَاتُوا فِي الإِشْرَاكِ، فَقَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا فَلَوْلاَ أَنْ لاَ تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ» (١).

(١) رواه مسلم، كتاب الجنة، باب: عرض مقعد الميت من الجنة، برقم (٢٨٦٧).

الشاهد في الحديث:

قوله ﷺ: «**فلولا أن لا تدافنوا لدعوتُ الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع**» فالصحابة رضي الله عنهم كانوا يمشون معه ﷺ وقد مروا على تلك القبور التي تعذب، ومع ذلك لم يسمعوا ما سمعه النبي ﷺ.

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: في النبي ﷺ:

١ - عناية المولى سبحانه وتعالى به، إذ أسمعه ما لم يسْمِعه أحدًا من الإنس والجن، وأظن أن الحكمة من ذلك أن يكون ﷺ أشد الناس خوفًا من الله وأتقاهم له وأعلمَهم به، وقد تحقق ذلك على أحسن ما يكون، فلله الحمد والمنة.

٢ - رحمته ﷺ بالأمة وشفقته بها، وذلك أنه لم يسأل الله عز وجل أن يسمع الأمة صوت عذاب القبر خوفًا أن لا يدفن بعضهم بعضًا.

٣ - حكمته ﷺ، إذ وازن بين المصلحة المترتبة على سماع الأمة صوت عذاب القبر والتي تتمثل في شدة خوفها من الله وتجنبها المعاصي، حسب طاقتها، والمفسدة المترتبة على السماع والمتمثلة في ترك الدفن، وهي بلا شك مفسدة عظيمة بل مفاسد بعضُها أعظمُ من بعض، ويمكن الاحتجاج بهذا الحديث كأصل في القاعدة الشرعية الجليلة والتي تقول: إن درءَ المفاسد أولى من جلب المنافع.

٤ - عدم علمه ﷺ الغيبَ - إلا ما أطلعه الله سبحانه وتعالى عليه - وتعليمه الأمة هذا الأمر، حيث قال ﷺ لأصحابه: «**من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟**» فقد سأل عن أصحاب هذه القبور وزمن موتهم.

٥ - قوته ﷺ في الحق ورباطة جأشه، حيث كان يدفن أصحابه ويباشر ذلك بنفسه مع علمه بما في القبر من بلاء وفتن ومحن بل قد سمع ذلك، أما غيره من الناس - بما فيهم الصحابة - فيخشى عليهم إذا سمعوا ما يحدث في القبر ألا يتدافنوا. لذلك ما كان هناك من ضرر من سماع النبي ﷺ لعذاب القبر.

٦ - تواضعه ﷺ حيث كان يركب البغلة ولا يترفع عن ذلك.

الفائدة الثانية: إثبات سماع الحيوانات وغيرها عذابَ القبر، ودليله أن بغلة النبي ﷺ

انحرفت به عن الطريق وكادت أن تلقي النبي ﷺ، وما ذلك إلا لسماعها صوت عذاب القبر، كما أن فيه دليلا على أن تلك الحيوانات تتأثر بما تسمع بل تتجنب مثل هذه الأصوات، ولا أقول: إن الحيوانات فقط تسمع، بل ورد في الحديث الصحيح الذي (رواه البخاري) وغيره: «**ويضرب بمطارق من حديد ضربة فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين**» [(١)] أي أن كل شيء يسمع ذلك إلا الإنس والجن، وبذلك يثبت السماع للجمادات والجبال والحيوانات في البر والبحر وكذا النباتات.

الفائدة الثالثة: في عذاب القبر:

١ – هو من الأمور الغيبية، حيث لم يسمعه ولم يره أحد من عموم هذه الأمة، ولكن أخبر به الصادق المصدوق ﷺ.

٢ – وجوب الإيمان به؛ لقوله ﷺ: «**إن هذه الأمة تُبتلى في قبورها**» والإيمان بعذاب القبر يدخل في عموم الإيمان بالغيب الذي زكى الله تبارك وتعالى صاحبه بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣].

٣ – عذاب القبر أمر مادي حيث ثبت في الحديث أن له صوتًا، وأخطأ من قال: إنه أمر معنوي.

٤ – هو عذاب مستمر مع الكافر، فلا ينقطع عنه بعد السؤال كما لا ينقطع عنه بتحلل رفاته – فيما نرى – لأن أصحاب هذه القبور التي سمع النبي ﷺ عذابهم قد مر على وفاتهم سنوات.

٥ – حياة البرزخ لا تقاس على الحياة الدنيا بأي وجه من الوجوه، لذلك فلا مدخل للعقل في تصور كيفيتها، فلا يُعْلَم ما فيها إلا بالنقل، وعلى العقلِ والقلبِ التسليمُ المطلق، فهذا صوت العذاب في هذه الحياة الغيبية يسمعه كل أحد إلا الثقلين، ويعذب فيها صاحب القبر عذابًا أليمًا مع أنك إذا فتشت في قبره فلن تجد إلا بقايا رفات أو لن تجد شيئًا أبدًا إلا الأثر.

٦ – عظيم عذاب القبر، يدلك على ذلك أن الناس إذا سمعوا صوته فقط هان عليهم أن يتركوا ذويهم وأصحابهم بدون دفن، على أن يدفنوهم، مَسَّهُم ذلك العذابُ أو لم يمسهم، بالرغم من المفاسد العظيمة المترتبة على عدم الدفن. ومما يدلل أيضًا على عظيم عذاب القبر أن النبي ﷺ كان يتعوذ منه كثيرًا خاصة بعد التشهد وقبل السلام من الصلاة ويعلم أصحابه ذلك، فَعَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ فِيمَا قُرِئَ عَلَيْهِ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ عَن طَاوُسٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب: ما جاء في عذاب القبر، برقم (١٣٧٤).

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُعَلِّمُهُمْ هَذَا الدُّعَاءَ كَمَا يُعَلِّمُهُمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ يَقُولُ: قُولُوا: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ» قَالَ مُسْلِم بْن الْحَجَّاج: بَلَغَنِي أَنَّ طَاوُسًا قَالَ لابْنِهِ: أَدَعَوْتَ بِهَا فِي صَلاَتِكَ؟ فَقَالَ: لاَ. قَالَ: أَعِدْ صَلاَتَكَ. لأَنَّ طَاوُسًا رَوَاهُ عَنْ ثَلاَثَةٍ أَوْ أَرْبَعَةٍ (١).

وكأن طاوسًا رحمه الله كان يرى أن ذلك الدعاء واجب تبطل الصلاة بتركه.

الفائدة الرابعة: الناس الذين وصلتهم دعوة نبي، قبل بعثة النبي ﷺ، وماتوا على الشرك يعذبون في قبورهم، وهم من أهل النار؛ لأن هؤلاء الذين سمع النبي ﷺ عذابهم قد ماتوا في زمن الشرك.

٧- يرى ما لا يراه أحد:

عَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ وذلك في حديث الكسوف: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ هَذَا ثُمَّ رَأَيْنَاكَ كَفَفْتَ؟ فَقَالَ: «إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُودًا وَلَوْ أَخَذْتُهُ لأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا. وَرَأَيْتُ النَّارَ فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ مَنْظَرًا قَطُّ وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ»، قَالُوا: بِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «بِكُفْرِهِنَّ» قِيلَ: أَيَكْفُرْنَ بِاللَّهِ؟ قَالَ: «بِكُفْرِ الْعَشِيرِ وَبِكُفْرِ الإِحْسَانِ؛ لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ» (٢).

وعَنْ جَابِرٍ قَالَ: انْكَسَفَتِ الشَّمْسُ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ النَّاسُ: إِنَّمَا انْكَسَفَتْ لِمَوْتِ إِبْرَاهِيمَ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فَصَلَّى بِالنَّاسِ سِتَّ رَكَعَاتٍ بِأَرْبَعِ سَجَدَاتٍ بَدَأَ فَكَبَّرَ ثُمَّ قَرَأَ فَأَطَالَ الْقِرَاءَةَ ثُمَّ رَكَعَ نَحْوًا مِمَّا قَامَ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فَقَرَأَ قِرَاءَةً دُونَ الْقِرَاءَةِ الأُولَى، ثُمَّ رَكَعَ نَحْوًا مِمَّا قَامَ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فَقَرَأَ قِرَاءَةً دُونَ الْقِرَاءَةِ الثَّانِيَةِ، ثُمَّ رَكَعَ نَحْوًا مِمَّا قَامَ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ ثُمَّ انْحَدَرَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ ثُمَّ قَامَ فَرَكَعَ أَيْضًا ثَلاَثَ رَكَعَاتٍ لَيْسَ فِيهَا رَكْعَةٌ إِلاَّ الَّتِي قَبْلَهَا أَطْوَلُ مِنَ الَّتِي بَعْدَهَا وَرُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ سُجُودِهِ ثُمَّ تَأَخَّرَ وَتَأَخَّرَتِ الصُّفُوفُ خَلْفَهُ حَتَّى انْتَهَيْنَا وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ (٣): حَتَّى انْتَهَى إِلَى النِّسَاءِ ثُمَّ تَقَدَّمَ وَتَقَدَّمَ النَّاسُ مَعَهُ حَتَّى قَامَ فِي مَقَامِهِ فَانْصَرَفَ

---

(١) رواه مسلم، كتاب المساجد، باب: ما يستعاذ منه في الصلاة، برقم (٥٩٠).

(٢) رواه مسلم، كتاب الكسوف، باب: ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف، برقم (٩٠٧).

(٣) هو الحافظ أبو بكر ابن أبي شيبة صاحب المصنف.

حِينَ انْصَرَفَ وَقَدْ آضَتِ الشَّمْسُ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَإِنَّهُمَا لاَ يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ مِن النَّاسِ» -وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: «لِمَوْتِ بَشَرٍ- فَإِذَا رَأَيْتُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَصَلُّوا حَتَّى تَنْجَلِيَ، مَا مِنْ شَيْءٍ تُوعَدُونَهُ إِلاَّ قَدْ رَأَيْتُهُ فِي صَلاَتِي هَذِهِ لَقَدْ جِيءَ بِالنَّارِ وَذَلِكُمْ حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ مَخَافَةَ أَنْ يُصِيبَنِي مِنْ لَفْحِهَا، وَحَتَّى رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَ الْمِحْجَنِ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ كَانَ يَسْرِقُ الْحَاجَّ بِمِحْجَنِهِ فَإِنْ فُطِنَ لَهُ قَالَ: إِنَّمَا تَعَلَّقَ بِمِحْجَنِي، وَإِنْ غُفِلَ عَنْهُ ذَهَبَ بِهِ، وَحَتَّى رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَةَ الْهِرَّةِ الَّتِي رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا، ثُمَّ جِيءَ بِالْجَنَّةِ وَذَلِكُمْ حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَقَدَّمْتُ حَتَّى قُمْتُ فِي مَقَامِي، وَلَقَدْ مَدَدْتُ يَدِي وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَتَنَاوَلَ مِنْ ثَمَرِهَا لِتَنْظُرُوا إِلَيْهِ ثُمَّ بَدَا لِي أَنْ لاَ أَفْعَلَ، فَمَا مِنْ شَيْءٍ تُوعَدُونَهُ إِلاَّ قَدْ رَأَيْتُهُ فِي صَلاَتِي هَذِهِ» (١).

الشاهد في الحديثين: أن النبي ﷺ قد رأى هو يصلي، الجنةَ شاخصةً أمامه، ورأى النار، وأُطْلِعَ على أهلها وهم يعذبون، والصحابة خلفه ينظرون إليه، فلا يرون جنة ولا نارًا، بل يرون النبي ﷺ، وهو يتناول شيئًا، كما يرونه وهو يتكعكع. وهذا دليل على ما بَوَّبْتُ به، أنه يرى ما لا يراه أحد، وقد أثبتُّ هذين الحديثين للاستزدادة من الفوائد، وإن كان أحدهما يكفي في الاستشهاد.

بعض فوائد الحديثين:

الفائدة الأولى: اجتهاد النبي ﷺ في العبادة، علمناه من تطويله جدًّا، في جميع أركان صلاة الكسوف، بما في ذلك الركوع والسجود.

الفائدة الثانية: جواز أن يطيل الإمام الصلاة جدًّا، وأن النهي عن الإطالة ليس في كل الأحوال، إنما هو في حال خشية وجود من يتأذى من ذلك التطويل، كالضعيف والمريض وذي الحاجة، فقد كان النبي ﷺ يدخل الصلاة يريد التطويل، فيعرض له عارض فيتجوز فيها، روى البخاري عَن أَبِي قَتَادَةَ عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنِّي لأَقُومُ فِي الصَّلاَةِ أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلاَتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ» (٢).

الفائدة الثالثة: الحركة الخفيفة في الصلاة لا تبطلها؛ لأن النبي ﷺ تناول عنقودًا، وتكعكع، واستمر في صلاته، كما أن مسارقة النظر لا تبطلها أيضًا، لقول الصحابة:

---

(١) رواه مسلم، كتاب الكسوف، باب: ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف، برقم (٩٠٤).
(٢) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب: من أخف الصلاة عند بكاء الصبي، برقم (٧٠٧).

(رأيناك تناولت شيئًا) ولكن يجب أن يُدافع المسلم نفسه في الصلاة، فَيُلْزِمَ بصره موضعَ سجوده؛ لأن ذلك أدعى للخشوع في الصلاة.

الفائدة الرابعة: في شمائل النبي ﷺ:

١ - رؤيته الجنةَ والنار في الحياة الدنيا، وكانت رؤيةً واضحة لا التباسَ فيها، بدليل أنه مَيَّزَ في هذه الفترة الوجيزة، أن أكثر أهل النار النساء، كما رأى امرأة تخدشها هرة، وقال ﷺ كما ورد في مسلم: «**وحتى رأيت صاحب المحجن، يجر قصبه في النار**» ونجزم أنها ما كانت رؤية بالقلب، بل كانت رؤية بالعين، لقوله: «**لقد جيء بالنار حيث رأيتموني تأخرت مخافة أن يصيبني من لفحها**»، ورؤية القلب ما يتضرر الإنسان منها، كما أنه لا يمد يده ليتناول ما يراه بقلبه. والحاصل أنها كانت رؤيةَ يقظةٍ واضحةً بينة.

٢ - ظهور خوفه ﷺ من الله تعالى، حيث قال: لما دنت منه النار: وأنا معهم، وفي رواية عند مسلم: «**لقد جيء بالنار حيث رأيتموني تأخرت مخافة أن يصيبني من لفحها**» ولولا خوفه من الله سبحانه وتعالى، وأنه لا يأمن مكر الله، ما تكعكع من مكانه، وما أعلن للناس خوفه من عذاب الله عز وجل ويتفرع على ذلك جهل من يقول: إني أعبد الله ليس طمعًا في جنته ولا خوفًا من عذابه: (فهذا النبي ﷺ يخاف فقط أن يصيبه لفح جهنم) وقد بينا سَفَهَ هذا القول فيما تقدم.

ومن علامات خوفه ﷺ أنه هرع إلى الله سبحانه وتعالى بالصلاة والدعاء، لما رأى الكسوف والخسوف، ويصلي فيطيل الصلاة حتى تنجلي الشمس.

٣ - أدبه مع الله؛ لأن عنقود الجنة كان في متناول يده، وكان يود أن يأخذه ليراه الصحابة، فيزدادوا بالله ورسوله إيمانًا ويقينًا، ولكن لم يفعل، ورد في رواية مسلم: «**وقد مددتُ يدي وأنا أريد أن أتناول من ثمرها لتنظروا إليه ثم بدا لي أن لا أفعل**» وأظن أن عدم فعله قد يكون بسبب عدم الإذن له بقطف العنقود، وفي رواية عند البخاري: «**قد دَنَتْ مني الجنة حتى لو اجترأت عليها لجئتكم بقطاف من قطافها**» (١). وإن صح هذا الاستنباط فيكون فعله هذا هو منتهى الأدب مع الله سبحانه، وقد يكون عدم التناول لِحِكَم أخرى.

٤ - إطْلاعُه على كل ما وُعِدَت به هذه الأمة إلى قيام الساعة، لما ورد عند مسلم «**فما من شيء توعدونه إلا قد رأيته في صلاتي هذه**» (٢) أي أن الرؤية لم تقتصر على الجنة والنار، ولا

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب: ما يقول بعد التكبير، برقم (٧٤٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب الكسوف، باب: ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف، برقم (٩٠٤) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

يخفى على أحد ما تنطوي عليه هذه المعجزة من تكريم للنبي ﷺ وإظهار لفضله وسبقه على الأولين والآخرين.

٥ - ظهور حرصه ﷺ على نصح الأمة، وتعبيدها لله عز وجل وبيان ما وقعت فيه من خطأ حال وقوعه، وذلك أن الناس ظنوا أن كسوف الشمس حدث بسبب موت ابنه إبراهيم عليه السلام فقام فيهم فقال: **«يا أيها الناس إنما الشمس والقمر آيتان من آيات الله وإنهما لا ينكسفان لموت أحد من الناس»**.

الفائدة الخامسة: بيان عظيم قدرة الله سبحانه وتعالى، ويتمثل ذلك في رؤية النبي ﷺ الجنةَ والنارَ في مكانه، ورؤية كل ما تُوعَدُ به الأمة إلى يوم القيامة، يرى ذلك ويعقله، ولا يراه أحد غيره، ممن يقف وراءه حتى دَنَتْ منه النار بلهيبها وحرها، كما أن قدرته، سبحانه وتعالى، تتمثل أيضًا في قصر الوقت الذي استغرقته تلك المعجزة العظيمة، خاصة أنه رأى كل ما وعدت به الأمة، يتفرع على ذلك، أن قدرة الله عز وجل، لا يعقلها عقل، ولا يحدها وصف، ولا يعجزها شيء، فعلى المسلم أن لا يقيس تلك الأخبار على قدرة الإنسان المحدودة، بل يسلم بكل ما ورد بالكتاب والسنة دون إدخال العقل، اللهم إلا في التفكر في عظيم قدرة الله سبحانه وتعالى.

الفائدة السادسة: بيان أن الجنة والنار مخلوقتان الآن، ولله الحكمة البالغة في ذلك، بل فيهما من يعذب وينعم، لما ورد في هذا الحديث من تعذيب صاحبة الهرة، أما التنعيم في الجنة، فقد روى البخاري: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِبِلَالٍ عِنْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ: **«يَا بِلَالُ حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ فِي الْإِسْلَامِ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ دَفَّ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ؟»** قَالَ: مَا عَمِلْتُ عَمَلاً أَرْجَى عِنْدِي أَنِّي لَمْ أَتَطَهَّرْ طَهُورًا فِي سَاعَةِ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ إِلاَّ صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطُّهُورِ مَا كُتِبَ لِي أَنْ أُصَلِّيَ (١).

أما كيف دخلت هذه المرأة النار قبل يوم القيامة، فهذا غيب، ليس عندنا علم به من كتاب أو سنة، فلا نخوض فيه.

الفائدة السابعة: بطلان قول من يقول: إن الكسوف والخسوف ظواهر طبيعية، لا علاقة لها بأعمال العباد، وأنه لا ينبغي لنا أن نخاف من حدوثها أو كثرة تكرارها، فقد ورد في رواية عند البخاري: **«إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكن الله تعالى يخوف بها عباده»**، وفي رواية عنده أيضًا: **«فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى**

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب: فضل الطهور بالليل والنهار...، برقم (١١٤٩).

الصلاة»، وعنده: «فإذا رأيتموهما فادعوا الله وصلوا حتى ينجلي». ومعرفةُ موعِدها لا يُخرِجها عن كونها آيةً يُخَوِّفُ الله بها عبادهَ.

الفائدة الثامنة: عظيم ما أعده الله عز وجل لعباده المؤمنين في الجنة، وأن ما فيها يختلف تمامًا عما نعرفه في الدنيا، لقوله ﷺ عند البخاري: «**فتناولت منه عنقودًا ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا**» فلو أن الناس كلهم جميعًا من عهد الصحابة إلى قيام الساعة، أكلوا من هذا العنقود، كفاهم من الجوع ولم ينفد، أي أن نعيم الجنة وما فيها لا ينتهي، قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وهذا أيضًا من دلائل عظيم قدرة الله سبحانه وتعالى.

الفائدة التاسعة: عظيم ما أعده الله سبحانه وتعالى، للكافر من عذاب أليم موجع، لقوله عليه الصلاة والسلام: «**ورأيت النار فلم أر كاليوم منظرًا قط**» في رواية البخاري.

ونلحظ في النار أيضًا عظيم قدرة الله سبحانه وتعالى من جهة أن أهلها يذوقون هذا العذاب فلا يموتون، بل إن أجسادهم تتضخم، لما روى البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا بَيْنَ مَنْكِبَيِ الْكَافِرِ مَسِيرَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ لِلرَّاكِبِ الْمُسْرِعِ**»(١).

الفائدة العاشرة: عدم الاستهانة بأي ذنب مهما صغر في عين العبد؛ لأن المرأة دخلت النار في قطة حبستها، كما لا نقلل من أي عمل صالح فقد دخل رجلٌ الجنةَ في سقاية كلب ظمآن، فعند البخاري، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «**أَنَّ رَجُلًا رَأَى كَلْبًا يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ فَأَخَذَ الرَّجُلُ خُفَّهُ فَجَعَلَ يَغْرِفُ لَهُ بِهِ حَتَّى أَرْوَاهُ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ**»(٢).

يتفرع على ذلك أن يكون المسلم دائمًا على حذر من أدنى الذنوب، فلعله يطيع ويكثر من الخيرات، ويقع في ذنب صغير يأخذه الله به، أو يُخْتَم له به فيكون من المعذبين في النار، كما أن عليه ألا يترك عملاً صالحًا إلا ويفعله ويحرص عليه قدر استطاعته، فلعله يُخْتَم له به فيكون من أصحاب الجنة، أو يقع هذا العمل الصالح موقع رضى من الله عز وجل فيغفر له به ذنوبًا عظيمة، ويتبين من ذلك أن من يقترف السيئات دون مبالاة ودون توبة في خطر عظيم.

الفائدة الحادية عشرة: وفيها أن المرأة دخلت النار لأنها حبست الهرة ولم تطعمها، أي أنها لو أطعمتها مع حبسها لم يتوجه إليها اللوم.

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب: صفة الجنة والنار، برقم (٦٥٥٣).
(٢) رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب: الماء الذي يغسل به شعر الإنسان...، برقم (١٧٤).

الفائدة الثانية عشرة: في قوله: «لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئًا قالت ما رأيت منك خيرًا قط»، وانظر إلى مقابلة إحسان الدهر، بقولها: «ما رأيت منك خيرًا قط».

وإذا كان هذا الوعيد للزوجة التي تجحد فضل زوجها، وهو بشر مثلها، ولم يكن هذا المعروف من محض فضله، كما أنها ولا شك أسدت إليه في مقابل هذا المعروف معروفًا، ولو قليلاً، فما بالكم بالذي يجحد فضل الله عز وجل عليه، وفضله هو أصل كل فضل، يصل إلى العبد قديمًا وحديثًا، فضله الذي لا ينقطع، بل هو مع الإنسان من يوم أن كان نطفة في رحم أمه، إلى أن تفيض روحُه إلى بارئها، بل إن فضله عليه من قبل ذلك وبعده، وهو فضل لا يقابله فضل من العبد. أظن أن من يجحد فضل الله عليه أن عذابه سيكون أشد وأشد، مقارنة بعذاب من جحدت فضل زوجها فحذار أن يجحد المسلم فضل ربه، وألا يُقِرّ به آناء الليل وآناء النهار، وألا يقابله بالشكر والعمل الصالح، حتى وإن تعرض لبعض المحن والابتلاءات، والمجال لا يتسع أن نذكر طرفًا من أفضال الله المتتابعة وآلائه المتوالية ورحماته المتعاقبة استدلالاً على ما ذكر، ولكن يكفي أن نتذكر قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٤].

الفائدة الثالثة عشرة: قوله: «ورأيت أكثر أهلها النساء» ولم يقل: (ورأيت النساء أهلها)، وهذا هو المشاهد لأن بعض النساء مهما رأين من أزواجهن لا يجحدن فضلهم ومعروفهم.

الفائدة الرابعة عشرة: وهي في كيفية شد انتباه السامعين: حيث قال ﷺ لما سئل عن سبب أن أكثر أهل النار من النساء «يكفرن» وسكت ولم يبين أي أنواع الكفر يقصد، حتى يسترعي انتباه الجميع، ويجعلهم يخافون من كلمة (يكفرن) حتى ظنوا أنهن يكفرن بالله، فيأتي بعد ذلك البيان من الرسول ﷺ بالمقصود من قوله «يكفرن» على قلوب وعقول قد سألت عن المقصود، وقد شُدَّ انتباهها.

الفائدة الخامسة عشرة: ما كان عليه الصحابة من فقه وأدب، أما الفقه، فقد علموا أن هناك سببًا ظاهرًا لكون أكثر أهل النار من النساء، فقالوا: (بم يا رسول الله)، وأما أدبهم فيتضح من صيغة السؤال عن علة الحكم، فلم يكن سؤال المتشكك أو المعترض أو الطاعن في حكمة الله، بل كان سؤال من يريد التعلم فقالوا: «بم يا رسول الله»، فالذي يقر أنه رسول الله، ويناديه بصفته في السؤال، يوحي بإيمانه بالحكم وتسليمه له، وعدم اعتراضه، وأنه يريد معرفة العلة، حتى لا يقع فيها.

يتفرع على ذلك وجوب أن يتأدب المسلم عند السؤال عن علة أي حكم من أحكام الدين، ويظهر من كلامه أنه يسلم بحكمة الله البالغة في كل أمر ونهي، وأنه يسأل سؤال المتعلم لا المتشكك، وأن الأمر عنده لا يختلف كثيرًا إذا علم أو جهل حكمة الحكم؛ لأن عنده مطلق الإيمان بالله ورسوله.

ومن أمثلة رؤية النبي ﷺ ما لا يراه أحد، ما رواه الشيخان بإسناديهما عن أُسَامَةَ رضي الله عنه قَالَ: أَشْرَفَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِ الْمَدِينَةِ فَقَالَ: «هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَى؟ إِنِّي لأَرَى؟ مَوَاقِعَ الْفِتَنِ خِلاَلَ بُيُوتِكُمْ كَمَوَاقِعِ الْقَطْرِ» (١).

قال الإمام ابن حجر - رحمه الله - (أشرف) أي نظر من مكان مرتفع، قوله: (مواقع) أي مواضع السقوط (خلال) أي نواحيها.

قد شبه سقوط الفتن وكثرتها بسقوط القطر في الكثرة والعموم.

وهذا من علامات النبوة لإخباره بما سيكون، وقد ظهر مصداق ذلك من قتل عثمان رضي الله عنه وهلم جرا ولا سيما يوم الحرة، والرؤية المذكورة يحتمل أن تكون بمعنى العلم أو رؤية العين، بأن تكون الفتن مُثِّلَتْ له حتى رآها، كما مثلت له الجنة والنار في القبلة حتى رآهما وهو يصلي (٢).

وقال - رحمه الله - في موضع آخر: (والرؤية بمعنى النظر أي كُشِفَ لي فأبصرتُ ذلك عيانًا) (٣).

وأقول: هذا هو الصحيح - إن شاء الله - لسؤال النبي ﷺ أصحابَه: «هل ترون ما أرى؟» والأقرب أن يكون هذا الاستفهام من النبي ﷺ لشيء يراه ويبصره بالعين لا لشيء يعلمه، كما أنه لا حاجة لتأويل الرؤية بالعلم حيث إن النقل أثبتها والعقل لا ينفيها، والقولُ بظاهر النص هو الأسلم.

٨- رؤيته ﷺ غيره من وراء ظهره:

روي البخاري بإسناده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «هَلْ تَرَوْنَ قِبْلَتِي هَا هُنَا؟ فَوَاللَّهِ مَا يَخْفَى عَلَيَّ خُشُوعُكُمْ وَلاَ رُكُوعُكُمْ إِنِّي لأَرَاكُمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي» (٤).

---

(١) رواه البخاري (٣٥٩٧)، ومسلم (٢٨٨٥).
(٢) انظر فتح الباري (٤/٩٥). (٣) انظر فتح الباري (١٣/١٣).
(٤) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب: عظة الإمام الناس في إتمام الصلاة، برقم (٤١٨).

الشاهد في الحديث: قوله ﷺ: «إني لأراكم من وراء ظهري».

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: كثرة المعجزات التي أيد الله سبحانه وتعالى بها نبيه ﷺ، وهذه واحدة من أجل تلك المعجزات، وهي أنه ﷺ يرى من وراء ظهره. وإليك بعض حِكم هذه الرؤية:

١- إظهار الله للناس فضله وتأييده لنبيه ﷺ، وإظهار مكانته على الأولين والآخرين، وذلك بخرق العادات الكثيرة له، ومنها أنه يرى من وراء ظهره كما يرى من أمامه، وأقول: إن الرؤية من الأمام والخلف تستوي في حقه ﷺ؛ لأن الحديث بدأ بقوله: «هل ترون قبلتي هنا» وهو سؤال يستنكر فيه النبي ﷺ على من يظن أنه يرى الذي أمامه فقط، واختتم حديثه بقوله: «إني لأراكم من وراء ظهري»، وهذا الإظهار لفضل الله، ليزداد الذين آمنوا إيمانًا، إيمانًا بقدرة الله على خرق العادات والنواميس، وأن هذه العادات والنواميس إنما هي ملزمة للناس فقط، ولا يمكن عقلاً أن تكون ملزمة للذي خلقها، كما يزداد الذين آمنوا إيمانًا بنبوة المصطفى ﷺ وهذه الحكمة هي حكمة مشتركة في جميع المعجزات.

٢ - تطمين الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ أن الله ناصره ومؤيده بمعجزة ملازمة له، يراها ويشعر بها صباحًا ومساءً.

٣ - إطْلاع النبي ﷺ على ما يحدث خلفه، كإطلاعه على خشوع أصحابه، رضي الله عنهم، في الصلاة، وكذا جميع حركاتهم وسكناتهم، فقد يحتاج الأمر إلى تصويبها وتعديلها، وتنبه أخي القارئ إلى أن رؤيته ﷺ تُوسع دائرة تكليفه من حيث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو لا يُكَلف بالذي يراه أمامه فحسب، بل بما يراه من خلفه أيضًا. كما أن رؤيته ﷺ من وراء ظهره، تضمن له ألا يُغتال غيلة، كما يزيده شجاعة وإقدامًا، على عدوه في الحروب، وهو ما كان يحدث بالفعل.

الفائدة الثانية: في كيفية تلك الرؤية، فقد ذكر ابن حجر، رحمه الله، في الفتح عدة أقوال عن غيره من العلماء، وقد أبطلها جميعًا بدون محاجة أصحابها، ولذلك أحب أن أسردها هنا وأذكر حجتي في إبطالها فأقول وبالله التوفيق:

١ - **الرأي الأول:** انطباع الصورة في حائط الجدار الذي أمامه ﷺ، وهذا مردود عليه، بأنه لن يرى طالما ليس أمامه جدار، والحديث لم يقيد الرؤية بالجدار أو غيره، بل لم

يقيد الرؤية بالصلاة أصلاً .

٢ - الرأي الثاني : أنها رؤية لمن عن يمينه وشماله ، ممن تدركه عينه من التفات يسير في النادر ، وهذا القول يتعارض مع ظاهر الحديث ؛ لأن الرؤية الناشئة عن التفاتة يسيرة عن اليمين أو الشمال ، ليس فيها بالتأكيد رؤيةُ مَنْ يقف في الخلف تمامًا ، وليس فيها أيضًا إلا رؤية أجزاء من الصف الأول ، أما رؤية ما يلي الصف الأول ، فهي مفقودة قطعًا ، وهذا تقييد بلا دليل ولا مسوغ ؛ وذلك لعموم الرؤية التي وردت في الحديث ، كما هو مناقض لرواية مسلم وفيها : «**فوالله ما يخفى عليَّ ركوعكم ولا سجودكم**» فالذي يرى من خلفه بالتفاتة يسيرة لن يرى قطعًا الساجدين خلفه في أثناء سجوده هو .

٣ - الرأي الثالث : يقول : إن المراد بالرؤية هنا العلم ، إما بوحي أو إلهام . وهذا أيضًا فيه منافاة لظاهر الحديث ؛ لأن النبي ﷺ بين أن عدم خفاء الركوع والسجود إنما هو ناتج عن الرؤية ، وقد قيد هذه الرؤية أنها من وراء ظهره ، والإلهام والوحي إنما ينزل على القلب وليس من وراء الظهر ، والغريب أن النبي ﷺ قد أكد أن الرؤية إنما هي من وراء ظهره بمؤكدين ، هما «**إنَّ**» في قوله «**إني**» ، واللام الموطئة للقسم في قوله : «**لأراكم**» ، كأنه ﷺ يرد على من يتأول الرؤية .

كما أن الرؤية لا تنزل منزلة الوحي ، حتى تطلق إحداهما على الأخرى ، فالوحي -بلا شك- أعظم من مجرد الرؤية ، سواء في الإعلام بمنزلة النبي ﷺ ، أو من جهة تعظيم الصحابة رضي الله عنهم لها ، فالحاصل أنها لو كانت وحيًا لكان ذكرها أولى ووقعها أعظم .

وبعد تفنيد هذه الأقوال ، نجزم قطعًا ، أن النبي ﷺ كان يرى من وراء ظهره كما يرى من أمامه ، سواء بسواء .

الفائدة الثالثة : في عضو الرؤية ، أي هل كان النبي ﷺ يرى بعين محسوسة من وراء ظهره .

أقول : إن البحث في هذا الأمر من التكلف ؛ لأنه من الغيب ، الذي ليس فيه نص من كتاب ولا سنة ، ولو كنا متعبدين أن نعرف عضو الإبصار ، لبينته لنا السنة ، غاية البيان كما بينت لنا الرؤية ، ولكني هنا أرد على من قال : كانت له عين خلف ظهره يرى بها من ورائه دائمًا ، وعلى من قال : كانت له عينان بين كتفيه . وقد ذكر هذين القولين ابن حجر ، ولم

يعلق عليهما، وأنا أستبعد أن يكون هذا الكلام صحيحًا، للأسباب التالية:

١ - ورد في الصحيحين من حديث عائشة، رضي الله عنها، قول الرسول ﷺ «**إن عيني تنامان ولا ينام قلبي**» [(١)]، ولو كان للنبي ﷺ، أكثر من عينين، لقال (إن أعيني تنام) وكيف لا يذكر ذلك، والكلام في سياق إظهار فضل الله عليه ﷺ، كما أن الكلام سيكون مخالفًا للواقع.

٢ - لو كانت له ﷺ عينان وراء ظهره، لوصفهما الصحابة رضي الله عنهم ولَنُقِلَ لنا وَصْفُهما، فإنهم لم يتركوا شيئًا يتعلق به ﷺ إلا وصفوه، فكيف يصل إلينا وصف عَرَقه وشعره، ولا يصل إلينا وصف ما هو أعظم من ذلك، عينان هما له معجزتان ظاهرتان، ألم يَصِفوا لنا خاتم النبوة، وكان وراء ظهره، ﷺ؟!

ولو كانت له عينان محسوستان، ما احتاج النبي ﷺ لإخبار الصحابة رضي الله عنهم بهما بل وتوكيد الخبر -كما بينتُ- بمؤكدين لتتيقن قلوبهم.

٣ - لو كان عضو الإبصار هما عينان في ظهره أو بين كتفيه ﷺ لتعذر عليه رؤية أصحابه أثناء سجوده وركوعه؛ لأن الظهر يكون في هذه الحالة متوجهًا إلى السماء، ولا يقابل مَنْ خلفه، بل ما استطاع ﷺ أن يرى جميع من يصلي خلفه.

ولذلك نقطع أن النبي ﷺ كان يرى من وراء ظهره كما يرى من أمامه، رؤية عين حق، ونفوض تلك الكيفية لعلم الله، سبحانه وتعالى، فقد يكون الأمر أعظم من مجرد عينين من حيث قوة الإدراك وتمام الإحاطة، فمن حيث قوة الإدراك فهي ترى كل من يصلي بالخلف ولو كثروا، ومن حيث تمام الإحاطة، فهي عين لا يشترط فيها مقابلة المرأي.

ولا يسعنا إلا أن نقول: سبحان الذي أبدع كل شيء خَلَقَه وأحكم كل شيء شَرَعَه.

الفائدة الرابعة: إجلال وإكبار الصحابة، رضي الله عنهم، للنبي ﷺ وذلك لزيادة خشوعهم وسكونهم في الصلاة، لعلمهم أن خشوعهم لا يخفى على النبي ﷺ ولولا ذلك ما كان هناك داع أن يُعْلِمَهم النبيُّ ﷺ بأن خشوعهم وركوعهم لا يخفى عليه، بل يقسم لهم بالله على ذلك.

ولا يقال: إن في هذا منافاة للإخلاص ومراقبة الله سبحانه وتعالى، فأحدنا قد يصلي بجوار أحد الأئمة الذين يجلهم فيشعر في نفسه بزيادة الخشوع والرهبة في الصلاة مما لو كان

(١) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب: قيام النبي ﷺ بالليل، برقم (١١٤٧).

يصلي بجوار صاحبه، وتحدث هذه الخشية والرهبة ولو كان هذا الإمام أعمى لا يبصر، وهذا -والله- مُشَاهد، عاينتُه بنفسي.

الفائدة الخامسة: مع أن الخشوع محله القلب، إلا أن أثره يظهر على الجوارح؛ لأن النبي ﷺ لما قال: **«لا يخفى عليَّ خشوعكم»**، ما كان قطعًا يقصد اطِّلاعَه على خشوع القلب بل على أثره الذي يظهر على الجوارح.

يتفرع عليه، أن على المصلي أن يحافظ على سكون جوارحه؛ لأن ذلك يساعده على خشوع قلبه. وأما من يدعي خشوع قلبه، وجوارحه لا تسكن أثناء صلاته، فادعاؤه ادعاء كاذب وهو يدل أيضًا على عدم تعظيمه للرب، تبارك وتعالى.

الفائدة السادسة: لا يؤثر على خشوع النبي ﷺ رؤيتُه ومراقبته للصحابة في ركوعهم وسجودهم أثناء صلاته، وأعتقد أن هذه مزية خاصة للنبي ﷺ لا يشاركه فيها أحد.

٩- تسليم الحجر عليه ﷺ:

عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لأَعْرِفُهُ الآنَ»** (١).

هذا بلا شك معجزة ظاهرة للنبي ﷺ أن يُسَلِّمَ عليه الحجر، خاصة أن هذا السلام كان قبل البعثة، وحكمة ذلك - والله أعلم - هي تهيئة النبي ﷺ للنبوة وأن تكون تلك الأمور بمثابة إرهاصات النبوة، وأن يوطن النبي ﷺ نفسه على أن الله عز وجل قد خلقه لأمر عظيم وأنه ليس كبقية البشر، وقد بينت ذلك عند الحديث عن الرؤية الصالحة.

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: عناية الله سبحانه وتعالى بنبيه ﷺ ليس بعد البعثة فحسب، ولكن قبل البعثة أيضًا، وتدبر أخي القارئ أن سلام الحجر على النبي ﷺ لم يكن مرة واحدة، ولكن يبدو أنه تكرر كثيرًا لقوله ﷺ: **«كان يسلم علي»**.

الفائدة الثانية: إرادة الله سبحانه وتعالى إظهارَ قدرتِه لنبيه ﷺ خاصةً، ولجميع خلقه عامةً، إذ جعل حجرًا يسلم على نبيه ﷺ، فقد جعل الله لهذا الحجر تمييزًا خاصًا يتعرف به على شخص النبي ﷺ، وجعل له صوتًا مسموعًا لإلقاء السلام يفهمه البشر، وأعتقد أن

---

(١) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب: فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه، برقم (٢٢٧٧).

الاختيار الإلهي لحجر يسلم على النبي ﷺ كان لهذه الحكمة البالغة، وهي أن يُعْلِمَ النبيَّ ﷺ - قبل البعثة - بقدرة الله سبحانه وتعالى التي لا يمكن أن يتصورها البشر، ويوقن النبي ﷺ أن الله على كل شيء قدير.

قال الإمام النووي - رحمه الله - في شرح الحديث ما نصه: (وفي هذا إثبات التمييز في بعض الجمادات وهو موافق لقوله تعالى في الحجارة: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤]. وقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤] وفي تفسير هذه الآية خلاف مشهور، والصحيح أنه يسبح حقيقة ويجعل الله تعالى فيه تمييزًا بحسبه، ومنه الحجر الذي فَرَّ بثوب موسى ﷺ، وكلامُ الذراع المسمومة، ومَشْيُ إحدى الشجرتين إلى الأخرى حين دعاهما النبي ﷺ وأشباه ذلك). انتهى كلامه - رحمه الله - [1].

وإن تعجب أخي القارئ من حجر يُسَلم على النبي ﷺ فالعجب أن جذع شجرة يئن كالطفل الرضيع من فراق النبي ﷺ كما بينتُ في باب - حنين جذع الشجرة.

١٠- رؤيته جبريل على هيئته:

عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: كُنْتُ مُتَّكِئًا عِنْدَ عَائِشَةَ فَقَالَتْ: يَا أَبَا عَائِشَةَ ثَلَاثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ قُلْتُ مَا هُنَّ قَالَتْ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ قَالَ: وَكُنْتُ مُتَّكِئًا فَجَلَسْتُ فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْظِرِينِي وَلَا تَعْجَلِينِي أَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣] ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣] فَقَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ». فَقَالَتْ: أَوَ لَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] أَوَ لَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١] [2].

---

(١) انظر شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/ ٣٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب: معنى قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾، برقم (١٧٧).

الشاهد في الحديث:

هو قول النبي ﷺ: «إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين».

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: هناك اختلاف كبير بين سلف هذه الأمة في ثبوت رؤية النبي ﷺ لربه ليلة الإسراء، فعائشة رضي الله عنها تنفي ثبوت الرؤية، بينما يثبتها حبر الأمة، ابن عباس، رضي الله عنهما، على اختلاف عند العلماء بقصده بالرؤية، هل هي رؤية عين، أم رؤية قلب، ولست ممن يستطيع الخوض في هذا الأمر ولكن أقول ردًّا على من شكك في حجة عائشة رضي الله عنها في نفي الرؤية:

١ - سؤال عائشة رضي الله عنها النبيَّ عن هاتين الآيتين: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير :٢٣]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم :١٣] إنما كان القصد منه التثبت من رؤية النبي لمولاه؛ لأن ظاهر الآيتين يوحي بذلك، كما فهمها مسروق راوي الحديث، وكان رد النبي، أن المرئي، هو جبريل عليه السلام، ولو كان النبي رأى ربه، لأخبر عائشة بعد أن أعلمها بالمقصود من الآيتين؛ لأنه من المؤكد أن النبي ﷺ كان يعلم مقصود عائشة من السؤال، وهناك اتفاق على أن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز في حقه ﷺ، ولماذا يُخْفِي النبي ﷺ مثلَ ذلك الأمر العظيم على أقرب الناس إليه، بل أحبهم إلى قلبه، وحديث الباب كان بعد وفاة النبي، فهل يُعْقَل ألا يحدثها بذلك طوال حياته، وهي أول من سأل النبي ﷺ عن الرؤية.

٢ - حجة عائشة، رضي الله عنها، في عدم الرؤية، لم تأخذه من قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام :١٠٣] وإنما كان من إجابة النبي ﷺ عن سؤالها، وأظن أنها أتت بهذه الآية للاستئناس فقط، أو أنها حَمَلَتِ الإدراك هنا على معنى الرؤية لاعتقادها الجازم باستحالة الرؤية في الدنيا، لتأكدها أنها لم تقع لخير البشر، وهذا ما جعلها تشتد على من يقول بها، أما استدلالها، رضي الله عنها، بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ﴾ [الشورى :٥١] فهو استدلال في محله، ويقوي ما نعتقده.

٣ - يقوي ما ذهبت إليه عائشة رضي الله عنها ما رواه مسلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ» [(١)].

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب: في قوله عليه السلام: نور أني أراه...، برقم (١٧٨).

ولا نستبعد رؤية النبي ربه في الدنيا، والله سبحانه وتعالى، قادر على أن يخلق فيه ما يجعله قادرًا على تحمُّل هذه الرؤية، ولكن نحتاج إلى دليل صحيح صريح، يثبت الرؤية ويقْوَى على معارضة حديث الباب الصحيح الصريح.

الفائدة الثانية: رؤية الله عز وجل في الآخرة، ثابتة في الكتاب والسنة، ولا ينكرها إلا مبتدع، أما في الكتاب، ففي قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣] فنفي الأعلى يدل على إثبات الأدنى، فالآية بنفيها إدراك الله عز وجل، فقد أثبتت الرؤية؛ لأنها دون الإدراك، ولو أن الرؤية محالة في الآخرة، لنفاها الله عز وجل، ودخل الإدراكُ في النفي من باب أولى لأنه أعظم من الرؤية.

ومن أدلة القرآن أيضًا قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، وقوله تعالى موبخًا الكافرين: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، ولو حُجب المؤمنون أيضًا عن رؤية ربهم، لاشترك المؤمنون والكافرون في هذا التوبيخ.

ومن أدلة السنة، ما رواه البخاري عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةً -يَعْنِي الْبَدْرَ- فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لاَ تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ؛ فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لاَ تُغْلَبُوا عَلَى صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩]» [(١)].

الفائدة الثالثة: تعظيم عائشة رضي الله عنها لحرمات الله؛ لأنها لما سمعت ما تعتقد أنه ينافي تنزيه الرب تبارك وتعالى، قالت في رواية في الصحيح: (لقد قَفَّ شعري)، وقالت في الرواية التي معنا (لقد أعظم على الله الفِرْية)، أي أنها اتهمته بأعظم القبائح وما ذلك إلا لتعظيمها ربَّا.

الفائدة الرابعة: حرص عائشة رضي الله عنها، على تعلم العلم والسؤال عما يستشكل عليها، وأنها تسبق الأمة في السؤال، لقولها: (أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسولَ الله ﷺ)، كما أن من فقهها أيضًا استدلالها على عدم الرؤية بقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى:٥١]، فرأت أن الآية عامة في كل أحد، فلا يمكن إثبات الرؤية في الدنيا

---

(١) رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب: فضل صلاة العصر، برقم (٥٥٤).

إلا بدليل من كتاب أو سنة، فلما انعدم الدليل عندها انعدمت الرؤية.

الفائدة الخامسة: عظم خلق الملائكة، خاصة جبريل عليه السلام، وذلك من قوله: **«سادًا عِظَمُ خَلقِهِ ما بين السماء والأرض»**، ويتفرع على ذلك أن نعلم عظيم قدرة الله على الخلق والإيجاد، وإذا كنا لا نستطيع أن نتصور قدرته في خلق جبريل على هذا القدر من العِظَم، فكيف لنا أن نتصور ذاته أو حتى نتفكر فيها. فسبحان الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرا.

الفائدة السادسة: رؤية النبي لجبريل على هيئته التي خلقه الله بها، من صور إكرام الله سبحانه وتعالى لنبي هذه الأمة؛ لأن الآيات ذكرت هذه الرؤية في معرض الحديث عما تفضل الله به على نبيه، ومن ثَمَّ فقد أتيتُ بها ضمن شمائله ﷺ.

١١- أعطي مفاتح خزائن الأرض:

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ يَوْمًا فَصَلَّى عَلَى أَهْلِ أُحُدٍ صَلاَتَهُ عَلَى الْمَيِّتِ ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: **«إِنِّي فَرَطٌ لَكُمْ وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الآنَ، وَإِنِّي أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الأَرْضِ -أَوْ مَفَاتِيحَ الأَرْضِ- وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي وَلَكِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا»** (١).

الشاهد في الحديث:

قوله ﷺ: **«وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض»**.

قال الإمام النووي - رحمه الله - وفي هذا الحديث معجزات لرسول الله ﷺ فإن معناه الإخبار بأن أمته تملك خزائن الأرض وقد وقع ذلك، وأنها لا ترتد جملة، وقد عصمها الله من ذلك وأنها تتنافس في الدنيا، وقد وقع كل ذلك. انتهى (٢).

وأقول: في الحديث بشرى عظيمة لأمة الإسلام، وهي أنها ستفتح كل أقطار المعمورة، بلا استثناء، وأعتقد أن ذلك بتمامه لم يقع بعد، فهناك بعض الأقطار لم يفتحها المسلمون. كما أن في الحديث دلالة على منزلة النبي ﷺ عند ربه من وجوه وهي:

١ - إعطاؤه مفاتيح خزائن الأرض في حياته ﷺ، مع أن هذه الفتوحات وهذا التمكين

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب: الصلاة على الشهيد، برقم (١٣٤٤).

(٢) انظر شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/ ٥٩).

لم يحدث إلا بعد وفاته ﷺ، إعلامًا له ولأمته ﷺ أن هذا التكريم والفتح العظيم هو إكرام له في الحقيقة.

٢ - رؤيته ﷺ الحوض، وهو على منبره، قال الإمام ابن حجر - رحمه الله - في قوله ﷺ: «وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن»: هو على ظاهره وكأنه كُشِفَ له عنه في تلك الحالة [(١)].

٣ - حِفْظُ الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ أمتَه من الشرك بعده، وهي بشرى عظيمة له ﷺ في حياته بأنه دينه سيبقى إلى يوم القيامة.

وغير ذلك من قبول الله لشهادته ﷺ في كل أمته من رآه ومن لم يره. مع إذن الله له أن يسبق أمته إلى الحوض ليكون كالمستقبِل لهم والمرحِّب بهم، إكرامًا لعموم هذه الأمة.

١٢- إمامة الأنبياء:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الْحِجْرِ وَقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ، فَسَأَلَتْنِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أُثْبِتْهَا، فَكُرِبْتُ كُرْبَةً مَا كُرِبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، قَالَ: فَرَفَعَهُ اللَّهُ لِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ، مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلاَّ أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ: وَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الأَنْبِيَاءِ فَإِذَا مُوسَى قَائِمٌ يُصَلِّي فَإِذَا رَجُلٌ ضَرْبٌ جَعْدٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ وَإِذَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ قَائِمٌ يُصَلِّي أَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهًا عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ، وَإِذَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ قَائِمٌ يُصَلِّي أَشْبَهُ النَّاسِ بِهِ صَاحِبُكُمْ -يَعْنِي نَفْسَهُ- فَحَانَتِ الصَّلاَةُ فَأَمَمْتُهُمْ، فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنَ الصَّلاَةِ قَالَ قَائِلٌ: يَا مُحَمَّدُ هَذَا مَالِكٌ صَاحِبُ النَّارِ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ فَبَدَأَنِي بِالسَّلاَمِ» [(٢)].

الشاهد في الحديث:

قوله ﷺ: «فحانت الصلاة فأممتهم».

وهذه الواقعة قد حدثت في ليلة الإسراء والمعراج حيث إنها وردت في سياق حديث النبي ﷺ عن سؤال المشركين له عن أوصاف بيت المقدس، كما ورد في حديث الباب، ولا يهمني هنا أن أسرد كلام العلماء عن توقيت هذه الواقعة في تلك الليلة المباركة، أي: هل حدثت الصلاة بالأنبياء جماعة بعد عروج النبي ﷺ إلى السماء أم قبل العروج، ولكن الذي

(١) انظر فتح الباري (٣/ ٢١١).
(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب: ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال، برقم (١٧٢).

يعني هو أن يعلم كل مسلم أن نبيه ﷺ قد صلى بالأنبياء إمامًا، وفيهم مَنْ فيهم مِنْ أولي العزم من الرسل، حيث ورد في الحديث أن فيهم إبراهيم وموسى وعيسى، صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا، ومعلوم أنّ من السنة أن يؤم القومَ أعلمُهم، فهو دليل قطعي على أن النبي ﷺ هو أفضل الرسل جميعًا، وقد بينت ذلك في مواضع مختلفة من هذا الكتاب فلله الحمد والمنة على ما تفضل به على نبينا ﷺ.

وإذا كانت كل أمة من الأمم السابقة قد ادعت كذبًا وزورًا انتسابها إلى الخليل إبراهيم ﷺ، لشرفه وإمامته، فحقيقٌ بأمة الإسلام أن تفتخر وتتباهى وترفع عقيرتها بين سائر الأمم أنها تنتسب صدقًا إلى أمة خاتم النبيين ﷺ الذي صلى الخليل وراءه مأمومًا، شريطة أن يكون هذا الانتساب بالقول والعمل لا بالقول وحده.

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: حياة البرزخ وأحوالها تختلف تمامًا عن الحياة الدنيا وأحوالها، فلا تُقَاس حياة البرزخ على حياة الدنيا، ولذلك لا مجال لإيراد إشكالات قد تدور في أذهان بعض المسلمين مثل: كيف رأى النبيُّ ﷺ موسى يصلي في قبره ثم رآه في السماء الخامسة ثم صلى به إمامًا ببيت المقدس.

وغير ذلك من الأسئلة الكثيرة.

الفائدة الثانية: للأنبياء - عليهم السلام - حياة خاصة بعد انتقالهم من الحياة الدنيا، وأن أعمالهم الصالحة تتواصل ولا تنقطع بانقطاعهم عن الحياة الدنيا وهذا من فضل الله عليهم وتميزهم عن سائر الخلق.

ويتفرع على ذلك أن الأنبياء لا يدخلون في عموم قوله ﷺ: **«إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة»** [(١)]، وأن أعمالهم الصالحة لا تقتصر على أعمالهم في حياتهم الدنيا.

الفائدة الثالثة: في الحديث فضيلة ظاهرة لإبراهيم ﷺ، وهى أن أشبه الناس به نبينا محمد ﷺ، وبالمناسبة أقول: إن للخليل ﷺ فضيلة أخرى عظيمة، وهى أن الله عز وجل، ما أمر نبيه محمدًا ﷺ باتباع ملة نبي بعينه إلا إبراهيم الخليل حيث قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

(١) رواه مسلم، كتاب الوصية، باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، برقم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

فإن قيل: ولماذا لا يكون العكس هو الصحيح؟ بمعنى: أن الشبه في الخِلْقة والأمر بالاتباع في الملة هما فضيلتان لنبينا محمد ﷺ، قلت: لا، لأن نبينا ﷺ أفضل من الخليل ﷺ إجماعًا، فتكون الفضيلة للمفضول إذا كان الفاضل يشبهه أو أُمر باتباعه.

الفائدة الثالثة: إرادة الله سبحانه وتعالى الشرعية والكونية في إظهار فضل النبي ﷺ على سائر الأنبياء عليهم جميعًا الصلاة والسلام، حيث أمر النبي ﷺ أن يصلي بهم إمامًا، وفي ذلك غاية التشريف والتكريم له ﷺ، كما تتضمن هذه الإرادة الإلهية إعلام الأنبياء أن محمدًا ﷺ هو إمامهم وأتقاهم وأعلمهم بالله تبارك وتعالى.

ويتفرع على ذلك أن الأنبياء لو قدر لهم أن يجتمعوا في عصر واحد ما وسعهم إلا أن يتبعوا النبي محمدًا ﷺ، حيث رضى الله عز وجل وقدر أن يكون ﷺ هو إمامهم في أعظم وأجل العبادات وهى الصلاة، ويؤيد ذلك قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران :٨١] .

وأكتفي بنقل ما ذكره الشيخ السعدي - رحمه الله - في تفسير الآية، حيث قال ما نصه: (فكل الأنبياء لو أدركوا محمدًا ﷺ لوجب عليهم الإيمان به واتباعه ونصرتُه وكان هو إمامهم ومقدمهم ومتبوعهم فهذه الآية الكريمة من أعظم الدلائل على علو مرتبته وجلالة قدره وأنه أفضل الأنبياء وسيدهم ﷺ). انتهى.

وأقول: لا استبعد أن يكون رضى الأنبياء بالصلاة مأمومين خلف النبي ﷺ وتسليمهم بأحقيته ﷺ في الإمامة يدخل ضمن الميثاق الذي أخذه الله تبارك وتعالى عليهم.

وأود أن أبين ما عناه الشيخ السعدي - رحمه الله - بقوله: (فهذه الآية الكريمة من أعظم الدلائل على علو مرتبته . .) فالشاهد في الآية أن كل نبي من لدن آدم إلى عيسى عليهم الصلاة والسلام قد أخذ الله عليهم العهد بنصرة واتباع نبينا ﷺ، إلا هو ﷺ فلم يؤخذ عليه مثل هذا العهد، فلم يؤمر باتباع أو نصرة أي نبي حيث إنه ﷺ خاتمهم.

الفائدة الرابعة: قال القاضي عياض - رحمه الله - في صلاة إبراهيم عليه السلام: (وقد تكون الصلاة هنا بمعنى الذكر والدعاء وهي من أعمال الآخرة) [(١)]. انتهى، ولكني أرجح -والله تعالى أعلم- أنها صلاة حقيقية وذلك لقوله ﷺ: **«وإذا إبراهيم قائم يصلي»**

(١) انظر شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ٢٣٨).

فالقيام هو ألصق صفةً بالصلاة المعروفة لقوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨] عكس الدعاء والذكر لا يشتهر عنهما تلك الصفة، ثم إن لفظ الحديث يجب ألا يصرف عن معناه الشرعي إلى المعنى اللغوي إلا بدليل أو مسوغ، وحيث فُقِدَ الدليل أو المسوغ في الحديث وجب الأخذ بالمدلول الشرعي للفظ.

الفائدة الخامسة: بيان أن شريعة النبي ﷺ ناسخةٌ لكل شرائع الأنبياء من قبله، حيث إنه ﷺ صلى بهم قطعًا بالصلاة التي علمه الله إياها وفرضها عليه، فدل ذلك أن شريعة الإسلام قد هيمنت على كل الشرائع السابقة، وقد تكون من حكمة صلاة النبي ﷺ بالأنبياء بيان هذا النسخ وإعلامه للخلق، وقد تكون من ضمن حكم هذه الصلاة تعليمُ النبي ﷺ الأنبياءَ الصلاةَ التي فرضها الله عليه، ليتقربوا بها إلى الله، والدليل أن هذه الصلاة هي الصلاة المفروضة علينا – في أول البعثة – قوله ﷺ: **«فحانت الصلاة»** أي أنها صلاة لها وقت محدد، ولا نعلم في الشرع صلاة لها وقت محدد إلا الصلاة المفروضة.

الفائدة السادسة: بيان أن مالك – عليه السلام – هو خازن النار، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧]، وفيه فضيلة السلام وأن المفضول هو الذي يبدأ الفاضل بالسلام وأن للملائكة أسماء يسمون بها، أَطْلَعَنا اللهُ على بعضها، ولكن لا نجزم أن لكل واحد منهم اسمًا لعدم ورود دليل على ذلك.

١٣- قتال الملائكة معه ﷺ:

قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢].

عَنْ سَعْدٍ قَالَ: رَأَيْتُ عَنْ يَمِينِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَنْ شِمَالِهِ يَوْمَ أُحُدٍ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا ثِيَابُ بَيَاضٍ مَا رَأَيْتُهُمَا قَبْلُ وَلاَ بَعْدُ يَعْنِي جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلاَم (١). رواه مسلم، وفي رواية **«يقاتلان عنه أشد القتال»**.

وعند البخاري: عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ وَمَعَهُ رَجُلاَنِ يُقَاتِلاَنِ عَنْهُ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ كَأَشَدِّ الْقِتَالِ مَا رَأَيْتُهُمَا قَبْلُ وَلاَ بَعْدُ (٢).

---

(١) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب: في قتال جبريل وميكائيل عن النبي ﷺ يوم أحد، برقم (٢٣٠٦).
(٢) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عمران: ١٢٢]، برقم (٤٠٥٤).

قال الإمام النووي - رحمه الله -: (فيه بيان كرامة النبي ﷺ على الله تعالى وإكرامه إياه بإنزال الملائكة تقاتل معه وبيان أن الملائكة تقاتل، وأن قتالهم لم يختص بيوم بدر. وهذا هو الصواب خلافًا لمن زعم اختصاصه، وفيه فضيلة الثياب البيض وأن رؤية الملائكة لا تختص بالأنبياء بل يراهم الصحابة والأولياء وفيه منقبة لسعد بن أبي وقاص الذي رأى الملائكة). انتهى [(١)].

وإن كان لي أن أضيف شيئًا إلى كلام الإمام النووي - رحمه الله - فأود أن ألقي الضوء على مظاهر تشريف الله سبحانه وتعالى لنبيه والتي تظهر جليةً في:

١ - قتال جبريل وميكائيل - عليهما السلام - عن يمين وشمال النبي ﷺ، أبلغ دليل على مدى اعتناء المولى سبحانه وتعالى بنبيه ﷺ، كما أنه دليل على أن الملكين - عليهما السلام - نزلا خصيصًا لحمايته والدفاع عنه، وإلا لقاتلا في أي من صفوف الجيش، ودليله قول الراوي (ومعه رجلان يقاتلان عنه).

٢ - كان يمكن أن يُعْمِيَ اللهُ عز وجل أعينَ الكفار عن النبي ﷺ في المعركة، فلا يحتاج لمن يقاتل دونه، ولكن الله عز وجل أراد أن يؤيد النبي ﷺ بمعجزة حسية يُثَبِّتُ بها فؤاده ويعلم بها رعاية الملأ الأعلى له، ويراها الصحابة عيانًا فيعرفوا قدر نبيهم ﷺ عند ربهم ويزدادوا بها إيمانًا مع إيمانهم ويتحقق نفس الشيء بالنسبة لنا. فالحمد على ما أنعم به وتفضل.

٣ - لم تكن غزوة أحد هي الغزوة الوحيدة التي قاتلت فيها الملائكة مع النبي ﷺ، ولكنها قاتلت من قبل في غزوة بدر الكبرى، ونزل بذلك قرآن يتلى، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

وأود أن أبين بعض اللفتات الجميلة في تلك الآية الكريمة ليتبين للقارئ مدى اعتناء المولى سبحانه وتعالى بالنبي ﷺ وأمته.

اللفتة الأولى: بدأ الله سبحانه وتعالى الآية بإثبات معية الله الخاصة للملائكة المأمورين بالقتال في الغزوة، قال تعالى: ﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾ [الأنفال: ١٢] وإعلام الله الملائكةَ بهذه المعية الخاصة قبل أمرهم بالقتال، إما لحثهم على القتال أبلغ الحث أو طمئنتهم أن الله ناصرهم، وأن هذه

(١) انظر شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/ ٦٦).

الغزوة هي لله وبأمر الله وهي تجري على أعين الله، وأن الله يريد أن ينصر فيها محمدًا ﷺ وصحبه، وقد يكون نزول الملائكة لأسباب وحكم أخرى يعلمها هو سبحانه وتعالى.

اللفتة الثانية: بينت الآية أن قتال الملائكة في الغزوة كان بأمر من الله عز وجل، لقوله تعالى: ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢] بل الغريب في الآية أن يوضح المولى سبحانه وتعالى للملائكة المواضع التي تُضرَب من هامات المشركين، فلا يترك للملائكة الاجتهاد في ذلك، وهذا من أظهر مواطن اعتناء المولى سبحانه وتعالى بتلك الغزوة. وحدوث البركة قطعًا في ضرب الملائكة لتلك المواضع من هامات المشركين لأنها بأمر الله.

اللفتة الثالثة: بيَّنَ الله سبحانه وتعالى في الآية الكريمة عمل الملائكة، وهو تثبيت المؤمنين والقتال معهم، وعمله سبحانه وتعالى، هو إلقاء الرعب في صفوف المشركين، ولنا أن نتخيل خصمين في غزوة واحدة، الخصم الأول قد ثَبَّتَ الله أركانه وقوّى عزائمه بأن جعل الملائكة تقاتل معه أشد القتال وذلك بضرب رقاب ومفاصل عدوه، والخصم الثاني قد ثبط الله عزائمه وزلزل أركانه بأن ألقى في قلبه الرعب، فلأي الفريقين تكون الغلبة والنصر؟!.

١٤- إعلامه ﷺ بكثير من أمور الغيب:

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْتَقَى هُوَ وَالْمُشْرِكُونَ فَاقْتَتَلُوا، فَلَمَّا مَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عَسْكَرِهِ وَمَالَ الآخَرُونَ إِلَى عَسْكَرِهِمْ وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ لاَ يَدَعُ لَهُمْ شَاذَّةً إِلاَّ اتَّبَعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ فَقَالُوا: مَا أَجْزَأَ مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأَ فُلاَنٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ» فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَنَا صَاحِبُهُ أَبَدًا قَالَ فَخَرَجَ مَعَهُ كُلَّمَا وَقَفَ وَقَفَ مَعَهُ وَإِذَا أَسْرَعَ أَسْرَعَ مَعَهُ قَالَ: فَجُرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ؛ فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ قَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟» قَالَ: الرَّجُلُ الَّذِي ذَكَرْتَ آنِفًا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَعْظَمَ النَّاسُ ذَلِكَ فَقُلْتُ: أَنَا لَكُمْ بِهِ فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ حَتَّى جُرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»[1]. (رواه مسلم).

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب: غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، برقم (١١٢).

الشاهد في الحديث:

أن النبي ﷺ حكم على رجل، أُعجب أصحابه بقتاله وشجاعته أنه من أهل النار، وقد تحققت علامات ذلك عيانًا للصحابة، وهذا من أعظم دلائل نبوته، أن يُنَبّأ بخاتمة أحد، ظن الناس أنه من أهل الجنة لعمله الصالح فيما يبدو لهم، وقد فهم الصحابة أن هذا الحكم على الرجل، بفعل سيفعله قبل موته يوجب له النار، لذلك اتبعه أحد الصحابة ليعلم أسباب سوء خاتمة الرجل، ولو لم يكن النبي ﷺ، يوحى إليه من ربه، ما تجرأ وحكم على الرجل في حياته بأنه من أهل النار.

بعض فوائد الحديث:

الفائدة أولى: قد يوفق الإنسان إلى أعمال تتشابه صورتها مع الأعمال التي يحبها الله سبحانه وتعالى ويرضاها، سواء في غزو أو نصح أو قراءة للقرآن أو بذل مال للمحتاجين والمساكين أو إعانة ضعيف، ولكن مع أن هذه الأعمال تشابه صورتها الأعمال الطيبة، وينظر الناس إليها نظر المعجبين بها، والمثنين على صاحبها، الغابطين له، إلا أن الله عز وجل، لا يحبها ولا يتقبلها، بل يردها في وجه صاحبها، لتخلف أحد شروط العمل الصالح المقبول، بل يعاقبه عليها.

ونتعلم من ذلك عدم الحكم بأن الله عز وجل يحب فلانًا لأعماله الكثيرة الخيرة، أو أن نثني عليه ونبالغ في الثناء جازمين، بل قد نتجرأ ونحكم أنه من أهل الجنة، كما نتعلم ضرورة أن نفتش في أعمالنا ونياتنا دومًا، لنصلح من الاتباع والإخلاص، ونعلم أن الشيطان حريص على أن يفسد علينا أعمالنا، خاصة أهل العلم والتقوى والصلاح.

الفائدة الثانية: على المسلم أن يعمل، ويجتهد في عمله، ويسأل الله، عز وجل، دومًا الثبات في الأمر وحسن الخاتمة، وألا يعجب بعمله ولا يركن له، ويعتقد أن عمله سيدخله الجنة، وينجيه من النار؛ لأنه ورد في رواية عند البخاري: **«وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع أو ذراعين فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»** [1] ويصدق ذلك ما (رواه البخاري) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ» قَالُوا وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ؛ سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَاغْدُوا وَرُوحُوا وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ، وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ**

(١) رواه البخاري، كتاب القدر، باب: في القدر، برقم (٦٥٩٤).

تَبْلُغُوا»[(١)]، وما زال النبي ﷺ وإخوانه من الأنبياء، يدعون الله لأنفسهم بدخول الجنة والنجاة من النار، وهم الذين يعلمون مكانتهم عند الله، ولكنه التزام الأدب، وإعلانُ كاملِ الافتقار لله عز وجل.

الفائدة الثالثة: إعلام النبي ﷺ ببعض أمور الغيب، كان سببًا في زيادة إيمان الصحابة رضي الله عنهم، حيث قال الصحابي لما عاين وتحقق مما قال النبي ﷺ في حق الرجل الذي قتل نفسه، (أشهد أنك رسول الله)، وعلم النبي ﷺ أن الصحابي إنما قال تلك المقولة بسبب زيادة إيمانه بما رأى من معجزاته.

الفائدة الرابعة: يتفرع على ما سبق، أن على المؤمن أن ينظر ويتأمل ويتدبر، في المعجزات التي وردت في السنة الصحيحة باختلاف أنواعها؛ لأنها من أسباب تقوية إيمان العبد، وقد يكون هذا الجانب من أسباب قوة يقين الصحابة أكثر من غيرهم؛ لأن من رأى ليس كمن سمع.

الفائدة الخامسة: على المؤمن أن يعمل على تقوية إيمانه، ويجعله عملاً بعد علم، وأن يقره في قلبه بعد أن استقر في عقله، ويعود نفسه وجسمه على تحمل الصعاب، ويبتعد عن الترف الزائد، ولو لفترات من حياته، وعليه ألا يهتم بالظاهر دون الباطن، تعويدًا لنفسه لما قد يلاقيه من محن وابتلاءات من الله عز وجل، ويحرص أن تأتي هذه المحن على قلب ثابت راسخ عامر بالإيمان؛ لأن هذا الرجل الذي ذُكِر في حديث الباب، قد استعجل الموت وقتل نفسه لمجرد أنه ابتلي، فكان من أهل النار، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]، فذم الله تبارك وتعالى هذا الصنف من الناس، الذي يرتد على عقبيه مع نزول الفتنة، وبينت الآية عاقبته في الدنيا والآخرة، وما ذلك إلا أنه ضعفت عبادته فضعف إيمانه، ومن ضعف إيمانه، كان حاله كمن يقف على شفير، مع أول هزة يهوي في الهاوية، وهذا درس لنا جميعًا أن العبادة لها عامل عظيم في تربية النفس، فكلما كانت خالصه لوجه الله تبارك وتعالى، لا يريد بها ثناء الناس، ولا وجاهة الدنيا، مع موافقة تلك العبادة لسنة المصطفى عليه الصلاة والسلام، أدّتْ تلك العبادة إلى تقوية الإيمان في القلوب.

الفائدة السادسة: هل من علامات يعرفها العبد من نفسه يستدل بها على ثباته إذا تعرض للفتنة؟

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب: القصد والمداومة على العمل، برقم (٦٤٦٣).

أقول: يجرب العبد نفسه فيما يقدر عليه الآن، فإذا رأى نفسه لا يستطيع أن يصدق القول إن كان على نفسه، ولا يمسك لسانه عن الخوض في أعراض الناس، ويجد شهوته في أكل لحوم إخوانه بالغيبة والنميمة، ولا يفي بالوعد، ولا يعطف على الصغير ولا يوقر الكبير، وإذا رأى من نفسه عدم الصبر على الأمور البسيطة، التي لا تتطلب أدنى مجاهدة، وإذا شح بحقوق الآخرين التي في ذمته، ومن قبل ومن بعد، إذا تكاسل عن أداء العبادات، فلا يؤمل أن يصبر عند الشدائد، أو يثبت عند المصائب؛ لأن الإنسان إذا سقط في السهل كان سقوطه في الصعب آكد.

الفائدة السابعة: لا يجوز للأطباء أن يستعجلوا وفاة أحد المرضى، مهما بلغ وَجَعُه، ولو كان ميؤسًا من شفائه؛ لأن الرجل الذي معنا ما أقدم على الانتحار، إلا لأنه جرح جرحًا شديدًا، فكان انتحاره من علامات سوء الخاتمة.

وشواهد إخبار النبي بأمور الغيب - التي أطلعه الله عليها - أكثر من أن تحصى، وقد ورد في ثنايا هذا الكتاب أحاديث كثيرة تشهد بذلك، وسأورد هنا مثالين اخترتهما لبيان أن إخبار النبي بأمور الغيب كان من أعظم صدق دلائل نبوته، فالحديث الأول والذى أخبر فيه النبي بانتشار الإسلام وظهوره وتمكنه في الأرض كان قبل الهجرة، والمسلمون في غاية الضعف، بل يُعَذبون ويُنَكل بهم غاية التنكيل، أما الحديث الثاني فقد أخبر فيه النبي بكل ما هو كائن إلى يوم القيامة، في خطبة استغرقت نهارًا كاملا، من صلاة الفجر حتى صلاة المغرب، ولا شك أن الصحابة رضي الله عنهم بعد وفاة النبي قد عاينوا وعايشوا الكثير من وقائع تلك الأخبار، خاصة ما يتعلق بالفتن، ولولا صدق النبي فيما يخبر به عن ربه، وتأييد المولى سبحانه وتعالى له، لحدث اختلاف كثير بين ما قال وما حدث.

الحديث الأول:

عَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ فَقُلْنَا: أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلاَ تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ: **«قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»** (١).

(١) رواه البخاري، كتاب الإكراه، باب: من اختار الضرب والقتل...، برقم (٦٩٤٣).

الحديث الثاني:

عن عَمْرِو بْنِ أَخْطَبَ قَالَ: (صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْفَجْرَ وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ فَنَزَلَ فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الْعَصْرُ، ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا) (١). رواه مسلم.

وعند البخاري عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ رضي الله عنه يَقُولُ: قَامَ فِينَا النَّبِيُّ ﷺ مَقَامًا فَأَخْبَرَنَا عَنْ بَدْءِ الْخَلْقِ حَتَّى دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنَازِلَهُمْ وَأَهْلُ النَّارِ مَنَازِلَهُمْ، حَفِظَ ذَلِكَ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ (٢).

وعنده أيضًا، عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: لَقَدْ خَطَبَنَا النَّبِيُّ ﷺ خُطْبَةً مَا تَرَكَ فِيهَا شَيْئًا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلاَّ ذَكَرَهُ، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ، إِنْ كُنْتُ لأَرَى الشَّيْءَ قَدْ نَسِيتُ فَأَعْرِفُ مَا يَعْرِفُ الرَّجُلُ إِذَا غَابَ عَنْهُ فَرَآهُ فَعَرَفَهُ (٣).

١٥- استجابة دعائه ﷺ:

أ - استجابة دعائه ﷺ للمؤمنين:

المثال الأول: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُ عَلَى أُمِّ حَرَامٍ بِنْتِ مِلْحَانَ فَتُطْعِمُهُ، وَكَانَتْ أُمُّ حَرَامٍ تَحْتَ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَطْعَمَتْهُ وَجَعَلَتْ تَفْلِي رَأْسَهُ فَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَمَا يُضْحِكُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَرْكَبُونَ ثَبَجَ هَذَا الْبَحْرِ مُلُوكًا عَلَى الأَسِرَّةِ -أَوْ مِثْلَ الْمُلُوكِ عَلَى الأَسِرَّةِ»- شَكَّ إِسْحَاقُ- قَالَتْ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنهم، فَدَعَا لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ وَضَعَ رَأْسَهُ ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقُلْتُ وَمَا يُضْحِكُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ...» كَمَا قَالَ فِي الأَوَّلِ قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ قَالَ: «أَنْتِ مِنَ الأَوَّلِينَ» فَرَكِبَتِ الْبَحْرَ فِي زَمَانِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ فَصُرِعَتْ عَنْ دَابَّتِهَا حِينَ خَرَجَتْ مِنَ الْبَحْرِ فَهَلَكَتْ.

---

(١) رواه مسلم، كتاب: الفتن، باب: إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة، برقم (٢٨٩٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم: ٢٧]، برقم (٣١٩٢).

(٣) رواه البخاري، كتاب: القدر، باب: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، برقم (٦٦٠٤).

الشاهد في الحديث:

أن النبي ﷺ دعا للصحابية أم حرام بنت ملحان، أن تركب البحر غازية في سبيل الله فدعا لها، واستجاب الله دعاءه فَغَزَتْ هذه الصحابية في زمن الخليفة الراشد - على أحد القولين - عثمان بن عفان، وصُرعت عن دابتها في قبرص، وكان معها زوجها الصحابي الجليل عبادة بن الصامت، وقيل: غزت في زمن معاوية رضي الله عنه، ولا يهمنا في هذا البحث في أي زمن غَزَتْ، ولكن الذي يهمنا أن الله استجاب دعاء نبيه، ونالت المرأةُ شرفَ الغزو في سبيل الله، ثم الشهادة في سبيل الله عز وجل.

وفي الحديث فوائد منها:

الفائدة الأولى: نجزم قطعًا أن أم حرام، كانت مُحَرَّمة تحريما أبديًا على النبي ﷺ، فلذلك كان يدخل عليها، وينام عندها، بل كانت تفلي رأسه ﷺ، والذي جعلنا نجزم بذلك حديثُ عائشة رضي الله عنها عن بيعة النبي للنساء، والذي رواه مسلم [(١)] وفيه: قَالَتْ عَائِشَةُ: فَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا الشَّرْطِ مِنْهُنَّ قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَدْ بَايَعْتُكِ» كَلاَمًا يُكَلِّمُهَا بِهِ، وَاللَّهِ مَا مَسَّتْ يَدُهُ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ فِي الْمُبَايَعَةِ وَمَا بَايَعَهُنَّ إِلاَّ بِقَوْلِهِ. وهذا موضع اتفاق بين العلماء، كما ذكر النووي في شرحه للصحيح، وقد ذكر أيضًا اختلاف العلماء في سبب التحريم.

الفائدة الثانية: رؤيا الأنبياء حق، وليس للشيطان فيها مجال؛ لأن النبي رأى -وهو نائم- ناسًا من أمته يغزون، فقام وهو يضحك، وما كان ذلك إلا لعلمه أن هذا وحي من الله، وهو متحقق لا محالة.

الفائدة الثالثة: فرح النبي بما سيفعله أفراد من أمته -من بعده- من أنواع الطاعات، والدليل على ذلك أنه ضحك فرحًا وسرورًا، ورضى بهذا الغزو الذي يحبه الله، ولا شك أن من أسباب فرحه بطاعة من بعده، أن له في ذلك أجرًا ومثوبة من الله، وأن كل نصر لأمته فهو نصر له.

الفائدة الرابعة: حرص الصحابة على التعلم من النبي ﷺ واهتمامهم بجميع شئونه؛ لأنهم يعلمون أن كل أعماله لهم فيها سُنة وتأسٍّ، بل كان ذلك وحيًا من الله، حتى نقلوا للأمه ضحكه ﷺ.

---

(١) رواه مسلم، كتاب: الإمارة، باب: كيفية بيعة النساء، برقم (١٨٦٦).

الفائدة الخامسة: ما كان عليه الصحابة من الأدب مع رسول الله، فهذه المرأة محرم للنبي ﷺ، وينام عندها، فقد تتساهل في الكلام معه، خاصة وقت الانبساط، ولكن هذا لم يحدث من جهة الصحابة، رضي الله عنهم، لما يعلمون من عظيم حقه، وأنهم تأدبوا بتأديب الله إياهم، لما قال لهم في محكم التنزيل: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور:٦٣] . ودليله من الحديث أن أم حرام قد نادت الرسول أربع مرات في هذه المحادثة القصيرة جدًا، وفي كل مرة تقول له: (يا رسول الله) ولم تناده ولو مرة واحدة خطأ (يا محمد) أو (يا ابن عبد الله) كما يحلو للبعض أن يسميه، وفي هذا الأخير مجافاة وسوء أدب مع مقام النبوة.

الفائدة السادسة: أطلع الله عز وجل نبيَّه على كثير من أمور الغيب، ومنها ما حدث بعد مماته؛ بعضُها رآها وعلمها على وجه التفصيل لا الإجمال، كما سيأتي - إن شاء الله - في بابه.

الفائدة السابعة: يشترط للغزو أن يكون في سبيل الله، حتى يرضى الله عز وجل عنه، ويرضاه نبيه ﷺ حيث إنه علل ضحكه أنهم يغزون في سبيل الله، ولو لم تكن النية والاحتساب شرطًا لصحة الأعمال وقبولها ما كان لذكرها في الحديث فائدة، وهذا مما يعلم من الدين بالضرورة.

الفائدة الثامنة: بيان الأمانة التي كان عليها رواة الأحاديث النبوية، الذين بهم حفظ الله سنة نبيه، فقد شك فيه الراوي، هل قال النبي: ملوكًا على الأسرة أو قال: كالملوك على الأسرة؟ فلم يَسْتح الراوي أن يُقِرّ أنه قد شك في اللفظ، ولم يدفعه حب ثناء الناس على حفظه، ألا ينص على الشك، حتى لا يكذب على نبيه، تخوفًا أن يشمله وعيد الكذب عليه، لما (رواه البخاري) في صحيحه. عن عَلِيٍّ قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ تَكْذِبُوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَلِج النَّارَ» (١).

مع أن الاختلاف في هذا اللفظ الذي شك فيه الراوي يسير جدًا بالنسبة لعقولنا، ولكن دَفَعَ الرواةَ إلى ذلك حرصُهم على حفظ سنة نبيهم، وعلى أداء الأمانة التي حَمَلوها على أكمل وجه، فما بالنا بأقوام، يُشار إليهم بالبنان، لا يتحرجون من الكذب الصريح على رسول الله ﷺ ويأتون بأحاديث أبعد ما تكون عن كلام النبوة بل عن كلام الصحابة، ولا

(١) رواه البخاري، كتاب: العلم، باب: إثم من كذب على النبي ﷺ، برقم (١٠٦).

عُذْرَ لهم في كونهم لا يعلمون أن هذا ليس بحديث؛ لأن عليهم أن يتحروا الصدق في الرواية عن الرسول ﷺ، ويتثبتوا قبل أن يتكلموا، وإلا ضاعت السنة بحجة عدم علمنا بالصحيح من الموضوع. فعلى الشيوخ وطلبة العلم، بل وعوام الناس، أن يتقوا الله فيما ينسبونه إلى رسول الله ﷺ، فالكذب عليه ليس كالكذب على غيره. كما ورد في الصحيح.

الفائدة التاسعة: حرص الصحابة أن تنالهم بركةُ دعاء النبي، لعلمهم أن دعاءه مستجاب من الله عز وجل، وقد حدث هذا من الصحابة في مواضع كثيرة.

الفائدة العاشرة: في الحديث الحكم للصحابية أم حرام بالشهادة في سبيل الله حيث إنها طلبت من النبي أن يدعو الله أن يجعلها منهم، أي من الذين يغزون في سبيل الله، فلما قال لها النبي: إنها من الأولين، علمنا أنها ستغزو وسيكون غزوها في سبيل الله لأن مجرد الخروج للغزو ليس له فضيلة إلا أن يكون في سبيل الله، وفي الجملة فهي منقبة عظيمة لأم حرام لأنها غَزَتْ، وكان غزوها في سبيل الله، والأجل أن هذا كان ببركة دعائه ﷺ.

الفائدة الحادية عشرة: في الحديث تلميح من النبي أن أم حرام ستموت في الغزوة الأولى؛ لأنها لما طلبت من النبي الدعاء لها أن تشهد الغزوة الثانية قال لها: «أنت من الأولين» أي أنها لن تحضر الغزوة الثانية. فما السبب؟ السبب هو الشهادة في الغزوة الأولى.

الفائدة الثانية عشرة: على المسلم أن يستكثر من الخير، والزيادة في الطاعات، وعليه أن يدعو الله كثيرًا، ويعلم أن الله لن يمل بدعائه؛ لأن أم حرام لم يقتصر طلبها على شهود الغزوة الأولى، بل طلبت الثانية، وأَمَّلَتْ في الله خيرًا، فعلمنا أن طلب الزيادة من الخير مشروع، بل نقول: إنه محبوب إلى الله عز وجل.

الفائدة الثالثة عشرة: جواز أن نقول على الذي يموت في سبيل الله، ومن هو أدنى منه، من باب أولى: هَلَك أو صُرِع، وهذه اللفظة ليست للكافر أو الذي يموت عاصيًا.

المثال الثاني: عَنْ الْجُعَيْدِ قَالَ: (سَمِعْتُ السَّائِبَ يَقُولُ: ذَهَبَتْ بِي خَالَتِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ ابْنَ أُخْتِي وَجِعٌ؛ فَمَسَحَ رَأْسِي وَدَعَا لِي بِالْبَرَكَةِ ثُمَّ تَوَضَّأَ فَشَرِبْتُ مِنْ وَضُوئِهِ وَقُمْتُ خَلْفَ ظَهْرِهِ فَنَظَرْتُ إِلَى خَاتَمِ النُّبُوَّةِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ مِثْلَ زِرِّ الْحَجَلَةِ) [1].

(١) روه البخاري، كتاب: المرض، باب: من ذهب بالصبي المريض ليدعى له، برقم (٥٦٧٠).

وفي إحدى روايات البخاري أيضًا: (عَنِ الْجُعَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ رَأَيْتُ السَّائِبَ بْنَ يَزِيدَ ابْنَ أَرْبَعٍ وَتِسْعِينَ جَلْدًا مُعْتَدِلاً فَقَالَ: قَدْ عَلِمْتُ مَا مُتِّعْتُ بِهِ سَمْعِي وَبَصَرِي إِلاَّ بِدُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ إِنَّ خَالَتِي ذَهَبَتْ بِي إِلَيْهِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ ابْنَ أُخْتِي شَاكٍ، فَادْعُ اللَّهَ لَهُ، قَالَ: فَدَعَا لِي)[1].

الشاهد في الحديث:

قول السائب بن يزيد: (فمسح رأسي ودعا لي بالبركة)، والمناسبة التي قال فيها السائب هذا الكلام، أن الجعيد بن عبدالرحمن رآه وقد بلغ السائبُ الأربع والتسعين سنة، وهو ما زال جَلْدًا معتدلاً، فبرر له ذلك بأن النبي ﷺ قد دعا له.

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: في الشمائل النبوية:

١ - عظيم بركة دعاء النبي ﷺ حيث دعا للسائب بالبركة، فكان من أثر ذلك الدعاء، أن بلغ السائب أربعًا وتسعين سنة، وهو ما زال جلدًا (أي قويًّا صلبًا) معتدلاً، أي لم تظهر عليه علامة من علامات الشيخوخة، مثل انحناء الظهر وضعف السمع والبصر أو تجاعيد الوجه، ودليله ما قاله التابعي، الجعيد بن عبدالرحمن: (رأيت السائب بن يزيد ابن أربع وتسعين جلدًا معتدلاً).

٢ - ثبوت بركة النبي ﷺ في يديه الشريفتين ودعائه وفضلة وضوئه، وهو بقية الماء الذي يغترف فيه ليتوضأ منه، ولولا بركة هذا الماء، ما أقر النبيُّ ﷺ الصحابةَ الشرب منه.

٣ - شفقته بالأطفال، خاصة المرضى منهم، حيث مسح ﷺ على رأس السائب بن يزيد، وكان عُمْرُ السائب وقتها ثمان سنين، والمسح على رأس الصبي فيه اللفتة الحانية مع حدوث البركة منه ﷺ، وما اكتفى النبي ﷺ بذلك بل جمع له مع المسحة الدعاء بالبركة، وهي شفقة على شفقة، ولا يخفى على أحد تواضُعه ﷺ في مثل هذه الواقعة، وأشباهها كثير.

الفائدة الثانية: مناقب السائب بن يزيد رضي الله عنه:

١ - نال في جزء يسير من الزمن عدة بركات من النبي ﷺ، وهي المسح على الرأس والدعاء له بالبركة وشرب فضلة وضوء النبي ﷺ، فكم من الصحابة تجمع له كل ذلك

---

(١) رواه البخاري، كتاب: المناقب، باب: كنية النبي ﷺ، برقم (٣٥٤٠).

الفضل في يوم واحد؟ وهي منقبة عظيمة للسائب بن يزيد، وللأسف الشديد فإن كثيرًا من المسلمين الآن يجهلون حتى اسمه.

٢ - عظيم البركة التي حلت في حياة السائب بن يزيد، من يوم أن دعا له النبي ﷺ، وعمره أقل من ثمان سنوات حتى بلغ الرابعة والتسعين من عمره، ونعتقد أن البركة حلت في عمله وصحته وماله، والدليل على ذلك أن النبي ﷺ دعا له بالبركة، هكذا عامةً، فشملت جميع أنواع البركة، حيث إن طول العمر بدون صلاح العمل وبركة المال، لا ينفع صاحبه، ويكفي للدلالة على ذلك أنه بلغ هذا السن وما زال يروي الحديث.

ونلفت انتباه القارئ الكريم إلى أن الصحة التي تمتع بها السائب بن يزيد مع طول عمر في قوة واعتدال، لم تكن معروفة في زمن الصحابة، وإلا ما قال التابعي، الجعيد بن عبد الرحمن: رأيت السائب بن يزيد ابن أربع وتسعين جلدًا معتدلاً، ولما برر السائب أسباب هذه القوة.

٣ - حسنُ وفائه للنبي ﷺ واعترافُه بفضله بعد أن بلغ مثل هذا السن، لقوله: (لقد علمت ما مُتِّعْتُ به سمعي وبصري إلا بدعاء رسول الله ﷺ).

ويتفرع عليه، جواز نسبة النتائج إلى مسبباتها الظاهرة، ولا يحتاج الأمر في كل مرة أن نقول مثلاً: (بفضل استجابة الله لدعاء النبي ﷺ) خاصة إذا كان السامع يوقن تمامًا أن النبي ﷺ إنما دعا الله وحده، وأن الله سبحانه وتعالى هو مقدر كل شيء، وهو وحده الذي يسمع الدعاء ويجيب النداء، وأنه لا يقدر أحد غيره على إيصال نفع أو دفع ضر.

الفائدة الثالثة: ما كان عليه الصحابة، رضي الله عنهم، من الحرص على الخير لهم ولمن يعولون، لقول السائب: (إن خالتي ذهبت بي ليلة فقالت: يا رسول الله إن ابن أختي شاكٍ فادعُ الله له)، مع يقينهم الراسخ بنبوة النبي ﷺ، وأن الله عز وجل يستجيب له كل دعاء في المسلمين.

ويظهر من ذلك أيضًا عقيدتهم الصافية في علمهم أن المدعو هو الله وحده لقولها: (فادع الله له)، فقد تعلموا أن على العبد الدعاء وعلى الله الإجابة، وأن الناس تتفاوت في استجابة الله سبحانه وتعالى لدعائهم بقدر ما عندهم من الإيمان وشدة اليقين والتقرب إلى الله بما يحب من الطاعات، ولولا علمهم بذلك ما ذهبوا للنبي ﷺ بطلب الدعاء، ولَدَعَوْا لأنفسهم، ولا يعني هذا أن المسلم لا يدعو لنفسه خاصة بعد انقضاء زمن النبوة

المبارك، بل على المسلم أن يدعو الله بيقين وإخلاص، وأن يقدم بين يدي دعوته كل عمل صالح يحبه الله ويرضاه، فهذا أرجى لاستجابة الدعاء، وقد مر ذلك مبسوطًا في مواضع أخرى من هذا الكتاب.

أما الكلام عن خاتم النبوة، فقد ذكرته في موضعه.

المثال الثالث: عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ يَذْكُرُ أَنَّ رَجُلاً دَخَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ بَابٍ كَانَ وِجَاهَ الْمِنْبَرِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ فَاسْتَقْبَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَائِمًا، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلَكَتِ الْمَوَاشِي وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ فَادْعُ اللَّهَ يُغِيثُنَا قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَيْهِ فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا**». قَالَ أَنَسٌ: وَلاَ وَاللَّهِ مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ وَلاَ قَزَعَةً وَلاَ شَيْئًا وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ وَلاَ دَارٍ. قَالَ: فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ فَلَمَّا تَوَسَّطَتِ السَّمَاءَ انْتَشَرَتْ ثُمَّ أَمْطَرَتْ. قَالَ: وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا الشَّمْسَ سِتًّا، ثُمَّ دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ فِي الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ فَاسْتَقْبَلَهُ قَائِمًا فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلَكَتِ الأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ فَادْعُ اللَّهَ يُمْسِكْهَا، قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلاَ عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ عَلَى الآكَامِ وَالْجِبَالِ وَالآجَامِ وَالظِّرَابِ وَالأَوْدِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ**»، قَالَ: فَانْقَطَعَتْ وَخَرَجْنَا نَمْشِي فِي الشَّمْسِ. قَالَ شَرِيكٌ: فَسَأَلْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، أَهُوَ الرَّجُلُ الأَوَّلُ. قَالَ: لاَ أَدْرِي [(١)]. (رواه البخاري).

الشاهد في الحديث:

لما اشتكى الأعرابي قلة المطر، وما نتج عن ذلك من هلاك المواشي والزروع، وجوع العيال لعدم وجود ما يتيعشون عليه من الأقوات، رفع النبي ﷺ يديه إلى السماء يدعو الله بالغيث، ولم يكن في السماء سحاب مجتمع ولا متفرق، ولا أي شيء من علامات المطر، كما ورد في بقية روايات البخاري، فهاجت ريح شديدة، أنشأت سحابًا ثم اجتمع، فصار من كثرته كأمثال الجبال، واستمر المطر أسبوعًا، وذلك بفضل بركة دعائه ﷺ.

وكذلك لما اشتكى الأعرابي من الجمعة المقبلة كثرة المطر دعا النبي ﷺ أن يكون المطر على الآكام ومنابت الشجر، فاستجاب الله دعاءه، وهذا الحديث من أعظم دلائل النبوة، حيث استجاب الله الدعاء، وأنشأ السحاب وأمطرت السماء، ليس مع انتهاء الدعاء ولكن مع الدعاء، وهذا من عظيم بركته ومنزلته العالية الرفيعة، عند مولاه سبحانه وتعالى.

(١) رواه البخاري، كتاب: الجمعة، باب: الاستسقاء في المسجد الجامع، برقم (١٠١٣).

فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: الجدب وقلة الزرع والجوع، قد يحدث مع صلاح الحال وقلة الذنوب والمعاصي، كما يحدث بسبب ابتعاد الناس عن منهج الله سبحانه وتعالى، لقول أنس: (أصابت النَّاسَ سَنَةٌ على عهد النبي ﷺ)، ولقول الأعرابي: هلك المال وجاع العيال، ولا شك أن قرن الرسول هو خير القرون، وقد حدث فيه الجدب الشديد.

الفائدة الثانية: بعض آداب خطبة الجمعة:

١) جواز حديث المأموم مع الإمام، وهو يخطب، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بمصلحة المسلمين العامة، لقول الأعرابي للرسول ﷺ: (هلك المال وجاع العيال)، ولكن يحظر كلام الناس بعضهم مع بعض، لما (رواه البخاري) أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا قُلْتَ لِصَاحِبِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ: أَنْصِتْ، وَالإِمَامُ يَخْطُبُ فَقَدْ لَغَوْتَ»[(١)]، ويستوي في ذلك الكلامُ، وما يقوم مقامَه كالإشارة؛ لأنها تُفْضِي إلى ما يفضي إليه الكلام، من انشغال الناس عن الخطبة.

٢) يجب على الإمام أن يخطب واقفًا، لقول الله تعالى: ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ [الجمعة: ١١]، ولما ورد في بعض طرق الحديث عند البخاري، (ورسول الله قائم يخطب).

٣) جواز أن يتكلم الإمام أثناء الخطبة، في أمر خارج عن موضوع الخطبة، ولا يعد ذلك ناقضًا للخطبة، كما فعل النبي ﷺ في حديث الباب والحديثِ الذي رواه مسلم، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: جَاءَ سُلَيْكٌ الْغَطَفَانِيُّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ فَجَلَسَ فَقَالَ لَهُ: «يَا سُلَيْكُ قُمْ فَارْكَعْ رَكْعَتَيْنِ وَتَجَوَّزْ فِيهِمَا»، ثُمَّ قَالَ: «إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَالإِمَامُ يَخْطُبُ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ وَلْيَتَجَوَّزْ فِيهِمَا»[(٢)].

وعجبت من بعض الأئمة، لا يقطعون الخطبة أبدًا لأي مصلحة، فيرون الرجل يدخل أثناء الخطبة، ويتعدى رقاب المصلين جميعًا، فلا يأمرونه بالأدب الواجب، ويرون الرجل يقف يصلي ركعتين، أثناء جلسة الإمام بين الخطبتين، فلا يبينون عدم مشرعيتها، وكذلك يرون بعض الأولاد، يتكلمون ويشوشون عليه وعلى المصلين، فلا ينهونهم، وهذا كله مخالف للسنة، ويضيع مصالح كبيرة.

---

(١) رواه البخاري، كتاب: الجمعة، باب: الإنصات يوم الجمعة والإمام يخطب، برقم (٣٩٣٤).
(٢) رواه مسلم، كتاب: الجمعة، باب: التحية والإمام يخطب، برقم (٨٧٥).

الفائدة الثالثة: كان الصحابة الذين يعيشون مع النبي ﷺ في المدينة يتحرجون من سؤال النبي، بينما لا يتحرج الأعراب من ذلك، وذلك لتأثرهم بالبيئة التي يعيشون فيها، وقلة صحبتهم للنبي، وكان الصحابة يفرحون أن يأتي الأعرابي فيسأل النبي عن أشياء، وهم جلوس يستمعون، كما قال أنس بن مالك رضي الله عنه: نُهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن أشيء، فكان يُعْجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقلُ فيسأله ونحن نسمع . . . . الحديث (١).

الفائدة الرابعة: في الدعاء:

أ- بيان أنّ الدعاء لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى، فهو القادر وحده على جلب النفع، ودفع الضر، فمع قلة علم الأعراب وفقههم، يدخل الأعرابي المسجد، ويقول للرسول: (فادع الله لنا)، ولو كان أحد يمكن أن يُدْعَى من دون الله، لكان أولى الناس بأن يُدْعَى، هو النبي ﷺ؛ لعظيم فضله، ولكان أولى الناس أن يتوجهوا له بالدعاء، هم أصحابه لأنهم أعلم الناس بمكانته، فلما لم يفعل الصحابة ذلك، مع وجود النبي ﷺ بينهم، علمنا قطعًا أن الدعاء لا يكون إلا لله وحده؛ لأنه من العبادة، بل هو من أعظم العبادة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] فأطلق العبادة على الدعاء، من باب إطلاق الكل على الجزء؛ لبيان عظيم شأنه، ولو كان أحد يُدْعَى مع الله، لبينت الآية ذلك، ولكن الله قال: ﴿ادْعُونِي﴾.

كما بينت الآية أن الدعاء من مقتضيات الربوبية، فالرب هو الذي خلق ورزق وربى، فكيف نتوجه لغيره بالدعاء؟! لا شك أن ذلك من نواقض توحيد الرب تبارك وتعالى.

كما بينت الآية الكريمة الجزاء العظيم لمن يستكبر عن دعاء الرب تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

ويتفرع على عدم جواز دعاء النبي ﷺ، عدمُ جواز دعاءِ غيرِه من باب أولى، وقد بين الله تبارك وتعالى سُخْفَ من يدعو غيره، فقال سبحانه وتعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فبينت الآية أن هؤلاء الذين يتوجه الناس إليهم بالدعاء، هم أنفسهم يتقربون إلى الله بكل أنواع الطاعات تزلفًا إليه وقربى، كما بين الله سبحانه وتعالى في آية أخرى ضلال من يدعو أحدًا غيره، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن

---

(١) أخرجه البخاري، رقم (٢٦٣)، ومسلم (١٢) واللفظ له.

دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦] فبينت الآيتان ضلالهم من عدة وجوه:

١- أنهم يدعون من هو دون الله، فقد تركوا الغني من كل الوجوه ودعوا الفقير من جميع الوجوه، تركوا من يخلق ودعوا من لا يخلق، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]، فكل أحد غير الله هو دون الله.

٢- أنهم يدعون من لا يستجيب لهم بجلب نفع أو دفع ضر، ولو استمر دعاؤهم إلى يوم القيامة، وهم - مع عدم استجابتهم - غافلون عمن يدعونهم، لعدم سماعهم الدعاء.

٣- أنهم يدعون من يناصبهم ويظهر لهم العدواة يوم القيامة، وينكرون عليهم دعاءهم، ويتبرءون إلى الله من ذلك، وانظر كيف أطلقت الآية الكريمة العبادة على الدعاء، قال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦].

أخيرًا أهمس في أذن كل من يذهب إلى القبور لدعوة أموات، يرجون منهم الرزق والولد، وحل العقد، وأقول لهم: كيف تُعْرِضون عن الله، وتتوجهون لمن هو دونه؟! إنّ مَنْ تدعونه هو في أشد الحاجة إلى من يدعو الله له -ولو كان من أهل بيت النبوة رضي الله عنهم جميعًا- وأقول لهم: هذا العمل يخرجكم من ملة الإسلام بالكلية، لماذا تضيعون عليكم الدنيا والآخرة؟ لماذا لا تتلذذون بدعاء الغني الحميد وحده؟ فإذا قلتم: إنهم واسطة لنا عند الله عز وجل، قلت لكم: هذه حجة كفار قريش في عبادة الأصنام، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، والعبد لا يحتاج إلى واسطة لدعوة خالقه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فإن السؤال مع أنه كان موجهًا إلى النبي، فقد جاءت الإجابة مباشرة من الله عز وجل، إلى السائلين عنه بغير واسطة، فلم يقل الله تعالى: قل: إني قريب، فإذا جاءت إجابة السؤال بغير واسطة، فكيف يشرع الدعاء بواسطة، وهذا إيذان بأنه لا واسطة أبدًا لمخلوق عند دعاء المولى سبحانه وتعالى.

وتدبر أخي القارئ بقية أسئلة القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، فإذا قال قائل: أريد واسطة بيني وبين الله، لكثرة ذنوبي وقلة طاعتي، قلت له: ألم تسمع لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر :٥٣] ، فالله سبحانه وتعالى نسب الذين أسرفوا في ارتكاب المعاصي والكبائر إلى نفسه الكريمة، فقال : ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾، وتأمل مواطن رحمة الله العظيمة في هذه الآية، وكيف تَلَطَّفَ الله عز وجل بأصحاب الكبائر؟ بأن وجه إليهم النداء، ووصفهم بأعظم الصفات، صفة العبودية، ونسبهم إلى نفسه، ونهاهم عن اليأس والقنوط من رحمته التي وسعت كل شيء، وفتح لهم باب التوبة ورغبهم فيها بأن بين لهم أنه سبحانه وتعالى يغفر جميع الذنوب، ويدخل في ذلك الشركُ، ثم ختم الآية بأنْ ذكرهم بصفتين كريمتين من صفاته، المغفرة والرحمة، توكيدًا لكل ما ذُكِر بالآية، وليعلمهم أن يتوسلوا بهما، إذا أرادوا الإنابة إليه والاستغفار، أَبَعْدَ كل ذلك يزين لنا الشيطان أن نترك دعاءه سبحانه وحده لا شريك ونذهب إلى غيره؟!

أما من يقول: إنه يذهب إلى القبور، لا ليدعو أهلها، ولكن ليدعو عندها، أقول له: إنها بدعة منكرة؛ لأن القبور ليست مكان دعاء، وليس الغرض من زيارة القبر الدعاء، بل الغرض المشروع هو التذكرة بالموت، والدعاء لصاحب القبر، ولو كان الدعاء للنفس عند القبر أرجى في القبول لبينه النبي ﷺ، ولفعله ولأمرنا به، إذ كيف يُخْفِي علينا شيئًا فيه مرضاة للرب جل وعلا وفيه خير لنا، وهو الناصح الأمين، وإذا كان ذلك مشروعًا، لفعله الصحابة، وهم يمرون على قبر سيد البشر في الغداة والعشي، فهل عرفوا أن هذا خير ولم يفعلوه؟!

وأقول لمن يذهب إلى القبر، ليدعو الله: كيف تذهب إلى مكان يُشْرك فيه بالله، ويُنْذر فيه لغير الله؟ ويُطاف بصاحب القبر، وتقال فيه أوراد وأذكار ما شرعها لنا الله ورسوله، ويختلط فيه الرجال والنساء، ويكثر فيه المشعوذون، وهذه كلها منكرات تغضب الله ورسوله، كيف تقول: إن هذا مكان يستجاب فيه الدعاء؟ هذا مكان أبعد ما يكون لاستجابة الدعاء.

فائدة: قد يحدث أن يدعو الرجل عند القبر، أو يدعو صاحبَ القبر، وتتحقق في اعتقاده الدعوة، أقول: إن دعوة الرجل صادفت قدر الله عز وجل برفع النقمة أو حدوث النعمة، ويكون ذلك ابتلاءً من الله عز وجل للرجل الذي ظلم نفسه بابتداعه في الدين، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

ب - الدعاء لا يناقض التوكل، ولا يناقض اليقين بأن الله عز وجل يرى حاله، ويعلم حاجته، كما أن الدعاء لا يشغل المسلم عن عبادة الله؛ لأن الدعاء هو العبادة، وأدلة ذلك

كثيرة نذكر منها على سبيل المثال:

١- أمرنا الله بالدعاء في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، وقد وضحت بعضها في الفقرة السابقة، وكفى أنه سمى الدعاء عبادة، وأكثر من ذلك أن الله وضح أن التوجه إليه بالدعاء والتضرع هو استجابة له وإيمان به، قال تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦] ،كما أن ذم الذين يصرفون الدعاء لغير الله، والتشنيع بهم هو في ذاته مدح وثناء لمن يدعو الله مخلصًا له الدين.

٢- إن الله عز وجل يحب أن يُظْهِر العبدُ الافتقار إليه، والتذلل بين يديه، والثناء عليه ومدحه بما هو أهله، وإنما يتحقق ذلك بوضوح وجلاء إذا رفع العبد يديه إلى السماء، معلنًا بالغَ عجزه، وكمال قدرة الله سبحانه وتعالى، وأبلغ ما يدلل على حب الله للدعاء، الحديثُ الذي رواه مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ - أَوْ ثُلُثَاهُ - يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ»(1).

فالنزول الإلهي - على الوجه الذي يليق بالعلي القدير - الحكمة منه أن يتفضل الرب تبارك وتعالى، على السائل وعلى الداعي وعلى المستغفر، ولولا رضى الله عز وجل، على هؤلاء ما توجه إليهم خطاب المولى سبحانه وتعالى في هذا الوقت المبارك، ولو أن أحدًا أفضل منهم لتوجه إليه الخطاب بدلاً منهم، أو معهم؛ لأنه لا يعقل من الشارع الحكيم أن يتفضل على هؤلاء، وفيه من هو أفضل منهم، ولا يتوجه إليه الخطاب.

٣- الدعاء هو سبيل الأنبياء كلهم جميعًا، دعوا الله بخيري الدنيا والآخرة، منهم من دعاه أن يرزقه الذرية الصالحة، قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء:٨٩] ، ومنهم من دعاه بالملك العظيم، قال تعالى على لسان سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص:٣٥] ، ومنهم من دعاه بأن يكتب له الذكر الحسن، قال تعالى على لسان إبراهيم ﷺ: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الشعراء:٨٤] ، ومنهم من دعاه بالجنة ومرافقة الصالحين، قال تعالى على لسان يوسف: ﴿أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١] ، ومنهم من دعاه بهلاك الكافرين، قال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦] ، ومنهم

---

(١) رواه مسلم، كتاب: صلاة المسافرين، باب: الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، برقم (٧٥٨).

من دعاه بالنجاة من الهلاك، قال تعالى على لسان يونس عليه السلام: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ﴾ [الأنبياء:٨٧]، ومنهم من دعاه بمغفرة الذنوب، قال تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص:١٦]، ولو كان عدم الدعاء أولى، لكان أولى الناس بذلك صفوة الخلق، وكيف يذكر الله عز وجل في كتابه الكريم كل هذه الأدعية للأنبياء في سياق المدح والثناء عليهم، ولا يبين لنا أن الأولى في حقهم عدم الدعاء، ولا يختلف اثنان أن الأَوْلى في حق الأنبياء هو فعل الأَوْلى من كل الطاعات.

٤- ما زال النبي ﷺ يدعو -وبغير طلب من أحد- خاصة في أوقات المحن والشدائد، كدعائه في غزوة بدر، وإلحاحه الشديد على الله بطلب النصرة، وكدعائه على قريش لما آذته، ووضعوا على ظهره الشريف سَلَى الجزور، وكما كان النبي ﷺ يدعو لأصحابه بخيري الدنيا والآخرة بطلبهم كدعوته لأنس بن مالك في الحديث الذي (رواه البخاري) عن أنس، وفيه: (فَقَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي خُوَيْصَةً قَالَ: «مَا هِيَ؟»، قَالَتْ: خَادِمُكَ أَنَسٌ فَمَا تَرَكَ خَيْرَ آخِرَةٍ وَلاَ دُنْيَا إِلاَّ دَعَا لِي بِهِ قَالَ: «اللَّهُمَّ ارْزُقْهُ مَالاً وَوَلَدًا وَبَارِكْ لَهُ فِيهِ») [(١)]، وبغير طلبهم، كان النبي يدعو ربه ويجتهد في الدعاء، ويعلم أمته ذلك، مع كامل توكله على الله، ورضاه بقضائه وقدره، وهو أعلم الأمة، بل أعلم الأنبياء، بما ينبغي أن يسلكه مع الله عز وجل من الأدب.

٥- يتفرع على ما ذُكِر، أن نقطع بأفضلية الدعاء، وأنه عبادة مستقلة، وأن الذي يدعو -مع الصبر على البلاء، والشكر على النعماء- خير من الذي لا يدعو مع صبره وشكره، فعلينا جميعًا أن نتوجه إلى الله عز وجل بالدعاء بكل ما نرجوه ونأمله من أمري الدين والدنيا، والأولى والآخرة، فالله سبحانه وتعالى يحب أن يسمع صوت عبده.

فإن احتج أحد بحديث المرأة التي سألت الرسول ﷺ الدعاء لها بالشفاء من الصرع، فَخَيَّرَها بين الشفاء أو الصبر ودخول الجنة، فاختارت الصبر والجنة، هذا الحديث ليس بحجة في عدم الدعاء، وذلك لأن النبي عرض عليها الدعاء، وهذا حجة في مشروعيته، ولو كان عدم الدعاء لها أولى لبين ذلك لها، ولكنه عرض عليها الصبر مقابل أن تدخل الجنة، فوجدت المرأة أن الصبر والجنة أعظم مما تلاقيه من شدة الصرع، ومع هذا فقد طلبت

(١) رواه البخاري، كتاب: الصوم، باب: من زار قومًا فلم يفطر عندهم، برقم (١٩٨٢).

من النبي الدعاء لها بألا تتكشف، فدعا لها.

والحاصل أن النبي ﷺ لم يطلب منها ترك الدعاء بالكلية، والحديث (رواه البخاري) عن عَطَاء بْنِ أَبِي رَبَاحٍ قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: أَلاَ أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: هَذِهِ الْمَرْأَةُ السَّوْدَاءُ أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللَّهَ لِي، قَالَ: «إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَكِ» (١). فَقَالَتْ: أَصْبِرُ. فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللَّهَ لِي أَنْ لاَ أَتَكَشَّفَ.

فليس في هذا الحديث حجة للمخالف كما ترى بل هو حجة عليه.

ج- آداب الدعاء:

للدعاء آداب وشروط، يجب أن يتحلى بها الداعي، حتى يكون دعاؤه أقرب للإجابة، ومن تلك الآداب والشروط ما يلي:

١- أن يستحضر أثناء الدعاء تعظيم الله عز وجل في نفسه، وأنه قريب منه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، وأن يكون قلبه حاضرًا، فلا ينبغي أن يكون الدعاء من قلب لاهٍ، وعيون زائغة، ولسان يتمتم، دون أن يفقه ما يقول، وأنَّى للرجل الذي ينشغل في الدعاء بكل صور الشعر من طباق وجناس وغيرها، من حضور وخشوع القلب، بل كيف يخشع من خلفه من المأمومين، فقد روى مسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» (٢).

وينبغي أن يتيقن الداعي أن الله يسمع كلامه ويرى مكانه ويعلم حاله، وأن يكون الدعاء في حقه عبادة وليست عادة، وقد بدأتُ بهذا الأدب في الدعاء لتقصير كثير من الناس فيه.

٢- أن يُطَيِّبَ الداعي مأكله ومشربه، فإن من أعظم أسباب رد الدعاء أن يأكل الداعي أو يشرب من مال حرام؛ لما رواه مسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون:٥١] وَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة:١٧٢] ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ

(١) رواه البخاري، كتاب: المرض، باب: فضل من يصرع من الريح، برقم (٥٦٥٢).

(٢) رواه مسلم، كتاب: البر، باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، برقم (٢٥٦٤).

إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ؛ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!» (١).

٣- أن يتخير من الدعاء جوامعه، فلا يقول مثلاً في دعائه: (اللهم إني أعوذ بك من النار ومن سعيرها ومن أغلالها ومن زقومها) يكفيه ما كان يدعو به النبي ﷺ من التعوذ من النار، لما رواه مسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُو وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ» (٢).

واسمع إلى جامع الدعاء الذي دعا به الخليل إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم:٤١]، وقد أمر الله المؤمنين بعدم التعدي في الدعاء في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف:٥٥]، ومن أوجه التعدي: الدعاء بمحرم مثل قطيعة الرحم، أو التفريق بين الزوجين، أو الدعاء بما لا يمكن حدوثه، كطلب منازل الأنبياء في الجنة.

٤- أن يتخير الداعي الأوقات والأحوال الفاضلة التي يُرْجَى فيها القبول، كدعاء الصائم عند الإفطار، وعند السفر، وعند المرض، وعند لقاء العدو، وفي الثلث الأخير من الليل، وبين الأذان والإقامة، ونزول المطر، وكل ذلك وردت به السنة الصحيحة.

٥- أن لا يتعجل الإجابة، لما ورد في البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي» (٣)، ومن علامات تَعَجُّلِ الإجابة أن يَمَلَّ العبد فيترك الدعاء بالكلية.

٦- على الداعي أن يبدأ دعاءه بالحمد والصلاة على النبي ﷺ، وأن يكثر أثناء الدعاء من الثناء على الله بما هو أهله، فإن الله يحب الثناء عليه، لما ورد في «صحيح مسلم» عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ. وَلَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَنْزَلَ الْكِتَابَ وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ» (٤).

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب: قبول الصدقة من الكسب الطيب، برقم (١٠١٥).
(٢) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب: التعوذ من عذاب القبر، برقم (١٣٧٧).
(٣) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب: يستجاب للعبد ما لم يعجل، برقم (٦٣٤٠).
(٤) رواه مسلم، كتاب التوبة، باب: غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش، برقم (٢٧٦٠).

٧- على الداعي أن يُظْهر في الدعاء شدة الافتقار إلى الله عز وجل، وأن يظهر ما هو فيه من الحاجة، قال تعالى في معرض الثناء على دعاء زكريا: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم:٣-٤] ففي الآية بعض آداب الدعاء التي يجب التأدب بها مثل:

- التيقن أن الذي تدعوه هو ربك، الذي خلقك ورزقك ورباك على نعمائه وآلائه، وأن تثبت له كل ما يتعلق بصفات الرب تبارك وتعالى، من الخوف والرجاء والتوكل وحسن الظن والطمع فيما عنده، وأنه الغني عن السؤال وأنت الفقير إلى الجواب، وأنه سميع عليم مجيب، وبغير التيقُّنِ من ذلك أثناء الدعاء، فلا يرجى للدعوة الإجابة، علمنا ذلك من قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ [مريم:٣] فلولا أن زكريا قد استشعر أن الذي يناديه ويدعوه هو الرب تبارك وتعالى، وأنه تيقن في نفسه كل ما ينبغي للرب، ما زكاه الله بأنه كان يدعو ربه؛ لأن الدعوة إذا كانت باللسان دون القلب لا يعول عليها.

- الإخلاص لله في الدعاء، وألا ترى غيره إلهًا نافعًا ضارًا لأنه لا يملك من الأمر شيئًا، فزكريا عليه السلام إنما نادى ربه، وأخلص في ذلك، ولو أنه كان يرجو أحدًا مع الله، ما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾.

- إخفاء الدعاء، فإن السر يعين على تحقيق الإخلاص في الدعاء، والبعد عن المراءاة والسمعة، قال تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾.

- إظهار شدة الافتقار إلى الله عز وجل، وما يوجد في الداعي من علامات الضعف الخفية والجلية، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾، ووَهَنُ العظم هو من علامات الضعف الخفية، واشتعالُ الرأس بالشيب من العلامات الجلية، فلم يترك سببًا لإظهار افتقاره إلا بذكره، حتى ضعف زوجته، فقال: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ [مريم:٥].

- التوسل إليه سبحانه وتعالى أثناء الدعاء بصفاته وسابق إنعامه وفضله، حيث بدأ زكريا دعاءه بذكر صفة الربوبية التي بها يُنْعِم الرب على عباده، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ﴾، ثم توسل إليه بقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم:٤] فهذا توسل بإقراره أن الله قد سمع كل دعواه السابقة، وأنه بفضله ورحمته استجاب لها كلها، وكان من فضل الاستجابة أنها رَفَعت عن زكريا كل أسباب الشقاء، وهذا كله كان استدرارًا من زكريا لرحمات الله المتتابعة.

- الأدب في الدعاء وعدم ذكر ما يفيد التضجر من قضاء الله وقدره، فزكريا عليه السلام، قد بلغ منه الضعفُ ما ذكرت، وليس عنده ذرية، وامرأته عاقر، ومع ذلك لم يذكر في الدعاء ما يفيد عدم الرضا بقضاء الله وقدره، بل أقر بين يدي ربه أن دعاءه قد رفع عنه الشقاء.

- إظهار المصلحة في إجابة الدعاء، أو المفسدة الحاصلة من عدم الإجابة، قال تعالى على لسان زكريا: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾ [مريم:٥] . وقال: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم:٦] .

- عدم استعظام أي دعاء على قدرة الله تبارك وتعالى، حيث دعا زكريا بالولد، مع انقطاع كل الأسباب، وكأن قوله في الدعاء: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم:٥] هو اعتراف بانقطاع كل الأسباب، وأن الولد سيكون هبة خالصة من الله.

- دعاء المضطر أرجى في الإجابة، خاصة إذا كان في أمور الدنيا، فزكريا ما دعا بالولد إلا بعد كبر سنه وخوفه على ضياع الدين من بعده، وقد يكون هذا من أدب الأنبياء في الدعاء، أنهم ما يدعون إلا مضطرين، وبما يرفع الحرج عنهم، انظر إلى دعوة موسى عليه السلام لما أُرْسِل إلى فرعون: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ [طه:٢٧] ، فما طلب فك كل عُقَدِ لسانه بل طلب واحدة، يحصل معها أن يفقه المرسل إليهم قوله، وما دعا قبل الرسالة، إنما دعا بعد الإرسال مضطرًا. قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢].

وانظر أخي القارئ، إنه عندما استوفى الدعاء غاية الكمال، كيف تحقق به غاية المنال؟!

٨- أن يتوسل إلى الله في الدعاء بأسمائه وصفاته التي تناسب الدعاء، قال تعالى على لسان زكريا: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران:٣٨] ، وتوسل سليمان فقال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص:٣٥] ودعا إبراهيم متوسلاً ربه بصفتين من صفاته فقال: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٢٨]، وكان النبي يتوسل إلى الله بأنه هو الشافي المعافي روى البخاري عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ: يُعَوِّذُ بَعْضَهُمْ يَمْسَحُهُ بِيَمِينِهِ «أَذْهِبِ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لاَ شِفَاءَ إِلاَّ شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لاَ يُغَادِرُ سَقَمًا» [١] .

٩- أختم آداب الدعاء، بأدب عظيم، وهو أن على المسلم أن يبذل وسعه في الأخذ

(١) رواه البخاري، كتاب: الطب، باب: مسح الراقي الوجع بيده اليمنى، برقم (٥٧٥٠).

بالأسباب، مع دعائه، وألا يركن للدعاء ويترك الأسباب، لمنافاته لعمل النبي ﷺ، فكان النبي يَسْتَطِبّ ويرقي نفسه، وكان يقاتل المشركين في بدر، ويبتهل بالدعاء، واعلم -يا من تريد التفريط في الأخذ بالأسباب- أن لله في خلقه سُنَنًا ما نقضها لأحب الخلق إليه، ولن ينقضها لمن هو دونه من باب أولى، ومن سنن الله في هذا الكون الأخذ بالأسباب، فإذا عجز العبد عن ذلك، فعليه بالدعاء، والله يعذره، لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، وقد بينت ذلك في مواضع أخرى من هذا الكتاب.

الفائدة الخامسة: عظيم اعتناء المولى سبحانه وتعالى بنبيه، ومن ذلك استجابة دعائه قبل الانتهاء منه، علمناه من قول أنس: (فوالذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال) [١].

فَقَبْلَ الدعاء كانت السماء صافية كالزجاجة ليس فيها أي شيء من علامات المطر لا فوق المسجد، ولا فوق جبل سلع، قال أنس: (والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قزعة ولا شيئًا وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار)، وأثناء الدعاء ظهرت سحابة صغيرة، ورد في رواية أنها مثل رجل الطائر، فانتشرت وأصبحت مثل الجبال، وقبل أن ينزل من المنبر كان المطر المبارك الذي رآه الصحابة يتقطر من لحيته ﷺ، وتكررت استجابة دعاء الرسول أثناء الدعاء في الجمعة التالية، فقط رفع يديه إلى السماء يدعو بأن يكون المطر حول المدينة، فأمسك الله المطر في وقته، وتمزق السحاب، وطلعت الشمس بعد أن غابت جمعة كاملة لا يراها أحد فوق المدينة، بل الأعظم من ذلك، أنه كان يشير إلى كل ناحية من نواحي السحاب، فيتحول بإشارته ﷺ، ورد عند البخاري (فما يشير بيده إلى ناحية من نواحي السحاب إلا انفرجت)، وفي رواية عند مسلم: (ولقد رأيت السحاب يتمزق كأنه الملاءة حين تطوى) [٢].

قال ابن حجر - رحمه الله-: فانظر كيف امتثل السحاب أمره بمجرد الإشارة [٣]، انتهى.

وأظن أن السحاب كان مأمورًا بطاعته، كما أمر الله ملك الجبال أن يمتثل أمره، فعند البخاري من حديث عائشة: «فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب: الاستسقاء في الخطبة يوم الجمعة، برقم (٩٣٣).
(٢) رواه مسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، باب: الدعاء في الاستسقاء، برقم (٨٩٧).
(٣) انظر فتح الباري (٢/ ٥٠٧).

جبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ» [(١)].

وقلت: إن السحاب مأمور بطاعته؛ لأن السحاب آية من آيات الله سبحانه وتعالى مسخر بأمره، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩]، وقد بسطت الحديث هنا مرة أخرى عن هذه التكرمة العظيمة من الله لرسوله ﷺ، كي يستشعر كل مسلم، ويتيقن منزلة النبي عند ربه، ويتفرع على ذلك الفائدة التالية.

الفائدة السادسة: إذا علمت أخي المسلم عظيم حب الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم، مع أن الله هو الذي تفضل عليه بكل نعمة وتكرم عليه بكل مِنّة، أما سألت نفسك أخي القارئ، أين أنت من حب النبي ﷺ؟ والنبيُّ ﷺ هو الذي دلَّك على كل خير لتفعله، وبيَّنَ لك كل شر لتتجنبه، ودعا الله لك بكل خير دون أن يراك أو يعرفك، وخبأ دعوته العظيمة إلى يوم القيامة، لينالك من بركتها فتفوز بالمطلوب، وتنجو من المرهوب، ولن تقر عينه وتهدأ نفسه حتى يخرج آخر مسلم من أمته من النار، أخي المسلم هل بادلت نبيك هذا الحب؟ هل شكرت معروفه؟ هل رددت له جميله؟ هل همَّكَ أمرُه كما همَّه أمرُك؟ إن كانت الإجابة بـ«لا»، فأسرع أخي المسلم لتعوض ما فاتك، فإذا كان الإنسان مجبولاً على حب الخير، وحب من يُسْدِي الخير، حتى وإن لم يصل إليه هذا الخير، فكيف بالذي أسدى إليك الخير، وأخرجك - بفضل الله - من ظلمات الوثنية إلى نور الوحدانية.

ومن علامات حبه ﷺ، اتباعُه وطاعته فيما نحب ونكره، وتعظيم أمر سنته في نفوسنا، والتأدب معه، والتسليم لكل ما أمر ونهى، وأن نفتديه بأموالنا وأنفسنا وأهلينا، وأن نود رؤيته - في المنام - بالدنيا وما فيها، وأن نغضب لكل ما يؤذيه، وأن نحرص على كل ما يرضيه، وأن نقدم أهل بيته الميامين الأطهار على كل أحد، وأن نحب أصحابه الأخيار الأبرار، ونود لو أن نفتديهم بالنفس والنفيس.

واعلم أخي المسلم، أنك لو فعلت ذلك ما كافأته على معروفه، ولا وَفَّيْتَه حقه، فحقه أعظم من ذلك بكثير، والحمد لله الذي لم يكلفنا ما لا نطيق، ولكن معذرة إليه سبحانه وتعالى على تقصيرنا في حق نبينا، والله من فضله ورحمته يقبل القليل ويبارك فيه، ويعذر

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة، برقم (٣٢٣١).

عباده، فما من أحد أحب إليه العذر من الله.

واعلم أخي المسلم أن كل ما ستفعله في حق نبيك وسنته وأصحابه، ستجده في موازين حسناتك أضعافًا كثيرة، ستكون أول من يفرح بها يوم القيامة، مثال ذلك ما رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وفيه: **«إِذَا سَمِعْتُم الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لاَ تَنْبَغِي إِلاَّ لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ»** (١).

وأقول أخيرًا: إن كل من يحب يبذل من وقته وجهده وعقله لمن أحب، وكلما زاد الحب زاد البذل، فانظر أخي السلم كم تبذل لتعرف كم تحب، والسعيد هو الذي أحب وبذل، أما النبي ﷺ فقد وعده الله عز وجل المقام المحمود واللواء المعقود والكوثر المقصود، والله سيفي له بالوعد ولو لم يؤمن به أحد إلى يوم القيامة.

والذي ذكرت في هذه الفائدة هو مقصودي الأول من هذا الكتاب.

الفائدة السابعة: الأدب الجمُّ الذي كان عليه نبينا ﷺ مع ربه في الدعاء، حيث لم يَدْعُ بإمساك المطر، لما هدم البناء وغرق المال؛ لأن المطر نعمة من الله، وهو رزق السماء، فكيف ندعو بتوقفه، ولكن الأدب أن ندعو بالسلامة من أضراره، مع الانتفاع من إدراره، فكانت دعوته ﷺ: **«اللهم حوالينا ولا علينا»**، وتحقق المراد من الدعوة.

ويتفرع على ذلك عدمُ تأدب من يدعو على أولاده بالهلاك، وهم نعمة من الله سبحانه وتعالى، فإن رأى منهم شيئًا، فعليه أن يدعو لهم بالصلاح والتقوى، ويجتهد في الأسباب العملية لهدايتهم مع الدعاء.

الفائدة الثامنة: مشروعية التوسل إلى الله سبحانه وتعالى بأهل الفضل والصلاح، لقول الأعرابي: (فادع الله لنا)، ولو كان دعاء الأعرابي والنبيِّ سواء، لأعلم النبيُّ الأعرابيَّ بذلك، وحيث لم يأتِ أن التوسل لله، خاص بالنبي ﷺ، علمنا مشروعية طلبه من جميع أهل الصلاح والتقوى، ولكن بشرطين عظيمين:

الشرط الأول: أن يكون المتوسَّلُ به إلى الله عز وجل حيًّا وليس بميت، لما (رواه البخاري) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: (أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه كَانَ إِذَا قَحَطُوا اسْتَسْقَى

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب: استحباب القول مثل قول المؤذن...، برقم (٣٨٤).

بِالْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا، قَالَ: فَيُسْقَوْنَ) (١).

فهذا أعلمُ الأمة، الذي وافق كلامه كلام الرب سبحانه وتعالى، يستسقي بالعباس رضي الله عنه، ولو كان التوسل بغير الأحياء جائزًا، لتوسل بالنبي ﷺ؛ لأنه أعظم قدرًا من العباس، ولكن عدل الصحابة عن التوسل بالنبي ﷺ بعد موته، يقول عمر في الحديث: (إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا)، وقول عمر رضي الله عنه: «كنا» تفيد أن ذلك كان في حياته، وأنهم توقفوا عن ذلك بعد مماته، وإذا كان التوسل به ﷺ غير جائز بعد مماته، فهو غير جائز بمن دونه بعد مماته من باب أولى.

وأهمس في أذن من يتوسل الآن بالنبي أو بغيره من الأموات، فأقول لهم: أأنتم أعلم بقدر النبي من عمر؟ أأنتم أعلم بمشروعية التوسل من أصحاب النبي؟ أأنتم أشد تعظيمًا للنبي منهم؟ كيف تتوسلون إلى الله بِمُحَرّم؟ أكان عمر رضي الله عنه يعلم أن التوسل بالنبي بعد موته جائز، ويعدل إلى مَنْ هو دونه؟ أم كان يجهل أن التوسل به ﷺ بعد موته جائز، ويقره على هذا الجهل - عياذًا بالله - كبار الصحابة؟

أيها الناس عودوا إلى رشدكم، وتمسكوا بسنة نبيكم، إن كنتم حقًّا تحبونه، فكذب من ادعى الحب بغير اتباع، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

الشرط الثاني: أن يتخير العبد من يتوسل به إلى الله عز وجل، فيشترط فيه الصلاح والتقوى والامتثال للكتاب والسنة، فمن العبث أن نتوسل بأصحاب البدع، كالذين يطوفون بالقبور، ويتوسلون بالأموات، ويتمسحون بالأحجار، وفي المقابل ليتهم تمسكوا بالسنة، فقد ضيعوا صلاة الجماعة، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وانظر إلى عمر بمن توسل إلى الله بعد نبيه، توسل بعم النبي، فنعم المتوسَّلُ به هو، وهي فائدة جليلة، أن الصحابة رضي الله عنهم، كانوا يُجِلّون أصحابَ بيت النبي ﷺ؛ لأن عمر سأل العباس أن يستسقي لهم، بصفته عم النبي ﷺ.

ومن أنواع التوسل الشرعي:

١ - التوسل بالأعمال الصالحة، فقد روى البخاري (٢)، حديث الثلاثة الذين سُدَّ عليهم فَمُ الغار، فتوسلوا بالأعمال الصالحة، والشاهد في الحديث أن النفر الثلاثة،

(١) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب: سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا، برقم (١٠١٠).
(٢) رواه البخاري، كتاب الإجارة، باب: من استأجر أجيرًا فترك الأجير أجره، برقم (٢٢٧٢).

كانوا في أشد الحاجة إلى استجابة الله لدعائهم، فهم في ضر، ما بعده ضر، إذ لا حول لهم ولا قوة في دفع ما هم فيه ونجاتهم من الموت إلا الدعاء، فرأوا أن أرجى ما يُتَوَسَّل به إلى الله أعمالُهم الصالحة، ولو كانوا يرون شيئًا أنفع وأرجى في استجابة الدعاء لتوسلوا بها.

٢) التوسل بأسماء الله وصفاته:

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقد مر قريبًا ضَرْبُ الأمثلة على ذلك في سياق الحديث عن آداب الدعاء، وهنا أقول: إن على الداعي أن يلتمس المناسب من أسماء الله وصفاته للدعاء الذي يدعو به، فلا يدعو ويقول: (اللهم أهلك الكافرين إنك أنت الغفور الرحيم). والمناسب أن يتوسل في هذا الدعاء بصفات العزة والحكمة والقوة، فيقول: إنك أنت القوي الحكيم، أو العزيز الحكيم، وهكذا.

الفائدة التاسعة: من آداب الدعاء، رَفْعُ العبد يديه إلى السماء؛ لأن ذلك من علامات الخضوع والذل والافتقار، كالفقير الذي يمد يديه إلى أحد الأغنياء، وقد وردت أحاديث برفع اليدين بالدعاء، كحديث الباب، والحديث الذي رواه مسلم عن عمر بن الخطاب، وفيه: (فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ الْقِبْلَةَ ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي» (١)، وهذه حجة أن النبي ﷺ لم يكن يقتصر على رفع يديه في دعاء الاستسقاء فقط، بل في دعاء الباب أنه رفع يديه بطلب الاستصحاء، وعلمنا من هذا الأدب أن السماء هي قبلة الداعي.

المثال الرابع: عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قال: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أُمِّ سُلَيْمٍ فَأَتَتْهُ بِتَمْرٍ وَسَمْنٍ قَالَ: «أَعِيدُوا سَمْنَكُمْ فِي سِقَائِهِ وَتَمْرَكُمْ فِي وِعَائِهِ فَإِنِّي صَائِمٌ» ثُمَّ قَامَ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنَ الْبَيْتِ فَصَلَّى غَيْرَ الْمَكْتُوبَةِ فَدَعَا لِأُمِّ سُلَيْمٍ وَأَهْلِ بَيْتِهَا فَقَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي خُوَيْصَةً قَالَ: «مَا هِيَ؟» قَالَتْ: خَادِمُكَ أَنَسٌ فَمَا تَرَكَ خَيْرَ آخِرَةٍ وَلاَ دُنْيَا إِلاَّ دَعَا لِي بِهِ قَالَ: «اللَّهُمَّ ارْزُقْهُ مَالاً وَوَلَدًا وَبَارِكْ لَهُ فِيهِ» فَإِنِّي لَمِنْ أَكْثَرِ الْأَنْصَارِ مَالاً وَحَدَّثَتْنِي ابْنَتِي أُمَيْنَةُ أَنَّهُ دُفِنَ لِصُلْبِي مَقْدَمَ حَجَّاجٍ الْبَصْرَةَ بِضْعٌ وَعِشْرُونَ وَمِائَةٌ) (٢).

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجهاد، باب: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر...، برقم (١٧٦٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب: من زار قومًا فلم يفطر عندهم، برقم (١٩٨٢).

الشاهد في الحديث:

أن النبي ﷺ قد دعا لخادمه أنس، رضي الله عنه، فاستجاب الله دعاءه، كأحسن ما تكون الاستجابة، كما سنرى مفصلاً، إن شاء الله، في الفوائد التالية.

الفائدة الأولى: في شمائل النبي ﷺ:

١ - تواضعه ﷺ، حيث كان يزور خادمه في منزله، ويأكل عنده، بل يصلي غير المكتوبة.

٢ - تلطف النبي ﷺ مع مَنْ يقدم له شيئًا لا يستطيع أن يقبله لعلة شرعية، ففي هذا التلطف تطييب للخاطر وتهدئة للنفس، وحتى لا يظن مقدم الهدية أو غيره أن علة عدم القبول يرجع للزهد في الهدية، أو عدم ملائمتها والترفع عنها، أو عدم الرضا عن الشخص الذي قدمها، علمناه من قول النبي ﷺ: «**أعيدوا سمنكم في سقائه وتمركم في وعائه فإني صائم**»، ومع أن هناك مصلحة لإخفاء النبي ﷺ صومَه؛ لأنه عبادة، إلا أن دفع الضرر الذي قد يقع على المضيف، مقدم عن تلك المصلحة، وهذا أدب رفيع، يجب أن نتحلى به في تعاملنا مع الناس خاصة من هم دوننا، فلا عبوس في الوجه، ولا ترفع عن قبول هديتهم، ولا رد لقولهم بدون إبداء مبررات، ولا تحقير لشأنهم، وهذا الأمر نقع فيه صباحًا ومساءً، مع مخالفته لسنة المصطفى ﷺ.

كما أن من تلطفه أيضًا، أنه استجاب لطلب أم سليم لما طلبت منه أن يدعو لأنس، فما رد سؤالها بحجة أنه قد دعا لكل أهل البيت، وأنسٌ من ضمن أهل البيت وستصله قطعًا الدعوة.

٣ - ما أوتيه النبي ﷺ من جوامع الكلم حتى في الدعاء؛ لأنه في هذا المقام قد دعا لأنس بكل أنواع الخير قال أنس: (فما ترك خير آخرة ولا دنيا إلا دعا لي به) [1].

٤ - عظيم بركة دعاء النبي ﷺ، حيث رُزق أنس - بهذا الدعاء - أولادًا كثيرين، أحصت ابنته من مات من صلبه بضعًا وعشرين ومائة، ولا ندري كم إجمالي ما رزقه الله من أولاد وكم عدد أحفاده، أما المال فحدث ولا حرج عن البركة التي شملته بدعاء النبي ﷺ، يقول أنس: (فإني لمن أكثر الأنصار مالاً) فهل كان يظن أنس عندما سمع دعاء النبي ﷺ أن ماله وولده سيبلغان هذا القدر؟!، وهو الذي لم يقدم للنبي عندما زاره في بيته إلا التمر والسمن.

---

(١) سبق تخريجه، وانظر الحديث السابق.

الفائدة الثانية: في أنس وأم سليم:

١ - حب النبي ﷺ لهما، حيث زارهما في منزلهما، وصلى ودعا فيه، لتعم البركة البيت بالصلاة، والأهل بالدعاء، ثم خص أنسًا بالدعاء، بناءً على طلب الأم.

٢ - إيثار أم سليم أنسًا بدعاء مخصوص من النبي ﷺ وكأن الأم من حنانها وحبها العظيم لأولادها تؤثرهم حتى في أمور الآخرة، ونلمح أيضًا من قولها: إنها كانت تحب أنسًا حبًا خاصًا، عن بقية أولادها، وهذا جائز لأن النبي ﷺ ما عتب عليها هذا المسلك في تفضيل أنس، وأعتقد أن سبب هذا الحب قُرْبُ أنس من النبي ﷺ.

٣ - فصاحة أم سليم، حيث وصفت أنسًا أنه خويصة لها، وأبهمت بادئ الأمر اسمه للنبي ﷺ، حتى يسأل هو عنه، وأظن أن إبهام اسمه، إما لتستدعي انتباه النبي ﷺ، أو حتى لا تحرجه، فتجعله في فسحة من أمره، وتدبر كيف سيكون حال أنس إذا ذَكَرت أم سليم اسمَه للنبي ابتداءً ولم يُلَبِّ النبي طلبها بالدعاء؟!

ومن فصاحتها أيضًا أنها ذكرت صفة أنس قبل اسمه فقالت للنبي ﷺ: (خادمك أنس) وذلك حتى تستدر عطف النبي ﷺ بذكر منزلة أنس منه. فكل من عاصر النبي ﷺ يشترك في فضل الصحبة، ولكن كم منهم نال شرف الخدمة والقرب، كما نال هذا الشرف العظيم أنسًا؟ وما التمسته أم سليم في قولها: (خادمك أنس) قد تحقق بجوامع كلم النبي ﷺ في الدعاء.

٤ - حب أم سليم، رضي الله عنها للاستزادة من الخير، حيث طلبت من النبي ﷺ أن يدعو لأنس، وهو يدل أيضًا على علمها ببركة دعاء النبي ﷺ، وأن دعاءه مستجاب، وأن الله حَفِيٌّ به يسمع دعاءه ويحقق رجاءه.

٥ - تعظيم الصحابي أنس رضي الله عنه لأمور الآخرة، وتقديمها عن أمور الدنيا، حيث قال: (فما ترك خير آخرة ولا دنيا إلا دعا لي به).

٦ - منزلة أنس، رضي الله عنه، في الدنيا والآخرة: ففي الدنيا رزق المال الوفير الذي استخدمه في طاعة المولى سبحانه وتعالى، والأولاد الكثر الصالحين البارين بأبيهم، وعلمنا أن هذا المال وهؤلاء الأولاد كانوا على هذا النحو من الخير والبركة؛ لأن دعاء النبي قيد بالبركة، لقوله ﷺ: **«اللهم ارزقه مالاً وولدًا وبارك له فيه»** ولولا بركة المال والأولاد لكان الدعاء عليه لا له، فنعتقد أن البركة قد حلت في كل أوجه مال وأولاد أنس رضي الله عنه.

ولك أخي القارئ أن تتخيل بركة هذا الدعاء في آخرة أنس، وماذا أعد الله له من الثواب العظيم، فإذا كان بركة الدعاء جاءت على هذا الوجه في الدنيا -وهي دارٌ وضيعةٌ عند الله- فمن باب أولى أن يبلغه الدعاء في الآخرة على أكمل ما يكون، ويكفيه أن سيكون له أكثر من مائة وعشرين ابنًا، نرجو الله عز وجل أن يكونوا فرطه على الحوض، أرأيتم فضل خادم النبي ﷺ في الدنيا والآخرة.

٧ - حفظ أنس رضي الله عنه لسنة النبي ﷺ، وحرصه على نشرها وتفقد أحواله التي تثبت تحقق دعاء النبي ﷺ والذي هو من دلائل نبوته، علمنا ذلك لأنه بعد عدة عقود -وقد بلغ أكثر من مائة عام- يحدث حديث النبي ﷺ، ويقول فيه: (فإني لمن أكثر الأنصار مالاً وحدثتني ابنتي أمينة أنه دُفن لصلبي مقدم حجاج البصرة بضع وعشرون ومائة) ونستفيد أيضًا من الحديث كيف بارك الله سبحانه وتعالى لأنس في صحته، حتى يكون له مثل هذا العدد من الأولاد والأحفاد، وفي عقله حتى يقص علينا من أخبار النبي ﷺ رغم تعديه المائة عام.

ومَنْ تَعَجَّبَ من حفظ أنس لكل تلك الأحاديث النبوية، وراويته لها كما سمعها لم يبدل منها شيئًا حتى بعد تعديه مائة عام، فليقرأ ما (رواه البخاري)، عَنِ الْأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: يَقُولُونَ: إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ يُكْثِرُ الْحَدِيثَ، وَاللَّهُ الْمَوْعِدُ، وَيَقُولُونَ: مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ لاَ يُحَدِّثُونَ مِثْلَ أَحَادِيثِهِ، وَإِنَّ إِخْوَتِي مِن الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمْ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ، وَإِنَّ إِخْوَتِي مِن الْأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمْ عَمَلُ أَمْوَالِهِم، وَكُنْتُ امْرَأً مِسْكِينًا أَلْزَمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى مِلْءِ بَطْنِي؛ فَأَحْضُرُ حِينَ يَغِيبُونَ، وَأَعِي حِينَ يَنْسَوْنَ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا: «لَنْ يَبْسُطَ أَحَدٌ مِنْكُمْ ثَوْبَهُ حَتَّى أَقْضِيَ مَقَالَتِي هَذِهِ ثُمَّ يَجْمَعَهُ إِلَى صَدْرِهِ فَيَنْسَى مِنْ مَقَالَتِي شَيْئًا أَبَدًا» فَبَسَطْتُ نَمِرَةً لَيْسَ عَلَيَّ ثَوْبٌ غَيْرُهَا حَتَّى قَضَى النَّبِيُّ ﷺ مَقَالَتَهُ ثُمَّ جَمَعْتُهَا إِلَى صَدْرِي، فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ مَا نَسِيتُ مِنْ مَقَالَتِهِ تِلْكَ إِلَى يَوْمِي هَذَا وَاللَّهِ لَوْلاَ آيَتَانِ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا أَبَدًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠][(١)].

الفائدة الثالثة: الأمر بعدم تعريض الطعام للتلف، وذلك بوضعه في الإناء أو المكان الذي يحفظه، وهو فرع من حفظ المال وهذا الأمر للوجوب لقوله ﷺ: «أعيدوا سمنكم

(١) رواه البخاري، كتاب المزارعة، باب: ما جاء في الغرس، برقم (٢٣٥٠).

في سقائه وتمركم في وعائه»، ولولا أن هذا الأمر كان لحكمة حفظ الطعام، فما الحكمة منه إذن؟

الفائدة الرابعة: في دعاء النبي ﷺ:

١ - مشروعية التوسل إلى الله، بدعاء الصالحين، لقول أم سليم: (إن لي خويصة)، وقد مر من قبل.

٢ - مشروعية الدعاء لشخص باسمه، ودليلُه قول أم سليم: (خادمك أنس).

٣ - مشروعية الدعاء بخير الدنيا، وأن هذا الدعاء لا يعارض التوكل، أو الرضا بقضاء الله وقدره، مع ملاحظة أن أم سليم لم تطلب من الرسول الدعاء لأنس بخير الدنيا، ولكنه دعا له بذلك من تلقاء نفسه مما يؤكد مشروعية الحكم.

٤ - مشروعية تمني كثرة المال، والدعاء بذلك، وأن كثرة المال من خير الدنيا شريطة أن يكون مالاً مباركًا، يأتي من حلال ويصرف في طاعة وقد يؤخذ منه تفضيل كثرة المال المبارك على الفقر.

ب - استجابة دعائه ﷺ على الكافرين بالهلاك:

المثال الأول: عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا رَأَى مِنَ النَّاسِ إِدْبَارًا قَالَ: «اللَّهُمَّ سَبْعٌ كَسَبْعِ يُوسُفَ»، فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ حَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى أَكَلُوا الْجُلُودَ وَالْمَيْتَةَ وَالْجِيَفَ وَيَنْظُرَ أَحَدُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فَيَرَى الدُّخَانَ مِنَ الْجُوعِ فَأَتَاهُ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ تَأْمُرُ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَبِصِلَةِ الرَّحِمِ وَإِنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا فَادْعُ اللَّهَ لَهُمْ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝﴾ [الدخان: ١٥-١٦] فَالْبَطْشَةُ يَوْمَ بَدْرٍ وَقَدْ مَضَتِ الدُّخَانُ وَالْبَطْشَةُ وَاللِّزَامُ وَآيَةُ الرُّومِ [١].

الشاهد في الحديث:

أن النبي ﷺ لما رأى إبطاء قريش عن الدخول في الإسلام، وصدهم عن سبيل الله كثيرًا، دعا الله أن ينزل عليهم عذابًا من جنس ما نزل على قوم يوسف عليه السلام، وهو الجفاف الذي يسبب هلاك الزرع وموت الضرع، فاستجاب الله دعاءه، وكانت سنة سوداء

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب: دعاء النبي ﷺ اجعلها عليهم سنين كسني يوسف، برقم (١٠٠٧).

على قريش، حتى اضطروا إلى أكل ما يُستقبح أكلُه كالجلد والحيوانات التي ماتت ونتنت، ثم استجاب الله لنبيه مرة أخرى فأنزل عليهم الغيث.

وفي الحديث فوائد منها:

الفائدة الأولى: حفاوة الله سبحانه وتعالى بنبيه إذ استجاب دعاءه وأنزل على قريش عذابًا من جنس ما طلب النبي، بل زاد الأمر إلى أكلهم كل ما يتقذر ويستقبح، وهذا انتقام من الله عز وجل لمن كذب وآذى النبي ﷺ، ويتفرع على ذلك تهديد كل الأمم التي تكذب بالكتاب والسنة بأن ينزل بهم ما نزل بقريش لما آذوا الله ورسوله، وما يحدث من جفاف أو أعاصير شديدة، وأوبئة وزلازل تدمر كل شيء، ليس ذلك ببعيد، ولو هلك في هذه الكوارث مسلمون صالحون، فإنهم يبعثون يوم القيامة على نياتهم، ولن يضرهم - إن شاء الله - أنهم أُخِذُوا مع الكافرين، شريطة أن يكونوا قد أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر قدر استطاعتهم، وتغيرت وجوههم مما رأوا من المعاصي.

الفائدة الثانية: إقرار كفار قريش باستجابة الله لدعاء النبي، مما يعني إقرارهم بصدقه؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يستجيب أبدًا لمن يكذب عليه، أو من يريد أن يُضِلَّ عباده، وذلك أنهم أقروا أن ما حدث لهم من جفاف كان بدعوته ﷺ، كما أنهم طلبوا منه مرة أخرى أن يدعو الله بكشف ما هم فيه، فهذا إقرار آخر منهم، ويتفرع على ذلك، إيمانهم بوجود الله عز وجل، الذي يسمع الدعاء ويجيبه، وهذا ما وضحته في الحديث اللاحق.

الفائدة الثالثة: وجوب أن يرى المسلم فضل الله عز وجل في إنزال رزق السماء، وهو المطر، وإخراج رزق الأرض، وهو النبات، وعلى العبد أن ينظر إلى حال من يفتقد هاتين النعمتين العظيمتين، وأن لا يكون إيلافهما سببًا في عدم رؤية فضل الله والشكر الجزيل عليهما، وأسوأ ما في الأمر أن لا يشعر الإنسان بنعمة المولى عز وجل إلا بعد أن يفقدها.

الفائدة الرابعة: إقرار كفار قريش بحسن ما جاء به النبي ﷺ، وما كان يأمر به من طاعة الله وفضائل الأعمال والأقوال، لقول أبي سفيان: (يا محمد إنك تأمر بطاعة الله وبصلة الرحم) وهذا يدل على أن كفرهم به ﷺ إنما كان استكبارًا عن الحق.

الفائدة الخامسة: جواز الدعاء على الكافرين، بما قد يضر بعض المسلمين معهم، خاصة لو كان هذا الدعاء فيه مصلحة ترجح على الضرر الواقع بالمسلمين، وفيه أيضًا؛

جواز الدعاء لرفع الضرر الواقع على الكافرين، وكل ذلك تحكمه المصلحة، سواء الدعاء لهم بالهداية، أو الدعاء عليهم بالهلاك.

الفائدة السادسة: لا يريد الله، سبحانه وتعالى، إيمانًا جبريًّا؛ لأن هذا الإيمان إيمان القالب وليس القلب، ولا قيمة له، والدليل من الحديث أن الرسول ﷺ ما اشترط على أبي سفيان إيمان كفار قريش حتى يرفع عنهم القحط، ولكن دعا لهم واستجاب الله الدعاء، ويكفي ذلك في إقامة الحجة على الكفار، بصدق دعوة النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]، ونشير هنا إلى أن قوله تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] ليس المراد منه، تخيير العباد بين الإيمان أو الكفر، كما يفهم ذلك الكثير من الناس، ولكن الفهم الصحيح للآية أنها من باب التهديد والوعيد لمن لا يؤمن، وأن العبد ليس مخيرًا بين الإيمان والكفر. والدليل من نفس الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].

الفائدة السابعة: في الحديث بيان للمقصود من قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦]، فالآيتان يقصد بهما ما حدث للكفار -في حديث الباب- من المجاعة والهزيمة العظيمة التي لحقت بهم في غزوة بدر، وكثير من الناس يفهم أن هاتين الآيتين -الدخان والبطشة- هما من علامات يوم القيامة، وهذا خطأ.

الفائدة الثامنة: بيان ما عليه الكفار من النكوص على الأعقاب ونقض الوعود؛ لأن الكفار قد وعدوا النبي ﷺ بالإيمان، لو كشف عنهم ما وقع بهم من القحط، ولكنهم أصروا على الكفر بعد أن كشف الله عنهم، قال تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ [الدخان: ١٥]، وهي سنة مَنْ قبلهم، قال تعالى على لسان بني إسرائيل لنبيهم موسى عليه السلام: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ۝ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الزخرف: ٤٩-٥٠].

الفائدة التاسعة: قد يستجيب الله عز وجل، ويكشف العذاب عن الكافرين لو وعدوا أنهم سيؤمنون، مع أن الله عز وجل يعلم كذبهم، كما حدث مع اليهود، ومع كفار قريش، ويكون هذا من باب الاستدراج لهم، وتسجيل مواقف تبين كذبهم وعنادهم، وتقيم عليهم الحجة الدامغة، لأنهم قد رأوا من الآيات ما يجعلهم يؤمنون، ولكنهم أبوا.

المثال الثاني: عَن ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: (بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ وَأَبُو جَهْلٍ

وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ وَقَدْ نُحِرَتْ جَزُورٌ بِالْأَمْسِ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى سَلَا جَزُورِ بَنِي فُلَانٍ فَيَأْخُذُهُ فَيَضَعُهُ فِي كَتِفَيْ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ؟ فَانْبَعَثَ أَشْقَى الْقَوْمِ فَأَخَذَهُ فَلَمَّا سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ قَالَ: فَاسْتَضْحَكُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَمِيلُ عَلَى بَعْضٍ وَأَنَا قَائِمٌ أَنْظُرُ لَوْ كَانَتْ لِي مَنَعَةٌ طَرَحْتُهُ عَنْ ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالنَّبِيُّ ﷺ سَاجِدٌ مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ حَتَّى انْطَلَقَ إِنْسَانٌ فَأَخْبَرَ فَاطِمَةَ فَجَاءَتْ -وَهِيَ جُوَيْرِيَةٌ- فَطَرَحَتْهُ عَنْهُ ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ تَشْتِمُهُمْ، فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ ﷺ صَلَاتَهُ رَفَعَ صَوْتَهُ ثُمَّ دَعَا عَلَيْهِمْ، وَكَانَ إِذَا دَعَا دَعَا ثَلَاثًا، وَإِذَا سَأَلَ سَأَلَ ثَلَاثًا ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ»، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا سَمِعُوا صَوْتَهُ ذَهَبَ عَنْهُمُ الضِّحْكُ وَخَافُوا دَعْوَتَهُ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ» وَذَكَرَ السَّابِعَ وَلَمْ أَحْفَظْهُ، فَوَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ سَمَّى صَرْعَى يَوْمَ بَدْرٍ ثُمَّ سُحِبُوا إِلَى الْقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ (١).

الشاهد في الحديث:

أن النبي ﷺ قد دعا على سبعة من كفار قريش لما آذوه، فاستجاب الله دعاءه في السبعة كلهم جميعًا، فهلكوا في غزوة بدر الكبرى، ودفنوا في القليب، والقليب هو البئر.

فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: بيان عظيم الأذى الذي لاقاه النبي من كفار قريش، يتبين ذلك من:

١- إلقاء سلا الجزور على ظهره في أشرف الأماكن -في البيت الحرام- وهو في أشرف الأوضاع -ساجدًا لله- مما يؤذيه أكثر وأكثر.

٢- ضحك الكفار عليه بعد إلقاء القاذورات، وهم أحقر الناس عند الله وعند رسوله، ، حتى مال بعضهم على بعض من كثرة الضحك. مما يزيد الإيذاء، فالإيذاء هنا نفسيٌّ وبدني.

٣- لم يجد النبي ﷺ أحدًا من أصحابه يدافع عنه، في هذا الموقف فبقي ساجدًا صابرًا حتى جاءت فاطمة رضي الله عنها فطرحت عنه الأذى.

ومما كان يزيد البلاء على النبي ﷺ، أنه ما اعتاد الأذى والاستهزاء قبل نبوته، بل كان

(١) رواه مسلم، كتاب الجهاد، باب: ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، برقم (١٧٩٤).

معززًا مكرمًا، حسيبًا نسيبًا في قومه، يتحدث الناس عنه ويثنون عليه خيرًا، فيكون الضرر الواقع عليه بسبب أذى الناس بعد النبوة مضاعفًا، ويحتاج تحمله إلى صبر مضاعف، ورباطة جأش أكبر مما لو كان مهينًا بين الناس قبل البعثة.

الفائدة الثانية: مناقب فاطمة رضي الله عنها:

١- حضورها من بيتها، لما سمعت ما وقع للنبي ﷺ، وتجرؤها على طرح الأذى، وكان طرحه يحتاج إلى شجاعة؛ لأن عبدالله بن مسعود لم يجترأ أن يفعله، وقد تمنى أن لو كان له منعة وقوة يركن إليهما ليطرحه، تجرأت فاطمة، مع أنها كما ذكر الراوي، جويرية، أي حديثة السن.

٢- كما تجرأت فاطمة مرة أخرى، بأن سبت أكابر قريش، وتدبر أنها لم تسبهم خفية في نفسها، ولم تسبهم مدبرة عنهم ولكن أقبلت عليهم تشتمهم، وكما ذكرت من قبل كانت جارية حديثة السن.

٣- حبها العظيم للنبي ﷺ، مما دفعها إلى طرح الأذى عنه، وسبها لمن فعل ذلك، مُعَرِّضة حياتها للخطر؛ لأن قيام الكفار بإيذائها كان أمرًا واردًا.

٤- حفظ الله عز وجل لها عرضها وشرفها، بأن وقاها من رد صناديد الكفار عليها، ولو باللسان، بالرغم أنها قد سبتهم في وجوههم، وأعتقد أن الله سبحانه وتعالى قد ألقى في قلوبهم الرعب منها، وإلا فما الذي يمنعهم من رد سبها، مع أنهم آذوا النبي ﷺ أبلغ الايذاء.

الفائدة الثالثة: بعض شمائله ﷺ:

١- شجاعته وصدعه بالحق، وعدم خوفه من أذى الكفار، حيث كان يصلي عند البيت على مَسْمعٍ ومَرْأًى من الكفار، وهو يعلم تربصهم به، وحرصهم على إيذائه.

٢- ومن شجاعته أنه دعا عليهم بصوت عالٍ حتى يسمعوا، ولو كان خائفًا لأسر بالدعاء. بل إنه دعا عليهم ثلاثًا، كعادته في سائر دعائه، فلم يكتف بواحدة اتقاءً لشرهم.

٣- انتقام الله سبحانه وتعالى من الذين أغضبوه وآذوه وألقوا عليه سلى الجزور، بأن أهلكهم جميعًا في أول موقعة بينه وبين المشركين، وأذلهم بعد موتهم غاية الإذلال، بأن نتنت أجسادهم وكان مثواهم الأخير أن قُلِبوا في البئر.

الفائدة الرابعة: تسلية كل من يتعرض للإيذاء في سبيل الله، وأن هذا سبيل الأنبياء، الابتلاء والصبر على الإيذاء، وتكفل الله أن تكون العاقبة لهم ولأتباعهم.

الفائدة الخامسة: في أبي جهل وأصحابه:

١ - الذي يباشر المعصية، أعظم خطرًا، وأكبر وزرًا، من الذي يدل عليها أو يرضى بها، فأبو جهل هو الذي اقترح إلقاء سلا الجزور، وبقية القوم رضوا عن هذا العمل وضحكوا منه، ولكن راوي الحديث، حكم على عقبة بن أبي معيط، أنه أشقى القوم؛ لأنه هو الذي باشر تلك الفعلة.

٢ - يعلم كفار قريش، خاصة المدعو عليهم، أن لهذا الكون إلهًا، حيث ورد في رواية البخاري (فشق عليهم إذ دعا عليهم)، دل ذلك على إيمانهم بالرب سبحانه وتعالى، وأنه يسمع الدعاء ويلبي النداء، وينتصر للمظلوم.

٣ - علم هؤلاء الأشقياء صِدْقَ نبوة الرسول، لأنهم خافوا أن يستجيب الله دعاءه، ولولا يقينهم بأنه رسول الله حقًّا ما خافوا دعاءه لأن الله عز وجل لا يستجيب دعاء من يكذب عليه، ويدعي النبوة.

٤ - تعظيم الكفار لبيت الله الحرام، وأنهم يرون فضله وشرفه على بقية البقاع، حيث ورد في رواية البخاري: (وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة) [١].

الفائدة االسادسة: جواز الدعاء على الكافرين بالهلاك وسوء الخاتمة، مع تعيين أسمائهم، وإن كان الرسول قد دعا لبعض الكافرين بالهداية، فنتعلم من ذلك أن النبي كان يرجح بين المصالح والمفاسد، ويختار الأصلح في كل واقعة، وهذا يدل على حكمتِهِ وتوسُّطِهِ في الأمر.

الفائدة السابعة: سفاهة الكافرين، وخفة عقولهم، حيث استعجلوا نزول العذاب من الله، بالتطاول على النبي ﷺ بالاستهزاء والإيذاء، وكان من العقل والحكمة، حتى وإن كفروا، ألا يبالغوا في العداوة والبغضاء، ويجعلوا لأنفسهم مجالاً للعودة والتوبة، بدلاً من أن يحكموا على أنفسهم في فترة الإمهال بسوء الخاتمة، ولكن انطبق في حقهم قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٤].

يتفرع على ذلك، أن على كل مسلم، أن يأخذ من الحديث الدرس والعبرة، فلا

---

(١) رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب: إذا ألقي على ظهر المصلي قذر أو جيفة، برقم (٢٤٠).

يستعجل عذاب الله، فلا جدال في آيات الله بغير حق، ولا إنكار لما جاء في الكتاب والسنة، ولا استهزاء بحرمات وشعائر الله، فهذا كله يعجل عذاب الله، ولا أحد يقدر عليه، انظر ماذا فعل الله بالمستهزئين برسوله، وقد كانوا في فسحة من أمرهم، ولكن بالضحك والهزل وبكثير من الكبر، أذلهم الله بعد أن كانوا أكابر، وجعلهم أحاديث بعد أن كانوا أساطير، ولا أحد يتصور ما أعده الله لهم من العذاب الأليم يوم الدين، فلو لم يعذبهم الله على أي عمل اقترفوه، غير هذه الفعلة النكراء، فسيرون من الله ما لم يكونوا يحتسبون، وليحذر كل مسلم يستهزئ بالكتاب والسنة أن تصيبه شؤم دعوة النبي ﷺ.

الفائدة الثامنة: التحذير من رفقاء السوء، فالظاهر من الحديث، أن بعضهم حَرَّضَ بعضًا على هذه الفعلة، ولو أن فيهم صالحًا أو عاقلاً لنهاهم عن هذا المنكر ولنصحهم بالمعروف.

الفائدة التاسعة: اعتناء الصحابة بسنة نبيهم، حيث حفظ الصحابي، عبدالله بن مسعود، أسماء من دعا عليهم النبي بمكة، ولما حضر غزوة بدر بعد الهجرة، كأنه راقب الذين آذوا رسول الله، وتأكد برؤية العين أنهم قُتِلوا وأُلْقُوا في القليب، وهذا أيضًا من اهتمامهم بكلام النبي ﷺ، يريدون أن يعرفوا مآل من دعا عليهم النبي ﷺ.

ويماثله ذلك أيضًا مراقبة أحد الصحابة للرجل الذي أبلغهم النبي أنه من أهل النار، فراقبه حتى علم سر كلام النبي ﷺ، وكانت هذه الأمور تزيدهم إيمانًا ويقينًا بالله ورسوله.

ج - استجابة دعائه في هداية الكافرين:

عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: (كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى الإِسْلاَمِ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فَدَعَوْتُهَا يَوْمًا فَأَسْمَعَتْنِي فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَكْرَهُ فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى الإِسْلاَمِ فَتَأْبَى عَلَيَّ، فَدَعَوْتُهَا الْيَوْمَ فَأَسْمَعَتْنِي فِيكَ مَا أَكْرَهُ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ» فَخَرَجْتُ مُسْتَبْشِرًا بِدَعْوَةِ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا جِئْتُ فَصِرْتُ إِلَى الْبَابِ فَإِذَا هُوَ مُجَافٌ فَسَمِعَتْ أُمِّي خَشْفَ قَدَمَيَّ فَقَالَتْ: مَكَانَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ وَسَمِعْتُ خَضْخَضَةَ الْمَاءِ قَالَ: فَاغْتَسَلَتْ وَلَبِسَتْ دِرْعَهَا وَعَجِلَتْ عَنْ خِمَارِهَا فَفَتَحَتِ الْبَابَ ثُمَّ قَالَتْ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَتَيْتُهُ وَأَنَا أَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا

رَسُولَ اللَّهِ أَبْشِرْ قَد اسْتَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَكَ وَهَدَى أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ خَيْرًا، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُحَبِّبَنِي أَنَا وَأُمِّي إِلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَيُحَبِّبَهُمْ إِلَيْنَا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ حَبِّبْ عُبَيْدَكَ هَذَا يَعْنِي أَبَا هُرَيْرَةَ وَأُمَّهُ إِلَى عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ وَحَبِّبْ إِلَيْهِم الْمُؤْمِنِينَ**» فَمَا خُلِقَ مُؤْمِنٌ يَسْمَعُ بِي وَلاَ يَرَانِي إِلاَّ أَحَبَّنِي)[1].
(رواه مسلم).

الشاهد في الحديث:

أن النبي ﷺ، قد دعا لأم أبي هريرة، بأن يهديها الله للإسلام، فما بلغ أبو هريرة البيت، إلا وقد أسلمت أمه، بعد أن كانت منذ وقت قصير جدًا، تقول في النبي ﷺ ما نكره جميعًا، فاستجاب الله عز وجل دعوة نبيه على الفور، وأسلمت المرأة وهي وحدها في بيتها، دون أن يدعوها أحد للإسلام، أي أسلمت بالدعاء وحده.

ولنقفْ -أخي المسلم- على عظيم بركة دعاء النبي ﷺ، اسمع لقول أبي هريرة آخر الحديث لما دعا النبي ﷺ له أن يحببه وأمه إلى عباد الله المؤمنين، قال: (فما خلق مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبني)، أي أن دعاء النبي ﷺ لم يقتصر على المؤمنين في وقت الدعاء، ولم يقتصر على المؤمنين الذين رأوا أبا هريرة وتعاملوا معه، بل عم الدعاء كل المؤمنين في زمن النبوة وما بعدها، وشمل كل من سمع عن أبي هريرة، حتى وإن لم يره، وهذا مشاهد لا ينازع فيه أحد. وعلى المسلم أن يقف مليًا عند هذا الدعاء ليتدبره ويزيد به إيمانه.

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: وجوب دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، خاصة ذوي القربى؛ لأنهم أولى بالمعروف، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤]، وعلى المسلم ألا يمل من دعوتهم، ويكرر عليهم الدعوة ما أمكنه، لقول أبي هريرة: (كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة فدعوتها يومًا) وعلى المسلم أيضًا أن يدعو لغير المسلمين بالهداية، كما فعل أبو هريرة.

الفائدة الثانية: ما يجب أن يكون عليه المسلم من غَيْرة على محارم الله، خاصة الأنبياء، وأن يحزن لما يسوءهم وينال من أعراضهم، وعليه أن يُظْهِر ذلك؛ لأن أبا هريرة كان يدعو

(١) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبي هريرة الدوسي رضي الله عنه، برقم (٢٤٩١).

أمه دائمًا، لكنه لما سمع ما يكره في حق النبي، بكى، وهو الذي لم يَبْكِ من قبل لرفضها دعوته للإسلام، وما ذهب للنبي ﷺ يشكو حال أمه إلا هذا اليوم، كل ذلك يدل على غيرته على رسول الله وأن يمسه أحد بسوء، ولو كانت أمه.

كما أن على المسلم أن يحزن ويبكي إذا سمع أحد ينتقص من قدر الله ورسوله، ويكون ذلك خوفًا على المتكلم من سوء الخاتمة، وكل من لا يظهر ذلك ولا يتأثر به، ففي قلبه شيء حال بينه وبين هذا الحزن، فعليه أن يفتش في نفسه ويتدارك أمره.

الفائدة الثالثة: ما يجب أن يكون عليه المسلم من تعظيم لأبويه، ولو كانا مشركين؛ لأن أبا هريرة سمع من أمه ما يكره ويُبْكيه في حق أحب الخلق إليه، ولم ينهرها أو يوبخها عما قالت، والدليل على صحة ما فعله أبو هريرة، أن الرسول ما لامه عن سكوته لما سمع ما يؤذي النبي ﷺ. وكان هذا هو التوجيه الرباني لهم، قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان:١٥]، فأمرنا الله عز وجل بمصاحبتهما بالمعروف في حال كونهما كفارًا، يبذلون ما في وسعهم لدعوتنا للشرك، وترك ما نحن عليه من الإيمان، فما بالكم لو كان الوالدان كفارًا ولم يَصُدَّانا عن الإيمان، أو كانا مسلمين لكن فيهم بعض المعاصي، وكيف يجب أن يكون حالنا معهم، إذا كانا مسلمين طائعين بارين، كيف تكون معاملتنا معهم؟ أرى أن كثيرًا من المسلمين قد فرطوا في هذا الجانب أشد التفريط، حتى وقع فيه من يبدو عليه علامات الصلاح والتقوى، ووالله إنه لنذير شؤم على الأمة كلها، فعلى الجميع أن يتدارك الأمر قبل فوات الأوان، ألا يعقل المسلم صاحب الدين كيف قرن الله عز وجل بين الشرك وعقوق الوالدين؟! قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء:٢٣]، وقد عَدّ النبي العقوق من أكبر الكبائر، وتأمل أخي المسلم حديث الثلاثة الذين مالوا إلى غار في الجبل فانحطت على فم غارهم صخرة، فتوسلوا إلى الله بأحسن أعمالهم حتى ينجيهم من الموت، فما وجد أحدُهم لنفسه عملاً أعظم من أنه أتى ذات ليلة باللبن ليسقي والديه، فوجدهما نائمين، فكره إيقاظهما من نومهما، وكره أن يبدأ بالصبية، وهم يَتَضَاغَوْنَ تحت رجليه ليسقيهم اللبن فأبى، حتى طلع الفجر، وهو واقف يحمل اللبن والأولاد يبكون، لقول الرجل في الحديث: (فما زال ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر) [١] وتقبل الله دعاءه بسبب هذا

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب: إجابة دعاء من برّ والديه، برقم (٥٩٧٤).

العمل، وانفرجت فرجة في باب الغار، والغريب في الحديث، أن الله سبحانه وتعالى قد قبل منه العمل، مع ما لقاه الأطفال من شدة، وكان يمكن أن يسقيهم ويُبْقِي ما يكفي والديه، ولكنه كره فقط أن يقع في شبهة تقديم أولاده على والديه ولو صوريًا. من منا الآن يقدر على بر والديه مثل هذا أو حتى قريبًا منه؟ وقد أطلت في العرض لخطورة الأمر.

الفائدة الرابعة: ثقة الصحابة، ببركة دعاء النبي، لقول أبي هريرة: (فخرجت مستبشرًا بدعوة النبي ﷺ). وفيه جواز طلب الدعاء من أهل الدين، ومن نظن فيهم خيرًا، وفيه رعاية النبي ﷺ لأصحابه، إذ كانوا يذهبون إليه ويشتكون إليه ما يجدون حتى من أقرب الناس إليهم، ولا يتحرجون أن يقولوا له عظيم الأمور، يقول أبو هريرة: (فأسمعتني فيك ما أكره)، ولا يجد هو ﷺ في نفسه غضاضة من هذا القول، بل يدعو الله لها بالهداية فتهتدي، وهذا من عظيم رحمته ﷺ وشفقته بالناس، مؤمنهم وكـافرهم، وصدق الله الذي يقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء :١٠٧] .

الفائدة الخامسة: عدم غضب النبي ﷺ لنفسه والانتقام لها، حيث دعا لمن قالت في حقه السوء، ودعا لها في نفس المجلس، ولو أنه شعر في نفسه غضبًا منها، ما دعا لها حتى يذهب ما في قلبه.

الفائدة السادسة: ما كان عليه الصحابة من تحقيق أمر العقيدة الصحيحة، وكانوا على علم وبصيرة بالأمور التي تخص الله وحده، ولا يشاركه فيها أحد، حتى أحب الخلق إليه، هو النبي ﷺ والذي علمهم ورباهم على التوحيد الخالص، قال أبو هريرة: (فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة).

ثم لما أسلمت أمه عاد إلى النبي ﷺ فقال له: (قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبي هريرة). فعلم الصحابي الجليل، أبو هريرة، رغم حداثة سنه، أن الدعاء للنبي ﷺ، والهداية لله وحده، فلم يخلط بين الأمرين، كما خلط كثير من الناس هذه الأيام.

الفائدة السابعة: من السنة حَمْدُ الله والثناء عليه، عند نزول النعم ورفع النقم، خاصة إذا كان بسبب استجابة الله لدعاء العبد، وعلى العبد ألا ينسى بعد استجابة الدعاء وتفريج الكروب صاحب الفضل سبحانه وتعالى، قال أبو هريرة حاكيًا عن النبي: (فحمد الله وأثنى عليه وقال خيرًا)، كما لم يَنْسَ أبو هريرة أن يبشر من دعا له وأجرى الله الخير على يديه، فبعد إسلام أم أبي هريرة، رجع إلى الرسول ﷺ كأنه يشكره (فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ فأتيته وأنا أبكي من الفرح). وهذه السنة يجب أن نتمثل بها، وألا ننسى من

أسدى إلينا معروفًا، وألا نتنكر لأصحاب الفضل بعد أن يقضي الله لنا حوائجنا بفضل شفاعتهم.

الفائدة الثامنة: ما كان عليه أصحاب النبي ﷺ من رقة القلب، وهذا ما يجب أن يكون عليه حال المسلم؛ لأن النبي ﷺ ذم الفظ الغليظ، روى البخاري، عَنْ مَعْبَدِ بْنِ خَالِدٍ قَالَ: سَمِعْتُ حَارِثَةَ بْنَ وَهْبٍ الْخُزَاعِيَّ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: **«أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ، أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ»** [(١)]، انظر إلى أبي هريرة بكى في الأولى من الحزن، وبكى في الآخرة من الفرح، وهذه عائشة رضي الله عنها تحكي عن أبيها فيما (رواه البخاري) (إن أبا بكر رجل أسيف إذا قام في مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس) [(٢)]، والأسيف، هو رقيق القلب، كثير البكاء، ومن يرى في نفسه قلة البكاء، فعليه أن يبكي على حاله.

الفائدة التاسعة: على المسلم أن يستزيد من الخير، خاصة إذا كان في حضرة الصالحين، وقد ذكرت ذلك، في حديث أم حرام، ويبدو هنا أن أبا هريرة قد أغراه استجابة الله دعاء نبيه بهداية أمه، فسأل النبي ﷺ أن يدعو الله أن يحببه وأمه إلى عباده المؤمنين، ويحبب المؤمنين إليهم.

الفائدة العاشرة: فضيلة الحب في الله عز وجل، وهو أن تحب المؤمنين، وأن يحبك المؤمنون، ليس لغرض دنيوي، ولكن لكونك مؤمنًا وهم مؤمنون، وقد حث النبي ﷺ على هذا الحب، فروى البخاري، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»** [(٣)].

والدليل على فضيلة الحب من الحديث، أن أبا هريرة، سأل النبي أن يحبب فيه المؤمنين وأن يحببه إلى المؤمنين، وما ذاك إلا لفضيلة الحب في الله، ولو لم يكن ذلك شيئًا مستحبًّا شرعًا، ما أقره النبي ﷺ على هذا الطلب، بل دعا له به، واستجاب الله الدعاء.

الفائدة الحادية عشرة: على كل مؤمن أن يحب أبا هريرة وأمه، وأن يجد في قلبه أثر هذا الحب، ومن لم يجده، فعليه أن يقرأ مناقب أبي هريرة وأمه، حتى يتشبع قلبه بحبهما، فإن لم

(١) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٣]، برقم (٤٩١٨).
(٢) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب: حد المريض أن يشهد الجماعة، برقم (٦٦٤).
(٣) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب: حلاوة الإيمان، برقم (١٦).

يجد هذا الحب، فليعلم أن في قلبه شيئًا وأن إيمانه لم يكمل؛ لأن النبي ﷺ دعا لهما أن يحبهما كل عباد الله المؤمنين، ولم يخص طائفة دون طائفة، ولا زمنًا دون زمن، فكونك لا تحبهما فمعناه أن إيمانك ناقص، وأن دعوة النبي ﷺ لم تشملك.

١٦- تكثير الطعام والشراب:

عن أَبِيَ هُرَيْرَةَ كَانَ يَقُولُ: (أَللَّهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِنْ كُنْتُ لأَعْتَمِدُ بِكَبِدِي عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْجُوعِ وَإِنْ كُنْتُ لأَشُدُّ الْحَجَرَ عَلَى بَطْنِي مِنَ الْجُوعِ، وَلَقَدْ قَعَدْتُ يَوْمًا عَلَى طَرِيقِهِمِ الَّذِي يَخْرُجُونَ مِنْهُ، فَمَرَّ أَبُو بَكْرٍ فَسَأَلْتُهُ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَا سَأَلْتُهُ إِلاَّ لِيُشْبِعَنِي، فَمَرَّ وَلَمْ يَفْعَلْ، ثُمَّ مَرَّ بِي عُمَرُ فَسَأَلْتُهُ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَا سَأَلْتُهُ إِلاَّ لِيُشْبِعَنِي، فَمَرَّ فَلَمْ يَفْعَلْ، ثُمَّ مَرَّ بِي أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ فَتَبَسَّمَ حِينَ رَآنِي وَعَرَفَ مَا فِي نَفْسِي وَمَا فِي وَجْهِي ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا هِرٍّ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «الْحَقْ» وَمَضَى فَتَبِعْتُهُ فَدَخَلَ فَاسْتَأْذَنَ فَأَذِنَ لِي فَدَخَلَ فَوَجَدَ لَبَنًا فِي قَدَحٍ فَقَالَ: «مِنْ أَيْنَ هَذَا اللَّبَنُ؟» قَالُوا: أَهْدَاهُ لَكَ فُلاَنٌ أَوْ فُلاَنَةُ قَالَ: «أَبَا هِرٍّ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «الْحَقْ إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ فَادْعُهُمْ لِي» قَالَ: وَأَهْلُ الصُّفَّةِ أَضْيَافُ الإِسْلاَمِ لاَ يَأْوُونَ إِلَى أَهْلٍ وَلاَ مَالٍ وَلاَ عَلَى أَحَدٍ إِذَا أَتَتْهُ صَدَقَةٌ بَعَثَ بِهَا إِلَيْهِمْ وَلَمْ يَتَنَاوَلْ مِنْهَا شَيْئًا وَإِذَا أَتَتْهُ هَدِيَّةٌ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ وَأَصَابَ مِنْهَا وَأَشْرَكَهُمْ فِيهَا فَسَاءَنِي ذَلِكَ فَقُلْتُ: وَمَا هَذَا اللَّبَنُ فِي أَهْلِ الصُّفَّةِ؟ كُنْتُ أَحَقَّ أَنَا أَنْ أُصِيبَ مِنْ هَذَا اللَّبَنِ شَرْبَةً أَتَقَوَّى بِهَا فَإِذَا جَاءَ أَمَرَنِي فَكُنْتُ أَنَا أُعْطِيهِمْ وَمَا عَسَى أَنْ يَبْلُغَنِي مِنْ هَذَا اللَّبَنِ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ بُدٌّ، فَأَتَيْتُهُمْ فَدَعَوْتُهُمْ فَأَقْبَلُوا فَاسْتَأْذَنُوا فَأَذِنَ لَهُمْ وَأَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ مِنَ الْبَيْتِ قَالَ: «يَا أَبَا هِرٍّ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «خُذْ فَأَعْطِهِمْ» قَالَ: فَأَخَذْتُ الْقَدَحَ فَجَعَلْتُ أُعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرْوَى ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ فَأُعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرْوَى ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرْوَى ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ رَوِيَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ فَأَخَذَ الْقَدَحَ فَوَضَعَهُ عَلَى يَدِهِ فَنَظَرَ إِلَيَّ فَتَبَسَّمَ فَقَالَ: «أَبَا هِرٍّ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «بَقِيتُ أَنَا وَأَنْتَ» قُلْتُ: صَدَقْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «اقْعُدْ فَاشْرَبْ» فَقَعَدْتُ فَشَرِبْتُ فَقَالَ: «اشْرَبْ» فَشَرِبْتُ فَمَا زَالَ يَقُولُ: «اشْرَبْ»، حَتَّى قُلْتُ: لاَ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَجِدُ لَهُ مَسْلَكًا قَالَ: «فَأَرِنِي» فَأَعْطَيْتُهُ الْقَدَحَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَسَمَّى وَشَرِبَ الْفَضْلَةَ) (١).

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب: كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه، برقم (٦٤٥٢).

الشاهد في الحديث:

أن قدح اللبن قد شرب منه سبعون من أهل الصفة كما ورد في روايات الحديث، وشرب منه أبو هريرة والنبي ﷺ، وبقى منه، ويبدو أن القدح لم يكن مملوءًا، لقول أبي هريرة (فوجد لبنًا في قدح)، ولم يقل: وجد قدحًا مملوءًا لبنًا، وهي معجزة ظاهرة للنبي ﷺ، وانظر كيف شرب كل رجل عن جوع حتى رَوِيَ.

فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: فيما يخص النبي ﷺ:

١ - فراسة النبي ﷺ، حيث عرف ما في نفس ووجه أبي هريرة، دون أن يسأله عن شيء، فعلم أنه يريد أن يدعوه أحد إلى طعام يسد جوعه، وما في وجهه هو علامات الجوع، وأقول: إن ذلك كان فراسة من النبي ﷺ؛ لأن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، قد مَرَّا على أبي هريرة وكلماه ولم يفطنا إلى ما يريد، أما الرسول ﷺ، فعرف ما به دون أن يكلمه، ويتفرع على ذلك، أن الفراسة منحة من الله سبحانه وتعالى وأن الناس يتفاوتون فيها بين مكثر ومقل.

٢ - تلطف النبي ﷺ مع أصحابه، ولو كانوا خدمًا أو فقراء يتبين ذلك من المواقف التالية:

أ-) تبسمه لأبي هريرة، حين رآه يجلس على الطريق، وذلك ليطمئنه أنه قد عرف ما به، ويبشره بالخير.

ب) مناداته أبا هريرة، بكنيته، بل بصيغة التصغير «أبا هر» زيادة في التلطف، وهذا هو الذي يجب أن يكون عليه المسلم، مع الخدم والفقراء، لا أن يترفع عليهم ويزدريهم، ويستكبر أن يناديهم بأسمائهم، فيشير إليهم إشارة، والبعض يترفع غاية الترفع، أن يأكل معهم، وكل ذلك مخالف للسنة.

ج) تبسمه مرة أخرى لأبي هريرة، بعد أن شرب القوم جميعًا، كأنه يقول له: كنت أعلم ما في نفسك وخوفك أن اللبن لن يبلغك، وتلطفه بقوله: «**بقيتُ أنا وأنت**».

٣ - تورعه ﷺ عن أكل الحرام وحرصه على ذلك، حيث سأل عن اللبن الذي وجده في القدح، ليعلم أهو صدقة أم هدية؛ لأن الأكل من الصدقة حرام على الأنبياء، ويتفرع على هذا أن المسلم إذا وجد مالاً أو طعامًا، واستشكل عليه أمره، يجب عليه أن يسأل عنه،

ولو كان في بيته، خاصة إذا اعتاد أن يضع الناس عنده أمانات، ولا يقول: الأصل الإباحة، وليعلم كل مسلم أن أكل الحرام يُذْهِب تقوى القلب، ونضرة الوجه، وهو الذي يرد دعوة المسلم، كما ورد في الحديث الذي رواه مسلم وفيه: (ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟) [١].

٤ - مراقبة الله عز وجل لأحوال نبيه، وعدم إساءته في ضيفه، ولذلك رزقه اللبن، فالنبي دعا أبا هريرة لما رأى عليه علامات الجوع، وما كان النبي يعلم أن في البيت شيئًا يُطْعِمه ضَيْفَه، قال أبو هريرة: (فوجد لبنًا في قدح)، وهذه تكرمة من الله لرسوله ﷺ.

٥ - تواضعه ﷺ، ويتبين ذلك من:

أ) دعوته أبا هريرة إلى بيته، ولم يُحِلْه إلى أحد الصحابة الأغنياء، ليتولى ذلك، ثم دعوته بقية أهل الصفة الفقراء، ليشاركوه الشراب.

ب) شربه من القدح، بعد أنْ شرب القوم جميعًا، ولم يترفع عن ذلك، ولم يجد غضاضة أن يشرب من نفس القدح، ويقول أبو هريرة: (فشرب الفضلة) أي الذي بقي بعد شبع القوم.

٦- تربيته القولية والفعلية للأمة: تتمثل القولية في قوله ﷺ لأبي هريرة: «اقعد فاشرب» فأمره بأدب الشراب والطعام، وهو القعود، أما التربية الفعلية، فقد سمى قبل أن يشرب، فتعلمها أبو هريرة، وحفظها ونقلها للأمة، فكانت التسمية أدبًا لها إلى يوم القيامة.

٧ - إيثاره ﷺ: ويتبين ذلك من:

أ - تعوده ﷺ أن يشاركه أهل الصفة الهدية، مع أنه كان يرسل إليهم كامل الصدقة، ولم يقل: الصدقة لهم، والهدية لي.

ب - أمره أبا هريرة أن يشرب قبله، ويأمره أن يشرب عدة مرات، حتى غاية الشبع.

٨ - كمال عبوديته لله عز وجل، حيث حمد الله، بعد أن شرب القوم كلهم، فثناؤه على الله، كان بمناسبة البركة التي جرت على يديه في اللبن، حتى شرب القوم عن آخرهم، وكان من دأبه ﷺ، أن يُرْجِع الفضلَ لله، سبحانه وتعالى، ويثني عليه بذلك،

(١) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب: قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، برقم (١٠١٥).

فتتعلم أمته هذا الهدي النبوي، قال أبو هريرة: (فحمد الله وأثنى عليه).

الفائدة الثانية: مناقب أبي هريرة:

١- استعفافه: حيث إنه لم يسأل الناس رغم شدة جوعه، حتى ظن من يمر به أن به صرعًا أو جنونًا، ومع ذلك استعفف ولم يسأل، والله قد رباهم على ذلك، حيث مدح في كتابه العزيز هذه الطائفة، فقال: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة:٢٧٣]، كما رباهم النبي ﷺ على ذلك، فقد روى البخاري بإسناده عَن الشَّعْبِيِّ قال: حَدَّثَنِي كَاتِبُ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ: كَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ أَنِ اكْتُبْ إِلَيَّ بِشَيْءٍ سَمِعْتَهُ مِن النَّبِيِّ ﷺ فَكَتَبَ إِلَيْهِ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ»(١)، فإذا كان أبو هريرة قد تعفف عن سؤال ينجيه من الهلاك، فمن باب أولى، أن يتعفف المسلم عن سؤال ما يكمل به حياته، وأن يتعفف من باب أولى في باب العبادات، ومثاله، الذين يطلبون الحج مع الناس لينفقوا عليهم، ولا يجدون في ذلك غضاضة في أنفسهم، أو يخرجون من بيوتهم قاصدين الحج، وليس معهم زاد، ويقولون نحن المتوكلون، وفي نيتهم النزول عالة على غيرهم، هذا كله مخالف لسنة الحبيب ﷺ.

٢ - كمال طاعته للرسول ﷺ: يتبين ذلك من:

أ- مسارعته إلى دعوة أهل الصفة، امتثالاً لأمر النبي ﷺ، مع ما كان يشعر به من جوع، واعتقاد أنه أولى الناس بهذا اللبن، ليتقوى به، فلم يجادل أو يراجع النبي ﷺ في أمره، بل لم يطلب منه أن يشرب من اللبن قبل دعوة أهل الصفة، ليذهب ما يجده من شدة الضعف، وهذا أدب ما بعده أدب، امتثلوا أمر الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات:١]، وفهموا أن عدم التقديم يشمل كل شيء، في العبادات والعادات.

ب- طاعته للرسول، في تكرار الشرب من القدح حتى امتلأت معدته، ولم يتوقف عن الشرب إلا بعد عدم وجود منفذ للزيادة، كأنه إذا زاد من اللبن، فلن يصل إلى معدته، وكان من أدبه أنه لم يَرُدّ أمر النبي بزيادة الشرب تصريحًا، بل قَدَّمَ العذر الخارج عن إرادته، فقال: ما أجد له مسلكًا.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب: قول الله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]، برقم (١٤٧٧).

٣- فقهه رضي الله عنه:

أ- جعل طاعة الرسول من طاعة الله سبحانه وتعالى، ولم يفرق بينهما، ورأى أن ذهابه بأمر الرسول لدعوة أهل الصفة، هو طاعة لله عز وجل فيكون عدم ذهابه، معصية لله عز وجل، هكذا كانوا يرون طاعة الرسول من طاعة الله، سبحانه وتعالى، في كل كبير وصغير، قال أبو هريرة: ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بُدّ.

يتفرع على ذلك، أن نحكم على كل من يفرق بين طاعة الله وطاعة رسوله، بالضلال المبين، فتارة يقولون: ما كان في كتاب الله أخذنا به، وما كان في السنة ففيه نظر، وتارة يقولون: أوامر القرآن واجبة، أما أوامر السنة فهي على سبيل الاستحباب، لا الوجوب، وفَهْمُ الصحابة حجةٌ على هؤلاء، بل قول الله تعالى حجة على الجميع، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء:٨٠]، فمن فرق بين أمر الله وأمر الرسول ﷺ فقد كذب بهذه الآية الكريمة.

ب- تعظيمه لأمر الوحي، من جهتين:

الأولى: أقسم به ليغلظ القسم.

الثانية: وَصْفُه بالحق، فقال: (لا والذي بعثك بالحق).

٤- خبرته وعلمه بأحوال النبي ﷺ، حيث يعلم أن أهل الصفة إذا جاءوا سيأمره النبي ﷺ أن يناولهم القدح، وذلك من كثرة ملازمته للنبي ﷺ ودخوله عليه، قال: (فإذا جاء أمرني فكنت أنا أعطيهم).

٥- كمال أدبه مع النبي ﷺ، حيث كان يرد نداءه بقوله: (لبيك يا رسول الله)، وأرى أن ذلك يدل على كمال الأدب، مع عظيم الحب، وليس الأدب وحده، ويتفرع على ذلك أن جملة (لبيك وسعديك) لا يختص بها الله عز وجل، ويجوز أن يَرُدّ بها الرجلُ دعوةَ أهل العلم والفضل، حيث لم يثبت أنها من خصوصيات الرسول، ولكن ينبغي ألا نتوسع فيها، حتى لا تصبح كلمة فارغة عن محتواها فتكون كلمة لا معنى لها ولا قيمة، كما يمشي الرجل فيقول لكل من يقابله: (ادع الله لي).

الفائدة الثالثة: وجود الفقراء وأهل العوز في المجتمع الإسلامي، وهذا علقت عليه بالتفصيل في حديث: «**ذهب أهل الدثور**» ولكن أزيد هنا، أن على أفراد المجتمع أن يطعموهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، خاصة الوالي لقول أبي هريرة: (إذ أتته صدقة بعث

بها إليهم ولم يتناول منها شيئًا وإذا أتته هدية أرسل إليهم).

الفائدة الرابعة: لا حرج أن يجد المسلم في نفسه شيئًا، إذا علم أن أحدًا سيشاركه طعامًا أو شرابًا هو أحوج الناس إليه، وهذا الأمر مجبول عليه الناس، يتبين ذلك، من قول أبي هريرة لما أمره النبي ﷺ أن يدعو أهل الصفة (فساءني ذلك)، وقوله أيضًا: (كنت أحق أنا أن أصيب من هذا اللبن)، وما ذهب ودعا أهل الصفة ليشاركوه في اللبن إلا اضطرارًا، ولو كان الأمر بيده ما ذهب، وقال مبررًا ذهابه لأهل الصفة: (ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بد)، وعلمنا أن ما شعر به أبو هريرة ليس فيه مذمة له؛ لأن النبي ﷺ علم ما شعر به أبو هريرة، ولم يَلُمْه على ذلك، أو يبين له أن ما شعر به خطأ، قال أبو هريرة بعدما شرب القوم: (فوضعه على يده فنظر إليَّ فتبسم) وتبسمه ﷺ لعلمه بما كان يجول في خاطر أبي هريرة.

يتفرع على ذلك أن الإسلام دين فطرة، لا يصطدم مع طبيعة الإنسان البشرية، وما تشعر به في بعض الأوقات، مثل إيثار النفس على الغير عند مشارفة الهلاك ليس فيه شيء. وتعاليمُ الإسلام تهذب مشاعر الإنسان وتطوعها وتربيها، ولكن لا تلغيها وتقضي عليها.

وأضرب مثلاً لذلك للتقريب، ما يشعر به الشاب المسلم من غريزة تجاه الجنس الآخر، وقد تكون في بعض الأحيان قوية جدًا، لم يحرم الإسلام ما يجده الشاب من هذه الغريزة، ولم يجعل وجودها محرمًا، بل أرشد إلى العلاج الناجع، فقد روى البخاري، عَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ: بَيْنَا أَنَا أَمْشِي مَعَ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه فَقَالَ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «مَنِ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ»[1].

وسبحان الذي جعل الإسلام وسطًا، بين الإباحية التي دمرت العالم، حيث أعطت للإنسان حرية أن يقضي شهوته بأي وسيلة كانت، حتى ولو كانت الوقوع على المحارم، أو زواج الجنس الواحد، وبين التبتل والرهبنة، والتي تفضي على قطع الحرث والنسل، وقبل ذلك وبعده، تصطدم مع فطرة الله التي فطر الناس عليها.

الفائدة الخامسة: وجوب الاستئذان، حتى لو كان الضيف مرافقًا لصاحب البيت، فعليه أن يستأذن منه قبل أن يدخل، والاستئذانُ شأنه عظيم، علمنا ذلك، أن الله أمرنا به في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب: الصوم لمن خاف على نفسه العُزْبة، برقم (١٩٠٥).

﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ﴾ [النور: ٢٧]، قال المفسرون: الاستئناس يشمل الاستئذان، بل هو خُلق أعلى من مجرد الاستئذان؛ لأننا لن ندخل بيتًا، حتى نعلم استعداد أهل البيت لاستضافتنا، فقد يكون الوقت غير مناسب، أو عندهم ما يشغلهم فلا تجوز الزيارة أصلاً، ومن كمال الاستئناس أن نستأذن حتى يأخذ أهل البيت أهبتهم.

والحكمة من الاستئذان، هو النظر، حتى لا يقع بصر الضيف إلى عورات الناس، أو إلى ما يكره، ومن تمام أدب الاستئذان ألا يتعدى ثلاث مرات فإن أذن له وإلا رجع. ومن آداب الاستئذان، أن يرجع الضيف إذا قيل له: ارجع، قال تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُوا۟ فَٱرۡجِعُوا۟ۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ﴾ [النور :٢٨] وهذا الأدب الأخير ندر من يعمل به، رغم أننا نقرأه في القرآن صباحًا ومساءً، فيستحي صاحب البيت أن يقول للضيف: ارجع، ويشق على الضيف أن يسمعها.

الفائدة السادسة: أدب الضيافة، أن يناول المضيف القدح ضيفًا ضيفًا، فلا يجعلهم يتناولونه فيما بينهم، قال أبو هريرة: (فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد عليّ القدح فأعطيه الرجل) هكذا فعل أبو هريرة حتى شرب أهل الصفة عن آخرهم، وهذا الأدب هو حق للأضياف، ولو كانوا فقراء، انظر إلى أدب إبراهيم عليه السلام مع أضيافه كيف قَرَّبَ إليهم الطعام، ولم يقل لهم: هلموا إلى الطعام، قال تعالى: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ [الذاريات:٢٧] . والذي يدلنا على حب الله لهذا الأدب ذِكْرُه في القرآن في معرض الثناء على ابراهيم ﷺ.

الفائدة السابعة: ذم امتلاء المعدة من الأكل والشرب، والحث أن يجعل المسلم جزءًا لطعامه وجزءًا لشرابه وجزءًا لنفسه هو الأصل، ولكن يجوز في بعض الأحوال أن يشبع المسلم حتى الامتلاء، وذلك في حالة جوعه الشديد، خاصة إذا علم أنه قد لا يجد بعد ذلك طعامًا أو شرابًا، أو في حالة معرفته وجود بركة في الطعام المقدم له، وأن الذي يأمره بالزيادة، هو من أهل الصلاح والتقوى.

الأحاديث التي وردت في هذه المعجزة الظاهرة، وهي تكثير الطعام والشراب ببركة يد الرسول ﷺ أو دعائه كثيرة جدًا، أورد بعض الأمثلة منها:

الحديث الأول:

عن أَبِي هُرَيْرَةَ أَوْ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ - شَكَّ الْأَعْمَشُ - قَالَ: لَمَّا كَانَ غَزْوَةُ تَبُوكَ أَصَابَ

النَّاسَ مَجَاعَةٌ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أَذِنْتَ لَنَا فَنَحَرْنَا نَوَاضِحَنَا فَأَكَلْنَا وَادَّهَنَّا!! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «افْعَلُوا» قَالَ: فَجَاءَ عُمَرُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ فَعَلْتَ قَلَّ الظَّهْرُ وَلَكِن ادْعُهُمْ بِفَضْلِ أَزْوَادِهِمْ ثُمَّ ادْعُ اللَّهَ لَهُمْ عَلَيْهَا بِالْبَرَكَةِ؛ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ فِي ذَلِكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ» قَالَ: فَدَعَا بِنِطَعٍ فَبَسَطَهُ ثُمَّ دَعَا بِفَضْلِ أَزْوَادِهِمْ قَالَ: فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَجِيءُ بِكَفِّ ذُرَةٍ قَالَ: وَيَجِيءُ الآخَرُ بِكَفِّ تَمْرٍ قَالَ: وَيَجِيءُ الآخَرُ بِكَسْرَةٍ حَتَّى اجْتَمَعَ عَلَى النِّطَعِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ يَسِيرٌ قَالَ: فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِ بِالْبَرَكَةِ ثُمَّ قَالَ: «خُذُوا فِي أَوْعِيَتِكُمْ» قَالَ: فَأَخَذُوا فِي أَوْعِيَتِهِمْ حَتَّى مَا تَرَكُوا فِي الْعَسْكَرِ وِعَاءً إِلاَّ مَلَئُوهُ قَالَ: فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا وَفَضَلَتْ فَضْلَةٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ لاَ يَلْقَى اللَّهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فَيُحْجَبَ عَنِ الْجَنَّةِ» (١). (رواه مسلم).

الحديث الثاني:

عن أُمِّ مَالِكٍ كَانَتْ تُهْدِي لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي عُكَّةٍ لَهَا سَمْنًا فَيَأْتِيهَا بَنُوهَا فَيَسْأَلُونَ الأُدْمَ وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ شَيْءٌ فَتَعْمِدُ إِلَى الَّذِي كَانَتْ تُهْدِي فِيهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَتَجِدُ فِيهِ سَمْنًا فَمَا زَالَ يُقِيمُ لَهَا أُدْمَ بَيْتِهَا حَتَّى عَصَرَتْهُ فَأَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «عَصَرْتِيهَا؟» قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: «لَوْ تَرَكْتِيهَا مَا زَالَ قَائِمًا» (٢). (رواه مسلم).

الحديث الثالث:

عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ فَقَالَ: لَوْ كُنَّا مِائَةَ أَلْفٍ لَكَفَانَا كُنَّا أَلْفًا وَخَمْسَ مِائَةٍ (٣). رواه مسلم مختصرًا من حديث طويل.

هذا مختصر من الحديث الصحيح في بئر الحديبية، ومعناه أن الصحابة لما وصلوا الحديبية وجدوا بئرًا إنما تَبِزُّ مثل الشراك فبصق النبي فيها، ودعا فيها بالبركة وكأن السائل في هذا الحديث علم أصل الحديث والمعجزة في تكثير الماء ولم يعلم عددهم فأخبره جابر أنهم كانوا ألفًا وخمسمائة ولو كانوا مائة ألف لكفاهم الماء.

١٧- الشفاء بالتفل

عَنْ أَبِي حَازِمٍ قَالَ أَخْبَرَنِي سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة، برقم (٢٧).
(٢) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب: في معجزات النبي ﷺ، برقم (٢٢٨٠).
(٣) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب: استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال. برقم (١٨٥٦).

قَالَ: فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ» فَقِيلَ: هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، قَالَ: «فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ» فَأُتِيَ بِهِ فَبَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا فَقَالَ: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ، فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»[١]. (رواه البخاري).

الشاهد في الحديث:

أن عليًّا رضي الله عنه قد اشتكى عينه، فبصق فيها النبي ﷺ، ودعا له، فطابت مباشرة، ورجعت كما كانت قبل الوجع، وهي معجزة ظاهرة للنبي ﷺ ومن دلائل نبوته، ويبدو أن الوجع كان شديدًا، لمعرفة الصحابة أنه يشتكي عينيه، ولو كان أمرًا عارضًا بسيطًا، ما اشتهر وتناقله الصحابة ولَمَّا تخلف عليٌّ عن حضور مجلس النبي ﷺ، والذي سيبشر فيه أصحابه بمن يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، قال الراوي: **«فقال أين علي بن أبي طالب؟» فقيل**: هو يا رسول الله يشتكي عينيه. ولفظ: (أتي به) يدل على الوجع الشديد، ففي الحديث فضل ريق النبي ﷺ التي تشفي - بإذن الله - من الأمراض، بمجرد أن تصيب مكان الداء، وسبحان من قضى أن يجعل في كل ما يتعلق برسوله ﷺ البركة، حتى بصاقه، حيث كان من الممكن أن يضع النبي يديه الشريفتين على عينيه فتبرأ، أو يكتفي بالدعاء فتشفى، ولكن الله عز وجل، أراد أن يظهر لنا عظيم قدر نبيه، واعتناءه به، فنوع له المعجزات وجعل كل شيء منه وفيه مباركًا، فيزداد الذين آمنوا إيمانًا.

وفي الحديث فوائد:

الفائدة الأولى: إطلاع الله عز وجل، نبيه ﷺ ببعض أمور الغيب، وهذا من دلائل نبوته ﷺ، حيث أعلم أصحابه رضي الله عنهم أنه ستكون مواجهة بين المسلمين واليهود، وستكون الغلبة فيها للمسلمين، قال: **«لأعطين هذه الراية غدًا رجلاً يفتح الله على يديه»**، وأقول: إنها من دلائل نبوته؛ لأن المعركة لا يعلم المنتصر فيها والمهزوم، إلا الله سبحانه وتعالى، الذي بيده الأمر كله، والغيب عنده حاضر، فمن أوحى لنبيه بنتيجة الموقعة

(١) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب: مناقب علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي، برقم (٣٧٠١).

إلا الله عز وجل، ولو لم يكن نبيًا، ما تجرأ أن يقول لأصحابه ما سيحدث في الغد القريب، بل إنه لم يستثن، أي لم يقل: «إن شاء الله» لأن الذي أخبره بالنصر غدًا لن يُخلِفَ وعده، فكأنه يخبر بما أوحى الله إليه.

الفائدة الثانية: تعليم النبي ﷺ أصحابه أن الفتح والنصر بيد الله عز وجل، لا بيد غيره، وهي من أمور العقيدة، التي ينبغي أن نتعلمها جميعًا، ونُعَلمها أولادنا.

فإذا كان الأمر كذلك، وجب على المسلمين أن يستنصروا الله وحده على أعدائهم، وألا يأملوا في وجه أحد غيره، قال رسول الله ﷺ: «**لأعطين هذه الراية غدًا رجلاً يفتح الله على يديه**»، يصدق ذلك قوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، فبينت الآية غاية البيان، أن النصر بيد الله، وإذا كان الله مع فئة ونَصَرَها، فلن يغلبها أحد، حيث لا قوة تنفع مع قوته، سبحانه وتعالى، وكما يكون النصر من عنده، فالخذلان وعدم التوفيق أيضًا بيديه، وإذا حدث، فلا ينفع أبدًا نصر أحد لنا مع عدم توفيق المولى جل في علاه.

يتفرع على ما سبق، وجوب طاعة الله سبحانه وتعالى، بالتزام أوامره واجتناب نواهيه، وكذا سنة نبينا ﷺ؛ لأن هذا شرط في نصرة الله لنا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وما عند الله لا يؤخذ إلا بطاعته وإرضائه.

الفائدة الثالثة: **مناقب علي رضي الله عنه**:

١ - جعل الله فتح خيبر على يديه، وهذه تكرمة عظيمة من الله له؛ لأن الفتح عمل يحبه الله ورسوله، لما فيه من انتشار الإسلام وعلو كلمة التوحيد.

٢ - ثبوت حب الله ورسوله لعلي، وثبوت حب علي لله ورسوله، وهما معًا منقبتان عظيمتان لعلي رضي الله عنه.

الفائدة الرابعة: الحث على حب علي، لكون الله يحبه وكذلك رسوله، ولا يسع أحدًا من المسلمين ألا يحب أحدًا من أصحاب النبي ﷺ، خاصة الخلفاء الراشدين، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، ثم العشرة المبشرين بالجنة، ثم أهل بدر، ثم أهل العقبة الأولى والثانية، ثم بقية الأصحاب رضوان الله عليهم جميعًا، الذين اصطفاهم الله عز وجل، لنصرة نبيه، وحمل راية الإسلام، ونشر الدعوة، وهم الذين مات النبي ﷺ، وهو عنهم راضٍ.

الفائدة الخامسة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على الخير ومعرفة أهل الفضل،

وحبهم أن ينالهم شرف حب الله ورسوله وأن يكون النصر على أيديهم، لقوله: (فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها)، وقوله: (فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله كلهم يرجو أن يُعْطاها) ومعنى «يدوكون» أي يخوضون في الحديث، كأنهم قضوا ليلتهم كلها، كل منهم يخمن من ينطبق عليه شروط إعطاء الراية، ويمكن أن نستدل بقوله: (كلهم يرجو أن يعطاها) أنهم كانوا جميعًا يحبون الله ورسوله، كما يأملون حب الله ورسوله لكل واحد منهم، لذا رأى كل منهم الشرط ينطبق عليه، وهذه فضيلة ظاهرة لهم.

الفائدة السادسة: تغليب جانب الدعوة لغير المسلمين على جانب القتال، وقد ذكر ابن حجر، بأن تآلف الكافر حتى يسلم، أولى من المبادرة إلى قتله، لقوله: **«فوالله لأن يهدي بك الله رجلاً واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم»**.

ويتفرع على التبشير بهذا الأجر العظيم، المترتب على هداية أحد الناس، حث المسلمين على الدعوة إلى الله، وترغيبهم في ذلك، وأن على المسلم أن يبذل غاية جهده ليتحقق مراد الله وهو هداية الناس.

الفائدة السابعة: الهداية بيد الله، سبحانه وتعالى، يهدي من يشاء وقتما شاء، وأن الداعي إلى الله، هو سبب فقط في تلك الهداية، لقوله: **«لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا»**، ونأخذ منه أيضًا، حب الله سبحانه وتعالى، أن يعود الناس لحظيرة الإسلام، وأن رحمته قد سبقت غضبه، وأن العفو عنده مقدم على العقاب، ودليله، أنه رتب الأجر العظيم على هداية رجل واحد.

١٨- طيب عرقه وكفه ﷺ:

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَزْهَرَ اللَّوْنِ كَأَنَّ عَرَقَهُ اللُّؤْلُؤُ، إِذَا مَشَى تَكَفَّأَ، وَلاَ مَسِسْتُ دِيبَاجَةً وَلاَ حَرِيرَةً أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلاَ شَمِمْتُ مِسْكَةً وَلاَ عَنْبَرَةً أَطْيَبَ مِنْ رَائِحَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) (١). (رواه مسلم).

الشاهد في الحديث:

قول أنس رضي الله عنه: (كأن عرقه اللؤلؤ) وقوله: (ولا شممت مسكة ولا عنبرة أطيب من رائحة رسول الله ﷺ).

(١) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب: طيب رائحة النبي ﷺ ولين مسه...، برقم (٢٣٣٠).

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: في الشمائل النبوية:

١ - جمال وجهه ﷺ لقول أنس رضي الله عنه: (كان رسول الله ﷺ أزهر اللون)، ومعناه الأبيض المستنير، وهي أحسن الألوان، ذكره ابن حجر [(١)]. وجمال وجهه ﷺ دلت عليه أحاديث كثيرة، منها ما (رواه البخاري)، عن أبي إسحاق قال: سئل البراء أكان وجه النبي ﷺ مثل السيف؟ قال: لا بل مثل القمر، كما ورد في حديث الثلاثة الذين خلفوا في الصحيحين: (وكان رسول الله ﷺ إذ سُرّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر)، ولم يحرمه الله سبحانه وتعالى، من هذا الجمال في الوجه، حتى يوم موته فعند البخاري من حديث أنس بن مالك: (فكشف النبي ﷺ ستر الحجرة ينظر إلينا وهو قائم كأنه وجهه ورقة مصحف).

ويتفرع عليه، أن حسن الوجه وجماله، شيء محمود في المرء، يَشْكر العبدُ رَبَّه عليه.

٢ - جمال عَرَقه: لقول أنس: (كأن عرقه اللؤلؤ)، فهذا وصف جمال شكل العرق فهو كاللؤلؤ في الصفاء والبياض، وورد في حديث الإفك عند البخاري من حديث عائشة [(٢)]: حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق، والجمان حبات اللؤلؤ، أما عن جمال الرائحة، فيقول أنس: (ولا شممت مسكة ولا عنبرة أطيب من رائحة رسول الله ﷺ). قال ابن حجر: الأول معروف، والثاني طيب معمول من أخلاط يجمعها الزعفران وقيل: هو الزعفران نفسه. انتهى [(٣)].

والدليل أن عرقه ﷺ أطيب وأجمل رائحة من كل أنواع العطر، أن الصحابة كانوا يخلطون عرقه بطيبهم، فقد روى مسلم، عن أم سليم أن النبي كان يأتيها فَيَقِيلُ عندها فَتَبْسُط له نِطْعًا فَيَقِيلُ عليه وكان كثيرَ العرق، فكانت تجمع عرقه فتجعله في الطيب والقوارير، فقال النبي ﷺ: «يا أم سليم، ما هذا؟» قالت: عَرَقُك أَدُوفُ به طِيبي - ومعنى أدوف به طيبي، أي أخلطه به، وأظن أنها كانت تفعل ذلك ليزداد الطيب طيبًا على طيبه، بخلاف البركة التي تحل به.

وتأمل أخي القارئ كم يصرف أصحاب المناصب والوجاهة من أموال لتكون لهم

---

(١) انظر فتح الباري (٦/ ٥٧٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ...﴾ [النور: ١٢]، برقم (٤٧٥٠).

(٣) انظر فتح الباري (٦/ ٥٧٧).

رائحة زكية عطرة تُعْجب الناس فلا يتقززون منهم، وكم تمكث هذه الرائحة الزكية، ثم ما تلبث أن تذهب وتخرج الرائحة الكريهة إذا لم يتدارك الإنسان نفسه، فضلاً عن اضطراره إلى الاغتسال صباحًا ومساءً ليحافظ على رائحته الجميلة، ولكن الله، سبحانه وتعالى، قد كفى نبيه ﷺ مؤونة ذلك، فما كان يزيده العرق إلا جمالاً في الوجه وطيبًا في الرائحة، إذن ما احتاج النبي ﷺ أبدًا أن يغتسل ليذهب أثر العرق، كما يفعل بقية الخلق، ولا نعلم أحدًا يشابهه في ذلك إلا أهل الجنة الذين سلموا من كل سوء ومكروه، حيث ورد عند البخاري من حديث أبي هريرة عن بعض صفات أهل الجنة: **«ورشحهم المسك»** [1]. فسبحان الله العظيم، الذي جمع لنبيه ﷺ، حسن الخلق والخِلْقة، وجمال الباطن والظاهر.

٣ - لين كفه ﷺ، لقول أنس: ولا مسست ديباجة ولا حريرة ألين من كف رسول الله ﷺ: (والديباج نوع من أنواع الحرير)، قال ابن حجر في الفتح: لا تعارض بين هذا الحديث وما رواه أنس أنه كان ضخم اليدين والقدمين وأنه كان شثن الكفين والقدمين أي غليظهما في خشونة، والجمع بينهما، أن المراد اللين في الجلد والغلظ في العظام فيجتمع له نعومة البدن وقوته أو حيث وصف باللين واللطافة حيث لا يعمل بهما شيئًا كان بالنسبة إلى أصل الخلقة وحيث وصف بالغلظ والخشونة فهو بالنسبة إلى امتهانها بالعمل. انتهى كلامه رحمه الله.

وأعتقد أن من ضمن ما حبا الله كف نبيه ﷺ بما يلائم ليونته، ويزيد الكف جمالاً على جماله، أن جعل الله سبحانه وتعالى هذا الكف أبرد من الثلج، فقد روى البخاري: **«عن أنس رضي الله عنه قال: ولا مَسِسْتُ خزة ولا حريرة ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شممتُ مِسكةً ولا عنبرة أطيب رائحةً من رائحةِ رسول الله ﷺ»** فاليد أطيب من المسك والجلد ألين من الحرير والملمس أبرد من الثلج، فهل بقي بعد ذلك شيء.

وهذا أيضًا من أنواع الكمال والجمال البشري الذي حبا الله به نبيه ﷺ، فلو اقتصر الأمر على ليونة ونعومة اليد لكان نقصًا في الكمال، ولو اقتصر على الغلظ في العظام لكان نقصًا في الجمال، وفيه أيضًا إظهار لكمال قدرة الله في الخلق، إذ خلق الأشياء في أحسن صورة وأجملها مع مناسبتها تمامًا لما خلقت من أجله، وهذا يتحقق في خلقة الناس على تفاوت.

الفائدة الثانية: كيف كان النبي ﷺ في عيون الصحابة رضي الله عنهم: ما كانوا

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة، برقم (٣٢٤٦).

يرون أحدًا أجمل منه وجهًا، ولا ألين منه كفًا، ولا أطيب منه رائحة. ورؤيتهم له على هذا الوجه، يدل على حبهم الشديد له وصفاء قلوبهم؛ لأن القلب الصافي من الشبهات هو الذي يرى الأشياء على حقيقتها، انظر إلى كفار مكة لظلمة قلوبهم لم يروا النبي ﷺ، كما رآه الصحابة، ألم تسمع إلى قول الصحابي الجليل عمرو بن العاص، رضي الله عنه: (وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له ولو سئلت أن أصفه ما أطقت لأني لم أكن أملأ عيني منه) [1] وقد ذكرت الحديث بطوله في باب (تعظيمه ﷺ في نفوسهم).

١٩- نبع الماء من بين أصابعه ﷺ:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: (قَدْ رَأَيْتُنِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ حَضَرَتِ الْعَصْرُ وَلَيْسَ مَعَنَا مَاءٌ غَيْرَ فَضْلَةٍ، فَجُعِلَ فِي إِنَاءٍ فَأُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِهِ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهِ وَفَرَّجَ أَصَابِعَهُ ثُمَّ قَالَ: «حَيَّ عَلَى أَهْلِ الْوُضُوءِ الْبَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ» فَلَقَدْ رَأَيْتُ الْمَاءَ يَتَفَجَّرُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ فَتَوَضَّأَ النَّاسُ وَشَرِبُوا فَجَعَلْتُ لاَ آلُوا مَا جَعَلْتُ فِي بَطْنِي مِنْهُ فَعَلِمْتُ أَنَّهُ بَرَكَةٌ قُلْتُ لِجَابِرٍ كَمْ كُنْتُمْ يَوْمَئِذٍ قَالَ أَلْفًا وَأَرْبَعَ مِائَةٍ) [2]. (رواه البخاري).

الشاهد في الحديث:

هو قول جابر بن عبد الله: (فلقد رأيت الماء يتفجر من بين أصابعه).

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: بيان ما حبى الله رسوله ﷺ من عظيم المعجزات، فالمعجزة هنا تختلف جدًا عن بقية المعجزات التي وردت في تكثير الطعام والشراب؛ لأن زيادة الماء هنا ما جاءت من دعاء الرسول على الماء بالبركة، بل جاءت المعجزة من تفجر الماء من بين أصابعه الشريفة، ولفظ يتفجر، يُشْعر بكثرة الماء جدًا، وخروجه بقوة، وهذا هو الذي حدث، فقد توضأ من هذا الماء ألف وأربع مائة رجل، ولك أن تتصور كمية الماء التي تكفي لوضوء هذا العدد من الرجال، بل ولشربهم أيضًا.

الفائدة الثانية: علم الصحابة، رضي الله عنهم، أن هذا الماء فيه بركة عظيمة، لذلك حرصوا على الشرب منه، بل إن راوي الحديث، جابر بن عبد الله، استكثر جدًا ما استطاع

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب: كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة، برقم (١٢١).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأشربة، باب: شرب البركة والماء المبارك، برقم (٥٦٣٩).

من الشرب، وقد ذكرت في حديث أنس مع أهل الصفة، أنه يجوز أن يشرب ويأكل المسلم حتى الامتلاء مما يعلم أن فيه البركة.

الفائدة الثالثة: حرص النبي ﷺ أن يَرَى أصحابه رضي الله عنهم فَضْلَ الله عز وجل في كل شيء، وأن يُوصِلَهم دائمًا بخالقهم، وأن يعلموا أن مسبب هذه المعجزات الظاهرات هو الله وحده، لقوله ﷺ: «البركة من الله».

٢٠- حب الصم الشامخات له ﷺ:

الحديث الأول: عن أَنَس بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه يَقُولُ: خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى خَيْبَرَ أَخْدُمُهُ فَلَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ رَاجِعًا وَبَدَا لَهُ أُحُدٌ قَالَ: هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا[1].

الحديث الثاني: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أُحُدٍ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ فَرَجَفَ بِهِمْ فَضَرَبَهُ بِرِجْلِهِ قَالَ: «اثْبُتْ أُحُدُ، فَمَا عَلَيْكَ إِلاَّ نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدَانِ»[2].

بعض فوائد الحديثين:

الفائدة الأولى: في الشمائل النبوية:

١ - إن كان عجيبًا أن يحب النبيَّ ﷺ ما فيه روح مما لا يعقل، كالشجر الذي كان يعرفه ويسلم عليه، وجذع النخلة التي تشتاق إليه ﷺ وتبكي لفراقه، فالأعجب حقًا، أن يحب النبيَّ ﷺ ما ليس فيه روح ولا عقل، شيء إنْ نظرتَ إليه ظننت أنه لا يعقل ولا يسمع ولا يرى، ولكنه في الحقيقة يحب، مما يستدعي أن يكون له إحساس، إنه جبل أُحُدٍ الذي أحب النبي ﷺ.

وقد رجح الإمام ابن حجر ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ أن حب النبي ﷺ لأحد وحب الجبل له هو على حقيقته فقد قال ما نصه: «الحب من الجانبين على حقيقته وظاهره، وقد خاطبه ﷺ مخاطبة من يعقل فقال لما اضطرب: اسْكُنْ أُحُدُ»، وقد نقل ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ عن السهيلي سبب حب النبي ﷺ للجبل ما نصه: «كان ﷺ يحب الفأل الحسن والاسمَ الحسن ولا اسمَ أحسن من اسم مشتق من الأحدية»[3].

(١) رواه البخاري، كتاب: الجهاد، باب: فضل الخدمة في الغزو، برقم (٢٨٨٩).
(٢) رواه البخاري، كتاب: المناقب، باب: مناقب عمر بن الخطاب...، برقم (٣٦٨٦).
(٣) انظر فتح الباري (٧/ ٣٧٨).

وقال الإمام النووي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «الصحيح المختار أن معناه أن أحدًا يحبنا حقيقةً جعل اللَّه فيه تمييزًا يحب به، كما قال ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] وكما حن الجذع اليابس، وكما فر الحجر بثوب موسى ﷺ»[١].

٢- بيان ما أعطاه اللَّه -عز وجل- نبيه ﷺ من القدرة على مخاطبة الجمادات، ولولا أنها تعقل كلامه ﷺ ما كان لتوجيه الكلام لها من معنى، ورد في الحديث: «فَضَرَبَهُ بِرِجْلِهِ قَالَ: اثْبُتْ أُحُدُ؛ فَمَا عَلَيْكَ إِلاَّ نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدَانِ»، وهو من جنس تسليم الشجر عليه ﷺ.

قال الإمام ابن حجر ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «فضربه برجله وقال: «اثبت» بلفظ الأمر من الثبات وهو الاستقرار، وأُحُدُ: منادًى ونداؤه وخطابه يحتمل المجاز، وحمله على الحقيقة أولى»[٢].

٣. فَرِحَ جبل أحد بصعود النبي ﷺ حتى إنه ارتجف، ورد في الحديث: «فرجف بهم»، وما يكون الرجف إلا فرحًا واستبشارًا، ولا يَتَصَوَّر عظيمَ هذا الأمر إلا مَنْ رأى هذا الجبل الضخم الشامخ الراسي فيتخيل كيف أنه اهتز واضطرب.

٤. في الحديث معجزة ظاهرة للنبي ﷺ، وهو إخباره أن عمر وعثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ سَيَنَالاَنِ الشهادة في سبيل اللَّه ـ تَعَالَىٰ ـ وقد وقع الأمر كما قال وأخبر ﷺ.

الفائدة الثانية: بيان قدرة اللَّه عز وجل:

والتي بلغت المنتهى في الكمال، فهذا جماد أصم جعل اللَّه فيه إحساسًا يحب به، وجعل له إدراكًا يشعر ويعرف من يقف عليه فيضطرب لذلك. وفي الحديث أيضًا بيانُ عظيمِ حبِّ اللَّه عز وجل لنبينا ﷺ إذ ألقى في الجمادات حبه ﷺ.

الفائدة الثالثة:

الحديث منقبة عظيمة لأبي بكر وعمر وعثمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ جميعًا:

فأبو بكر أثبتَ له النبيُّ ﷺ منزلة الصِّدِّيقِيَّةِ، أما عمر وعثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -،

---

(١) انظر شرح النووي على صحيح مسلم (٩/ ١٤٠).
(٢) انظر فتح الباري (٧/ ٣٨).

فأثبت لهما النبي ﷺ منزلة الشهادة، ويتفرع عليه أن هؤلاء قد أفضوا إلى ربهم وهو راض عنهم تمام الرضا، وأن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان مأجورًا في قتاله الذي استشهد فيه، وأنه كان يبتغي به وجه الله ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ـ، وإلا لما أثبت له النبي ﷺ درجة الشهادة.

الفائدة الرابعة:

إذا كان جبل أحد يحب النبي ﷺ حبًّا على سبيل الحقيقة لا المجاز، والنبي ﷺ لم يُبْعث إليه، وليس له عليه منة ظاهرة كمنته ﷺ على جميع الأمة، فكيف يجب أن يكون حبنا للنبي ﷺ والذي شملتنا مِنّتُه ﷺ من كل وجه، كما أن من السنة أن نحب جبل أحد لحب النبي ﷺ إياه.

* * *

الباب الثالث

في خصائص أفضل المخلوقين
وسيد الأنبياء وخاتم المرسلين ﷺ



تقديم

بادئ ذي بدء أود أن أقر أمرًا هامًّا ينبغي على كل أحد أن يعلمه ويضعه نصب عينيه ألا وهو أن خصوصيات النبي ﷺ تنقسم إلى فروع كثيرة ونواح شتى وأذكر هنا أربعة أصناف يندرج تحتها بقية الأنواع من وجه أو من آخر، وتلك الأربعة هي:

الأول: فيما اختص به ﷺ من الفضائل والكرامات، وهذا الصنف له أربعة أقسام:

١ - خصوصيات في فضائله وكرامات في ذاته المباركة في الدنيا.

٢ - خصوصيات في فضائله وكرامات في ذاته في الآخرة.

٣ - خصوصيات في فضائله وكرامات في أمته وشريعته في الدنيا.

٤ - خصوصيات في فضائله وكرامات في أمته وشريعته في الآخرة. بأن جعل أمته شهداء على الناس يوم القيامة.

الثاني: فيما اختص به ﷺ من المباحات والتخفيفات، وذلك تعظيما له وكرامة بأن فعل المباحات لا يلهيه عن واجبات الرسالة، وهذا أكثر ما تراه وتجده يكون في أمور الزواج والنكاح.

الثالث: فيما اختص به ﷺ من المحرمات وذلك تَكْرِمَةً له، كما قال ابن الملقن: (فإن أجر ترك المحرم أكثر من أجر ترك المكروه وفعل المندوب، إذ المحرم في المنهيات كالواجب في المأمورات)[1]. وذلك مثل الزكاة فإنها محرمة عليه ﷺ وكذلك الصدقة، وكذلك حرم عليه إذا لبس عدة الحرب (لأْمَتَه) أن ينزعها حتى يلقى عدوه ويقاتله.

الرابع: فيما اختص ﷺ به من الواجبات. والحكمة في ذلك رفع الدرجات وزيادتها، حيث إن الفريضة أفضل من النافلة اتفاقًا. وذلك مثل وجوب قضائه ﷺ دَيْنَ من مات من المسلمين معسرًا، وذلك عند وجود السعة، كما ورد في الصحيحين.

وبعد ذكر هذا التقسيم أنبه إلى أنني لم ألتزم هذا الترتيب في كتابي؛ وذلك أني قد أجد الخاصة من خصائصه تشتمل على أكثر من صنف مما سبق فآثرت أن أُورد الخصائص بدون الترتيب السابق الذكر، وإنما ذكرت هذا الترتيب بداية حتى يستحضر المسلم أنواع خصائصه ﷺ فيسهل عليه حفظُها أو استحضارها وقتما يريد بأسهل طرق، واللّٰه تعالى الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) انظر غاية السول في خصائص الرسول لابن الملقن عمر بن علي ص ١٢٥ .

أولًا: تفضيله ﷺ على سائر الأنبياء والمرسلين

١ - تفضيله في الآخرة

أ. الشفاعة العظمى:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩].

والمقام المحمود: هو المقام الذي يحمده فيه الخلائق كلهم جميعًا (حتى الأنبياء)، وهو مقام الشفاعة العظمى وقد تواترت بذلك الأحاديث الشريفة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: أُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا بِلَحْمٍ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ - وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ- فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً، فَقَالَ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهَلْ تَدْرُونَ بِمَ ذَاكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لاَ يُطِيقُونَ وَمَا لاَ يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلاَ تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلاَ تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: ائْتُوا آدَمَ.

فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ.

فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ ﷺ.

فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلاَ يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى.

فَيَأْتُونَ مُوسَى ﷺ فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَضَّلَكَ اللَّهُ بِرِسَالاَتِهِ وَبِتَكْلِيمِهِ

عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى ﷺ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ﷺ فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ، وَكَلِمَةٌ مِنْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى ﷺ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ - وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ ذَنْبًا - نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ .فَيَأْتُونِّي فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَخَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ وَغَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لأَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي. فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ لَكَمَا بَيْنَ مَكَّـــةَ وَهَجَرٍ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى». [رواه البخاري][(١)].

وفي رواية عند البخاري: قال رسول اللَّه ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ. فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ، فَإِنَّهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ. فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللَّهِ. فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى فَإِنَّهُ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ. فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ . فَيَأْتُونِي فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا. فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لاَ تَحْضُرُنِي الآنَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي. فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أَوْ خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ. فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي. فَيَقُولُ: انْطَلِقْ

(١) البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا﴾، برقم (٤٧١٢).

فَأَخرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخرِجهُ مِنَ النَّارِ. فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ»[1].

وعنده أيضًا: «قَالَ ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ وَسَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ: يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ»[2].

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: في شمائل النبي ﷺ يوم القيامة:

١. أنه سيد الناس يومئذ، وهو سيدهم، في الدنيا أيضًا، لقوله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**». وهذا الحديث لم يقيد التسييد بالدنيا أو الآخرة، ولكن في الحديث الذي معنا قيَّد الأمر بيوم القيامة، لسببين:

أولهما: أنه في ذلك اليوم لن ينازعه أحد أنه سيد الناس، بخلاف الأمر في الدنيا، حيث كذب المنافقون والكافرون بنبوته وأنه سيد ولد آدم.

ثانيهما: أن فضل النبي ﷺ وسيادته للبشر أظهر وأعظم يوم القيامة، لحاجة الأولين والآخرين إليه في أن يرفع عنهم ما هم فيه، وهذا الذي ذكرته يشبه قوله تعالى: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، مع أنه - سبحانه وتعالى -، يملك أمر الدنيا والآخرة، ولكن الآية ذكرت الآخرة دون الدنيا، للأسباب التي ذكرتها آنفًا.

٢ - ظهور فضل النبي ﷺ يوم القيامة على بقية البشر كلهم أجمعين، حيث يبلغ الناسَ غمٌّ وكرب، لا يطيقونه ولا يحتملونه، ويسلم هو من هذا الغم والكرب، بل يأتي معززًا مكرمًا، لقوله ﷺ: «**فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون**».

٣ - ظهور فضل النبي ﷺ على بقية الأنبياء بما فيهم أولو العزم من الرسل، نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، عليهم جميعًا الصلاة والسلام، حيث إنهم لم يجترئوا على التقدم للشفاعة، وأحال كل منهم الأمر إلى غيره، وما قَبِلَ ذلك إلا المصطفى ﷺ، حتى يقول: أنا لها. فكفى بذلك بيانًا لفضله وشرفه ﷺ، وتدبر أخي المسلم، حال الأنبياء يوم القيامة، إذ

---

(١) البخاري، كتاب التوحيد، باب: كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء، برقم (٧٥١٠)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) المصدر السابق.

يقول كل منهم: نفسي، نفسي، نفسي، وينطلق الرسول ﷺ إلى ربه، لا يسأله نفسه، ولا أمته، بل يسأله أن يفرج ما الناس كلهم ملاقوه في هذا اليوم العظيم، ولا يفهم أحد، أن هذا الكلام يراد به التقليل من شأن الأنبياء، عليهم جميعًا الصلاة والسلام، فهذا منكر عظيم، ولكن هذا الكلام بيان لفضل الحبيب ﷺ وهو فضل اللّه يؤتيه من يشاء.

٤ – ظهور ما كان عليه النبي ﷺ من عصمة في الدنيا، ما بعدها عصمة، حيث إن كل نبي من الأنبياء قد ذكر شيئًا يمنعه من الشفاعة، إلا عيسى عليه السلام، ولأنه لم يذكر شيئًا فعله يمنعه من الشفاعة، فقد ذَكَرَ أن الذي يمنعه منها، وجودُ من هو أحق بها، وهو العبد الذي غُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ولذلك أحال – عليه السلام – الناسَ إلى النبي ﷺ.

ويجب الإشارة هنا إلى أن مكانة النبي ﷺ في الآخرة، ترجع إلى أنه ما اقترف أي شيء في الدنيا، يُلام عليه، ويحتاج فيه إلى مغفرة ربه، – تبارك وتعالى –، وأن قول اللّه تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [سورة الفتح: من الآية ٢]، إنما هو من باب رفع شأنه ومنزلته وطمأنته أنه وإن فعل شيئًا، يحتاج إلى مغفرة، فإن هذه المغفرة حاصلة. والدليل على ذلك، أن موسى قد قتل نفسًا، واستغفر ربه، فغفر له وجاء يوم القيامة مشفقًا من هذا الذنب، وذَكَره على سبيل المانع من القيام بالشفاعة، ولو أن النبي ﷺ، قد ارتكب أي شيء، وغفره اللّه له، لاستوى الأمر مع موسى ومحمد – عليهما الصلاة والسلام – يوم القيامة، ولكن هذا لم يحدث، بل فضل النبي ﷺ ظاهرٌ من جهتين، الأولى: أنه لم يفعل شيئًا مطلقًا يلام عليه، صغيرًا أو كبيرًا، يحتاج فيه إلى التوبة، والثانية: أنه لو صدر منه شيء، فإن اللّه –عز وجل– قد وعده بمغفرته ومحو الذنب قبل أن يقع الذنب، وقبل أن يُحدِث التوبة، وهذا أعظم المقامات، بل منتهاها، ولعلم عيسى عليه السلام بهذا المقام العظيم، لم يجرؤ على الشفاعة، مع أنه لم يذنب ذنبًا.

٥ – عظيم منزلة النبي ﷺ يوم القيامة عند ربه، تظهر هذه المنزلة في النقاط التالية:

أ – أنه اختصه بالشفاعة العظمى في ذلك اليوم العظيم، وهو المقام المحمود، الذي وعد اللّه نبيه ﷺ به، في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

ب – جعل الله –تبارك وتعالى– الناس يذهبون للأنبياء، فيعتذرون عن الشفاعة، حتى يذهبوا آخر المقام إلى خاتم النبيين، وكان من الممكن أن يُقَدِّرَ الله ذهابهم إليه ابتداءً، ولكن قد يظن ظانٌ أنه يوجد مع النبي أحد يقدر على الشفاعة العظمى، أو أن أحدًا يزاحمه

هذه المكانة، فأراد اللَّه - سبحانه وتعالى -، أن يبين فضله مقرونًا باعتذار الأنبياء جميعًا، وأقول جميعًا، لأن الذي اعتذر، هم أولو العزم من الرسل، فمن باب أولى أن غيرهم كان سيعتذر إذا طلب منه الشفاعة، فكأن الجميع قد اعتذر.

كما أن الاعتذار للناس عن الشفاعة، من قبل الأنبياء نبيًّا من بعد نبي، يجعل الناس في كل مرة أشد حزنًا، وأعظم كربًا، ويجعلهم يتعلقون أكثر وأكثر بالنبي الذي بعده، فلا يَصِلون إلى خاتم النبيين إلا بعد أن يصل الغم والكرب بهم أبلغ الحد، كالمريض الذي طاف على الأطباء بمرضه العضال، فلم يجد عندهم الدواء، ولم يبق أمامه إلا طبيب واحد، إما أن يجد عنده الدواء، أو يموت بمرضه، فإذا وجد عند الطبيب الأخير الدواء، كان أكثر له امتنانًا، وأشد يقينًا بفضله وسبقه، عمن سواه وهكذا ستكون حال النبي ﷺ، مع الناس يوم القيامة، أرأيت أخي القارئ، الحكمة من سؤال الناس الأنبياء الشفاعة واحدًا بعد الآخر، أعلمتَ أخي القارئ فضل هذا النبي ﷺ الكريم يوم القيامة، ففي الوقت الذي لا يسمع فيه إلا الهمس كما قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]، ترى النبي ﷺ يشفع عند ربه أن يقضي بين الناس، فهل بعد هذا الفضل من فضل؟.

ج - تظهر أيضًا منزلته ﷺ عند ربه - سبحانه وتعالى - إذا تدبرنا وتأملنا أحد أسباب اعتذار الأنبياء عن الشفاعة، في قول كل منهم: «**إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله**»، ومجال التأمل أنه في مثل هذا الغضب العظيم، من الرب - تبارك وتعالى -، ينطلق النبي ﷺ، حتى يأتي العرش ويخر ساجدًا لله، حتى يأذن الله له بالشفاعة بقوله: يا محمد ارفع رأسك وسل تعطه . . .

د - ومن عظيم منزلته ﷺ أنه يؤذن له بالسجود تحت العرش، وهذا أبلغ القرب، بل هو القرب نفسه، ولم يأت دليل أن أحدًا من المخلوقين سينزل هذه المنزلة، وهو السجود تحت العرش، من الأولين والآخرين.

ويتفرع على السجود بعض الأمور وهي:

- أن السجود لله، هو أعظم مظاهر العبودية لله -عز وجل- ، وهي الهيئة التي يكون فيها العبد أقرب ما يكون لله - سبحانه وتعالى - والدليل قوله ﷺ: «**فآتي تحت العرش فأقع ساجدًا**»، ولو أن هناك هيئة أشرف من السجود، وأقرب إلى اللَّه - سبحانه وتعالى -، لبينها اللَّه لنبيه، ﷺ، خاصة في هذا المقام الرفيع.

- ثبوت عرش الرحمن، وكذب من ادعى، أن العرش، إنما يراد به الملك، وثبوت أن العرش له مكان معلوم، فوق السماوات السبع، لقوله ﷺ: **«فأنطلق فآتي تحت العرش»**، وأن العرش شيء مادي محسوس، يقع تحته العبد ساجدًا، يصدق ذلك ما ورد عند البخاري، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«النَّاسُ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ فَلاَ أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ»** [(١)].

- ثبوت استواء الله - سبحانه وتعالى - على عرشه استواءً يليق بجلاله وكماله، ودليلُه: **«فأقع ساجدًا لربي -عز وجل-»**. ولولا استواء اللّه على العرش، ما كان للسجود تحت العرش من معنى، ولكان السجود للعرش، وليس لله المستوي على عرشه، ومع اعتقادنا هذا، فإننا ننزه اللّه من مشابهة خلقه، وأن كل أسمائه وصفاته إنما هي على وجه يليق بعظمته وكبريائه، ولا يجب الخوض في مثل هذه الأمور، لأنه يستحيل على العبد تصورها، وذلك لقصور العقل وعدم وجود النقل.

- عدم خروج النبي ﷺ عن صفة العبودية، التي هي أعظم المنازل، ودليله: **«فأقع ساجدًا لربي -عز وجل-»**. فالسجود لا يكون إلا من العبد للمعبود، وقوله: **«لربي»** إقرار أنه - سبحانه وتعالى - هو الرب، وأن النبي ﷺ هو المربوب، وكفى ذلك شرفًا له، والذين يثبتون للنبي ﷺ أمورًا لم يثبتها هو لنفسه، ويريدون بذلك أن يرفعوا من قدره، هم في الحقيقة قد جهلوا قدر اللّه -عز وجل-، لأنهم لو عقلوا قدر الله، لعلموا أن إثبات عبودية النبي ﷺ الكاملة لله -عز وجل-، هي من أجل المقامات، وأعظم التشريفات، ولا نحتاج معها لإثبات ما لا ينبغي إثباته للنبي ﷺ.

هـ - من أعظم مظاهر، حب اللّه - سبحانه وتعالى - لنبيه ﷺ أن يختصه من دون الأنبياء والملائكة، بفتوحات مباركة من المحامد وحسن الثناء عليه، قال ﷺ: **«ثم يفتح اللّه علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يَفْتَحْ على أحد قبلي»**. و**«شيئًا»** هنا جاءت نكرة لتعظيم أمر الفتح الرباني.

ويتفرع على هذا الفتح مِن المحامد والثناء عِلْمُنا بعظيم قدر الله - تبارك وتعالى -، فمع كل هذا الثناء وتلك المحامد، التي ذكرها الأنبياء في الدنيا، خاصة نبينا ﷺ وكذا

---

(١) البخاري، كتاب: المناقب، باب: قصة أبي طالب، برقم (٣٨٨٥).

الملائكة بالملأ الأعلى، لم يصل أحد منهم، إلى الثناء على اللّه بما هو أهله، حتى يفتح اللّه يوم القيامة على النبي ﷺ بالكثير من أنواع المحامد والثناء.

والشيء اللافت للنظر هنا أن النبي ﷺ وصف تلك المحامد والثناء، بأنها شيء لم يفتحه اللّه على أحد قبله، ولم يصف تلك المحامد بأنها المحامد والثناء التي يستحقها اللّه -عز وجل- ، أو أنها المحامد التي تبلغ ذات اللّه الأعز والأكرم، مما يدل على أن كل المحامد والثناء مهما بلغت، لن تبلغ ما يستحقه اللّه -عز وجل- ، وما اللّه أهل له.

كما يتفرع عليه أيضًا حب الله - سبحانه وتعالى - للثناء والمحامد، وأنها تُذْهِب غضب الرحمن، وأنه ينبغي أن يبدأ بها العبدُ مسألته؛ لأن تلك المحامد، كانت السبيل لاستدرار رحمات الله الرءوف الرحيم في هذا اليوم العظيم، وإطفاء غضبه - تبارك وتعالى - ولو كان شيء أحب إلى الله من المحامد والثناء، لالتمسه النبي ﷺ.

و - ومن دلائل حب الله - سبحانه وتعالى - لنبيه: بعثه ﷺ صيغة إجابة المولى - سبحانه وتعالى - لدعائه ﷺ حيث قال - عز من قائل - : **«يا محمد ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع»**.

ونلحظ فيها:

- أن اللّه -عز وجل- قد بدأ خطابه للنبي ﷺ، بأداة النداء، وهذا مبلغ الاعتناء، ولما ناداه كانت المناداة باسمه: **«يا محمد»**، وهذا شرف على شرف، وأعتقد أن المناداة كانت بالاسم، وليست بالصفة؛ لأن زمن التكليف قد انتهى، وزمن التشريف قد ابتدى.

- قوله: **«ارفع رأسك»** دليل على علو منزلته ورفعة شأنه بين الخلائق يوم القيامة، وتدبر أنه كان أول أمر من الرب - سبحانه وتعالى - وكان يمكن أن يأمر اللّه نبيه، أن يسأل ما يريد، حال سجوده، ودون أن يرفع رأسه، أو يأمره فيقول له: (قم يا محمد).

- كانت الإجابة قبل السؤال؛ لقوله تعالى: **«سل تعطه واشفع تشفع»** فوعده الله - سبحانه وتعالى - بإجابة كل سُؤْلِه، وقبول كل أنواع شفاعته، قبل أن يبين النبي ما يريد، وهو قول يوضح مكانة النبي ﷺ من ربه، ولا يحتاج الأمر إلى شرح وإسهاب، لأجعل القارئ يتدبر ويتأمل، فقد تعجز الكلمات عن الشرح والبيان. ويكفي أن ننبه إلى أن الأمر بالسؤال، كان مفتوحًا غير مقيد بشيء، فقال له -عز وجل- : **«سل»** دون تحديد مجال السؤال، وستكون الإجابة - إن شاء اللّه تعالى - على كل ما سأل، وذكرتُ المشيئة هنا للتبرك، وليس للتعليق.

ويتفرع على ذلك، أن نحكم بكمال علم وأدب النبي ﷺ، فمن كمال علمه، أنه لن يسأل ممنوعًا، ومن كمال أدبه أنه لن يتعدى في السؤال، ولو كان من الممكن أن يصدر عنه شيء من ذلك ولو في أقل من القليل - حاشا لله - ما توجه إليه الخطاب الإلهي بالسؤال والإجابة بدون تقييد لماهية السؤال، ومجال الإجابة - فسبحان من علمه وأدبه، وجعله حقيقًا بهذا المقام الرفيع.

و - تشرف النبي ﷺ بكل هذا الكلام والحوار، مع ربه - تبارك وتعالى - بغير واسطة، ويكون كل الكلام على وجه الرضى والامتنان، بالإضافة إلى أن النبي ﷺ يكون أول من حظي بشرف الكلام مع ربه يوم القيامة.

ز - أمر الله - سبحانه وتعالى - نبيه ﷺ، أن يقوم هو بإدخال من لا حساب عليه من أمته الجنة، ومباشرةُ النبي ﷺ إدخالَ المؤمنين الجنة، شرفٌ عظيم له، وحكمته - واللَّه أعلم - أن يشعر المؤمنون في الآخرة بنعم اللَّه التي أجراها على يد النبي ﷺ، كما شعروا بذلك في الدنيا، وأن يعلموا أن طاعتهم للرسول، واجتهادهم في اقتفاء أثره، كانت مُوصِلة لهم على يديه لجنات الحنَّان المنَّان، وانظر كيف أضاف المولى - سبحانه وتعالى - أول طائفة تدخل الجنة إلى النبي ﷺ قال تعالى: «أَدْخِلْ من أمتك» كأن هذا الشرف لهذا الطائفة إنما كان لكونها من أمته ﷺ.

ح - ومن الأمور التي تُبين منزلته ﷺ أن اللَّه - سبحانه وتعالى -، قد نوع له الشفاعات الممنوحة له، فمنها:

الشفاعة العظمى، التي نحن بصدد الحديث عنها، وهي مختزلة في هذا الحديث، حيث لم يرد ذكرها، وإنما انتقل الحديث من طلب الناس شفاعةَ النبي ﷺ ليزاح عنهم الغم والكرب، إلى الشفاعة في المؤمنين.

- الشفاعة في إدخال أمته الجنة، وهي أنواع تبدأ من إدخال من لا حساب له من الباب الأيمن من الجنة، وتتدرج حتى تنتهي إلى إدخال من قال لا إله إلا الله، لما ورد عند البخاري: ثم أعود الرابعة فأحمده بتلك المحامد ثم أخر ساجدًا فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: يا رب ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، فيقول: وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لَأُخْرِجَنَّ منها من قال: لا إله إلا الله، وهذا منتهى إكرام نبي هذه الأمة ﷺ، كما أن كثرة مرات سجوده تحت العرش وتكرار الثناء والمحامد على الله - سبحانه وتعالى - والإذن له كل مرة أن يُخرِج من النار طائفةً من أمته كان

لبيان شرفه، وعظيم منزلته عند ربه، لأنه لا يمكن أن يتردد على الملك ويُكْثِرَ عليه في الطلب، إلا من يحبه الملك أشد الحب.

- شفاعته ﷺ في عمه أبي طالب؛ لما ورد عند البخاري، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ وَذُكِرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ فَقَالَ: «لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ» (١).

ط - ومن أتم الأمور التي تُبين منزلة النبي ﷺ عند ربه، أنه أخبره في حياته بكل ما خبأه له يوم القيامة، من شرف ورفعة وسؤدد على الخلق كلهم جميعًا، وذلك على وجه التفصيل لا الإجمال، وما كان هذا الإخبار ليحدث، لولا علم اللَّه التام، بأدب النبي ﷺ، مع ربه، وبالغ خوفه وتقواه وخشيته لله -عز وجل- ، ومن فوائد ذلك الإخبار:

- أن يزداد النبي ﷺ شكرًا لله، على هذه المنزلة العظيمة، وتَقَرَّ عينُه في الدنيا، بعلمه القرب مِنْ خالقه، ومنزلته يوم القيامة.

- أن تعلم الأمة منزلة نبيها، ﷺ، في الآخرة، كما علمت منزلته في الدنيا، فيزداد حبها واتباعها له، طمعًا أن ينالها شفاعته في الآخرة.

٦ - رحمة وشفقة النبي ﷺ بهذه الأمة، حيث كان أول سؤال له في أمته، قال: **«فأقول: أمتي يا رب أمتي يا رب»**، فاجتهاده في السؤال والتوسل إلى الله، يدل على حبه لأمته، وكذا تكرار الشفاعة، حتى يرضى بخروج من قال لا إله إلا اللَّه من النار، ويجب أن ننتبه إلى أنه ﷺ أضاف الأمة إلى نفسه، من باب التوسل إلى اللَّه -عز وجل- أن يرحمها، فبهذه الإضافة تتنزل رحماتُ اللَّه المتتابعة، ولو كان هناك إضافة أعظم من نفسه، لأضاف الأمة إليها، كأن يقول مثلاً: (يا رب أمة الإسلام) أو (يا رب خير أمة أخرجت للناس)؛ لأن الموقف يستلزم تأدبًا مع اللَّه أن يتوسل بأعظم الأمور حتى ينفرج الكرب والهم.

ومن دلائل شفقته ورحمته ﷺ، أنه خبأ دعوته شفاعة لأمته في هذا الموقف العظيم، فلكل نبي دعوة مستجابة، وقد استنفذ هذه الدعوة نوح، ولذلك اعتذر عن الشفاعة، وقد ورد عند البخاري، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ يَدْعُو بِهَا، وَأُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِئَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي فِي الْآخِرَةِ» (٢).

---

(١) البخاري، كتاب: الدعوات، باب: لكل نبي دعوة مستجابة، برقم (٦٣٠٤).
(٢) البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، برقم (٣٣٥٨).

الفائدة الثانية: مظاهر إكرام أمته، وهو فرع من إكرام اللّه له ﷺ.

١ - أنها أول أمة، تدخل الجنة، ولا تفتح الأبواب لأمة قبلها.

٢ - أن طائفة كبيرة منهم تدخل الجنة، بلا حساب، لقوله تعالى: **«أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة»**.

٣ - تخصيص باب لهذه الطائفة في الجنة، لا يشاركهم فيه أحد، وهو الباب الأعظم من الأبواب، لوصفه أنه الأيمن من الأبواب، ومعلوم في الدين، أن الأيمن من الأشياء هو المكرم، أما اختصاصهم بهذا الباب فيعلم من قوله تعالى: **«وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب»**.

٤ - عدم تخليد أحد من هذه الأمة في النار، شريطة أن يكون مات على التوحيد الخالص.

الفائدة الثالثة: في منزلة الأنبياء المذكورين في الحديث، وهم آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى، عليهم جميعًا الصلاة والسلام، يتبين ذلك من:

١ - عصمة الله - سبحانه وتعالى - لهم، ودليله: أن كلاً منهم، قد ذكر في هذا الموقف العظيم، أكبر ما فعله ويلام عليه، ليعتذر إلى الناس عن عدم قدرته على الشفاعة، ولو كان بدر منه ما هو أكبر من ذلك لذكره، لأنه مقام ذل وخضوع لله - سبحانه وتعالى -، فماذا فعلوا:

أ - أكل آدم من الشجرة وكان هذا قبل أن يكون نبيًا، وقد تاب وقَبِلَ الله -عز وجل- توبته.

ب - دعا نوح عليه السلام على قومه، قال تعالى ذاكرًا دعاءه: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، وقد جاء دعاؤه بعد أن أعلمه اللّه بعدم إيمان أحد من قومه، قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦]، فلم يصدر الدعاء إلى على مَنْ يئس من إيمانه، فضلاً أنه لم ينه عن الدعاء على قومه.

ج - ذكر إبراهيم عليه السلام، أنه كذب ثلاث كذبات، تمنعه من الشفاعة، ومعلوم أنه لم يصرح فيهن بالكذب ولكنه استخدم المعاريض، وفيها مندوحة عن الكذب، وكانت اثنتان منهن في الله، والثالثة ليحفظ عرضه ﷺ، روى البخاري، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام إِلاَّ ثَلاَثَ كَذَبَاتٍ ثِنْتَيْنِ مِنْهُنَّ فِي ذَاتِ اللَّهِ -عز وجل- قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾. وَقَالَ: بَيْنَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ وَسَارَةُ إِذْ أَتَى عَلَى جَبَّارٍ مِنَ الْجَبَابِرَةِ فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ هَا هُنَا رَجُلاً مَعَهُ امْرَأَةٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَسَأَلَهُ عَنْهَا فَقَالَ: مَنْ هَذِهِ؟ قَالَ: أُخْتِي»[1].

د - أما موسى عليه السلام، فقد ذكر أنه قتل نفسًا لم يؤمر بقتلها، وهو في الحقيقة، لم يقتلها عمدًا، لقوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ﴾ [القصص: من الآية ١٥]، فكان القتل خطأ، وعموم المؤمنين يُعْذَرون فيما بدر منهم على سبيل الخطأ.

هـ - أما عيسى عليه السلام، فلم يذكر شيئًا، ولو بدر منه أقل شيء، لذكره في هذا الموقف العظيم.

٢ - شدة تقوى الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، لله -عز وجل- ، وخوفهم العظيم منه - سبحانه وتعالى - وعلمهم الكامل بِقَدْره -عز وجل- ، حيث لما بدر منهم مثل هذه الأمور البسيطة في نظر عموم المسلمين، استعظموها في حق الله، فكانت بالنسبة إليهم كالجبال، وتظهر مظاهر هذا الخوف من:

أ - عدم تجرئهم على الشفاعة العظمى، وقولهم جميعًا: **«إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله»**.

ب - قولهم جميعًا: **«نفسي نفسي نفسي»**، مما يدل على استعظامهم ما فعلوه.

يتفرع على ذلك، علمنا بكمال عصمة نبينا ﷺ، فقد ثبت أنه لم يفعل شيئًا يلام عليه قبل النبوة، مثل آدم، ولم يفعل شيئًا عن طريق الخطأ يلام عليه، مثل موسى، وأنه لم يستخدم حتى المعاريض في كلامه، مثل إبراهيم، عليهم جميعًا الصلاة والسلام.

الفائدة الرابعة: عظيم أهوال يوم القيامة، يتبين ذلك من:

١- دُنُوّ الشمس من الخلائق، حتى يغرق الناس في عرقهم، لقوله ﷺ: **«وتدنو الشمس فيبلغ الناسَ من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون»**.

يتفرع على ذلك، أن أمور الآخرة، تختلف عن أمور الدنيا، فلو أن الشمس دنت، في الدنيا من الناس قليلاً، لاحترقوا، أما في الآخرة، فيكون بينها وبين الرءوس شبرًا، ولا

---

(١) مسلم، كتاب: الصلاة، باب: حجة من قال: البسملة آية من أول كل سورة، برقم (٤٠٠).

يموتون، وهكذا يقال عن عذاب القبر وعذاب النار، أعاذنا الله من ذلك بفضله وكرمه.

٢ - من أعظم دلائل وجود الأهوال يوم القيامة، أن الرب - تبارك وتعالى -، يغضب غضبًا شديدًا، قال ﷺ على لسان جميع الأنبياء: **«إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله»**.

ويتفرع على هذا أمران هما:

الأول: ثبوت صفة الغضب لله - تبارك وتعالى - قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥]، ومعنى آسفونا: أغضبونا، فما دامت الصفة قد ثبتت لله -عز وجل- في القرآن والسنة، علمنا أنها صفة كمال، لأن كل صفات العزيز الحميدِ صفاتُ كمال، وأقول: كيف ننفي عن اللَّه ما أثبته لنفسه من صفات، وتزول الشبهة عن المنكرين لهذه الصفات إذا نزهوا الله - تبارك وتعالى - عن مشابهة الخلق، وإذا علموا أن تشابه الصفات بين اللَّه وخلقه، كالضحك والغضب والفرح، لا يستلزم تشابه الخالق مع الخلق، تعالى اللَّه عن ذلك علوًا كبيرًا، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

الثاني: الخوف من هذا اليوم العظيم، الذي يغضب فيه الرب مثل هذا الغضب الشديد، وذلك بكثرة التوبة والاستغفار وتجنب المعاصي، والإكثار من الطاعات، وفعل كل ما يحبه اللَّه ويرضاه، فكيف يأمن الإنسان المسلم مهما بلغ من التقوى والعلم والصلاح يومًا يغضب فيه الرب، وعجبتُ ممن يسرف على نفسه من المعاصي والكبائر، مع قلة الطاعات أو انعدامها، بحجة أن اللَّه غفور رحيم، ماذا يفعلون مع هذا الحديث الشريف، كيف يأمنون يومًا يقول فيه الأنبياء المقربون: نفسي نفسي نفسي.

ومن علامات الخوف الذي سينتاب الخلائق يوم القيامة، أنهم سَيُذْهلون عن كون النبي ﷺ هو صاحب الشفاعة العظمى، وأن الأنبياء كلهم سيعتذرون عنها ودليله، أن المؤمنين من هذه الأمة يعلمون بالأخبار المتواترة مَنْ صاحبُ الشفاعة، ومع ذلك لا يذهبون إليه ابتداءً وقد أشار إلى هذا المعنى صاحب الفتح.

الفائدة الخامسة: ثبوت دخول طائفة من أهل التوحيد النارَ، يعذبون فيها على ما اقترفوا من المعاصي والذنوب، وهذا رد على المرجئة.

الفائدة السادسة: عظيم قدرة الله - سبحانه وتعالى - التي تُذْهل العقول، وتحير

الألباب، ومن دلائلها في الحديث:

١- أن الله تعالى يجمع الناس، كلهم جميعًا، في هذا اليوم العظيم، من لدن آدم حتى آخر نفس منفوسة عند قيام الساعة، لا يغيب منهم أحد نسيانًا أو سهوًا من الله، ولا يهرب منهم أحد عجزًا من الله، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٩٤]، فأيُّ قدرة هذه التي تقدر على ذلك، بغير تعب ولا تكلف، وإنما بكلمة كن.

وتدبر أخي القارئ وتأمل قوله - سبحانه وتعالى -: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق: ٤]، فلم يقتصر علمه -عز وجل-، على ما يحدث فوق الأرض للأحياء، بل نفذ بصره ووسع علمه فيما يحدث للكائنات تحت الثرى والتراب، فالأمر بالنسبة إليه سواء ودليله من الحديث: «يجمع اللّه الناس الأولين والآخرين».

٢ - أن الجمع سيكون، في صعيد واحد، فأي صعيد يتسع لهذا الجمع العظيم، فلن يكون الجمع، على فترات وكذا الحساب، وقد يظن ظان، أن أحدًا قد يخفى على اللّه - سبحانه وتعالى -؛ لكثرة الخلق، الذي لا يحصي عددهم إلا هو -عز وجل-، فيقول تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]، ولم يقل لا يخفى منكم أحد، فمن لا يخفى عليه أدنى الأمور التي ستكون في الصدور يوم القيامة، كيف يغيب عنه شخص بأكمله؟!

٣ - قدرة الله تعالى في الخلق ويتبين ذلك من قوله ﷺ: «يسمعهم الداعي». والداعي مَلَكٌ، إذا تكلم أسمع الأولين والآخرين، وهي قدرة عجيبة خارقة، وعظمُ المخلوق يدل على عِظَم الخالق وبديع صنعه وإحكام خلقه.

٢. الكوثر:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾.

وورد عند مسلم عَنْ أَنَسٍ قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ»، فَقَرَأَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۞ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۞ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۞﴾ [الكوثر: ١-٣] ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟» فَقُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي -عز وجل- عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ، فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ فَأَقُولُ: رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي!! فَيَقُولُ: مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ».

مما أفاض اللَّه - تبارك وتعالى - على نبيه ﷺ من النعم العظيمة المتوالية والآلاء الجسيمة المتتابعة - ليرضيه كما وعده - تبارك وتعالى - في الدنيا والآخرة - والتي يغبطه عليها الأنبياء والمرسلون والخلق كلهم أجمعون: نعمةُ الكوثر، الذي لا يعلم جمال منظره وصفاء لونه وحلاوة طعمه وكثرة أكوابه وعظم اتساعه إلا اللَّه - تبارك وتعالى -، وإذا كانت أقصى أماني الخلق يوم القيامة هو عفو اللَّه وصَفْحُه ومقعد في الجنة، فإن اللَّه - تبارك وتعالى - لم يضمن لنبيه ﷺ ذلك فحسب، بل أعطاه الدرجة العالية الرفيعة في الجنة والشفاعة العظمى والكوثر، وهي كلها عطايا لا تنبغي إلا له ﷺ، قال الشيخ السعدي رحمه الله: (يقول اللَّه تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ أي: الخير الكثير والفضل الغزير الذي من جملته ما يعطيه اللَّه لنبيه ﷺ من النهر الذي يقال له: الكوثر ومن الحوض طوله شهر وعرضه شهر، ماؤه أشد بياضًا من اللبن وأحلى من العسل، آنيتُه عددُ نجومِ السماء في كثرتها واستنارتها، مَنْ شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا) [(١)].

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: حب اللَّه - سبحانه وتعالى - لنبيه ﷺ (وهي فائدة مشتركة في جميع نعم اللَّه على خير عباده ﷺ) وتظهر صورُ هذا الحب من تنوع عطاياه - سبحانه وتعالى - لنبيه ﷺ يوم القيامة أبلغ تنويع، فقد رَفَعَ شأنه عند الخلق كلهم جميعًا بسؤاله الشفاعة، ورفع قدره ومكانه في الجنة فجعل له الوسيلة، ورفع شأن زيارته والورود عليه فقصده المؤمنون طمعًا في الشراب الهنيء والطعم اللذيذ والكفاية من الظمأ أبد الآبدين.

وصدق من قال:

وأنت حقًّا حبيبُ بارِيكا   يا صاحبَ الحوض مَنْ يُدَانيكا

الفائدة الثانية: بلغت عناية اللَّه - سبحانه وتعالى - بحوض نبيه ﷺ أتم العناية وأكملها فقد روى البخاري في صحيحه عَن ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ مَنْ شَرِبَ مِنْهَا فَلاَ يَظْمَأُ أَبَدًا»** [(٢)].

وعند مسلم عَن ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: قَالَ

---

(١) انظر «تيسير الكريم الرحمن»، (٩٣٥).

(٢) البخاري، كتاب: الرقاق، باب: في الحوض، برقم (٦٥٧٩).

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ وَمَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ الْوَرِقِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلاَ يَظْمَأُ بَعْدَهُ أَبَدًا» (١) .

وعنده أيضًا عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا آنِيَةُ الْحَوْضِ؟ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ وَكَوَاكِبِهَا أَلاَ فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ الْمُصْحِيَةِ آنِيَةُ الْجَنَّةِ مَنْ شَرِبَ مِنْهَا لَمْ يَظْمَأْ آخِرَ مَا عَلَيْهِ، يَشْخَبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ، عَرْضُهُ مِثْلُ طُولِهِ مَا بَيْنَ عَمَّانَ إِلَى أَيْلَةَ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ» (٢) .

وبذلك تكون مظاهر اعتناء المولى - تبارك وتعالى - بكوثر رسوله ﷺ قد شملت الأوجه التالية:

١ - اللون: فهو أبيض من اللبن، لما ورد عند مسلم: «أشد بياضًا من اللبن»، واللون الأبيض يعطي منظرًا أجمل للشراب، كما أنه يوضح صفاء الشراب ونقاءه.

٢ - الريح: فهو أطيب من ريح المسك، وإذا كان النبي ﷺ قد أخبر أن ريح المكلوم (٣) في سبيل اللَّه هي ريح مسك، كما ورد في صحيح البخاري (٤)، إلا أن اللَّه - سبحانه وتعالى - فضل شراب الكوثر بأن جعل ريح مائه أجمل من ريح المسك.

٣ - الطعم: هو أحلى مذاقًا من العسل، فعند مسلم: «لهو أشد بياضًا من الثلج وأحلى من العسل».

٤ - سعته: لما رواه مسلم في صحيحه: «حوضي مسيرة شهر». وسعة الحوض هكذا يدل على سعة ملكه - تبارك وتعالى -، ويدل على إكرامه نبيه ﷺ.

٥ - وفرة آنيته: وأعتقد أن كثرتها تكفي كل الأمة لو وفدت عليه ﷺ دفعة واحدة، ونرى في الدنيا أن الملك الكريم إذا صنع طعامًا وأعد مأدبة فإنه يجهزها بحيث لو ورد عليه كل من دعاه كفتهم المأدبة، ورد عند مسلم: «والذي نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها» .

قال الإمام النووي رحمه الله (٥): (المختار الصواب أن هذا العدد للآنية على ظاهره

(١) مسلم، كتاب: الفضائل، باب: إثبات حوض نبينا ﷺ، برقم (٢٢٩٢).
(٢) مسلم، كتاب: الفضائل، باب: إثبات حوض نبينا ﷺ، برقم (٢٣٠٠).
(٣) المكلوم: أي المجروح.
(٤) البخاري، كتاب: الذبائح والصيد، باب: المسك، برقم (٥٥٣٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٥) انظر شرح النووي(١٥/٥٦).

وأنها أكثر عددًا من نجوم السماء ولا مانع عقلي أو شرعي يمنع من ذلك، بل ورد الشرع به مؤكدًا)، يقصد بذلك قسم النبي ﷺ في رواية مسلم.

٦ - جمال آنيته: فجمال الآنية وتزيينها للكوثر كان بمثابة تزيين النجوم للسماء ورد عند مسلم: «**كأن الأباريق فيه النجوم**» فقد تكون كثرة الشيء - في الدنيا - تعيب منظره، ولكن كثرة الآنية ستعطي الحوض جمالاً خلابًا كما تعطي النجوم للسماء منظرًا جميلاً.

٧ - نفاسة آنيته: حيث إنها مصنوعة من الذهب والفضة، ورد عند مسلم: «**ترى فيه أباريق الذهب والفضة كعدد نجوم السماء**».

٨ - مصدر مائه: ينبع ماؤه من جنات عدن، ورد في الحديث: «**يشخب فيه ميزابان من الجنة**».

٩ - زينته الخارجية: اعتنى اللَّه - سبحانه وتعالى - بالشكل الخارجي للكوثر حتى يتمتع المؤمن يوم القيامة وهو يشرب منه بمنظره الجميل، حتى تشبع الروح كما يشبع الجسد، فقد جعل - سبحانه وتعالى - على حافتي الكوثر قبابًا مصنوعًا من اللؤلؤ المجوف وهو أغلى المعادن وأنفسها، ورد عند البخاري عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا عُرِجَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى السَّمَاءِ قَالَ: «**أَتَيْتُ عَلَى نَهَرٍ، حَافَتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ مُجَوَّفًا، فَقُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ**»[(١)].

١٠ - طيب طينته: إذا كان أصحاب البساتين والجنات في الدنيا لا يستطيعون أن يجملوا طينة البستان فهي دائمًا سيئة المنظر سيئة اللون وكذا الرائحة، إلا أن اللَّه -عز وجل- من عنايته بكوثر الحبيب ﷺ جعل طينته مسكًا أذفر، روى البخاري في صحيحه عن أَنَس بْن مَالِكٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**بَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ فِي الْجَنَّةِ إِذَا أَنَا بِنَهَرٍ حَافَتَاهُ قِبَابُ الدُّرِّ الْمُجَوَّفِ، قُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَ رَبُّكَ فَإِذَا طِينُهُ أَوْ طِيبُهُ مِسْكٌ أَذْفَرُ**»[(٢)].

١١ - كفايته من الظمأ: وهي مزية لشراب الكوثر لا يشترك معه فيها أي شراب آخر في الدنيا والآخرة - فيما نعلم - ورد في الصحيحين: «**فمن شرب منه فلا يظمأ بعده أبدًا**»، ويستفاد من ذلك أن كل شراب أهل الجنة بعد هذه الشربة الهنية لن يكون عن ظمأ، إنما سيكون الشرب على سبيل التفكه والتلذذ فقط، ويستفاد منه أيضًا قدرة اللَّه - سبحانه

(١) البخاري، كتاب: تفسير القرآن، برقم (٤٩٦٤).
(٢) البخاري، كتاب: الرقاق، باب: في الحوض، برقم (٦٥٨١).

وتعالى - العجيبة الذي وضع في هذه الشربة من الكوثر ما يقطع عن الإنسان الإحساسَ بالظمأ طوال حياته الأبدية في الجنة.

١٢ - سلامة معتقدات وارِديه: قد يكون الملك الداعي إلى الطعام في الدنيا تقيًا ورعًا لا يحب أن يأكل طعامه إلا الأخيار من الناس فيدعوهم إلى مأدبته، ولكن لا يأمن أن يدخل معهم المنافقون وأصحابُ الأهواء ومرضى القلوب، ولكن اللَّه - سبحانه وتعالى - مِنْ بالغِ عنايته لكوثر نبيه حرسه وأمر ملائكته أن يردوا تلك الأصناف فلا يَرِدون الكوثر، ورد عند البخاري عن سَهْل بْن سَعْدٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، فَمَنْ وَرَدَهُ شَرِبَ مِنْهُ، وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ أَبَدًا، لَيَرِدُ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، فأقول: إِنَّهُمْ مِنِّي!! فَيُقَالُ: إِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَا بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي»[1].

ويتفرع عليه: شؤم الابتداع في الدين حيث يُحْرَمَ مَن ابتدع بركةَ الشرب من الكوثر، بل يُحْرم من ورود الحوض أصلاً، ويا ليتهم حُرِموا الشراب من الكوثر فحسب، وإن كانت هذه مصيبة، ولكنهم حملوا معها المصيبة الأعظم، وهي دعاء النبي ﷺ عليهم.

١٣ - اختيار الاسم: مِنْ أَوْجُه عناية اللَّه - سبحانه وتعالى - لكوثر حبيبه ﷺ وجهٌ قد يغفل عنه الكثير، ولكني أعتقد أنه ذروة الاعتناء، هو الاعتناء باسم النهر، فقد أكرم اللَّه - سبحانه وتعالى - تسميته، حين جعل له اسمًا كريمًا يتضمن معاني كثيرة، فإن الكوثر معناه في اللغة: الخير الكثير، قال الإمام القرطبي: (والكوثر فوعل من الكثرة: مثل النوفل من النفل والجوهر من الجهر، والعرب تسمي كل شي كثير في العدد والقدر والخطر كوثرًا، قال سفيان: قيل لعجوز رجع ابنها من السفر: بم آب ابنك؟ قالت: بكوثر، أي: بمال كثير. والكوثر من الرجال: السيد الكثير الخير) [2]. وبعد أن ذكر رحمه الله ستة عشر قولاً لمعاني الكوثر الذي أعطاه اللَّه لنبيه ﷺ ختمها بقوله: (وجميع ما قيل بعد ذلك في تفسيره قد أُعْطِيَه رسول اللَّه ﷺ زيادة على حوضه ﷺ تسليمًا كثيرًا) [3]. انتهى.

١٤ - ذكره في القرآن العظيم: أختم أوجه اعتناء اللَّه - سبحانه وتعالى - لكوثر نبيه ﷺ بأعظم هذه الأوجه وأعلاها منزلة ألا وهي ذكر الكوثر في القرآن الكريم، بل نزول سورة باسمه، وهذا أبلغ التشريف للنبي ﷺ.

(١) سبق تخريجه. (٢) انظر «الجامع لأحكام القرآن»، (٢٠/٢١٦).
(٣) انظر المصدر السابق، (٢٠/٢١٨).

أخي المسلم:

تعمدتُ بَسْطَ أوجه اعتناء اللَّه – سبحانه وتعالى – بالكوثر ليقف كل مسلم على منزلة الرسول الكريم عند ربه – تبارك وتعالى – فيزداد لشخصه حبًا وإجلالاً، ولرؤيته ﷺ شوقًا وحنانًا، ولسنته ﷺ تمسكًا واتباعًا، وللبدعة تجنبًا ونفورًا، وللصلاة عليه والتسليم فرحًا وابتهاجًا ولسماع سيرته العطرة انشراحًا وسرورًا.

الفائدة الثالثة:

وجوب الإيمان بالكوثر؛ وذلك لتضافر أدلة الكتاب والسنة على إثباته، وبصفته ونعته والتي ذكرت طرفًا منها آنفًا.

الفائدة الرابعة: أن قلب النبي ﷺ لا ينام إذا نامت عيناه، ورد في الحديث: «إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسمًا»[(١)].

٣ – شهادته على أمته:

قال تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ فيشهد هو ﷺ على أمته، بينما تطلب بقيةُ الرسل عليهم الصلاة والسلام شهادةَ أمته على أممهم.

٤ – أول من تفتح له أبواب الجنة:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لاَ أَفْتَحُ لأَحَدٍ قَبْلَكَ». رواه مسلم[(٢)].

الشاهد في الحديث: قول خازن الجنة: (بك أمرتُ، لا أفتحُ لأحد قبلك).

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: في شخص النبي ﷺ:

١ – علو منزلته ﷺ على الأنبياء كلهم جميعًا، والشاهد على ذلك أنه آخرهم بعثةً وأولهم دخولاً للجنة، بل له ما هو أعظم من ذلك – قطعًا – أن الجنة لا تفتح لأحد قبله. ولا أقول: إنه ﷺ سيشرف بأن يكون أول من يدخل الجنة، ولكن أقول: إن الجنة هي التي

---

(١) مسلم، كتاب: الصلاة، باب: حجة من قال: البسملة آية من أول كل سورة، برقم (٤٠٠)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٢) مسلم، كتاب: الإيمان، باب: في قول النبي ﷺ: «أنا أول الناس يشفع في الجنة...»، برقم (١٩٧).

تشرف بأن يكون أولُ مَنْ يطرق بابها ويدخلها هو النبي ﷺ.

٢ - ثبت أن اللَّه - تبارك وتعالى - قد فَضَّلَ نبيه ﷺ على سائر الأنبياء والمرسلين من كل وجه، ولم يَثْبت أن أحدًا يفضله ﷺ في أي وجه، ومن ثَمَّ نعلم أن النبيَّ ﷺ أعبدُ الخلق لله - تبارك وتعالى - وأعلمهم به وأطوعهم له.

٣ - تواضعه ﷺ في وقت ومكان وحال لو أُعْطي أحدٌ غيرُه معشارَ ما أُعْطِيه لم يأمن على نفسه الفتنة، فمن تواضعه ﷺ أنه أجاب على الخازن بقوله: (محمد) فلم يذكر صفته ولا نعته، حتى لم يقل: (أنا محمد)، منتهى التواضع والخشوع لله - تبارك وتعالى -.

٤ - إرادة اللَّه - سبحانه وتعالى - إظهارَ فضل نبيه ﷺ وشَرَفِه عند ملائكته وأنبيائه والناس أجمعين، فقد كان في مقدور اللَّه - تبارك وتعالى - أن تفتح الجنة أبوابها بمجرد أن يطرق النبي ﷺ بابها، أو يأمر الخازن أن يفتح لأول طارق ولن يتجرأ أحد أن يطرق قبله ﷺ، ولكن اللَّه - تبارك وتعالى - أراد أن يُعْلِمَ الثقلين أن أبواب الجنة مغلقة وأن أول من يطرقها هو النبي ﷺ، وأن الخازن عنده أمر من الله تعالى ألا يفتح إلا له ﷺ فتزداد بذلك فضائلُ النبي ﷺ.

٥ - كما أن للنبي ﷺ مِنّة على الناس أجمعين بالشفاعة العظمى عند ربه، أراد اللَّه - سبحانه وتعالى - أن يكون له مِنّة أخرى على المؤمنين، وهي أن الجنة ما كانت لِتُفْتَحَ لهم إلا بعد طرقه أبوابها. وهل يمكن أن ينسى كل ساكني الجنة مهما طال عليهم العمر فيها، أن الذي فتح لهم أبوابها هو النبي ﷺ.

الفائدة الثانية: أدب خازن الجنة مع سيد المرسلين ﷺ من جهتين:

الجهة الأولى: أنه بدأ حديثه مع النبي ﷺ بقوله: (بك) للدلالة على اختصاصه ﷺ وحده بذلك الأمر، ولإشعاره باستحالة فتح الباب لأحد قبله، وكان يمكن أن يقول الخازن: (أمرت ألا أفتح لأحد قبلك).

الجهة الثانية: إعلام النبي ﷺ أن الخازن مأمور بألا يفتح لأحد قبله.

الفائدة الثالثة: عناية اللَّه - سبحانه وتعالى - بالجنة إذ جعل لها أبوابًا، وجعل على الأبواب خازنًا.

٥ - أول من تنشق عنه الأرض:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ جَاءَ يَهُودِيٌّ فَقَالَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، ضَرَبَ وَجْهِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِكَ. فَقَالَ: «مَنْ؟» قَالَ: رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ. قَالَ: «ادْعُوهُ». فَقَالَ: «أَضَرَبْتَهُ؟» قَالَ: سَمِعْتُهُ بِالسُّوقِ يَحْلِفُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ.

قُلْتُ: أَيْ خَبِيثُ، عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ؟! فَأَخَذَتْنِي غَضْبَةٌ ضَرَبْتُ وَجْهَهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ تُخَيِّرُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ فَلاَ أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ أَمْ حُوسِبَ بِصَعْقَةِ الأُولَى». رواه البخاري [(١)].

الشاهد في الحديث: قوله ﷺ: «**فأكون أول من تنشق عنه الأرض**». وقد مر شرح هذا الحديث مبسوطًا.

٦ - أنه ﷺ صاحب الوسيلة:

عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لاَ تَنْبَغِي إِلاَّ لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ. فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ». رواه مسلم [(٢)].

الشاهد في الحديث: قوله ﷺ: «**فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا**».

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: في شمائل النبي ﷺ:

١ - علو منزلته ﷺ على سائر الأنبياء في الآخرة - كما هو الحال في الدنيا - حيث إنه ﷺ أرفعهم منزلة في الجنة، ويدل هذا على عظيم حب الله له ﷺ، وأنه أخشى الناس وأتقاهم لله -عز وجل- .

٢ - في الحديث دليل على أن النبي ﷺ لم يُفَضَّلْ على الأنبياء بخمس أو ست خصال فقط، وهي المذكورة في الحديث الذي رواه الشيخان [(٣)]، وأن هذه الخصال الخمس ليست على سبيل الحصر، والدليل على ذلك أن درجة الوسيلة لم تُذكر في هذا الحديث، وقد ذكرت العديد من تلك الصفات والخصال في كتابي هذا.

---

(١) البخاري، كتاب: الخصومات، باب: ما يذكر في الإشخاص والخصومة..، برقم (٢٤١٢).
(٢) مسلم، كتاب: الصلاة، باب: استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، برقم (٣٨٤).
(٣) البخاري، كتاب: الصلاة، باب: قول النبي ﷺ: جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، برقم (٤٣٨)، ومسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، برقم (٥٢١)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

٣ - أدبه الجم ﷺ مع مقام الألوهية، حيث قال ﷺ في أدب رفيع عن درجة الوسيلة: **«لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو»**. مع أنه ﷺ يعلم أنه أحب العباد إلى الله وأقربهم منه منزلة يوم القيامة، ولكنه الأدب الذي يليق بمقامه ﷺ.

٤ - حسن تعبده ﷺ لله رب العالمين وشعوره الدائم بالافتقار إلى خالقه ومُسْدِي النعم إليه -عز وجل-، حيث لم يركن إلى عمله، بل سأل كل أحد من أمته أن يدعو الله له بإحراز تلك المرتبة العالية الرفيعة في الجنة.

٥ - عظيم ما أعده الله - سبحانه وتعالى - لنبيه المختار المجتبى ﷺ في دار كرامته، فإذا كان الله - تبارك وتعالى - أعد لعموم عباده المؤمنين ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خَطر على قلب بشر، فماذا أعد - سبحانه وتعالى - لمن كان السبب في هداية هؤلاء العباد المؤمنين، فماذا أعد الله لمن ثقلت موازينه بأجور متساوية مع أجور الأمة بأكملها ويزيد. والله إن العقل لَيَقْصُر عن تصوّر ذلك.

الفائدة الثانية: ليست الجنة كلها منزلة واحدة، بل هي منازل، وأعلاها درجة الوسيلة، التي لا تنبغي إلا للحبيب ﷺ، وتلك المنازل متفاوتة جدًّا، ودليله ما رواه البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ»** (١).

الفائدة الثالثة: ورد في هذا الحديث شروط يجب توفرها في هذا العمل لنيل شفاعة المصطفى ﷺ (ولقد اخترت فيها الأحوط من كلام العلماء) وهي:

١ - الاستماع للأذان وترديده.

٢ - الصلاة على النبي ﷺ بعد الأذان.

٣ - طلب الوسيلة للنبي ﷺ، وقد عَلَّمَنا النبيُّ ﷺ صيغة الدعاء في الحديث الذي رواه البخاري عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **«مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلَاةِ الْقَائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي، وَعَدْتَهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»** (٢). وهو بلا شك عمل قليل (في وقته

---

(١) البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: درجات المجاهدين في سبيل الله، برقم (٢٧٩٠).

(٢) البخاري، كتاب: الأذان، باب: الدعاء عند الأذان، برقم (٦١٤).

وجهده) ولكن يترتب عليه فضل عظيم، وهذا من بركاته ﷺ على هذه الأمة الفاضلة.

تنبيه: في الحديث دليل على أن المؤذن لا يصلي على النبي بصوت مرتفع بعد الانتهاء من الأذان كما يحدث في بعض الدول الإسلامية - لما ورد في الحديث: «**فقولوا مثل ما يقول المؤذن ثم صلوا علي**» (١). فلو كان المؤذن يصلي على النبي ﷺ بصوت مرتفع ما قال النبي ﷺ: «**ثم صلوا علي**». واكتفى بقوله: «**فقولوا مثل ما يقول**».

٧ - أنه ﷺ أول من يمر على الصراط:

ورد في حديث أبي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّاسَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «**هَلْ تُمَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟**» قَالُوا: لاَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «**فَهَلْ تُمَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟**» قَالُوا: لاَ. قَالَ: «**فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شيئًا فَلْيَتَّبِعْ فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الشَّمْسَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الْقَمَرَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَى هَذِهِ الأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا فَيَأْتِيهِم اللَّهُ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ فَيَأْتِيهِم اللَّهُ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا فَيَدْعُوهُمْ فَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِن الرُّسُلِ بِأُمَّتِهِ وَلاَ يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلاَّ الرُّسُلُ وَكَلاَمُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلاَلِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إِلاَّ اللَّهُ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُوبَقُ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُخَرْدَلُ (٢) ثُمَّ يَنْجُو حَتَّى إِذَا أَرَادَ اللَّهُ رَحْمَةَ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَمَرَ اللَّهُ الْمَلاَئِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ، فَيُخْرِجُونَهُمْ وَيَعْرِفُونَهُمْ بِآثَارِ السُّجُودِ وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيَخْرُجُونَ مِن النَّارِ، فَكُلُّ ابْنِ آدَمَ تَأْكُلُهُ النَّارُ إِلاَّ أَثَرَ السُّجُودِ فَيَخْرُجُونَ مِن النَّارِ قَدْ امْتَحَشُوا (٣) فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ ثُمَّ يَفْرُغُ اللَّهُ مِنْ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ وَيَبْقَى رَجُلٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَهُوَ آخِرُ أَهْلِ النَّارِ دُخُولاً الْجَنَّةَ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ قِبَلَ النَّارِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ اصْرِفْ وَجْهِي عَنْ النَّارِ قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا (٤) وَأَحْرَقَنِي ذَكَاؤُهَا (٥)**

---

(١) مسلم، كتاب: الصلاة، باب: استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، برقم (٣٨٤)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) يخردل: أي يجرح ويقطع من لحمه.

(٣) امتحشوا: أي احترقوا.

(٤) قشبني ريحها: أي سمني وآذاني.

(٥) أحرقني ذكاؤها: أي أحرقني لهيبها.

فَيَقُولُ: هَلْ عَسَيتَ إِنْ فُعِلَ ذَلِكَ بِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيرَ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: لاَ، وَعِزَّتِكَ. فَيُعْطِي اللَّهَ مَا يَشَاءُ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ فَيَصْرِفُ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ فَإِذَا أَقْبَلَ بِهِ عَلَى الْجَنَّةِ رَأَى بَهْجَتَهَا سَكَتَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ قَدِّمْنِي عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَيسَ قَدْ أَعْطَيْتَ الْعُهُودَ وَالْمِيثَاقَ أَنْ لاَ تَسْأَلَ غَيرَ الَّذِي كُنْتَ سَأَلْتَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ لاَ أَكُونُ أَشْقَى خَلْقِكَ. فَيَقُولُ: فَمَا عَسَيتَ إِنْ أُعْطِيتَ ذَلِكَ أَنْ لاَ تَسْأَلَ غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لاَ وَعِزَّتِكَ لاَ أَسْأَلُ غَيرَ ذَلِكَ، فَيُعْطِي رَبَّهُ مَا شَاءَ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ فَيُقَدِّمُهُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ فَإِذَا بَلَغَ بَابَهَا فَرَأَى زَهْرَتَهَا وَمَا فِيهَا مِنَ النَّضْرَةِ وَالسُّرُورِ فَيَسْكُتُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ فَيَقُولُ اللَّهُ وَيْحَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ أَلَيسَ قَدْ أَعْطَيْتَ الْعُهُودَ وَالْمِيثَاقَ أَنْ لاَ تَسْأَلَ غَيرَ الَّذِي أُعْطِيتَ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ لاَ تَجْعَلْنِي أَشْقَى خَلْقِكَ، فَيَضْحَكُ اللَّهُ -عز وجل- مِنْهُ ثُمَّ يَأْذَنُ لَهُ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: تَمَنَّ. فَيَتَمَنَّى حَتَّى إِذَا انْقَطَعَ أُمْنِيَّتُهُ قَالَ اللَّهُ -عز وجل- مِنْ كَذَا وَكَذَا، [1] أَقْبَلَ يُذَكِّرُهُ رَبُّهُ حَتَّى إِذَا انْتَهَتْ بِهِ الأَمَانِيُّ، قَالَ اللَّهُ تعالى: لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ». قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ لِأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أما إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ: لَكَ ذَلِكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: لَمْ أَحْفَظْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلاَّ قَوْلَهُ: «لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ». قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: إِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «ذَلِكَ لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ». رواه البخاري [2].

الشاهد في الحديث: قوله ﷺ: «فيضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته». هذا فضل عظيم للرسول ﷺ، يشهده يوم القيامة الداني والقاصي، فيعرف له فضله، ويشهد له بقدره ويسلم له بعلو مكانته وتميزه على الخلق أجمعين، والعجيب في الأمر أنه ﷺ لن يمر وحده على الصراط لجلال قدره، بل سيأخذ أمته معه، فتكون بذلك أول من يمر من الأمم، بل تمر قبل الأنبياء، مع أن الأنبياء أفضل من آحاد الأمة قطعًا، ولكنها نالت ذلك ببركة إيمانها واتباعها للنبي ﷺ وكونها أمته ﷺ، ولا أستبعد أن يتمنى كل أحد في ذلك الوقت أن يكون من أمته ﷺ ليعبر الصراط أولاً، ولكني لا أجزم به لعدم وجود نص - حسب علمي - يدل عليه. فيا أمة النبي محمد ﷺ افرحوا بهذا الحديث واقْدُرُوا لنبيكم ﷺ قَدْرَه واتبعوا دينه ولا تبتدعوا في سنته حتى تفوزوا بالمرور معه على الصراط وتهون عليكم أهوال يوم القيامة.

---

(١) أي يخاطبه الله تعالى فيقول له: «تمنَّ كذا وكذا. .»، لأمور لم يذكرها العبد في أمانيه.

(٢) البخاري، كتاب: الأذان، باب: فضل السجود، برقم (٨٠٦).

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: ظهور فضل الرسول ﷺ على بقية الرسل وفضل أمته ﷺ على بقية الأمم جميعًا، ودليله من الحديث: المرورُ على الصراط أولاً، ليس هذا فحسب، بل إن الأفضلية تؤخذ أيضًا من قوله ﷺ: «**ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل، وكلامُ الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم**». في الوقت الذي يذهب فيه النبي ﷺ إلى العرش ويسجد تحته ليشفع للخلق كلهم أجمعين كما ورد في باب حديث الشفاعة العظمى.

ويتفرع عليه بيان فضل هذه الأمة على بقية الأمم، من جهة أنها أقل الأمم تعرضًا لأهوال يوم القيامة، وهو من لوازم مرورها على الصراط أولاً.

الفائدة الثانية: رحمة اللَّه العظيمة يوم القيامة بعباده الموحدين، ويظهر ذلك جليًا من كلامه -عز وجل- مع آخر من يخرج من النار وفيه:

١ - تلطفه - سبحانه وتعالى - مع هذا الرجل الذي يعطى كل مرة العهود والمواثيق لله تعالى ثم لا يَبِر بها - وهو واضح من قوله تعالى: «**أليس قد أعطيتَ العهود والمواثيق ألا تسأل غير الذي كنت تسأل؟ فيقول: يا رب لا أكون أشقى خلقك...**». والغريب أن الرجل في كل مرة يقسم بصفة عظيمة من صفات اللَّه وهي: العزة، ثم يعود لما قال. ويحلم اللَّه عليه. بل يقول - سبحانه وتعالى - له: «**ويحك يا ابن آدم ما أغدرك**».

٢ - ومن تلطفه - سبحانه وتعالى - مع الرجل أنه لا يكتفي بإدخاله الجنة، بل يأمره أن يتمنى على اللَّه ما يريد فيقول له الرب - تبارك وتعالى -: «**تَمَنَّ**» بل لم يقتصر الأمر على ذلك أيضًا، ولكن اللَّه يُذَكره من الأماني ما نَسِيَ، ورد في الحديث: (حتى إذا انقطعت أمنيته قال اللَّه -عز وجل-: من كذا وكذا، أقبل يُذكره ربه).

٣ - أما جوده - تبارك وتعالى - فواضح في قوله للرجل: «**لك ذلك وعشرة أمثاله**».

وأقول: لو لم يكن لله على هذا الرجل الذي لم يعمل صالحًا قط إلا اعتقاده التوحيد - مِنْ فضل إلا إدخالُه الجنةَ: لكفى، فكيف والحال كما ذكرتُ.

الفائدة الثالثة: في رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة:

١ - ثبوت رؤية الله تعالى يوم القيامة وهي أعظم ما يفيض الرب - تبارك وتعالى - على عباده المؤمنين، وإثبات هذه الرؤية هو مذهب أهل السنة والجماعة. قال الإمام النووي رحمه الله: (مذهب أهل السنة أن رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة ممكنة، ونَفَتْها المبتدعة

والخوارج، وهو جهل منهم، فقد تضافرت الأدلة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وسلف الأمة على إثباتها في الآخرة للمؤمنين) [١].

٢ - هذه الرؤية المباركة رؤية واضحة جلية لا ارتياب فيها ولا شك، رؤية لا مشقة فيها ولا اختلاف عليها، ولا تزاحم فيها بين العباد، لا يضارون بها من أي جهة، وما ذكرت هو لوازم الألفاظ التي وردت في الروايات المختلفة للحديث ومنها: «هل تمارون»، «هل تضامون»، «هل تضارون».

٣ - علم الصحابة - المقرر عندهم - أن رؤية اللّٰه - سبحانه وتعالى - غير ممكنة في الدنيا، وإن كانت ثمة رؤية فستكون في الآخرة، وهذا من فقههم ﷺ، وورد في الحديث: (يا رسول اللّٰه هل نرى ربنا يوم القيامة؟).

الفائدة الرابعة:

عظيم أمر إقامة الصلوات الخمس والمحافظة عليهن، ورد في الحديث: (أمر اللّٰه الملائكة أن يُخْرِجوا من كان يعبد اللّٰه، فيخرجونهم ويعرفونهم بآثار السجود، وحرم اللّٰه على النار أن تأكل أثر السجود، فكل ابن آدم تأكله النار إلا أثر السجود).

وأقول للذي فرط في الصلاة وتهاون فيها: كم ستندم وتبكي طويلاً وتعض على شفتيك إذا رأيت أهل الصلاة يخرجون من النار وتحبس أنت لتفريطك فيها، فتدارَكِ الأمر قبل فوات الأوان.

ويتفرع عليه ظهور قدرة اللّٰه - سبحانه وتعالى - إذ يأمر النار أن تأكل كل جسد العبد إلا أثر السجود، فتطيع النار أمر ربها، ويكون لها من التمييز ما تعرف به أثر السجود من جسد العبد، مع وجود جسده كله في النار. فسبحان اللّٰه العظيم.

الفائدة الخامسة: جعل اللّٰه الأنبياء رحمة لأممهم، ليس في الدنيا فحسب، بل في الآخرة أيضًا، ومن علامات ذلك أن كل نبي لا يجوز الصراط إلا بقومه.

ب - تفضيله في الدنيا

٨ - إعطاؤه ﷺ نورين (فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة):

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ

(١) انظر «شرح النووي على صحيح مسلم» (٣/ ١٥).

إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ؛ لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلاَّ أُعْطِيتَهُ». رواه مسلم (١).

الشاهد في الحديث: قول الملك: **«أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك»**.

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: بيان تعدد نعم اللَّه - تبارك وتعالى - على نبيه ﷺ بما يميزه عن الأنبياء جميعًا، ودليله من الحديث:

١ - حب اللَّه تبارك وتعالى أن يدخل السرور والفرح على قلب نبيه ﷺ، إذ أرسل إليه الملك بالبشارة بنورين عظيمين، ورد بالحديث: **«أبشر بنورين»**.

٢ - تفضيل كتابه ﷺ على كل الكتب السماوية، ودليله أن سورة واحدة وخواتيم سورة أخرى يعتبران وحدهما نورين لم يعطهما أي نبي من قبل، فكيف لو اجتمع معهما بقية كتاب اللَّه الكريم. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

٣ - إرادة اللَّه - سبحانه وتعالى - أن يبين لنبيه ﷺ ولأمته، بل ولملائكته عليهم السلام شدة اعتنائه بمصطفاه وبما أنزل عليه من كتاب عظيم، فأنزل عليه بعض آي الذكر الحكيم من باب لم يُفْتح من قبل وبملك لم ينزل إلى الأرض من قبل، وهذا غاية التشريف والبر.

الفائدة الثانية: فضل فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة على بقية القرآن الكريم، ليس في أجر التلاوة فحسب، بل من جهة أنهما نوران، ومن جهة الكيفية التي نزلا بها.

الفائدة الثالثة: بيان ما أعطاه اللَّه - تبارك وتعالى - للملائكة من قوة علمية وسمعية وبصرية وخوارق للعادات، يتبين ذلك من:

١ - سماع جبريل عليه السلام صوتَ الباب، ورؤيتُه للملك الذي نزل، وهو جالس مع النبي ﷺ في الأرض.

٢ - سعة علم جبريل عليه السلام، فقد عرف أن هذا الملك لم ينزل إلى الأرض قط قبل ذاك اليوم، مع كثرة عدد الملائكة، كما علم أن هذا الباب لم يفتح أيضًا من قبل.

٣ - نزول الملك من السماء إلى الأرض، في مدة زمنية يسيرة جدًا، وهذا أمر عجيب

(١) مسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة..، برقم (٨٠٦).

يدل على مدى عظمة الله تعالى وقدرته القوية.

الفائدة الرابعة: فضيلة السلام، حيث كانت هي تحية الملك للنبي ﷺ، ولو كانت هناك تحية أفضل منها لذكرها الملك تشريفًا للنبي ﷺ، ويؤخذ أيضًا أن السلام سنة متبعة عند الملائكة وفي الملأ الأعلى، قال تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [إبراهيم: ٢٣].

الفائدة الخامسة: وجوب استبشار المؤمنين وفرحهم بفاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، ومن لم يفعل ذلك، فقد رد بشرى الله - تبارك وتعالى - له، أو أنه قد جهل فضل تلك الآيات المباركات.

الفائدة السادسة: وجوب شكر هذه الأمة لنبيها ﷺ واعترافها بفضله؛ لأن هذا الخير العميم الذي نزل من السماء كان المقصود الأول به هو النبي ﷺ، وأعطيت الأمة هذا النور ببركة اتباعها له ﷺ، قال المَلَكُ: «**أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك**». ولم يقل الملك: «**بشر أمتك بنورين أوتيتهما الأمة**».

٩ - جعلت له الأرض مسجدا وطهورا:

عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**»(١).

مما امتن الله - تبارك وتعالى - على هذه الأمة ببركة نبيها ﷺ، أن جعل لها الأرض كلها طهورًا ومسجدًا، بمعنى أن الرجل إذا فقد الماء تيمم، وإذا أراد أن يصلي فليصل في أي بقعة من الأرض شاء، لا يختص الصلاة فيها بمكان دون مكان فكلها موضع سجود. وينبني على هذه المنة العظيمة عدة أمور نذكرها على هيئة فوائد:

الفائدة الأولى: عظيم أمر الصلاة في شرع نبينا محمد ﷺ وأنها ملازمة للعبد ولا تنفك عنه أبدًا - إلا بجنون أو موت - ولتأصيل هذا الأصل ما ألزمنا الله - سبحانه وتعالى - بالصلاة في مكان معين ولا ألزمنا لرفع الحدث - الأصغر والأكبر - استخدام الماء إذا فقدناه.

(١) سبق تخريجه.

الفائدة الثانية: إرادة اللَّه - سبحانه وتعالى - التخفيف الشرعي على هذه الأمة، وتظهر رحمة اللَّه جلية إذا تعلق التخفيف بفريضة كالصلاة الملازمة للعبد في نهاره وليله، في صحته ومرضه، وفي حله وسفره، في كل أيامه وأحواله، ولو وكل أمر التشريع إلى عقولنا القاصرة، لكنا ضيقنا حدود التخفيف الشرعي كلما عظم أمر الفريضة، ولكن اللَّه الأرحم بنا من أنفسنا وسع حدود التخفيف الشرعي جدًّا في أهم وأعظم فرائض الإسلام وهي الصلاة، تخفيف في هيئتها للمريض وتخفيف في عدد ركعاتها، واختصار أوقاتها للمريض والمسافر، وتخفيف في شرط الطهارة لمن فقد الماء أو أضر بجسده، كما وسع في مكان أدائها لكل مسلم ومسلمة.

الفائدة الثالثة: الأصل في الأرض الطهارة إلا ما ثبت نجاسته، بدليل قوله ﷺ: «وجعلت لي الأرض طهورًا».

الفائدة الرابعة: فيه سعة المكان الذي سيشهد للمسلم بعبادة ربه - تبارك وتعالى - حيث أبيح له أن يصلي في كل بقعة من الأرض، ولو حصر الشرع الصلاة في أماكن محدودة لشهدت له هذه الأماكن فقط. وفيه أيضًا سعة علم اللَّه -عز وجل- وإحاطته بالأرض كلها، إذ لن يصلي عبد في أي مكان من الأرض إلا وقد أحاط به علم اللَّه تبارك تعالى.

الفائدة الخامسة: فيه حث من الشارع الحكيم لكل مسلم على كثرة الصلاة ولو كان في سفره حيث إنه لن يفقد طهوره ولا مسجده.

١٠ - أحلت له الغنائم:

قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنفال: ٦٩].

عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ» (١).

لم يأذن اللَّه - سبحانه وتعالى - لنبي من أنبيائه أن يأكل من المغانم إلا للنبي ﷺ، قال الإمام ابن حجر رحمه الله نقلاً عن الخطابي قوله: (كان من تَقَدَّم على ضربين: فمنهم من لم يؤذن له في الجهاد فلم يكن لهم غنائم، ومنهم من أذن له فيه لكن إذا غنموا شيئًا لم يحل لهم أن يأكلوه وجاءت نار فأحرقته) (٢). انتهى.

---

(١) البخاري، كتاب: فرض الخمس، باب: قول النبي ﷺ: أُحلت لي الغنائم، برقم (٣١٢٢).
(٢) انظر «فتح الباري»، (١/٤٣٨).

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: فيه إشعار للأمة أن الجهاد سيأخذ منها وقتًا ومالاً ودماءً وأنفسًا غالية وأنه باقٍ معها إلى يوم القيامة، ولذلك كان من المناسب أن يعوضها الله عن ذلك - في الدنيا - بإحلال الغنائم.

الفائدة الثانية: إرادة الله - سبحانه وتعالى - أن يوسع على هذه الأمة أبواب رزقه، فأحل لها غنائم أعدائها.

الفائدة الثالثة: فيه ترغيب للأمة للجهاد في سبيل الله، بإحلال الأكل من الغنائم.

الفائدة الرابعة: الحكم الشرعي - وبعد العمل به دهورًا طويلة - قد ينسخ بالكلية، ويأتي الله - سبحانه وتعالى - بحكم جديد مخالف تمامًا للحكم الأول، ألا وهو إحلال الغنائم لهذه الأمة بعد تحريمها على الامم السابقة .

١١ - ﷺ إلى الناس جميعًا:

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ويؤخذ من الآية أن لا أحد من الناس يسعه الخروجُ عن شرعه ﷺ من وقت بعثته إلى يوم القيامة، وأنه لن يُقْبل دينٌ إلا دينه. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ». رواه مسلم [(١)].

١٢ - بعثه ﷺ إلى الثقلين الإنس والجن:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

من أعظم ما فُضِّلَ به نبينا ﷺ على سائر الأنبياء والمرسلين أنه أُرْسِلَ إلى الخلق كافة: العرب منهم والعجم، الأبيض منهم والأسود، الداني منهم والقاصي، بل أرسل ﷺ أيضًا إلى الجن. قال ابن كثير رحمه الله : (يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وهذا خطاب للأحمر والأسود والعربي والأعجمي ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، أي: جميعكم . وهذا من شرفه وعظمته ﷺ أنه خاتم النبيين وأنه مبعوث إلى الناس كافة، كما قال

---

(١) مسلم، كتاب: الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ، برقم (١٥٣).

تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم﴾، والآيات في هذا كثيرة، كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تُعَدّ وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه ﷺ أرسل إلى الناس كلهم) (١).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ» (٢). وروى مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ» (٣).

بعض فوائد الحديثين:

الفائدة الأولى: تفضيل اللّه – تبارك وتعالى – لنبيه ﷺ على سائر الأنبياء – من جهة من أرسل إليهم؛ وذلك من وجهين:

الوجه الأول: أن كل نبي كان يبعث في قومه خاصة، وبعث النبي ﷺ إلى الناس عامة. قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

الوجه الثاني: أنه ﷺ أرسل إلى الجن. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

الفائدة الثانية: كثرة أعباء الرسالة التي تحملها النبي ﷺ، دون سائر الأنبياء والمرسلين، إذ بعث إلى الخلق كافة، إنس وجن. ويتفرع عليه أن له ﷺ من الأجر ما ليس لغيره. ومن أدلة كثرة أعبائه ﷺ أن وفود الجن كانت تأتيه ويسألونه ما يحتاجون إليه.

روى البخاري في صحيحه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّهُ كَانَ يَحْمِلُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِدَاوَةً لِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ فَبَيْنَمَا هُوَ يَتْبَعُهُ بِهَا فَقَالَ: «مَنْ هَذَا؟» فَقَالَ: أَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ. فَقَالَ: «ابْغِنِي أَحْجَارًا أَسْتَنْفِضْ بِهَا وَلاَ تَأْتِنِي بِعَظْمٍ وَلاَ بِرَوْثَةٍ». فَأَتَيْتُهُ بِأَحْجَارٍ أَحْمِلُهَا فِي طَرَفِ ثَوْبِي حَتَّى وَضَعْتُهَا إِلَى جَنْبِهِ ثُمَّ انْصَرَفْتُ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مَشَيْتُ فَقُلْتُ: مَا بَالُ الْعَظْمِ وَالرَّوْثَةِ!

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم»، (٢/ ٢٥٥- ٢٥٦).
(٢) مسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، برقم (٥٢٣).
(٣) سبق تخريجه.

قَالَ: «هُمَا مِنْ طَعَامِ الجِنِّ، وَإِنَّهُ أَتَانِي وَفْدُ جِنِّ نَصِيبِينَ - وَنِعْمَ الجِنُّ - فَسَأَلُونِي الزَّادَ فَدَعَوْتُ اللَّهَ لَهُمْ أَنْ لاَ يَمُرُّوا بِعَظْمٍ وَلاَ بِرَوْثَةٍ إِلاَّ وَجَدُوا عَلَيْهَا طَعَامًا» [١].

وفي رواية عند مسلم عَنْ عَامِرٍ قَالَ: سَأَلْتُ عَلْقَمَةَ هَلْ كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ شَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الجِنِّ؟ قَالَ: فَقَالَ عَلْقَمَةُ: أَنَا سَأَلْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ فَقُلْتُ: هَلْ شَهِدَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الجِنِّ؟ قَالَ: لاَ، وَلَكِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَفَقَدْنَاهُ فَالْتَمَسْنَاهُ فِي الأَوْدِيَةِ وَالشِّعَابِ، فَقُلْنَا: اسْتُطِيرَ أَوِ اغْتِيلَ. قَالَ: فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا هُوَ جَاءٍ مِنْ قِبَلَ حِرَاءٍ، قَالَ: فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَدْنَاكَ فَطَلَبْنَاكَ فَلَمْ نَجِدْكَ فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ، فَقَالَ: «أَتَانِي دَاعِي الجِنِّ فَذَهَبْتُ مَعَهُ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمِ القُرْآنَ». قَالَ: فَانْطَلَقَ بِنَا فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ وَسَأَلُوهُ الزَّادَ؟ فَقَالَ: «لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا، وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ». فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَلاَ تَسْتَنْجُوا بِهِمَا فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ» [٢].

الفائدة الثالثة: أنه لن يَسْمع ببعثته ﷺ أحد ثم لم يؤمن إلا دخل النار خالدًا مخلدًا فيها، لقوله ﷺ: **«لا يسمع بي أحد من هذه الأمة...»**. قال الإمام ابن حجر رحمه الله: (وإنما ذكر اليهودي والنصراني تنبيهًا على من سواهما، وذلك لأن اليهود والنصارى لهم كتاب فإذا كان هذا شأنهم مع أن لهم كتابًا فغيرهم ممن لا كتاب له أولى) [٣].

الفائدة الرابعة: التكاليف الشرعية لا تثبت في حق المكلف ولا يحاسب عليها، إلا بعد سماعه أو إبلاغه بها، ورد في الحديث: **«لا يسمع بي أحد من هذه الأمة»**. يصدق ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، وقوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

قال الإمام النووي رحمه الله: (فيه دلالة على أن من لم تبلغه دعوة الإسلام فهو معذور وهذا جاء على ما تقدم في الأصول أنه لا حكم قبل ورود الشرع على الصحيح، والله أعلم) [٤].

الفائدة الخامسة: ببعثته ﷺ يبطل اتباع الأمم لأي ملة أو شريعة أو دين، ويتوجب على كل أحد أن يؤمن به ﷺ، قال الإمام النووي رحمه الله: (وفيه نسخ الملل كلها برسالة نبينا ﷺ).

(١) البخاري، كتاب: المناقب، باب: ذكر الجن، برقم (٣٨٦٠).
(٢) مسلم، كتاب: الصلاة، باب: الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، برقم (٤٥٠).
(٣) لم أقف عليه من كلام ابن حجر، وهو عند النووي في شرحه لمسلم، (٢/ ٥٢).
(٤) انظر «شرح النووي على صحيح مسلم»، (٢/ ١٨٨).

الفائدة السادسة: كمال رسالته ﷺ وعلو قدرها على جميع الرسالات السماوية السابقة، ذلك أن كل رسالة أنزلها اللَّه -عز وجل- جعلها صالحة لزمن معين ولطائفة مخصوصة من الناس، أما رسالته ﷺ فإنها رسالة صالحة للخلق كلهم جميعًا تصلح لمعادهم ومعاشهم ودنياهم وأخراهم، لأول الزمان وآخره، لسنوات الأمن وسنوات الفتن، لأيام الرخاء وأيام الشدة، رسالة لا تعرف أي نوع من الحدود، لا حدود في زمان ولا مكان ولا جنس ولا لغة.

الفائدة السابعة: اتساع أمة الدعوة الخاصة بالنبي ﷺ وهي الأمة الموجه لها الأمر الرباني بالدخول في الإسلام والإيمان ببعثته ﷺ حيث إن الخطاب توجه لكل أحد بلغته دعوة النبي ﷺ من يوم بعثته ﷺ إلى يوم القيامة. ويؤخذ من الحديث أيضًا أن النبي ﷺ هو أكثر الرسل أتباعًا يوم القيامة وقد بوبت لذلك بابًا خاصًّا.

١٣ - أعطي ﷺ جوامع الكلم:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ».

هذا الحديث من الأحاديث التي جمعت بعض ما فُضِّل به النبي ﷺ على سائر الأنبياء والمرسلين، مما يدل على تفضيل اللَّه - تبارك وتعالى - له وحبه إياه ﷺ.

وقوله ﷺ: «**فضلت على الأنبياء بست**»، لا يدل على أنه لم يفضل بغيرهن، لورود أحاديث صحيحة تثبت غيرهن من الفضائل، وقد أوردت طرفًا منها في هذا الفصل، وقد ذكر أبو سعيد النيسابوري [(١)] في كتاب شرف المصطفى أن عدد ما اختص به نبينا ﷺ عن الأنبياء ستون خصلة .

فلعل اللَّه - تبارك وتعالى - أوحى إليه أولاً بأنه فُضِّلَ بتلك الفضائل الستة الواردة في حديث الباب، ثم تتابع الوحي عليه بفضائل أخرى متفرقة.

---

(١) هو عبد الرحمن بن الحسين بن خالد القاضي شيخ أهل الرأي بخراسان أبو سعيد النيسابوري الحنفي، توفي في سنة (٣٠٩هـ) بنيسابور عن نيف وثمانين سنة، انظر سير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٨٤).

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: فصاحته البالغة ﷺ وحسن بيانه لما ورد في الحديث: «**أعطيت جوامع الكلم**». نقل الإمام النووي عن الهروي قوله: (يعني به القرآن: جمع اللّه في الألفاظ اليسيرة منه المعاني الكثيرة وكلامه ﷺ كان بالجوامع، قليل اللفظ كثير المعاني) [١].

ويتفرع على ذلك: وجوب اعتقاد أن جميع الخلق أقل من النبي ﷺ فصاحة وبيانًا.

الفائدة الثانية: من أوتي شيئًا من جوامع الكلم، فقد أوتي خيرًا كثيرًا، فهي من الخصال المحمودة في الإنسان. والدليل على ذلك، أن اللّه - تبارك وتعالى - فَضَّلَ بها خَيْرَ خلقه ﷺ على الخلق أجمعين.

١٤ - خاتم النبيين ﷺ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِن قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلاَّ وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ**». رواه الشيخان [٢].

سبق الحديث على ما تفضل به اللّه - سبحانه وتعالى - على نبيه بأن جعله خاتم النبيين في فضل (مظاهر حب اللّه - سبحانه وتعالى - لنبيه ﷺ)، وذكرت به الفوائد المتعلقة بهذا التفضيل والأحكام المترتبة عليه.

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: تواضعه ﷺ إذ جعل نفسه كاللبنة الواحدة في بناء جميل جَمَع كل الأنبياء.

الفائدة الثانية: لو تدبر أصحاب العقول السوية منظومة الأنبياء، بدون النبي ﷺ لعلموا أن هذه المنظومة تنقصها لبنة واحدة، وهو النبي ﷺ ولتمنوا بعثته ﷺ لتكتمل المنظومة، ودلالة ذلك واضحة من الحديث حيث شبه النبي ﷺ منظومة الأنبياء كالبيت الناقص لبنة واحدة.

---

(١) انظر «شرح النووي على صحيح مسلم»، (٥/٥).

(٢) البخاري، كتاب: المناقب، باب: خاتم النبيين ﷺ، برقم (٣٥٣٥)، ومسلم، كتاب: الفضائل، باب: ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين، برقم (٢٢٨٦).

الفائدة الثالثة: جمال وحسن منظومة الأنبياء وما بُعِثُوا به من عند ربهم، لما ورد بالحديث: **«كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله»**.

الفائدة الرابعة: فيه دليل على أن عيسى ابن مريم عليه السلام إذا نزل - قبل يوم القيامة - لن ينزل بصفته نبيًا من أنبياء بني إسرائيل يحكم بشريعتهم، ولكن سينزل حكمًا بين الناس يحكم فيهم بشريعة النبي ﷺ.

ورد عند البخاري: **«ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً»** (١). قال ابن حجر رحمه الله: (المعنى أنه ينزل حاكمًا بهذه الشريعة فإن هذه الشريعة باقية لا تنسخ بل يكون عيسى عليه السلام حاكمًا من حكام هذه الأمة) (٢).

١٥ - أحلت له مكة:

عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْعَدَوِيِّ: **أَنَّهُ قَالَ لِعَمْرِو بْنِ سَعِيدٍ وَهُوَ يَبْعَثُ الْبُعُوثَ إِلَى مَكَّةَ: (ائْذَنْ لِي أَيُّهَا الأَمِيرُ أُحَدِّثْكَ قَوْلاً قَامَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْغَدَ مِنْ يَوْمِ الْفَتْحِ، سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ وَوَعَاهُ قَلْبِي وَأَبْصَرَتْهُ عَيْنَايَ حِينَ تَكَلَّمَ بِهِ: أَنَّهُ حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلاَ يَحِلُّ لامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلاَ يَعْضِدَ بِهَا شَجَرَةً، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهَا فَقُولُوا لَهُ: إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالأَمْسِ، وَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ». فَقِيلَ لأَبِي شُرَيْحٍ: مَا قَالَ لَكَ عَمْرٌو؟ قَالَ: أَنَا أَعْلَمُ بِذَلِكَ مِنْكَ يَا أَبَا شُرَيْحٍ، إِنَّ الْحَرَمَ لاَ يُعِيذُ عَاصِيًا وَلاَ فَارًّا بِدَمٍ وَلاَ فَارًّا بِخَرْبَةٍ)** (٣). رواه البخاري (٤).

الشاهد في الحديث:

«إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم». وهذه أيضًا من خصائصه ﷺ التي لم يشاركه فيها أحد من الأولين والآخرين.

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: شرفه ﷺ وعلو منزلته عند ربه أن أحل له القتال بمكة ساعة من

---

(١) البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: نزول عيسى ابن مريم عليهما السلام، برقم (٣٤٤٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر «فتح الباري»، (٦/ ٤٩١).

(٣) الخربة: أي السرقة.

(٤) البخاري، كتاب: العلم، باب: ليبلغ العلم الشاهد الغائب، برقم (١٠٤).

النهار، ولم يُحِلَّ ذلك لأحد غيره، وحتى نتصور كم تُعَدُّ هذه مكرمة للنبي ﷺ يلزم أن نعرفه حرمة مكة، وهي الفائدة التالية.

الفائدة الثانية: عظيم حرمة مكة، ويتبين ذلك من الأمور التالية:

١ - أن اللَّه - سبحانه وتعالى - هو الذي حرم مكة، لما ورد في الحديث: «**إن مكة حرمها الله**»، أي: لم يكن تحريمها باجتهاد من أحد، وإضافةُ تحريمها إلى اللَّه - سبحانه وتعالى - يدل على تعظيم هذا التحريم وغضب اللَّه - سبحانه وتعالى - لمن انتهكه، وقد أكد النبي ﷺ هذا الأمر بقوله: «**ولم يحرمها الناس**».

قال الإمام ابن حجر رحمه الله: (وما ذكر من حديث أنس في البخاري: «**إن إبراهيم حرم مكة**». فمعناه: أنه حرم مكة بأمر اللَّه تعالى لا باجتهاده، أو أن اللَّه قضى يوم خلق السماوات والأرض أن إبراهيم سيحرم مكة، أو أن المعنى: أن إبراهيم أول من أظهر تحريمها بين الناس) [(١)].

٢ - لم تكن مكة في يوم من الأيام حِلاً قَطّ فتحريمها كان مع خلق السماوات والأرض كما أنها لن تكون حلا أبدًا إلى يوم القيامة، ورد في إحدى روايات البخاري: «**فإن هذا بلد حرم اللَّه يوم خلق السماوات والأرض وهو حرام بحرمة اللَّه إلى يوم القيامة**» [(٢)].

٣ - لم يكن إحلال مكة للنبي ﷺ باجتهاد منه لضرورة الفتح، وإنما كان بإذن من اللَّه -عز وجل- ، وقد نص الحديث على ذلك: «**إن اللَّه قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم**».

٤ - مما يوضح عظيم حرمة مكة - حفظها اللَّه وزادها شرفًا - أن اللَّه لما أذن لرسوله ﷺ بالقتال فيها لم يكن الإذن مفتوحًا بل كان إذنًا مقيدًا بوقت معين للضرورة فقط ثم عادت حرمتها مباشرة، ورد بالحديث: «**وإنما أُذِنَ لي فيها ساعة من نهار ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس**».

٥ - إرادة اللَّه - سبحانه وتعالى - الشرعية إبلاغ الأمة كلها أن حل الحرم لساعة من نهار إنما كان أمرًا خاصًا بالنبي ﷺ وعادت بعدها حرامًا إلى يوم القيامة، مع إقامة الحجة على كل من أراد الترخص بما حدث للنبي ﷺ، ورد في الحديث: «**وليبلغ الشاهدُ الغائبَ**». وورد أيضًا: «**فإن أحدٌ ترخص لقتال الرسول ﷺ فيها فقولوا. . . .**».

---

(١) انظر «فتح الباري»، (٤/ ٤٣).

(٢) البخاري، كتاب: الحج، باب: لا يحل القتال بمكة، برقم (١٨٣٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وأُضِيفُ أن النبي ﷺ بَيَّنَ لأمته أمر تحريم مكة بعد حِلّها في اليوم التالي للفتح مباشرة، مما يدلل على أهمية الأمر، ورد في الحديث: (قام به النبي ﷺ الغد من يوم الفتح)، وكأنه ﷺ خاف أن يعتقد الناس أن أمر الترخص بالقتال بمكة أمر مستمر.

الفائدة الثالثة: التأدب مع الإمام أو من ينوب عنه، قال الإمام ابن حجر: (ويستفاد منه حسن التلطف في مخاطبة السلطان ليكون أدعى لقبولهم النصيحة، وأن السلطان لا يخاطب إلا بعد استئذانه ولا سيما إذا كان أمر يُعْترض به عليه، وترك ذلك والغلظة له قد يكون سببًا لإثارة نفسه ومعاندة مَنْ يخاطبه) [(١)]. ورد في الحديث: (ائذن لي أيها الأمير أحدثك قولاً).

الفائدة الرابعة: أفادنا الصحابي الجليل، أبو شريح الخزاعي، بأفضل وسائل تحمل العلم وأتمها، وهي السماع بالأذن وحضور القلب ورؤية المعلم بالعين، ورد في الحديث: (سَمِعَتْه أذناي ووعاه قلبي وأبصَرَتْه عيناي). وينبني على ذلك: أن تخلف حاسة من تلك الحواس يؤثر سلبًا على استيعاب العلم وتحصيله.

١٦- إنزال الكتاب منجمًا:

مما اختص الله - سبحانه وتعالى - به نبيه ﷺ دون سائر الأنبياء والمرسلين، أن أنزل عليه الكتاب العظيم، القرآن الكريم، منجمًا على حسب الأحداث والوقائع، وما كان ذلك إلا عناية بقلب النبي ﷺ. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ [الفرقان: ٣٢]

بعض فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: إرادة الله -عز وجل- تعظيم هذا الكتاب الكريم، ورفع منزلته على جميع الكتب السماوية المنزلة من لدنه جل في علاه، فكان من أَوْجُه العناية به، أن الله -عز وجل- اختصه دون غيره بأحسن طرق التنزيل، وهو التنزيل على مراحل، ومن بركة هذه الطريقة أن تكون قلوب المؤمنين أوعى لحفظه وفهمه، والدليل من الآية الكريمة أن الكتب السابقة قد نزلت كلها دَفْعةً واحدة، أن الله -عز وجل- رد على شبهة الكفار بعدم نزول القرآن جملة واحدة، بأن هذا كان لغرض تثبيت قلب النبي ﷺ، ولو كانت الكتب السابقة

---

(١) انظر «فتح الباري»، (٤/ ٤٣).

نزلت مثل نزول القرآن الكريم، لكان الرد القرآني على الكفار أن هذه هي سنة اللّٰه في جميع الكتب السابقة، وهي النزول على دفعات، ولكان هذا الرد أكثر إفحامًا للمعترضين؛ لأنه بَيَّنَ أن هذا القرآن ليس بدعًا من الكتب، كما بين جهل المعترضين، بكيفية نزول الكتب السابقة. والدليل على ما قلت من كتاب اللّٰه -عز وجل- ، أن الكفار لما اعترضوا على مشي النبي ﷺ في الأسواق وأكله الطعام رد اللّٰه -عز وجل- هذه الشبهة بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

قال الشيخ السعدي رحمه الله : (وهذا كله يدل على اعتناء اللّٰه بكتابه القرآن، وبرسوله محمد ﷺ حيث جعل إنزال كتابه جاريًا على أحوال الرسول ﷺ ومصالحه الدينية) [١].

الفائدة الثانية: عظيم عناية اللّٰه -عز وجل- بقلب نبيه ﷺ، فقد أراد أن يثبته غاية التثبيت، قال الإمام القرطبي رحمه الله : (﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾: أي نقوي به قلبك فتعيه وتحمله؛ لأن الكتب المتقدمة أنزلت على أنبياء يكتبون ويقرءون، والقرآن أنزل على نبي أمي، ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ، ومنه ما هو جواب لمن سأل عن أمور، ففرقناه ليكون أوعى للنبي ﷺ وأيسر على العامل به، فكان كلما نزل وحي جديد زاده قوة قلب) [٢].

وهو كلام جميل من الإمام العالم، ولكني أعتقد أنه لا مدخل لأمية النبي ﷺ في نزول القرآن منجمًا؛ لأن الآية أوضحت سبب النزول مفرقًا أوضح بيان.

الفائدة الثالثة: بيان ما كان عليه قلب النبي ﷺ من قوة وثبات ورسوخ، وهذا ظاهر وجلي لمن تتبع سيرته ﷺ، قال الشيخ السعدي رحمه الله : (لأنه كلما نزل عليه شيء من القرآن، ازداد طمأنينة وثباتًا، وخصوصا عند ورود أسباب القلق، فإن نزول القرآن عند حدوث السبب، يكون له موقع عظيم، وتثبيت كثير، أبلغ مما لو كان نازلا قبل ذلك، ثم تَذَكَّره عند حلول سببه) [٣].

ويؤخذ منه أيضًا ثبات قلوب المؤمنين من أصحاب النبي ﷺ أكثر من غيرهم من أتباع

---

(١) انظر «تيسير الكريم الرحمن»، (٥٨٢).
(٢) انظر «الجامع لأحكام القرآن»، (١٣/ ٢٨).
(٣) انظر «تيسير الكريم الرحمن»، (٨٥٢).

الأنبياء عليهم جميعًا الصلاة والسلام.

الفائدة الرابعة: كثرة اعتراضات الكفار فيما لا يعنيهم ومحاولتهم رد الحق بشبهة باطلة، قال الإمام ابن كثير رحمه الله: (يقول تعالى مخبرًا عن كثرة اعتراض الكفار وتفننهم وكلامهم فيما لا يعنيهم حيث قالوا: لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة).

وأنبه إخواني المسلمين أن الاعتراضات على شرع اللَّه نهج غير المسلمين، أما المسلمون فنهجهم واضح بيِّنٌ، مدحهم اللَّه به في كتابه العزيز قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: من الآية ٢٨٥].

كما يؤخذ من الآية الكريمة سفاهة عقول الكافرين غاية السفاهة؛ لأنهم لو أعملوا عقولهم لعلموا أن ما اعترضوا عليه هو غاية الجمال والكمال والحكمة الإلهية، ولكنْ حبُّ الاعتراض يُعْمي القلوب والعقول عن الحق الواضح الجلي.

الفائدة الخامسة: حاجة القلوب دائمًا إلى التذكرة وسماع الذكر الحكيم، وهو أعظم ما يُثَبِّتُ القلوبَ ويُقَوي الإيمان.

الفائدة السادسة: من الحكمة أن يختار الواعظ عند وعظه، الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، التي تراعي المقام وتناسب الأحداث التي تمر بالناس، فإن هذا أوعى للقلوب وأكثر تثبيتًا لها.

١٧- تعدد أسمائه ﷺ:

من أظهر دلائل علو قدر النبي ﷺ وسمو مكانته، هو تعدد أسمائه، فإن كثرة الأسماء مع حسنها تدل على كثرة الصفات والمحامد والوظائف التي يقوم بها المسمى بتلك الأسماء، ولما كان النبي ﷺ قد بلغ الغاية في الكمال الإنساني فقد اختصه اللَّه - سبحانه وتعالى - بتعدد أسمائه وصفاته، والتي تُظْهِر بجلاءٍ شمائلَه وخصائصَه ونُعوتَه التي تَفَضَّل اللَّه بها عليه في الدنيا والآخرة. وقد جعلتُ تعددَ أسمائه وصفاته ﷺ مما اختص اللَّه به نبيه ﷺ دون سائر الأنبياء والمرسلين لسببين:

السبب الأول: أننا لا نعرف من الكتاب والسنة نبيًّا من الأنبياء له من الأسماء ما لنبينا ﷺ.

السبب الثاني: على سبيل الفرض، لو تعددت أسماء نبي من الأنبياء، فإن الصفات المشتقة منها أسماء النبي ﷺ، لا تنبغي لنبي غيره، كما سنرى في معاني تلك الأسماء.

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِيَ الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ» (١). وعنه رضي الله عنه في رواية مسلم: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يُمْحَى بِيَ الْكُفْرُ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى عَقِبِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ». وَالْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ (٢)، وعند مسلم أيضًا، من حديث أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُسَمِّي لَنَا نَفْسَهُ أَسْمَاءً فَقَالَ: «أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْمُقَفِّي، وَالْحَاشِرُ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ» (٣).

بعض فوائد الأحاديث:

الفائدة الأولى: حب اللَّه - سبحانه وتعالى - للنبي ﷺ، بأنْ شَرَّفَه بتعدد أسمائه وصفاته، والتي تدل على كثرة خيره ووفور بركته وعلو مكانته وتعدد شمائله، كما أن من علامات هذا الحب أن بعض تلك الأسماء والصفات قد ادخرها اللَّه -عز وجل- لنبيه ﷺ فلم يشاركه فيها أحد من الأولين والآخرين. قال الإمام ابن حجر رحمه الله في شرحه لقوله ﷺ: «إن لي خمسة أسماء» ما نصه: (والذي يظهر أنه أراد أن لي خمسة أسماء اختُصِصْتُ بها لم يُسَمَّ بها أحد قبلي أو معظمة أو مشهورة في الأمم الماضية). كما نقل رحمه الله عن القاضي عياض قوله: (حمى اللَّه هذه الأسماء أن يُسَمى بها أحد قبله، وإنما تَسَمى بعض العرب محمدًا قرب ميلاده لما سمعوا من الكهان والأحبار أن نبيًّا سيبعث في ذلك الزمان يسمى محمدًا، فرجوا أن يكونوا هم فسموا أبناءهم بذلك) (٤).

الفائدة الثانية: بعض أقوال العلماء في معاني أسمائه ﷺ:

١ - محمد: قال الإمام القرطبي رحمه الله (محمد منقول من صفة، وهي في معنى محمود، ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار، فالمحمد هو الذي حُمِدَ مرة بعد مرة، كما أن المكرم من الكرم مرة بعد مرة، وكذلك المُمَدَّح ونحو ذلك، فاسم محمد مطابق لمعناه، واللَّه سبحانه سماه قبل أن يسمي به نفسه، فهذا علم من أعلام نبوته إذ كان اسمه صادقًا عليه، فهو محمود في الدنيا لما هدى إليه ونفع به من العلم والحكمة، وهو محمود في الآخرة

---

(١) البخاري، كتاب: المناقب، باب: ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ، برقم (٣٥٣٢).
(٢) مسلم، كتاب: الفضائل، باب: في أسمائه ﷺ، برقم (٢٣٥٥).
(٣) انظر ما قبله. (٤) انظر «فتح الباري»، (٦/٥٥٦).

بالشفاعة فقد تكرر معنى الحمد - يقصد أسباب الحمد - كما يقتضي اللفظ) (١).

٢ - أحمد: قال الإمام القرطبي رحمه الله: (هو اسمُ علمٍ منقول من صفة لا من فعل، فتلك الصفة أفعل التي يراد بها التفضيل، فمعنى أحمد أي أحمد الحامدين لربه، والأنبياء صلوات الله عليهم كلهم حامدون لله، ونبينا أحمد أكثرهم حمدًا) (٢).

لطيفة: لماذا سمي النبي ﷺ في التوراة والإنجيل باسم أحمد وليس باسم محمد، قال القرطبي رحمه الله: (ثم إنه لم يكن محمدًا حتى كان أحمد، حمد ربه فنبأه وشرفه فلذلك تقدم اسم أحمد على الاسم الذي هو محمد، فذكره عيسى عليه السلام فقال: اسمه أحمد). وأضاف رحمه الله: (إن حمده ﷺ لربه كان قبل حمد الناس له، فلما وُجد وبُعث كان محمدًا بالفعل، وكذلك بالشفاعة يحمد ربه بالمحامد التي يفتحها عليه، فيكون أحمد الناس لربه، ثم يشفع فَيُحْمَد على شفاعته) (٣).

٣ - الماحي: فسرها الحديث بقوله ﷺ: «**الذي يمحو الله بي الكفر**»، قال الزرقاني: (أي يزيل الله به الكفر، لأنه بعث والدنيا مظلمة بغياهب الكفر، فأتى بالنور الساطع حتى محاه، قال عياض: أي من مكة وبلاد العرب وما زُوِيَ له من الأرض، ووُعِدَ أنه يَبْلغه مُلْك أمته قال - أي القاضي عياض - أو يكون المحو عامًّا بمعنى الظهور والغلبة ليظهره على الدين كله) (٤). انتهى.

٤ - الحاشر: ويحتمل معنيين، الأول: أن الناس يحشرون على أثره ﷺ يوم القيامة فيكون أول من يحشر، لقوله ﷺ: «**أنا أول من تنشق عنه الأرض**». ومن ثم يحشر الناس بعده، فهم له في ذلك تبع، والثاني: أنه ﷺ من علامات الحشر، فليس بعده نبي ولا شريعة، فإن قال قائل: النبي ﷺ لن يحشر الناس ولكنه يحشر قبلهم، فلماذا سمي الحاشر وهو اسم فاعل؟ قال الإمام ابن حجر رحمه الله: (لما كان لا أمة بعد أمته لأنه لا نبي بعده نسب الحشر إليه لأنه يقع عقبه) (٥)، أي أن الحشر نُسِبَ إليه مجازًا لأنه سبب فيه، فالناس لن يحشروا إلا بعد بعثته ﷺ.

٥ - العاقب: أي الذي جاء عقب الأنبياء، فليس بعده نبي، كما ذكر في رواية مسلم: «**وأنا العاقب**». والعاقب: (الذي ليس بعده نبي)، ويبدو أن هذه الزيادة في الحديث من إدراج الرواة.

---

(١) انظر «الجامع لأحكام القرآن»، (١٨/ ٨٤).
(٢) انظر المصدر السابق، (١٨/ ٨٣).
(٣) انظر المصدر السابق، (١٨/ ٨٤).
(٤) انظر «شرح الزرقاني»، (٤/ ٥٥٩).
(٥) انظر «فتح الباري»، (٦/ ٥٥٧).

٦ - نبي التوبة ونبي الرحمة: قال الإمام النووي رحمه الله: (ومقصوده أنه ﷺ جاء بالتوبة والتراحم، قال تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾).

الفائدة الثالثة: أما الأسماء التي وردت له ﷺ في القرآن الكريم، فهي كثيرة، وهي في الحقيقة صفات له ﷺ، قال الإمام ابن حجر رحمه الله: (ومما وقع من أسمائه في القرآن بالاتفاق: (الشاهد، المبشر، النذير المبين، الداعي إلى الله، السراج المنير)، وفيه أيضًا: (المُذَكِّرُ والرحمة والنعمة والهادي والشهيد والأمين والمزمل والمدثر، أما من أسمائه المشهورة: المختار والمصطفى والشفيع المشفع والصادق المصدوق) [1]. وأضاف الحافظ رحمه الله (الحكمة في الاختصار على الخمسة المذكورة في الحديث أنها أشهر من غيرها وموجودة في الكتب السابقة وبين الأمم السالفة) [2].

تنبيه هام: قال الإمام ابن حجر رحمه الله: (نقل ابن العربي في شرح الترمذي عن بعض الصوفية أن لله ألف اسم ولرسوله ﷺ ألف اسم) [3]. انتهى.

وهذا الكلام فيه مبالغة شديدة لا تخفى على أحد، والذي أريد أن أنبه عليه، هو التذكير بأن أسماء اللّه - سبحانه وتعالى - وكذا أسماء النبي ﷺ توقيفية تُعلم بالدليل الصحيح، ولا مجال للاجتهاد فيها، ولا ينبغي إطلاق اسم على النبي ﷺ لم يرد به حديث صحيح، توقيرًا وإجلالاً لمقام النبوة، ومن ذلك إطلاق البعض اسم يس وطه على النبي ﷺ.

١٨- مغفرة ما تقدم وما تأخر من ذنبه:

وهي منزلة عظيمة رفيعة لم يشارك فيها النبيَّ ﷺ أحدٌ من الأولين والآخرين، وهي منزلة ادخرها اللّه -عز وجل- لأحب الخلق إليه وأكرمهم عليه، قال الإمام ابن كثير: (هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره، وليس في حديث صحيح أحدٌ غيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهذا فيه تشريف عظيم لرسول اللّه ﷺ، وهو ﷺ في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو ﷺ أكمل البشر على الإطلاق وسيدهم في الدنيا والآخرة) [4].

قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝﴾ [الفتح: ١-٢].

(١) انظر «فتح الباري»، (٦/ ٥٥٧).
(٢) انظر المصدر السابق، (٦/ ٥٥٨).
(٣) انظر المصدر السابق، (٦/ ٥٥٨).
(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم»، (٤/ ١٨٥).

بعض فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائدة الأولى: نزلت الآيتان الكريمتان عند عودة النبي ﷺ من الحديبية، روى البخاري في صحيحه عَنْ قَتَادَةَ أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ حَدَّثَهُمْ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ . . . إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ مَرْجِعَهُ مِنَ الْحُدَيْبِيَةِ وَهُمْ يُخَالِطُهُم الْحُزْنُ وَالْكَآبَةُ وَقَدْ نَحَرَ الْهَدْيَ بِالْحُدَيْبِيَةِ، فَقَالَ: «لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا» (١) .

أما مناسبة نزول الآيات بعد صلح الحديبية، فقال الإمام القرطبي رحمه الله: (﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ لكي يجمع اللَّه لك مع الفتح المغفرة فيجمع اللَّه لك به ما تقر به عينك في الدنيا والآخرة) (٢)، وقال صاحب التفسير الميسر: (فتحنا لك ذلك الفتح ويسرناه لك ليغفر اللَّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر بسبب ما حصل من هذا الفتح من الطاعات الكثيرة وبما تحملته من المشقات، ويتم نعمته عليك بإظهار دينك ونصرك على أعدائك ويرشدك طريقًا مستقيمًا من الدين لا عوج فيه) (٣).

الفائدة الثانية: الفتح المبين الذي ذُكر في القرآن هو صلح الحديبية، وليس فتح مكة كما يتبادر للذهن، ودليله ما رواه البخاري عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنِ الْبَرَاءِ ﷺ قَالَ: (تَعُدُّونَ أَنْتُم الْفَتْحَ فَتْحَ مَكَّةَ وَقَدْ كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ فَتْحًا وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ) (٤) .

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: (فتحًا مبينًا: أي بينًا ظاهرًا والمراد به صلح الحديبية فإنه حصل بسببه خير جزيل وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض وتكلم المؤمن مع الكافر وانتشر العلم النافع والإيمان) (٥).

الفائدة الثالثة: الآيتان الكريمتان ما هما إلا ظاهرة قرآنية في الاحتفاء بالنبي المجتبى والرسول المصطفى، تدلل على عظيم حب اللَّه لنبينا ﷺ، يتبين ذلك من:

---

(١) بنحو مشابه أخرجه البخاري، كتاب: المغازي، باب: غزوة الحديبية، برقم (٤١٧٢)، كلاهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) انظر «الجامع لأحكام القرآن»، (١٦/ ٢٦٢).

(٣) انظر «التفسير الميسر».

(٤) البخاري، كتاب: المغازي، باب: غزوة الحديبية، برقم (٤١٥٠).

(٥) انظر «تفسير القرآن العظيم»، (٤/ ١٨٤).

١ - أوضحت الآيتان أن اللَّه - تبارك وتعالى - قد يسر وهيأ الفتح المبارك ليكون مقدمة وسببًا في مغفرة ذنوب النبي ﷺ، وهي منزلة عظيمة لم ينلها أحد من العالمين غيره ﷺ كما بينتُ من أقوال العلماء.

٢ - إرادة اللَّه - تبارك وتعالى - أن يطمئن نبيه ﷺ أنه مغفور له كل شيء، فيطمئن ﷺ على ما فات من حياته المباركة - قبل النبوة وبعدها - ويسعد بما يستقبل في بقية حياته، فلا حزن على ما فات ولا خوف على ما سيأتي، وهذا يحقق غاية السعادة وراحة القلب.

ويتفرع عليه: أن النبي ﷺ أمن الخوف من سؤال ربه - تبارك وتعالى - في الدنيا والآخرة، وليس ذلك لأنه أمن مكر اللَّه - حاشا لله - ولكن بسبب تصديقه ﷺ لخبر ربه - عز وجل- .

٣ - لم تقتصر البُشْرَى العظيمة على مغفرة الذنب كله، بل ضم إلى ذلك إتمام النعمة والهداية إلى الطريق المستقيم. قال الإمام الطبري في معنى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ ما نصه: (بإظهاره إياك على عدوك ورفعة ذكرك في الدنيا وغفرانه ذنوبك في الآخرة) [(١)].

ويتفرع على هذا أمران عظيمان وهما:

أ - أن نعم اللَّه -عز وجل- على نبيه ﷺ في الدارين الدنيا والآخرة، وفي أمري الدين والدنيا، وفي أمره خاصة وأمر أمته: قد بلغت الغاية والمنتهى في الكمال والجمال، وهذا مقتضى قوله تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾.

ب - كمال عصمته ﷺ، لقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾، فمن شكك في عصمته فلا يخرج أمره عن حالين، إما أن يكون مكذبًا لكلام اللَّه -عز وجل- ، وإما أن يظن باللَّه ظنًّا سيئًا، حيث ظن أن هدى اللَّه فيه الخطأ والزلل.

الفائدة الرابعة: هل يعني قولُه تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أن النبي ﷺ قد أصاب شيئًا يستحق معه المغفرة؟ أقول: لا، بل نجزم أن النبي ﷺ لم يقترف في حياته - قبل البعثة وبعدها - صغيرة فضلاً عن كبيرة، وقد بينت ذلك في أكثر من موضع في هذا الكتاب، ولكن أقول: إن تلك المغفرة هي درجة عالية رفيعة، حتى مع كونه ﷺ معصومًا، وقال آخرون: مغفرة ذنبه ﷺ يكون على تركه الأولى من الأمور أو فعله

(١) انظر «تفسير الطبري»، (٢٦/ ٧١).

غير الأولى، بالنسبة لمقامه ﷺ، فَيُعَدّ إتيانُه خلافَ الأولى من الأمور ذنبًا في حقه ﷺ يستحق عليه المغفرة، أما في حق غيره من عموم المسلمين فلا يعتبر ذنبًا، قال صاحب المنتخب: (ليغفر الله لك ما تقدم مما يُعَدّ لمثل مقامك ذنبًا وما تأخر منه) (١).

أدلة على عظم أمر غفران الله -عز وجل- للنبي ﷺ ما تقدم من ذنبه وما تأخر:

١ - من جهة نبينا ﷺ: روى مسلم في صحيحه عَنْ قَتَادَةَ أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ حَدَّثَهُمْ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ [الفتح: ١-٢]. . . إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾، مَرْجِعَهُ مِن الْحُدَيْبِيَةِ، وَهُمْ يُخَالِطُهُم الحزنُ وَالْكَآبَةُ وَقَدْ نَحَرَ الْهَدْيَ بِالْحُدَيْبِيَةِ فَقَالَ: «لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِن الدُّنْيَا جَمِيعًا» (٢).

٢ - من جهة عيسى عليه السلام: ورد في حديث الشفاعة الطويل أن عيسى قال للناس لما طلبوا منه الشفاعة: (ائتوا محمدًا ﷺ عبدًا غَفَرَ الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر)، فلم يذكر عيسى ﷺ في حق نبينا ﷺ أنه خاتم النبيين أو أنه خليل الرحمن أو أنه سيد ولد آدم، ولكن ذكر فيه ما يعتقد أنه أعظم صفاته التي تؤهله ﷺ للوقوف بين يدي ربه - تبارك وتعالى - للشفاعة العظمى، وهي أن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فتدبر.

٣ - من جهة المسلمين: ما رواه البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، قَالَ: الْحُدَيْبِيَةُ، قَالَ أَصْحَابُهُ: هَنِيئًا مَرِيئًا، فَمَا لَنَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، فلقد هَنَّئوا النبي ﷺ على هذا التشريف الإلهي العظيم لما علموا من شرف هذه المنزلة.

١٩- النصر بالرعب:

قال تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝﴾ [الأنفال: ١٢].

٢٠ - النصر بالصبا:

عَن ابْنِ عَبَّاسٍ، عَن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ: «قَالَ نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بالدَّبور». رواه البخاري (٣).

(١) انظر «المنتخب».
(٢) مسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: صلح الحديبية في الحديبية، برقم (١٧٨٦).
(٣) البخاري، كتاب: المغازي، باب: غزوة الحديبية، برقم (٤١٧٢).

والصَّبا: هي الريح التي تهب من مشرق الشمس، ونصرته بها ﷺ كانت يوم الخندق، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩]، فقد أرسلها الله - تبارك وتعالى - على الأحزاب باردةً في ليلة شاتية، فقلعت خيامهم وأطفأت نيرانهم وقلبت قدورهم، فكان ذلك سبب انهزامهم، أما الدبور: فهي ريح تهب من مغرب الشمس، وبها كان هلاك قوم عاد، وصفها الله القوي العزيز في كتابه الكريم بالريح الشديدة، قال - عز من قائل -: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ﴾ [القمر: ١٩].

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: عجيب قدرة الله - تبارك وتعالى - فقد جعل الريح: (وهو هواء قوي لا يرى بالعين) جُندًا من جنده، يهزم به أعداءه وينصر به أولياءه، ومن عجيب قدرته أيضًا أنْ نَوَّعَ بين أصناف هذه الريح، فهذه ريح تأتي من المشرق تُسمى الصَّبا، وأخرى تأتي من المغرب تسمى الدبور، وأخرى تأتي من الشمال والجنوب، بل إن هناك ريحًا تأتي من بين جهتين، ويقال لها: النكباء. كما ذكر الإمام ابن حجر رحمه الله .

الفائدة الثانية: حب الله - تبارك وتعالى - لنبيه ﷺ، إذ نَوَّعَ له أسباب نصره على عدوه، ليبين له ولأمته شدة اعتنائه به ﷺ، فتارة ينصره بالريح، وتارة ينصره بالرعب، وأخرى ينصره بالملائكة والروح القدس. بل نصره بأن أراه عدوه ﷺ في منامه وكأنه فئة قليلة. قال تعالى ﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الأنفال: ٤٣]. وكان يمكن أن يكون سبيل النصر واحدًا.

الفائدة الثالثة: كان النبي ﷺ حقًّا رحمة للعالمين إنسهم وجنهم، مسلمهم وكافرهم، ودليله أن الله - تبارك وتعالى - لما أرسل على الأحزاب ريحًا لم يجعلها تستأصلهم، بخلاف الريح التي أرسلت على قوم عاد فقد أهلكتهم عن بكرة أبيهم، قال الإمام ابن حجر رحمه الله: (ولما علم الله رأفة نبيه ﷺ بقومه رجاء أن يُسْلموا سلط الله عليهم الصَّبا، فكانت سبب رحيلهم عن المسلمين لما أصابهم بسببها من الشدة، ومع ذلك لم تُهْلِكْ منهم أحدًا ولم تستأصلهم) [1].

(١) انظر «فتح الباري»، (٢/ ٥٢١).

الفائدة الرابعة: النصر على العدو لا يشترط فيه المنازلة والالتحام، بل قد يحدث دون التقاء الفريقين، فالله - سبحانه وتعالى - قد أرسل على الأحزاب ريحًا جلعتهم ينسحبون من حول المدينة بدون منازلة، وقد سمى النبي ﷺ ذلك نصرًا، ورد بالحديث: «**نصرت بالصبا**»

٢١ - تعظيم بيعته ﷺ:

قال - تعالى - : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: ١٠].

مظاهر تعظيم بيعته ﷺ:

١ - جعل الله - تبارك وتعالى - بيعة النبي ﷺ كالبيعة معه تبارك وتعالى، سواء بسواء، قال صاحب المنتخب: (﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ أيها النبي بيعة الرضوان يوم الحديبية على الثبات في الجهاد وقتال قريش ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾). وقال صاحب تفسير الزيد: (إن عقد الميثاق مع رسول الله ﷺ كعقده مع الله - سبحانه وتعالى - من غير تفاوت).

ولتأكيد القرآن لهذا المعنى قال تعالى عند ذكر الثواب المترتب على الوفاء بهذه البيعة: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾. فقد جعل البيعة كلها عهدًا معه - سبحانه وتعالى - .

٢ - إثبات مباركة الله لهذه البيعة وأنه مطلع عليها وكذلك رضاه عنها، لقوله - تعالى- : ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ﴾.

٣ - ذكر تلك البيعة في القرآن العظيم في سياق المدح والثناء عليها.

٤ - ترتيب أعظم الأجر والثواب لمن وفّى بتلك البيعة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

بعض فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: شرف النبي ﷺ عند ربه - تبارك وتعالى - وعلو منزلته، حيث شرف بيعته ﷺ من كل وجه كما رأينا.

الفائدة الثانية: أن بيعة النبي ﷺ ليست كالبيعة مع غيره - ممن يقوم مقامه - كالوالي والخليفة، فإن كانت مبايعة المؤمنين للسلطان عبادة، فلا شك أن مبايعة النبي ﷺ أعظم وأشرف وأكثر بركة، والدليل على ذلك أن الله . تبارك وتعالى . أضاف البيعة إلى نفسه المقدسة.

الفائدة الثالثة: حث الصحابة ﷺ على مبايعة النبي ﷺ والوفاء بها بإعلامهم أن هذه البيعة إنما هي بيعة مع الله تبارك وتعالى.

الفائدة الرابعة: من بايع النبي ﷺ بيعة الرضوان يوم الحديبية ووفّ بهذه البيعة، فقد نال بركة مبايعة اللّه - تبارك وتعالى - له في الدنيا، والأجر العظيم في الآخرة. وهذا بلا شك فضل لا يدانيه فضل.

الفائدة الخامسة: من نقض العهد مع اللّه - تبارك وتعالى - أو نكص على عقبيه أو فرط في جنب اللّه فلن يضر اللّه شيئا، فهو سبحانه الغني الحميد، فوبال المعصية وشؤمها يرجع على صاحبها وحده، قال - تعالى -: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠] ..

* * *

ثانيا: تفضيل أمته ﷺ على سائر الأمم في الدنيا والآخرة

١ - أمة مصطفاة:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [فاطر: ٣٢-٣٣].

الشاهد في الآية الكريمة: هو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، فكل من آمن بالله ورسوله وحقق بقية أركان الإيمان، ولم يأت بشيء ينقض تلك الأركان، فهو من الأمة المصطفاة، أي التي اختارها الله تعالى وفضلها على جميع الأمم السابقة.

بينت الآية بعض فضائل هذه الأمة العظيمة ومنها:

١ - إيراث الكتاب: قال القرطبي ما نصه: (الكتاب - هاهنا - يريد به معاني الكتاب وعِلْمَه وأحكامه وعقائده، وكأن الله لما أعطى أمة محمد ﷺ القرآن، وهو قد تضمن معاني الكتب المنزلة، فكأنه وَرَّثَ أمةَ محمد الكتابَ الذي كان في الأمم قبلنا). انتهى كلامه [(١)].

فكأن الله -عز وجل- قد جمع لهذه الأمة في القرآن كل الكتب المنزلة السابقة، وجعل ذلك بمثابة الميراث الذي منحها إياها، وكفى بذلك شرفًا وفضلاً.

٢ - أضاف الله -عز وجل- ، كل طوائف هذه الأمة إلى ذاته الشريفة فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، كما وصفهم بأشرف الأوصاف وهي العبودية، واسمع بماذا وَصَف الله مِنْحَتَه للأمة، أي توريث الكتاب والاصطفاء، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾، ولك أن تتخيل أن الله الكبيرَ الغنيَّ، إذا وصف الفضل بأنه كبير، كيف يكون كِبَرُ هذا الفضل؟ فسيكون كبيرًا في قدره صفة ووصفًا، وفي حجمه عددًا وكمًّا.

٣ - دخول جميع طوائف الأمة الجنة، بل جنات وَصَف ساكنيها بأحسن الأوصاف، ووصف ما فيها بأحسن الصفات قال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].

وفي الآيتين فوائد منها:

الفائدة الأولى: كل ما أعطاه الله - سبحانه وتعالى - لعباده المؤمنين، هو محض فضل

---

(١) انظر «الجامع لأحكام القرآن»، (١٤/٣٤٧).

منه، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾، كما أن قيام المسلم بأداء العبادة، والمسابقة في ميادين الخير، إنما هو بإذن الله، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]، يتفرع على ذلك أن على العبد المسلم ألا يرى لنفسه فضلا في عبادة الله، وأن يُرْجع الفضل كله لله، ويسأله دومًا التوفيق لعمل الطاعات، وإذا وُفِّقَ كان عليه شكر المنعم المتفضل، الذي أذن له بالطاعة ووفقه لها.

الفائدة الثانية: وجوب امتنان هذه الأمة لخالقها ومصطفيها -عز وجل- ، إذا امتن عليها بواسع فضله، في الدنيا بالاصطفاء والكتاب، وفي الآخرة بالجنات العاليات. ويجب أن يكون هذا الامتنان بالعلم والعمل.

الفائدة الثالثة: لا ينبغي لأحد أبدًا من المؤمنين، أن يعتقد بأن ما عند غير المسلمين أفضل مما عنده، وكذلك من أعطاه الله الكتاب علمًا ودراية وعملاً وحفظًا، أن يعتقد أن غيره من المسلمين ممن هو أقل منه في العلم والعمل بالقرآن أنه أفضل منه وإن كان ذا حظ في المال والجاه والنسب، لأن هذا وذاك تكذيب لصريح الآية، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾، فجاء الإخبار بالجملة الاسمية التي تفيد الاستمرار والثبوت، مما يوجب الاعتقاد أن غير ذلك ليس بالفضل الكبير.

والحاصل أن كل فضل في الدنيا، يُحْتقر مقارنةً بفضل الكتاب والاصطفاء، أما في الآخرة فلا فضل إلا في الجنة.

الفائدة الرابعة: تعظيم القرآن الكريم؛ لأن اللّه - سبحانه وتعالى - قد جمع لهذه الأمة فيه كل الكتب المنزلة من قبل، فيجب على المسلمين الاهتمامُ به غاية الاهتمام، وأن لا تكون نعمة تداول القرآن بيسر وسهولة في طبعات مزينة مزخرفة، وأنه متوفر في كل بيت ومسجد ومكتب، سببًا في عدم الشعور بهذه المنة العظيمة من الله، ومن غره ذلك، فليعلم أنه أتى على الناس زمن، كانوا يشترون القرآن بمئات الجنيهات من العملات الصعبة، ويوزعونه بينهم خفية، ويقسمونه على عدة أجزاء لصعوبة الحصول على نسخة كاملة، ومن ضبط عنده شيء منه يحكم عليه بالسجن أو القتل.

الفائدة الخامسة: الحكمُ بتخليد أهل الكبائر من المسلمين في النار -أو أنه في منزلة بين منزلتين أو أنه كافر- تكذيبٌ بظاهر القرآن، حيث إن الآية قسمت المصطفين من عباد اللّه إلى ثلاثة أقسام: الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات، فإذا لم يكن أصحاب الكبائر من الظالمين لأنفسهم، فليس في الدنيا ظالم لنفسه، كما أن الآية حكمت للفئات الثلاثة أنهم

يدخلون الجنة، قال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾، ولو لم يكن الظالم لنفسه سيدخل الجنة برحمة الله، فلماذا ذُكِر في الآية التي يعدد الله - سبحانه وتعالى -، فيها أفضاله على هذه الأمة؟ وكيف تختم الآية الأولى والتي ذكر فيها الظالم لنفسه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾؟ وإذا كان الظالم لنفسه سيخلد في جهنم، فلماذا لم يذكر في الآية التالية، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴿٣٦﴾﴾ [فاطر: ٣٦].

ومعلوم أنه لن يخلد في النار إلا كافر، كما ورد في أحاديث الشفاعة الصحيحة، وحديث أبي ذَرٍّ المشهور والذي رواه البخاري، عن أَبِيَ ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَعَلَيْهِ ثَوْبٌ أَبْيَضُ وَهُوَ نَائِمٌ ثُمَّ أَتَيْتُهُ وَقَد اسْتَيْقَظَ فَقَالَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلاَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ». قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟! قَالَ: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ». قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟! قَالَ: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ». قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟! قَالَ: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ عَلَى رَغْمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ» [1]. ويصدق ذلك كله قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، وهذه الآية إنما هي للدار الآخرة، لأن في الدنيا يغفر الله الشرك والمعاصي لمن تاب وأناب، أما قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣]، فإنما هي للدار الدنيا وليست للدار الآخرة.

وقد بينت في موضع آخر من الكتاب، أنه لا ينبغي لأحد من المسلمين، أن يستمرئ المعاصي والذنوب لعلمه بأن الله لن يخلده في النار، وأن مآله بعد التطهير من الذنوب إلى الجنة، وقد بينت أن هذا من سوء الأدب مع الله - سبحانه وتعالى -، كما أن لا أحد يضمن لهذا العاصي المستبيح لحرمات الله -عز وجل- ، أن يموت على الإسلام، وألا يختم له بخاتمة السوء، والعياذ بالله.

٢ - هي خير الأمم:

قال تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ [آل عمران: ١١٠].

هي خير أمة أخرجها الله - سبحانه وتعالى - للعالمين بما استودع الله فيها من صفات

(١) البخاري، كتاب: اللباس، باب: الثياب البيض، برقم (٥٨٢٧).

الخيرية، والتي نصت عليها الآية الكريمة، وهي أنهم أنفع الناس للناس بما يقومون به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبما استقر في نفوسهم من الإيمان بالله -عز وجل-، قال - تعالى -: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

بعض فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: في الآية بيان فضل النبي ﷺ على هذه الأمة، قال الإمام ابن كثير رحمه الله: (وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد ﷺ، فإنه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يُعْطَه نبي قبله ولا رسول من الرسل، فالعمل على منهاجه وسبيله يقوم بالقليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه). انتهى [(١)].

الفائدة الثانية: بيان فضل الإيمان بالله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث إن الآية لما أخبرت أن أمة محمد ﷺ هي خير الأمم، أتت بوصفين هما بمثابة القيد لهذه الخيرية، لذا قال الإمام ابن كثير رحمه الله: (فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا الثناء عليهم والمدح، ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٩]؛ ولهذا لما مدح تعالى هذه الأمة بهذه الصفات شرع في ذم أهل الكتاب وتأنيبهم، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾). انتهى [(٢)].

ويتفرع على هذا عدة أمور؛ منها:

أ - هذه الخيرية لا تثبت لكل أمة الإسلام على مر العصور بنفس القوة، وإنما تقوى وتضعف على حسب ما تقوم به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله.

ب - لا ينبغي لأحد أن يتباهى بهذه الآية ويفرح بها إلا إذا اتصف بهاتين الصفتين، وإلا كانت الآية حجة عليه.

ج - الحث على التمسك بهاتين الصفتين لتحقيق الخيرية التي مَنَّ الله -عز وجل- بها على هذه الأمة.

الفائدة الثالثة: لا ينبغي أبدًا لأحد من المسلمين أن يظن أن أي أمة (غير أمة الإسلام)

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٣٩٢).
(٢) انظر المصدر السابق، (١/ ٣٩٧).

هي خير من أمتنا أو أن ما عندها هو خير مما عندنا - مما يتصل بأمور العقيدة والشريعة وما يتفرع منهما وما ينبني عليهما -؛ لأن في ذلك تكذيبًا لصريح القرآن الكريم، فلو قال قائل: إن هذه الخيرية قد نزعت منا لتقصيرنا في فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قلت له: بحمد الله لم تنزع منا لأن معنا أصل الإيمان بالله ورسوله، وهذا الأصل لا يشاركنا فيه أحد ألبتة في كل أنحاء المعمورة.

الفائدة الرابعة: في الآية دليل واضح على أن الصحابة ﷺ كانوا أفضل من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وآمن بالله، فمنهم نتعلم وبهم نقتدي؛ لأن الآية الكريمة قيدت الخيرية بالإيمان بالله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وورد في الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان، عن عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ - رضي الله عنهما - قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «خَيْرُكُمْ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ». قَالَ عِمْرَانُ: لاَ أَدْرِي أَذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدُ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةً (١).

الفائدة الخامسة: إرادة الله - سبحانه وتعالى - الشرعية أن تكون هذه الأمة هي خير الأمم، ولذلك يجب على هذه الأمة أن تأخذ بكل أسباب العزة والقوة والتقدم المحمود تحقيقًا لإرادة الله -عز وجل- .

الفائدة السادسة: يجب على كل مؤمن أن يربي نفسه على أن يكون نفعه متعديًا لغيره وألا يقتصر على نفسه، تعلمنا ذلك من أمر الله لنا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو من أعظم أبواب إيصال الخير إلى الغير.

الفائدة السابعة: تختلف الأمم في الأفضلية والخيرية اختلافًا بينًا بحسب تفاضل أنبيائها وكتبها وشرائعها، ولما كان نبينا ﷺ هو خير الأنبياء، وكتابنا القرآن الكريم هو خير الكتب وشريعة الإسلام هي أفضل الشرائع وأكملها، كانت هذه الأمة هي خير أمة أخرجت للناس.

٣ - أمة وسطٌ شاهدة على بقية الأمم:

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

---

(١) البخاري، كتاب: الشهادات، باب: لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، برقم (٢٦٥١)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل الصحابة رضي الله عنهم ثم الذين يلونهم...، برقم (٢٥٣٥).

قال الشيخ السعدي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾، أي: (عدلاً خيارًا)، وما عدا الوسط فأطراف داخلة تحت الخطر، فجعل الله هذه الأمة وسطًا في كل أمور الدين، وسطًا في الأنبياء بين من غلا فيهم كالنصارى، وبين من جفاهم كاليهود، بأن آمنوا بهم كلهم على الوجه اللائق بذلك، ووسطًا في الشريعة لا تشديدات اليهود وآصارهم ولا تهاون النصارى، وفي باب الطهارة والمطاعم لا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاة إلا في بيعهم وكنائسهم ولا يطهرهم الماء من النجاسات وقد حُرِّمت عليهم طيباتٌ عقوبةً لهم، ولا كالنصارى الذين لا ينجسون شيئًا، ولا يحرمون شيئًا، بل أباحوا ما دب ودرج). انتهى [(١)].

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله: (إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم؛ لأن الجميع يعترفون لكم بالفضل، والوسط هنا الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسبًا ودارًا، أي خيرها، وكان رسول الله ﷺ وسطًا في قومه أي أشرفهم نسبًا، ومنه الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات وهي العصر كما ثبت في الصحاح وغيرها، ولما جعل الله هذه الأمة وسطًا خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب كما قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ [الحج: ٧٨]). انتهى [(٢)].

وقال الإمام القرطبي رحمه الله: (ووسط الوادي خيرُ موضع فيه وأكثره كلأً وماءً، ولما كان الوسط مجانبًا للغلو والتقصير كان محمودًا، أي أن هذه الأمة لم تَغْلُ غلو النصارى في أنبيائهم ولا قصروا تقصير اليهود في أنبيائهم).

وفيما قاله علماؤنا رحمهم الله الكفاية وزيادة لبيان ما مَنّ الله -عز وجل- به على هذه الأمة من فضائل لا تحصى، سواء كان ذلك في العقائد أم في الشرائع، وكذا حفظها من الزيغ والضلال، وضمان عدم اجتماعها على الباطل، كما سيأتي في الفوائد.

وخلاصة القول: أن الله -عز وجل- ما امتن منة على أمة من الأمم إلا امتن علينا بأحسن ما يكون من جنس هذه النعمة، فعلى سبيل المثال امتن على الأمم السابقة بإرسال الرسل وإنزال الكتب وتشريع الشرائع، ولكن خَصَّنَا دون الأمم السابقة بأفضل أنبيائه وأشرف كتبه وأحكم شرائعه، فضلاً عما أولاه -سبحانه وتعالى- لنا من نعم كثيرة وآلاء جسيمة لم يكن لأمة مِنْ قبلنا ما يناظرها أو حتى يقاربها، وقد

---

(١) انظر «تيسير الكريم الرحمن»، (٧٠).
(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ١٩١).

بينت طرفًا من هذه النعم في هذا الفصل من الكتاب، فلله الحمد كله وإليه يَرْجع الفضل كله.

بعض فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: في الآية دليل على أن الإجماع حجة شرعية، قال الشيخ السعدي رحمه الله: (وفي الآية دليل على أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، وأنهم معصومون عن الخطأ، لإطلاق قوله: ﴿وَسَطًا﴾، فلو قدر اتفاقهم على الخطأ لم يكونوا وسطًا إلا في بعض الأمور، وقوله: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، يقتضي أنهم إذا شهدوا على حكم أن الله أحله أو حرمه أو أوجبه فإنها معصومة في ذلك) [(١)].

الفائدة الثانية: أن أمة الإسلام، أمة المصطفى ﷺ، تعلو على جميع الأمم، ولا تعلو عليها أي أمة، حيث إنها تشهد على جميع الأمم وتقبل شهادتها عند ربها - سبحانه وتعالى - ويَدْخل بهذه الشهادة طوائف كثيرة النار، وفي المقابل لا تشهد عليها أي أمة من الأمم.

ويتفرع عليه وجوب أن تعتز هذه الأمة بنفسها وأن تعتقد اعتقادًا جازمًا أنها عالية - بفضل الله - على جميع الأمم.

الفائدة الثالثة: وجوب توفر شرط العدالة في كل من يشهد أو يحكم بين الناس، لأن الله - سبحانه وتعالى - لما أراد تفضيل هذه الأمة بالشهادة على الأمم السابقة، جعلها أمة وسطًا لتكون شهادتها مقبولة، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ﴾، فاللام في ﴿لِّتَكُونُوا﴾ هي لام التعليل، ويتفرع على تلك الفائدةِ الفائدةُ التالية.

الفائدة الرابعة: حرمان أهل البدع والزيغ والضلال -من أمة الإسلام- من الشهادة على الأمم السابقة، وذلك لعدم توفر شروط الوسطية فيهم ولوقوعهم إما في الغلو أو التقصير، كما أنهم يُحرمون من الشهادة على الذين ماتوا في الدنيا من أهل القبلة.

الفائدة الخامسة: هي منقبة عظيمة لهذه الأمة حيث إن الأنبياء هم أفضل الخلق وأحبهم إلى الله -عز وجل- وأعلى الناس شأنًا وقدرًا، يحتاجون إلى عموم هذه الأمة للشهادة لإثبات قيامهم بتبليغ أممهم، وكفى بذلك شرفًا لهذه الأمة، روى البخاري في صحيحه: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيُقَالُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ، فَيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ ﴿وَيَكُونَ

(١) انظر «تيسير الكريم الرحمن»، (٧١).

﴿ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، فَذَلِكَ قَوْلُهُ - جَلَّ ذِكْرُهُ - : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. وَالْوَسَطُ الْعَدْلُ (١). كما يتفرع على ذلك أيضًا علم الأنبياء كلهم جميعًا بأن أمة نبينا محمد ﷺ أمة عادلة مقبولة شهادتها عند اللَّه -عز وجل- ولولا ذلك ما طلبوا - صلوات اللَّه عليهم جميعًا - شهادتها، وهي منقبة أخرى، تختلف عن سابقتها، فتدبر.

الفائدة السادسة: يقين هذه الأمة بكل ما جاء في القرآن العظيم من الأخبار الغيبية سواء الماضية أو المستقبلية، وقد بلغ هذا اليقين بالغيب درجة المشاهدة، ودليله أن أحدًا من هذه الأمة المحمدية لم يعاصر نوحًا أو غيره من الرسل - عليه الصلاة والسلام - ولكننا علمنا ما دار بينهم وبين أقوامهم من القرآن العظيم، فصدقنا القرآن وآمنا بما جاء به من هذه الأمور الغيبية وشهدنا بها أمام رب العزة كأننا شاهدناها وعاصرناها، ولولا هذا اليقين ما رضي اللَّه -عز وجل- بتلك الشهادة.

الفائدة السابعة: قبول اللَّه -عز وجل- لشهادة هذه الأمة، لا يقتصر على شهادتها على بقية الأمم يوم القيامة، بل تعدى ذلك، فقد قَبِلَ اللَّه -عز وجل- شهادتها على من مات من المؤمنين في الدنيا، ودليله ما رواه مسلم في صحيحه عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: مُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: «وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ» وَمُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا شَرًّا، فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: «وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ». قَالَ عُمَرُ: فِدًى لَكَ أَبِي وَأُمِّي، مُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا خَيْرٌ فَقُلْتَ: «وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ». وَمُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا شَرٌّ فَقُلْتَ: «وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ». فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ» (٢).

٤ - أمة لا تجتمع على ضلالة:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝١١٥﴾ [النساء: ١١٥].

عن معاوية رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً

---

(١) البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، برقم (٤٤٨٧).
(٢) مسلم، كتاب: الجنائز، باب: فيمن يثنى عليه خير أو شر من الموتى، برقم (٩٤٩).

بِأَمْرِ اللَّهِ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ». رواه مسلم (١).

الشاهد في الحديث: أن النبي قد حكم أنه لن يخلو قرن من القرون، ولا أمة من الأمم من طائفة مقيمة على الحق، أي متمسكون بكتاب اللّه وسنة نبيهم ﷺ، ولذلك يستحيل أن تجتمع هذه الأمة على الضلالة لأن اجتماعهم على ضلالة معناه أن تكون هذه الفئة الصالحة القائمة بأمر اللّه غير موجودة، أو غرَّها اجتماع السواد الأعظم من الناس على منكر، فمالت إليهم، وهذا أيضًا ينافي الحديث، ولذلك فاجتماع الأمة على أمر من الأمور، أو حكم من الأحكام، دليل قطعي على أن هذا الأمر هُدًى وليس بضلالة، حيث إن الفئة الصالحة، لا يمكن أن تقر أو ترضى بالباطل، فالأمر المجمع عليه من الأمة حق، وهذه الأمة لا تجتمع على باطل، وهي حكمة عظيمة من اللّه -عز وجل- ، لأنها لو اجتمعت على باطل، فقد يستقر هذا الباطل إلى يوم القيامة، ويندثر الحق الذي هو ضد هذا الباطل، وحيث إنه لا نبي سيأتي بعد، يكون في استقرار الباطل واندثار الحق مفسدة عظيمة، وتكمن المفسدة، في أن الناس يبحثون عن الحق فلا يجدونه، ولذلك تكون لهم حجة على اللّه -عز وجل- ، وهذا ينافي حكمة اللّه من إرسال الرسل وإنزال الكتب، قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وعدم اجتماع الأمة على ضلالة من أكبر نعم اللّه عليها، حيث ضمنت به الأمة عدة أمور من أهمها:

١ - إضافة أصل أصيل تستند إليه الأمة بعد كتاب اللّه وسنة نبيه ﷺ، ألا وهو (الإجماع)، وهو أصل تحتاج إليه أمة سيبقى شرعُها صالحًا إلى يوم القيامة، كل يوم يظهر من الأمور والمصالح ما يحتاج إلى الإفتاء والاجتهاد، فما أجمعت عليه الأمة أنه معروف فهو معروف، وما أجمعت عليه أنه منكر فهو منكر، ولا شك أن هذا من باب التوسعة عليها؛ لأنه كلما زادت مصادر التشريع كان ذلك من أوجه مظاهر رحمة اللّه بالعباد.

٢ - ألاَّ ترتد الأمة على أعقابها بعد نبيها ﷺ؛ لأن ارتدادها يعني أنها قد اجتمعت على ضلالة وهذا محال.

٣ - ضمنت الأمة بهذا الأصل ألا يندثر شيء من أمور دينها ولو كان من المكملات

(١) مسلم، كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ: «لا تزال طائفة . . .»، برقم (١٠٣٧).

المحسنات؛ لأنه لو اندثرت سُنَّةٌ من السنن وسكتت الأمة على هذا الاندثار سواء بعدم الدعوة لهذه السنة أم عدم العمل بها لتحقق فيها الاجتماع على باطل، والأمة معصومة من ذلك.

وقد بين الشيخ السعدي المسألة بيانًا جيلاً، حيث قال ما نصه: (وقد استُدِل بهذه الآية الكريمة، على أن إجماع هذه الأمة حجة، وأنها معصومة من الخطأ، ووجه ذلك أن اللَّه توعد من خالف سبيل المؤمنين بالخذلان والنار، و﴿سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مفرد مضاف، يشمل سائر ما المؤمنون عليه من العقائد والأعمال، فإذا اتفقوا على إيجاب شيء، أو استحبابه، أو تحريمه أو كراهته، أو إباحته - فهذا سبيلهم، فمن خالفهم في شيء من ذلك بعد انعقاد إجماعهم عليه، فقد اتبع غير سبيلهم. ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ووجه الدلالة: أن اللَّه تعالى أخبر أن المؤمنين من هذه الأمة لا يأمرون إلا بالمعروف، فإذا اتفقوا على إيجاب شيء أو استحبابه، فهو مما أُمِرُوا به، فيتعين بنص الآية أن يكون معروفًا، ولا شيء بعد المعروف غير المنكر، وكذلك إذا اتفقوا على النهي عن شيء، فهو مما نَهوا عنه، فلا يكون إلا منكرًا، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. فأخبر تعالى أن هذه الأمة جعلها اللَّه وسطًا، أي عدلاً خيارًا؛ ليكونوا شهداء على الناس، أي: في كل شيء، فإذا شهدوا على حكم بأن اللَّه أمر به أو نهى عنه أو أباحه، فإن شهادتهم معصومة، لكونهم عالمين بما شهدوا به، عادلين في شهادتهم، فلو كان الأمر بخلاف ذلك لم يكونوا عادلين في شهادتهم، ولا عالمين بها، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، يُفهم منها أن ما لم يتنازعوا فيه، بل اتفقوا عليه، أنهم غير مأمورين برده إلى الكتاب والسنة، وذلك لا يكون إلا موافقًا للكتاب والسنة، فلا يكون مخالفًا، فهذه الأدلة ونحوها تفيد القطع، أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة)[1].

ويجب التنبه إلى أن حديث «لا تجتمع أمتي على ضلالة» والذي يتداوله الكثير من الناس، حديث ضعيف، والحمد لله أن هدى اللَّه أهل العلم أن في آية وحديث الباب دليلين على حجية الإجماع، وأنه حجة في التشريع بعد الكتاب والسنة، ولا عبرة للمخالف.

(١) انظر «تيسير الكريم الرحمن»، (٢٠٣).

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: تحريم أن يقول الإنسان: هلك الناس، سواء بقصد الإخبار أو بقصد الدعاء، فكيف يحكم أحد على الأمة بالهلاك، وفيها تلك الفئة، وهو بذلك يكون كالمكذب بخبر النبي بوجودها في كل القرون، أو كيف يدعو عليها بالهلاك؟ وفيها الفئة التي زكاها خيرُ البرية، يصدق ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **«إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ، فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ»**. رواه مسلم [١].

الفائدة الثانية: في الحديث بشرى عظيمة لهذه الأمة، وهو وجود الخير والعلم والحق فيها، حتى يأتي أمر الله، وقد يضعف هذا الحق في بعض الأوقات، ولكنه موجود، يقوى في أكثر الأوقات.

الفائدة الثالثة: في الحديث تكذيب من ادعى، أنه ترك الحق لعدم وجود النصير أو القائم على الحق، كما أنه حجة على من يتساهل في أمور دينه، لعدم وجود من يُعَلِّمه ويُرْشده ويُفتيه، ولا يشترط وجود هذه الفئة بأشخاصها في كل بلد أو قطر، بل يكفي أن علمها موجود بوسائل مسموعة أو مرئية أو مكتوبة. فلا حجة لأحد والحمد لله، ولكن بعض الناس قد اعتادوا على التساهل في أمور دينهم، بعكس حرصهم على أمور دنياهم.

الفائدة الرابعة: المقصود من قوله: **«حتى يأتي أمر الله»**، هي الريح التي تأتي قرب يوم القيامة، فتأخذ روح كل مؤمن ومؤمنة، كما ذكر الإمام النووي في شرحه صحيح مسلم [٢].

الفائدة الخامسة: في الحديث حث لأهل العلم والخير على الصبر وتحمل أذى الناس، وعليهم أن يعلموا أنهم سيجدون مشقة في دعوتهم لقوله: **«لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم»**، فأثبت الحديث أنه سيوجد في الأمة من يخالف أهل الحق فلا يوافقهم، ويخذلهم فلا ينصرهم، وقد يزداد الأمر إلى إقامة كل حجة لدحض الحق الذي مع هذه الفئة، وإشاعة كل شبهة لِفَضِّ الناس من حولهم، وقد يزداد الأمر إلى نصرة أعدائهم عليهم.

الفائدة السادسة: كما أن في الحديث تسليةً لهذه الفئة، ففيه بشرى عظيمة لهم، أنه سيأتي أمر الله وهم ظاهرون على الحق.

---

(١) مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: النهي عن قول: هلك الناس، برقم (٢٦٢٣).
(٢) انظر «شرح النووي على صحيح مسلم»، (١٣/٦٦).

الفائدة السابعة: اختلف العلماء في هذه الفئة، فقيل: هم أهل الحديث، وقيل: هم أهل الجهاد، وقيل: هم العلماء، وقيل: هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، وأرى أن المقصود من هذه الفئة هم هؤلاء جميعًا لأن الدين لا يقوم إلا بهم مجتمعين، وكل منهم على ثغر من ثغور الإسلام.

٥ – أمة يعلّمها الروح الأمين:

عن عُمَر بْن الخَطَّابِ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لاَ يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ وَقَالَ: «**يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلاَمِ**»، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ، قَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ، قَالَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «**مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: «**أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ**». قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «**يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟**» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**». رواه مسلم [(١)].

الشاهد في الحديث: أن جبريل عليه السلام، وهو أمين وحي السماء، وهو – بالإجماع – أفضلُ الملائكة وأعظمها، ولذلك اختصه اللَّه –عز وجل– بأعظم الوظائف وأجَلّ المهام، وهي تبليغ الوحي للرسل صلوات اللَّه وسلامه عليهم جميعًا، وقد وصفه اللَّه – سبحانه وتعالى – في القرآن بصفات عظيمة فقال في حقه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وقال: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠]، وقال: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ [النجم: ٦]، أقول: الشاهد أن هذا الملك العظيم، جاء يعلم هذه الأمة أمر دينها، ففي الحديث قوله ﷺ: «**فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**»، وهذا غاية اعتناء المولى –عز وجل– بهذه الأمة.

---

(١) مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان، برقم (٨).

وفي الحديث فوائد عظيمة قد يطول المجال في ذكرها، فهي تحتاج إلى كتاب منفصل، لاشتماله على كل أصول الدين، وسنقتصر على بعض الفوائد إجمالاً وهي:

الفائدة الأولى: الأدب الذي ينبغي أن يكون عليه المتعلم مع العالم، في قوله: (فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه)، وكذلك إعلام المتعلّم مَنْ حوله بتصديقه للعالم، لقوله: (فعجبنا له يسأله ويصدقه).

الفائدة الثانية: ما ذكر من أصول الإيمان في هذا الحديث كان على سبيل الإجمال؛ لأن المقام لا يتسع لأكثر من ذلك، وقد بين القرآن الكريم والسنة النبوية هذه الأصول أبلغ بيان، فمن ذلك:

١ - الإيمان بالله، هو أن نؤمن بأن اللّٰه واحد لا شريك له، ولا ند له، لم يلد، ولم يولد، له الخلق والأمر، وله الأسماء الحسنى والصفات العليا، وأن له من كل صفة أتمها وأجملَها، وأن نؤمن بهذه الصفات من غير تأويل ولا تحريف ولا تعطيل، ونؤمن أن اللّٰه هو الأول فليس قبله شيء، وهو الآخر فليس بعده شيء، وهو الباطن فليس دونه شيء، وهو الظاهر فليس فوقه شيء، وأن كل ما يحكم به وفق الحكمة البالغة، حكمة في صورة الأمر وحكمة في غايته، وأنه لا يشاركه أحد في ملكه ولا في حكمه، ولا في أمره، كما ذكرت في عدة مواضع من هذا الكتاب.

٢ - الإيمان بالملائكة، يتوجب أن نعتقد أنهم مخلوقون من نور، وأنهم لا يعصون اللّٰه ما أمرهم، لأنهم مجبولون على الطاعة، منهم الموكل بالوحي كجبريل عليه السلام، ومنهم الموكل بالنفخ في الصور كإسرافيل، ومنهم الموكل بالمطر وإحياء النبات بإذن الله، وهو ميكائيل، ومنهم الموكل بجهنم، وهو مالك، ومنهم الموكل بالجنة، ومنهم القائمون بعبادة الله، بين قيام وركوع وسجود، لا يملون ولا يفترون ولا يتقدمون بين يدي اللّٰه - عز وجل - ، قال تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]، كما نعتقد أن عددهم لا يعلمه إلا اللّٰه بل لا يمكن أن يستوعب عَدَدَهم بشر، لما ثبت في صحيح البخاري في حديث الإسراء قوله: ﷺ «**فرُفع لي البيت المعمور فسألت جبريل فقال: هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا لم يعودوا إليه**».

ومن الأدب مع الله، أن لا نسمي أي مَلَكٍ باسم، لم يصل إلينا من طريق ثابت معصوم، كما يسمي بعض الناس ملك الموت بعزرائيل.

٣ – أما الإيمان بالكتب، فيستلزم أن نؤمن أنها كلها من عند اللَّه -عز وجل- ، إيمانًا مجملاً، وأن نؤمن بالقرآن إيمانًا مفصلاً، بكل ما جاء فيه، وأن كل أخباره صدق، وكل أوامره عدل، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وأنه أفضل الكتب، وهو المهيمن عليها، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وأنه محفوظ بحفظ اللَّه -عز وجل- له، لم يدخله زيادة، ولم يطرأ عليه نقصان، إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

٤ – أما الإيمان بالرسل فنؤمن بأنهم خير العباد وأتقاهم، وأحبهم إلى الله، وأن لهم من التبجيل ما ليس لأحد غيرهم، وكل من عداهم فهو دونهم، وأنهم جميعًا أدوا الأمانة، وبلغوا الرسالة على الوجه الأكمل، نؤمن بهم جميعًا على وجه الإجمال، ونؤمن بالمذكورين في القرآن على وجه التفصيل. ونؤمن أن اللَّه -عز وجل- فاوت بين منازلهم، قال - تعالى - ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وأن أفضلهم هم أولو العزم من الرسل، وقد ذُكروا في موضعين من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]، وقال – عز من قائل – في الموضع الآخر: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ [الشورى: ١٣]. ونعتقد أن رسولنا محمدًا ﷺ، هو أفضلهم وإمامهم، ثم يليه في المنزلة، إبراهيم ثم موسى، واختلف العلماء في أفضلية نوح وعيسى – عليهم جميعًا الصلاة والسلام –، وقد ذكر ذلك فضيلة الشيخ/ محمد العثيمين – رحمه الله تعالى.

٥ – كما نؤمن باليوم الآخر، الذي يبعث فيه المولى – سبحانه وتعالى – الخلائق جميعًا، من قبورهم ليحاسبهم على ما قدموا، ونؤمن بنصب الصراط على ظهراني جهنم، وبإقامة الموازين القسط، ونشر الكتب، ونؤمن بالشفاعة العظمى، لنبينا ﷺ ونؤمن بلوائه المعقود والكوثر، ونؤمن بأن الموت يأتي، على هيئة كبش أملح، يذبح بين الجنة والنار فيقال لأهل الجنة وأهل النار: خلود فلا موت، ونؤمن أنه لن يخلد في النار أحد من أهل القبلة، ما دام لم يأت بما يناقض الشهادتين، ونؤمن أن للقرآن شفاعة، وللأنبياء شفاعة، وللصوم شفاعة، وللمؤمنين شفاعة.

٦ – أما الإيمان بالقدر خيره وشره، فنؤمن فيه بأن اللَّه عَلِمَ كل شيء أزلاً، وهو علم لم يسبقه جهل، ولا يلحقه نسيان، ونؤمن بتقدير اللَّه لكل شيء، وكتابته لكل ما سيكون،

لما صح في صحيح البخاري من حديث عمران بن حصين وفيه عن النبي «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ وَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ» (١)، كما نؤمن أن ما أخطأ الإنسانَ ما كان ليصيبه، وما أصابه ما كان ليخطئه، ونؤمن أن اللَّه بكتابته وعلمه كل شيء ما ظلم أحدًا، لقوله تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

تنبيه هام: التعرض لأيٍ من أصول الإيمان، باستهزاء أو غمز أو لمز أو تشكيك أو طعن أو إثارة الشبهات حوله، لغرض التكذيب أو غيره، يخرج فاعلها عن دائرة الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۞ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

الفائدة الثالثة: بيان بما أوتيه النبيُّ من جوامع الكلم، وذلك في قوله عن تعريف الإحسان: **«أن تعبد اللَّه كأنك تراه»**. فبدلاً من أن يقول: تعبد اللَّه بإخلاص وتَذَلُّلٍ وخشوع ورهبة، وأن تقوم بأداء جميع أركان العبادات، على الوجه الأكمل، وأن تنتقي من الأعمال أحسنها، وأن تشعر في نفسك عند العبادة بالتقصير، فتكون متقلبًا بين الخوف والرجاء، بدلاً من أن يقول ذلك وغيره كثير، قال: (**«كأنك تراه»**)، فالمسلم إذا استقر في نفسه، أنه يرى اللَّه في عبادته أتى بما ذُكِرَ، بل أتى بكل ما هو الأكمل والأحسن في كل عبادة، وهذا هو المطلوب من كل مؤمن، قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥].

الفائدة الرابعة: كل عيب أو نقص في العبادة، يرجع إلى خلل في تحقيق العبد لرؤيته لله، وبقدر ما تحقق للعبد من ذلك، بقدر ما تأتي العبادة على أحسن وجه.

الفائدة الخامسة: السؤال عن الساعة، هكذا مجردًا، في قوله: **«فأخبرني عن الساعة»**. يحتمل أن يكون عن وقتها، أو عن أماراتها، أو ما يقع فيها من أهوال عظام، ولكن النبي ﷺ فهم أن السائل يريد وقتها، وكان هذا الفهم صحيحًا؛ لأن جبريل عليه السلام، لما سمع إجابة النبي بنفي علم وقت قيام الساعة، ما راجعه وقال له: ما عن وقتها سألتك، وهذا يدل على فراسة وذكاء النبي ﷺ، في فهم ماهية السؤال، ولكن لما أجاب بعدم العلم، أتى جبريل عليه السلام بسؤال آخر، وهذا يدل على أن السائل يجب عليه أن يسأل

(١) البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، برقم (٣١٩٢).

أولاً عن عظائم الأمور، أي الأهم فالمهم، فلا شك أن عِلْم وقت الساعة أعظم فائدةً من العلم بأماراتها، لأننا إذا علمنا متى الساعة كنا في غنى عن معرفة أماراتها.

الفائدة السادسة: في الحديث ما يجب أن يكون عليه العالِم من عدم الإجابة بغير علم، وألا يستحي أن يقول: لا أعلم، فإنها بلا شك نِصْفُ العلم، كما يقولون.

الفائدة السابعة: في الحديث أدب المتعلم وحسن إجابته لمعلمه، وأن يرد العلم إلى الله، خاصة إذا أدرك أن العالم يريد أن يعلمه شيئًا لا يعرفه، كل ذلك من إجابة عمر رضي الله عنه للرسول ﷺ، لما قال له: «**أتدري من السائل؟**»، قال: اللَّه ورسوله أعلم. ولم يقل: هو رجل لا نعرفه جميعًا، أو أن الغموض يكتنف شخصيته، فهو لا يبدو عليه أثر السفر، ومع ذلك فهو ليس من أهل المدينة. وهذا أدب جم.

الفائدة الثامنة: لا يجوز للمسئول، بعد وفاة النبي ﷺ، أن يقول إذا سئل عن المسألة: (اللَّه ورسوله أعلم)؛ لأن النبي بعد وفاته، قد انقطع عن أمور الدنيا، وما يستجد بها، بل قد يكون من الكذب أن يقال: اللَّه ورسوله أعلم، وما زلنا نسمع أهل العلم بعد الفتاوى يقولون: (اللَّه أعلم).

الفائدة التاسعة: من أفضل أساليب التعليم، إلقاء العلم على هيئة سؤال وإجابة، ليكون أوعى للسامع من اختلاط المعلومات لو أُلْقِيَتْ عليه سردًا، وكذلك يكون أكثر تشوقًا لها، وأن يُعْمِلَ عَقْلَه قبل سماع الإجابة، وأن يوازن بين ما في خاطره والإجابة الصحيحة، والشاهد لذلك أن جبريل لما جاء يعلم الأمة دينها، استخدم أسلوب السؤال والجواب، ولو كانت هناك طريقة أفضل لاتبعها جبريل عليه السلام .

الفائدة العاشرة: لفظة الإسلام، تدل على أعمال الجوارح، كالصلاة والزكاة والصوم والحج، أما الإيمان فيختص بأعمال القلوب، وأنهما لو اجتمعا في نص واحد اختلفا في المعنى، يصدق ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] .

أما إذا ورد أحد اللفظين في النص ، فيشمل عمل القلب وعمل الجوارح معًا، لذلك قالوا عن لَفْظَي الإيمان والإسلام: إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا.

الفائدة الحادية عشرة: قد يتمثل الملك بصورة إنسان، وهي هيئة شريفة، ولا يتمثل بصورة وضيعة، لأنه لم يأتِ دليل صحيح على ذلك، ويكون هذا من باب تشريف اللَّه لهم،

أما الشيطان فيأتي على صورة شريفة، كما ثبت في الحديث الذي رواه أبو هريرة، وفيه أن الشيطان كان يأتيه كل ليلة على صورة رجل فقير، يريد أن يأخذ من مال الصدقة، كما أنه قد يأتي على صورة وضيعة كالكلب، كما ثبت في صحيح مسلم: عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي فَإِنَّهُ يَسْتُرُهُ إِذَا كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ مِثْلُ آخِرَةِ الرَّحْلِ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ يَدَيْهِ مِثْلُ آخِرَةِ الرَّحْلِ، فَإِنَّهُ يَقْطَعُ صَلَاتَهُ الْحِمَارُ وَالْمَرْأَةُ وَالْكَلْبُ الْأَسْوَدُ». قُلْتُ: يَا أَبَا ذَرٍّ مَا بَالُ الْكَلْبِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْكَلْبِ الْأَحْمَرِ مِنَ الْكَلْبِ الْأَصْفَرِ؟! قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَمَا سَأَلْتَنِي، فَقَالَ: «الْكَلْبُ الْأَسْوَدُ شَيْطَانٌ» (١).

٦ - أمة تصلي عليها الملائكة وتستغفر لها:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

الشاهد في الآية الكريمة: قوله تعالى: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾. صلاة حملة العرش ومن حوله على المؤمنين نعمة عظيمة امتن الله بها على عموم هذه الأمة. أمة محمد ﷺ، قال الإمام ابن كثير: (قيض الله تعالى ملائكته المقربين أن يدعوا للمؤمنين بظهر الغيب، كما ثبت في صحيح مسلم: «**إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال: الملك آمين ولك بمثله**» (٢).

بعض فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: عظيم اعتناء الله - سبحانه وتعالى - بهذه الأمة ويظهر ذلك من الأمور التالية:

١ - ورود الآية بصيغة الجملة الاسمية التي تفيد الثبوت.

٢ - أن الملائكة الذين قيدهم الله -عز وجل- بالاستغفار للمؤمنين هم من أفضل الملائكة، فهم حملة العرش ومن حوله.

٣ - عدم تقييد استغفار الملائكة للمؤمنين بزمن معين أو هيئة معينة أو إتيان نوافل الأعمال، ولكن هي صلاة دائمة مستمرة، تدرك المؤمن أثناء حياته وبعد مماته، شريطة

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الصلاة، باب: قدر ما يستر المصلي، برقم (٥١٠).

(٢) أخرجه مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والإستغفار باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب برقم(٢٧٣٢)

اتباعه سبيل اللَّه -عز وجل- وملازمته للتوبة. وأذكِّر نفسي والقارئ الكريم أن هذا الاعتناء من اللَّه -عز وجل- لهذه الأمة ماكان إلا لانتسابها إلى النبي ﷺ.

الفائدة الثانية: عظيم قدر عرش الرحمن إذ جعل له حملة من الملائكة يحملونه وآخرين يحفونه.

الفائدة الثالثة: إثبات أن للملائكة وظائف خُلقوا من أجلها، فملائكةٌ تحمل العرش، وملائكة سيارة، وملائكة حَفَظة، بالإضافة إلى من هو موكل بالنفخ وآخر بالقطر وآخر بقبض الأرواح، وأعظمهم مطلقًا الموكل بالوحي وهو جبريل ﷺ. ويتفرع عليه عظيم قدرة اللَّه - سبحانه وتعالى - وبديع تصريفه لأمور ملكوته الواسع، كما يتفرع عليه، أن من حسن تصرف الوالي، أو من ينوب عنه، أن يقسم المهام والوظائف بين رعيته حتى يسهل مراقبتهم والتأكد من إتقانهم لعملهم فضلاً عن إنجازها، ألم تسمع لقوله تعالى ممتنًا على رسوله سليمان عليه السلام: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٧، ٣٨].

الفائدة الرابعة: فضل التسبيح للرب - تبارك وتعالى - والإيمان به، ودليله أن اللَّه لما ذَكَر حملة العرش في سياق مدحهم وإظهار علو شأنهم ذكر لهم صفتين هما: التسبيح والإيمان به، ولو كان عندهم من الصفات ما هو أعظم من ذلك لنصَّت عليه الآية من باب أولى.

كما يؤخذ من الآية أن الإيمان باللَّه والتسبيح بحمده صفتان متلازمتان لا ينفكان عن العبد. ويتفرع عليه حث الأمة على الإيمان الصادق باللَّه -عز وجل- وكثرة التسبيح له سبحانه وتعالى.

الفائدة الخامسة: وجوب حب الملائكة الكرام البررة والامتنان لهم، ذكر ابن كثير عن مطرف بن عبدالله: (وجدنا أنصح عبادِ اللَّه لعبادِ اللَّه الملائكةَ ووجدنا أغَشَّ عباد اللَّه لعباد اللَّه الشيطانَ) [1].

الفائدة السادسة: استحباب التوسل بأسماء اللَّه الحسنى وصفاته العليا، وذكر محاسنه العظيمة وآلائه الجسيمة بين يدي الدعاء، لقول الملائكة قبل دعائها: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ وأن يكون التوسل مناسبًا للدعاء.

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم»، (٤/ ٧٣).

الفائدة السابعة: إثبات أن صفتي الرحمة والعلم هما أوسع الصفات وأعظمها لقول الملائكة: ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾، ولم يرد هذا الوصف لغيرهما من الصفات.

الفائدة الثامنة: جمعت الآية الكريمة بين الترغيب والترهيب، فالترغيب بمقتضى صفة الرحمة، والترهيب بمقتضى صفة العلم، فحقيقٌ بالعبد إذا علم أن اللَّه مطلع على كل أفعاله وأقواله وحركاته وسكناته أن يخشى اللَّه ويتقيه، وحقيق به أيضًا إذا علم أن رحمة اللَّه وسعت كل شيء أن لا يَقْنَط من رحمة اللَّه تعالى مهما بلغت ذنوبه وآثامه.

قال الإمام ابن كثير: (أي رحمتك تَسِعُ ذنوبهم وخطاياهم وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم) [١].

وأُضيف فأقول: إن علم اللَّه الواسع لا يحيط بأعمال العباد وأفعالهم فحسب، بل هو محيط بكل ما يطلق عليه لفظ شيء في هذا الكون.

الفائدة التاسعة: من صفات المؤمن الملازمة له والتي لا تنفك عنه صفة التوبة والاتباع، ودليله أن الآية ذكرت أولاً أن الملائكة تستغفر للذين آمنوا، ثم لما ذكرت صفات المؤمنين المستغفَرِ لهم قالت: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾، وأقول: أخشى ألا ينال أصحاب البدع في الدين بركة هذا الدعاء بشؤم ابتداعهم وانحرافهم عن سبيل اللَّه ورسوله ﷺ.

الفائدة العاشرة: مشروعية أن يدعو المؤمن لأخيه بظهر الغيب، وأن اللَّه - سبحانه وتعالى - يقبل ذلك لدعاء الملائكة للمؤمنين.

الفائدة الحادية عشرة: من أساليب البلاغة التي يتميز بها القرآن الكريم والتي تزيده حسنًا على حسن، الإجمال ثم التفصيل، فأجملت الآية صيغة الدعاء وصفة من يشملهم الدعاء، ثم فَصّلت الأمرين، فنصت على ما يقال في الدعاء وصفة المدعو لهم. قال تعالى: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

الفائدة الثانية عشرة: وجوب أن يعلم كل مؤمن أن الفوز بالجنة والوقاية من عذاب الجحيم، إنما هو محضُ فضلٍ من اللَّه - تبارك وتعالى -، فلو كان العبد يستحق ذلك بعمله، ما دعت الملائكة للتائبين والمتبعين بالنجاة من عذاب الجحيم، ولاستحقت لهم الجنة بعملهم دون الحاجة إلى فضل اللَّه ورحمته .ويتفرع عليه أن العبد يجب عليه أن يلازم الدعاء بالفوز بالجنة والنجاة من النار، بناءً على علمه أنه لا يستحق ذلك إلا بفضل الله،

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٧٣).

وأن عمله وحده مهما عظم لن يدخله الجنة.

كما يتفرع عليه أن عذاب الجحيم من الأمور العظيمة التي يجب أن نستعيذ منها، حيث إن الملائكة لما استغفرت للمؤمنين بكلمات معدودة ضمت للدعاء الوقاية من عذاب الجحيم.

الفائدة الثالثة عشرة: دفع المفسدة أولى من جلب المنفعة، حيث اقتصر دعاء الملائكة على الاستغفار دون طلب الثواب، وعلى الوقاية من العذاب دون طلب الجنة. وقد يكون من حكمة الملائكة الدعاء بالوقاية من الجحيم، لأن العبد إذا ضمن عدم دخول النار فسيدخل الجنة، لأنه ليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار، ولو أن الملائكة دَعَتْ بدخول المؤمنين الجنة فلا يغني ذلك عن دخول البعض منهم النار أولاً ثم الجنة، كما نتعلم من دعاء الملائكة للمؤمنين أن الله عز وجل يحب الإجمال في الدعاء لا التفصيل، وهذا مثال آخر لصلاة الملائكة على المسلمين.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ الَّذِي صَلَّى فِيهِ، مَا لَمْ يُحْدِثْ، تَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ**». رواه البخاري [(١)].

الشاهد في الحديث: قوله ﷺ «**الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلى فيه**».

شروط صلاة الملائكة:

الشرط الأول: صلاة الفريضة في المسجد وأعتقد أن هذا هو مذهب الإمام البخاري حيث بوب بقوله: (باب: من جلس في المسجد ينتظر الصلاة).

الشرط الثاني: البقاء في المسجد بنية انتظار صلاة أخرى، لما ورد في إحدى روايات البخاري: «**ما دامت الصلاة تحبسه لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة**» [(٢)]. قال الإمام ابن حجر رحمه الله: (ويؤخذ من قوله: في مصلاه الذي صلى فيه، أن ذلك مقيد بمن صلى ثم انتظر صلاة أخرى، وبتقييد الصلاة الأولى بأنها مجزئة) [(٣)].

---

(١) البخاري، كتاب: الصلاة، باب: الحدث في المسجد، برقم (٤٤٥).

(٢) البخاري، كتاب: الأذان، باب: من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، برقم (٦٥٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) البخاري، كتاب: الجمعة، باب: فرض الجمعة، برقم (٨٧٦)، ومسلم، كتاب: الجمعة، باب: هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، برقم (٨٥٥).

الشرط الثالث: عدم الإحداث، وهو حدث الفرج، أي: خروج ريح، وفي الفتح: (ويؤخذ منه أن اجتناب حدث اليد واللسان من باب أولى).

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: عظيم فضل هذه الأمة؛ إذ قيد اللَّه - سبحانه وتعالى - لها ملائكة تصلي عليها في أحوال وأوقات محددة، قال الإمام ابن حجر: (المراد بالملائكة الحفظة أو السيارة أو أعم من ذلك) [(١)]. وأظنه أعم من ذلك لعدم ورود تحديد في الحديث لنوع هؤلاء الملائكة.

الفائدة الثانية: الصلاة من الملائكة هي الدعاء للمسلمين بالمغفرة والرحمة، ودليله أن النبي ﷺ ذكر أن الملائكة تصلي، ثم ذكر آخر الحديث نص ما تقول: **«اللهم اغفر له اللهم ارحمه»**.

ويؤخذ منه أيضًا أن هناك فرقًا بين المغفرة والرحمة، لأن الملائكة تدعو بالأمرين.

الفائدة الثالثة: فضل التزام المصلِّي للمُصَلَّى الذي صلى فيه، وفضل محافظة المصلي على وضوئه، وكذا انتظار الصلاة بعد الصلاة في نفس المصلى.

الفائدة الرابعة: الحدث في المسجد، هيئة مكروهة لا تليق بحال المصلِّي وتتأذى منها الملائكة، ودليله أن صلاة الملائكة على المصلي تنقطع بها، ولما رواه مسلم في صحيحه عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الْبَقْلَةِ الثُّومِ، وقَالَ مَرَّةً: مَنْ أَكَلَ الْبَصَلَ وَالثُّومَ وَالْكُرَّاثَ فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ»** [(٢)] ولا شك أن ابن آدم يتأذى من الحدث ورائحته. قال ابن حجر: (يدل الحديث على أن الحدث يُبْطِل صلاة الملائكة ولو استمر جالسًا، وفيه دليل على أن الحدث في المسجد أشد من النخامة لما تقدم من أن لها كفارة ولم يذكر لهذا كفارة بل عُومِل صاحبه بحرمان استغفار الملائكة) [(٣)].

٧ - اختصاصها بيوم الجمعة والذي فيه ساعة إجابة:

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **«نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُم الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ**

---

(١) فتح الباري (١/ ٥٣٨).
(٢) مسلم، كتاب: الجمعة، باب: في الساعة التي في يوم الجمعة، برقم (٨٥٢).
(٣) فتح الباري (١/ ٥٣٨- ٥٣٩).

فَهَدَانَا اللَّهُ؛ فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ، الْيَهُودُ غَدًا وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ». متفق عليه (١).

الشاهد في الحديث: قوله ﷺ: «فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله».

هذه مزية أخرى عظيمة امتن الله بها على هذه الأمة الفاضلة المفضلة (أي الفاضلة في نفسها المفضلة على غيرها)، وهو اختصاصها بيوم الجمعة الذي تكثر فيه الخيرات والتي من أعظمها:

١ - وجود ساعة يُستجاب فيها دعاء المسلم، لما رواه الإمام مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ: «إِنَّ فِي الْجُمُعَةِ لَسَاعَةً لاَ يُوَافِقُهَا مُسْلِمٌ قَائِمٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرًا إِلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ» وَقَالَ بِيَدِهِ: يُقَلِّلُهَا يُزَهِّدُهَا (٢).

٢ - مغفرة الذنوب والآثام ما بين الجمعة والجمعة، لمن حضر صلاة الجمعة لما رَوَى البخاري عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَيَتَطَهَّرُ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ طُهْرٍ وَيَدَّهِنُ مِنْ دُهْنِهِ أَوْ يَمَسُّ مِنْ طِيبِ بَيْتِهِ ثُمَّ يَخْرُجُ، فَلاَ يُفَرِّقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، ثُمَّ يُصَلِّي مَا كُتِبَ لَهُ، ثُمَّ يُنْصِتُ إِذَا تَكَلَّمَ الإِمَامُ: إِلاَّ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الأُخْرَى» (٣).

وعند مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَةَ فَاسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ وَزِيَادَةُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ، وَمَنْ مَسَّ الْحَصَى فَقَدْ لَغَا» (٤)، وقد وَضَّحَ الحديثان شروط تكفير السيئات وهي:

أ - الغسل مع استخدام ما يطهر البدن.

ب - التطيب.

ج - حضور صلاة الجمعة، لقوله ﷺ: «ثم راح»، والإنصات إلى خطبة الجمعة، لقوله: «ثم إذا خرج الإمام أنصت».

د - عدم التفريق بين المصلين، لقوله ﷺ: «فلم يفرق بين اثنين»، وهذا يشمل التفريق للمرور أو الجلوس، إلا إذا كان هناك فرجة يريد أن يسدها.

هـ - صلاة ما تيسر من النوافل، وأقلُّها ركعتان تحية المسجد.

٣ - ترتيب الأجر العظيم لمن ذهب إلى الجمعة في الساعة الأولى؛ لما رواه البخاري عَنْ

---

(١) البخاري، كتاب: الجمعة، باب: فرض الجمعة، برقم (٨٧٦)، ومسلم، كتاب: الجمعة، باب: هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، برقم (٨٥٥).

(٢) مسلم، كتاب: الجمعة، باب: في الساعة التي في يوم الجمعة، برقم (٨٥٢).

(٣) البخاري، كتاب: الجمعة، باب: الدهن للجمعة، برقم (٨٨٣).

(٤) مسلم، كتاب: الجمعة، باب: فضل من استمع وأنصت في الخطبة، برقم (٨٥٧).

أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ ثُمَّ رَاحَ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً . فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ حَضَرَتِ الْمَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ» (١). وهذا بلا شك ثواب عظيم على عمل قليل، متيسر لكل مؤمن أن يناله كل جمعة، فلله الحمد والمنة.

بعض فوائد حديث الباب:

الفائدة الأولى: عناية اللَّه -عز وجل- بهذه الأمة، يتبين من:

١ - أن الله -عز وجل- جعلها آخر الأمم زمانًا في الدنيا، وأعظم الأمم منزلة في الآخرة، ولا تخفى الفضائل المتنوعة لكون هذه الأمة آخر الأمم زمانًا في الدنيا، فهي شاهدة على جميع الأمم، وشريعتُها وكتابها لا يُنْسَخان إلى يوم القيامة، وكل الأمم مأمورة أن تدخل في دينها، ولا تأتي أمة تستعلي عليها، وغير ذلك كثير قال ابن حجر رحمه الله: (والمراد أن هذه الأمة وإن تأخر وجودُها في الدنيا عن الأمم الماضية فهي سابقة لهم في الآخرة بأنهم أولُ من يُحْشَر وأولُ من يحاسب وأول من يُقْضَى بينهم وأول من يدخل الجنة) (٢).

٢ - هدايتها ليوم الجمعة دون غيرها من الأمم لقوله ﷺ: **«فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا اللَّه فغدًا لليهود وبعد غد للنصارى»**. وقال صاحب الفتح: (وفيه بيان واضح لمزيد فضل هذه الأمة على الأمم السابقة زادها اللَّه تعالى) (٣).

٣ - تمييز هذه الأمة عن الأمم السابقة، وذلك بتمسكها بما افترضه اللَّه عليها، واستحالة اجتماعها على الباطل، ودليله أن اللَّه افترض على اليهود يوم الجمعة فضلوا عنه وبدلوه بيوم السبت، وافترضه على النصارى فضلوا عنه وبدلوه بيوم الأحد، فاجتمعت الأمتان على ضلالة واحدة، وهي تبديل يوم الجمعة، وتعظيمهم يومًا لم يؤمروا بتعظيمه مع حرمانهم من بركاته وفضائله.

الفائدة الثانية: عظيم فضل يوم الجمعة، وأنه اليوم الفاضل على سائر الأيام منذ أن خلق اللَّه آدم عليه السلام، وأدلة ذلك:

---

(١) البخاري، كتاب: الجمعة، باب: فضل الجمعة، برقم (٨٨١).
(٢) انظر «فتح الباري»، (٢/ ٣٥٤). (٣) انظر المصدر السابق، (٢/ ٣٥٦).

١ - أن الله خلق فيه آدم عليه السلام ، فعند مسلم، أن أَبَا هُرَيْرَةَ قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ ؛ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا» (١).

٢ - هو اليوم الذي فرضه الله - سبحانه وتعالى - على جميع الأمم، لما ورد عند البخاري: «ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم».

٣ - هو أول أيام الأسبوع، لقوله ﷺ: «فالناس لنا فيه تبع، اليهود غدًا، والنصارى بعد غد». هذا بالإضافة إلى ما ذكرته آنفًا من بركة هذا اليوم العظيم.

تنبيه: يعتقد بعض الناس أن يوم عرفة لو صادف يوم جمعة لعدلت هذه الحجة سبعين حجة، وهذا الاعتقاد غير صحيح، ويجب تنبيه الناس على خطأ هذا المعتقد، ولكن يمكن أن يقال: إن الدعاء في مثل هذا اليوم أرجى للقبول لمصادفته يوم عرفة ولوجود ساعة إجابة يوم الجمعة.

الفائدة الثالثة: الهداية من الله وحده لقوله ﷺ: «فهدانا الله»، ويتفرع عليه وجوب طلب الهداية من الله، وأن المسلم يجب أن يكون دائمًا على حذر؛ لأن الأمر ليس بيده، وإنما هو بيد الله وحده.

٨ - لها ساعة إجابة كل ليلة:

عَنِ الْأَغَرِّ أَبِي مُسْلِمٍ يَرْوِيهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ قَالاَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُمْهِلُ حَتَّى إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الأَوَّلُ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ». رواه مسلم (٢).

وعند البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا - تبارك وتعالى - كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟» (٣).

وتلك منة أخرى امتن بها الله - تبارك وتعالى - على هذه الأمة، بأن جعل في كل ليلة وقتًا يتفضل به على عباده المؤمنين، فَيَغْفِر للمستغفِر، ويُعطي السائل، ويجيب الداعي،

(١) مسلم، كتاب: الجمعة، باب: فضل يوم الجمعة، برقم (٨٥٤).
(٢) مسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، برقم (٧٥٨).
(٣) البخاري، كتاب: الجمعة، باب: الدعاء في الصلاة من آخر الليل، برقم (١١٤٥).

وهي تختلف عن ساعة الإجابة التي في يوم الجمعة، حيث إنها تتكرر كل ليلة، وليست مرة واحدة في الأسبوع، بالإضافة إلى أن وقتها معلوم بالتحديد وهو الثلث الأخير من الليل، كما يدل الحديث على أن ساعة الإجابة في الليل أطول من ساعة يوم الجمعة حيث جعلها الله من بداية ثلث الليل الآخر إلى طلوع الفجر.

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: رحمة اللَّه ومنته العظيمة على هذه الأمة ويتبين ذلك من:

١ - جعل - سبحانه وتعالى - وقتًا معلومًا يستجيب فيه لكل من دعاه واستغفره.

٢ - هو - سبحانه وتعالى - الذي ينادي العباد ويدعوهم إليه، مع أنه هو الغني عنهم من كل وجه، وهم الفقراء إليه في كل أمر، وهل سمعنا ملكًا من ملوك الأرض، مهما بلغت تقواه وغناه وفضلُه يفتح أبوابَه كل يوم وينادي رعاياه مُتَحَبِّبًا إليهم ومُرَغِّبًا لهم في الإقبال عليه.

٣ - من أعظم مظاهر رحمته - سبحانه وتعالى - أن جعل النداء لعموم عباده، العاصي منهم والطائع، المُدْبِر منهم والمُقْبِل، وكان المفترض - على حسب عقولنا ومداركنا - أن ينادي في هذه الساعة الفاضلة على خيرة العباد دون سواهم ولكن الرب الكريم الودود الغفور أبى أن يمنعنا فَضْلَ ما عنده بسوء ما عندنا، فقضى أن تعم رحمتُه وبركاتُه الجميع، أرأيتم ملكًا من ملوك الدنيا يدعو من أساء إليه ويُعْلِمُه بعفوه عنه إذا هو رجع إليه وانتهى عما سلف؟!

الفائدة الثانية: كرمه وجوده وغناه - سبحانه وتعالى - إذ وعد كل من سأله أن يعطيه ورد في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن أبي ذر ﷺ وفيه: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شيئا، يَا عِبَادِي: لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ»[1].

الفائدة الثالثة: سوء أدب مَنْ يقضي مثلَ هذا الوقت الفضيل في معصية اللَّه -عز وجل-، فكيف يتجرأ عبد أن يعصي اللَّه في وقت ينادي فيه اللَّه - سبحانه وتعالى - على العباد عارضًا عليهم التوبةَ والاستغفارَ وإجابةَ الدعاء، كما يؤخذ من الحديث أيضًا أن

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم، برقم (٢٥٧٧).

الذي يعتاد أن ينام في مثل هذا الوقت كل ليلة مغبون.

الفائدة الرابعة: حُبُّ اللَّه - سبحانه وتعالى - أن يسأله العبد ويتضرع إليه وأنْ يُظْهر فقره وحاجته بين يدي مولاه وخالقه، لقوله تعالى: (من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعْطِيَه؟)، ولولا حب اللَّه - سبحانه وتعالى - أن ينشغل العباد بالسؤال والدعاء، ما حثهم على ذلك في أفضل الساعات.

الفائدة الخامسة: أن من المقاصد العظيمة لهذا الدين الحنيف، تربية أفراد الأمة على ترك المألوف وكذا عدم الإكثار من لذات النفس وشهواتها المباحة، ودليله من الحديث أن الفضل العظيم الذي بَشَّرَ به الحديثُ الشريف لن يناله إلا من ترك فراشه في أجمل أوقات الليل وهو الثلث الأخير منه، خاصة في أوقات البرد القارص.

وفي الحديث أيضًا أن العبد إذا أراد أن يرتقي الدرجات لا يجب عليه فقط أن يترك المحرمات والمكروهات ولكن يجب عليه أن يترك بعض حظوظ النفس، وأدلة ذلك كثيرة في الكتاب والسنة.

الفائدة السادسة: بعض الفوائد التي نَصَّ عليها الإمام ابن حجر رحمه الله حيث قال: (وفي الحديث من الفوائد تفضيل صلاة آخر الليل على أوله وتفضيل تأخير الوتر، لكنْ ذلك في حق من طمع أن ينتبه وأن آخر الليل أفضل للدعاء والاستغفار؛ ويشهد له قوله: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾، وأن الدعاء في ذلك الوقت مجاب، ولا يُعْترض على ذلك بتخلفه عن بعض الداعين لأن سبب التخلف وقوع الخلل في شرط من شروط الدعاء كالاحتراز في المطعم والمشرب والملبس أو الاستعجال الداعي أو بأن يكون الدعاء بإثم أو قطيعة رحم أو تحصل الإجابة ويتأخر وجود المطلوب لمصلحة العبد أو لأمر يريده الله) [1].

٩ - التخفيف الشرعي ورفع الأغلال التي كانت على الأمم السابقة:

قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢٨٦].

شاهد على التخفيف في العبادات:

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: (خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ

(١) انظر «فتح الباري»، (٣/ ٣٢).

حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْبَيْدَاءِ - أَوْ بِذَاتِ الْجَيْشِ - انْقَطَعَ عِقْدٌ لِي فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْتِمَاسِهِ وَأَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ، وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ، فَأَتَى النَّاسُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، فَقَالُوا: أَلاَ تَرَى مَا صَنَعَتْ عَائِشَةُ؟ أَقَامَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبِالنَّاسِ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاضِعٌ رَأْسَهُ عَلَى فَخِذِي قَدْ نَامَ، فَقَالَ: حَبَسْتِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَالنَّاسَ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ! قَالَتْ عَائِشَةُ: فَعَاتَبَنِي أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ، وَجَعَلَ يَطْعُنُنِي بِيَدِهِ فِي خَاصِرَتِي وَلاَ يَمْنَعُنِي مِن التَّحَرُّكِ إِلاَّ مَكَانُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى فَخِذِي، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَصْبَحَ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ التَّيَمُّمِ فَتَيَمَّمُوا فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ: مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ، قَالَتْ: فَبَعَثْنَا الْبَعِيرَ الَّذِي كُنْتُ عَلَيْهِ فَإِذَا الْعِقْدُ تَحْتَهُ) (١).

الشاهد في الحديث: أن الرسول ﷺ ومعه أصحابه عندما أرادوا الصلاة، وقد افتقدوا الماء، لحبس عائشة رضي الله عنها الجيشَ بفَقْدِها عِقْدَها، لم يُحَمِّلهم اللّه ما لا يطيقون، فلم يأمرهم أن يبحثوا عن الماء بجهد الأنفس، ولم يأمرهم أن يتوضئوا بالماء المخصص للشرب، بل أنزل عليهم آية التيمم.

ولاشك أن اللّه قد خفف عن الأمة التكليفَ بمشروعية التيمم، فلا شك أن التيمم أيسر وأخف على المكلف من الوضوء، من حيث عدد الأعضاء التي يجب غسلها، وعدد مرات الغسل، كما أن هيئة التيمم أخف من حيث عدم الحاجة إلى تشمير الذراعين وخلع الخف، واستخدام الماء الذي قد يكون باردًا أو ساخنًا جدًّا.

وقد تكون الحكمة في التخفيف، أن فَقْدَ الماء - غالبًا - ليس من كسب المكلف، فلا وجه لزيادة التكليف عليه، كما أن فقد الماء فيه عُسْرٌ ومشقة لعدم استغناء الناس عنه، فعوض المشرع هذا العسر بتيسير التيمم.

وفي النهاية فإننا ننظر إلى الأمر على أنه منحة من اللّه - سبحانه وتعالى - وأن اللّه قد أراد بهذا التخفيف رحمة العباد، وإظهار فضل هذه الأمة، وإكرام نبيها غاية الإكرام، بالتوسعة على أمته والامتنان عليها من كل وجه.

وفي الحديث فوائد منها:

الفائدة الأولى: تعظيم الصحابة لمقام النبوة، فلم يجمعوا بين النبي ﷺ والناس في لفظ

(١) البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، برقم (٤٦٠٧).

واحد، فذكروه أولاً ثم عطفوا بالناس، حتى ولو كانوا مشتركين في الأمر المخبر عنه، ففي الحديث: (فأقام الرسول ﷺ على التماسه وأقام الناس معه)، وفيه: (ألا ترى ما فعلت عائشة؟ أقامت برسول الله وبالناس)، وكذا قول أبي بكر معاتبًا عائشة: (حبست رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء)، وأحسب أن ذلك أثر التربية الربانية للصحابة، قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

الفائدة الثانية: مناقب عائشة رضي الله عنها:

١ - حَبَسَ النبيُّ ﷺ الناسَ لالتماس عقدها، مع علم النبي أنه ليس ثمة ماء، وهذا فيه تطييب لخاطرها، وإزالة الحزن عن نفسها بِفَقْدِ عِقْدها، وقد يكون أيضًا من باب المحافظة على المال، وقد بينت ذلك في التعليق على حديث الإفك.

٢ - نوم النبي ﷺ واضعًا رأسَه الشريفة على فخذها، وهي منقبة عظيمة لمن تدبرها؛ لأنه يُشعر بعظيم حبه لها.

٣ - إيثارُها راحةَ النبي وعدم إزعاجه في نومه، على التحرك للنجاة من إيلام أبيها، فقدمت راحة الرسول على ألم جسدها، قالت: (فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول وجعل يَطْعُنني بيده في خاصرتي ولا يمنعني من التحرك إلا مكان الرسول على فخذي).

٤ - بركة عائشة رضي الله عنها، والبركة هي كثرة الخير وعموم نفعه، حيث إنها كانت السببَ المباشر في نزول آية التيمم، بعد أن حبست الرسول والناس معه وليسوا على ماء، ولك أن تتصور مدى أهمية هذه البركة العظيمة، التي انتفع بها عموم المسلمين إلى يوم القيامة، وقد لمح الصحابي الجليل، أسيد بن حضير، عظيم هذه البركة، بمجرد نزول آية التيمم فقال: «**ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر**»، وهذا تصريح منه بفضل أبي بكر وابنته وأهل بيته على الأمة.

وقد ورد عند البخاري: «**فوالله ما نزل بكِ من أمر تكرهينه إلا جعل الله للمسلمين فيه خيرًا**» [1]. وهذا غاية إكرام الله لها.

الفائدة الثالثة: لا يجب على المسلم، إذا كان في سفر وليس معه ماء، أن يتعجل السفر مخافة أن تتدركه الصلاة، وله أن يتوقف في السفر لكل أمر مباح، ولو للتنزه؛ لأن النبي ﷺ حبس الناس في عقد، ولم تكن آية التيمم قد نزلت بعد، فالتيمم مشروع لكل من

(١) البخاري، كتاب: التيمم، باب: إذا لم يجد ماء ولا ترابًا، برقم (٣٣٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

فقد الماء، ولو لم يكن لضرورة.

الفائدة الرابعة: جواز أن يَذْكر الرجل أخاه في غيبته، بفعل يعتقد أنه أساء به للناس، ولا يعتبر ذلك غيبة ما دام ملتزمًا في كلامه حدود الله وأن يكون لا يريد به طعنًا في الشخص وإنما يريد به الشكاية، ونلحظ أيضًا أن هذا الكلام قيل لأبيها وليس لأحد غريب عنها، قالت: (فأتى الناس إلى أبي بكر الصديق فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشة).

الفائدة الخامسة: جواز أن يؤدب الرجل ابنته ولو كانت متزوجة، بل لو كان زوجها من أهل الفضل، ولا يُعَدّ ذلك تعديًا على حق الزوج، وله أن يستخدم في التأديب، ما يؤلم قولاً وفعلاً، قالت: (فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول وجعل يَطْعُنني بيده في خاصرتي).

الفائدة السادسة: قضت حكمة الله، - سبحانه وتعالى -، أن يربط نزول آيات التشريع، بأسباب ومناسبات، وهذا هو الغالب، وحديث الباب حجة في ذلك، حيث جعل الله ضياع العقد سببًا لتأخر الركب مع عدم وجود الماء، لتنزل آية التيمم.

الفائدة السابعة: الحث على رد الخير لأهله، والاعتراف لأهل المعروف بصنيعهم الجميل، وجواز أن ينسب الخير لمن باشره أو تحقق على يديه، لقول أسيد بن حضير: (ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر)، وفيه نسبة الفعل إلى مَنْ كان سببًا فيه، لقولهم في حق عائشة: (ألا ترى ما صنعت عائشة)، ويتضح من تلك الفائدة، تكلف من لا ينسب أي فعل لأحد من الناس، إلا يتعقبه بقوله: (بعد الله)، أو ما شابه ذلك، فيقول: (أرجو من الله ثم منك)، حتى إيصال النفع أو دفع الضر عن أحد، يمكن أن ينسبه الإنسان إلى نفسه، إذا كان سببًا فيه، دون أن يعلق الأمر بالله، لما رواه البخاري: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذُكِرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ فَقَالَ: «**لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ**»(١)، ولم يقل: تنفعه شفاعتي بعد الله.

الفائدة الثامنة: من الحكمة استخدام كل من اللين والشدة، حسب متطلب الحال، وليس من الحكمة أن يكون الرجل لينًا دومًا، أو شديدًا في كل حال، فلكل مقام مقال، فها هو أبو بكر الصديق، الرجل الأسيف، يعنف الزوجة الحبيبة للنبي ﷺ بلسانه وبيده في حال نوم النبي ﷺ على فخذها، وقد بينتُ ذلك في أكثر من موضع، لحاجة الناس إلى هذا السلوك القويم.

---

(١) البخاري، كتاب: المناقب، باب: قصة أبي طالب، برقم (٣٨٨٥).

شاهد على التخفيف في المخالفات: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ». رواه مسلم [(١)].

وهذا شاهد آخر على إرادة اللَّه -عز وجل- التخفيفَ على هذه الأمة، ولكن في مجال المخالفات الشرعية حيث لم يؤاخذها على حديث النفس والوسوسة.

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: عظيم شأن النبي ﷺ عند ربه - تبارك وتعالى -، ودليله من الحديث قوله: «إن اللَّه تجاوز لي»، فكان هذا التجاوز إكرامًا له ﷺ في أمته، ويتفرع عليه علمنا بكبير فضل النبي ﷺ على أمته، إذ ببركته حدث هذا التجاوز عن الوسوسة.

الفائدة الثانية: رحمة اللَّه - تبارك وتعالى - بهذه الأمة، إذ اختصَّها عن سائر الأمم بالتجاوز عن الوسوسة وحديث النفس، والدليل قوله ﷺ: «إن اللَّه تجاوز لي عن أمتي»، ولو حدث ذلك لكل الأمم السابقة ما ذكره النبي ﷺ على سبيل امتنان اللَّه عليه.

كما أن وجه الرحمة في هذا التجاوز أن حديث النفس والوسوسة من الأمور التي يصعب على الإنسان - إلا من رحم ربي - أن ينفك عنها، وهي ملازمه للإنسان في كل وقت، والمؤاخذة عليها تسبب قطعًا الحرج الذي وعد اللَّه أن يرفعه عن هذه الأمة بدليل قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٖۚ﴾ [الحج: ٧٨].

الفائدة الثالثة: ما هي الوسوسة التي تجاوز اللَّه عنها لهذه الأمة؟

قال الإمام ابن حجر رحمه الله: (والمراد نفي الحرج عما يقع في النفس حتى يقع العمل بالجوارح أو القول باللسان على وفق ذلك، والمراد بالوسوسة تردد الشيء في النفس من غير أن يطمئن إليه ويستقر عنده، ولهذا فرق العلماء بين الهم والعزم) [(٢)].

وقال الإمام النووي رحمه الله ما نصه: (فأما الهم الذي لا يكتب فهي الخواطر التي لا توطن النفس عليها ولا يصحبها عقد ولا نية ولا عزم) [(٣)]، كما قال رحمه الله: (وقد تظاهرت نصوص الشرع بالمؤاخذة بعزم القلب المستقر ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٞۖ﴾ [الحجرات: ١٢]،

(١) مسلم، كتاب: الإيمان، باب: تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب، برقم (١٢٧).
(٢) انظر «فتح الباري»، (٥/ ١٦١).
(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ١٥١).

والآيات في هذا كثيرة، وقد تظاهرتْ نصوصُ الشرع والإجماعُ على تحريم الحسد واحتقار المسلمين وإرادة المكروه بهم وغير ذلك من أعمال القلوب وعزمها). انتهى [١].

والخلاصة أن هناك ثلاث حالات:

الحالة الأولى: رجل خطر على باله المعصية، فدفعها احتسابًا للأجر وخوفًا من اللَّه -عز وجل- ، فلم تستقر في قلبه، فهذا له أجر المجاهدة وليس عليه شيء قطعًا، وإن دفعها دون احتساب ولا خوف وإنما لحاجة في نفسه فليس له أجر على أحد قولي العلماء، وليس عليه إثم.

الحالة الثانية: رجل راودته المعصية وعزم على فعلها، ولكن حال دونها ودونه شيء خارج عن إرادته، فعليه إثم قطعًا، ولكن إثم عزم النية على المعصية، وليس إثم المعصية ذاتها؛ لكونه لم يعملها. ذكر معناه الإمام النووي في شرح الحديث.

الحالة الثالثة: رجل خطرت على باله المعصية وعزم على فعلها وباشرها فعلاً فعليه إثمان؛ إثم العزم وإثم المعصية نفسها، ذكره النووي أيضًا.

الفائدة الرابعة: إذا كان الشرع الحنيف لم يُوجِّهِ اللوم والعتاب إلى من وسوست له نفسه بالسيئة ولم يعزم على فعلها، فهل يستوي هو ومن لم يهم بالمعصية أصلاً ولم توسوس له نفسه؟ الإجابة: إنهما لا يستويان مثلا. ودليله أن الأصل لحوق الإثم على مَنْ هَمَّ بالمعصية أو وسوست له بها نفسه، ولكن رُفع هذا الإثم عن هذه الأمة إكرامًا لرسولها ﷺ، فإن كان التجاوز عن الهم قد رُفع إلا أن ذمه موجود في الشرع، حيث إن التجاوز لا يكون إلا عن شيء مذموم، ومن جهة أخرى فإن القلب الذي انشغل بالطاعات والذكر وكذا المباحات طول الوقت ليس كالقلب الذي غفل بعض الوقت عن الطاعات بالانشغال بالوسوسة وحديث النفس بالمعصية.

١٠ - ترتيب الأجور العظيمة على الأعمال القليلة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ!!. فَقَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟» قَالُوا: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلاَ نَتَصَدَّقُ، وَيُعْتِقُونَ وَلاَ نُعْتِقُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفَلاَ أُعَلِّمُكُمْ شيئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَلاَ يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ، إِلاَّ مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «تُسَبِّحُونَ وَتُكَبِّرُونَ وَتَحْمَدُونَ دُبُرَ

(١) انظر المصدر السابق.

كُلِّ صَلاَةٍ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ مَرَّةً». قَالَ أَبُو صَالِحٍ: فَرَجَعَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا فَفَعَلُوا مِثْلَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ» (١). [رواه مسلم].

الشاهد في الحديث: أن الصادق المصدوق - عليه الصلاة والسلام -، أبلغ الفقراء أن الذي يسبح ويحمد ويكبر بعد كل صلاة ثلاثًا وثلاثين إلا التكبير أربعًا وثلاثين، يدرك بها قائلُها فَضْلَ من سبقه بأعمال عظيمة، كالحج والعمرة والجهاد والصدقة، وهو ما يسمى بختم الصلاة، والذي لا يستغرق عشر دقائق، إذا كان بروية وتفكر وبقلب حاضر، فهل أدركنا عظيم فضل اللَّه على هذه الأمة، هل هناك مشقة على أي أحد أن يلزم هذا الذكر السهل الميسر، لينال أجر الحاج المعتمر المجاهد في سبيل الله، واللَّه، إن هذا لهو الفضل المبين على أمة محمد ﷺ.

والعجيبُ أننا نرى بعض الناس لا يحافظون على هذا الذكر، بالرغم من ثوابه، فينتهون من الصلاة، وكأنهم كانوا في سجن طويل، يبادرون بالخروج من المسجد، كأن الخارج أولاً، هو المقدم عند الله، فيضيعون على أنفسهم ما يُثَقِّلُ موازينهم ويرفع درجاتهم، ويُفَوِّتون عليهم إدراكَ مَنْ سبقهم من أهل العزائم والأموال الكثيرة.

في الحديث فوائد منها:

الفائدة الأولى: تطبيق شرع اللَّه - عز وجل - في أمة من الأمم، لا يمنع أن يكون فيها فقراء، فالعهد النبوي رغم أنه خير القرون، فما زال فيه فقراء وأغنياء، ولم يؤمر الأغنياء أن يوزعوا جميع أموالهم بينهم وبين الفقراء، حتى يستوون في المعيشة، وهذه سنة اللَّه في الكون أن يبتلي عبدًا بالفقر، ليرى هل يصبر أم يجزع؟ هل يرضى بقضاء اللَّه وقدره؟ أم يقول: لِمَ جعلني اللَّه فقيرًا وغيري غنيًا، ما حكمته في ذلك؟ أما كان اللَّه يستطيع أن يغني الجميع؟ هل سيتمنى أن تزول نعمة أخيه الغني إن لم ينتفع بها؟!، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠]، فمن صبر على البلاء، وسلم بالقضاء، فله الأجر الكامل، واللَّه إنه أجر لا يوازي مصيبته، بل يَفُوقُه كثيرًا، ألم تسمع لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، برقم (٥٩٥).

ولا يحسب الأغنياء أنهم قد سلموا من الامتحان والاختبار، كيف ذلك؟ واللَّهُ يقول: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، ومن أعظم الخير وفرةُ المال، الذي يسعد صاحبه، في الدنيا والآخرة، فالغنيُّ مُبْتَلًى في هذا المال، أيخرج زكاته أم يبخل بها؟ ألم يعلم أن هذا القدر المفروض في ماله ليس من حقه، بل هو حق للفقير، قَدَّره الله وشَرَعَه، كيف يستحل العبد مالاً ليس له، ويعيب على السارق الذي يسرق البيضة، ألم يعلم أن اللَّه هو الذي استقرضه هذا المال؟ ويقع أولاً في يديه الكريمتين قبل أن يقع في يد الفقير؟ ألم يعلم أن اللَّه يعطيه بكل جزء سبعمائة جزء ويضاعف بعد ذلك لمن يشاء؟ ألم يعلم أن الذي أعطاه قادر على أن يسلبه ما أعطاه؟ ألم يعلم الغني ماذا فعل اللَّه بقارون، الذي أوتي من المال، ما إنَّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، أين هو الآن؟ خُسِفت به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، لم يكن مطلوبًا منه إلا أن يشكر مُسْدِيَ النعمة ويُخْرج زكاتها، هل تراه الآن يصبر على ما هو فيه من العذاب، مُسَلِيًا ومصبرًا نفسه بتنعمه في الدنيا؟ كلا والله، نسي ما كان من نعمة، مع أول غمسة في العذاب، والغنيُّ لم يُبْتَلَ فقط بإخراج الزكاة، بل ابتلي بأكثر من ذلك، ابتلي بمرض الكبر والعجب، وتَعَلُّقِ أنظار الفقراء به، لحاجتهم له، وَتَرفُّعِ نظرِه عنهم لغناه بما عنده، ابتلاه اللَّه بالخادم في المنزل، والسائق في السيارة، والفقير عند باب المسجد، والمسكين على قارعة الطريق، هل عَطَفَ عليهم؟ هل تواضع لهم؟ هل اهتم بهمومهم، هل قضى لهم حوائجهم، كل ذلك فتنة؟ يُسْأل عنها الغنيُّ يوم القيام لذلك فالفقير والغني في الابتلاء سواء.

وأعود فأقول: مازالت الأمة فيها الفقير والغني، والرسول قد أوصى معاذًا عندما ذهب إلى اليمن فقال له في حديث البخاري: «**فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً، تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ**»[1].

أي لا يأخذ من أموالهم إلا حق الفقير وهو الزكاة، فالإسلام لا يعرف الشيوعية ولا الاشتراكية ولا التأميم ولا مصادرة الأموال، بل إن تعظيم الشرع لحرمة المال قد وصل إلى أنْ قرن اللَّه - سبحانه وتعالى - بين القتل وأكل أموال الناس بالباطل، كأنهما في الإثم سواء، ومعلوم من الدين حرمة القتل وشناعة عقوبته. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري، كتاب: الزكاة، باب: أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء، برقم (١٤٩٦) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].

فهل نتعلم هذا الدرس العظيم، ونعلم أن الغنى والفقر من اللَّه لا محالة اختبارًا وامتحانًا، وأن الغنى الحقيقي يوم القيامة، وأن الفقر الحقيقي يوم تقوم الساعة، قال تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝﴾ [الواقعة: ١-٣]، فالخفض والرفع الحقيقي في الآخرة، وليس في الدنيا، فالسعيد فيها مَنْ رُفِعَ، والشقيُّ فيها من خُفِضَ.

الفائدة الثانية: وهي منقبة عظيمة لفقراء الصحابة، فللفقراء في كل بلد مطالب وهموم بل ولهم آمال، ومن آمالهم زيادةُ قدر الصدقات الممنوحة لهم، لتخفف عنهم عوز الحاجة، وتضمن لهم المعيشة الهنية والعيشة السوية، وقد يذهبون إلى الحاكم، يشتكون إليه ما فيه الأغنياء من ترف ورغد، بل قد يثور الفقراء على الأغنياء، كما حدث قبل الثورة البلشفية في روسيا، فهل حدث هذا من فقراء العصر النبوي؟ لا، إنهم لم ينظروا إلى الأغنياء، يريدون ما عندهم، ما فكروا إلا في أمر واحد، وهو أن الأغنياء لهم فضائل أموال يتصدقون بها، ويحجون بها، ويجهزون بها المجاهدين، وليس عندهم - أي الفقراء - ما ينفقونه في سبيل الله، فتكون للأغنياء أجور عظيمة، والفقراء محرومون منها، فكيف المخرج وما السبيل؟ يريدون فضل اللَّه في الآخرة، وانظر إلى قولهم في آخر الحديث: (سمع إخواننا أهل الأموال) وهم صادقون في قولهم: إن الأغنياء إخوان لهم.

الفائدة الثالثة: في الحديث مناقب عظيمة لأهل الأموال من الصحابة ﷺ منها:

١ - بيان مدى حرصهم على فضائل الأعمال، كالصدقة والعتق، وكذا الحج والعمرة والجهاد، كما ثبت في رواية عند مسلم، مع همتهم العالية في بقية العبادات، كالصوم والصلاة.

٢ - أنهم لم يستكثروا ما هم فيه من الخير الحاصل لهم، من الصدقة والحج والجهاد، بل سارعوا إلى مشاركة الفقراء في ذكر ختم الصلاة، فلم يقولوا: هذه عبادة الفقراء حتى يدركوا ما نحن فيه من فضل، ولم يقولوا: كفى ما نحن فيه من خير؟ بل سارعوا إلى الزيادة، وحرصوا على الزيادة، فانظر كيف ربَّى النبيُّ الأغنياءَ والفقراء، على حد سواء، فلا حسد ولا غل عند الفقراء، ولا تكبر ولا ترفع عند الأغنياء.

الفائدة الرابعة: التوفيق للطاعات والقربات، مَحْضُ فضلٍ من اللَّه عز وجل، حيث

قال النبي: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»، فعلى المسلم ألا يرى لنفسه فضلاً في أداء الطاعات، ويجب عليه أنْ يُقِرَّ ويعترف أنها من توفيق الله - سبحانه وتعالى -، يتفرع على ذلك وجوب شكرها، ولزوم سؤال الله أن يحفظها ويديمها.

الفائدة الخامسة: وقد يؤخذ من الحديث، أن الغني الشاكر، المؤدي حق الله في المال، أفضل من الفقير الصابر المحتسب، إذا استووا في بقية الطاعات، وذلك للأسباب التالية:

١ - قال الفقراء للنبي: (ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم)، فأقر النبي هذه المقولة، ولو كان فيها خطأ لبينه، حيث إن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز في حقه ﷺ.

٢ - قال النبي ﷺ للفقراء عندما علَّمهم ذكر ختم الصلاة: «تدركون به من سبقكم» فعلمنا أن الأغنياء قد سبقوا الفقراء بالأعمال الزائدة غير المتاحة للفقراء.

٣ - إذا استوى الفقراء والأغنياء في الطاعات، زاد الأغنياء أعمالاً لا يستطيع الفقراء أداءها، ولما أخبر الفقراءُ النبيَّ بأن إخوانهم من الأغنياء عملوا بذكر ختم الصلاة، رد النبي بأن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وهذا يوحي بأن الله تفضل على الأغنياء إن شاركوا الفقراء في كل الطاعات، وزادوا بأعمال الصدقات.

الفائدة السادسة: كثير من الناس مَغْبُون في ذكر ختم الصلاة، فمنهم من لا يحافظ عليه أصلاً وغَبْنُه واضح، ومنهم من يحافظ عليه وهو مغبون أيضًا، كيف ذلك؟ أقول: يقوله بلا تدبر ولا تفكر ولا استحضار للقلب، ينظر يمينًا وشمالاً ويطالع في كل أحد أمامه، إذا رأيتَ حركة يديه في العد تعجبْتَ، وإذا سمعتَ نطقه بها ذُهِلْتَ، لا تسمع منه إلا حرف السين من قوله (سبحان الله)، أبهذه الطريقة يعطينا الله الأجر العظيم، الذي رتبه على هذا الذكر؟! مهلاً مهلاً في التسبيح، عليك بالتدبر.

فإذا قلت: (سبحان الله) يجب أن تستحضر تنزيهَه سبحانه عن كل ما لا يليق به من صفات النقص، ومشابهة المخلوقين، وأنت تقول: (الحمد لله) يجب أن تستشعر الثناء عليه، بصفات الكمال والجمال والإجلال، وهو أهل لكل ذلك وزيادة، وإذا قلت: (الله أكبر) تستشعر أنه أكبر فعلاً، أكبر في صفاته وفي أسمائه، أكبر في ذاته، أكبر في مخلوقاته الدالة على عظمته وكبريائه، هو أكبر في نفوسنا من كل شيء، فلا نقدم عليه شيئًا، بل لا نساويه بشيء، أكبر لأنه الذي خلق، ورزق وأحيا وأمات، أكبر لأنه تفرد بالأسماء الحسنى

والصفات العليا، له من كل صفة أتمُّها، ومن كل اسم أكمله، فإذا ختمنا الصلاة على هذا النحو، رجونا الثواب وأملنا العطاء، والله – سبحانه وتعالى – أغنى الأغنياء عن القلب اللاهي، واللسانِ الذي يتحرك ولا يدري ما يقول، ومن غناه أنه لا يقبل من الأعمال إلا أحسَنَها، ومن النيات إلا أصْدَقَها.

والأحاديث في هذا الباب كثيرة جدًا، تحتاج إلى مؤلَّفٍ خاص، ولعدم الإطالة سأورد طائفة منها، دون تعليق، ليتذكر القارئ كم حبا الله – سبحانه وتعالى – هذه الأمة العظيمة من نعم كثيرة.

الحديث الأول: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِئَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِئَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلاَّ أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ» (١).

الحديث الثاني: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ وَرَاحَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ نُزُلَهُ مِنَ الْجَنَّةِ كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ» (٢).

الحديث الثالث: عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي النَّبِيتِ – قَبِيلٍ مِنَ الأَنْصَارِ – فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَنَّكَ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ تَقَدَّمَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «عَمِلَ هَذَا يَسِيرًا وَأُجِرَ كَثِيرًا». [رواه مسلم] (٣).

الحديث الرابع: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا، مَا تَقُولُ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ؟» قَالُوا: لاَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شيئا. قَالَ: «فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا» (٤).

الحديث الخامس: عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: صفة إبليس وجنوده، برقم (٣٢٩٣)، ومسلم، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء، برقم (٢٦٩١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الأذان، باب: فضل من غدا إلى المسجد ومن راح، برقم (٦٦٢)، ومسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا...، برقم (٦٦٩).

(٣) مسلم، كتاب الإمارة، باب: ثبوت الجنة للشهيد، برقم (١٩٠٠).

(٤) البخاري، كتاب: مواقيت الصلاة، باب: الصلوات الخمس كفارة، برقم (٥٢٨)، ومسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا، برقم (٦٦٧).

بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً، وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ» (١).

الحديث السادس: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لاَ تَنْبَغِي إِلاَّ لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ». [رواه مسلم] (٢).

الحديث السابع: عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَا سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلاَةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، أُوتِيَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ التَّوْرَاةَ فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا انْتَصَفَ النَّهَارُ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُوتِيَ أَهْلُ الإِنْجِيلِ الإِنْجِيلَ فَعَمِلُوا إِلَى صَلاَةِ الْعَصْرِ ثُمَّ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُوتِينَا الْقُرْآنَ فَعَمِلْنَا إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ فَأُعْطِينَا قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، فَقَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ: أَيْ رَبَّنَا، أَعْطَيْتَ هَؤُلاَءِ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، وَأَعْطَيْتَنَا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، وَنَحْنُ كُنَّا أَكْثَرَ عَمَلاً! قَالَ: قَالَ اللَّهُ -عز وجل-: هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالُوا: لاَ. قَالَ: فَهُوَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ» (٣).

الحديث الثامن: عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ فَقَالَ: هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُ مِئَةِ نَاقَةٍ كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ». [رواه مسلم] (٤).

الحديث التاسع: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنِ اتَّبَعَ جَنَازَةَ مُسْلِمٍ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، وَكَانَ مَعَهُ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا وَيَفْرُغَ مِنْ دَفْنِهَا، فَإِنَّهُ يَرْجِعُ مِنَ الأَجْرِ بِقِيرَاطَيْنِ، كُلُّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أُحُدٍ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيْهَا ثُمَّ رَجَعَ قَبْلَ أَنْ تُدْفَنَ فَإِنَّهُ يَرْجِعُ بِقِيرَاطٍ» (٥).

الحديث العاشر: عن سَهْلَ بْنَ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ حَدَّثَهُ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ». [رواه مسلم] (٦).

---

(١) مسلم، كتاب: الصلاة، باب: استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، برقم (٣٨٦).
(٢) مسلم، كتاب: الصلاة، باب: استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، برقم (٣٨٤).
(٣) البخاري، كتاب: مواقيت الصلاة، باب: من أدرك ركعة من العصر قبل الغروب، برقم (٥٥٧).
(٤) مسلم، كتاب: الإمارة، باب: فضل الصدقة في سبيل الله وتضعيفها، برقم (١٨٩٢).
(٥) البخاري، كتاب: الإيمان، باب: اتباع الجنائز من الإيمان، برقم (٤٧).
(٦) مسلم، كتاب: الإمارة، باب: استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى، برقم (١٩٠٩).

١١ – أكثر أتباع الرسل وأكثر أهل الجنة:

عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ فِي قُبَّةٍ فَقَالَ: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» قُلْنَا: نَعَمْ. قَالَ: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» قُلْنَا: نَعَمْ. قَالَ: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» قُلْنَا: نَعَمْ. قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْجَنَّةَ لاَ يَدْخُلُهَا إِلاَّ نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَمَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ إِلاَّ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَحْمَرِ». [متفق عليه] (١).

الشاهد في الحديث: قوله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة».

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: عظيم منة الله -عز وجل- على هذه الأمة، إذ جعلها نصف أهل الجنة، وفي بعض الروايات في غير الصحيحين، «ثلثي أهل الجنة» (٢)، وهي منة تكون في المقام الأول لنبي هذه الأمة ﷺ.

الفائدة الثانية: بيان ما كان عليه النبي ﷺ من الحكمة والحب لأصحابه، يتبين ذلك من:

١ – زَفَّ النبيُّ ﷺ البشرى لأصحابه رضي الله عنهم بصيغة الاستفهام مرتين وذلك لإرادة تقرير البشارة، ذكره ابن التين، وأقول: قد يكون الحكمة من ذكر البشرى على صيغة الاستفهام رغبة النبي ﷺ في إشعار أصحابه بفضلهم وإدلالهم، وأن الله -عز وجل- إكرامًا لهم سيعطيهم في الآخرة ما يرضيهم فقال: «أترضون» وما كان ذلك المعنى الجميل ليصل إليهم لو أنه ﷺ قال: «إنكم ثلث أهل الجنة».

٢ – أبلغ النبي ﷺ البشرى لأصحابه رضي الله عنهم، على ثلاث مراحل: الأولى كونهم ربع أهل الجنة، والثانية ثلث أهل الجنة، والثالثة شطر أهل الجنة، والحكمة من ذلك كما قاله الإمام النووي:

أ – أن ذلك أوقع في نفوسهم وأبلغ في إكرامهم، فإن إعطاء الإنسان مرة بعد أخرى

---

(١) البخاري، كتاب: الرقاق، باب: كيف الحشر، برقم (٦٥٢٨)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: كون هذه الأمة نصف أهل الجنة، برقم (٢٢١).

(٢) بهذا اللفظ أخرجه الحميدي في «مسنده» (٢/ ٣٦٧)، برقم (٨٣١)، وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان، تركه بعضهم وقال ابن معين: ليس بذاك القوي.

دليل على الاعتناء به ودوام ملاحظته.

ب - حملهم على تجديد شكر اللَّه تعالى وتكبيره وحمده على كثرة نعمه.

وأقول: قد تكون الحكمة أيضًا من ذلك، هو إشعارهم بفضل اللَّه العظيم عليهم، وأنه - تبارك وتعالى - لم يعطهم ما يرضيهم فحسب بل أعطاهم الزيادة تفضلاً وامتنانًا، فهم رَضُوا وكبَّرُوا لما علموا أنهم ربع أهل الجنة ثم جاءت الزيادة مرتين بعدها، وهذا أدعى للفرحة وأحرى بالشكر والامتنان للمنعم، ودافع للإنسان في تصور مقدار النعمة، وفيه أيضًا حب النبي ﷺ لِأَنْ ينقل أصحابه من فرحة إلى فرحة أعظم إلى فرحة عظمى.

الفائدة الثالثة: وهي فوائد متفرقة:

١ - مشروعية التكبير عند سماع المسلم ما يفرحه خاصة في أمور الدين، لما ورد في رواية مسلم: **«أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟» قال: فَكَبَّرْنا.**

٢ - حسن تربية النبي ﷺ لأصحابه ﷺ، فمع أن البشرى كانت من النبي ﷺ، إلا أنهم قد توجهوا لله بالشكر والحمد، ومظهرُه في الحديث تكبيرُهم رضي اللَّه عنهم.

٣ - بيان مدى قدر الأدب الجم الذي تجمل به النبيُّ ﷺ مع ربه - تبارك وتعالى - حيث قال: **«إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة».**

٤ - كرامة الجنة على ربها، إذ جعلها دار كل نفس مؤمنة، وحرمها على كل نفس غير مؤمنة، في مقابل هوان الدنيا على ربها، إذ جعلها دارًا للمؤمنين والكافرين.

٥ - كثرة أهل الشرك جدًّا مقارنة بالمؤمنين لقوله ﷺ: **«وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأبيض».**

١٢ - عاداتها بالنيات عبادات:

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيَأتِي أَحَدُنا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟! قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرًا».** من حديث رواه مسلم[1].

وعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **«إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ**

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الزكاة، باب: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، برقم (١٠٠٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

إلا أُجِرْتَ عَلَيْهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ». رواه مسلم [١]، كما روى الشيخان عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَنْفَقَ الْمُسْلِمُ نَفَقَةً عَلَى أَهْلِهِ وَهُوَ يَحْتَسِبُهَا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً» [٢].

هذه من منن الله العظيمة على أفراد هذه الأمة إذ جعل لهم من أعمالهم الدنيوية التي يقومون بها بالليل والنهار - وهم مضطرون إليها ولا ينفكون عنها - جعل لهم فيها أجرًا وثوابًا إذ هم قاموا بها إيمانًا واحتسابًا، تقربًا إلى الله وطلبًا لفضله ومرضاته، ومن تلك الأعمال النفقةُ على الأهل وإطعام الزوجة اللقمة في فمها، وحتى معاشرتها لقضاء الوطر.

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: عظيم منة الله -عز وجل- على هذه الأمة، ومظاهر ذلك:

١ - أن الله جعل ما يفعله العبد ويقوم به من العادات كالإنفاق على الأهل والولدان، وما يتلذذ به كمضاجعة الزوجة وإطعامها اللقمة في فمها، جعل منها أعمالاً يؤجر عليها العبد وتكون في ميزان أعماله يوم القيامة عبادات، قال الإمام النووي: (إن الحظ إذا وافق الحق لا يقدح في ثوابه؛ لأن وضع اللقمة في فم الزوجة يقع غالبًا في حال المداعبة، ولشهوة النفس في ذلك مدخلٌ ظاهر ومع ذلك إذا وُجِد القصد في تلك الحالة إلى ابتغاء الثواب حصل له بفضل الله) [٣].

٢ - مَكَّنَ الله -عز وجل- عبده المؤمن أن يكون دائمًا متصلاً به مستحضرًا ثوابه ورؤيته له، وذلك بأن شَرَعَ له أن يبتغي وجهه الكريم في كل عمل يقوم به سواء كان هذا العمل فيه مجاهدة أو كان لذة للنفس.

٣ - إرادة الله -عز وجل- الشرعية أن يغتنم العبد كل وقته بما يفيده وينفعه في الآخرة، فلا يُضيع على نفسه شيئًا من عمره هباءً، لقدرته على أن يكون كل عمله بأجر وثواب، ويتفرع عليه عظيم قَدْر وقت المؤمن إذ يمكنه أن يستثمره كله في طاعته سبحانه وتعالى.

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم، كتاب: الوصية، باب: الوصية بالثلث، برقم (١٦٢٨).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: النفقات، باب: فضل النفقة على الأهل، برقم (٥٣٥١)، ومسلم، كتاب: الزكاة، باب: فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج، برقم (١٠٠٢).

(٣) نقله ابن حجر في الفتح (١/ ١٣٧) من كلام النووي رحمه الله تعالى.

٤ - يَسَّرَ - سبحانه وتعالى - لكل مسلم أبوابًا من خير كثيرة، ضمن بها لكل عبد ألا يعدم عملاً صالحًا له فيه الأجر والثواب، فمن منا يعجز أن ينوي بنومه ليلاً التقوِّي للعبادة وأداء صلاة الفجر في جماعة المسلمين وكذلك إذا أكل وشرب، ومن منا يعجز أن يجامع زوجته بنية إنجاب الذرية الصالحة التي تقوم بأمر الدين وهكذا.

ويتبين من ذلك أن الكثير منا مغبون يَضِيع عليه حسنات كثيرة لعدم استحضار النية عند قيامه بعاداته.

٥ - كرمه -عز وجل- حيث يقبل - مع غناه عن العباد وافتقارهم إليه - القليل ويثيبهم عليه، ودليله قوله ﷺ: «**إذا أنفق المسلم نفقة**». قال ابن حجر رحمه الله: «وحذف المقدار من قوله: (إذا أنفق) لإرادة التعميم ليشمل الكثير والقليل» (١).

وأقول: إن تنكير كلمة «نفقة» يفيد التحقير أي أدنى نفقة. كما أن من كرمه - سبحانه وتعالى - أنه هو الذي رزق العباد ثم إذا هم أنفقوها فيما يحبونه ويتلذذون به باحتساب ونية أثابهم على ذلك.

الفائدة الثانية: من شروط قبول العبادة واستحقاق العباد الأجر والثواب عليها أن يبتغي العبد بها وجه اللّٰه أي يطلب بها ثواب اللّٰه ورضاه والتقرب إليه، وأن يقصد بالقيام بها طلبَ الأجر، وهو المقصود من قوله ﷺ: «**وهو يحتسبها**»، ولكن كيف يحتسب العبد النفقة على أهله، قال الإمام النووي: (وطريقه في الاحتساب أن يتذكر أنه يجب عليه الإنفاقُ على الزوجة وأولادِه وغيرهم ممن تجب نفقته على حسب أحوالهم واختلاف العلماء فيهم وأن غيرهم ممن ينفق عليه مندوب إلى الإنفاق عليهم فينفق بنية أداء ما أُمِرَ به وقد أُمِرَ بالإحسان إليهم) (٢).

الفائدة الثالثة: كل عمل يستطيع كسبه من الحرام فيعدل عنه إلى الحلال والمشروع من الدين فإن له فيه أجرًا، لقوله ﷺ: «**أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟! فكذلك إذا وضعها في الحلال**»، فالرجل الذي يستطيع أن يكسب عيشه من حرام فَعَفَّ عنه والتمس رزقًا حلالاً كان له في ذلك أجر.

---

(١) فتح الباري (٩/ ٤٩٨).
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٧/ ٨٩).

ثالثا: تفضيل مدينته ومسجده على سائر البقاع سوى (مكة)

أ- تفضيل مدينته ﷺ:

لا شك أن من أعظم دلائل إكرام اللَّه - سبحانه وتعالى - لنبيه ﷺ أن أوجب لمدينته غاية التعظيم، وعدد مظاهر هذا التعظيم ونَوَّعَه ليدلل على منتهى تكريم صاحبها ﷺ.

ومن أَوْجُه ذلك أن جعلها اللَّه حَرَمًا وبارك في صاعها ومُدِّها ولعن من آذى محدثًا أو أحدث فيها ورغب في شد الرحال إلى مسجدها، وجعل فيه من دون مساجد الأرض روضة من رياض الجنة وتوعد من أراد بأهلها سوءًا، فماذا بقي لهذه البلدة المباركة من أمر لم يُعَظَّم شرعًا أو لم يبارك فيه، وما كان ذلك إلا لوفور بركةِ مَنْ أقام ومات فيها ﷺ ورفيع منزلته عند اللَّه - تبارك وتعالى - كما سنرى إن شاء اللَّه ..

١ - مدينته حرم وثبوت اللعنة على من أحدث فيها حدثًا:

عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ إِلاَّ كِتَابُ اللَّهِ وَهَـٰذِهِ الصَّحِيفَةُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مَا بَيْنَ عَائِرٍ إِلَى كَذَا، مَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا، أَوْ آوَى مُحْدِثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لاَ يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلاَ عَدْلٌ». [رواه البخاري] (١).

وقد بدأتُ بتحريم اللَّه لها لأنه أبلغ مظاهر الاعتناء بها فهي حرم، مثل مكة المكرمة، تأخذ نفس أحكامها فلا يُخْتَلَى خلاها ولا ينفر صيدها ولا تلتقط لقطتها ولا يُحمل السلاح فيها لقتال، قال صاحب تحفة الأحوذي ما نصه: (وفيه دليل على أن المدينة حرم كحرم مكة، وفي هذا أحاديثُ كثيرة مروية في الصحيحين وغيرهما قال الشوكاني: اسْتَدَلَّ بما في هذه الأحاديث - من تحريم شجر المدينة وخبطه وعضده وتحريم صيدها وتنفيره - الشافعيُّ ومالك وأحمد والهادي وجمهورُ أهل العلم على أن للمدينة حرمًا كحرم مكة محرم صيده وشجره، قال الشافعي ومالك: فإن قتل صيدًا أو قطع شجرًا فلا ضمان؛ لأنه ليس بمحل للنسك فأشبه الحمى، وقال ابن أبي ذئب وابن أبي ليلى: يجب فيه الجزاء كحرم مكة، وبه قال بعض المالكية، وهو ظاهر قوله: كما حَرَّمَ إبراهيمُ مكة) (٢). انتهى.

---

(١) البخاري، كتاب: الحج، باب: حرم المدينة، برقم (١٨٧٠).

(٢) تحفة الأحوذي (٦/ ٢٧٠).

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: كذب من ادعى أن النبي ﷺ قد خص عليًا -رضي الله عنه- بأمور من هذا الدين لم يُطْلِعْ عليها أحدٌ غيره، ودليله قول علي رضي الله عنه: (ما عندنا شيء إلا كتاب الله وهذه الصحيفة)، والمنفي هنا شيء اختصوا به عن الناس، ودليله أيضًا ما رواه مسلم، قال أَبُو الطُّفَيْلِ عَامِرُ بْنُ وَاثِلَةَ: كُنْتُ عِنْدَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُسِرُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: فَغَضِبَ، وَقَالَ: مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُسِرُّ إِلَيَّ شيئًا يَكْتُمُهُ النَّاسَ غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ حَدَّثَنِي بِكَلِمَاتٍ أَرْبَعٍ قَالَ: فَقَالَ: مَا هُنَّ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: قَالَ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَهُ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ» [١].

قال الإمام ابن حجر - رحمه الله تعالى: (في الحديث رد لما تدعيه الشيعة بأنه كان عند علي وآل بيته من النبي ﷺ أمور كثيرة أعلمه بها سرًّا تشتمل على كثير من قواعد الدين وأمور الأمارة) [٢].

وقال الإمام النووي في شرح مسلم: (هذا تصريح من علي رضي الله عنه بإبطال ما تزعمه الشيعة والرافضة ويخترعونه من قولهم: إن عليًا رضي الله عنه أوصى إليه النبيُّ ﷺ بأمور كثيرة من أسرار العلم وقواعد الدين وكنوز الشريعة وأنه ﷺ خص أهل البيت بما لم يُطْلِع عليه غيرهم، وهذه دعاوى باطلة واختراعات فاسدة لا أصل لها ويكفي في إبطالها قولُ علي رضي الله عنه). انتهى كلام النووي رحمه الله [٣].

وأقول: بل يكفي في إبطالها أنها تقدح في أمانة النبي ﷺ حاشا لله - في تبليغ رسالة ربه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧]، واختصاصُ أحد دون الناس بأمر من أمور الدين ينفي امتثال النبي ﷺ لأمر ربه عز وجل .

الفائدة الثانية: التهديد الشديد والوعيد الأكيد لمن أحدث في المدينة حدثًا أو آوى محدثًا؛ لأن من فعل ذلك فقد استحق لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، قال الإمام النووي

---

(١) مسلم، كتاب: الأضاحي، باب: تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله، برقم (١٩٧٨).

(٢) فتح الباري (٤/ ٨٦).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٩/ ١٤٣).

في شرح مسلم نقلاً عن القاضي عياض: (معناه من أتى فيها إثمًا أو آوى من أتاه وضمه عليه وحماه) [١]، كما نقل عنه قوله: (واستدلوا بهذا على أن ذلك من الكبائر؛ لأن اللعنة لا تكون إلا في كبيرة، ومعناها: أن اللَّه يلعنه وكذا يلعنه الملائكة والناس أجمعون وهذا مبالغة في إبعاده عن رحمة اللَّه تعالى فإن اللعن في اللغة الطرد والإبعاد قالوا: والمراد باللعن هنا العذاب الذي يستحقه على ذنبه والطرد عن الجنة أول الأمر وليست هي كلعنة الكفار الذين يُبْعَدون من رحمة اللَّه تعالى كل الإبعاد) [٢].

وقال صاحب تحفة الأحوذي: (فمن أحدث أي أظهر في المدينة حدثًا وهو الأمر الحادث المنكر الذي ليس بمعناه ولا معروف في السنة)، كما ذكر رحمه الله أن معنى آوى أي: أجاره مِنْ خصمه وحال بينه وبين أن يُقْتَصّ منه [٣].

وذكر الإمام ابن حجر نقلاً عن ابن بطال قوله: (دل الحديث على أن من أحدث حدثًا أو آوى محدثًا في غير المدينة أنه غير متوعد بمثل ما تُوُعِّدَ به من فعل ذلك بالمدينة وإن كان قد عُلِمَ أن من آوى أهل المعاصي أنه يشاركهم في الإثم فإن من رضي فعل قوم وعَمَلَهم التحق بهم، ولكنْ خُصَّتِ المدينة بالذكر لشرفها ولكونها مهبط الوحي وموطن الرسول ﷺ ومنها انتشر الدين في أقطار الأرض فكان لها بذلك مزيد فضل على غيرها) [٤].

الفائدة الثالثة: أقوال العلماء في معنى قوله ﷺ: **«لا يقبل منه صرف ولا عدل»**. ذكر العلماء أقوالاً كثيرة في المعنى، ذكر النووي رحمه الله طرفًا منها حيث قال: (الصرف: الفريضة، والعدل: النافلة، الصرف: التوبة والعدل: الفدية، وقيل: الصرف: الشفاعة والعدل الفدية) [٥].

ولكن هل معنى عدم القبول هنا هو عدم الإجزاء، أي ترد عليه مثلاً صلاة الفريضة والنافلة كأنه لم يصلها؟ نقل النووي عن القاضي قوله: (المعنى: لا تقبل فريضته ولا نافلتُه قبولَ رضًا وإن قُبِلَتْ قَبُولَ إجزاءٍ، وقيل: يكون القبول هنا بمعنى تكفير الذنب بهما) [٦].

الفائدة الرابعة: التحذير كل التحذير من فعل المعاصي وارتكاب الآثام وإحداث البدع

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٩/ ١٤٠).
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٩/ ١٤١).
(٣) تحفة الأحوذي (٦/ ٢٧٠).
(٤) فتح الباري (١٣/ ٢٨١- ٢٨٢).
(٥) شرح النووي على صحيح مسلم (٩/ ١٤١).
(٦) شرح النووي على صحيح مسلم (٩/ ١٤١).

في مدينة النبي ﷺ، ويُخْشَى على من فعل ذلك وأصر عليه من سوء العاقبة. ويؤخذ من الحديث أيضًا أن من فعل ذلك بالمدينة فقد أغضب النبي ﷺ أشد المغاضبة؛ إذ لم يُعَظم مدينته ولم يَعْرف قدرها ولم يَرْعَ حُرْمتها وحرمة ساكنها ﷺ ويكفيه ذنبًا أنه قد أشاع المعاصي والمنكرات في مكان أشاع فيه النبي ﷺ الهداية للعالمين، بل يكفيه وزرًا أنه يعصي اللّٰه - سبحانه وتعالى - في مكان قد يكون النبي ﷺ جلس فيه أو مشى عليه ولو مرة واحدة والأدهى من ذلك أن يكون نزل عليه الوحيُ فيه.

الفائدة الخامسة: بيان أن الذنوب تتعاظم في قبحها وآثامها باختلاف المكان والزمان التي ارتكبت فيه، قال تعالى فيمن باشر شيئًا من ذلك في البلد الحرام: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: من الآية ٢٥]، وقال في حق الأشهر الحرم: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ۝﴾ [التوبة: ٣٦]، وفي الحديث الذي معنا: **«من أحدث فيها حدثًا أو آوى محدثًا فعليه لعنة اللّٰه والملائكة والناس أجمعين»**.

٢ - حرمة أهلها:

عن أَبِي هُـرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ: **«مَنْ أَرَادَ أَهْلَ هَذِهِ الْبَلْدَةِ بِسُوءٍ - يَعْنِي الْمَدِينَةَ - أَذَابَهُ اللَّهُ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ»**. [رواه مسلم] (١).

وهذا تهديد شديد لمن أراد أهل المدينة بسوء فإن النبي ﷺ قد أخبر أن اللّٰه - عز وجل - سينتقم منه، وأن اللّٰه لن يمهله حتى يتمكن من مراده، وقد ذكر العلماء عدة أقوال في معنى الحديث، منها:

١ - من أراد المدينة في الدنيا بسوء فإنه لن يمهله، بل سيذهب سلطانه عن قرب، كما وقع لمسلم بن عقبة وغيره فإنه عُوجِل عن قرب فهلك في منصرفه عنها.

٢ - من أرادها في حياة النبي ﷺ كُفِيَ المسلمون أمره واضمحَلَّ كيدُه كما يضمحل الرصاص في النار، حيث ورد في رواية مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: **«وَلاَ يُرِيدُ أَحَدٌ أَهْلَ الْمَدِينَةِ بِسُوءٍ إِلاَّ أَذَابَهُ اللَّهُ فِي النَّارِ ذَوْبَ الرَّصَاصِ أَوْ ذَوْبَ الْمِلْحِ فِي**

---

(١) مسلم، كتاب: الحج، باب: من أراد أهل المدينة بسوء أذابه الله، برقم (١٣٨٦).

الْمَاءِ» [١]. ذكر القولَ الأولَ الإمامُ ابن حجر، والثانيَ الإمامُ النووي - رحمهما الله تعالى- [٢].

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: عظيم حرمة أهل المدينة حيث إن النبي ﷺ قد توعد من أرادهم بسوء أن الله لن يمهلهم، وهذا التهديد لا يختص بزمن حياة النبي ﷺ، كما لا يختص بالانتقام في الدنيا فحسب بل ينسحب قطعًا على كل الأزمان، وأن الانتقام يحدث في الدنيا والآخرة.

ويتفرع على ذلك وجوب حب أهل المدينة وتوقيرهم وعدم النيل منهم.

الفائدة الثانية: إرادة الله الكونية بحفظ المدينة وأهلها من كيد الكائدين، ويتفرع على ذلك التحذير كل التحذير من إرادة المدينة وأهلها بأدنى سوء.

الفائدة الثالثة: الترغيب والحث على سُكْناها وملازمة أرضها، وهذا عام في جميع الأحاديث التي وردت في فضل المدينة ومسجدها.

٣ - بركة المدينة:

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ بِالْمَدِينَةِ ضِعْفَيْ مَا جَعَلْتَ بِمَكَّةَ مِنَ الْبَرَكَةِ». رواه البخاري [٣]، وعند مسلم: عَنْ عَبَّادِ بْنِ تَمِيمٍ، عَنْ عَمِّهِ عَبْدِاللَّهِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَاصِمٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَدَعَا لِأَهْلِهَا، وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ، وَإِنِّي دَعَوْتُ فِي صَاعِهَا وَمُدِّهَا بِمِثْلَيْ مَا دَعَا بِهِ إِبْرَاهِيمُ لِأَهْلِ مَكَّةَ» [٤].

وهذا الحديث من جملة فضائل هذه البقعة المباركة الطيبة، ويتمثل هذا الفضل في بركة مُدِّها وصاعها، فإن كان في صاع مكة ومُدّها البركة، ففي صاع المدينة ومدّها ضعف تلك البركة.

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: ما المقصود بالبركة - التي دعا بها النبي ﷺ في المد والصاع؟ قال الإمام النووي رحمه الله: (الظاهر أن البركة حصلت في نفس المكيل بحيث يكفى المدُّ فيها من لا

(١) مسلم، كتاب: الحج، باب: فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ، برقم (١٣٦٣).
(٢) فتح الباري (٤/ ٩٤)، وشرح النووي على صحيح مسلم (٩/ ١٣٨).
(٣) البخاري، كتاب: الحج، باب: المدينة تنفي الخبث، برقم (١٨٨٥).
(٤) مسلم، كتاب: الحج، باب: فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ، برقم (١٣٦٠).

يكفيه في غيرها، وهذا أمر محسوس عند من سكنها) [١]. ومعلوم أن البركة هي الزيادة والنماء وكثرة الخير في الشيء وهذا كله حصل - إن شاء اللَّه - بدعوة النبي ﷺ.

تنبيه: إن قال قائل: ذهبتُ إلى المدينة فلم ألحظ هذه البركة في الطعام والشراب فما السبب؟ قلت: اعلم أن البركة في الطعام والشراب بل وفي الأجواء قد حدثت قطعًا استجابة من اللَّه - تبارك وتعالى - لدعاء النبي ﷺ، لكن ليس من لازم ذلك أن تحصل البركة لكل أحد وفي كل وقت، فقد يَمْنَع تلك البركةَ ارتكابُ المسلم لبعض المعاصي أو عدم يقينه باللَّه - سبحانه وتعالى - أو إعراضه عن سنة النبي ﷺ، أو يكون المانع لحدوث البركة عدم حل الطعام: إما لحرمته في نفسه أو حرمة المال الذي اشتري به. ولذلك فإن على كل من لم يلمس تلك البركة أن يتهم نفسه ويراجع حاله وماله.

الفائدة الثانية: ليس في الحديث ما يدل على عموم أفضلية المدينة على بيت اللَّه الحرام؛ لأنه لا يلزم من حصول الأفضلية للمفضول في شيء من الأشياء ثبوتُ الأفضلية له على الإطلاق، كما أفاد الإمام ابن حجر رحمه الله ولكن ما نقطع به أن بركة الصاع والمد في المدينة ضِعْف بركة الصاع والمد في مكة، وهذا شرف عظيم للمدينة، تمتاز به على جميع بقاع الأرض، وفي هذا أبلغ الحث على سكناها.

الفائدة الثالثة: ثبوت بركة مد وصاع مكة؛ لقوله ﷺ: «**اللهم اجعل بالمدينة ضِعفَي ما جعلتَ بمكة من البركة**»، ولكن تأتي مكة في المرتبة الثانية من حيث البركة، وأقول: هذا التضعيف في بركة المدينة عن مكة، هو في أمر مخصوص من أمور الدنيا، وهو الصاع والمد، فلا يلزم أن يكون التضعيف يشمل أمور الآخرة أيضًا، فعلى سبيل المثال فإن الصلاة في المسجد الحرام يتضاعف أجرها عن الصلاة في المسجد النبوي الشريف، على صاحبه الصلاة والسلام.

الفائدة الرابعة: حث المسلم على أن يدعو ببركة صاعه ومده (أي طعامه وشرابه) وإن لم يكن من ساكني البقعتين الشريفتين؛ لثبوت إمكانية حلول البركة فيهما، كما حدث في صاع ومد مكة والمدينة، وبقدر إخلاص العبد في الدعاء واستقامته على الصراط، بقدر حدوث تلك البركة، وكما تحدث البركة في مأكل الإنسان ومشربه فقد تنزع تلك البركة جزئيًا أو كليًا؛ فليحذر المسلمُ من ذلك، وما يحدث الآن في أغلب الأقطار الإسلامية من غلاء الطعام والشراب لهو أكبر شاهد على نزع البركة

---

(١) نقله ابن حجر في الفتح (٤/ ٩٨) من قول الإمام النووي رحمه الله.

٤ - حفظها من الدجال والطاعون:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَلَى أَنْقَابِ الْمَدِينَةِ مَلاَئِكَةٌ لاَ يَدْخُلُهَا الطَّاعُونُ وَلاَ الدَّجَّالُ». [رواه البخاري] (١).

وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لاَ يَدْخُلُ الْمَدِينَةَ رُعْبُ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ لَهَا يَوْمَئِذٍ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ عَلَى كُلِّ بَابٍ مَلَكَانِ». [رواه البخاري] (٢).

النقب: هو الطريق الذي يسلكه الناس وقال ابن وهب: المراد به مدخل المدينة، وقيل: أبوابها، وأصل النقب: الطريق بين الجبلين. ذكره ابن حجر في الفتح (٣).

وهذا أيضًا من الفضائل العظيمة للمدينة على صاحبها الصلاة والسلام، ويشترك معها في عدم دخول الدجال مكةُ المكرمة لما رواه البخاري من حديث أنس: **«ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة»** (٤).

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: عظيم منزلة النبي ﷺ عند ربه - سبحانه وتعالى -؛ إذ حفظ له مدينته وساكنيها من شرين عظيمين:

يتمثل الأول في وباء شرُّه مستطير، وهو الطاعون، قال الإمام ابن حجر رحمه الله: (قال ﷺ: **«ولكن عافيتك أوسع لي»**. فكان منع دخول الطاعون المدينة من خصائص المدينة ولوازم دعاء النبي ﷺ لها بالصحة. وقال آخر: هذا من المعجزات المحمدية؛ لأن الأطباء من أولهم إلى آخرهم عجزوا أن يدفعوا الطاعون عن بلد بل عن قرية، وقد امتنع الطاعون عن المدينة هذه الدهورَ الطويلة. قلتُ: وهو كلام صحيح). انتهى كلامه رحمه الله (٥).

أما الشر الثاني الذي حمى اللَّه منه مدينة خليله ﷺ، فهو شَرُّ الدجال، وهو بلا شك شَرٌّ غائب مُنتظر، روى البخاري في صحيحه: قَالَ ابْنُ عُمَرَ - رضي اللَّه عنهما -: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي النَّاسِ فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ ذَكَرَ الدَّجَّالَ فَقَالَ: «إِنِّي

---

(١) البخاري، كتاب: الحج، باب: لا يدخل الدجال المدينة، برقم (١٨٨٠).
(٢) البخاري، كتاب: الحج، باب: لا يدخل الدجال المدينة، برقم (١٨٧٩).
(٣) فتح الباري (٤/ ٩٦).
(٤) البخاري، كتاب: الحج، باب: لا يدخل الدجال المدينة، برقم (١٨٨١).
(٥) فتح الباري (١٠/ ١٩١).

لأُنْذِرُكُمُوهُ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَنْذَرَهُ قَوْمَهُ، لَقَدْ أَنْذَرَ نُوحٌ قَوْمَهُ، وَلَكِنِّي أَقُولُ لَكُمْ فِيهِ قَوْلاً لَمْ يَقُلْهُ نَبِيٌّ لِقَوْمِهِ: تَعْلَمُونَ أَنَّهُ أَعْوَرُ، وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ» (١).

الفائدة الثانية: عظيم قدرة اللّه سبحانه، ويتبين ذلك من:

١ - حفظه - سبحانه وتعالى - المدينة من دخول الطاعون، وهو وباء عظيم، لا يرى بالعين ولا يحس بالحواس، بملائكة يحرسونها، وكأن الملائكة - وهو الواقع - ستراه وترده عن دخول البلدة الطيبة، وتدبر أخي القارئ ما أودع اللّه في ملائكته من قدرة عجيبة في مقاومة الطاعون ورده، مع عجز العلم الحديث عن أن يقضي على هذا الوباء الخطير، فضلاً عن أن يضع له مصلاً يقي البلاد والعباد شره.

٢ - مع ما أوتيه الدجال من قدرات عظيمة تفتن كل أحد - إلا المؤمن - إلا أنه يعجز عن دخول مكة والمدينة مع حرصه على ذلك؛ لما رواه البخاري من حديث أنس وفيه: **«فيجد الملائكة يحرسونها فلا يقربها الدجال ولا الطاعون إن شاء الله»** (٢).

وكان من الممكن واليسير على اللّه -عز وجل- أن يمنع الطاعون والدجال عن دخول المدينة دون حراسة الملائكة لها، ولكن أراد اللّه -عز وجل- أن يُظهر للعباد فَضْلَ المدينة؛ فَكَرَّمها بتقييد الملائكة على أبوابها وأنقابها.

الفائدة الثالثة: ما الحكمة من عدم دخول الطاعون المدينة ودعاء النبي ﷺ بذلك؟.

قال ابن حجر -رحمه الله- كلامًا جميلاً نصه: (الحكمة في ذلك أنه ﷺ لما دخل المدينة كان في قلة من أصحابه عددًا ومددًا وكانت المدينة وبئة كما سبق من حديث عائشة، ثم خُيِّرَ النبي ﷺ في أمرين يحصل بكل منها الأجر الجزيل، فاختار الحُمَّى حينئذ لقلة الموت بها غالبًا بخلاف الطاعون، ثم لما احتاج إلى جهاد الكفار وأُذِن له في القتال كانت قضية استمرار الحمى أن تضعف أجساد الذين يحتاجون إلى التقوية لأجل الجهاد فدعا بنقل الحمى من المدينة إلى الجُحْفة فعادت المدينة أصَحَّ بلاد الله) (٣). وأضاف رحمه الله: (ثم استمر ذلك بالمدينة تمييزًا لها عن غيرها لتحقق إجابة دعوته وظهور هذه المعجزة العظيمة بتصديق خبره هذه المدة المتطاولة) (٤).

الفائدة الرابعة: وجوب الإيمان بظهور الدجال وما معه من آيات عظيمة وقدرات

---

(١) البخاري، كتاب: الفتن، باب: ذكر الدجال، برقم (٧١٢٧).
(٢) البخاري، كتاب: الفتن، باب: لا يدخل الدجال المدينة، برقم (٧١٣٤).
(٣) فتح الباري (١٠/ ١٩١). (٤) انظر السابق.

خارقة، والتي منها أنه سيجوب البلاد كلها إلا المدينة ومكة؛ لرواية مسلم التي ذكرتها آنفًا.

الفائدة الخامسة: لم يقتصر الأمر على حفظ المدينة من وباء الطاعون، بل تعدى الأمر إلى تنقية أجوائها ببركة دعاء النبي ﷺ والذي ورد في حديث عائشة رضي الله عنها، الذي رواه البخاري وفيه: فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا لَقُوا قَالَ: «**اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، اللَّهُمَّ صَحِّحْهَا وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِهَا وَمُدِّهَا، وَانْقُلْ حُمَّاهَا إِلَى الْجُحْفَةِ**»[(١)].

٥ - فيها روضة من رياض الجنة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، وَمِنْبَرِي عَلَى حَوْضِي**». [رواه البخاري] [(٢)].

هذه هي أعظم خصوصيات المسجد النبوي الشريف - والذي تضم المدينةُ أرجاءه - وهو أن فيه روضة من رياض الجنة، فمن أراد أن يجلس في الجنة ويعاينها ويشم رائحتها الزكية، قبل أن يراها عيانًا يوم القيامة - إن شاء اللَّه تعالى - فلا يسعه إلا أن يشد الرحال إلى هذه البلدة المباركة، ويلتزم المكان الذي بين منبره وبيته ﷺ.

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: الحث على ملازمة الروضة الشريفة وكثرة الصلاة والذكر فيها ووجوب حبها وتعظيمها لشرفها على بقية البقاع، وهذا لا يتأتى - لمن هو خارج المدينة - إلا بشد الرحال إليها.

الفائدة الثانية: منة الله العظيمة على نبيه ﷺ؛ إذ جعل ما بين المكانين الذي كان ﷺ كثيرًا ما يتردد بينهما روضةً من رياض الجنة، وهذا يدلل أيضًا على شرف وبركة البقعتين الطاهرتين البيوت والمنبر، وأعتقد أن ذلك كان ببركة كثرة ملازمة النبي ﷺ لها وبتلاوته فيهما آيات اللَّه والحكمة، كما أن فيها امتنان اللَّه العظيم على أمة الإسلام، إذ جعل لها بقعة مباركة في مسجد مبارك في بلد مبارك يتصبرون بها عن رؤية ودخول الجنة، بل ويتشوقون بكثرة ملازمتها إلى الجنة ونعيمها ولذاتها التي لا تحول ولا تزول.

الفائدة الثالثة: ما المقصود بقوله ﷺ: «**روضة من رياض الجنة**». ذكر ابن حجر -

---

(١) البخاري، كتاب: المرضى، باب: من دعا بدفع الوباء والحمى، برقم (٥٦٧٧).
(٢) البخاري، كتاب: الجمعة، باب: فضل ما بين القبر والمنبر، برقم (١١٩٦).

رحمه الله- أقوال العلماء فقال: (أي: كروضة من رياض الجنة في نزول الرحمة وحصول السعادة، بما يحصل من ملازمة حلق الذكر لا سيما في عهده ﷺ فيكون تشبيهًا بغير أداة [١]، أو المعنى: أن العبادة فيها تؤدي إلى الجنة فيكون مجازًا، أو على ظاهره وأن المراد أنه روضة حقيقية بأن ينتقل هذا الموضع بعينه في الآخرة إلى الجنة، هذا محصل ما أوله العلماء في هذا الحديث وهي على ترتيبها هذا في القوة). انتهى كلامه رحمه الله [٢].

وأعتقد - والعلم عند الله - أن القول الأخير هو المتعين لسببين:

السبب الأول: أنه يفهم من قول النبي ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة» أنها مزية خاصة لتلك البقعة دون سائر البقاع، ولو قلنا بالقول الأول والثاني لاشتركت جميع البقاع التي يكثر فيها حلق العلم والذكر.

كما أن قوله: إن العبادة فيه تؤدي إلى الجنة كلام مردود حيث إن العبادة في كل مكان تؤدي إلى الجنة، خاصة أنه لم يرد تضعيف ثواب العبادة في الروضة عن غيرها من أروقة المسجد النبوي.

السبب الثاني: أن القول الأول احتاج إلى تقدير أداة تشبيه والقول الثاني أنزل المعنى منزلة المجاز، وحيث لا ضرورة إلى التقدير أو الذهاب إلى المجاز فلا يصير إليهما، فكلما استطعنا أن ننزل كلام الوحي منزلة الحقيقة بلا تشبيه ولا مجاز كان ذلك هو الأولى والأصوب خاصة إذا كانت هناك أسباب تدعو إلى ذلك وقد ذكرتها.

الفائدة الرابعة: اعتناء الله - سبحانه وتعالى - بمنبر رسوله ﷺ، ودليله أنه سيكون معه يوم القيامة وموضعه على حوضه ﷺ، قال الإمام ابن حجر - رحمه الله تعالى- في شرحه لقوله ﷺ: (**«ومنبري على حوضي»**: أي يُنْقَل يوم القيامة فينصب على الحوض، وقال الأكثر: منبره بعينه الذي قال هذه المقالة وهو فوقه، وقيل: المراد: المنبر الذي يوضع له يوم القيامة والأول أظهر) [٣]. وهو الذي مال إليه القاضي عياض حيث نقل عنه الإمام النووي رحمه الله قوله: (قال أكثر العلماء: المراد: منبره بعينه الذي كان في الدنيا قال: وهذا هو الأظهر) [٤]

---

(١) أي تشبيه حذفت أداته وهي: «الكاف».

(٢) فتح الباري (٤/ ١٠٠).

(٣) فتح الباري (٤/ ١٠٠).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (٩/ ١٦٢).

٦ - علوها على بقية القرى:

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقُرَى، يَقُولُونَ: يَثْرِبُ، وَهِيَ الْمَدِينَةُ تَنْفِي النَّاسَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ**». [رواه البخاري] (١).

الشاهد في الحديث: قوله ﷺ: «**أمرت بقرية تأكل القرى**»، وقوله: «**تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد**»، أما الكير فمعناه كما رجح ابن حجر: حانوت الحداد والصائغ ومجمل المعنى كما ذكر ابن حجر: (أنها لا تترك فيها من في قلبه دَغَل بل تميزه عن القلوب الصادقة وتخرجه كما يميز الحدادُ رديءَ الحديد من جيده) (٢).

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: بيان فضل المدينة وعلوها على بقية المدن والقرى، يتبين ذلك من:

١ - أن اللَّه - عز وجل - هو الذي أمر النبي ﷺ بالهجرة إلى المدينة وملازمة سكناها وأنه -تبارك وتعالى- هو الذي اختارها له مقامًا في حياته وبعد مماته ﷺ، ودليله: «**أُمِرْتُ بقرية**»، فالآمر بلا شك هو اللَّه - سبحانه وتعالى -.

٢ - كونها تأكل القرى، أي تغلبهم، وقال ابن حجر: (كَنَّى بالأكل عن الغلبة؛ لأن الآكل غالب على المأكول. وقيل: معناه: يفتح أهلها القرى فيأكلون أموالهم ويسبون ذراريهم) (٣).

وأعتقد أن قوله ﷺ: «**تأكل القرى**» يحتمل معنى آخر وقد يكون هو الأوجه، وهو أن المدينة تغلب بقية المدن في الفضل والبركة في صاعها ومدها واشتياق الناس إليها وحبهم لها وهو مشهود جدًّا إلى يومنا هذا، وهو ما نوه إلى بعضه المنير في الحاشية بقوله: (يحتمل أن يكون المرادُ بأكلها القرى غلبةَ فضلها على فضل غيرها، ومعناها أن الفضائل تضمحل في جنب عظيم فضلها حتى تكاد تكون عدمًا) (٤). ويتوجب الجمع بين القولين وعدم رد أحدهما حيث إن اللفظ يحتملهما والنصوص الشرعية تؤيدهما.

٣ - قدرتها على إخراج الكافرين والمنافقين خارج حدودها، فكأنها تَطَّلِعُ على قلوب الناس فتميزها فتخرج الرديء، وليس هذا لمدينة أخرى سواها، ولكن هل هذا النفي على

---

(١) البخاري، كتاب: الحج، باب: فضل المدينة وأنها تنفي الناس، برقم (١٨٧١).
(٢) فتح الباري (٤/ ٨٨). (٣) فتح الباري (٤/ ٨٧).
(٤) حاشية المنير.

مدار الزمن منذ أن قال النبي ﷺ هذه المقولة إلى قيام الساعة أم أنها تنقطع مدة من الزمان؟. فيه رأيان للعلماء، رجح الإمام النووي الرأي الثاني وهو أن هذه المقولة تختص بزمن حياته ﷺ وقبل قيام الساعة، وحجته في ذلك قصة الأعرابي فإنه ﷺ ذكر هذا الحديث معللاً به خروج الأعرابي، وما ورد في أحداث آخر الزمان عندما ينزل الدجال فترجف المدينة بأهلها فلا يبقى منافق ولا كافر إلا خرج إليه، وقال: وأما بين ذلك فلا.

٤ - كره النبي ﷺ أن يسميها أحد باسم لا يليق بها فلا شك أن قوله ﷺ: «**يقولون: يثرب وهي المدينة**» جاء في سياق الذم لمن يطلق على المدينة يثرب. قال الإمام ابن حجر -رحمه الله- : (أي أن بعض المنافقين يسميها يثرب، واسمها الذي يليق بها المدينة، وفَهِمَ بعض العلماء من هذا كراهةَ تسمية المدينة يثرب وقالوا: ما وقع في القرآن إنما هو حكاية عن قول غير المؤمنين) [(١)]. ونقل -رحمه الله- عن عيسى بن دينار قوله: (سبب هذه الكراهة؛ لأن يثرب إما من التثريب الذي هو التوبيخ والملامة أو من الثرب وهو الفساد وكلاهما مستقبح) [(٢)].

الفائدة الثانية: من السنة اختيار الأسماء الحسنة، وكراهية الأسماء المشتقة من معانٍ رديئة أو مستقبحة، وأن هذا ليس مختصًا بأسماء الأشخاص بل ينسحب إلى أسماء البلدان، كما أن من السنة تغيير الأسماء المستقبحة وحث الناس على عدم استخدامها.

الفائدة الثالثة: ليس من لازم قوله ﷺ: «**تنفي الناس**» أن يكون كل مَنْ خرج من المدينة يكون في قلبه شيء اقتضى أن المدينة قد أخرجته، قال الإمام ابن حجر رحمه الله: (إنما هو في خاص من الناس ومن الزمان بدليل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾، والمنافق خبيث بلا شك وقد خرج من المدينة بعد النبي ﷺ معاذ وأبو عبيدة وابن مسعود وطائفة، ثم علي وطلحة والزبير وعمار وآخرون، وهم من أطيب الخلق فدل على أن المراد بالحديث تخصيصُ ناس دون ناس ووقت دون وقت) [(٣)].

الفائدة الرابعة: بيان أن لله مشيئة كونية وهي نافذة في العباد لا محالة، دليله أن أهل النفاق والزيغ قضت مشيئة اللَّه الكونية أن يخرجوا من المدينة سواءً من أراد ذلك أو لم يرد؛ لأن الحديث دل على أن جميعهم سيخرجون منها.

---

(١) فتح الباري (٤/ ٨٧). (٢) انظر السابق.
(٣) فتح الباري (٤/ ٨٨).

تنبيه هام: لا يفهم من هذا الثناء على المدينة - على صاحبها الصلاة والسلام - وذكر فضائلها ومحاسنها، أنها أفضل من مكة - بلد اللَّه الحرام - أو أنني أريد أن أحبب الناس فيها فحسب، كلا والله، فإن هذا ليس من قصدي، ولكن المقام مقام ذكر المدينة وما ورد فيها، أما بلد اللَّه الحرام فحقها عظيم جدًا يكاد الناس فعلاً في غنى عن تذكيرهم به، وأقول على عجل: إنه يكفيها شرفًا وعزًا أن فيها بيت اللَّه الحرام قبلة الناس قديمًا وحديثًا، البلدة التي يعظمها الناس جميعًا، حتى في زمن الجاهلية، ومَنْ هذا الذي يسعه أن لا يتوجه إليها بقلبه وبدنه في يومه وليلته خمس مرات، ذكرها اللَّه - سبحانه وتعالى - في القرآن في عدة مواضع في سياق المدح والتشريف والثناء الحسن، كما ذكر لها -عز وجل- عدة أسماء للدلالة على شريف قدرها، كما استجاب اللَّه - سبحانه وتعالى - لدعوة إبراهيم ﷺ لها، فجعل القلوب تهوي إليها من مشارق الأرض ومغاربها، وواللَّهِ ما تزداد القلوبُ بزيارتها ورؤيتها إلا شوقًا وحنينًا إليها، وأقول: إن فيها مزية فوق هذا وذاك لا تشاركها فيها بلدة أخرى أبدًا، وهي أن قصدها للحج والعمرة فريضة على كل مسلم ومسلمة، ويستحيل أن تنعقد هذه الفريضة أو تسقط على القادر إلا بالذهاب إليها والمشي في أرضها المباركة زادها اللَّه تشريفًا وتعظيمًا، علاوة على أن فيها الماء المبارك - زمزم - والمقام المبارك - مقام إبراهيم - والحجر المبارك - الحجر الأسود، والمشعر الحرام. فالسعيد السعيد الذي جمع في قلبه حب المدينتين والشوقَ إليهما، والشقيّ من خلا قلبه من حبهما وزهد في العيش فيهما، وأما من حب إحداهما دون الأخرى فهو المحروم حقًا.

كما يحسن التنبيه إلى أن ما يردده البعض وينسبه إلى النبي ﷺ: «من حج ولم يزرني فقد جفاني، ومن جفاني دخل النار» هو حديث موضوع لا أصل له (١).

٧ - الأجر العظيم على سكناها والتحذير من الرغبة عنها:

قال عُثْمَانُ بْنُ حَكِيمٍ: حَدَّثَنِي عَامِرُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي أُحَرِّمُ مَا بَيْنَ لاَبَتَيِ الْمَدِينَةِ، أَنْ يُقْطَعَ عِضَاهُهَا، أَوْ يُقْتَلَ صَيْدُهَا». وَقَالَ: «الْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، لاَ يَدَعُهَا أَحَدٌ رَغْبَةً عَنْهَا إِلاَّ أَبْدَلَ اللَّهُ فِيهَا مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ، وَلاَ يَثْبُتُ أَحَدٌ عَلَى لأْوَائِهَا وَجَهْدِهَا إِلاَّ كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا أَوْ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ». [رواه مسلم] (٢).

---

(١) موضوع: أورده الذهبي في «الميزان» (٧/٣٩) عن ابن عمر مرفوعًا، وقال: هذا موضوع.
(٢) مسلم، كتاب: الحج، باب: فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ...، برقم (١٣٦٣).

وعند البخاري عَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ سُفْيَانَ بْنِ أَبِي زُهَيْرٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «تُفْتَحُ الْيَمَنُ فَيَأْتِي قَوْمٌ يُبِسُّونَ فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ، وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، وَتُفْتَحُ الشَّأْمُ فَيَأْتِي قَوْمٌ يُبِسُّونَ فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ، وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، وَتُفْتَحُ الْعِرَاقُ فَيَأْتِي قَوْمٌ يُبِسُّونَ فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ، وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» (١).

الشاهد في الحديث: قوله ﷺ: **«والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون»**، وقوله: **«ولا يثبت أحد على لأوائها وجهدها إلا كنت له شفيعًا أو شهيدًا يوم القيامة»**.

معاني بعض الكلمات: اللأواء: الشدة والجوع، الجهد: المشقة، يبسون: يسوقون دوابهم للرحيل من المدينة. قال النووي: (الصواب أن معناه الإخبار عمن خرج من المدينة متحملاً بأهله باسًّا في سيره مسرعًا إلى الرخاء والأمصار المفتتحة) (٢).

بعض فوائد الحديثين:

الفائدة الأولى: الحث على سكنى المدينة وملازمتها، يتبين ذلك من:

١ - قوله ﷺ: **«والمدينة خير»**. وكرر هذا الحث في حديث البخاري ثلاث مرات؛ ليتأكد المعنى.

ومواطن الخيرية في الإقامة في المدينة لا تخفى وهي كل ما ذكر في هذا الفصل من الكتاب وغير ذلك، قال ابن حجر رحمه الله: (والحال أن الإقامة في المدينة خير لهم لأنها حَرَمُ الرسول وجواره ومهبط الوحي ومَنْزِل البركات) (٣). وهذه الخيرية - ولله الحمد - دائمة إلى يوم القيامة لم تعدم بعد وفاة النبي ﷺ، والدليل على ذلك أن الأحاديث التي ذُكرت في هذا الفصل لم تقيد خيرية المدينة بزمن دون زمن، نقل النووي عن القاضي عياض قوله: (قيل: هو مختص بمدة حياته ﷺ وقال آخرون: هو عام أبدًا، وهذا أصح) (٤).

٢ - ذم من تركها وفَضَّلَ عليها غيرها من القرى لقوله ﷺ: **«لا يدعها أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه»**.

---

(١) البخاري، كتاب: الحج، باب: من رغب عن المدينة، برقم (١٨٧٥).
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٩/ ١٥٩).
(٣) فتح الباري (٤/ ٩٣).
(٤) نقله النووي في شرحه على صحيح مسلم (٩/ ١٣٧) من قول القاضي عياض رحمه الله.

وقوله ﷺ: «**لو كانوا يعلمون**»، فوصف الذين يرغبون عنها ويفضلون الرخاء بعدم العلم، وفي هذا أعظم الذم والتقبيح لفعلهم، قال ابن حجر رحمه الله: (فيه تجهيل لمن فارقها وآثر عليها غيرها، وقال: أي ليتهم كانوا من أهل العلم تغليظًا وتشديدًا) [١]. كما أنه نقل عن الطيبي [٢] موضع الذم بقوله: (نَكَّرَ الحديثُ قومًا ووصفهم بكونهم يبسون ثم أكد بقوله: «**لو كانوا يعلمون**»؛ لأنه يشعر بأنهم ممن ركن إلى الحظوظ البهيمية والحطام الفاني وأعرضوا عن الإقامة في جوار الرسول ﷺ ولذلك كرر قومًا ووصفهم في كل قرينة بقوله: «يُبِسُّون» استحضارًا لتلك الهيئة القبيحة) [٣].

٣ - في الحديث أبلغ الحث، بل هو المنتهى في الحث، على سكنى المدينة حيث إن النبي ﷺ قد وعد أهلها وعدًا عظيمًا وبشرهم بشرى فيها غاية الحبور والسرور لهم، مَنْ تحققت في حقه فقد فاز فوزًا عظيمًا، ألا وهي شفاعته وشهادته ﷺ لأهلها يوم القيامة، وهناك بعض المسائل يجب توضيحها وهي:

المسألة الأولى: رَجَّحَ القاضي عياض أن (أو) في قوله ﷺ: «**كنت له شفيعًا أو شهيدًا**» ليست للشك من الرواة لاتفاق روايات كثيرة بإثبات (أو)، وقال نقلاً عن بعض شيوخه: (فإما أن يكون أَعْلَمَ بهذه الجملة هكذا وإما أن يكون (أو) للتقسيم ويكون شهيدًا لبعض أهل المدينة وشفيعًا لبقيتهم، إما شفيعًا للعاصين وشهيدًا للمطيعين، وإما شهيدًا لمن مات في حياته وشفيعًا لمن مات بعده) [٤].

المسألة الثانية: يشترط لثبوت شفاعة النبي ﷺ وشهادته لأهل المدينة أن يصبروا على ما قد يعانونه في المدينة من شدة وجوع وجهد، صبر مع الإيمان والاحتساب، صبر دون ضجر ولا شكوى؛ لقوله ﷺ: «**ولا يثبت أحد على لأوائها وجهدها إلا كنت له شفيعًا أو شهيدًا يوم القيامة**».

المسألة الثالثة: يُحْرَم قطعًا شفاعة النبي ﷺ أهلُ البدع الذين يُحدِثون في دين الله ما ليس منه، ودليله ما ورد عند الشيخين عَنْ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: سَمِعْتُ سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ يَقُولُ:

---

(١) فتح الباري (٤/ ٩٣).

(٢) هو الحسين بن محمد الطيبي نسبة إلى طيبة وهي من بلاد إقليم الغربية بمصر. توفي سنة (٧٤٣هـ)، انظر الأعلام للزركلي (٣/ ٢٣٥)، وفي ذيل تذكرة الحفاظ (١/ ٨٥).

(٣) فتح الباري (٤/ ٩٣).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (٩/ ١٣٧).

سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، فَمَنْ وَرَدَهُ شَرِبَ مِنْهُ، وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ أَبَدًا، لَيَرِدُ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونَنِي ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ». قَالَ أَبُو حَازِمٍ: فَسَمِعَنِي النُّعْمَانُ بْنُ أَبِي عَيَّاشٍ وَأَنَا أُحَدِّثُهُمْ هَذَا، فَقَالَ: هَكَذَا سَمِعْتَ سَهْلاً؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: وَأَنَا أَشْهَدُ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ لَسَمِعْتُهُ يَزِيدُ فِيهِ قَالَ: «إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَا بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي» [١].

الفائدة الثالثة: وهي فوائد متفرقة، نذكرها مختصرة على عجل:

١ - إثبات أن للنبي ﷺ شفاعات وشهادات خاصة يوم القيامة، كشفاعته في عمه أبي طالب، وأهل بيته الطاهرين الميامين، وفي هذا الحديث شفاعته وشهادته لأهل المدينة خاصة، وهي مزية عظيمة لهم قال الإمام النووي: (وتكون هذه الشفاعة لأهل المدينة بزيادة الدرجات أو تخفيف الحساب أو بما شاء الله من ذلك أو بإكرامهم يوم القيامة بأنواع الكرامات كإيوائهم إلى ظل العرش أو كونهم في روح وعلى منابر أو الإسراع بهم إلى الجنة أو غير ذلك من خصوص الكرامات الواردة لبعضهم دون بعض) [٢].

يتفرع على ذلك أن نعلم أنه ليس المقصود من الشفاعة إخراج مَنْ دخل النار من المسلمين وإدخالهم الجنة، بل هي شفاعات كثيرة امتن الله بها على صفوته من خلقه محمد ﷺ.

٢ - في رواية البخاري معجزة ظاهرة للنبي ﷺ، وهي إعلامه بالغيب الذي أطلعه الله عليه، حيث ذكر ﷺ فتح اليمن ثم الشام ثم العراق وقد فُتِحت بنفس الترتيب الذي ورد بالحديث. كما ذكر ﷺ تَفَرُّقَ الناس في هذه البلاد وهجرتهم إليها طلبًا للسعة والرخاء وقد وقع أيضًا.

٣ - في هذا الحديث بيان فضْلِ المدينة على اليمن والشام والعراق، قال الإمام ابن حجر: (وفي هذا الحديث فضل المدينة على البلاد المذكورة وهو أمر مجمع عليه، وفيه دليل أن بعض البقاع أفضل من بعض، ولم يختلف العلماء أن للمدينة فضلاً على غيرها وإنما اختلفوا في الأفضلية بينها وبين غيرها) [٣]. يقصد بذلك مكة - شرفها الله -.

(١) البخاري، كتاب: الفتن، باب: ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً...﴾، برقم (٧٠٥١)، ومسلم، كتاب: الفضائل، باب: إثبات حوض نبينا ﷺ، برقم (٢٢٩١).
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٩/ ١٣٧).
(٣) فتح الباري (٤/ ٩٢).

٤ - في الحديث ذم الجهل والحث على العلم الشرعي؛ لأن الذين فضلوا الرخاء وسعة العيش على سكنى المدينة إنما كان لجهلهم بفضل المدينة وكذلك جهلهم بما ينفعهم في الدنيا والآخرة.

٥ - في الحديث الحث على الصبر في سبيل الله، وأن تحمل الشدة والجَهْد مع الاحتساب قد يكون خيرًا للمسلم من سعة العيش، فليس السعة والرخاء محمودين دائمًا، كما يؤخذ من الحديث مشروعية أن يضر العبد بدنه ابتغاء مرضاة الله -عز وجل- وطلبًا لثواب الآخرة، ودليله أيضًا أن قدم النبي ﷺ كانت تتشقق وتتورم وهو قائم يصلي بالليل.

٦ - سعة علم الله - سبحانه وتعالى - واطلاعُه على القلوب والضمائر، حيث عَلِم من الذي يَدَعُ المدينة رغبةً عنها وزهدًا فيها، وهو عمل قلبي قطعًا، كما يؤخذ من الحديث قدرته -عز وجل- وحبه للمدينة، حيث أبدلها عن كل من رغب عنها مَنْ هو خير منه، كما نتعلم من الحديث أن حبه - سبحانه وتعالى - للشيء لا يستلزم خُلُوَّه وتصفيته من كل ما يُكَدِّره وينغصه، فالله -عز وجل- يحب المدينة ومع ذلك فإن فيها الشدة والجهد.

إليك أخي القارئ شاهدًا على عمل الصحابة بهذا الحديث:

روى مسلم: عن أَبِي سَعِيدٍ مَوْلَى الْمَهْرِيِّ: أَنَّهُ جَاءَ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ لَيَالِيَ الْحَرَّةِ فَاسْتَشَارَهُ فِي الْجَلاَءِ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَشَكَا إِلَيْهِ أَسْعَارَهَا وَكَثْرَةَ عِيَالِهِ، وَأَخْبَرَهُ أَنْ لاَ صَبْرَ لَهُ عَلَى جَهْدِ الْمَدِينَةِ وَلأْوَائِهَا، فَقَالَ لَهُ: وَيْحَكَ، لاَ آمُرُكَ بِذَلِكَ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لاَ يَصْبِرُ أَحَدٌ عَلَى لأْوَائِهَا فَيَمُوتَ إِلاَّ كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا أَوْ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا كَانَ مُسْلِمًا» (١).

بعد استعراض هذه الفضائل الكريمة لمدينة سيد الأنام ﷺ ومسجده، نعلم يقينًا فضل الحبيب ﷺ ومنزلته العالية الرفيعة عند ربه إذ أحاط مدينته ومسجده بكل أنواع التشريف والتكريم، ولا يفوتني أن أذكر أَجَلَّ وأحسن ما في المدينة وهي أنها تشرفت بوجود البقعة المباركة التي ضمت الجسد الشريف الطاهر للنبي ﷺ، فحقيق بها أنْ ترفع عقيرتها بين مدن الأرض كلها جميعًا، وقد أورد النووي رحمه الله قول القاضي عياض ونصه: (أجمعوا على أن موضع قبره ﷺ أفضل بقاع الأرض، وأن مكة والمدينة أفضل بقاع الأرض، واختلفوا في أفضلهما ما عدا موضع قبره ﷺ) (٢).

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الحج، باب: الترغيب في سكنى المدينة والصبر على لأوائها، برقم (١٣٧٤).
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٩/ ١٦٣-١٦٤).

ب- تفضيل مسجده ﷺ:

حبا الله - سبحانه وتعالى - المسجد النبوي الشريف، على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، بخصال لم يشاركه فيها مسجد سوى المسجد الحرام كما سيأتي تفصيلاً.

١ - الترغيب في شد الرحال إليه:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَّ إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى» (١).

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: الحث على شد الرحال - أي السفر - إلى المساجد الثلاثة المذكورة وأن هذه المساجد هي مساجد مفضلة عن بقية مساجد الأرض، ولها من التعظيم ما ليس لغيرها، قال ابن حجر رحمه الله: (في هذا الحديث فضيلة هذه المساجد ومَزِيَّتُها على غيرها لكونها مساجد الأنبياء ولأن الأول قبلة الناس وإليه حجهم، والثاني كان قبلة الأمم السالفة، والثالث أُسِّسَ على التقوى). انتهى (٢).

ويشير الحافظ ابن حجر بقوله: (أسس على التقوى) إلى ما ورد عند مسلم، عن أبي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمنِ قَالَ: مَرَّ بِي عَبْدُ الرَّحْمنِ بْنُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قُلْتُ لَهُ: كَيْفَ سَمِعْتَ أَبَاكَ يَذْكُرُ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى؟ قَالَ: قَالَ أَبِي: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِ بَعْضِ نِسَائِهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْمَسْجِدَيْنِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى؟ قَالَ: فَأَخَذَ كَفًّا مِنْ حَصْبَاءَ فَضَرَبَ بِهِ الأَرْضَ، ثُمَّ قَالَ: «هُوَ مَسْجِدُكُمْ هَذَا» لِمَسْجِدِ الْمَدِينَةِ (٣).

الفائدة الثانية: هل شد الرحال إلى غير هذه البقاع - من مسجد وغيره - محرم شرعًا؟، فيه نزاع كبير بين العلماء ليس هذا موضع سرده، ولكن الأرجح من أقوال العلماء أن معنى الحديث: أنه لا تشد الرحال إلى مسجد للصلاة فيه إلا الثلاثة المذكورة، ويبنى على ذلك أمران: الأول: جواز السفر إلى أي بقعة في الأرض لغرض التجارة وصلة الرحم، وطلب العلم وغير ذلك من المباحات أو المندوبات، الثاني: أنه لا يجوز السفر إلى أي مسجد من

---

(١) البخاري، كتاب: الجمعة، باب: فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، برقم (١١٨٩)، ومسلم، كتاب: الحج، باب: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، برقم (١٣٩٧).

(٢) فتح الباري (٣/ ٦٥).

(٣) مسلم، كتاب: الحج، باب: بيان أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي ﷺ. برقم (١٣٩٨).

مساجد الأرض للصلاة فيه طلبًا للثواب والأجر إلا تلك المساجد المفضلة.

الفائدة الثالثة : وهي إذا نذر المسلم أن يصلي في غير تلك المساجد هل يلزمه الوفاء بالنذر؟ قال ابن حجر رحمه الله : (واسْتُدِلَّ به على أن من نذر إتيان غير هذه المساجد الثلاثة لصلاة أو غيرها لم يلزمه غَيْرُها لأنها لا فَضْلَ لبعضها على بعض فتكفي صلاتُه في أي مسجد كان) (١).

ولكن إذا نذر الرجل أن يصلي في المسجد الأقصى هل يمكنه أن يعدل إلى الصلاة في المسجد النبوي ويجزئه ذلك؟ نعم يجزئه لأن الصلاة في المسجد النبوي أعظم ثوابًا من أجر الصلاة في المسجد الأقصى، أما إذا نذر الصلاة في المسجد الحرام فلا تجزئه الصلاة في المسجد النبوي، ومن باب أولى في المسجد الأقصى، وذلك على رأي من يقول: إن ثواب الصلاة في المسجد الحرام أعظم من ثوابها في المسجد النبوي، روى مسلم، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : إِنَّ امْرَأَةً اشْتَكَتْ شَكْوَى فَقَالَتْ : إِنْ شَفَانِي اللَّهُ لَأَخْرُجَنَّ فَلَأُصَلِّيَنَّ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَبَرَأَتْ ثُمَّ تَجَهَّزَتْ تُرِيدُ الْخُرُوجَ، فَجَاءَتْ مَيْمُونَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ تُسَلِّمُ عَلَيْهَا فَأَخْبَرَتْهَا ذَلِكَ، فَقَالَتْ : اجْلِسِي فَكُلِي مَا صَنَعْتِ وَصَلِّي فِي مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : «صَلَاةٌ فِيهِ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَسَاجِدِ إِلَّا مَسْجِدَ الْكَعْبَةِ» (٢).

٢ - مضاعفة أجر الصلاة فيه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ» (٣).

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: الحث على كثرة الصلاة في المسجد الحرام وكذلك المسجد النبوي لتضعيف أجر الصلاة فيهما، وفيه أيضًا أبلغ الحث على شد الرحال إليهما للحصول على هذا الثواب العظيم.

الفائدة الثانية : هل ثواب الصلاة في المسجد النبوي يعم جميع المسجد بعد التوسعات

---

(١) فتح الباري (٣/ ٦٥، ٦٦).

(٢) مسلم، كتاب: الحج، باب: فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة، برقم (١٣٩٦).

(٣) البخاري، كتاب: الجمعة، باب: فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، برقم (١١٩٠)، ومسلم، كتاب: الحج، باب: فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة، برقم (١٣٩٤).

أم موضع المسجد الذي كان في زمانه ﷺ؟ قال الإمام النووي -رحمه الله- : (ينبغي أن يحرص المصلي على الصلاة في الموضع الذي كان في زمانه ﷺ دون ما زِيدَ فيه بعده لأن التضعيف إنما ورد في مسجده بخلاف مسجد مكة فإنه يشمل جميع مكة). انتهى [١]. وإن صح استنتاج النووي -رحمه الله- فيكون حجة لمن فضّل مكة على المدينة مطلقًا.

الفائدة الثالثة: هل الاستثناء في قوله ﷺ: **«صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام»**. يدل على أفضلية الصلاة في أحدهما على الآخر أو مساواة الثواب فيهما؟ الصحيح - والله أعلم - أن الصلاة في مكة تفضل الصلاة في مسجد رسول الله ﷺ؛ للأحاديث التي وردت في تضعيف الصلاة في المسجد الحرام إلى مائة ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد النبوي.

قال الإمام النووي: (اختلف العلماء في المراد بهذا الاستثناء على حسب اختلافهم في مكة والمدينة أيتُهما أفضل؟ ومذهب الشافعي وجماهير العلماء: أن مكة أفضل من المدينة، وأن مسجد مكة أفضل من مسجد المدينة فعند الشافعي والجمهور أن معنى الاستثناء: إلا المسجد الحرام فإن الصلاة فيه أفضل من الصلاة في مسجدي، وأما مالك وطائفة فمعنى الاستثناء عندهم: إلا المسجد الحرام فإن الصلاة في مسجدي تفضله بدون الألف) [٢].

الفائدة الرابعة: قال الإمام ابن حجر: (ثم إن التضعيف المذكور يرجع إلى الثواب ولا يتعدى إلى الإجزاء باتفاق العلماء كما نقله النووي وغيره فلو كان عليه صلاتان فصلى في أحد المسجدين صلاة لم تجزه إلا عن واحدة والله أعلم) [٣].

الفائدة الخامسة: هل التضعيف ينسحب إلى صلاة النفل؟ قال الإمام النووي: (واعلم أن مذهبنا أنه لا يختص هذا التفضيل بالصلاة في هذين المسجدين بالفريضة بل يعم الفرض والنفل جميعًا، وبه قال مُطَرِّف من أصحاب مالك [٤]، وقال الطحاوي [٥]: يختص بالفرض، وهذا مخالف إطلاق هذه الأحاديث الصحيحة) [٦].

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٩/١٦٦).
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٩/١٦٣).
(٣) فتح الباري (٣/٦٨).
(٤) هو أبو مصعب مطرف بن عبد الله بن مطرف بن سليمان، صحب مالكًا وعبد العزيز بن الماجشون وابن أبي حازم وابن دينار وابن كنانة توفي بالمدينة عام (٢٢٠هـ). انظر طبقات الفقهاء للشيرازي (١/١٥٣).
(٥) هو الإمام أبو جعفر أحمد بن سلامة بن سلمة بن عبد الملك الأزدي الحجري المصري الطحاوي نسبة إلى طحا قرية من قرى صعيد مصر. من مصنفاته: «العقيدة الطحاوية» ولد سنة (٢٣٩هـ)، وتوفي عام (٣٢١هـ).
(٦) شرح النووي على صحيح مسلم (٩/١٦٤).

رابعًا: التوسعة عليه ﷺ:

١- في عدد الزوجات:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٠].

هذا الخطاب الرباني ورد في القرآن الكريم في سياق ذكر منة اللَّه تَعَالَىٰ على عبده وحبيبه وصَفِيِّه من خلقه وخليله ﷺ فيما أحل اللَّه تَعَالَىٰ له من أصناف النساء. وفي هذه الأصناف ما يشترك في بعض مفرداته عموم الأمة، وفيه ما لا يباح إلا له ﷺ، بالإضافة إلى عدم الاقتصار على أربع نسوة كعموم المسلمين، وقد اخترت اسم الباب «التوسعة عليه ﷺ»؛ لأن الامتنان من اللَّه عز وجل على عباده لا يكون عن تضييق في الأمر بل يكون عن توسعة، كما أن ما خص اللَّه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - على نبيه في أمور الزواج قد سماه العلماء - رحمهم اللَّه - توسعة، كما سيأتي ذكره - إن شاء اللَّه - في الفوائد.

بعض فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أصناف النساء اللاتي أحل اللَّه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - لنبيه ﷺ الزواجَ منهن:

١- الأزواج اللاتي أعطاهن النبي ﷺ أجورهن.

٢- ما ملكت يمينه ﷺ من سبي الكفار عبيدًا أو أحرارًا.

٣- بنات عمه ﷺ وبنات عماته وبنات خاله وبنات خالاته ﴿اللَّاتِي هَاجَرْنَ﴾ معه ﷺ.

قال الشيخ السعدي - رحمه اللَّه -: (قيد لِحِلِّ هؤلاء للرسول ﷺ، كما هو الصواب من القولين في تفسير هذه الآية، وأما غيره ﷺ فقد علم أن هذا قيد لغير الصحة)(١). وقال القرطبي: «لا يحل لك منهن إلا من هاجر إلى المدينة ومن لم يهاجر (أي من بنات عمك وبنات خالك) لم يكمل، ومن لم يكمل لم يصلح للنبي ﷺ الذى كمل وشرف وعظم ﷺ».

فقد أباح الله لرسوله ﷺ أن يتزوج من بنات عمه وبنات عماته وبنات خاله وبنات

---

(١) انظر تفسير السعدى (١/ ٦٦٩).

خالاته ولكن بشرط الهجرة وهذه مكافأة لقريباته المؤمنات؛ لما لحق بهن من الأذى.

٥- الواهبة نفسَها للنبي ﷺ وسيأتي الكلام عليها تفصيلاً - إن شاء اللَّه تَعَالَىٰ.

الفائدة الثانية: كما خص اللَّه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - نبيه في إحلال صنفين من النساء دون سائر الأمة، خصه أيضًا بأمر عظيم، وهو عدم تقييده ﷺ في الزواج بعدد معين من النساء الحرائر.

قال الإمام ابن كثير - رحمه اللَّه -: (قال أبي بن كعب ومجاهد والحسن وقتادة وابن جرير في قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥٠]؛ أي: من حصرهم - أي رجال الأمة في أربع نسوة حرائر وما شاءوا من الإماء واشتراط الولي والمهر والشهود عليهم وهم الأمة، وقد رخصنا لك - أي للنبي ﷺ فلم نوجب عليك شيئًا منه: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾)(١).

الفائدة الثالثة: يظهر من تلك الآية الكريمة حُبُّ اللَّه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - لنبيه ﷺ وعظيم اعتنائه - تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ - به حتى في شئون الزواج ومعاملة الزوجات، وظهر ذلك في الأمور التالية:

١- نزول القرآن الكريم - وهو كلام الحق - تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ - بذكر الأصناف التي يحل للنبي ﷺ الزواجُ منهن، وإذا تدبر المؤمن مثل هذا الأمر وأمعن فيه مع سابق علمه بعظيم كلام اللَّه عز وجل، علم يقينًا أن هذا أمر عظيم واعتناء بالغ بالنبي ﷺ فاق الوصف والتصور.

٢- إرادة اللَّه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - التوسعة على نبيه ﷺ، وقد كانت تلك التوسعة على نحو عجيب، حيث شملت عدد الزوجات وأصنافهن وعدم وجوب القسمة وعدم اشتراط الولي والمهر والشهود، وأسأل: هل كان يمكن أن تكون التوسعة أكثر من ذلك؟ قال الشيخ السعدي - رحمه اللَّه -: (وأبحنا لك أيها النبي ما لم نُبِحْ لهم ووسَّعنا عليك ما لم نُوسِعْ على غيرك)(٢).

٣- إرادة اللَّه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - رفعَ الحرج عن نبيه ﷺ، فقد نصت الآية الكريمة على أن الحكمة في اختصاص النبي ﷺ بهذه الأحكام دون سائر الأمة هو لرفع الحرج عنه؛

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٠١). (٢) انظر تفسير السعدي (١/ ٦٦٩).

قال - تَعَالَىٰ - : ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، قال الشيخ السعدي - رحمه الله -: وهذا من زيادة اعتناء الله تَعَالَىٰ برسوله ﷺ).

وقال صاحب المنتخب: «وما رخصنا لك فيه دونهم لئلا يكون عليك ضيق فيما شرعناه لك، وكان الله غفورًا لذنوب عباده رحيمًا بالتوسعة عليهم».

٢- في عدم وجوب القسمة لنسائه:

إذا كان الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - قد ألزم المؤمنين كلهم جميعًا بوجوب العدل في القسمة بين النساء، ومن لم يستطع ذلك فلا يحل له الزواج بأكثر من واحدة كما قال - تَعَالَىٰ - : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣]، فإن الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ - لم يوجب أصلاً على نبيه ﷺ القسمة بالسوية بين نسائه - رضي الله عنهن جميعًا -، بل جعل هذه القسمة موكولةً إليه ﷺ كما سيأتي في الفوائد.

وإذا قالت امرأة من أصحاب العقول التي تنتسب إلى التقدمية والتحررية: كيف ترضى امرأة أن تتزوج بدون مهر وبدون اشتراط القسمة؟ قلت لها: مَنْ علمَتْ قدر النبي ﷺ وما سينالها في الدنيا والآخرة بالارتباط به ﷺ لتمنت أن تكون عنده ملك يمين أو أسيرة أو خادمة تمسح له نعله أو تخيط له ثوبه، ويكفيها أن تمتع نظرها برؤية وجهه الجميل ﷺ، ولها بعد ذلك أن ترفع عقيرتها بين الملكات والأميرات وذوات الأحساب والأنساب وصاحبات الجمال والمال وتتَعَالَىٰ عليهن بشرف مسح نعليه ﷺ، ألم تر أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قد اختار العبودية عند رسول الله ﷺ على الحرية عند أبيه وأهله وذويه؟!.

قال تَعَالَىٰ: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾ [الأحزاب: ٥١].

قال الإمام القرطبي - رحمه الله -: (وأصح ما قيل في تفسير الآية: التوسعة على النبي ﷺ في ترك القسم، فكان لا يجب عليه القسم بين زوجاته)، ونقل - رحمه الله - عن ابن العربي قوله: (والمعنى المراد: هو أن النبي ﷺ كان مخيرًا في أزواجه إن شاء أن يَقْسِم قَسَمَ، وإن شاء أن يترك القَسْمَ ترك. فخص النبي ﷺ بأن جعل الأمر إليه لكنه كان يقسم من قبل نفسه دون أن يُفْرض ذلك عليه تطييبًا لنفوسهن وصونًا لهن عن أقوال الغيرة التي

تؤدي إلى ما لا ينبغي[١].

وقال الشيخ السعدي - رحمه الله -: (وهذا من توسعة الله على رسوله ورحمته به، أن أباح له ترْك القَسْم بين زوجاته على وجه الوجوب وأنه إن فعل ذلك فهو تبرع منه، ومع ذلك فقد كان ﷺ يجتهد في القسم بينهن في كل شيء)[٢].

بعض فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بينت الآية الكريمة الحكمة من عدم وجوب القسمة بين الزوجات في حق النبي ﷺ، قال تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥١]، قال صاحب المنتخب: (تؤخر من تشاء منهن في القسم وتدني إليك من تشاء، ومن طلبت ممن أخرت قَسْمَها فلا مؤاخذة عليك، ذلك التفويض إلى مشيئتك أقرب إلى سرورهن وبعد الحزن عنهن، ويرضين كلهن بما آتيتهن).

وقال الشيخ السعدي - رحمه الله - كلامًا مشابهًا لذلك فقال ما نصه: (تلك التوسعة عليك وكون الأمر راجعًا إليك وبيدك، وكون ما جاء منك إليهن تبرعًا منك ﴿أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥١] لعلمهن أنك لم تترك واجبًا ولم تفرط في حق لازم)[٣].

الفائدة الثانية: هل عدم وجوب القسمة بين الزوجات على النبي ﷺ في الواهبات أنفسهن أم في جميع النساء؟ الصحيح - والله أعلم - أنها في كل النساء، والدليلُ على ذلك ما رواه مسلم عَنْ مُعَاذَةَ الْعَدَوِيَّةِ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتَأْذِنُنَا إِذَا كَانَ فِي يَوْمِ الْمَرْأَةِ مِنَّا بَعْدَ مَا نَزَلَتْ: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [الأحزاب: ٥١]، فَقَالَتْ لَهَا مُعَاذَةُ: فَمَا كُنْتِ تَقُولِينَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنَكِ؟ قَالَتْ: كُنْتُ أَقُولُ: إِنْ كَانَ ذَاكَ إِلَيَّ لَمْ أُوثِرْ أَحَدًا عَلَىٰ نَفْسِي[٤]. قال الإمام ابن كثير - رحمه الله -: (اختار ابن جرير أن الآية عامة في الواهبات وفي النساء اللاتي عنده أنه مخير فيهن إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم، وهذا الذي اختاره حسن جيد وفيه جمع بين الأحاديث)[٥].

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٢١٥).
(٢) انظر تفسير السعدى (١/ ٦٦٩). (٣) انظر تفسير السعدى (١/ ٦٦٩).
(٤) رواه مسلم، كتاب: الطلاق، باب: بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقًا إلا . . .، برقم (١٤٧٦).
(٥) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٠٢).

الفائدة الثالثة: إرادة اللَّه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - إعلاء شأن النبي ﷺ بين زوجاته وأنْ يُشعرهن بمنته عليهن وأن يظهر للناس عدله ﷺ قال الإمام ابن كثير - رحمه اللَّه - في شرح الآية: (إن تقسم لهن اختيارًا منك لا أنه على سبيل الوجوب فَرِحْنَ بذلك واستبشرن به، وحملن جميلك في ذلك، واعترفن بمنتك عليهن في قسمتك لهن وتسويتك بينهن، وإنصافك لهن وعدلك فيهن)[١].

فإن قال قائل: إن كان عدم إيجاب القسمة بين النساء له كل تلك المميزات فلماذا أوجب اللَّه - تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ - علينا القسمة؟

قلت له: لا يستوي نبي الأمة مع رجالها في هذا، فالنبي ﷺ معصوم من الظلم والجور وإضرار الناس، وهذه العصمة له وحده ﷺ دون الأمة.

٣- في جواز أن تهب المرأة نفسها للنبي ﷺ:

قال تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥٠﴾ [الأحزاب: ٥٠] قال الإمام ابن كثير - رحمه الله: (ويحل لك -أيها النبي- المرأةُ المؤمنة إن وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك)[٢].

بعض فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: إثبات أن اللَّه - تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ - لم يسارع في إرضاء النبي ﷺ في الأمور الشرعية فحسب، مثل اتجاه القبلة وعدم تخليد أحد من أمته في النار، وغيره كثير، ولكنّ الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ - سارع أيضًا في إرضاء نبيه ﷺ في الأمور الحياتية الخاصة به، فقد أباح له أن يتزوج المرأة الواهبة نفسها له ﷺ بغير مهر، روى الشيخان عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: (كُنْتُ أَغَارُ عَلَى اللاَّتِي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَقُولُ: أَتَهَبُ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا؟ فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَىٰ ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۝٥١﴾ [الأحزاب: ٥١]، قُلْتُ: مَا أُرَى رَبَّكَ إِلاَّ يُسَارِعُ فِي هَوَاكَ)[٣].

---

(١) انظر الموضوع السابق. (٢) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٠٠).

(٣) رواه البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ ...﴾، برقم (٤٧٨٨).

قال الشيخ السعدي - رحمه الله -: (قال كثير من المفسرين: إن هذا خاص بالواهبات له أن يرجي من يشاء، ويؤوي من يشاء، أي إن شاء قَبِلَ من وهبت نفسها له وإن شاء لم يقبلها)[(١)].

وهذا هو وجه المسارعة في إرضائه ﷺ والذي قصدته أم المؤمنين عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -. ونلحظ في حديث أم المؤمنين - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - بعض الأمور منها:

١- مدى غَيْرة عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - على النبي ﷺ وهي غيرة تدل على فرط حبها له ﷺ، قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله -: (حمل عائشةَ على هذا التقبيح الغَيْرَةُ التي طُبِعَتْ عليها النساء، وإلا فقد علمت أن الله أباح لنبيه ذلك، وأن جميع النساء لو مَلَّكْنَ له رقَّهن لكان قليلاً)[(٢)].

وتدبر أخي القارئ هذه الجملة الأخيرة من كلامه - رحمه الله - لتعلم كيف عرف العلماء قدر النبي ﷺ فبلغوا الغاية المستطاعة في إجلاله وتوقيره، ولا يوفيه قدره إلا الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -.

٢- دلال عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - على النبي ﷺ، حيث قالت له: «**ما أرى ربك إلا يسارع في هواك**». قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله -: «**هذا القول أَبْرَزَه الدلالُ والغيرةُ، وهو من نوع قولها في حديث الإفك: ما أَحْمَدُكما ولا أحمد إلا الله. وإلا فإضافة الهوى إلى النبي ﷺ لا يُحْمَل على ظاهره؛ لأنه لا ينطق عن الهوى ولا يقول الهوى، ولو قالت: (إلى مرضاتك) لكان أليق، ولكن الغيرة يُغْتفر لأجلها إطلاقُ مثل ذلك**»[(٣)].

٣- في الحديث دليل على أن اللائي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ كثيرات لما ورد في الحديث: «**كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن**»، ولكن هناك خلاف بين العلماء هل تزوج النبي ﷺ منهن أم لا؟

الفائدة الثانية: لم يكن واجبًا على النبي ﷺ شرعًا ولا عقلاً - قبول كل من وهبت نفسها للنبي ﷺ، ولكن الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ - أخبرنا أن قبول النبي ﷺ بالزواج بالمرأة الواهبة نفسها أمر يُرَدّ إلى مشيئته، قال تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ [الأحزاب: ٥٠].

الفائدة الثالثة: عظيم قدر النبي ﷺ في نظر النساء وتمني الزواج منه ﷺ، ولو تنازلن

(١) انظر تفسير السعدي (١/ ٦٦٩).
(٢) انظر فتح الباري (٩/ ١٦٥).
(٣) انظر فتح الباري (٩/ ١٦٥).

عن أعظم حقوقهن المالية والأدبية، فالحق المالي وهو المهر، والتي تتباهى به كل امرأة وتعرف قدرها عند من خطبها، والحق الأدبي أن تكون هي المطلوبة وليست الطالبة، ولكن الأمر يختلف إذا كان الرجل المراد الزواج منه هو خير البرية أجمعين، المبعوث رحمة للعالمين، سيد الأولين والآخرين، ألم تر إلى الحسيبة النسيبة خديجة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - ذات الجاه والمال، المطلوبة من كل رجال قريش، قد طلبت الزواج من النبي ﷺ، الذي كان يعمل في مالها وتجارتها، ومتى كان ذلك؟ قبل البعثة وليس بعدها، وقد كافأها اللَّه على صنيعها بما لم يكافئ أحدًا قبلها ولا بعدها، حيث كافأها أن أخلص لها النبي ﷺ خمسة وعشرين عامًا لم تشاركها فيه امرأة أخرى.

الفائدة الرابعة: تحريم الزواج بدون مهر على كل رجال الأمة؛ لقوله - تَعَالَىٰ -: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، قال الإمام ابن كثير - رحمه اللَّه -: (قال عكرمة: أي لا تحل الموهوبة لغيرك، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل له حتى يعطيها شيئًا، وقال: لو أن امرأة فوضت نفسها إلى رجل فإنه متى دخل بها وجب عليه مهر مثلها، أما هو ﷺ، فإنه لا يجب عليه للمُفَوِّضة شيء ولو دخل بها؛ لأن له أن يتزوج بغير صداق ولا ولي ولا شهود كما في قصة زينب بنت جحش - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا)[١].

٤- الإذن له بالزواج وهو محرم:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَزَوَّجَ مَيْمُونَةَ وَهُوَ مُحْرِمٌ)[٢].

* * *

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٠١).
(٢) رواه البخاري، كتاب: الحج، باب: تزويج المحرم، برقم (١٨٣٧).

خامسًا: فضل رؤيتـــه ﷺ

١- رؤيته في اليقظة: يُفْتح لمن رآه، ومن رأى من رآه، ومن رأى من رأى من رآه:

عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يُبْعَثُ مِنْهُم الْبَعْثُ، فَيَقُولُونَ: انْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ فِيكُمْ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ؟ فَيُوجَدُ الرَّجُلُ فَيُفْتَحُ لَهُمْ بِهِ، ثُمَّ يُبْعَثُ الْبَعْثُ الثَّانِي، فَيَقُولُونَ: هَلْ فِيهِمْ مَنْ رَأَى أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ؟ فَيُفْتَحُ لَهُمْ بِهِ، ثُمَّ يُبْعَثُ الْبَعْثُ الثَّالِثُ، فَيُقَالُ: انْظُرُوا هَلْ تَرَوْنَ فِيهِمْ مَنْ رَأَى مَنْ رَأَى أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ؟ ثُمَّ يَكُونُ الْبَعْثُ الرَّابِعُ فَيُقَالُ: انْظُرُوا هَلْ تَرَوْنَ فِيهِمْ أَحَدًا رَأَى مَنْ رَأَى أَحَدًا رَأَى أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ؟ فَيُوجَدُ الرَّجُلُ فَيُفْتَحُ لَهُمْ بِهِ»(١).

وعند البخاري عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَأْتِي زَمَانٌ يَغْزُو فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ فَيُقَالُ: فِيكُمْ مَنْ صَحِبَ النَّبِيَّ ﷺ؟ فَيُقَالُ: نَعَمْ، فَيُفْتَحُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَأْتِي زَمَانٌ فَيُقَالُ: فِيكُمْ مَنْ صَحِبَ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ؟ فَيُقَالُ: نَعَمْ، فَيُفْتَحُ، ثُمَّ يَأْتِي زَمَانٌ فَيُقَالُ: فِيكُمْ مَنْ صَحِبَ صَاحِبَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَيُقَالُ: نَعَمْ، فَيُفْتَحُ لهم»(٢).

هذا الحديث يبين بجلاء - لمن تدبره وتمعن فيه- المكانة العالية الرفيعة للنبي ﷺ عند ربه، والتي لم ولن يصل إليها أحد من الأولين والآخرين، لا نبي مرسل ولا ملك مقرب، فالحديث يخبر أن طائفةً من المؤمنين -بعد النبي ﷺ- تغزو في سبيل الله، فيسألون هل فيكم مَنْ صحب النبي ﷺ؟ فإذا وجد فيهم صحابي واحد يفتح لهم ويغلبون عدوهم - بإذن اللَّه - وهكذا يتكرر الأمر في عصر التابعين، وعصر تابعي التابعين، هكذا في رواية البخاري، أما رواية مسلم فأثبتت عصرًا رابعًا، وأسأل اللَّه عزوجل أن يمكنني من إظهار بعض هذا الفضل الذي خَصَّ به نبيه ﷺ في هذا الحديث.

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: في فضائل النبي ﷺ.

١ - إخباره ﷺ بوحي من ربه - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - أن الغزو في سبيل اللَّه لن يتوقف بموته ﷺ، بل سيستمر خاصةً في القرون الثلاثة المفضلة.

(١) رواه مسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل الصحابة رضي الله عنهم، برقم (٢٥٣٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب: الجهاد، باب: من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب، برقم (٢٨٩٧).

٢ - إخباره ﷺ أن هذا الغزو سيكون فيه الغلبة والفتح للفئة المسلمة، أي أنه ﷺ أخبر بوقوع المعارك ونتائجها.

٣ - عظيم بركة رؤية النبي ﷺ وصحبته ويتضح ذلك من:

أ - الفتح والنصر يكون لوجود أحد رأى أو صحب النبي ﷺ ولو كانت هذه الصحبة للحظة واحدة أو تحققت الرؤية لفترة قصيرة ولم يحدث فيها سلام أو كلام، ودليله أن المنادي لم يشترط فترة معينة للرؤية أو الصحبة، فدل ذلك أن هذا الفتح يحدث لمن كان له أدنى رؤية أو صحبة للنبي ﷺ فتدبر.

ب - لم تقتصر بركة الرؤية والفتح لمجرد الصحبة على عصر الصحابة بل امتد ذلك إلى ثلاثة عصور، أي أن فضل النبي ﷺ قد امتد، وبركته قد انتقلت من عصر إلى عصر، فمن عظيم بركته ﷺ أن من رآه من عصر الصحابة تكون له بركة تنفع - بإذن اللَّه - من يراه في عصر التابعين وهكذا. وتدبَّرْ أخي القارئ قوله ﷺ على لسان المنادي: **«هل ترون فيهم أحدًا رأى من رأى أحدًا رأى أصحاب النبي ﷺ؟»**.

يتفرع على هذا حض الناس - في القرون المفضلة - في سائر الأمصار على رؤية الصحابة والتابعين وتابعيهم والحرص على ملازمتهم والأخذ عنهم والجهاد معهم.

ج - بيان أن الصحبة وحدها مجردة لا يعدلها شيء أبدًا من الطاعات الكبيرة والقربات الكثيرة، ودليله أن المنادي لا يسأل عن عُبَّاد لهم طاعات معينة أو قربات مخصوصة يستحقون عليها الفتح، ولكن يسأل فقط عَمَّنْ رأى أو صحب، فهذه الخصلة تكفي عما سواها، مع ملاحظة أنه قد يكون من الناس في الغزو من له من الطاعات والقربات أكثر ممن له مجرد الرؤية، ولكن كما قلنا: الرؤية لا يعدلها شيء، فَتُقَدَّم على كل شيء.

د - لم يكن الفتح بسبب وجود فئة في الغزو صحبت النبي ﷺ، إنما العجيب أن يكون الفتح والنصر وإكرام الجيش كله، لوجود ولو رجل واحد، وتدبر أخي القارئ قوله ﷺ: **«فيوجد الرجل فيفتح لهم به»**.

الفائدة الثانية: الحديث بشرى سارة من النبي ﷺ لكل من غزا في سبيل اللَّه عز وجل في تلك العصور الثلاثة المفضلة، كما أن فيه حثًّا لهم على الغزو والجهاد.

الفائدة الثالثة: للصحابة والتابعين وتابعي التابعين - رضي اللَّه عنهم - شرف عظيم يميزهم عن بقية الناس كلهم جميعًا، كما يؤخذ من الحديث فضل تلك الأزمان؛ لأن الزمن

يشرف بمن يعيش فيه ويَعْمُره بالطاعات والقربات.

٢- رؤيته في المنام:

عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَسَيَرَانِي فِي الْيَقَظَةِ، وَلاَ يَتَمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِي»[١]. قَالَ أَبُو عَبْدِاللَّهِ: قَالَ ابْنُ سِيرِينَ: إِذَا رَآهُ فِي صُورَتِهِ.

الشاهد في الحديث:

قوله ﷺ: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة»، وعند الشيخين أيضًا: «من رآني فقد رأى الحق»[٢].

أولاً: بعض أقوال العلماء في قوله ﷺ: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة».

قال الإمام ابن حجر - رحمه الله - ما نصه: «والحاصل من الأجوبة ستة:

أحدها: أنه على التشبيه والتمثيل، ودل عليه قوله في الرواية الأخرى: «فكأنما رآني في اليقظة».

ثانيها: أن معناها سيرى في اليقظة تأويلها بطريق الحقيقة أو التعبير.

ثالثهما: أنه خاص بأهل عصره ممن آمن به قبل أن يراه.

رابعها: أنه يراه في المرآة التي كانت له إن أمكنه ذلك وهذا من أبعد المحال.

خامسًا: أنه يراه يوم القيامة بمزيد خصوصية، لا مطلق من يراه حينئذ ممن لم يره في المنام.

سادسًا: أنه يراه في الدنيا حقيقة ويخاطبه، وفيه ما تقدم من الإشكال». انتهى[٣].

ويقصد الإمام ابن حجر بالإشكال الوارد على الرأي السادس، ما قاله في موضع آخر: «ويعكر عليه أن جمعًا جمًّا رأوه ﷺ في المنام ثم لم يَذكر واحد منهم أنه رآه في اليقظة، وخبرُ الصادق لا يختلف»[٤].

وأعتقد - والله أعلم - أن المقصود بقوله ﷺ: «من رآني في المنام فقد رآني»[٥]. أنها رؤية حقيقية كرؤيته ﷺ في اليقظة سواء بسواء؛ وذلك لأن الأصل هو عدم التأويل

---

(١) رواه البخاري، كتاب: التعبير، باب: من رأى النبي ﷺ في المنام، برقم (٦٩٩٣).
(٢) رواه البخاري، كتاب: التعبير، باب: من رأي النبي ﷺ في المنام، برقم (٦٩٩٦).
(٣) انظر فتح البارى (١٢/ ٣٨٥). (٤) انظر الموضوع السابق من الفتح.
(٥) رواه البخاري، كتاب: التعبير، باب: من رأى النبي ﷺ في المنام، برقم (٦٩٩٤).

والإيمان بما يقتضيه ظاهر النص، وأما الاعتراض الذي أورده الإمام ابن حجر نقلاً عن القرطبي - رحمهما الله - حيث ذكر: «أن إثبات ظاهر النص يستلزم أنه لا يراه رائيان في آن واحد، وأن يحيا الآن ويخرج من قبره ويمشي في الأسواق ويخاطب الناس ويخاطبوه، ويلزم من ذلك أن يخلو قبره من جسده فلا يبقى من قبره فيه شيء فيزار مجرد القبر، ويسلم على غائب لأنه جائز أن يرى في الليل والنهار مع اتصال الأوقات على حقيقته في غير قبره»[1].

أقول: إن هذا الاعتراض في غير محله ألبتة. وذلك لأنه اعتراض عقلي بحت لا يستند على أي دليل شرعي، كما أن الرؤيا من الأمور التي لا يقاس عليها أمور الشهادة أبدًا، خاصةً إذا كانت تتعلق بالنبي ﷺ فقد تكون معجزة من معجزاته ﷺ، فيكون من سوء المسلك أن نردها لشبهة عقلية، أما كان ﷺ يصلي بالناس إمامًا صلاة الكسوف - وهي صلاة جهرية -، ويكلم ربه في آن واحد، كما جاء في الصحيح، وقد أوردته في باب «يرى ما لا يراه أحد».

ثانيًا: بعض فوائد الحديث:

الفائدة أولى: في فضائل النبي ﷺ:

١ - رؤيتُه ﷺ في المنام لا تستوي مع رؤية غيره من البشر، حيث ذكر الإمام ابن حجر أن الشيخين رَوَيَا: «فإنه لا ينبغي للشيطان أن يتشبه بي»[2]، وقوله ﷺ: «من رآني في المنام فقد رآني؛ فإن الشيطان لا يتمثل بي»[3]. أما غيره ﷺ فقد يتمثل به الشيطان في المنام.

٢ - رؤيته ﷺ في المنام تنطوي على بشرى عظيمة، وهي رؤيته في اليقظة، لقوله ﷺ: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة»[4] ولا شك أنها من المبشرات العظيمة التي تُفْرِح القلوب وتثلج الصدور، كما أنها مبشرة ببشرى أخرى لازمة وهي دخول الجنة، حيث لا مكان لرؤيته ﷺ بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى إلا في الجنة.

الفائدة الثانية: كيف يعلم المسلم أن الذي رآه في المنام هو النبي ﷺ؟

ذكر الإمام ابن حجر - رحمه الله - ما نصه: «**كان محمد - يعني ابن سيرين - إذا قص عليه رجل أنه رأى النبي ﷺ قال: صِفْ لي الذي رأيتَه، فإن وصف له صفة لا يعرفها، قال: لم**

(١) انظر فتح الباري (١٢/ ٣٨٤). (٢) سبق تخريجه.
(٣) رواه مسلم، كتاب؟ الرؤيا، باب: قول النبي ﷺ من رآني في المنام فقد رآني، برقم (٢٢٦٦).
(٤) انظر السابق.

تره»[1]. وسنده جيد. انتهى.

وهذا هو الصحيح - والله أعلم -؛ لأن قوله ﷺ: «ولا يتمثل الشيطان بي». أي: لا يأتي بصورتي التي يعرفها الناس، وهذا لا يمنع أن يأتي الشيطان ويقذف في قلب الرائي أنه النبي ﷺ، ولكن بصورة تخالف الصورة التي يُعْرف بها النبي ﷺ، فالحديث لا يمنع حدوث مثل هذا، بل أعتقد أنه يجب القول به، لأننا كثيرًا ما نسمع من أصحاب البدع والأهواء أنهم رأوا النبي ﷺ وأمرهم بأشياء تخالف ما ورد بالكتاب والسنة، ولا تفسير لذلك - إن صدقوا في دعواهم - أن الذي رأوه هو الشيطان، وأنه لم يأت بالهيئة المعروفة للنبي ﷺ.

ويؤيد ذلك ما ذهب إليه الإمام ابن حجر - رحمه الله - في شرح بعض الألفاظ التي ورد بها الحديث، فقال - رحمه الله -: قوله: (إن الشيطان لا يتراءى). فمعناه: لا يستطيع أن يصير مرئيًا بصورتي، كقوله ﷺ: «فإن الشيطان لا يتكونني». أما قوله: «لا يتمثل بي»، أي لا يتشبه بي، أما قوله: «في صورتي»، فمعناه: لا يصير كائنًا في مثل صورتي. وقال - رحمه الله -: فالجميع راجع إلى معنى واحد.

والخلاصة: أن على كل مسلم قبل أن يدعي أنه رأى النبي ﷺ أن يعرض ما رأى على أحد أهل العلم - الذين يعلم عنهم الصلاح والتقوى - ليخبروه إن كان ما رأى حقًا أو من الشيطان، حتى لا يقع في الكذب على النبي ﷺ.

الفائدة الثالثة: ما هي فوائد رؤية النبي ﷺ في المنام ؟

قال ابن حجر - رحمه الله -: **«ومن فوائد رؤيته ﷺ تسكين شوق الرائي لكونه صادقًا في محبته ليعمل على مشاهدته، وإلى ذلك الإشارةُ بقوله: فسيراني في اليقظة، أي من رآني رؤيةً، معظمًا لحرمتي ومشتاقًا إلى مشاهدتي، وصل إلى رؤية محبوبه وظفر بكل مطلوبه، ويجوز أن يكون مقصود تلك الرؤيا معنى صورته وهو دينه وشريعته فيعبر بحسب ما يراه الرائي من زيادة ونقصان أو إساءة وإحسان»**.

الفائدة الرابعة: في الحديث دليل على أن الشيطان له قدرة على أن يتمثل في أي صورة أراد، ولكن الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - لم يمكنه من التصور في صورة النبي ﷺ.

والحكمة من ذلك ذكرها الإمام النووي - رحمه الله - فقد قال ما نصه: **«قال القاضي:**

---

(١) انظر فتح الباري (١٢/ ٣٨٤).

قال بعض العلماء: خص الله - تَعَالَىٰ - النبيَّ ﷺ بأن رؤية الناس إياه صحيحة، وكلها صدق، ومَنَعَ الشيطانَ أن يتصور في خلقته لئلا يكذب على لسانه في النوم، كما خرق الله - تَعَالَىٰ - العادة للأنبياء - عليهم السلام - بالمعجزة، وكما استحال أن يتصور الشيطان في صورته في اليقظة، ولو وقع لاشتبه الحق بالباطل، ولم يوثق بما جاء به مخافة من هذا التصور، فحماها[(١)] الله - تَعَالَىٰ - من الشيطان ونزغه ووسوسته وإلقائه وكيده»[(٢)]. انتهى.

٣- رؤيته بالمال والأهل:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًّا نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَآنِي بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ»[(٣)]. رواه مسلم.

بعض فوائد الحديث:

الفائدة أولى: في شمائل النبي ﷺ.

١ - بيان أن مجرد رؤية النبي ﷺ لها فضل عظيم، حيث ذكر الحديث أن رؤيته ﷺ ستكون أعز وأغلى عند بعض أمته من مالهم وأهلهم، بل يقدمون المال والأهل في سبيل تحقيق هذه الرؤية الغالية العزيزة. قال ﷺ: «يود أحدهم لو رآني بأهله وماله».

٢- بيان فضل النبي ﷺ ومكانته وشرفه عند الله عزوجل وعند أمته؛ لأننا نقول: إذا كانت رؤيته ﷺ منامًا أو يقظة ولأدنى زمن تتحقق فيه الرؤية - تكون عند البعض بالمال والأهل، فما بالنا بصحبته مع نصرته وحبه للصحابي وحب الصحابي له، وهي أمور أعظم قطعًا من مجرد الرؤية، فكم ينبغي أن يقدم المسلم لينال كل هذه الأمور مجتمعة؟!.

ويتفرع على هذا أن نتصور عظيم قدر الفضل والمنح والنعم التي تفضل الله بها على الصحابة، إذ اختصهم دون الخلق بصحبة نبيه ﷺ ونصرته ورؤيته دومًا وفي كل الأوقات وعلى كل الأحوال، فلم يَحْظَوْا بالرؤية فقط التي تكون بالأهل والمال، ولكنهم تكلموا معه وتكلم معهم، وعلَّمهم ورباهم، وصلى بهم وسافر معهم ودعا لهم، ومات وهو راضٍ عنهم، بل الأثمن والأغلى أن جُلَّهُمْ قد لامستْ يدَه يدُ النبي ﷺ وبشرَتَه بشْرَةُ النبي ﷺ

---

(١) أي: حمى صورته ﷺ.

(٢) انظر شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/ ٢٥).

(٣) رواه مسلم، كتاب: الجنة، باب: فيمن يود رؤية النبي ﷺ بأهلة، برقم (٢٨٣٢).

وهل بعد هذا الفضل من فضل؟! .

ومن جهة أخرى: يجب علينا أن نحب الصحابة رضي الله عنهم ونجلهم ونكبرهم لما كان لهم من هذا الفضل الجزيل.

٣ - في الحديث معجزتان من دلائل نبوته ﷺ

الأولى: إخباره ﷺ بأمر من أمور الغيب - التي أطلعه الله عليها - وهو وجود مثل هذه الفئة من أمته ﷺ.

الثانية: وجود مثل هذه الفئة من أمة الإسلام، التي تحب النبي ﷺ مثل هذا الحب دون صحبة أو معاصرة أو حتى رؤية، بحيث يود الرجل منهم لو رأى النبي ﷺ ولو للحظة يقظة أو منامًا - مقابل أهله وماله، وهذا الأمر لو تدبره أصحاب العقول السوية لعلموا أنه من أعظم دلائل صدق نبوته ﷺ، فسبحان من لا يقدر على تهيئة القلوب وتوفيقها لمثل هذا الحب إلا هو - تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ - .

٣ - في الحديث دفع شبهات الكفار حول النبي ﷺ، والتي سجّلها القرآن الكريم عنهم في أكثر من موضع، حيث قالوا - لعنة الله عليهم -: إنه ساحر. فنقول لهم: إذا كان النبي ﷺ- وحاشا لله - قد سحر أصحابه فأحبوه ونصروه وضحوا معه بكل غالٍ ونفيس، فمن هذا الذي سحر أتباعه ممن لم يروه ولم يرهم وقد أحبوه كل هذا الحب، وإذا كان أصحابه - رضي الله عنهم - قد أحبوا النبي ﷺ لأغراض دنيوية، أو لرؤيتهم المعجزات الحسية على يديه، فما بال أتباعه ﷺ الذين لم يروه قد أحبوه مثل هذا الحب، وقد تمنوا أن لو قدموا كل ما لديهم في الدنيا - من المال والأهل - في سبيل رؤيته.

٤- بيان الحب الذي ينبغي أن يستقر في قلب المؤمن للنبي ﷺ، والذي بموجبه يرضى الله عزوجل على العبد.

ويتفرع عليه أن على كل مسلم أن يقارن حاله بحال الفئة التي ذُكرت بالحديث، فإن وافق حاله حالها فليحمد الله عزوجل، وإلا فليفتش في نفسه ويجاهدها حتى يصل إلى تلك المرتبة العليا.

الفائدة الثانية: في الحديث لفت أنظار الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لما هم فيه من نعمة، وحثهم على كثرة مصاحبته ﷺ ونصرته وملازمته، يؤيد ذلك ما رواه مسلم: عن أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ فِي يَدِهِ لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أَحَدِكُمْ يَوْمٌ وَلاَ يَرَانِي،

ثُمَّ لأَنْ يَرَانِي أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ مَعَهُمْ»[١] . قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: الْمَعْنَى فِيهِ عِنْدِي: لأَنْ يَرَانِي مَعَهُمْ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ. وَهُوَ عِنْدِي مُقَدَّمٌ وَمُؤَخَّرٌ.

قال الإمام النووي - رحمه الله - في شرح هذا الحديث ما نصه: «**وتقدير الكلام: يأتي على أحدكم يوم لأن يراني فيه لحظة ثم لا يراني بعدها أحب إليه من أهله وماله جميعًا. ومقصودُ الحديث حَثُّهم على ملازمة مجلسه الكريم ومشاهدته حضرًا وسفرًا للتأدب بآدابه وتعلم الشرائع وحفظها ليبلغوها وإعلامهم أنهم سيندمون على ما فرطوا فيه من مشاهدته وملازمته**». انتهى[٢].

الفائدة الثالثة: إثبات أنه ليس المقصودُ اتباعَ سنة النبي ﷺ الظاهرة والباطنة فقط، وإن كان هذا شيئًا عظيمًا في حد ذاته، ولكن ينبغي أن يصحب ذلك حب النبي ﷺ بالقلب، وليس بالعقل وحده، لأن حب الرؤية بالمال والأهل إنما ينم عن حبٍّ قلبيٍّ قد تعلق بمحبوبه أشد التعلق، حتى إنه يشتاق لرؤيته ولو للحظة. والذي جمع بين هذا الحب والاتباع خير قطعًا من الذي كان معه الاتباع مع قليل من الحب؛ لأن النبي ﷺ إنما ذكر هذه الفئة في الحديث في سياق الثناء عليهم.

الفائدة الرابعة: وهي متفرقات:

١ - شوق المحب إلى رؤية محبوبه تُعَدّ من أكبر العلامات الدالة على شدة الحب؛ لأن النبي ﷺ استفتح الحديث بقوله: «**من أشد أمتي لي حبًا**»، ثم ذكر صفتهم ودليل محبتهم بقوله: «**يود أحدهم لو رآني بأهله وماله**»، ولذلك أقول: إن من ادعى الحب دون الشوق إلى الرؤية ففي دعواه شيء.

٢ - في الحديث مشروعية الدعاء برؤية النبي ﷺ، لأنه لا يقدر أن يحقق أماني العبدَ إلا الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -.

٣ - يتفاوت المسلمون تفاوتًا بينًا في حب النبي ﷺ، فأعظمهم حبًا من يتمنى أن يرى النبي ﷺ بالمال والأهل، وأدناهم منزلةً من لم يفكر في هذا الأمر ولم يشغل باله به.

٤ - من الممكن أن يتولد حب الغير في قلب الإنسان من غير رؤيه هذا المحبوب، وقد يصل هذا الحب إلى أعلى درجاته وهو تمني الرؤية بالمال والأهل، ولكن لا يتأتى ذلك إلا

---

(١) رواه مسلم، كتاب: الفضائل، باب: فضل النظر إليه ﷺ وتمنيه، برقم (٢٣٦٤).

(٢) انظر شرح النووى على صحيح مسلم (١٥/١١٩).

بكثرة القراءة عن المحبوب والتشبه به واتباعه وكثرة ذكره، وتذكر ثواب ذلك في الدنيا والآخرة.

٥ - في الحديث إشارة إلى مشروعية أن يقول المسلم بعد انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى: - فداك أبي وأمي -.

اختم هذا الباب بالتأكيد على أن ما ذكرته من خصائص للنبي ﷺ كانت على سبيل المثال لا الحصر لأن ذكر خصائصه ﷺ يحتاج إلى عدة مؤلفات.

* * *

الباب الرابع

صفات وجوانب من شخصية الرسول ﷺ

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ثِمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلأَرَامِلِ

أبو طالب عم الرسول ﷺ

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ لَكَانَ مَنْظَرُهُ يُنْبِيكَ بِالْخَبَرِ

الصحابي الجليل الشاعر/ عبد الله بن رواحة رضي الله عنه



في بداية الأمر عندما أردت أن أتحدث عن صفات الرسول ﷺ وأخلاقه وجميل شمائله نابتني حيرة بأيها أبدأ وبأيها أُثنّي وأنتهي، لأنك إذا نظرتَ إلى صفة حَسِبْتَها هي أفضل الصفات، فإذا انتقلت إلى أخرى وجدتها أجل وأفضل، فحار أمري؛ هل أبدأ برحمته، فرحمتُه بلغت المنتهى من صفات البشر، أو بوفائه؛ فوفاؤه أجل وأعظم أو بكذا أو كذا، فاستخرت الله في هذا الأمر فوجدتني أبدأ بنسبه الشريف، ثم بدأت بالصفات على الترتيب الهجائي وقد بدأت أولاً بصفاته ﷺ ثم جوانب من شخصيته.

أولاً: صفاته ﷺ:

١- جمال وجهه ﷺ:

قَالَ كَعْبٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا إِلاَّ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهَا، إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ، وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الإِسْلاَمِ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا؛ كَانَ مِنْ خَبَرِي أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلاَ أَيْسَرَ حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزَاةِ، وَاللَّهِ مَا اجْتَمَعَتْ عِنْدِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةً إِلاَّ وَرَّى بِغَيْرِهَا، حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ، غَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا، وَعَدُوًّا كَثِيرًا فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَثِيرٌ، وَلاَ يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ - يُرِيدُ الدِّيوَانَ - قَالَ كَعْبٌ: فَمَا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلاَّ ظَنَّ أَنْ سَيَخْفَى لَهُ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيُ اللَّهِ، وَغَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ وَالظِّلاَلُ، وَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، فَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ فَأَرْجِعُ، وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَأَقول فِي نَفْسِي: أَنَا قَادِرٌ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اشْتَدَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا. فقلت: أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ، ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ. فَغَدَوْتُ بَعْدَ أَنْ فَصَلُوا لِأَتَجَهَّزَ، فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ ثُمَّ

رَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَلَمْ يَزَلْ بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ وَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ، وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ فَلَمْ يُقَدَّرْ لِي ذَلِكَ، فَكُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَطُفْتُ فِيهِمْ أَحْزَنَنِي أَنِّي لاَ أَرَى إِلاَّ رَجُلاً مَغْمُوصًا عَلَيْهِ النِّفَاقُ، أَوْ رَجُلاً مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ. فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ: «مَا فَعَلَ كَعْبٌ؟» فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَنَظَرُهُ فِي عِطْفِهِ. فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بِئْسَ مَا قُلْتَ، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلاَّ خَيْرًا. فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلاً حَضَرَنِي هَمِّي وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ، وَأقول: بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا وَاسْتَعَنْتُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي فَلَمَّا قِيلَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ، وَعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَخْرُجَ مِنْهُ أَبَدًا بِشَيْءٍ فِيهِ كَذِبٌ، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ، وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَادِمًا، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ، فَيَرْكَعُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ، فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ، وَيَحْلِفُونَ لَهُ، وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلاً، فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلاَنِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ فَجِئْتُهُ، فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ: «تعالَ»، فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ. فَقَالَ لِي: «مَا خَلَّفَكَ أَلَمْ تكُنْ قَدْ ابتَعتَ ظَهرَكَ؟» فَقلت: بَلَى إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلاً، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللَّهِ، لاَ وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلاَ أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ». فَقُمْتُ وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي. فَقَالُوا لِي: وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لاَ تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ الْمُتَخَلِّفُونَ قَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَكَ، فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي أَحَدٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ رَجُلاَنِ قَالاَ مِثْلَ مَا قُلْتَ. فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ. فَقُلْتُ مَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَمْرِيُّ، وَهِلاَلُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ. فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي، وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلاَمِنَا أَيُّهَا الثَّلاَثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ، وَتَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِي الأَرْضُ، فَمَا هِيَ

الَّتِي أَعْرِفُ. فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلاَةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَأَطُوفُ فِي الأَسْوَاقِ وَلاَ يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلاَةِ، فَأقول فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلاَمِ عَلَيَّ أَمْ لاَ؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ، فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلاَتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ، وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلاَمَ. فقلت: يَاأَبَا قَتَادَةَ أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؟ فَسَكَتَ. فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ. فَسَكَتَ فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَفَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ. قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّأْمِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ؟ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ، فَإِذَا فِيهِ أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلاَ مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ. فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا: وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلاَءِ فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الْخَمْسِينَ إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَأْتِينِي، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ. فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا، أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لاَ بَلْ اعْتَزِلْهَا وَلاَ تَقْرَبْهَا. وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقُلْتُ لاِمْرَأَتِي: الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الأَمْرِ. قَالَ كَعْبٌ: فَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلاَلِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هِلاَلَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟ قَالَ: لاَ. وَلَكِنْ لاَ يَقْرَبْكِ قَالَتْ: إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ، وَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا.

فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَو اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ كَمَا أَذِنَ لاِمْرَأَةِ هِلاَلِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ. فَقلت: وَاللَّهِ لاَ أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَا يُدْرِينِي مَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا، وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ، فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ حَتَّى كَمَلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كَلاَمِنَا، فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلاَةَ الْفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ. قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ، وَآذَنَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلاَةَ الْفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ فَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ، فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا بِبُشْرَاهُ، وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا وَانْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنُّونِي بِالتَّوْبَةِ، يَقُولُونَ: لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ. قَالَ كَعْبٌ: حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي، وَاللَّهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرَهُ، وَلاَ أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ. قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ: «أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ». قَالَ: قلت: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ قَالَ: «لاَ، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ». وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِ اللَّهِ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». قلت: فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ. فَقلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا نَجَّانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لاَ أُحَدِّثَ إِلاَّ صِدْقًا مَا بَقِيتُ، فَوَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلاَهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلاَنِي، مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيتُ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ . . . إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، فَوَاللَّهِ: مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلإِسْلاَمِ، أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ لاَ أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لأَحَدٍ، فَقَالَ تبارك وتعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ قَالَ كَعْبٌ: وَكُنَّا تَخَلَّفْنَا أَيُّهَا الثَّلاَثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ حَلَفُوا لَهُ، فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللَّهُ فِيهِ، فَبِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾، وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ مِمَّا خُلِّفْنَا عَنِ الْغَزْوِ، إِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا، وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ)[١].

(١) البخاري، كتاب: المغازي، باب: حديث كعب بن مالك، برقم (٤٤١٨)، مسلم، كتاب: التوبة، باب: حديث توبة كعب. . .، برقم (٢٧٦٩).

الشَّاهِدُ فِي الحَدِيثِ: قول كعب بن مالك رضي الله عنه : (وكان رسول اللَّه ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر)، وكان الصحابة ما يرون وجهًا أجمل من وجه النبي ﷺ فعن أبي إسحاق قال: (سئل البراء، أكان وجه النبي ﷺ مثل السيف؟ قال: لا . بل مثل القمر)[١].

قال الحافظ ابن حجر ما نصه: (كأن السائل أراد أنه مثل السيف في الطول، فرد عليه البراء فقال: (بل مثل القمر)، أي في التدوير، ويحتمل أن يكون أراد: مثل السيف في اللمعان والصقال؟ فقال: بل فوق ذلك، وعدل إلى القمر لجمعه الصفتين من التدوير واللمعان)[٢].

ومن حديث جابر بن سمرة: (أن رجلاً قال له: أكان وجه رسول اللَّه ﷺ مثل السيف؟ قال: لا بل كان مثل الشمس والقمر وكان مستديرًا)[٣]، وإنما قال: (مستديرًا) للتنبيه على أنه جمع الصفتين؛ لأن قوله: (مثل السيف) يحتمل أن يريد به الطول أو اللمعان، فرده المسئول ردًّا بليغًا، ولما جرى التعارف في أن التشبيه (بالشمس) إنما يراد به غالبًا الإشراق، والتشبيه (بالقمر) إنما يريد به الملاحة دون غيرها، أتى بقوله: (وكان مستديرًا) إشارة إلى أنه أراد التشبيه بالصفتين معًا: الحسن والاستدارة)[٤].

وقد روى البراء رضي الله عنه : (كان رسول اللَّه ﷺ أحسن الناس وجهًا وأحسنهم خَلقًا ليس بالطويل الذاهب ولا بالقصير)[٥]، ومعنى بالطويل الذاهب أي: (المفرط الطول)، أي كان معتدل القامة ﷺ.

وانظر أخي القارئ كيف وصف الصحابة وجهه يوم وفاته ﷺ فقد ورد في الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه : (فكشف النبي ﷺ ستر الحجرة ينظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف)[٦]، قال النووي في شرح مسلم: (عبارة عن الجمال البارع، وحسن البشرة، وصفاء

---

(١) البخاري، كتاب: المناقب، باب: صفة النبي ﷺ، برقم (٣٥٥٢).
(٢) انظر فتح الباري (٦/ ٥٧٣).
(٣) مسلم، كتاب: الفضائل، باب: شيبه ﷺ، برقم (٢٣٤٤).
(٤) انظر فتح الباري (٦/ ٥٧٣).
(٥) البخاري، كتاب: المناقب، باب: صفة النبي ﷺ، برقم (٣٥٤٩)، مسلم، كتاب: الفضائل، باب: في صفة النبي ﷺ، برقم (٢٣٣٧).
(٦) البخاري، كتاب: الأذان، باب: أهل العلم والفضل أحق بالإمامة، برقم (٦٨٠)، مسلم، كتاب: الصلاة، باب: استخلاف الإمام إذا عرض له عذر . . . ، برقم (٤١٩).

الوجه، واستنارته)[١]، وإذا كان هذا الصفاء والجمال وحسن البشرة كان يوم وفاته ﷺ فكيف كان أيام شبابه وفحولته ﷺ؟! وأعتقد أن الصحابة قد وصفوا وجهه ﷺ بالشمس أو القمر لأنهم لا يعرفون شيئًا أجمل منهما، وأظن أن وجهه كان أجمل من ذلك بكثير، ولكنهم - جزاهم اللّه عنا خيرًا - أرادوا فقط أن يمثلوا لنا الوجه الشريف بأجمل ما يعرفون.

فوائد الحديث:

الفَائِدَةُ الأُولَىَ: مناقب كعب بن مالك وهي:

١- حضوره جميع الغزوات التي غزاها النبي، ما عدا غزوة بدر، وغزوة تبوك، ولم يُعْتب عليه في بدر؛ لأن النبي لم يعزم على الصحابة في الخروج، لأنه ما كان يريد الغزو، وإنما كان يريد عير قريش، وبذلك تكون الغزوة الوحيدة التي تخلف عنها ويُلام عليها هي غزوة تبوك، قال كعب: (لم أتخلف عن رسول اللّه في غزوة غزاها إلا غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر).

٢- شهوده ليلة العقبة حيث أخذ عليهم العهد والميثاق على الإسلام والجهاد في سبيل الله، وهذه الليلة كانت أعظم عند كعب، من شهوده بدرًا، لقوله: (وما أحب أن لي بها مشهد بدر).

٣- عظيم صدقه، حتى إن كان هذا الصدق ينتقص من قدره ويفضح أمره، ويظهره أكثر تقاعسًا عن شهود الغزو، وذلك علمناه من:

أ - إخباره أنه ما كان في يوم أقدر استطاعة، ولا أيسر حالاً عنه في غزة تبوك، حتى إنه لأول مرة في حياته يملك راحلتين، يمكن أن يستخدمها في الغزو، قال كعب: (لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة)، فلم يكذب ويذكر مبررات لتخلفه، بل لم يكتم ما كان عليه من سعة ويسر، وهذا من عظيم صدقه.

ب - ذكره ما كان من أمره في تأخير وتسويف التجهز للغزو، ولم يذكر أيضًا عذرًا له في ذلك، قال كعب: (فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم)، ونتعلم من ذلك المبادرة لأعمال الخير والطاعات، وأن تأجيلها يوما أو يومين سيؤدي في النهاية إلى عدم القيام بها، وأن هذا التأجيل من تزيين الشيطان، الذي يحرص على صد الناس عن سبيل الله.

(١) انظر شرح النووي على صحيح مسلم (٤/ ١٤٢).

ويعلمنا فضيلة الأخذ بالعزيمة في العبادات، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، فاللَّه -عز وجل- أمرنا في الطاعات بالمسارعة، وأمرنا في أمور الدنيا بالمشي، قال تعالى: ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]، وليعلم المسلم أن الذي يكسل عن الطاعة في أول وقتها، سيكون أشد كسلاً في آخر وقتها؛ لأن الشيطان استطاع أن يصده عن الوقت الفضيل، فإذا قام بالعبادة في الوقت الأخير فلن يتقنها، كالذي ينقر العصر نقرًا قبل خروج وقتها بقليل، لا يتدبر من صلاته شيئًا، وليعلم المسلم أن ما يسوف له الطاعة اليوم، هو معه يسوفها أكثر غدًا، وليعلم أيضًا، أن أداء الواجبات مع جماعة المسلمين تكون أيسر وأسهل على العبد، قال كعب: (فرجعت لم أقض شيئًا، ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقض شيئًا، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو).

ج - اعترافه بين يدي رسول الله، أن تخلفه لم يكن لعذر بل صَدَقه القول، أنه ما كان قط أقوى ولا أيسر منه حين تخلف عنه في غزوة تبوك.

٤- إذا كان هذا هو صدق كعب بن مالك، فمن المناسب أن نذكر ما جناه كعب من هذا الصدق، وذلك ليكون دافعًا لنا لتحري الصدق في حياتنا كلها.

أ - تجنب سخط الرسول ﷺ إن ادعى له عذرًا كذب فيه، ثم أعلم اللَّهُ رسولَه أنه كاذب في عذره لقول كعب: (ليوشكن اللَّه أن يُسْخطك علي).

ب - نجاه اللَّه بصدقه من الهلاك مع الذين هلكوا، وأنزل اللَّه فيهم: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٩٥]، وقال كعب: فواللَّه ما أنعم اللَّه عليّ من نعمة قط، بعد إذ هداني للإسلام، أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله، أنْ لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن اللَّه قال للذين كذبوا حين أنزل الوحيَ شَرَّ ما قال لأحد.

ج - أنزل اللَّه -عز وجل- فيه وفي صاحبيه، قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة، أثنى عليهم فيهم خير الثناء حيث وصف حزنهم لتخلفهم عن رسول الله، فقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٨]، وهذا الحزن من كمال الإيمان، كما وصفت الآية لجوءهم إلى اللَّه وخروجهم من حولهم وقوتهم إلى حول اللَّه وقوته، ويقينهم أنه لن يُنْجيهم مما هم فيه إلا الله، وانقطاع أملهم ورجائهم ممن دونه، قال تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ [التوبة: ١١٨]، وهذا أبلغ الثناء

والمدح، ثم كان الفرج في الآية، وعظيم التشريف أن الله الغني الحميد قد بدأهم بالتوبة عليهم ليتوبوا، قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨]، وما تاب عليهم إلا بصدقهم ثم بحسن ظنهم بالله -عز وجل- مع حسن التوبة.

د - تحريه الصدق بقية حياته، حتى إنه لا يرى أحدًا من أصحاب الرسول، مع جلالة قدرهم، وعلو منزلتهم، كان مثله في صدق الحديث، يقول كعب: (فوالله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث أحسن مما أبلاني).

هـ - ذِكْرُه الحَسَنُ في المسلمين، خاصة أهل العلم والفضل بحسن توبته وصدقه - مثل ما ذكرت له الآن - وذكره الحسن إن شاء الله تعالى في الآخـرة بصدقه، يؤيد ذلك ما رواه عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الصِّدْقَ بِرٌّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ فُجُورٌ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ كَذَّابًا»(١)، وغير ذلك كثير، من إخراج ماله صدقة لله - سبحانه وتعالى - وثباته في بلاء كتاب ملك غسان، وكل ذلك زيادة له في حسناته، ورفع في درجاته، وما كان له ذلك إلا بسلوكه سبيل الصادقين، فمن منا يحتذي حذوه ويقتفي أثره؟!، وما زال الله غنيًا حميدًا شكورًا، لكل عباده أصحاب رسول الله، وأفراد أمته إلى يوم القيامة، وعلى المسلم أن يتدبر أيهما أعظم لكعب، صدقه مع ما حدث له من بلاء، أم نجاته المؤقت بالكذب على رسول الله؟

٥- نأخذ من الحديث فقه الصحابي كعب بن مالك، وذلك أنه علم أنه لن ينجيه بين يدي رسول الله إلا الصدق، وأن الكذب لا ينفع ولا يغني من الحق شيئًا، قال كعب: (وعرفت أني لن أخرج منه أبدًا بشيء فيه كذب فأجمعت صِدقَه). وهذا السلوك يجب أن يتحلى به كل مسلم، ويجب أن يعلم كل أحد أن الصدق أنجى، وأن الله يعلم حال كل كاذب، ويقدر - سبحانه وتعالى - أن يفضحه بين الخلائق في الدنيا قبل الآخرة.

٦- كما نأخذ منه أيضًا قوة يقينه بعلم الله بأحوال العباد، وإحاطة سمعه لما يقولون، لقول كعب: (لئن حدثتك اليوم حديثَ كذبٍ ترضى به عني ليوشكن الله أن يُسْخطك علي)، فلن يحدث أن يسخط الله رسولَه على كعب، إلا إذا كان يعلم حاله، ويسمع كلامه، واطلع على سريرته فعلم كذبه في أقواله.

(١) مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، برقم (٢٦٠٧).

وهذه الحالة من اليقين تتفاوت درجات الناس فيها، بتفاوت علمهم بعظيم شأن الله - سبحانه وتعالى - وإحاطة علمه بكل شيء، ويُقَوي ذلك عند المسلم كثرةُ قراءة القرآن بتدبر وتفكر، خاصة الآيات التي يُذْكر فيها أسماء الله وصفاته وقدرته على كل شيء، وإحاطته بكل شيء، مثل قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المجادلة: ٧].

وقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، كما يقوي ذلك: النظرُ في السيرة النبوية العطرة، ومعرفة أحوال النبي مع ربه، وأحوال الصحابة، مثل الحديث الذي معنا، ويجب على كل مسلم أن يراجع نفسه في مسألة اليقين ليعلم أين هو منها، فينظر مثلاً في صدقه، وفي إخلاص نيته لله، وفي مراقبته لله -عز وجل- إذا كان خاليًا، فكلما تمكن اليقين من قلبه، كلما كان صادقًا مع الله ومع نفسه ومع الناس، صدق في القول، وفي الوعد، ولا يخون العهد، يراعي الله -عز وجل- في أهله وولده وعمله، وكلما ضعف اليقين زاد التفريط.

٧- نأخذ من الحديث أيضًا يقينَه باتصال النبي الدائم بالله -عز وجل- وأن الوحي عنه لا ينقطع في كل الأمور كبيرها وصغيرها، وأن هذا الأمر قد رباهم على الصدق والخوف من الله -عز وجل- وذلك من قول كعب: (ليوشكن الله أن يسخطك علي)، ولن يكون السخط إلا بوحي وإعلام من الله لرسوله، ولشدة يقينه بذلك ما كذب على الرسول، بل صدقه القول، ونأخذ ذلك أيضًا من قول كعب: (إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر).

٨- إجلال كعب للنبي ﷺ وتعظيم قدره، وأنهم كانوا يرون كل أهل الأرض من ملوك ووزراء وكبراء دونه، لقول كعب: (لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج منه بعذر).

٩- نأخذ من الحديث يقينه بأن النبي ﷺ لا يعلم شيئًا من الغيب، وأن كل الذي نبأ به من أمور الغيب إنما هو بوحي من الله -عز وجل- أي أنه لم يعلمه ابتداءً من عند نفسه، ولا أن الله -عز وجل- أطلعه على كل الغيب دفعة واحدة، فيستوي بذلك علمه مع علم الله - عز وجل- وهذا أشنع وأعظم ما يمكن أن يقال أو يُعْتقد، وما زال القرآن يربي المسلمين على

ذلك، وكذلك السنة، وهو كذلك اعتقاد الصحابة كلهم جميعًا، اسمع لقول كعب: (ولئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني)، أي أني لو كذبت عليك سترضى عني لأنك لا تعلم كذبي، لعدم علمك بالغيب، فإذا كان النبي ﷺ لا يعلم غيبًا قد وقع أمره، فكيف يعلم غيبًا لم يقع بعد، أو وقع قبل عصره، والغريب أن الصحابة مع تأدبهم الشديد مع مقام النبوة، لم يستح كعب أن يقول هذه المقولة، والتي تصرح أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب، فهذا ليس تنقيصًا من حقه ﷺ بل رفعًا لقدره، لأنه هو الذي علمهم ورباهم، ما يكون لله وحده، لا يشاركه فيه أحد، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، وعجبت لمن يقول: ومن علومك علم اللوح والقلم!!!، فجعل من علوم النبي ﷺ علم اللوح المحفوظ، وكل ما كتبه القلم، أي أن هذا من علمه وليس كل علمه، واللَّهِ إن هذا القائل ما أبقى لله شيئًا يختص به من علم الغيب، والأعجب والأدهى أنهم يتقربون لله بذلك!!!، أقول لهم: واللَّه ما تزدادون بهذا الكلام إلا بعدًا عن الله، وقربًا من الشيطان، وأظن أن من اعتقد هذا الكلام قد خرج من حظيرة الإسلام، لأنه كَذَّب بالكتاب والسنة، وقد كررت هذا الكلام ومثله في مواضع كثيرة من هذا الكتاب حتى يتبين للناس الحق من الباطل، ويميزوا بين مقام الألوهية، ومقام النبوة، وما ينبغي إثباته للنبي ﷺ وما لا ينبغي إثباته، وهو ما تفرد به اللَّه وحده، ألا تصدق اللَّه -عز وجل- في قوله: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ [يونس: ٤٠]، واللام هنا للاختصاص، أي: لله وحده الغيب، لا يشاركه في ذلك أحد، أم تُكَذّب قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

الفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: حرص النبي ﷺ على تربيته الأمة على العقيدة الصحيحة، والتي منها أن الأمر كله لله، يحكم بما يشاء وكيف شاء، ومتى شاء، لا معقب لحكمه، ولا راد لأمره، وذلك من قوله: «فقم حتى يقضي اللَّه فيك»، والذي يقضي ويحكم هو اللَّه وحده، فظل قلب كعب متعلقًا باللَّه -عز وجل- يسأله ويرجوه أن يقضي فيه بخير، وإذا تيقن العبد أن اللَّه هو الذي يقضي، فكيف يؤمل في غيره، أو يرجو سواه؟ وهذا ما تعلمناه أيضًا من القرآن في قوله تعالى: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]، وتقديم الخبر (لله) وتأخير المبتدأ (الأمر) يدل على التوكيد والاختصاص، وهذه التربية العظيمة من الرسول لأفراد هذه الأمة، لهي من أعظم ما يُمْتَدَح به النبي ﷺ ويُثْنى به عليه، أنه عَبَّدَ الأمةَ لله -عز وجل- .

الفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فيه تقدير الصحابة لمن شهد بدرًا، وأنهم كانوا يرونهم قدوة لهم وأسوة، لقول كعب: (قد ذكروا لي رجلين قد شهدا بدرًا، فمضيت حين ذكروهما لي)، وفيه

أن الإنسان يتصبر في مصيبته إذا علم أن غيره يشاركه فيها؛ لأن كعبًا أراد أن يعود للنبي ﷺ ويكذب نفسه، إلا أنه مضى لما علم أن مرارة بن الربيع وهلال بن أمية قد قال لهما الرسول ﷺ مثل ما قال له.

ويجب التنبيه إلى أن هذا التصبر الذي يجده الإنسان عندما يرى غيره يشاركه المصيبة في الدنيا، لن يكون في جهنم - أعاذنا اللّٰه منها - لقوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩]. فلن يتسلى الكافر في جهنم إذا رأى غيره يُعذب معه، ولن يُخفف من عذابه رؤيتُه امتلاءَ النار بغيره، أو رؤيته مَنْ فوقه في العذاب. وسبحان من لم يَنْسَ أن يذكر تلك الحالة النفسية التي سيكون عليها أهل النار والعياذ بالله، ويجب أن نحمده أنه بيَّن كل شيء، حتى نكون على بينة من أمرنا.

الفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: في الحديث ما كان من طاعة الصحابة لنبيهم ﷺ وعدم مخالفته أمره، ويتبين ذلك من:

١- اجتناب الناس للثلاثة الذين خُلفوا، طاعةً لأمر رسول الله، لقول كعب: (فاجتنبَنَا الناسُ)، وقوله: (وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد). حتى ابن عمه أحب الناس إليه، أبي قتادة، لم يرد عليه السلام، وناشده مرة ومرتين، ألست تعلم أني أحب الله ورسوله؟! فقال له في المرة الأخيرة: اللّٰه ورسوله أعلم، ولم يزد بكلمة. وهل إذا رد قتادة على كعب سمع النبي ﷺ ذلك؟! ولكنها التربية التي رباهم عليها النبي ﷺ على اليقين بأن اللّٰه يراهم ومطلع عليهم، فكانت طاعتهم لله ورسوله في السر والعلن، وفي المنشط والمكره.

٢- لما أمر الرسول ﷺ الثلاثة الذين خلفوا أن يعتزلوا نساءهم. ولا يقربوهن، استفسر كعب أولاً عن مقصود الرسول ﷺ بالاعتزال، هل يعني الطلاق؟ مخافة أن يكون قصده الطلاق، فلا يبادر به ويتأخر عن الطاعة، فلما علم أنه الاعتزال فقط، أمر امرأته أن تلحق بأهلها.

٣- في الحديث عظيم أسف وحزن الصحابة على ما يقع منهم من معصية اللّٰه ورسوله، يظهر ذلك من قول كعب: (أما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان)، وانظر ماذا قالت امرأة هلال بن أمية للرسول ﷺ: (واللّٰه ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا)، أي حزن هذا الذي يجعل صاحبه يبكي خمسين ليلة! لا يرقأ له دمع، ونحن في المعاصي ليلنا ونهارنا، لا أقول: لا نبكي ولا نأسف، بل أقول: لا يتغير لنا

وجه، ولا يحزن لنا قلب، ولا نلقي بالاً بما نفعل، بل نشعر أننا أعبد خلق اللَّه وأتقاهم له! أين الحزن والبكاء؟! أين الإنابة والتوبة؟! أين الخشية والرهبة؟! أأمنا مكر اللَّه إلى هذا الحد؟! أفلا نتوب إلى اللَّه ونستغفره، ونحدث بعد الذنب توبة. نرجو رحمة اللَّه ونخشى عقابه، ونستذكر دائمًا قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ [المطففين: ٤].

الفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وهي فائدة جليلة، تتلخص في أهمية الرأي العام في المجتمع المسلم، وتأثيره على أهل المعاصي، وأن هذا أبلغ بكثير من إيداعهم السجن، الذي يُخرج المجرمين وأصحاب السوابق، ويُعَلِّم كل رذيلة، انظر ماذا فعل الرسول بكعب وصاحبيه، حبس الناس كلهم عنهم فكانوا بحق في سجن كبير، لا يكلمهم أحد ولا يلقي السلام عليهم أحد، لم يقاطعوهم فقط بل تغيروا لهم، يقول كعب: (فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا)، وانظر أثر ذلك في نفس كعب قال: (حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف)، ولما أعرض عنه أحب الناس إليه، ماذا فعل؟ يقول: (ففاضت عيناي)، أرأيت أثر الرأي العام في المجتمع النبوي، وأؤكد أنه ما استشرى الظلم ولا كثرت الفواحش، ولا عم الفساد، إلا بسبب أن وجوه المسلمين لا تتغير لأهل المعاصي، ولو تغيرت لتَغير حالنا إلى أحسن حال، وهذا مطلوب منا شرعًا، وفي الحديث أيضًا مشروعية عدم إلقاء السلام على أهل المعاصي، على تفصيل عند العلماء.

الفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: في الحديث ما عليه الكفار من الحرص على إضلال المسلمين، وتحين كل فرصة لذلك، حتى لو اصطادوا في الماء العكر، ويجب علينا أن لا ننخدع بقولهم المعسول، فنكون قد كذبنا اللَّـه وصدقناهم، فاللَّه يقول: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨]. فماذا يدفع ملكًا من ملوك الأرض أن يكتب إلى أحد من المسلمين في ظروف كهذه؟ يذكره بما يلاقيه من جفاء النبي ﷺ، وهوانه على الناس، ورغبة الملك في اللحاق به فقال له: (فالحق بنا نواسك)، وما أشبه الليلة بالبارحة، يذهبون لفقراء المسلمين، يغرونهم بالمال في المجاعات ليرتدوا عن إسلامهم، ويمنحون أوائل الطلاب والنوابغ منهم في العلم، المنح الدراسية المجانية، فيذهب أولاد المسلمين إليهم في عقر دارهم، في سن مبكرة، يتشربون منهم عاداتهم ويأخذون عنهم تقاليدهم، ويرجعون إلى أهليهم بأسوأ حال - إلا من رحم اللَّه - والعجيب أن بعض تلك المنح تفرض على الفتاة المسلمة أن تنزل ضيفة على أسرة غير مسلمة، بحجة أن تتعلم اللغة الأجنبية، وكثير منهم لا يعودون إلى بلادهم بعد انتهاء دراستهم، فهي بحق محن وليست منحًا،

ويكون نبوغهم نقمة بعد أن كان نعمة .

الفَائِدَةُ السَّابِعَةُ : في الحديث ما كان عليه الصحابة رضي اللَّه عنهم، من حب لله ورسوله، يتبين ذلك من خروج كعب إلى مسجد رسول الله ﷺ، ويسلم عليه، ويتمنى في نفسه أن يحرك الرسول شفتيه تحريكًا فقط برد السلام، بل ينظر إليه في خفية حبًا لرؤية الرسول ﷺ يقول كعب: (فأسارقه النظر)، ويفعل ذلك كعب وهو في الصلاة، كل ذلك لحبه النبي ﷺ وهو الذي أمر الناس أن يعتزلوه، فلا يردوا عليه حتى السلام، هل تغير قلب كعب من الرسول ﷺ؟ لا والله، بل يذهب إلى ابن عمه فيسأله: (هل تعلمني أحب اللَّه ورسوله؟)، لم يسأله عن إيمانه أو طاعته لله ورسوله، بل سأله عن ما هو أعظم وأخص من الإيمان والطاعة، ألا وهو الحب، يريد من ابن عمه كلمة يطمئن بها على ما هو عليه من الحب لله ورسوله، هذا هو الفارق بيننا وبين الصحابة .

الفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ : الثبات على العزيمة والرشد، في أشد الظروف وأحلكها، فهذا ملك غسان يرسل - بنفسه - كتابًا إلى كعب، يذكره بما هو فيه ويغريه بما يمكن أن يكون فيه، في وقت قد ضاقت عليه الأرض بما رحبت، فماذا فعل كعب؟، هل شاور نفسه؟ هل فكر في أمره؟ انظروا ماذا فعل في كتاب ملك غسان، لقد حرقه لتوه، لماذا؟ حتى لا تسول له نفسه أن يقرأه مرة أخرى، فيدخل عليه الشيطان ويزين له ما فيه، ونتعلم من ذلك أننا يجب أن نتخلص من كل شيء قد يجرنا إلى معصية اللَّه ورسوله، بإتلافه أو إحراقه، فهذا من العزيمة الصادقة، وحسن التوبة إلى الله، بل من شروط صحة التوبة، وأتعجب من الذين يحتفظون بأشياء كالصور والمذكرات، التي فيها ما لا يرضي اللهَ ورسوله، بحجة أنها من الذكرى أو الذكريات، أقول لهم: هذا من تلبيس إبليس، أفلا يكون لكم في كعب أسوة وعبرة؟!.

الفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ : في الحديث بيان ما يصيب المؤمن من فرح وسرور من توبة اللَّه عليه، يتبين ذلك مما يلي:

١- سجود كعب بن مالك شكرًا لله لما سمع صوت الصارخ من أعلى الجبل يبشره، وفي ذلك مشروعية سجود الشكر عند نزول النعم، وكذا عند رفع النقم.

٢- سمى كعب التوبة فرجًا قال: (وعرفت أن قد جاء الفرج).

٣- إهداء كعب بن مالك ثوبيه، الذي لا يملك غيرهما، للذي بشره، واستعار ثوبين غيرهما يخرج بهما.

٤- تصدق كعب بن مالك بكل ماله - إلا سهمه بخيبر - تعبيرًا عن فرحه بتوبة اللَّه عليه، وشكره على ذلك وكان يريد ابتداءً أن يتصدق بكل ماله، لولا مراجعة الرسول له.

هذا الذي يجب أن يفعله العبد، إذا تاب اللَّه عليه، الصدقة والهدية والسجود شكرًا لله، وما فعل كعب كل ذلك، إلا لعلمه بشؤم المعصية، وتضرره بها في الدنيا والآخرة، فكان فرحه بالتوبة، يوازي غمه بالمعصية، وقرب النبي ذلك المعنى لكعب ليشعر بعظيم فضل اللَّه عليه، بقوله: «**أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك**»، يسأل سائل: علم كعب توبة اللَّه عليه بنزول الوحي على رسول اللَّه ﷺ، أما نحن فقد انقطع الوحي فكيف نعرف ذلك؟.

أقول باختصار: علامات قبول توبة اللَّه عليك تعرفها من نفسك، وما صرت إليه بعد التوبة، فإذا تركت أصحاب السوء الذين يأمرونك بمعصية الله، وتركت المكان الذي عصيتَ اللَّه فيه، وكرهت أن تتكلم عن هذه المعصية أو يذكرك بها أحد، وإذا أقبلت على طاعة الله، وشعرت في قلبك بفرح ترك المعاصي، والإقبال على الله، رجوتَ قبول اللَّه توبتك، وعليك أن تفرح بها بأن تتصدق وتسجد لله شكرًا كما فعل كعب رضي الله عنه.

الفَائِدَةُ العَاشِرَةُ: على جماعة المسلمين أن يفرحوا بتوبة أخيهم المسلم، ورجوعه إلى حظيرة الطاعة، كما رأينا ذلك جليًا في موقف الصحابة من كعب رضي الله عنهم أجمعين ويتبين ذلك من:

١- مسارعة الصحابة لإعلام كعب بتوبة اللَّه عليه، حتى إن المبشر وقف على أعلى الجبل ينادي بأعلى صوته: (يا كعب بن مالك أبشر)، ومن شدة فرحته، ما استطاع الانتظار إلى أن يقترب من كعب، فناداه قبل أن يلقاه.

٢- ذهاب الصحابة أفواجًا، يهنئون كعبًا وصاحبيه رضي الله عنهم، حتى إن طلحة بن عبيد الله لما رأى كعبًا يدخل المسجد هرول إليه، ولم ينتظر مقدم كعب إليه، ويستفاد منه: جواز القيام إكرامًا لأصحاب الفضل والخير، خاصة في مناسبات الخير، والممنوع شرعًا: أن نقف لمن يحب ذلك، و يطلبه من الناس، أو أن يعتاد الناس أن يقفوا لأحد الكبراء كلما دخل وخرج في المجلس الواحد.

٣- سرور الرسول البالغ بتوبة اللَّه على عبده، حتى استنار وجهه كأنه قطعة قمر.

٤- هذا الفرح الواضح من جماعة الصحابة بتوبة اللَّه على كعب وصاحبيه، إنما يدلنا

على أن تغير وجوههم لهم قبل التوبة، إنما كان لله -عز وجل- ولم يكن لشيء في قلوبهم، كحسدهم على بقائهم في المدينة، أو لأنهم لم يعانوا مما عانى منه بقية الصحابة، من مكابدة الحر، ومشقة السفر، ويجب علينا جميعًا أن نتنبه لذلك، وأن نتأكد من أنفسنا لماذا نُبْغِض فلانًا؟ هل هذا البغض لمعصيته؟، أم أنها كانت فرصة لإخراج ما في القلب من الغل والحسد؟.

وإذا سأل سائل: كيف أتأكد أني أبغض فلانًا لله، وليس لحقد في قلبي؟

أقول له: إذا بذلت ما في وسعك لنصحه، وحزنت لحاله، ودعوت الله له في ظهر الغيب أن يهديه ويتوب عليه، ولم تفضحه بين الناس، بأن تقول - مثلاً - لكل من تراه: هدى الله فلانًا فإنه على خطر، تريد فقط أن تشنع به، إذا فعلتَ ما ذكر، فيرجى لك أن يكون غضبك لله.

الفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: تعظيم الصحابة لما ينزل من عند الله، ثم ما يكون من عند النبي، علمنا ذلك من قول كعب - لما بشره النبي ﷺ بالتوبة -: (أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «لا، بل من عند الله»، فسؤال كعب عن مصدر التوبة - وهو في تلك الحالة - يدل على أنها تختلف عنده، كونها من عند الله أم من عند رسول الله، ولذلك أجابه رسول الله، ليجعل فرحه أكبر وأكبر، قال: «بل من عند الله» ولو كان الأمر لا يختلف في الشرع، لقال النبي ﷺ موجهًا ومعلمًا له: (من عند الله مثل من عند رسول الله)، أو قال له: (الأمر سواء)، وهذا الذي جعل عائشة رضي الله عنها تستعظم أن تنزل براءتها بقرآن من عند الله، ولكن يجب التنبيه إلى أن الصحابة مع تعظيمهم لما ينزل من عند الله، ما كانوا يفرقون بين أمر الله وأمر الرسول، في الأمر والنهي، وكل أمور الشرع لأن طاعتهم لرسول الله إنما هي بأمر الله -عز وجل- ووحيه، قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٤]، وقال - سبحانه وتعالى -: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

الفَائِدَةُ الثَّانِيةُ عَشْرَةَ: من الحكمة أن يتعلم المسلم، ويأخذ العبر والدروس من كل محنة تصيبه، أو نازلة تحيط به، حتى لا يخرج من المحن والابتلاءات صِفْر اليدين، لم يتعلم شيئًا، فهذا كعب لما رأى أن الصدق قد نجاه وصاحبيه، وأن الكذب قد أهلك من عداهم، بل نزل فيهم قرآن يفضحهم، أقول: لما رأى ذلك عزم أن لا يكذب طيلة حياته، وجعل صدقه داخلا في توبته، قال كعب: (إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا

صدقًا ما بقيت). وأظن أنه جعل الصدق جزءًا من توبته، وذلك بيْن يدي رسول الله ﷺ حتى لا يتجرأ على الكذب أبدًا، فكأنما عاهد الله ورسوله على ذلك.

الفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: في الحديث ما يجب أن يكون عليه المسلم، من الدعاء لله والتضرع إليه بأن يثبته على الحق، وينجيه من المعاصي والآثام، وألا يركن إلى سَبْقه للإسلام، أو الصحبة التي هي أعظم الأعمال الصالحة، انظر إلى كعب رضي الله عنه مع ما ثبت عليه من الصدق، منذ أن عاهد الله -عز وجل- عليه، وعلم من نفسه الثبات عليه، وأبلغنا بذلك صريحًا في الحديث، إلا أنه لما تكلم عن الصدق فيما يستقبل من الأمور، يقول بصيغة دعاء المفتقر إلى الله: (وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت)، وهكذا يجب أن يكون سلوك كل مؤمن، في كل أموره الدينية والحياتية.

الفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: على الشيوخ وأهل العلم، أن يبينوا مراد الله ورسوله من القرآن والسنة أبلغ بيان يزيل اللبس والاشتباه الذي قد يقع للناس، خاصة العوام، وألا يظن الشيوخ أن العوام سيفهمون الآيات مثل فهمهم، والدليل من الحديث، أن البعض قد يعتقد أن معنى ﴿خُلِّفُوا﴾ في الآية. أي: تخلفوا عن رسول الله في الغزو، ولما كان هذا المعنى خطأ وقد يتبادر إلى ذهن قارئ القرآن، فقد بيَّنَ كعب أن المقصود بالتخليف إرجاؤهم حتى يقضي الله فيهم أمرًا، وقد علمنا الله -عز وجل- دفع الاشتباه والالتباس، ومن أمثلة ذلك في القرآن: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١]، فقد يظن ظان أن إلحاق الذرية بالأب، قد يكون بأخذ بعض الأعمال الصالحة من الأب لرفع درجات الذرية لتلحق بأبيها، فأزالت الآية هذا الاشتباه، أنه لن ينقص من الأب أي عمل صالح، وإنما سيكون الإلحاق تفضلاً من الله -عز وجل- وسيلحق الأدنى بالأعلى.

ومن السنة ما رواه أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلاَلَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»[1].

الفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: في الحديث حكمة النبي ﷺ في الغزو وغيره، يبين ذلك قول كعب: (ولم يكن رسول الله يريد غزوة إلا وَرَّى بغيرها)، وقوله: (فَجَلَّى للمسلمين أمرهم

---

(١) مسلم، كتاب: العلم، باب: من سن سنة حسنة...، برقم (٢٦٧٤).

ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجهه الذي يريد)، وتظهر حكمته في أنه في كل غزوة يوري بغيرها ولا يُعْلِمُ أحدًا وجهته، فلا يعطي للعدو فرصة أن يتأهب ويستعد لملاقاته، ومن ثَمَّ يُفَوِّت، على العدو هذه الميزة.

وتظهر حكمته ﷺ أيضًا، في غزوة تبوك حيث أعلم الصحابة وجهته، ليأخذوا استعدادهم من كل وجه، لأن الغزو بعيد، والعدو كثير العدد والعدة. فكان من عظيم حكمته أن يُعْلِمَهم، ومن هنا تخلف الكثير من غير أولي الأعذار، ونتعلم من هذا الدرس النبوي، أنه ليس هناك قواعد ثابتة، يمكن أن نطبقها في جميع الأحوال، ومع جميع الناس، ولكن الحكمة أن نضع الأمور في نصابها، ونوازن بين مضار كل أمر وفوائده ونرجح بين الكفتين، فأيهما غلب حكمنا به، فالرسول ﷺ وازن في كل غزوة بين مصالح التورية بغزوة أخرى، ومضار التصريح، فترجح له مصالح التورية على مضارها، أما في غزوة تبوك فترجح له ﷺ مصالح التصريح على مضاره، وهكذا في كل الأمور.

ونجد في الحديث مثالاً آخر، وهو أن المعتاد من النبي خاصة مع أصحابه تقديم الرحمة لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، والأمثلة على ذلك كثيرة في السنة، وقد ذكرتُ شيئًا منها في مواضع كثيرة من هذا الكتاب، ولكن في الحديث الذي بين أيدينا، نرى أن النبي ﷺ استخدم أسلوب الشدة مع كعب وصاحبيه، فقد نهى الناس عن كلامهم، ورد السلام عليهم، وزاد الأمر أن أمرهم أن يعتزلوا نساءهم، ويستمر الأمر على هذا خمسين ليلة، يتعرضون للبلاء والامتحان، بل الفتنة في الدين، كخطاب ملك غسان لكعب، بالإضافة إلى اعتزال أهله، وهو في حال الشباب والقوة، وكل ذلك يدلنا على أنه ليس من الحكمة استعمال اللين وتقديم جانب الرحمة بصفة مستمرة، ولا تقديم جانب الشدة دائمًا، لكن الحكمة أن يكون لكل مقام مقال، ووزن الأمور بميزان دقيق، ووزن المصالح والمفاسد، وذلك بلا هوى، أو محاباة، أو مصالح شخصية.

الفَائِدَةُ السَّادِسَةُ عَشْرَةَ: نختم التعليق على هذا الحديث بفائدة عظيمة، وهي أننا يجب أن نربي أنفسنا على الإيمان بالله -عز وجل- وحسن الثقة به، والتوكل عليه، وتعظيم كل أوامر الدين والعمل بها، وذلك حتى نستطيع أن نخرج من المحن والابتلاءات، دون أن يتزعزع إيماننا أو يضعف يقيننا، وهذا ما حدث مع كعب، فقد تعرض للعديد من أنواع المحن، وخرج منها كلها أفضل حالاً وثباتًا ويقينًا مما دخل، وذلك لأن عنده رصيدًا من

الإيمان أَهَّلَه لذلك، أرأيت إلى المرأة المسلمة تظهر حب اللَّه ورسوله، تصوم النفل وتصلي الليل، حتى إذا مات لها حبيب، قالت ما لا يحبه اللَّه ورسوله، وشقت الجيوب، ولطمت الخدود، وخسرت الكثير من دينها، وكذلك الرجل، يكون حاله أحسن حال، فإذا تعرض لضيق اليد من بعد سعة، يمد يده للرشوة أو للسرقة، ويبرر ذلك لنفسه، يسقط من أول اختبار وهكذا، فعلى المسلم أن يربي نفسه، ويسأل اللَّه -عز وجل- الثبات في الأمر، فهو لا يعلم ما سيواجه من امتحان واختبار، وهو واقع لا محالة لقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢].

٢- جمال فمه ﷺ:

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الحديث الطويل الذي قيل فيه: إن النبي ﷺ طلق زوجاته، وفيه: (قلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ وَالْمُسْلِمُونَ يَنْكُتُونَ بِالْحَصَى يَقُولُونَ: طَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نِسَاءَهُ، أَفَأَنْزِلُ فَأُخْبِرَهُمْ أَنَّكَ لَمْ تُطَلِّقْهُنَّ؟ قَالَ: «نَعَمْ إِنْ شِئْتَ». فَلَمْ أَزَلْ أُحَدِّثُهُ حَتَّى تَحَسَّرَ الْغَضَبُ عَنْ وَجْهِهِ، وَحَتَّى كَشَرَ فَضَحِكَ، وَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ ثَغْرًا)(١).

الشَّاهِدُ فِي الْحَدِيثِ:

قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (وحتى كشر فضحك وكان من أحسن الناس ثغرًا)، ومعنى: (وحتى كشر فضحك)، أي: أبدى أسنانه.

فكان النبي ﷺ أحسن الناس ثغرًا (أي فمًا)، ومن لوازم جمال الفم، جمال الشفتين والأسنان، فبهما يكتمل جمال الفم، كما أن أي عيب بهما يؤثر على جمال الفم، وعلمنا أيضًا أن جمال فمه ﷺ كان مُلاحَظًا حتى في حال ضحكه، بل أظن أنه كان يتلألأ جمالاً أكثر في حال ضحكه، لأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذكر جمال الثغر بمناسبة ذكر ضحكه ﷺ فقال: (فضحك وكان من أحسن الناس ثغرًا).

فإن قال قائل: لماذا ذكرت في كتابك جمال وجه النبي ﷺ وجمال فمه، وطيب عرقه وبرودة كفيه، وجعلت جماله من الشمائل النبوية، فماذا سنستفيد منها؟

قلت: معرفة جميع ما يخص النبيَّ ﷺ هو من الدين، ومن العلم النافع، ولولا ذلك ما ذكرها الصحابة ولما تناقلوها وحفظوها بكل هذا التفصيل، و لما ذكرها أصحاب الصحاح

(١) مسلم، كتاب: الطلاق، باب: في الإيلاء واعتزال النساء برقم (١٤٧٩).

في كتبهم وبوَّبوا لها فصولاً وأبوابًا، وتناولها العلماء بالشرح والبيان.

أما الفائدة التي تعود على المسلم من معرفتها، **فأقول**: إننا نتقرب إلى اللَّه -عز وجل- بحب النبي ﷺ ومما يساعد على حبه، معرفة كل شمائله الخِلْقية والخُلُقية، لأن الإنسان لا يحب أحدًا إلا إذا كان يعرفه تمام المعرفة، ثم إن معرفة الجمال الذي كان عليه النبي ﷺ يساعد على حبه من جهتين:

الجهة الأولى: أن الإنسان بطبعه يحب من اتصف بالحسن والجمال.

الجهة الثانية: محبته أكثر إذا علمنا أن اللَّه -عز وجل- هو الذي حباه بهذا الجمال، وهو دليل على حب اللَّه - سبحانه وتعالى - لنبيه ﷺ.

فإن قال قائل: كم من الذين يبغضهم اللَّه - سبحانه وتعالى - قد حباهم بجمال عجيب، فهل هذا دليل على أنه يحبهم؟ قلت: جمال النبي ﷺ لا يكون إلا عن حب من اللَّه -عز وجل- له، والأدلة على ذلك متوافرة:

١- كان جماله ﷺ مقرونًا بالإجلال والإكبار، لقول عمرو بن العاص رضي الله عنه: (وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له ولو سئلت أن أصفه ما أطقت)[(١)].

٢- استمرار هذا الجمال معه إلى يوم وفاته ﷺ والمعروف أن الناس، خاصة أهل الكفر والشقاق، يذهب عنهم جمالهم بكبر سنهم وطول أعمارهم، خاصة عند الوفاة، وقد مر قريبًا ما ورد في الصحيحين من حديث أنس قال رضي الله عنه واصفا وجه النبي ﷺ يوم وفاته: (كأن وجهه ورقة مصحف).

٣- اقترن جماله ﷺ بأمور أخرى زادته جمالاً على جماله، وحسنًا على حسنه ولم يشترك مع النبي ﷺ في هذه الصفات أحد من الناس أبدًا، فعلمنا أن هذه الصفات لا تكون إلا من اللَّه -عز وجل- بل هي من علامات نبوته التي أيده اللَّه - سبحانه وتعالى - بها وأقصد بهذه الصفات جمال عَرَقه، ورائحة جسده الزكية، وليونة كفيه ﷺ حتى إنهما كانتا ألين من الحرير والديباج.

وأقول: إن اتصاف النبي ﷺ بهذه الصفات الجسمانية هي من أعظم دلائل نبوته؛ لأن اللَّه - سبحانه وتعالى - بمقتضى عدله وحكمته، لم يكن ليمنحها لأحد يدعي - حاشا لله - أنه نبي، فتكون هذه الصفات فتنة للناس، وحجة لهم على الله، فيقولون في

(١) مسلم، كتاب: الإيمان، باب: كون الإسلام يهدم ما قبله...، برقم (١٢١).

حجتهم : إننا ما اتبعناه وصدقناه وآمنا به إلا بعد رؤيتنا ما خصه اللَّه من الصفات التي لم ينازعه فيها أحد أبدًا . وأضيفُ أن اختصاص اللَّه - سبحانه وتعالى - نبيه ﷺ بهذه الخصال الجميلة ، لا تدل فحسب على حب اللَّه لنبيه ﷺ ولكن تدل أيضًا على حب اللَّه -عز وجل- لهذه الأمة ؛ لأن المعجزات الحسية والمعنوية ، التي كانت في شخص النبي أو تحققت على يده ﷺ تقوي إيمان العبد وتزيد حبه لرسول الله ﷺ .

٣- جمال صوته وحُسْنه ﷺ:

عن الْبَرَاء بْن عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ : (سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ فِي الْعِشَاءِ بِالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ، فَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا مِنْهُ)(١) .

كما جمل اللَّه كل شيء في النبي ﷺ - كما ذكرت ذلك في عدة مواضع من الكتاب - فقد جمَّل له صوته ، فما كان أحد من الصحابة أحسن صوتًا منه ، كما قال البراء بن عازب في حديث الباب ، ولا تكتمل أبدًا منظومة الجمال إلا بحسن الصوت ، فإنك لو رأيت رجلاً جميلاً في كل شيء ، إلا أن صوته مزعج أو نشاز ، فإنك ستُذْهل عن جماله لقبح صوته ، وتتمنى لو سكت عن الكلام .

وأعتقد أن حسن صوت النبي ﷺ كان مِنَّة من اللَّه عليه وعلى أمته ، لأنه ﷺ كان كثيرًا ما يقرأ عليهم القرآن في المجالس تعليمًا وتلقينًا ، ويتلوه عليهم في الصلوات ويطول في القراءة جدًا ، فبقدر ما يكون معلمُ الناسِ القرآنَ جميلَ الصوت بقدر ما يأخذ بألباب الناس وعقولهم .

كما يؤخذ من الحديث أيضًا حرص الصحابة رضي الله عنهم على مراقبة كل ما يخص النبي ﷺ وإبلاغه للأمة من بعدهم حتى صوته ﷺ فجزاهم اللَّه عنا خيرًا .

٤ - ضحكه ﷺ

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ : بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا ، فَقُلْنَا : مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ : «أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُـــورَةٌ، فَقَرَأَ : ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: ١-٣]،

---

(١) البخاري، كتاب: الأذان، باب: القراءة في العشاء، برقم (٧٦٩)، مسلم، كتاب: الصلاة، باب: القراءة في العشاء، برقم (٤٦٤).

ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟» فَقُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي -عز وجل- عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ، فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ. فَأَقول: رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي. فَيَقُولُ: مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ».

الشَّاهِدُ فِي الْحَدِيثِ:

قول أنس رضي الله عنه: (ثم رفع رأسه متبسمًا فقلنا ما أضحكك يا رسول الله).

وقد بوبت للضحك بابًا لأبين أمرين:

الأول: أن الضحك لا يتنافى مع تقوى الإنسان وخوفه من ربه - سبحانه وتعالى - بل هو من نعم الله على عباده، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝٤٣﴾ [النجم: ٤٣].

الثاني: أن جُلَّ ضَحِكِ النبي ﷺ كان تَبَسُّمًا، وكان نادرًا ما يضحك حتى تبدو نواجذه، وهي سمة الأنبياء، ألم تر ماذا فعل سليمان عليه السلام، لما سمع قول النملة؟!، ما زاد على التبسم، قال تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ [النمل: ١٩].

قال الشيخ السعدي رحمه الله كلامًا جميلاً ونفيسًا أنقله بالنص: (تبسم سليمان عليه السلام إعجابًا منه بفصاحتها ونصحها وحسن تعبيرها وهذا حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الأدب الكامل والتعجب في موضعه وأن لا يبلغ بهم الضحك إلا إلى التبسم كما كان رسول الله ﷺ جل ضحكه التبسم، فإن القهقهة تدل على خفة العقل وسوء الأدب، وعدم التبسم والعجب مما يُتَعَجَّب منه يدل على شراسة الخلق والجبروت، والرسلُ منزهون عن ذلك)[1].

وسيأتي الكلام مبسوطًا - إن شاء الله - عن بقية الحديث في باب [الكوثر].

٥ - قوته البدنية ﷺ:

عن جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: (إِنَّا يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَحْفِرُ، فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ[2] شَدِيدَةٌ، فَجَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الْخَنْدَقِ. فَقَالَ: «أَنَا نَازِلٌ»، ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ، وَلَبِثْنَا ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ لاَ نَذُوقُ ذَوَاقًا، فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ الْمِعْوَلَ، فَضَرَبَ فَعَادَ كَثِيبًا أَهْيَلَ أَوْ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦٠٣).

(٢) كدية: قطعة غليظة صلبة من الأرض لا يعمل فيها الفأس، الكثيب: تل من الرمل، الأثافي: الأحجار التي يكون عليها القدر، تضاغطوا: تزاحموا.

أَهْيَمَ. فقلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي إِلَى الْبَيْتِ. فَقُلْتُ لامْرَأَتِي: رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا مَا كَانَ فِي ذَلِكَ صَبْرٌ فَعِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: عِنْدِي شَعِيرٌ، وَعَنَاقٌ فَذَبَحَتِ الْعَنَاقَ وَطَحَنَتِ الشَّعِيرَ حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي الْبُرْمَةِ، ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَالْعَجِينُ قد انْكَسَرَ، وَالْبُرْمَةُ بَيْنَ الأَثَافِيِّ قَدْ كَادَتْ أَنْ تَنْضَجَ. فقلت: طُعَيِّمٌ لِي فَقُمْ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلاَنِ. قَالَ: «كَمْ هُوَ؟» فَذَكَرْتُ لَهُ. قَالَ: «كَثِيرٌ طَيِّبٌ». قَالَ: «قُلْ لَهَا: لاَ تَنْزِعِ الْبُرْمَةَ، وَلاَ الْخُبْزَ مِنَ التَّنُّورِ حَتَّى آتِيَ». فَقَالَ: «قُومُوا»، فَقَامَ الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ قَالَ: وَيْحَكِ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَمَنْ مَعَهُمْ! قَالَتْ: هَلْ سَأَلَكَ؟ قلت: نَعَمْ. فَقَالَ: «ادْخُلُوا وَلاَ تَضَاغَطُوا»، فَجَعَلَ يَكْسِرُ الْخُبْزَ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ، وَيُخَمِّرُ الْبُرْمَةَ وَالتَّنُّورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ، وَيُقَرِّبُ إِلَى أَصْحَابِهِ ثُمَّ يَنْزِعُ، فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ الْخُبْزَ، وَيَغْرِفُ حَتَّى شَبِعُوا، وَبَقِيَ بَقِيَّةٌ. قَالَ: «كُلِي هَذَا، وَأَهْدِي فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ»(١).

الشَّاهِدُ فِي الْحَدِيثِ:

أن الصحابة ﭬ عند قيامهم بحفر الخندق حول المدينة في غزوة الأحزاب، عجزوا عن كسر وتفتيت قطعة صلبة من الأرض حيث إن الفأس لا يؤثر فيها لشدتها، فجاءوا إلى النبي ﷺ كأنهم يستنجدون به من المأزق الذي وقعوا فيه، فنزل النبي ﷺ وأخذ الفأس وضرب الصخرة، فتحولت إلى تل من الرمال، مع العلم بأن النبي لبث ثلاثة أيام لا يذوق طعامًا، مما يجعله في أشد حالات الضعف، ومما يدل على قوته ﷺ وكمال رجولته، ما رَوَى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدُورُ(٢) عَلَى نِسَائِهِ فِي السَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُنَّ إِحْدَى عَشْرَةَ. قَالَ: قُلْتُ لِأَنَسٍ: أَوَكَانَ يُطِيقُهُ؟! قَالَ: كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّهُ أُعْطِيَ قُوَّةَ ثَلاَثِينَ)(٣).

وفي الحديث فوائد منها:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أخلاق النبي ﷺ العالية، ويظهر ذلك في كونه لم يؤثر نفسه بطعام ولا بشراب مخصوص، دون بقية العسكر - مع أنه القائد - بل ربط الحجر على بطنه، ثلاثة أيام من الجوع، وما امتنع عن العمل وهو القائد لجوعه الشديد، بل اشترك معهم في العمل،

---

(١) البخاري، كتاب: المغازي، باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب برقم (٤١٠١).

(٢) يدور على نسائه: يجامعهن.

(٣) البخاري، كتاب: الغسل، باب: إذا جامع ثم عاد...، برقم (٢٦٨).

وأي عمل، العمل الذي عجزوا عنه جميعًا، وكان يشجعهم ويدعو لهم وهم ينقلون التراب عند حفر الخندق، كما ورد عن أَنَسٍ رضي الله عنه قال: كَانَتِ الأَنْصَارُ يَوْمَ الخَنْدَقِ تَقُولُ: نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدًا عَلَى الجِهَادِ مَا حَيِينَا أَبَدًا، فَأَجَابَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ لاَ عَيْشَ إِلاَّ عَيْشُ الآخِرَهْ فَأَكْرِمِ الأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَهْ»(١).

وهذه هي الأخلاق التي يجب أن يتحلى بها كل قائد.

والذي يؤكد ذلك من الحديث أن جابرًا لما صنع طعامًا، ودعا النبي ومعه رجل أو رجلان، صاح الرسول بنفسه على أهل الخندق، ودعاهم إلى مشاركته في الطعام، وما هو الطعام الذي يكفي هذا الجيش؟ إنها عناق وشعير، ترى ماذا يغني هـذا، ولكنها بركته ﷺ وأمثلة إيثاره وبركته كثيرة في السنة، ذكرت طرفًا منها في باب تكثير الطعام والشراب.

الفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أدب الصحابة مع النبي، وامتثالهم لأمر الله -عز وجل- في قوله: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢]، فإن جابرًا أراد أن يذهب ليصنع للرسول طعامًا، لا لحاجة لنفسه، ومع ذلك استأذن قبل الذهاب.

الفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: حرص الصحابة على متابعة أحوال النبي، والاهتمام به، إذ لاحظ جابر أن النبي ﷺ يحتاج إلى طعام وهذا يدلك على بشرية النبي، وأنه يشعر بالجوع كبقية البشر، ولكنه يتحلى بالصبر والجلد والمثابرة، ويتحمل ما لا يتحمله غيره.

الفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: حرص الصحابة على حسن ضيافة النبي وإدخال السرور عليه، إذ بادرت زوجة جابر على ذبح العناق، والسياق يشعر أنه ما كان عندها غيره إذ قالت: (عندي شعير وعناق)، وهذا العمل ليس بالأمر السهل، إذ إن الله -عز وجل- قد أثنى على إبراهيم عليه السلام، وعلى حسن ضيافته لأضيافه في موضعين من القرآن الكريم، قال تعالى في أحد الموضعين: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الذاريات: ٢٦]، وهذا هو الذي فعلته زوجة جابر، فانظروا إلى تربية القرآن الكريم وكيف أنهم عملوا بما علموا.

والغريب أن جابرًا كان يريد أن يؤثر النبي بالعناق فلا يشاركه فيها أحد حيث قال له: (فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان)، حتى امرأته كانت تتمنى أن يأكل النبي حتى

---

(١) البخاري، كتاب: المناقب، باب: دعاء النبي ﷺ، أصلح الأنصار والمهاجرة، برقم (٣٧٩٥). ومسلم كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة الأحزاب وهي الخندق برقم (١٨٠٤).

يشبع، ولا يشاركه أحد، و لما علمت أن أهل الخندق قد دُعُوا كلهم جميعًا غضبت من زوجها، وظنت أنه لم يخبر النبي بقلة الطعام.

الفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بركة بصق النبي في الطعام وبركة دعائه، مع أن البصق يتعففه الناس، ولكن الصحابة لم يكونوا يتعففون من شيء يخص النبي؛ لعلمهم ببركته حتى النخامة.

٦. نسيانه ﷺ:

عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلاً يَقْرَأُ فِي الْمَسْجِدِ. فَقَالَ: «رَحِمَهُ اللَّهُ، لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا آيَةً أَسْقَطْتُهُنَّ مِنْ سُورَةِ كَذَا وَكَذَا»، وَزَادَ عَبَّادُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ عَائِشَةَ: (تَهَجَّدَ النَّبِيُّ ﷺ فِي بَيْتِي، فَسَمِعَ صَوْتَ عَبَّادٍ يُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ. فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ أَصَوْتُ عَبَّادٍ هَذَا؟» قلت: نَعَمْ. قَالَ: «اللَّهُمَّ ارْحَمْ عَبَّادًا»(١).

الشَّاهِدُ فِي الحَدِيثِ: قوله ﷺ: «رحمه الله لقد أذكرني كذا وكذا آية أسقطتهن من سورة كذا وكذا». وقد أردت بهذا الباب إثبات (نسيانه ﷺ)؛ لبيان أنه ﷺ كان يعتريه ما يعتري البشر، من صفات النقص البشري، وهو النسيان، وأن هذا ليس عيبًا فيه ﷺ لأنه لا يؤثر على تبليغه شرع الله - سبحانه وتعالى - وأنه ﷺ يشارك البشر في كل صفات البشرية، إلا ما ورد الدليل على اختصاصه بعكس تلك الصفة، مثل: رؤيته مِنْ خلف ظهره، وعدم نوم قلبه، وغير ذلك مما ورد في مواضع كثيرة متفرقة في هذا الكتاب وغيره، وليس هذا هو الموضع الوحيد الذي ثبت فيه نسيانه ﷺ بل هناك مواضع أخرى، فقد ورد أنه ﷺ خرج إلى الصلاة، يؤم الناس ثم تذكر أنه جنب، فدخل فاغتسل وانتظره الصحابة على هيئتهم - أي وقوفًا - قد اعتدلت صفوفهم حتى خرج إليهم ﷺ بعدما اغتسل، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ، وَقَدْ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، وَعُدِّلَتِ الصُّفُوفُ حَتَّى إِذَا قَامَ فِي مُصَلَّاهُ انْتَظَرْنَا أَنْ يُكَبِّرَ انْصَرَفَ قَالَ: عَلَى مَكَانِكُمْ، فَمَكَثْنَا عَلَى هَيْئَتِنَا حَتَّى خَرَجَ إِلَيْنَا يَنْطِفُ رَأْسُهُ مَاءً، وَقَدِ اغْتَسَلَ)(٢).

بعض فوائد الحديث:

الفَائِدَةُ الأُولَى: جواز نسيان النبي ﷺ بعض آيات القرآن الكريم، ولكن لا تمحى

---

(١) البخاري، كتاب: الشهادات، باب: شهادة الأعمى وأمره ونكاحه...، برقم (٢٦٥٥).

(٢) البخاري، كتاب: الأذان، باب: هل يخرج من المسجد لعلة، برقم (٦٣٩) ومسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: متى يقوم الناس للصلاة، برقم (٦٠٥).

بالكلية من قلبه، ودليله أن اللَّه - سبحانه وتعالى - قد تكفل بحفظ القرآن في قلبه ﷺ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾. ولكن هو النسيان الذي يعتري الحافظ، فإذا ذَكَّرَه أحد بالآية ذَكَرَها على الفور، أو قد ينساها في قراءته اليوم، ويتذكرها في قراءته من الغد دون أن يذكره أحد.

قال الإمام النووي في شرح مسلم: (فيه دليل على جواز النسيان عليه ﷺ فيما قد بَلَّغه إلى الأمة)، وقال القاضي عياض: (جمهور المحققين على جواز النسيان عليه ﷺ ابتداءً فيما ليس طريقه البلاغ، واختلفوا فيما طريقه البلاغ والتعليم ولكن من جوز قال: لا يُقَرّ عليه بل لا بد أن يَتَذكره أو يُذَكَّره)[1]، أي أنه لا بد أن يتذكره بنفسه أو يذكره اللَّه به.

الفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: جواز أن يقول المسلم إذا نسي آية من كتاب الله: «**أُنسيتُها**»، لما ورد في إحدى روايات الحديث عند مسلم «كنت **أُنسيتُها**» وإنما يكره قول: (نَسِيتُها)، لأن اللفظ الأخير يشعر بالتقصير والإهمال في مراجعة القرآن الكريم، وآيات القرآن شاهدة على الفارق بين اللفظين، فلما وقع النسيان من قبل فتى موسى من غير تقصير ولا إهمال، قال تعالى على لسان الفتى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣]، ولما وقع النسيان من الكافر عن تقصير وإهمال، قال تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٦].

الفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الزيادة التي وردت في الحديث من رواية عباد بن عبد اللَّه بن الزبير، وهو تابعي، تدل على أن الصحابي عباد بن بشر، هو الذي ذكرَّ النبي ﷺ بالآيات التي أسقطهن.

الفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: ما يعتقده البعض أن الدعاء بالرحمة لا يكون إلا للميت هو اعتقاد خاطئ، لدعاء النبي ﷺ لعباد بن بشر بقوله «اللهم ارحم عبادًا» ويجب علينا أن نستخدم هذا الدعاء للأحياء كما نستخدمه للأموات سواء بسواء، إحياءً للسنة، ولإبطال هذا المفهوم الخاطئ.

الفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: ما كان عليه النبي ﷺ من حب نفع أصحابه ورد الجميل لمن أسدى له معروفًا ولو لم يكن يقصد المسْدِي هذا المعروفَ، فالنبي ﷺ قد دعا لعبّاد بالرحمة، مع أن عبادًا لم يقصد أن يُذكر النبيَّ ﷺ ببعض الآيات، إنما كان يتهجد في المسجد بتلك الآيات.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٦/ ٧٦).

وفيه أيضًا حرص النبي ﷺ على تعليم الأمة، وعدم الاستحياء من الحق، وذلك بإقراره أنه أسقط بعض آيات القرآن الكريم، مع أن أحدًا من البشر لم يطلع على هذا الأمر.

ثانيا: جوانب من شخصيته ﷺ:

١- شرف نسبه ﷺ:

بَوَّبَ البخاري - رحمه اللَّه تعالى في صحيحه بقوله: (باب مبعث النبي ﷺ محمد بن عبد اللَّه بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان)، غير أنه لم يذكر حديثا في هذا الأمر.

عن وَاثِلَةَ بْنَ الأَسْقَعِ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»[(١)].

الشَّاهِدُ فِي الحَدِيثِ: قوله ﷺ: «إن اللَّه اصطفى كنانة من ولد إسماعيل».. إلى آخر الحديث، والاصطفاء هو الاختيار والتفضيل.

بَعْضُ فَوَائِدِ الحَدِيثِ:

الفَائِدَةُ الأُولَى: أن اللَّه - سبحانه وتعالى - يصطفي ويختار ويفضل من يشاء من العباد، فيرفع منزلتهم ويُعْلِي ذكرهم، كما فضل ما يشاء من أيام الأسبوع، وما يشاء من ساعات الليل، وأيضًا ما يشاء من شهور السنة على بقية الشهور، وهكذا.

الفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن كنانة وقريشًا وبني هاشم هم خير ولد إسماعيل والمصطَفَوْنَ منهم.

قال الإمام النووي: (استدل به أصحابنا [الشافعية] على أن غير قريش من العرب ليس بكفء لهم، ولا غير بني هاشم كفء لهم إلا بني المطلب، فإنهم هم وبنو هاشم شيء واحد، كما صرح به في الحديث الصحيح)[(٢)].

ويتفرع على ذلك؛ أن نسب النبي ﷺ من الأنساب المصطفاة على العالمين، لأن كنانة من ولد إسماعيل، وإسماعيل من ولد إبراهيم، عليهما الصلاة والسلام، واللَّه يقول في

(١) مسلم، كتاب: الفضائل، باب: فضل نسب النبي ﷺ، برقم (٢٢٧٦)
(٢) انظر شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/ ٣٦).

القـــرآن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: ٣٣].

الفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: عظيم عناية المولى – سبحانه وتعالى – بنبيه ﷺ حيث جعل نسبه خيارًا من خيار من خيار، وكان هذا من دلائل نبوته ﷺ لأن هرقل سأل أبا سفيان رضي الله عنه عن نسب النبي ﷺ ليتأكد من صدق نبوته، فلما أخبر بأنه ذو نسب، قال هرقل: (وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها)(١).

٢- إيثاره وجوده ﷺ:

لقد عرف التاريخ الكرم والكرماء وذاع صيت أهل الكرم حتى جاب الآفاق أمثال حاتم الطائي وغيره الكثير من كرماء العرب، لكن كل هذا يعتبر شبه سراب يتلاشى أمام كرم وجود حبيبنا رسول الله ﷺ فما عرف الزمان كرما أفضل من كرمه حتى وصفه بعضهم بأنه يعطي عطاء من لا يخشى الفقر.

الحديث الأول: عن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ)(٢).

الشَّاهِدُ فِي الْحَدِيثِ: قول ابن عباس – رضي الله عنهما –: (كان رسول الله ﷺ أجود الناس).

بَعْضُ فَوَائِدِ الْحَدِيثِ:

الفَائِدَةُ الأُولَى: في شمائل النبي ﷺ:

١- أنه كان أجود الناس على الإطلاق، لأن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: (أجود الناس)، فعلمنا أن أحدًا لم يكن أجود منه.

٢- عظيم جوده وبركته، وأنه يعم الناس جميعًا، من يتعرض له، ومن لا يتعرض له، لأن ابن عباس – رضي الله عنهما – وصف الخير الذي يأتي منه، بأكثر من الخير الذي تأتي به الريح المرسلة، والصحابة في زمانهم ومكانهم، ما كانوا يعرفون شيئًا أشد خيرًا من

---

(١) البخاري، كتاب: بدء الوحي، باب: بدء الوحي برقم (٧)، مسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: كتاب النبي ﷺ إلى هرقل، برقم (١٧٧٣).

(٢) البخاري، كتاب: بدء الوحي برقم (٦)، مسلم، كتاب: الفضائل، باب: كان النبي ﷺ أجود الناس، برقم (٢٣٠٨).

الريح، التي تأتي بالماء، رزق السماء، فيحيي به اللَّه الأرض، وبدون الريح التي تأتي بالماء يموت كل شيء، وعلمنا من قول ابن عباس - رضي اللَّه عنهما -: (فلرسول اللَّه ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة) أن جوده أشد خيرًا من الريح من كل الوجوه.

٣- تنوع عطاء وجود الرسول ﷺ لقول ابن عباس - رضي اللَّه عنهما -: (أجود بالخير) ولم يحدد أنواع هذا الخير، فعلمنا أنه كان ﷺ هو الأجود في كل أنواع الخير، فلم يقتصر جوده، على باب واحد من أبواب الخير، ولذلك فضَّل جوده عن الريح المرسلة، ولا غرابة في ذلك، فإذا كانت الريح تحيي الأرض الميتة، وتخرج النبات، فإن جوده ﷺ يُحيي القلوب والعقول، وهذا أعظم نفعًا من إحياء الأرض.

يتفرع على ذلك: أن الخير الذي يمكن أن يبذله المسلم، لا ينحصر في إنفاق المال، وأن الفقير لن يعجز أن يجود بالخير، لأن للخير أبوابًا كثيرة، كبذل الجاه في الشفاعة المحمودة والدعاء لعموم المسلمين وخاصتهم، وإعانة الضعيف، وتعليم الناس، وغير ذلك من أوجه الخير الكثيرة.

٤- شُكْرُ الرسول ﷺ لربه، في إنزال القرآن عليه، وإرسال الروح الأمين عليه السلام لمدارسته القرآن، وذلك لأن ابن عباس - رضي اللَّه عنهما - وضح أن سبب هذا الجود العظيم من النبي ﷺ أن جبريل كان يأتيه كل ليلة فيدارسه القرآن، وأظن أن هذا الجود كان من باب شكر المنعم.

ويتفرع على ذلك: ألا نلوم أهل الخير، إذا رأيناهم يجودون أكثر في رمضان، ولا نعتب عليهم أنهم لا يجودون بمثله سائر السنة، شريطة أن لا يمتنع أَصْلُ جودهم طول السنة، اتباعًا لسنة النبي ﷺ الذي كان يجود طول العام.

٥- الخير الذي كان في الأرض طوال مدة بعثة النبي ﷺ انقطع بوفاة النبي ﷺ وسبب هذا الخير هو اجتماع النبي ﷺ بجبريل عليه السلام كل ليلة من ليالي رمضان لمدارسة القرآن الكريم.

ويتفرع على ذلك أيضًا: أن أعظم ما ينبغي الاشتغال به في شهر رمضان المبارك، هو قراءة القرآن العظيم، وما يخدمه من علوم.

الحديث الثاني: عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه قَالَ: (جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِبُرْدَةٍ، فَقَالَ سَهْلٌ لِلْقَوْمِ: أَتَدْرُونَ مَا الْبُرْدَةُ؟ فَقَالَ الْقَوْمُ: هِيَ الشَّمْلَةُ. فَقَالَ سَهْلٌ: هِيَ شَمْلَةٌ مَنْسُوجَةٌ فِيهَا حَاشِيَتُهَا. فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَكْسُوكَ هَذِهِ؟ فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا فَلَبِسَهَا،

فَرَآهَا عَلَيْهِ رَجُلٌ مِن الصَّحَابَةِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَحْسَنَ هَذِهِ فَاكْسُنِيهَا. فَقَالَ: «نَعَمْ». فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ ﷺ لامَهُ أَصْحَابُهُ قَالُوا: مَا أَحْسَنْتَ حِينَ رَأَيْتَ النَّبِيَّ ﷺ أَخَذَهَا مُحْتَاجًا إِلَيْهَا ثُمَّ سَأَلْتَهُ إِيَّاهَا وَقَدْ عَرَفْتَ أَنَّهُ لاَ يُسْأَلُ شَيْئًا فَيَمْنَعَهُ. فَقَالَ: رَجَوْتُ بَرَكَتَهَا حِينَ لَبِسَهَا النَّبِيُّ ﷺ لَعَلِّي أُكَفَّنُ فِيهَا)[1].

الشَّاهِدُ فِي الحَدِيثِ: أن النبي ﷺ مع حاجته إلى البردة، كساها لأحد أصحابه بمجرد أن سأله إياها.

بعض فوائد الحديث:

الفَائِدَةُ الأُولَى: في الشمائل النبوية:

١- تقشفه ﷺ مع ما فتح اللَّه عليه من بلاد، ومع ما كان يأتيه من غنائم وأموال كثيرة، حتى إنه يحتاج إلى بردة، تهديها له امرأة، تكون له إزارًا، يقول الراوي واصفًا حال النبي ﷺ: (فأخذها النبي ﷺ محتاجًا إليها)، ومما يوضح شدة احتياجه إليها، قول الراوي: (فخرج إلينا وإنها إزاره)، أي أنه لبسها في نفس المجلس.

٢- تواضعه ﷺ ويتجلى ذلك في قبوله الهدية من امرأة، وإظهاره الاحتياج إليها، وارتدائها في نفس المجلس.

٣- إيثاره أصحابَه على نفسه، وأن تلك كانت عادَتَه، لقول الراوي: (ثم سألته وعلمتَ أنه لا يرد)، أي أن عدم رد السائل كان مسلكه دائمًا ﷺ، وتدبر أن النبي ﷺ قد خلعها للسائل بعد أن لبسها.

٤- رحمته وشفقته ﷺ بالسائل فيعطيه ولو كان ﷺ في حاجة لما يعطيه.

٥- زهده ﷺ في الدنيا وعدم خشيته الفقر، ورجاء ما عند الله، وحسن الظن به - سبحانه وتعالى - ومن ذلك ما رواه أَبو سَعِيدٍ الخُدْرِيّ ﷺ: (أَنَّ نَاسًا مِن الأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ، فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ، فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: «مَا يَكُونُ عِنْدِي مِن خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ»[2].

كما يتفرع عليه، أن من السُّنة، أن يعطي المسلم ويبذل ما عنده، ولو كان فقيرًا، لقوله

---

(١) البخاري، كتاب: الأدب، باب: حسن الخلق والسخاء...، برقم (٦٠٣٦).

(٢) البخاري، كتاب: الرقاق، باب: الصبر عن محارم الله...، برقم (٦٤٧٠)، مسلم، كتاب: الزكاة، باب: فضل التعفف والصبر، برقم (١٠٥٣).

تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، وعجبت أن النبي ﷺ كان يعطي وهو فقير، والرجل الآن لا يعطي وهو غني، حتى إن الرجل الآن، يبخل أن يرد السائل بالكلمة الطيبة، والله - تبارك وتعالى - يقول: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠]، وتأمل قول الراوي: (وقد عرفتَ أنه لا يُسْأل شيئًا فيمنعه) [وشيئًا]، هنا نكرة جاءت في سياق النفي، فتقتضي العموم، ومعناه لا يسأل عن صغير ولا كبير، يحتاج إليه أو لا يحتاج إليه إلا ويعطيه.

الفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: حب الصحابة للرسول ﷺ:

١- قامت المرأة بنسج البردة بيديها، ورد في رواية عند البخاري أنها قالت: (نسجتُها بيدي)، ولو كانت هذه صنعتها أو شيئًا من عادتها، لما قالت نسجتها بيدي.

٢- حضور المرأة بنفسها للرسول ﷺ لتقدم له البردة، ولم ترسلها مع أحد، وهذا فيه الأدب والحب، فقد ورد أيضًا عند البخاري: (فجئتُ لِأَكْسُوَكَها).

٣- توجيه الصحابة اللوم لمن سأل البردة، وما وجهوا اللوم إلا لأنهم وجدوا في أنفسهم حرجًا أن يُحرَم الرسول ﷺ من شيء هو في حاجة إليه، وهذا دليل على حبهم له.

الفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تعظيم الصحابة لكل ما لامس جسد الرسول ﷺ حيث إن السائل رغم حسن البردة وجمالها، ما طلبها ليلبسها، بل طلبها ليكفن بها، ولولا علم الصحابة بجواز ذلك، وأنها يمكن أن تنفعه في قبره لأنكروا عليه، ولو أنهم كانوا يجهلون المسألة أصلاً، لسألوا عنها النبي ﷺ، قال السائل: (رجوت بركتها حين لبسها النبي ﷺ لعلي أُكَفن فيها)، وعند البخاري: (قال سهل: فكانت كَفَنَه).

وتأمل أخي القارئ، قِصَرَ المدة التي لبس النبي ﷺ فيها هذه البردة، حتى يرجو السائل بركتها، لكنه علم أن هذه البركة تحدث بأدنى ملامسة من النبي ﷺ للبردة، أعلمتَ أخي القارئ مكانة النبي ﷺ عند ربه - تبارك وتعالى -، أن يجعل في كل ما يلامسه أعظم البركة، وأيضًا مكانته ﷺ عند أصحابه، ويقينهم بذلك.

ويتفرع على ذلك: تقديم الصحابة - رضي الله عنهم - أمر الآخرة على أمر الدنيا حيث إن السائلَ ادخر البردةَ للقبر والكفن، وفضل ذلك على ارتدائها في الدنيا، مع ملاحظة أن ارتداءها في الدنيا، فيه بركة أيضًا، ولكن حاجته إليها في القبر أشد وأظهر.

الفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: جواز التعريض، وأن فيه مندوحة عن الكذب، لقول السائل: (فاكْسُنيها)، ثم قال لما عتب عليه الصحابة، في رواية عند البخاري: (واللَّه ما سألته لألبسها إنما سألته لتكون كفني)، فجعل السائلُ الكفنَ للميت، بمثابة الكساء للحي، ولكن السامع يفهم من قوله: (فاكسنيها) أنه يريد لباسها في الدنيا، ولكن على المسلم أن يحذر التوسع في التعريض؛ لأنه يجر إلى صريح الكذب كما أن السامعين لا يصدقون حديث من يتوسع في التعريض ويتهمونه بالكذب والمسلم يجب أن يُنَزِّه عرضه عن هذا الاتهام الشنيع.

الفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: جواز التصرف في الهدية بإهداء أو بيع أو هبة، أو غير ذلك من التصرفات الجائزة شرعًا، وذلك أن الرجل بمجرد قبوله للهدية، فقد امتلكها، ولا يشترط في تصرفه فيها، الرجوع إلى المُهدِي، وعلى المُهدِي ألا يجد في نفسه حرجًا من تصرف المُهدَى إليه، ويتفرع عليه خطأ من يقول: الهدية لا تُهْدَى، ودلائل ذلك من السنة كثيرة، وقد ورد أن النبي ﷺ إذا جاءته الهدية قسمها بينه وبين أهل الصُّفّة.

٣- بذل غاية جهده ﷺ لشكر الله -عز وجل-

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُومُ مِن اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ. فَقَالَتْ عَائِشَةُ: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «أَفَلاَ أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا!»، فَلَمَّا كَثُرَ لَحْمُهُ صَلَّى جَالِسًا، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْكَعَ قَامَ فَقَرَأَ ثُمَّ رَكَعَ)(١).

الشَّاهِدُ فِي الحَدِيثِ: أن النبي ﷺ كان يصلي الليل حتى تتشقق قدماه وتتورم من طول القيام، ولما سُئل عن سبب هذا الاجتهاد، أَعْلَمَ السائل أنه يفعل ذلك شكرًا لله على ما تفضل به عليه ﷺ.

بَعْضُ فَوَائِدِ الحَدِيثِ:

الفَائِدَةُ الأُولَى: جواز الاجتهاد في العبادة، ولو أضرت بالبدن لقول عائشة: (كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه).

الفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: ما كان عليه الصحابة من التفكر في آيات القرآن الكريم والسؤال عن

(١) البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، برقم (٤٨٣٧).

معانيها وكيفية التوفيق بين معاني الآيات وما يخالف ظاهرها، لأن عائشة لما ظنت أن النبي ﷺ يجتهد طلبًا لمغفرة ذنبه، وأن هذا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، سألت النبي عن أسباب هذا الاجتهاد.

الفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: حث جميع أفراد الأمة على الاجتهاد في العبادة تأسيًا بنبي الأمة ﷺ.

الفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: شكر اللَّه على آلائه وأفضاله يكون باللسان والجوارح، كالصلاة وبقية العبادات والطاعات، قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣].

الفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فضل مقام العبودية لله حيث ذكر النبي ﷺ هذه الصفة المحمودة، في سياق القيام بشكر اللَّه على نعمة لم يشاركه فيها أحد من الأولين والآخرين، وهي نعمة مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال ﷺ: **«أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا»**، ولم يقل نبيًّا أو رسولاً شكورًا.

الفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: اعتراف النبي ﷺ بأن ما مَنَّ اللَّه به عليه من نعم عظيمة وآلاء جسيمة، إنما هي محضُ فضلٍ من اللَّه - سبحانه وتعالى - وليس عن استحقاق منه، لأن شكر الآخر يكون مقابل أفضاله التي لا يقابلها استحقاق أو حتى معروف، وهذا منتهى الأدب مع مقام الرب - تبارك وتعالى -.

الفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: اعتراف النبي ﷺ بأن كل ما قدمه لدين اللَّه - سبحانه وتعالى - من جهاد ودعوة وصبر وهداية للأمة، لا يوازي نعم اللَّه عليه، فقام الليل وأجهد نفسه وبدنه بالصلاة، حتى أضرها، شكرًا لله واعترافًا بحقه وفضله، وهذا أيضًا نوع آخر من أنواع الأدب النبوي، ويتفرع على ذلك الفائدة التالية.

الفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: على جميع الأمة، خاصة العلماء وأهل الصلاح والخير، ألا يظنوا أن ما قدموه لدين اللَّه من أعمال، ولو كانت عظيمة، قد أدوا بها شكر المنعم تبارك وتعالى، بل عليهم كلما مَنَّ اللَّه عليهم من نعم في الدين، من توفيق في مجال هداية الناس، وإرشادهم إلى أعمال الخير والبر، أن يستحدثوا عملاً يشكرون اللَّه به، وأنه كلما وفقهم الله، كلما شعروا بالتقصير في حق المنعم المتفضل، وليعلم العبد أنه إذا رأى لنفسه فضلاً، فقد ضل الطريق ونسي المنعم وعمل لنفسه، وكيف يرى لنفسه فضلاً على أعمال قليلة، ولم ير النبي ﷺ لنفسه فضلاً على أعمال عظيمة.

الفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: على العبد أن يستثمر أوقات نشاطه وقوته وفراغه، في أنواع

الطاعات المختلفة، قبل أن يحال بينه وبينها بمرض أو شغل أو موت، فالنبي ﷺ اجتهد غاية الاجتهاد في صلاة الليل، ثم لم يستطع بعد ذلك أن يصلي واقفًا، فصلى جالسًا، فالمسلم إذا حدث له ما حدث للنبي ﷺ لن يندم لأنه استغل وقته وقوته في طاعة الله على الوجه الأكمل، وضمن الأجر الكامل في حالة مرضه، كما لو كان في حال قوته، والذي يقصر في حال شبابه، سيكون تقصيره أكبر في حال كبره.

تنبيه: لا يجوز للمصلي في صلاة الفريضة، أن ينتقل من الهيئة الأصلية للفرض، إلى الهيئة التي هي أخف منها، إلا إذا عجز عن أداء الهيئة الأصلية للركن، وذلك في كل ركن من أركان الصلاة، فعلى سبيل المثال: إذا تعذر على المصلي أن يقف أثناء قراءة الفاتحة، مع استطاعته أن يركع ولو بمشقة محتملة، فعليه أن يجلس بدل القيام، ولكن إذا أراد أن يركع فعليه أن يقوم، ثم يركع، ولا يجزئه أن يميل جسده بالركوع وهو جالس، وهكذا إذا كان يستطيع القيام ولا يستطيع الركوع، فيلزمه القيام، فإذا أراد أن يركع فليجلس للركوع. وقد يكون هذا التنبيه خارج الموضوع، ولكني أردت ذكره لوقوع كثير من المصلين فيه، وهو يبطل الصلاة، وذكّرني به ما ورد في حديث الباب أن النبي ﷺ كان إذا أراد أن يركع قام فقرأ ثم ركع.

٤- تواضعه ﷺ

كان ﷺ جَمَّ التواضع، لين الجانب رقيق القلب، لا يعرف من بين أصحابه حيث لم يميز نفسه بزي معين، ولا بحرس خاص، ولا بقصر مشيد يسكنه هو وأهله، كان يأكل مع الخادم، ويمسح على رأس اليتيم ويقف طويلا في الطريق ليسمع شكوى امرأة مظلومة، وأعظم علامات تواضعه أنه لم يغضب لنفسه ولو مرة واحدة، وأقدم لك أخي القارئ مثالين لتواضعه ﷺ:

المثال الأول: قال أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه: (إِنْ كَانَتِ الأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ)[1].

الشَّاهِدُ فِي الْحَدِيثِ: على تواضعه ﷺ ظاهر: فكأن النبي ﷺ كان يترك نفسه للأَمَة تأخذه وتذهب به حيث أرادت ليقضي لها ﷺ حاجتها، دون أدنى معارضة منه ﷺ أو

(١) البخاري، كتاب: الأدب، باب: الكبر، برقم (٦٠٧٢).

تَضَجُّر وهو الرسول المصطفى والنبي المجتبى، وهو الذي يتلقى وحي السماء في أي ساعة من ليل أو نهار.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في التعليق على هذا الحديث كلامًا يشرح الصدر ويثلج النفس، بين به غاية البيان ما بلغه النبي ﷺ من التواضع وخفض الجناح لكل أفراد هذه الأمة، قال رَحِمَهُ اللَّهُ ما نصه: (والمقصود من الأخذ باليد لازِمُه وهو الرفق والانقياد. وقد اشتمل على أنواع من المبالغة في التواضع لذكره المرأة دون الرجل والأمة دون الحرة وحيث عمم بلفظ الإماء أيّ أمة كانت، وبقوله: حيث شاءت، أي من الأمكنة، والتعبير بالأخذ باليد إشارة إلى غاية التصرف حتى لو كانت حاجتها خارج المدينة والتمست منه مساعدتها في تلك الحاجة، وهذا دال على مزيد تواضعه وبراءته من جميع أنواع الكبر ﷺ)[1].

المثال الثاني: وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ، فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلُ فَيَسْأَلَهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ. فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَتَانَا رَسُولُكَ فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَكَ. قَالَ: «صَدَقَ»، قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ قَالَ: «اللَّهُ». قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ قَالَ: «اللَّهُ». قَالَ: فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ؟ قَالَ: «اللَّهُ». قَالَ: فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ وَخَلَقَ الْأَرْضَ وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ، آللَّهُ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِنَا وَلَيْلَتِنَا. قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ، آللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا زَكَاةً فِي أَمْوَالِنَا. قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ. آللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ فِي سَنَتِنَا. قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ. آللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا حَجَّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً: قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: ثُمَّ وَلَّى. قَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لاَ أَزِيدُ عَلَيْهِنَّ، وَلاَ أَنْقُصُ مِنْهُنَّ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ»[2].

الشَّاهِدُ فِي الْحَدِيثِ: أبلغُ شاهد في الحديث على تواضع النبي ﷺ: هو أن ضمامًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما دخل عليه وهو متكئ بين أصحابه لم يعرفه حتى اضطر للسؤال عنه، بقوله: (أيكم محمد؟) فلو أن النبي ﷺ قد خص نفسه بمكان معين في المجلس، أو بزِيٍّ

(١) انظر فتح الباري (١٠/ ٤٩٠).

(٢) مسلم، كتاب: الإيمان، باب: السؤال عن أركان الإسلام، برقم (١٢).

نفيس يختلف عن لباس القوم، أو وقف على رأسه ﷺ حرس، أو اتخذ كرسيًا يجلس عليه كالملوك أو الأمراء، ما اضطر الصحابي ليسأل عنه ولعرفه بمجرد نظرة واحدة على أهل المسجد، وقد ذكر ابن حجر دليلاً آخر على تواضعه وعدم كبره ﷺ حيث قال: (وفيه ما كان رسول الله ﷺ عليه من ترك التكبر؛ لقوله: بين ظهرانيهم - أي بينهم - وزِيدَ لفظُ الظهر ليدل على أن ظهرًا منهم قدامه وظهرًا وراءه فهو محفوف بهم من جانبيه)[1]. كما أن كفار مكة قد أثبتوا لنا تواضعه ﷺ من حيث أرادوا أن يذموه ويقيموا الحجة على عدم نبوته، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]. وهذا إقرار منهم بتواضعه ﷺ وأنه لا يريد أن يتفضل على أصحابه، فكان يمشي في الأسواق، يبيع ويشتري، ولا يترفع عن ذلك، بالرغم أن له أصحابًا يكفونه ذلك وزيادة، ومع أن مرادهم من هذا القول هو نقض نبوته، ولكنهم زَكَّوْه من حيث لا يعلمون.

بعضُ فوائدِ الحديث:

الفَائِدَةُ الأُولَى: في النبي ﷺ:

١- بلاغته وحكمته في رد سؤال الأعرابي: حيث إن الأعرابي لما ناداه بقوله: (يا ابن عبد المطلب)، ولم يراع منزلة النبوة، أجابه النبي ﷺ بقوله: «قَدْ أَجَبْتُكَ»، وقال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد قيل: إنما لم يقل له: نعم؛ لأنه لم يخاطبه بما يليق بمنزلته من التعظيم مع قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]. والعذر عنه - إن قلنا: إنه قدم مسلمًا - أنه لم يبلغه النهيُ وكانت فيه بقية من جفاء الأعراب)[2].

وأقول: وهذا يدل على حكمته التي تقتضي أن يكون لكل مقام مقال، فكان هذا الرد لفتًا لانتباه الصحابة وتعليمًا لهم بجفاء مسلك الأعرابي.

٢- سعة صدره ﷺ عند تعليم الأمة والحرص على تأليف قلب السائل خاصة إذا كان حديث عهد بالإسلام، يتبين ذلك من:

أ- لم يوجه النبي ﷺ الأعرابي بوجوب مراعاة مقام النبوة عند مخاطبته ﷺ فلم يعنفه بل قبل منه قوله: (أيكم محمد؟) وقوله: (يا ابن عبد المطلب).

---

(١) انظر فتح الباري (١/ ١٥٠).

(٢) انظر فتح الباري (١/ ١٥١).

ب - لم يجد ﷺ حرجًا في نفسه من قول الأعرابي: (إني سائلك فمشدد عليك في المسألة)، بالرغم أن الطلب بهذه الصيغة يوجب الحرج والأعرابي علم ذلك لقوله: (فلا تجِدْ عليَّ في نفسك) - أي لا تغضب - بل العجيب أن يكون رد النبي ﷺ على سؤال الأعرابي بأجمل رد وهو قوله: «سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ»، والأعرابي فعلاً قد شدد في المسألة عندما استحلفه في كل سؤال، فكان يقول في كل مرة: (أنشدك بالله).

٣- عموم رسالته ﷺ إلى الناس كلهم جميعًا لما ورد في الحديث: (أسألك بربك وربِّ مَنْ قبلك، آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟، فقال: «اللهم نعم»، بل إنه ﷺ أرسل إلى الثقلين الإنس والجن لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

٤- عدم علم النبي ﷺ بأمور الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، ودليله قوله ﷺ في ضمام لما أقسم ألا يزيد ولا ينقص قال: «لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ»، كما ورد في رواية مسلم.

الفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: في مناقب الصحابي ضمام بن ثعلبة رضي الله عنه:

١- رجاحة عقله رضي الله عنه يتبين ذلك من:

أ - أنه قدَّم الاعتذار بين يديْ مسألته فقال: (إني سائلك فمشدد عليك في المسألة فلا تجد عليَّ في نفسك)، فعلم أنه لن يصل إلى بغيته إلا بالاعتذار كما علم أن مثل هذا التشديد يسبب للنبي ﷺ حرجًا في نفسه.

ب - قَسَمُه على النبي ﷺ في كل سؤال أن يصدقه عما يسأل عنه، وما ذلك إلا لعلمه بعظيم أمر القسم بالله العظيم قال ابن حجر رحمه الله: (وكرر القسم في كل مسألة تأكيدًا وتقريرًا للأمر)[1]. وإن كان الأليق مع مقام النبوة ترك مثل ذلك.

ج - كما أن من رجاحة عقله أنه ما عَرَّف بنفسه واسم قبيلته إلا بعد أن أقر بالإيمان، لظنه أن التعريف بنفسه قبل هذه المرحلة لن يكون له شأن، بل قد يُنْسَى بعد كل هذا الحوار، وانظر إلى رجل آمن لتوه كيف يعلم وظيفة الأنبياء والتي تنحصر في التبليغ عن ربهم وأنهم لا يأتون بشيء من عندهم وهذا أبلغ في قبول ما يأمر به الأنبياء، قال ضمام: (آمنت بما جئت به من ربك).

٢- حكمته في السؤال: وذلك أنه قبل أن يسأل النبي ﷺ ذَكَّره بالله - سبحانه وتعالى - عن طريق أخذ الإقرار منه ﷺ بأن الله سبحانه وتعالى هو الخالق للكائنات

(١) انظر فتح الباري (١/ ١٥١).

العظيمة، حتى إذا سأله بالذي خلق هذه الكائنات اطمأن إلى صدقه فيما يقول، فقد ورد في الحديث: (قال: فمن خلق السماء؟. قال: «الله»، قال: فمن خلق الأرض؟. قال: «الله»، قال: فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل؟. قال: «الله»، قال فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال، آلله أرسلك؟. قال: «نعم»).

وتدبر ما ذكره النووي نقلاً عن بعض أهل العلم قوله: (هذا من حسن سؤال هذا الرجل وملاحة سياقته وتربيته؛ فإنه سأل أولاً عن صانع المخلوقات من هو؟ ثم أقسم عليه به أن يصدقه في كونه رسولاً للصانع؟ ثم لما وقف على رسالته وعلمها أقسم عليه بحق مُرْسِله، وهذا ترتيب يفتقر إلى عقل رصين)[1].

فإن قال قائل: كيف يجرؤ أن يسلك مثل هذا المسلك مع النبي ﷺ؟

الجواب: على فرض أنه قد جاء مسلمًا إلى النبي ﷺ فيعذر بأنه قريب عهد بالإسلام وأنه لم يصله وجوب تعظيم النبي ﷺ والتأدب معه في المسألة، وعدم مناداته باسمه.

٣- بلاغته ﷺ حيث إنه لما أراد أن يعبر عن إيجاد السماوات والأرض استخدم مادة (خلق)، ولما أراد أن يعبر عن الجبال استخدم مادة (نصب)، قال ضمام ﷺ: (فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال). وكذلك انظر إلى بلاغته ﷺ في قوله: (أنشدك بالله: آلله أمرك).

٤- اجتهاده في طلب الحق وإبلاغه، ويتبين ذلك من:

أ- تحمله مشقة السفر لطلب علو السند، فالبرغم أنه سمع من رسولِ رسول ﷺ، إلا أنه رحل إلى المدينة ليسمع مشافهة من النبي ﷺ، قال ابن حجر رحمه الله: (واستنبط منه الحاكم رحمه الله أصل طلب علو الإسناد لأنه سمع ذلك من الرسول وآمن وصدق، ولكنه أراد أن يسمع ذلك من رسول اللَّه ﷺ مشافهة)[2].

ب- تحمله بين يدي رسول اللَّه ﷺ مسؤولية إبلاغ قومه أَمْرَ الإسلام قال: (آمنت بما جئتَ به وأنا رسول مَنْ ورائي من قومي).

الفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وجوب قيام الإمام بإرسال الرسل إلى الأمصار للدعوة إلى اللَّه -عز وجل- ونشر دين الإسلام، ودليله أن النبي ﷺ قد أرسل رسله إلى بني سعد بن بكر، كما

---

(١) انظر شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ١٧١).
(٢) انظر فتح الباري (١/ ١٥٢).

يؤخذ منه أيضًا قبول خبر الواحد في العقائد والعبادات، فالرسول ﷺ ما كان يرسل الرسل اثنين اثنين.

الفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: امتثال الصحابة لأمر اللَّه ورسوله حيث إنهم لما نُهوا عن سؤال النبي ﷺ لغير ضرورة انتهوا عن ذلك مع أن قلوبهم تتشوق للسماع من النبي ﷺ، ودليله: أنه كان يعجبهم أن يأتي الأعرابي ليسأل، قال أنس رضي الله عنه: (نهينا أن نسأل رسول اللَّه ﷺ عن شيء فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع).

٥ - حياؤه ﷺ:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، وَإِذَا كَرِهَ شَيْئًا عُرِفَ فِي وَجْهِهِ)[1].

الشَّاهِدُ فِي الحَدِيثِ: قول أبي سعيد الخدري: (كان النبي ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها).

بَعْضُ فَوَائِدِ الحَدِيثِ:

الفَائِدَةُ الأُولَى: شدة حياء النبي ﷺ وعلامات شدة هذا الحياء:

١- أنه زاد على حياء العذراء، وهي المرأة التي لم يسبق لها الزواج، ويبدو أن الحياء كان صفة ملازمة للعذراء، وتتأكد هذه الصفة وتزيد إذا دخل عليها أحد هذا الخدر، والخدر كما عرفه الإمام النووي: (ستر يُجعل للبكر جنب البيت)[2]. ولذلك قيد الراوي حياء المرأة بحال كونها في خدرها لتعظيم هذا الحياء، والذي زاد حياءُ النبي ﷺ عليه.

٢- أنه إذا سمع شيئًا يكرهه ويخدش حياءه، تغير لون وجهه، فعرف أصحابه أنه يكره هذا الشيء.

ويتفرع عليه: عِلْمُنا بكمال خُلق النبي ﷺ حيث أُعْطِيَ كل ذلك الحياء الذي لا يأتي إلا بخير، كما ورد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رضي اللَّه عنهما - قال: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى رَجُلٍ وَهُوَ يُعَاتِبُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاءِ، يَقُولُ: إِنَّكَ لَتَسْتَحْيِي حَتَّى كَأَنَّهُ يَقُولُ: قَدْ أَضَرَّ بِكَ. فَقَالَ

---

(١) البخاري، كتاب: المناقب، باب صفة النبي ﷺ، برقم (٣٥٦٢)، مسلم، كتاب: الفضائل، باب كثرة حيائه ﷺ، برقم (٢٣٢٠).

(٢) انظر شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/ ٧٨).

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «دَعْهُ، فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِن الإِيمَانِ»[١].

الفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: كان حياء النبي ﷺ كله محمودًا؛ لأن حياءه ﷺ لم يمنعه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن بيان كل ما شرع الله - سبحانه وتعالى - أبلغ بيان، فكان يُسأل هل على المرأة من غسل؟ فلا يمنعه شدة حيائه أن يجيب، فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: جَاءَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي مِن الْحَقِّ. فَهَلْ عَلَى الْمَرْأَةِ مِنْ غُسْلٍ إِذَا احْتَلَمَتْ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِذَا رَأَتِ الْمَاءَ»، فَغَطَّتْ أُمُّ سَلَمَةَ، تَعْنِي: وَجْهَهَا، وَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوَ تَحْتَلِمُ الْمَرْأَةُ؟ قَالَ: «نَعَمْ. تَرِبَتْ يَمِينُكِ، فَبِمَ يُشْبِهُهَا وَلَدُهَا؟!»[٢].

الفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: ما يجب أن تكون عليه العذراء، من حياء وعفة، وحفظ للسمع والبصر، ولو يعلم الراوي أحدًا أشد حياء من العذراء لوصف به الرسول ﷺ.

ويتفرع عليه: ذَمُّ ما وصلت إليه مجتمعاتنا من خلع بعض العذارى لبرقع الحياء، حتى إنك لا تعلم العذراء من غيرها، استوى الكثير منهن في اللباس ومظاهر الزينة ومجالات الاهتمام وأسلوب الحديث والتجرؤ على مخاطبة الرجال، ولو لم يكونوا محارم، قَلَّ أن ترى عذراء يتغير لون وجهها إذا سمعت ما يخدش حياءها، بل تجدها اليوم تزاحم الرجال في كل مكان فإنا لله وإنا إليه راجعون.

الفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: خطأ من يعتقد أن الحياء خصلة للنساء فقط، وأن الرجل يُذم إذا اتصف بها، ودليله أن النبي ﷺ كان حييًا بل فاق حياؤه حياء المرأة، ليس أي امرأة، ولكن أشد أصناف المرأة حياءً؛ وهي العذراء، وقد ذكر النبي ﷺ حياء موسى عليه السلام في سياق مدحه لهذه الصفة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: (كَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَم رَجُلاً حَيِيًّا، قَالَ: فَكَانَ لاَ يُرَى مُتَجَرِّدًا. قَالَ: فَقَالَ بَنُو إِسْرَائِيلَ: إِنَّهُ آدَرُ. قَالَ: فَاغْتَسَلَ عِنْدَ مُوَيْهٍ، فَوَضَعَ ثَوْبَهُ عَلَى حَجَرٍ، فَانْطَلَقَ الْحَجَرُ يَسْعَى، وَاتَّبَعَهُ بِعَصَاهُ يَضْرِبُهُ، ثَوْبِي حَجَرُ، ثَوْبِي حَجَرُ، حَتَّى وَقَفَ عَلَى مَلأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ)[٣].

---

(١) البخاري، كتاب: الأدب، باب: الحياء، برقم (٦١١٨)، مسلم: كتاب: الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان...، برقم (٣٦).

(٢) البخاري، كتاب: العلم، باب: الحياء في العلم، برقم (١٣٠)، مسلم، كتاب: الحيض، باب: وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها، برقم (٣١٣).

(٣) مسلم، كتاب: الفضائل، باب: من فضائل موسى...، برقم (٣٣٩).

ويتفرع عليه: خطأ من يقول: (لا حياء في الدين) بين يدي سؤاله عن أمر من أمور الدين، ولكن الصحيح أن يقول: (إن اللَّه لا يستحي من الحق)، سمعته من الشيخ/ العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.

الفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: من علامات حياء الرجل أن يتغير وجهه، أو يتلون إذا سمع ما يخدش الحياء، وكذب من يدعي لنفسه الحياء ووجهه لا يتغير إذا سمع الكلام البذيء الفاضح، والأدهى والأمَرُّ، أن يتناقل الرجال، وهم في الحقيقة أنصاف رجال، أو قل: أشباه رجال - النكات والطرائف الفاضحة بكل وقاحة، ويضحكون حتى التمايل، أهؤلاء رجال؟

٦- حسن توكله ﷺ وثقته بالله تعالى

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غَزْوَةً قِبَلَ نَجْدٍ، فَأَدْرَكَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ [(١)]، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَعَلَّقَ سَيْفَهُ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا. قَالَ: وَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الْوَادِي يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ رَجُلاً أَتَانِي وَأَنَا نَائِمٌ، فَأَخَذَ السَّيْفَ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِي، فَلَمْ أَشْعُرْ إِلاَّ وَالسَّيْفُ صَلْتًا [(٢)] فِي يَدِهِ. فَقَالَ لِي: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: قلت: اللَّهُ. ثُمَّ قَالَ فِي الثَّانِيَةِ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: قلت: اللَّهُ». قَالَ: «فَشَامَ السَّيْفَ، فَهَا هُوَ ذَا جَالِسٌ». ثُمَّ لَمْ يَعْرِضْ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ)[(٣)].

الشَّاهِدُ فِي الحَدِيثِ: قول الراوي: «فقال لي: من يمنعك مني قال: قلت: الله، ثم قال في الثانية: من يمنعك مني؟ قال: قلت: الله».

بَعْضُ فَوَائِدِ الحَدِيثِ:

الفَائِدَةُ الأُولَى: في الشمائل النبوية:

١- حسن ثقته ﷺ بربه، ووجه ذلك:

أ - أنه ﷺ علق سيفه بغصن شجرة ثم نام، ولولا حسن ثقته بوعد الله، بكفايته وعصمته من الناس، لطلب حراسة عليه من الجيش أثناء نومه ﷺ، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ

---

(١) كثير العضاه: أي كثير الشجر.

(٢) صلتا: أي مسلولاً.

(٣) البخاري، كتاب: المغازي، باب غزوة بني المصطلق...، برقم (٤١٣٩)، مسلم، كتاب: الفضائل، باب: توكله على الله تعالى...، برقم (٨٤٣).

يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

ب - أنه ﷺ لما استيقظ ووجد الأعرابي قد سل سيفه يهدده بالقتل، والنبي ﷺ ليس معه شيء يدافع به عن نفسه، والأعرابي يقول له: (ما يمنعك مني؟)، أي: من يحميك مني؟، أو من يحول بيني وبين قتلك، لم يزد النبي ﷺ عن قوله «الله»، وهذا يدل على عظيم تعلق قلبه ﷺ بربه، ويقينه أن أمر الأعرابي بيد الله وحده، فالله سبحانه قادر على أن يشل يد الأعرابي، بل قادر على أن يقتل الأعرابي في مكانه، أو أن يهديه إلى الحق.

وأقول: كلنا نثق بالله -عز وجل- ونعلم أنه يرانا ويسمعنا في كل أحوالنا وفي جميع أقوالنا، ولكن من منا إذا تعرض لما تعرض له الرسول ﷺ لا يجزع ولا يخاف، ولا يقول إلا (الله).

٢- شجاعته ﷺ حيث إنه لما استيقظ، ووجد السيف مسلطًا عليه، لم تتحرك له ساكنة، ولم تظهر عليه أي من علامات الخوف كطلب النجدة، أو الرعشة، أو التوسل إلى الرجل حتى يتركه، قال الحافظ ابن حجر في الفتح: (وفي الحديث فرط شجاعة النبي ﷺ وقوة يقينه وصبره على الأذى وحلمه عن الجهال)[1].

٣- حبه ﷺ للعفو والصفح عمن أراد إيذاءه، ورد في الحديث: (فها هو ذا جالس ثم لم يعرض له رسول الله ﷺ)، ومعنى (ثم لم يعرض له)، أي لم يعاقبه على ما فعل، قال ابن حجر: (فَمَنَّ عليه لشدة رغبة النبي ﷺ في استئلاف الكفار ليدخلوا في الإسلام).

٤- تمام عناية الله بنبيه ﷺ، فقد حماه من كل من أراد إيذاءه وقتله ﷺ، وصدق الله حيث قال: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨].

الفَائِدَةُ الثَّانِيةُ: من فوائد الثبات وحسن الثقة بالله، تخويف الأعداء وإلقاء الرعب في قلوبهم، بل ويجعلهم على يقين أننا على الحق وهم على الباطل، فهذا الرجل في الحديث الذي معنا، وقد تمكن من سل السيف على النبي ﷺ، ما الذي جعله يغمد سيفه ويجلس دون أدنى إيذاء للنبي ﷺ، أليس رؤيته لشجاعة النبي ﷺ وقوة يقينه بالله تعالى؟ قال الحافظ ابن حجر: (وكأن الأعرابي لما شاهد ذلك الثبات العظيم وعرف أنه حِيلَ بينه وبين النبي علم تحقق صدقه وأنه لن يصل إليه، فألقى السلاح وأمكنه من نفسه).

يتفرع عليه، وجوب أن يرى أعداؤنا منا اليوم ثقتنا الكاملة بالله وتمسكنا بديننا، حتى

---

(١) انظر فتح الباري (٧/ ٤٢٨).

ولو كنا ضعاف العدة، فهذا النبي ﷺ قد رد اللَّه عنه كيد عدوه، بثقته باللَّه وحده وبدون أي أسباب أخرى مادية.

الفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إيثار الصحابة رضي اللَّه عنهم النبيَّ ﷺ على أنفسهم حيث ورد في إحدى روايات البخاري: (فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبي ﷺ)، وهذا يدل على عظيم حبهم للنبي ﷺ وامتثالهم للتوجيهات الربانية لهم، مثل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ [التوبة: ١٢٠].

الفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: ومن شواهد حسن ثقته ﷺ باللَّه -عز وجل- ما رواه البخاري، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: (﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ - عَلَيْهِ السَّلَام - حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾)

٧- حسن تعليمه ﷺ أمته

عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: (بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ. فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَهْ، مَهْ. قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لاَ تُزْرِمُوهُ دَعُوهُ»، فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَاهُ، فَقَالَ لَهُ: «إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لاَ تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلاَ الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ -عز وجل- وَالصَّلاَةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ»، أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: فَأَمَرَ رَجُلاً مِنَ الْقَوْمِ، فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَشَنَّهُ [١] عَلَيْهِ)[٢].

الشَّاهِدُ فِي الْحَدِيثِ: قوله ﷺ لمن بال في المسجد: «إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لاَ تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلاَ الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ -عز وجل- وَالصَّلاَةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ».

بَعْضُ فَوَائِدِ الحَدِيثِ:

الفَائِدَةُ الأُولَى: في الشمائل النبوية:

١- حسن تعليمه ﷺ: ويتبين ذلك من:

أ - أنه ﷺ لم ينهر الأعرابي، ولم يوجه له أدنى عتاب لعدم علم الأعرابي بآداب

---

(١) فشنّه عليه: أي صبّه وسكبه عليه.

(٢) مسلم، كتاب: الطهارة، باب: وجوب غسل البول....، برقم (٢٨٥).

المساجد، وإنما نصحه ﷺ بمنتهى الرفق واللين، قال ﷺ: «إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لاَ تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلاَ الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ -عز وجل- ».

ب - ومن حسن تعليمه الجميل، أنه ﷺ لم يأمر الأعرابي أن ينظف مكان النجاسة في المسجد، مع أنه أولى الناس بهذا الأمر، لأن الأعرابي قد يظن أن النبي ﷺ أراد أن يعاقبه على ذلك، قال أنس: (فأمر رجلاً من القوم فجاء بدلو من ماء فشنه عليه)، وهذا واللَّهِ غايةُ الرفق واللين.

ج - لم يتعجل النبي ﷺ توجيه النصح للأعرابي وهو يقضي حاجته، بل انتظر حتى ينتهي، ليكون الأعرابي أوعى لقول النبي ﷺ، قال الراوي: (ثم إن رسول اللَّه ﷺ دعاه).

د - فَصَّل النبي ﷺ في نصحه تفصيلاً بليغًا حيث ذكر أولاً وجوب تنزيه المساجد عن النجاسات والقاذورات، ثم ذكر الحكمة من بناء المساجد وكيفية إعمارها، وقد ذكر تنزيه المساجد أولاً من النجاسات لأسباب، منها: حاجة الأعرابي الماسة لمعرفة هذا الحكم، وذِكْرُه أولاً يكون أدعى لحفظه، كما أن الحكمة العظمى من بناء المساجد، وهي إقامة الصلاة، من أهم شروط صحتها: طهارة المكان، فطهارة المكان عمل يأتي قبل إقامة الصلاة، ومن حسن التعليم أيضًا أن تأتي النصيحة خالية من التطويل الممل والاختصار المخل، وقد كانت كذلك، ولله الحمد.

وتخيل أخي القارئ، لو أن هذه الواقعة حدثت في وقتنا الحاضر من رجل حديث عهد بالإسلام، ماذا سيفعل به أهل المسجد؟ قد يفتكون به ويتهمونه بالكفر والزندقة، مع أنهم ليسوا بأحرص من النبي ﷺ على طهارة المسجد ونظافته.

٢- حكمته ﷺ حيث قال لأصحابه: «لا تُزْرِموه دعوه»، أي لا تقطعوا عليه بوله؛ لأن قطع البول سَيَضُرّ جسمانيًا بالأعرابي، وقد يزيد من رقعة المكان الذي أصابته النجاسة، خاصة إذا قطعها وهو مضطرب.

٣- موافقة أقواله ﷺ مع أفعاله، وهو الركن الأساسي في القدوة الحسنة، فقد أمر النبي ﷺ أصحابه ﷺ بالرفق في الأمر ورَغّبهم في ذلك، فقد روى مسلم بإسناده عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لاَ يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ».

وعند مسلم أيضًا، أن جَرِيرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ قالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ حُرِمَ الرِّفْقَ

حُرِمَ الْخَيْرَ، أَوْ مَنْ يُحْرَمْ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ» . فتطابق قوله ﷺ مع فعله ، كما فعل مع الأعرابي في حديث الباب .

ومن أعظم أسباب افتقاد الأمة للقدوة في وقتنا الحاضر ، ذلك الاختلافُ الكبير بين ما يقوله الداعية وبين ما يفعله ، ولكن على الناس أن لا تضع كل أخطائها وزلاتها على هذه الشماعة ؛ لأننا مأمورون أولاً باتباع قدوتنا وهو النبي ﷺ والدينُ حجة على الجميع ، ولا أحد حجة على هذا الدين ، فهذه حجة من يريد التكاسل والتفريط في الدين ، أما مَنْ عنده غيرة على هذا الدين وفي قلبه حب لله ورسوله وحرص على فعل الطاعات وترك المنكرات ، فلا يبحث عن الأعذار ولا يبالي إن وجد القدوة في الناس أو لا .

الفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وجوب أن يحرص المسلمون على نظافة وطهارة المساجد، كلٌّ قدر استطاعته، وليعلم كل مسلم أن تنظيف المساجد من أنواع القربات، فلا ينبغي أن يُحرِم المسلمُ نفسَه من هذه القربة ، ولا يشترط أن يكون خادمًا للمسجد حتى يقوم بها ، بل يكفي كلما دخل أو خرج من المسجد أن يتفقد حال المسجد ويلتقط ما استطاع من قاذورات وغيرها .

الفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: على المسلم أن يحرص على أداء الصلوات في جماعة المسجد، وأن يكثر من ذكر الله وقراءة القرآن في المسجد؛ لأن هذه الأعمال هي المقصودة من بناء المساجد، قال ﷺ: **«إنما هي لذكر الله -عز وجل- والصلاة وقراءة القرآن»** .

الفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: لم يقتصر حسن تعليم الرسول ﷺ لأصحابه على طريقة النصح والإرشاد، ولكن تعدى حسن التعليم ليشمل اختيار الوقت المناسب للموعظة، ويأتي ذلك بعدم توجيه المواعظ والإرشاد في كل وقت وفي كل مناسبة، حتى لا يشعر الإنسان بالملل والسآمة، فعن ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الأَيَّامِ كَرَاهَةَ السَّآمَةِ [(١)] عَلَيْنَا)[(٢)] .

وهذا يدل أيضًا على عظيم حكمته ﷺ حيث وازن بين مصالح المواعظ وبين مفاسد الكراهة والسآمة .

---

(١) السآمة: أي الملل.

(٢) البخاري، كتاب العلم، باب: ما كان النبي ﷺ يتخولهم . . . ، برقم (٦٨)، مسلم، كتاب: صفة المنافقين وأحكامهم، باب: الاقتصاد في الموعظة، برقم (٢٨٢١).

٨- حرصه ﷺ على تبليغ الدعوة:

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمْ»، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ»[١].

الشَّاهِدُ فِي الْحَدِيثِ:

أن النبي ﷺ يذهب بنفسه إلى غلام يهودي، يدعوه إلى الإسلام، وهذا يدل على شدة حرصه ﷺ على استنقاذ أمة الدعوة من النار، وحرصه على دخول الناس في دين اللَّه -عز وجل- أفرادًا وجماعات.

بعض فوائد الحديث:

الفَائِدَةُ الأُولَى: بيان ما كان عليه النبي ﷺ من تواضع لا يساميه فيه أحد، فهو مع عظيم منزلته وعلو شأنه وكثير شغله، لا يستنكف أن يعود غلامًا يهوديًّا غير مسلم، يعمل عنده خادمًا، أيُّ تواضعٍ هذا؟ وأي حب هذا على عمل الخير والمسابقة في مرضاة اللَّه -عز وجل-؟

الفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: على المسلمين ألا يستقلوا أي عمل من أعمال الخير، وإن قل في نظرهم، خاصة في مجال الدعوة إلى اللَّه -سبحانه وتعالى- لأن النبي ﷺ حرص على زيارة هذا الغلام الخادم اليهودي، ودعاه إلى الإسلام ولم يقل في نفسه كما يقول أمثالنا: (وما عسى أن ينفع اللَّه الإسلام بهذا الغلام إن أسلم)، أو يقول: هناك أمور كثيرة أعظم من زيارة هذا الغلام ودعوته إلى الإيمان، بل كانت زيارة مباركة طيبة، كان من عظيم بركتها، أن أنقذ اللَّه بها نفسًا من النار.

الفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: على الداعي إلى اللَّه -عز وجل- أن يستغل الظروف والأحوال الملائمة للناس لدعوتهم إلى الله، كالمرض مثلاً، والذي يشعر فيه الإنسان بالضعف والحاجة إلى اللَّه -سبحانه وتعالى- ولكن دون أن يُظهِر الداعي للمدعو أنه يستغل هذا الوقت بالذات لدعوته لأنه ضعيف، فقد يُحْرِج هذا الشعورُ المريضَ، ويجعله لا يتقبل الحق، انظر

---

(١) البخاري، كتاب: الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، برقم (١٣٥٦).

ماذا قال النبي ﷺ للغلام، قال له: «أسلم»، وانظر إلى يوسف عليه السلام كيف استغل حاجة صاحبيه في السجن لتأويل رؤيتهما، فدعاهما إلى الإيمان ونَفَّرَهما غاية التنفير من الشرك بالله، دون أن يُشْعرهما أنهما في حاجة إليه، وأنهما مضطران إلى سماع قوله إلى النهاية، حتى يسمعا تأويله لرؤيتهما، وهذا من فقه الدعوة إلى اللَّه - سبحانه وتعالى - .

الفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: جواز استخدام اليهودي مع مراعاة الضوابط الشرعية التي تحكم هذا الاستخدام، والتي من أعظمها، عدم اطلاعه على أعراض المسلمين، وعدم إفشاء الأسرار إليه، وعدم حبه، وضرورة دعوته إلى الإسلام، وإنكار ما هو عليه من الكفر، وأزيد واحدة، أن نعدل فيه ونقسط إليه، حتى لا نكون سببًا في تنفيره من الإسلام، وتشويه صورة الدين عنده، وهذا يحدث كثيرًا في هذا الزمان، ومما عمت به البلوى في زماننا هذا، أن يكون بعض المسلمين ممن يُقْتَدَى بهم، صورة سيئة في معاملاتهم وسلوكهم، خاصة في النواحي المادية، مما ينفر منهم العاملين لديهم، خاصة الخدم والمستخْدمين.

الفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: صحة إسلام الصبي المميِّز، ولولا صحة إسلامه، ما دعاه النبي ﷺ إلى الإسلام وقال: «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**»، وهذا القول من النبي ﷺ دليل على صحة إسلام الصبي، ولكن ليس بدليل قطعي، أن الصبي لو مات على الكفر دخل النار، ويمكن أن يحمل قول النبي ﷺ: «**إن اللَّه أنقذه من النار**» إذا ما استمر على كفره. والخلاف في دخول أولاد الكافرين النار أو الجنة خلاف مشهور بين العلماء.

الفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: ما كان عليه اليهود، من تعظيم أمر النبي ﷺ واعتقادهم صحة دينه ولو خالفوه؛ لأن أبا الغلام أمر ابنه بإجابة أمر النبي ﷺ وبدا خوفه على غلامه وهو مريض من أن يخالف أمر النبي، وتدبرْ ماذا قال الأب لابنه: أطع أبا القاسم، ولم يقل له: (أسلم)، مما يشعر أن مراد الأب هو طاعة الرسول عليه السلام وعدم مخالفته، كما أنه ذكر الرسول بكنيته، ولم يذكره باسمه، وهذا أيضًا من التوقير.

الفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: قد يكون من ملاطفة المريض عند زيارته، القعود عند رأسه، لإشعاره بالقرب منه، وهذا أدعى لإسماعه والسماع منه.

الفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الثناء على اللَّه -عز وجل- بما هو أهله، خاصة عند زول النعم ورفع النقم، لقوله ﷺ «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**».

أقول: إن حرص النبي ﷺ على تبليغ رسالة ربه وحزنه الشديد على من أعرض وأبى قد بلغ مبلغًا عجيبًا، أذكر منه - على عجالة - آية واحدة في كتاب اللَّه -عز وجل- توضح المراد.

قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وباخع نفسك أي: مهلكها غمًّا وأسفًا، هذا ما كان يجده النبي ﷺ من الحزن الشديد والأسف العظيم على رد الناس دعوته، فلقد أوشك هذا الحزن أن يقتله، وهذا ليس من باب المبالغة، لأنه كلام اللَّه - تبارك وتعالى -، فهل نتصور أحدًا يوشك أن يقتله الحزن على عدم إيمان الغير ولو كان أقرب الناس إليه كأبيه أو ولده، هذا هو الفارق بيننا وبين النبي ﷺ فنلمح في هذا الحزن رقة قلب، ونصحًا للناس كلهم جميعًا، قريبهم وبعيدهم، من عرف منهم ومن جهل، ونلمح فيه أيضًا حبًّا في نشر دين اللَّه - عز وجل- وغيرة على محارم الله، وقيامًا بوظيفته على أتم وأكمل وجه، بل تكليف نفسه أكثر مما كُلف به وأمر.

قال الشيخ السعدي - رحمه اللَّه - في شرح الآية: (لما كان النبي ﷺ حريصًا على هداية الخلق ساعيًا في ذلك أعظم السعي فكان ﷺ يفرح ويُسَرّ بهداية المهتدين ويحزن ويأسف على المكذبين الضالين شفقة منه ﷺ ورحمة بهم، فأرشده اللَّه أن لا يشغل نفسه بالأسف على هؤلاء الذين لا يؤمنون بهذا القرآن، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، وقال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] [١].

٩- خوفه وتقواه ﷺ من اللَّه -عز وجل-

عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا عَصَفَتِ الرِّيحُ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا، وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ». قَالَتْ: وَإِذَا تَخَيَّلَتِ السَّمَاءُ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَخَرَجَ وَدَخَلَ، وَأَقْبَلَ، وَأَدْبَرَ فَإِذَا مَطَرَتْ سُرِّيَ عَنْهُ، فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَسَأَلْتُهُ. فَقَالَ: «لَعَلَّهُ يَا عَائِشَةُ كَمَا قَالَ قَوْمُ عَادٍ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾»[٢] [الأحقاف: ٢٤])

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٤٧٠).

(٢) مسلم، كتاب: صلاة الاستسقاء، باب: التعوذ عند رؤية الريح...، برقم (٨٩٩).

الشَّاهِدُ فِي الحَدِيثِ: أن النبي ﷺ كان إذا رأى في السماء سحابة فيها رعد وبرق، تغير وجهه من الخوف، خشية أن يكون فيها عذاب من اللَّه من جنس ما أصاب قوم عاد، لأنهم لما رأوا السحاب في السماء ظنوه سيأتي بالمطر والرحمة، فإذا هي ريح فيها عذاب أليم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

بَعْضُ فَوَائِدِ الحَدِيثِ:

الفَائِدَةُ الأُولَى: على المسلم أن يكون دائمًا على خوف من آيات الله، التي قد تأتي بالعذاب، وعليه ألا يألف تلك الآيات، فيذهب عنه الخوف إذا ما تكررت، لأن عائشة رضي الله عنها أعلمتنا، أن النبي ﷺ كلما رأى السحاب تغير وجهه، قالت: (وإذا تخيلت السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر).

ويتفرع على ذلك:

خطأ من يطلق على السحاب والريح، والخسوف والكسوف، والزلازل والبراكين، ظواهر طبيعية، يريد بذلك أن يَذْهب من قلوب الناس الخوفُ من اللَّه إذا رأوا تلك الآيات، وألا يجعلهم يتوبون إلى اللَّه ويستغفرونه كلما رأوها. فالنبي ﷺ كان يخاف إذا رأى تلك الآيات، لدرجة أن الخوف يظهر على وجهه، وعلى حركاته التي لا تهدأ، كالمضطرب الوجل، وإذا ذهبت ظهر ذلك أيضًا على وجهه، قالت عائشة: (فإذا أمطرت سرى عنه).

الفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وجوب التضرع والابتهال إلى اللَّه - سبحانه وتعالى - إذا رأى المسلم آية قد يكون فيها عذاب، قالت عائشة: (إذا عصفت قال: **«اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت إليه، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به»**.

ويتفرع على ذلك:

١- عجيب قدرة اللَّه - سبحانه وتعالى - إذ خلق آيات قد تأتي بالخير تارة، وبالشر تارة، ولا يكون ذلك إلا بأمره - سبحانه وتعالى - وبمقتضى الحكمة البالغة، فانظر إلى الريح، التي قد تأتي بالخير، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩]، وقد تأتي بالشر، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا

عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩].

٢- ما أوتيه النبي ﷺ من جوامع الكلم في الدعاء، وأن هذا كان مسلكه دائمًا ﷺ حيث جمع كل ما تأتي به الريح من أمور نافعة في قوله: «خيرها وخير ما فيها»، وجمع كل ما تأتي به الريح من مضار ودمار في قوله: «من شرها وشر ما فيها» وعليه فإن الأحب إلى اللَّه - سبحانه وتعالى - في الدعاء: الإجمال لا التفصيل.

١٠ - رحمته وشفقته ﷺ:

بلغت رحمة النبي ﷺ مبلغًا عجيبًا في الكمال والسعة، حيث شملت تلك الرحمة كل الناس؛ الضعيف منهم والقوي، السيد منهم والعبد، القريب منهم والبعيد، الصاحب منهم والعدو، بل امتدت تلك الرحمة لتشمل الجن والبهائم، والأعجب من ذلك كله أنها شملت جذع الشجرة الذي كان ﷺ يخطب عليه الجمعة، حيث نزل من على المنبر يهدهده ويضمه إليه حتى سكت عنه الأنين، ولا غرابة من ذلك فالذي أوجد في قلبه كل تلك الرحمات هو الله الخالق البارئ، يصدق ذلك قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٥٩].

وذَرْني أخي الكريم أضع بين يديك تلك الصفة العجيبة في المواقف المختلفة على نحو ما سترى:

أ - شفقته ﷺ بالأطفال:

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا، فَقَالَ الأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشَرَةً مِن الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا. فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ»(١).

الشَّاهِدُ فِي الْحَدِيثِ:

قول النبي ﷺ: «من لا يرحم لا يرحم». وجاء هذا القول في سياق الرد على من لا يُقَبل أولاده.

بَعْضُ فَوَائِدِ الحَدِيثِ:

الفَائِدَةُ الأُولَى: عظيم شفقة النبي ﷺ بالأطفال، ومن مظاهر تلك الشفقة:

---

(١) البخاري، كتاب: الأدب، باب: رحمة الولد وتقبيله...، برقم (٥٩٩٧)، مسلم، كتاب: الفضائل، باب: رحمته ﷺ الصبيان...، برقم (٢٣١٨).

١- قيام النبي ﷺ بتقبيل الحسن بن علي، - رضي الله عنهما..

٢- إنكار النبي ﷺ على الأقرع بن حابس التميمي رضي الله عنه والذي لم يقبل أحدًا من أولاده العشرة، بقوله: «من لا يرحم لا يرحم»، ونخلص من هذه المقولة الشهيرة بعدة أمور منها:

أ - تهديد النبي ﷺ لكل من لا يرحم الأطفال بأنه لا يُرْحم، ولم يقيد النبي ﷺ عدم الرحمة بزمن معين أو مجال معين، وإطلاق عدم الرحمة وعدم تقييدها يدل على إرادة زيادة التخويف.

ب - وجوب إحاطة الأولاد بكل أنواع الرحمة، فالأمر لا يقتصر على التقبيل وحده، لأن النبي ﷺ وسع نطاق الرحمة ليشمل كل أنواعها ومظاهرها، وإن كان مجال الحديث كان أصلاً على التقبيل، فعلى الوالدين بذل كل عمل يكون من شأنه رحمة الأولاد.

ويتفرع على ذلك: تحريم ما يشق على الأولاد، كالضرب المبرح والحرمان من الطعام والشراب، وغير ذلك من مظاهر القسوة، ويجب أن يتبع الوالدان أسلوبًا للتربية يخلو من العنف والشدة.

وتدبر أخي القارئ إذا كان النبي ﷺ قد اعتبر عدم تقبيل الأولاد من عدم الرحمة، التي تستوجب العقوبة، والتقبيل شيء يسير جدًّا، مقارنة بما هو أعظم من ذلك، فماذا ستكون عقوبة من وقع في أمور أخرى كالإهمال في التربية وعدم الأمر بالصلاة والصيام، وترك الأولاد لقرناء السوء في الشوارع، وإدخال القنوات الفضائية في البيوت بدون رقابة، وغير ذلك كثير.

ج - أن النبي ﷺ كان أرحم بالولد من والده حيث أوصى الوالد بالولد.

د - بيان أن العقوبة من جنس العمل، فمن لا يَرْحم لا يُرْحم، كما جعل الله تعالى الثواب من جنس العمل الصالح، مثال ذلك ما رواه عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رضي الله عنه قال عِنْدَ قَوْلِ النَّاسِ فِيهِ حِينَ بَنَى مَسْجِدَ الرَّسُولِ ﷺ: إِنَّكُمْ أَكْثَرْتُمْ، وَإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ بَنَى مَسْجِدًا» - قَالَ بُكَيْرٌ: حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ: «يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ، بَنَى اللَّهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ»[1]، وهذا منتهى العدل من الشارع الحكيم.

---

(١) البخاري، كتاب: الصلاة، باب: من بنى مسجدًا، برقم (٤٥٠)، مسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل بناء المساجد...، برقم (٥٣٣).

هـ - فيه موازنة من الشارع الحكيم حيث أوصى الأولاد بحسن معاملة الوالدين، ورتب العقوبة على العقوق، وفي المقابل أوصى الآباء برحمة الأولاد والشفقة عليهم والعدل في المعاملة والعطية.

ولكن انظر أخي القارئ إلى كمال وجمال الشرع الذي سنه الحكيم الخبير، لما كان عقوق الأولاد للآباء أكثر تكرارًا، وأعظم صورة وأشد وقعًا على الآباء، الذين هم سبب وجود الأبناء، تكرر الوعيد الشديد والتهديد العظيم في القرآن والسنة على عقوق الوالدين، ولما كان عقوق الآباء للأولاد، أقل تكرارًا وأخف صورة، والآباء هم الأصل والأبناء هم الفرع، لم يأت تهديد الآباء كتهديد الأبناء لا من حيث تغليظ العقوبة ولا من حيث تعدد مرات ذكرها، لعدم الحاجة إلى ذلك.

وهذا مسلك الكتاب والسنة في جميع الأقضية وأضربُ لذلك مثالاً آخر، فأقول في قضية لعان الزوجين، لما كان الزوج غالبًا هو الصادق ويندر منه اتهام زوجته بالزنا كذبًا، قال تعالى: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النور: ٧] ولما كانت المرأة في الغالب هي الكاذبة لدفع تهمة الزنا عن نفسها وكذلك دفع حد الرجم، قال تعالى: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور: ٩]، فألزم الله - سبحانه وتعالى - غضبه للمرأة الكاذبة، ولَعْنَته للرجل الكاذب، ومعلوم أن الغضب أشد من اللعن، لذلك اختص الله اليهود بالغضب.

الفَائِدَةُ الثَانِيَةُ: لم تقتصر مظاهر شفقة النبي ﷺ على الحث على تقبيل الأولاد، وعموم الرحمة، بل تعدى الأمر إلى ملاعبتهم وإدخال السرور عليهم وحملهم إذا تطلب الأمر ولو في الصلاة. فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قال: إِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَيُخَالِطُنَا حَتَّى يَقُولَ لِأَخٍ لِي صَغِيرٍ: «يَاأَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ»[1].

وأيضا: روى أَبو قَتَادَةَ الأَنْصَارِيِّ ﷺ (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُصَلِّي وَهُوَ حَامِلٌ أُمَامَةَ بِنْتَ زَيْنَبَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلِأَبِي الْعَاصِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ فَإِذَا سَجَدَ وَضَعَهَا وَإِذَا قَامَ حَمَلَهَا)[2].

---

(١) البخاري، كتاب: الأدب، باب: الانبساط إلى الناس...، برقم (٦١٢٩) مسلم، كتاب: الآداب، باب: استحباب تحنيك المولود...، برقم (٢١٥٠).

(٢) البخاري، كتاب: الصلاة، باب: إذا حمل جارية صغيرة...، برقم (٥١٦)، مسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: جواز حمل الصبيان في الصلاة، برقم (٥٤٣).

الفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وجوب التراحم بين الناس كلهم جميعًا، لقول النبي ﷺ: «من لا يَرْحم لا يُرْحم»، وإن جاءت هذه المقالة بمناسبة عدم رحمة الوالد ولده، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لذلك لم يقل النبي ﷺ «من لا يرحم ولده لا يرحم»، ولكن قال: من لا يرحم لا يرحم، بحذف المفعول، وذلك يدل على وجوب تعميم الرحمة بالمخلوقات كلها وبقدر ما يرحم المسلم غيره، بقدر ما ينال من رحمة الله، وفي المقابل بقدر ما يبخل المسلم برحمته على غيره، بقدر ما يحرم من رحمة اللَّه - سبحانه وتعالى - فالرحمة من صفات الرب - جل في علاه - واسم من أسمائه الحسنى، فيا حظه السعيد من تمثل بهذه الصفة! ويا شقاء من خلا من تلك الصفة! وجعل بينه وبينها سدًّا منيعًا، وظن أن ذلك من الرجولة والفحولة، وأن الرحمة من الليونة والأنوثة.

ويتفرع عليه: ذم جفاء القلب وغلظته، لأن هذا القلب ليس بمحل لرحمة الناس، كما يتفرع عليه مدح رقة القلب ورحمته، لأن هذا القلب هو المحل القابل لرحمة الناس.

الفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بيان ما أوتيه النبي ﷺ من جوامع الكلم حيث استفدنا كل المعاني السابقة، وما خفي علينا كان أكثر، من جملة تكونت من اسم موصول وحرف نفي وفعل مضارع، ومع تكرار الحرف مرتين والفعل مرتين، أحدهما بُني للمعلوم والآخر للمجهول، لا تشعر بسماعه الأُذُنُ بأي تكلف أو نكارة، بل تشعر بمنتهى الراحة والتجانس، ولا تزداد بتكرار هذا القول إلا حبًّا له واشتياقًا لتكراره، إنه كلام النبوة.

ب - شفقته ﷺ بالخدم:

عَنِ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ: رَأَيْتُ أَبَا ذَرٍّ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلاَمِهِ مِثْلُهَا فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ قَالَ: فَذَكَرَ أَنَّهُ سَابَّ رَجُلاً عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَعَيَّرَهُ بِأُمِّهِ قَالَ: فَأَتَى الرَّجُلُ النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ؛ إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدَيْهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ عَلَيْهِ**»[1].

الشَّاهِدُ فِي الْحَدِيثِ: قول النبي ﷺ: «**ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم**».

(١) البخاري، كتاب: الإيمان، باب: المعاصي من أمر الجاهلية...، برقم (٣٠)، ومسلم، كتاب: الأيمان، باب: إطعام المملوك مما يأكل...، برقم (١٦٦١).

الفَائِدَةُ الأُولَى: في الشمائل النبوية:

١- حرصه ﷺ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولو كان الملام أرفع قدرًا من الملوم فيه، فأبو ذر الغفاري رضي الله عنه من الناحية الاجتماعية، على الأقل، أرفع قدرًا من غلامه، ومع ذلك لامه النبي ﷺ لومًا شديدًا، بأن أثبت له صفة من صفات الجاهلية، وهذا ليس بالأمر اليسير عند صحابي جليل مثل أبي ذر رضي الله عنه.

٢- رفقه وعدله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما رفقه فيتمثل في قوله ﷺ: «**يا أبا ذر**»، فناداه بأحب الأسماء إليه، وهي كنيته، وأما عدله ﷺ فيتمثل في:

أ- أنه ذكر لأبي ذر رضي الله عنه ما فعله قبل أن يوجه إليه العتاب، فقال له: «**أعيرته بأمه**».

ب- لم يصف ﷺ أبا ذر بالجاهلية المطلقة لوقوعه في أمر من أمور الجاهلية، ولكنه ﷺ أثبت له فقط أن فيه جاهلية، أي خصلة من خصال الجاهلية، وهو التعيير بالأم. كما أنه ﷺ لم يزد في نهيه عن المنكر على كلمات معدودات.

والرفق والعدل، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، خصلتان حُرِمَ منهما كثير ممن يَتَصَدَّوْن لهذا العمل في وقتنا الحاضر.

٣- حرصه ﷺ على تعليم الأمة وإرشادها، واستغلال كل مناسبة لبيان الحق في كل مسألة حيث حَوَّلَ القضية من قضية خاصة، إلى قضية عامة، فوجه الخطاب إلى الأمة بأسرها إلى قيام الساعة، فقال ﷺ: «**إخوانكم خولكم...**» إلى آخر الحديث.

٤- شفقته ﷺ بالخدم، وهو أظهر وأعظم ما في الحديث، قال ﷺ: «**إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم؛ فإن كلفتموهم فأعينوهم**»، ومن مظاهر الشفقة في هذا التوجيه النبوي الرفيع:

أ- جعل النبي ﷺ الإخوان هم الخول، (أي الخدم)، وكان من المفترض أن يقول: (خولكم إخوانكم)، أي اتخذوا الخدم كالإخوان وأنزلوهم هذه المنزلة، ولكنه ﷺ قلب الأمر، وقال: «**إخوانكم خولكم**»؛ ليستقر في قلب المسلم أن الخادم هو في الحقيقة أخ له، لا أنه بمنزلة الأخ، لذلك قال ﷺ: «**فمن كان أخوه تحت يده**»، وهذه العبارة تؤكد المعنى الذي ذكرته. فالمسلم إذا تيقن أن الذي تحت يده هو أخوه على الحقيقة فكيف سيعامله.

ب - في قوله ﷺ: «جعلهم الله تحت أيديكم»، بالغُ الحثِّ على حسن المعاملة والرفق معهم في الأمر كله، إذ كيف يعامل المسلم، من جعله اللّه تحت يده، أيجترئ أن يظلمه أو يبخسه أو يحقره، كلا والله، لأنه قطعًا سيخاف من القوي المتين، فالذي وضعه في هذه المكانة لا محالة سَيَسْأل عنه، وتدبر أخي القارئ لماذا لم يقل النبي ﷺ، جعلهم الفقر تحت أيديكم أو (جعلتهم ظروفهم)، أو (جعلهم قَدَرُهم)، ولكن أتى ﷺ بلفظ (الجلالة) ليشعر المسلم بخطورة الأمر وعظم المسئولية، لعظم السائل عنها. كما أن قوله ﷺ: «جعلهم اللّه تحت أيديكم»، يشعر أن الأمر فتنة واختبار من اللّه للمخدوم، أيحسن أو يسيء، يُصَدِّق ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

ج - الأمر بإكرام الخدم، وإطعامهم وإلباسهم من جنس ما يأكل ويلبس المخدوم، لقوله ﷺ: «فمن كان أخوه تحت يديه فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس»، وهذا الأمر لا يقصد به المساواة في المأكل والملبس، وإنما المقصود من جنس ما يأكل ومن جنس ما يلبس، وهو التبعيض الذي دلت عليه (من)، ذكره ابن حجر في الفتح، وقال: (فالمراد المواساة لا المساواة)[1]. ويدل على ذلك أن أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قال النَّبِيُّ ﷺ: «إِذَا أَتَى أَحَدَكُمْ خَادِمُهُ بِطَعَامِهِ، فَإِنْ لَمْ يُجْلِسْهُ مَعَهُ، فَلْيُنَاوِلْهُ لُقْمَةً أَوْ لُقْمَتَيْنِ أَوْ أُكْلَةً أَوْ أُكْلَتَيْنِ، فَإِنَّهُ وَلِيَ عِلاَجَهُ»[2].

د - تحريم تكليف الخدم ما يغلبهم، أي ما يشق عليهم فعلُه، فإن حدث ذلك، فقد وجبت إعانتهم بما يزيل عنهم المشقة، فقد ورد في إحدى روايات البخاري «ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم»، والأصل في النهي التحريم إن لم يصرفه صارف للكراهية، وقد انعدم الصارف هنا.

والحاصل: أن هذا التوجيه النبوي الرفيع، قد جمع فأوعى كل العلاقة التي تربط الخادم بالمخدوم حيث حدد منزلة الخادم من المخدوم، فهو أخ له، وحدد من الذي قَدَّر على الخادم هذا الأمر، إنه اللّه جل في علاه، ونوع المأكل والملبس الذي يلبسه الخادم، فهو من جنس

(١) انظر فتح الباري (٥/ ١٧٤).
(٢) البخاري، كتاب: العتق، باب: إذا أتاه خادمه بطعامه، برقم (٢٥٥٧).

ما يأكل ويلبس المخدوم، وحدود الأعمال التي يقومون بها، وهي كل ما يطيقون ويستطيعون، وإذا تطلب الأمر تكليفهم بأعمال شاقة، فقد وجب إعانتهم، إما بالنفس أو بتوفير آلة لهم تيسر عليهم العمل، أو ندب عامل يساعدهم حتى ينتهي العمل الشاق، ودليله أن الحديث لم يحدد كيفية الإعانة فيدخل فيها كل وسيلة من شأنها رفع المشقة، فإن قال قائل: هناك أمور في العلاقة بين الخادم والمخدوم لم يحددها أو يتطرق إليها الحديث، قلت: تلك الأمور يجب معالجتها في نطاق قوله ﷺ: «إخوانكم خولكم»، فهل يوجد من هو أرحم بالأخ من أخيه.

وأقول لإخواني المسلمين: معاملة الأجير بالحسنى، ابتغاء أجر الله - سبحانه وتعالى - ومحبة اتباع سنة الحبيب، ﷺ لا تظهر ولا تكون إلا إذا أساء الخادم أو الأجير، فهنا يظهر التسامح والعفو والإحسان، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، فهل يكظم الإنسان غيظه ويعفو إلا إذا حدث له ما يغضبه، ولن يبلغ المسلم منزلة الإحسان إلا إذا تقيد بهذه الآية الكريمة، كظم للغيظ ثم عفو ثم إحسان.

هـ - ما أُوتيه النبيُّ ﷺ من جوامع الكلم حيث ذكر الملام والملوم فيه والملام بسببه، في كلمتين «أعيرته بأمه».

الفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: في مناقب أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

١- أمانته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في نقل العلم، ولو كان فيه شيء يجرحه، من حيث الفعل الذي فعله، واللوم الذي وُجِّهَ له، فلم يكتم شيئًا، وهذا يدل على قدر أمانة وصدق الصحابة جميعًا.

٢- همته العالية في اتباع السنة ويتبين ذلك من:

أ - أَخْذه بالأتم والأكمل من أمر الرسول ﷺ فلم يُلْبِس الخادمَ شيئًا مشابهًا لما يلبسه، بل ألبسه من جنس ما يلبس ولو كان هذا الأمر معتادًا لما سأله المعرور بن سويد عن سبب ارتداء خادمه نفس الحلة.

ب - استمرار معاملته للخادم على نفس النهج منذ أن كلمه النبي ﷺ إلى أن سأله التابعي المعرور بن سويد، وهذا يدل على همة عالية، وتمسكهم بسنة المصطفى ﷺ ليس في

حياته فقط ولكن بعد موته أيضًا .

وإذا كان هذا سلوك أبي ذر رضي الله عنه مع خادمه، في الملبس، الذي يُفَضّل الكثير منا أن يتميز به عن خادمه، فكيف كان مسلكه رضي الله عنه ، في مأكله ومشربه ومعاملته مع الخادم، وإذا كان هذا هو مسلك الصحابة في اتباع السنة مع الخادم، فكيف كان اتباعهم السنة فيما هو أعظم من ذلك، كأمور العقيدة والعبادات .

وأظن أن أخذ أبي ذر بالأتم والأكمل في معاملة الخادم، كان على سبيل التوبة إلى اللَّه - عز وجل- لما بدر منه في عهد النبي ﷺ .

الفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: لفتَ النبي ﷺ انتباهنا وعلمنا أن اللَّه -عز وجل- هو مُقَدِّرُ كل شيء، فهو الذي قَدّر الغنى والفقر، وهو الذي جعل الناس يتفاوتون في معايشهم بين مالك ومملوك، وبين خادم ومخدوم، قال ﷺ: «**جعلهم اللَّه تحت أيديكم**»، وإذا كان الأمر من اللَّه بحكمته وتقديره، وجب علينا الرضى والتسليم، قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ﴾ [الزخرف: ٣٢] .

الفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: المعاصي والمخالفات الشرعية من خصال الجاهلية، وبقدر ما عند المسلم من المعاصي والمخالفات، بقدر ما يكون فيه من أمر الجاهلية، قال النبي ﷺ لأبي ذر: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**»، ولكن لا ينبغي أن يوصف المسلم بأنه جاهلي، طالما معه أصل الإيمان ولم يأت بما يناقضه ويخرجه من دائرة الإسلام، لأن اللَّه -عز وجل- أخرجنا بالإسلام من مطلق الجاهلية .

- شفقته ﷺ بعموم المسلمين:

المثال الأول: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «**تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لاَ يُخْرِجُهُ إِلاَّ جِهَادًا فِي سَبِيلِي، وَإِيمَانًا بِي، وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِي، فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلاً مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ، أَوْ غَنِيمَةٍ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ، لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ، وَرِيحُهُ مِسْكٌ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلاَ أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلاَفَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا، وَلَكِنْ لاَ أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ وَلاَ يَجِدُونَ سَعَةً [فيتبعوني]، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ،**

ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ»(١). رواه مسلم وروى البخاري بعضه.

الشَّاهِدُ فِي الحَدِيثِ: قوله ﷺ: **«لَوْلاَ أَنْ يَشُقَّ عَلَى المُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلاَفَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا، وَلَكِنْ لاَ أَجِدُ سَعَةً، فَأَحْمِلَهُمْ وَلاَ يَجِدُونَ سَعَةً فيتبعوني»**، فالنبي ﷺ يود ويحب أن يخرج في كل غزوة وسرية ولا يتخلف أبدًا عن الجهاد، ولكن هناك فئة من المسلمين ليس عندهم مؤنة ليخرجوا للجهاد، وليس عند النبي مؤنة تكفيهم، فستضطر هذه الفئة أن تتخلف عن الخروج، وستشعر بالحرج الشديد لعدم الخروج وعدم الصحبة، لذلك أشفق عليهم النبي ﷺ ورأف بحالهم وقعد خلف السرايا.

وفي الحديث فوائد جمة تظهر في الفوائد التالية:

الفائدة الأولى: حرص النبي ﷺ على أعمال الخير والتقرب إلى ربه -عز وجل- **«لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلف سرية»**، وقوله: **«لوددت أن أغزو في سبيل الله»**.

الفائدة االثانية: عظم أمر الجهاد في سبيل اللَّه وجزيل ثوابه، حتى إن النبي يقسم بربه أنه يود أن يخرج في كل سرية لولا إيثار رفع الحرج عن بعض أفراد الأمة.

الفائدة الثالثة: قد يريد المسلم عمل خير يبتغي به وجه اللَّه -عز وجل- ولكن يُحَال بينه وبين هذا العمل، لسبب خارج عنه، مثل عدم وجود المئونة، ومن هذا نعلم خطأ من يقول: (لو علم اللَّه فيه خيرًا لَيُسِّرَ له ما نوى)، أو الحكم على اللَّه أنه ييسر لمن أراد الخير لا محالة. والحديث حجة في ذلك حيث قال: **«ولا يجدون سعة»**.

الفائدة الرابعة: في الحديث ما يثبت أن النبي عبد من عباد الله، يفتقر إلى اللَّه فيما يفتقر إليه كل العباد، مثل الرزق والصحة وطلب جلب النفع ودفع الضر، إلا أنه فُضِّل على الأنبياء وجميع الناس بما ورد في الكتاب والسنة، وذلك أنه ﷺ لم يجد ما يحمل عليه الفقراء ممن أراد الخروج في سبيل الله، مما اضطره إلى القعود خلف السرية، ولو كان يقدر على رزقهم لرزقهم، حتى لا يتخلف هو عن الغزو، فعلمنا أن هذه الأمور لله وحده لا يشاركه فيها أحد، حتى أحب الخلق إليه وهو النبي ﷺ، وتجد مصداقَ ذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

(١) البخاري، كتاب: الإيمان، باب: الجهاد من الإيمان، برقم (٣٦)، مسلم، كتاب: الإمارة، باب: فضل الجهاد...، برقم (١٨٧٦).

فعلى عموم المسلمين أن يعلموا أن الرزق والإحياء والموت والنفع والضر والشفاء وغير ذلك لله وحده، ولا يطلبونه من أحد إلا الله - سبحانه وتعالى - فإذا كان هذا هو حال الرسول ﷺ لا يملك من أمر الرزق شيئًا، فمن باب أولى من هو دونه.

الفائدة الخامسة: أن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، فهؤلاء لم يخرجوا لعدم الاستطاعة، ومع عدم خروجهم لم يتوجه إليهم اللوم أو العتاب، بل قعد الرسول خلف السرية تطييبًا لخاطرهم.

الفائدة السادسة: هل الذي يقعد خلف السرية لعذر له أجر أم لا؟ نعم له أجر، لحديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ فَدَنَا مِنَ الْمَدِينَةِ فَقَالَ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلاَ قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلاَّ كَانُوا مَعَكُمْ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟! قَالَ: «وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ»(١). رواه البخاري.

فالمؤمن بالنية الصالحة الخالصة يأخذ أجر القائم الصائم المجاهد في سبيل الله، إذا كان له عذر، والله يعلم الصادق من غيره. وهذا من عظيم فضل الله على هذه الأمة.

الفائدة السابعة: يشترط لضمان حصول المجاهد على أجر الجهاد، ثلاثة شروط:

الأول: النية الخالصة التي لا تشوبها شائبة، مثل الرياء، و السمعة، والحمية قال: «**لا يخرجه إلا جهادًا في سبيل**».

الثاني: الإيمان بالله فهو الذي دفعه للخروج يحتسب الأجر والثواب من الله.

الثالث: التصديق برسل الله، ويتضمن الإيمان بكل ما جاء به الرسل من أوامر ونواهٍ، والتصديق بما أبلغونا عن أجر وثواب الخروج في سبيل الله، وهذا هو الذي دفعهم للخروج، وهذا ينطبق على جميع الأعمال التي نتقرب بها إلى الله، فيشترط فيها الإخلاص والتصديق والمتابعة والاحتساب؛ لحديث عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوِ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»(٢).

الفائدة الثامنة: قوله: «**حق على الله**»، أوجبه هو على نفسه، أن يكافئ المجاهد في

---

(١) البخاري، كتاب: المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحجر، برقم (٤٤٢٣).

(٢) البخاري، كتاب: بدء الوحي، باب بدء الوحي، برقم (١)، مسلم، كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ إنما الأعمال بالنية، برقم (١٩٠٧).

سبيله بإحدى الثلاثة على الأقل، إما الجنة في حال موته في سبيل الله، وإما الأجر في حال عدم النصر في المعركة، وإما الغنيمة والأجر في حال النصر، وهذا من البركة العظيمة للجهاد أن لا يخرج منه المسلم صِفْرَ اليدين.

الفائدة التاسعة: في الحديث عظيم حب الصحابة للنبي ﷺ إذ يشق عليهم أن يخرج الرسول في الغزو، ويتخلفوا عنه، ويبدو من الحديث أن تلك المشقة كانت عظيمة، ولولا ذلك ما قعد النبي خلف سرية، وهذا من تربية القرآن للصحابة إذ قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

الفائدة العاشرة: في الحديث أن للخروج في سبيل الله شروطًا حتى يتكفل الله بالثواب، «**لا يخرجه إلا جهادًا في سبيلي**»، وقال: «**ما من كَلْم يُكْلَمُ في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة**»، فاشترط أن يكون لله وإن كان جرحًا يسيرا.

ولما كانت النيات لا يعلمها إلا الله، فلا يحق لنا أن نحكم لأحد أنه مات شهيدًا حيث إننا -إن فعلنا ذلك- فقد حكمنا له بأعلى الدرجات في الفردوس الأعلى، كما أننا زكينا عمله أبلغ تزكية حيث جعلناه كله لله، وهذا منهيٌّ عنه لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]. وقوله ﷺ: «**والله أعلم بمن يُكْلَم في سبيله**»، وهذا ما حمل البخاريَّ أن يبوب في صحيحه باب: [لا يقال فلان شهيد]، وأتى بهذا الحديث آنف الذكر.

الفائدة الحادية عشرة: يستثنى من ذلك - أي حكمنا بالشهادة على أحد من المسلمين بعينه - مَنْ حَكَمَ له الله أو رسوله ﷺ أنه مات شهيدًا أو سيموت شهيدًا، كعمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره من الصحابة كثير، كما يستثنى من ذلك أيضًا، أن تحكم على جماعة من المسلمين قاتلوا في سبيل الله أنهم شهداء، دون تعيين أحد بعينه، ويجب على المسلمين أن لا يَحْملهم حُبُّهم لإمام معين جاهد في سبيل الله، فيما يظهر لنا، أن لا يلتزموا بالسنة فيحكموا له بالشهادة فيقال: الإمام الشهيد، ويشهد لذلك الحديثُ الذي أوردناه في باب: إعلامه بكثير من أمور الغيب، والذي ورد فيه أن النبي ﷺ حكم على أحدِ المقاتلين المجاهدين - فيما يَرَى الناسُ - أنه من أهل النار، بالرغم أن الصحابة قد أثنوا عليه أبلغ

الثناء، لشجاعته وإقدامه وقتله الكثيرَ من الكفار.

الفائدة الثانية عشرة: في الحديث التفات واضح حيث بدأ النبي ﷺ الحديث بكلامه فقال: «**تضمن الله لمن خرج**»، ثم حدث التفات في النص، فجاءت فقرة معترضة في الحديث من كلام الله - عز وجل - كأنه حديث قدسي فقال: «**لا يخرجه إلا جهادًا في سبيلي وإيمانًا بي وتصديقًا برسلي**»، ثم أكمل النبي الحديث من لفظه فقال: «**والذي نفس محمد بيده**»، وهذا يحدث في القرآن كما يحدث في السنة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ [لقمان: ١٣]. ثم حـدث التفات في الآية التي تليها، وكانت من كلام الله - عز وجل - فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ [لقمان: ١٤]، ثم أكمل لقمان النصح لابنه في بقية الآيات، وأرى أن لقمان قد أوصى ابنه بالوالدين إحسانًا، ولكن لما كان شأن الإحسان إلى الوالدين عظيمًا، التفت الخطاب وكان الكلام من الله - عز وجل - وهذا من شاكلة الحديث الذي مضى، فلما كان أمر النية والإخلاص عظيمًا في الجهاد ورد ذكره من كلام الله - عز وجل -.

فالحاصل: أن الالتفات في الكلام، يشد انتباه السامع مع التأكيد على عظيم الكلام الذي تم فيه الالتفات، ولا يشترط في الالتفات أن يتغير شخص المتكلم، فقد يحدث ويكون المتكلم واحدًا، وذلك بتغيير الضمير من المخاطب إلى الغائب، وهذا كثير جدًّا في القرآن الكريم.

الفائدة الثالثة عشرة: ينبني على ذلك أن الشهداء ثلاثة أقسام:

الأول: شهيد الدنيا والآخرة، وهو الذي قاتل لتكون كلمة الله هي العليا بإخلاص ونية.

والثاني: شهيد الدنيا دون الآخرة، وهو الذي يموت سمعة ورياء.

والثالث: شهيد الآخرة دون الدنيا وقد عَدَّهم النبي ﷺ في الحديث الذي رواه أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الشُّهَدَاءُ: الْغَرِقُ، وَالْمَطْعُونُ، وَالْمَبْطُونُ، وَالْهَدِمُ**»[1].

وأحكام الشهداء على النحو التالي:

الأول: لا يُغَسل ولا يُكفن في الدنيا ويدخل الجنة بحول الله.

والثاني: لا يغسل ولا يكفن في الدنيا، وأمره في الآخرة إلى الله -عز وجل- إن شاء عذبه وإن شاء غفر له.

(١) البخاري، كتاب: الأذان، باب: الصف الأول، برقم (٧٢١).

والثالث: يغسل ويكفن ويُصَلَّ عليه، وفي الآخرة يُرْجى له الجنة بشهادته.

الفائدة الخامسة عشرة: في الحديث أن على الإمام أن يرفق بالأمة، وأنه إذا تعارضت المصالح بدأ بأهمها وعليه أن يسعى في إزالة ما يكره المسلمون وما يشق عليهم. ونأخذ منه أيضًا أن درء المفاسد أولى من جلب المصالح، والمفسدة هنا المشقة التي يتكبدها المسلمون بخروج الرسول ﷺ، والمصلحة التي أُخِّرَتْ هي الخروج في سبيل الله.

وأسوق مثالاً، يبين كيف كان النبي ﷺ أرفق الناس بأمته وأبعد الناس عما يشق عليها، فأقول: كانت أحب العبادات إلى النبي ﷺ الصلاة، ومع ذلك كان يدخل الصلاة وفي نيته أن يطيل، يتلذذ فيها بالقراءة ومناجاة ربه - تبارك وتعالى - ومَنْ معه ﷺ من جموع الصحابة - رضي الله عنهم - ولكن كان إذا سمع في تلك الصلاة بكاء صبي، يخفف الصلاة، شفقةً على أمه وكراهية المشقة عليها، ويُفَوِّت على نفسه، وعلى بقية أصحابه، الأجرَ العظيم المترتب على طول الصلاة، شفقة على امرأة واحدة، مَنْ منا يفعل ذلك؟ روى أَبو قَتَادَةَ عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنِّي لأَقُومُ فِي الصَّلاَةِ أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلاَتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ» .(١)

الفائدة السادسة عشرة: فيه تسلية لمن عزم على الطاعة، وحِيلَ بينه وبينها، فلا يظن بنفسه سوءًا، فيقول: لو علم الله في نفسي خيرًا وصدقًا لوفقني للطاعة، كما لا يظن في الله سوءًا فيقول: لِمَ لم يوفقني وأنا ما أردت إلا خيرًا؟ فهذا رسول الله ﷺ أعْبَدُ الخلق لله، وأخلصُهم له نية، يقسم بالله ليود ألا يقعد خلف سرية، ومع ذلك يحال بينه وبين ذلك، والله يقدر على أن يرزقه فيحمل فقراء المسلمين معه، أو يرزق الفقراء، والله - عز وجل - لا تعجزه الأسباب، ولكن شاء الله غير ذلك، وكل مشيئة لله مبنية على الحكمة، التي قد تخفى علينا، فعلى المسلم أن يُسَلِم ويرضى، ولا يتكلف البحث عن حكمة الله في كل شيء، فما بيَّنَه الله من الحِكم حمدناه على ذلك وآمنا بها، وإن كانت على خلاف المعقول بالنسبة للعقول، وما حُجِبَ عنا سلمنا به، وأيقنا أن حكمته - عز وجل - بالغة، فالمسلم لا يؤمن لأن عقله اقتنع بالحكمة أو السبب، بل يؤمن لأنه يعلم أن الله هو الذي أمر ونهى، وحكم وقدر في الأمور القدرية والشرعية، وإن لم نفعل ذلك لكنا مؤمنين بعقولنا، وما تمليه علينا أفهامنا فما قبله العقل قبلناه، وما رده رددناه.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الأذان، باب: من أخف الصلاة عند بكاء الصبي حديث (٧٠٧).

والحاصل: أنه يجب علينا ألا نغتر بمن يحكم عقله في أمور الدين، بل نسلم كما كان يسلم أبو بكر وعمر، فننال ما نالا من الأجر والمثوبة.

المثال الثاني: عنَ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ فَصَلَّ فِي الْمَسْجِدِ، فَصَلَّ رِجَالٌ بِصَلَاتِهِ فَأَصْبَحَ النَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ بِذَلِكَ، فَاجْتَمَعَ أَكْثَرُ مِنْهُمْ فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي اللَّيْلَةِ الثَّانِيَةِ، فَصَلَّوْا بِصَلَاتِهِ فَأَصْبَحَ النَّاسُ يَذْكُرُونَ ذَلِكَ فَكَثُرَ أَهْلُ الْمَسْجِدِ مِن اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ، فَخَرَجَ، فَصَلَّوْا بِصَلَاتِهِ، فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الرَّابِعَةُ عَجَزَ الْمَسْجِدُ عَنْ أَهْلِهِ فَلَمْ يَخْرُجْ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَطَفِقَ رِجَالٌ مِنْهُمْ يَقُولُونَ: الصَّلَاةَ، فَلَمْ يَخْرُجْ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى خَرَجَ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ فَلَمَّا قَضَى الْفَجْرَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ ثُمَّ تَشَهَّدَ فَقَالَ: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ لَمْ يَخْفَ عَلَيَّ شَأْنُكُم اللَّيْلَةَ وَلَكِنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ صَلَاةُ اللَّيْلِ فَتَعْجِزُوا عَنْهَا»(١).

الشَّاهِدُ فِي الحَدِيثِ:

قوله ﷺ: «ولكني خشيت أن تفرض عليكم صلاة الليل فتعجزوا عنها».

بَعْضُ فَوَائِدِ الحَدِيثِ:

الفَائِدَةُ الأُولَى: في الشمائل النبوية:

أ - شفقة النبي ﷺ بهذه الأمة حيث ترك صلاة الليل، في المكان الذي خصصه لنفسه، مخافة أن تفرض صلاة الليل على هذه الأمة، ويعجز البعض عن القيام بها فيأثم بتركها. روت عَائِشَةُ رضي اللَّه عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَحْتَجِرُ (٢) حَصِيرًا بِاللَّيْلِ فَيُصَلِّ عَلَيْهِ وَيَبْسُطُهُ بِالنَّهَارِ فَيَجْلِسُ عَلَيْهِ(٣).

ومن الأحاديث التي توضح شفقته ﷺ بهذه الأمة: ما رواه أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُم الْحَجَّ فَحُجُّوا». فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ قلت: نَعَمْ. لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ، ثُمَّ قَالَ: ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ

---

(١) مسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في قيام رمضان...، برقم (٧٦١).

(٢) يحتجر: أي يتخذه مثل الحجرة فيجعله حاجزًا بينه وبين غيره.

(٣) البخاري، كتاب اللباس، باب: الجلوس على الحصير ونحوه، برقم (٥٨٦٢).

وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ»(١).

وأيضا عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي، أَوْ عَلَى النَّاسِ لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلاَةٍ»(٢).

ب - حكمته ﷺ؛ فقد وازن بين مصالح أداء الناس صلاةَ الليل في المسجد، وهي مصالح عظيمة، منها: تعلق قلوب الناس بالمساجد، وسماع الذكر الحكيم، وزيادة الدرجات بالمشي إلى المساجد، وصلاة الملائكة على من ينتظر تلك الصلاة، وبين مفسدة أن تفرض صلاة الليل على الأمة فيعجز عنها الكثيرون، جزئيًا أو كليًا، فيأثمون على تركها، فدفع ﷺ تلك المفسدة العظيمة بتفويت المصالح المترتبة على صلاة الليل، وهي قاعدة شرعية عظيمة في الشرع وأساسها (أن درء المفاسد أولى من جلب المصالح) ويمكن أن نستدل بهذا الحديث على صحة القاعدة الشرعية المشار إليها.

والذي يؤكد لنا عظيم حكمته ﷺ أن صلاة التراويح في رمضان، أصبحت من زمن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ تقام في المساجد بلا خوف مِنْ فرضها على الأمة فتحققت المصلحة، ودرئت المفسدة، ولله الحمد من قبل ومن بعد.

ج - زهده ﷺ في الدنيا وعدم الالتفات إليها، لما ورد عند البخاري في إحدى روايات الحديث: (كان يحتجر حصيرًا بالليل فيصلي عليه ويبسطه بالنهار فيجلس عليه)، فالأمر كله لم يتعدَّ قطعة حصير، تكون له في الصباح فرشًا يجلس عليه، وفي الليل يحوط به مكانًا فيصلي فيه، والغريب أن قطعة الحصير واحدة للصبح والليل.

د - حسن معاملته ﷺ لأصحابه حيث بَيَّنَ في أول لقاء معهم - وهو صلاة الفجر - سبب عدم الخروج إليهم والحكمة من ذلك.

وهكذا يجب أن يكون دأب الحاكم مع رعيته، الاهتمام بهم، يتمثل في قول الراوي: (فأقبل على الناس)، وعدم تأجيل ما يحتاج إلى بيان إلى وقت لاحق، حتى لا يكثر الكلام وتخرج الإشاعات، مع الاعتذار إليهم عما قد يسبب حرجًا لهم، وشرح حكمة وأسباب ما اتخذه من قرارات قد يراها البعض ضد مصلحتهم، مع الحرص على عدم إنابة غيره، خاصة مع القدرة وأهمية الأمر.

---

(١) مسلم، كتاب: الحج، باب: فرض الحج مرة في العمر، برقم (١٣٣٧).

(٢) البخاري، كتاب: الجمعة، باب: السواك يوم الجمعة، برقم (٨٨٧)، مسلم، كتاب: الطهارة، باب: السواك، برقم (٢٥٢).

وأعتقد أن سبب عدم خروج النبي ﷺ للصحابة بالليل، ليبين لهم الحكمة من عدم صلاته معهم، أنه أراد أن يحسم القضية تمامًا مع علمه ﷺ أنهم في أشد الشوق لخروجه، فرؤيتهم له وهو خارج من بيته يزيد أملهم وشوقهم للصلاة خلفه، فالاعتذار إليهم في مثل تلك الحالة من المؤكد أنه سيسبب لهم حزنًا خاصة إذا علموا أنه لن يصلي بهم مرة أخرى، فكأن النبي ﷺ رأى أن من الأفضل تركهم بالليل، وهم يعلمون أن هناك عذرًا يمنعه من الخروج إليهم، وإن صح هذا الاستنباط، فيكون هذا التصرف دليلاً على حكمته وشفقته ﷺ بالأمة.

الفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: في حرص الصحابة على الخير، ويتمثل ذلك في:

١- اجتماعهم في جوف الليل حتى يصلوا خلف النبي ﷺ.

٢- تحدثهم صباح كل ليلة، بأنهم صلوا القيام بالمسجد، مما كان يزيد عدد المصلين كل ليلة، حتى عجز المسجد بأهله في الليلة الرابعة، وهذا من حرصهم على الخير.

٣- انتظارهم طويلاً أمام بيت النبي ﷺ الليلة الرابعة، لعله يخرج إليهم، وورد في بعض روايات البخاري: (ففقدوا صوته وظنوا أنه قد نام، فجعل بعضهم يتنحنح ليخرج إليهم)، وعنده أيضًا: (فرفعوا أصواتهم وحصبوا الباب)، وهذا مسلك أصحاب الهمم العالية في العبادة، ليس كمثل من يعزم على فعل الخير، فيرده أدنى سبب، فيقول: (قدر اللَّه وما شاء فعل)، ويقول آخر: (إنما الأعمال بالنيات)، ويقول ثالث: (نية المرء خير من عمله)، فليس الأمر بهذه السهولة، أن نطلب الأجر والثواب، دون الرغبة الأكيدة في عمل الخير والحرص عليه وبذل كل الجهد لتحصيله، بل ينبغي الأسى والأسف على فواته، حتى ولو كان الأمر خارج إرادة العبد.

د - شفقته ﷺ بمن ارتكب الكبائر:

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ أَتَتْ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ وَهِيَ حُبْلَى مِنَ الزِّنَى فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ فَدَعَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ وَلِيَّهَا فَقَالَ: «أَحْسِنْ إِلَيْهَا، فَإِذَا وَضَعَتْ فَأْتِنِي بِهَا»، فَفَعَلَ، فَأَمَرَ بِهَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ فَشُكَّتْ عَلَيْهَا ثِيَابُهَا ثُمَّ أَمَرَ بِهَا، فَرُجِمَتْ ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهَا، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: تُصَلِّي عَلَيْهَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَقَدْ زَنَتْ؟! فَقَالَ: «لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدْتَ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ؟!»[1].

(١) مسلم، كتاب: الحدود، باب: من اعترف على نفسه بالزنى، برقم (١٦٩٦).

الشَاهِدُ فِي الحَدِيثِ: أن شفقة النبي ﷺ بهذه الأمة لم تقتصر على الأطفال والخدم، وعموم المسلمين، بل تعدت لتشمل من جاء تائبًا من أهل الكبائر، وسنرى كيف كان تعامله ﷺ مع هذه الفئة من الناس.

بَعْضُ فَوَائِدِ الحَدِيثِ:

الفَائِدَةُ الأُولَى: في مظاهر شفقة النبي ﷺ بمن تاب بعد أن ارتكب كبيرة من أكبر الكبائر، وكذا حكمته في التعامل مع الواقعة.

١ - لـم يوجه النبي ﷺ للمرأة أدنى توبيخ ولم يعنفها، بل لم يَلُمْها على ما فعلت، لأن المرأة قد تابت، فلا ينبغي أن نذكرها بما تكره، لعدم وجود أدنى مصلحة في ذلك، وهذا يدل على بالغ حكمته ﷺ.

٢ - لم يسأل المرأة عن اسم الرجل الذي واقعها، وهذا يدل على أن العفو يجب أن يقدم عند الإمام على إقامة الحد، ما لم يبلغه الخبر، كما أن الستر أولى من الفضيحة، وقد يكون الرجل قد تاب أيضًا.

ويتفرع على ذلك: وجوب عدم تتبع عورات الناس من باب أولى.

٣ - كما أن من حكمته وشفقته ﷺ أيضًا، أنه لم يردها وحدها حتى تضع حملها، بل دعا وليها، ليكون مسئولاً عنها، تلك الفترة، وأمره بالإحسان إليها، وهو أمر جامع، يتضمن كل أوجه الخير الذي يمكن أن يفعله الولي، وهي في أحوج ما يكون لذلك الإحسان، لاحتمال تعرضها لأذًى مِنْ قرابتها، وحرمان من النفقة.

٤ - حرص النبي ﷺ على حماية الجنين الذي في بطن المرأة، فأجل الحد إلى ما بعد الولادة، وفي ذلك إعلان منه ﷺ بتبرئته، وأنه لا يؤخذ بذنب أمه.

٥ - حرص النبي ﷺ على ستر المرأة أثناء إقامة الحد عليها، وعمل ما يضمن ذلك، قال الراوي: (فَشُكَّتْ عليها ثيابها)، مع أن المقام نستبعد فيه أن ينظر أحد إلى المرجومة بشهوة، لكِنِ العورات يجب حفظها في كل حال، وفيه لفتة إلى وجوب الستر من باب أولى وأولى في غير هذا الموضع.

٦ - صلاته ﷺ على المرأة التائبة بعد وفاتها، وقد استعظم عمر رضي الله عنه تلك الصلاة، لأنه يعلم أن صلاته ﷺ سكن ورحمة للمسلمين، في حياتهم وبعد مماتهم، فعلل له النبي ﷺ سبب الصلاة، وهو التوبة النصوح للمرأة.

٧ - ذكر محاسن هـذه المرأة، والثناء عليها أبلغ الثناء حيث قال ﷺ: **«لقد تابت توبة لو قسمت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم»**.

الفَائِدَةُ الثَّانِيةُ: في مناقب المرأة:

١ - أعظم ما فيها هي توبتها النصوح، وعلامتها: أنها قد جاءت من تلقاء نفسها تخبر أنها قد أصابت حدًّا، وتريد إقامة الحد عليها، وقد بين الرسول ﷺ قدر تلك التوبة بأنها تكفي سبعين رجلاً من أهل المدينة.

يتفرع على ذلك: أن التوبة تتفاوت درجاتها، بحسب ما يجده العبد من ندم على ما اقترف، وعزم على عدم العودة، وتَرْكِ كل الأسباب التي قد تؤدي للعودة إلى المعصية.

٢ - خوفها من اللَّه -عز وجل- مع فقهها حيث أرادت أن تجمع بين كفارتين للكبيرة، وهما إقامة الحد مع التوبة، وإن كانت واحدة لتكفي، ولكنها أرادت أن تكون على يقين كامل أنها ستقابل ربها، وليس في صفحتها أدنى مسائلة عن هذه الكبيرة.

٣ - أدبها وعفة لسانها حيث لم تذكر مسمى الكبيرة التي وقعت فيها، لأن التعريض يكفي، فكان كل ما قالته: (يا نبي اللَّه أصبت حدًّا فأقمه علي).

هـ - شفقته ﷺ بمن سبه النبيُّ أو دعا عليه:

عن أَنَس بن مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَتْ عِنْدَ أُمِّ سُلَيْمٍ يَتِيمَةٌ؛ وَهِيَ أُمُّ أَنَسٍ، فَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْيَتِيمَةَ فَقَالَ: «آنْتِ هِيَهْ؟ لَقَدْ كَبِرْتِ، لاَ كَبِرَ سِنُّكِ!»، فَرَجَعَتِ الْيَتِيمَةُ إِلَى أُمِّ سُلَيْمٍ تَبْكِي فَقَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ: مَا لَكِ يَا بُنَيَّةُ؟ قَالَتِ الْجَارِيَةُ: دَعَا عَلَيَّ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ أَنْ لاَ يَكْبَرَ سِنِّي، فَالآنَ لاَ يَكْبَرُ سِنِّي أَبَدًا، أَوْ قَالَتْ: قَرْنِي.. فَخَرَجَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ مُسْتَعْجِلَةً تَلُوثُ خِمَارَهَا حَتَّى لَقِيَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا لَكِ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ؟» فَقَالَتْ يَا نَبِيَّ اللَّهِ: أَدَعَوْتَ عَلَى يَتِيمَتِي؟ قَالَ: «وَمَا ذَاكِ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ؟» قَالَتْ: زَعَمَتْ أَنَّكَ دَعَوْتَ أَنْ لاَ يَكْبَرَ سِنُّهَا وَلاَ يَكْبَرَ قَرْنُهَا. قَالَ: فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: **«يَا أُمَّ سُلَيْمٍ أَمَا تَعْلَمِينَ أَنَّ شَرْطِي عَلَى رَبِّي أَنِّي اشْتَرَطْتُ عَلَى رَبِّي. فقلت: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَرْضَى كَمَا يَرْضَى الْبَشَرُ، وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ فَأَيُّمَا أَحَدٍ دَعَوْتُ عَلَيْهِ مِنْ أُمَّتِي بِدَعْوَةٍ لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ أَنْ يَجْعَلَهَا لَهُ طَهُورًا، وَزَكَاةً، وَقُرْبَةً يُقَرِّبُهُ بِهَا مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟!»**[1].

الشَّاهِدُ فِي الحَدِيثِ: قول النبي ﷺ **«أني اشترطت على ربي فقلت: إنما أنا بشر أرضى كما**

---

(١) مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: من لعنه النبي ﷺ...، برقم (٢٦٠٣).

يرضى البشر وأغضب كما يغضب البشر فأيما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل أن يجعلها له طهورًا وزكاة وقربة يقربه بها منه يوم القيامة».

بعض فوائد الحديث:

الفَائِدَةُ الأُولَى: في الشمائل النبوية:

١- عظيم رحمته وشفقته ﷺ على كل أفراد أمته، حتى عمت تلك الرحمة، كل مسلم دعا النبي عليه أو سبه، قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: (هذه الأحاديث مبينة ما كان عليه ﷺ من الشفقة على أمته والاعتناء بمصالحهم والاحتياط لهم والرغبة في كل ما ينفعهم)[1]. انتهى.

والغريب أن لا ينسى النبي ﷺ مثل هذا الأمر، أي مصير مَنْ وجه إليه السب أو اللعن، بل يحمل همه ويدعو الله -عز وجل-، ويشترط عليه أن يجعل السب أو اللعن الذي توجه به إلى أحد من أصحابه زكاة وقربة يوم القيامة، قربة ممن؟ من الله، - تبارك وتعالى -.

وإن تعجب أخي المسلم، فالأعجب بحق، أن يشترط النبي ﷺ أن ينقلب دعاؤه وسبه للمسلم، زكاة وقربة، وكان من المفترض أن يشترط، ألا يؤاخذ اللَّه -عز وجل- بسبه و دعائه أحدًا، وفي هذا الكفاية، ولكن أن يشترط أن ينقلب الأمر من سب إلى زكاة، ومن لعن إلى قربة، فهذا هو الأعجب بحق.

وأظن أن النبي ﷺ قد اشترط هذا الشرط الأكمل والأتم، تعويضًا لما نال الصحابي الذي سبه من حزن وأسى، وليكون ﷺ الرءوف الرحيم بهذه الأمة، لمن دعا له، أو دعا عليه، وليس بأهل لهذه الدعوة على حد سواء، قال جل في علاه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

٢- عظيم حب اللَّه - سبحانه وتعالى - لنبيه ﷺ ويتجلى ذلك في قوله **«إني اشترطت على ربي»**، كما يتجلى في استجابة المولى - سبحانه وتعالى - لما اشترطه نبيه ﷺ.

٣- تواضعه ﷺ وقد علمنا ذلك من قوله: **«إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر وأغضب كما يغضب البشر»**، وهذا حجة على الذين يريدون أن يرفعوا النبي ﷺ فوق منزلة البشر، في حين أنه ﷺ يثبت لنفسه البشرية في أقل الأمور وهما الرضى والغضب، ولم يقل

---

(١) انظر شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ١٥١).

النبي ﷺ «إني أرضى وأغضب» ولكن قيد المسألة ببشريته ﷺ لأن اللَّه -عز وجل- يرضى ويغضب، وليس رضى الرب وغضبه كرضى البشر وغضبهم؛ فرضى الرب وغضبه موافق للحكمة والحق أبدًا، وأما رضى البشر وغضبهم، فقد لا يوافق الحكمة والصواب ولو مرة واحدة، لذلك قال ﷺ: «فأيما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل».

ودعاء النبي ﷺ على من ليس أهلاً للدعاء عليه، لا يطعن في النبي ﷺ لأنه مأمور بالحكم بالظاهر، ولا يعلم الضمائر والسرائر، كما أننا ضمنا أن هذه الدعوة ستقع زكاة وقربة.

الفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: يقين الصحابة، باستجابة المولى - سبحانه وتعالى - لكل دعوات النبي ﷺ على المسلمين، سواء كان المدعُوُّ عليه، أهلا لهذه الدعوة أم لا ونلمح ذلك فيما يلي:

١- بكاء اليتيمة، لما سمعت دعاء النبي ﷺ عليها أن لا يكبر سنها، والدليل على اعتقادها استجابة دعوة النبي ﷺ قولها: (فالآن لا يكبر سني أبدًا)، فبدأت بقولها: (الآن)، أي من وقتها، وليس من اليوم أو الغد، وهذا شعور منها أن الاستجابة من اللَّه فورية، وختمت قولها بلفظ (أبدًا)، لينفي أي أمل لديها أن تكبر؛ إذ كلمة «أبدا» تستوعب كل المستقبل.

٢- خوف أم سليم الشديد من دعاء النبي ﷺ، وشواهدُه خروجُها مستعجلة في حال ربطها الخمار، ولم تنتظر أن تصلح لباسها كاملاً قبل الهم بالخروج من البيت، ورد في الحديث: (فخرجت أم سليم مستعجلة تلوث خمارها)، بالإضافة إلى ظهور الفزع على وجهها عند مقابلة النبي ﷺ ففي الحديث: فقال لها رسول اللَّه ﷺ: (مالك يا أم سليم)، وتأمل أخي المسلم، كيف قابل النبي ﷺ فزع أم سليم، بالضحك قبل أن يبين لها ما اشترط على ربه، وذلك حتى يذهب ما تجده من حزن وخوف، وتستطيع أن تستوعب ما تسمعه من النبي ﷺ.

الفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أدب الصحابة الجم، مع النبي ﷺ يتبين ذلك مما يلي:

١- كان هم اليتيمة الوحيد لما رجعت إلى أم سليم، أن النبي ﷺ قد دعا عليها، ولم تشغل نفسها، هل هي تستحق الدعاء عليها أم لا؟ لذلك لم يكن في كلامها مع أم سليم - رضي اللَّه عنها - أي من مظاهر الشكوى أو الاعتراض، وأقول: إنها لم تشغل نفسها بسبب الدعاء أو تعترض، لأنها تثق ثقة مطلقة بعدل النبي ﷺ وأنه لا ينطق عن الهوى، وأن

شكواها أو اعتراضها قد يزيد الأمر، وهي تريد أن تنجو وتسلم لا أن تهلك وتتردى.

وأسوق هذا الدرس المستفاد، لكل من يعترض على حكم اللّه ورسوله، ويناقشه، يريد رده بسوء أدب، أقول له: تَعَلَّمْ من جارية يتيمة حديثة السن، واعلم أن اعتراضك وسوء أدبك في مناقشتك لأحكام اللّه ورسوله، لن يغير من الأمر شيئًا، اقتنعت أم لم تقتنع، ويكفيك أن تسأل على عدم امتثالك، فلا تضم إليه السؤال عن عدم أدبك، وهو سؤال يوردك المهالك لا محالة، وهو أعظم من السؤال عن المعصية نفسها.

وتدبر أخي القارئ، حال جارية تسمع بأذنيها الدعاء عليها، وهي تتيقن أن الدعاء مستجاب ولا بد، وتعود إلى بيتها في حال البكاء والخوف، فماذا تقول في حق من دعا عليها؟ أيحملها خوفُها أو حالتها النفسية السيئة أو شدة بكائها أن تنسى مكانة النبي ﷺ لا والله، قالت اليتيمة: (دعا عليّ نبي اللّه ﷺ)، هكذا منتهى الأدب.

٢- قول أم سليم - رضي اللّه عنها - للنبي ﷺ: (زَعَمْتَ أنك دعوت أن لا يكبر سنها)، فهي أيضًا قد راعت عظيم الأدب في كلامها، مع خوفها الشديد على يتيمتها، حيث قالت: (زعمت)، ولم تقل: (قالت)؛ لأنها تعلم من حال النبي ﷺ حُسْنَ خلقه وشفقته ورحمته، وأن الدعاء على أصحابه ليس من شيمته ولا من عاداته، قال الإمام النووي - رحمه اللّه.: (وإنما كان يقع هذا منه في النادر والشاذ من الأوقات، ولم يكن ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا ولا لعانًا ولا منتقمًا لنفسه)[1].

و - شفقته ﷺ بالحيوان

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«إِذَا سَافَرْتُمْ فِي الْخِصْبِ[2] فَأَعْطُوا الإِبِلَ حَظَّهَا مِنَ الأَرْضِ، وَإِذَا سَافَرْتُمْ فِي السَّنَةِ[3] فَأَسْرِعُوا عَلَيْهَا السَّيْرَ، وَإِذَا عَرَّسْتُمْ[4] بِاللَّيْلِ، فَاجْتَنِبُوا الطَّرِيقَ، فَإِنَّهَا مَأْوَى الْهَوَامِّ بِاللَّيْلِ»**[5].

الشَّاهِدُ فِي الْحَدِيثِ:

قوله ﷺ: «إذا سافرتم في الخصب فأعطوا الإبل حظها من الأرض، وإذا سافرتم في

(١) انظر شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ١٥٢).
(٢) الخصب: أي كثرة العشب والمرعى.
(٣) السنة: أي القحط.
(٤) التعريس: أي الوقوف في طريق السفر آخر الليل للراحة أو الأكل أو لقضاء الحاجة.
(٥) مسلم، كتاب: الإمارة، باب: مراعاة مصلحة الدواب في السير...، برقم (١٩٢٦).

السنة، **فأسرعوا عليها السير»**، ومن أوجه الرفق بالحيوان التي أمرنا بها الحديث الأمور التالية:

الأمر الأول: المسافر في حال كثرة العشب والمرعى، عليه أن يقلل السير ليعطي الإبل، أو أي مركوب الفرصة لتأخذ حظها من المرعى، وفي حال القحط وهو قلة المرعى، على المسافر أن يجتهد في السير ليصل إلى غايته قبل أن يلحق الضرر والإعياء بالدواب من قلة المرعى.

الأمر الثاني: كما أن المسافر إذا أراد التعريس، فعليه أن يجتنب صدر الطريق حيث تمشي فيه الدواب والسباع وغيرها من الحيوانات، تلتمس فيه طعامها مما يسقط من السالكين من طعام أو شراب.

الأمر الثالث: يدل مفهوم الحديث على تحريم تعذيب الحيوان، كمن يتخذه هدفًا يصوب عليه، ومن يحبسه بلا طعام ولا شراب، ومن يصطاده ليس بغرض الأكل بل لغرض التسلية، بل وصل بنا الأمر أن نترك الأطفال بل الشباب، يلعبون بهم أحياء ويعذبونهم حتى الموت، ونسينا ما ورد في الصحيح عَن ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ»** [رواه البخاري] [١].

- ومن دلائل الرفق بالحيوان، الحديث الذي يرويه شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ قَالَ: (ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **«إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»**[٢].

١١ - زهده ﷺ في الدنيا:

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ لِعُرْوَةَ: ابْنَ أُخْتِي [٣] إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهِلاَلِ ثَلاَثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَتْ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَارٌ. فقلت: مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ؟ قَالَت: الأَسْوَدَانِ؛ التَّمْرُ وَالْمَاءُ، إِلاَّ أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ جِيرَانٌ مِنَ الأَنْصَارِ كَانَ لَهُمْ

---

(١) البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: خمس من الدواب فواسق...، برقم (٣٣١٨)، مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم تعذيب الهرة....، برقم (٢٢٤٢).

(٢) مسلم، كتاب: الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب: الأمر بإحسان الذبح...، برقم (١٩٥٥).

(٣) كلمة «ابن» منصوبة على النداء.

مَنَائِحُ، وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَبْيَاتِهِمْ فَيَسْقِينَاهُ)[١].

الشَّاهِدُ فِي الحَدِيثِ: قول عائشة رضي الله عنها: (إن كنا لننظر إلى الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أُوقِدَتْ في أبيات رسول اللَّه ﷺ نار).

بَعْضُ فَوَائِدِ الحَدِيثِ:

الفَائِدَةُ الأُولَى: زهده ﷺ في الدنيا، ومن علامات هذا الزهد:

أ - مرور الشهرين: (ثلاثة أهلة) على جميع بيوت النبي ﷺ لا يوقد نار لنضج لحم أو طبخ إدام.

ب - اعتماد النبي ﷺ وأهل بيته على أكل الأسودين التمر والماء: والغريب أن ابن حجر[٢] رحمه الله ذكر أن شبع أهل بيت النبي ﷺ من الأسودين، يمثل الحالة الثانية لهم بعد أن فتح اللَّه عليه قريظة وغيرها، فماذا كانت الحالة الأولى للنبي ﷺ؟.

ج - لم يكن زهد النبي ﷺ مقتصرًا على الطعام والشراب بل تعدى ذلك ليشمل:

- **فراشه ﷺ:** لحديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (فدخلت على رسول اللَّه ﷺ وهو مضطجع على حصير، فجلست، فأدنى عليه إزاره، وليس عليه غيره وإذا الحصير قد أثر في جنبه)[٣].

- **متاعه بالبيت:** ورد في الحديث المشار إليه أعلاه قول عمر رضي الله عنه: (وإذا أَفِيقٌ معلق)، والأفيق: هو الجلد الذي لم يتم دباغه.

- **لباسه:** أوردت في باب إيثاره وجوده ﷺ واقعة المرأة التي نسجت بردة للنبي ﷺ وفيه: (فأخذها النبي ﷺ محتاجًا إليها).

والأغرب من كل ما ذكر، أن النبي ﷺ ما كان يزهد في متاع الدنيا من لباس وغذاء وفراش فقط، بل كان يكره أي شيء يُذَكِّره بالدنيا، روت عَائِشَةُ رضي اللَّه عنها قَالَتْ: كَانَ لَنَا سِتْرٌ فِيهِ تِمْثَالُ طَائِرٍ، وَكَانَ الدَّاخِلُ إِذَا دَخَلَ اسْتَقْبَلَهُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: حَوِّلِي هَذَا، فَإِنِّي كُلَّمَا دَخَلْتُ، فَرَأَيْتُهُ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا)[٤].

---

(١) البخاري، كتاب: الرقاق، باب: كيف كان عيش النبي ﷺ، برقم (٦٤٥٩)، مسلم، كتاب: الزهد والرقاق، برقم (٢٩٧٢).

(٢) انظر فتح الباري (٩/٥٢٧). وفيه خيبر بدلاً من قريظة.

(٣) مسلم، كتاب: الطلاق، باب: في الإيلاء واعتزال النساء...، برقم (١٤٧٩).

(٤) مسلم، كتاب: اللباس والزينة، باب: تحريم تصوير صورة الحيوان، برقم (٢١٠٧).

فكأنه ﷺ أراد أن لا يكون له أدنى تعلق بالدنيا، حتى ولو كان مجرد تذكر عارض يطرأ ثم يذهب، وعلة ذلك أن ينشغل قلبه وعقله ﷺ بالآخرة في كل أوقاته وأحواله.

الفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: هذا الحديث من دلائل نبوته ﷺ حيث ألزم نفسه ونساءه هذا الزهد، ولما تمالأن عليه ليزيد النفقة أبى، ونزل القرآن يؤدب أمهات المؤمنين رضي الله عنهن بالأدب الرباني، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٨].

فخير النبي ﷺ أزواجه في البقاء معه، أو التسريح الجميل، فاخترن جميعُهن الله ورسوله.

ويجب على المكذبين لنبوته أن يتأملوا هذا الزهد، أفرأيتم إن لم يكن نبيًّا، قد علم من نفسه أنه يكذب على الله، فكيف يضيع آخرته بكذبه على الله (حاشا لله)، ويضيع الدنيا بهذا الزهد والتقشف، في الأكل والشرب والملبس والفراش الخشن، مع قدرته على أن يتنعم بأحسن ما فيها، ولا يخفى على أحد تقديمُ أصحابه وحبهم له، فوالله لو طلب أولادهم وما عندهم من مأكل ومشرب، لقدموا ذلك له فرحين مختارين سباقين، أيخفى على أحد أنهم تركوا كل ذلك، وهاجروا من مكة إلى المدينة لله ورسوله، أيفعلون ذلك وهم في شك من أمره؟ وهل يفعل ذلك هو (يضيع الدنيا والآخرة) وهو أرجح الناس عقلاً وأصدقهم قولاً وأكثرهم أمانةً، باتفاق أهلِ عصره قبل البعثة النبوية، ولماذا ترضى الزوجات بهذا الضيق في العيش، والمرأة ما تتزوج من رئيس القوم إلا للجاه والسلطان والمال ومتاع الدنيا.

وكيف يتحقق ذلك لنساء النبي، وكل واحدة منهن تعيش في غرفة واحدة، ومعها في القسمة نساء كثيرات، كان فيهن ذوات الحسب والنسب، بل تأتي المرأة وتهب نفسها لرسول الله، مختارة تتمنى أن يوافق، وقد جاوز الخمسين من عمره، في أي شيء كانت تفكر عندما فعلت ذلك؟! وماذا كانت تأمل أن يقدم لها من الدنيا؟! بل إن الله حرم عليهن أن يتزوجن بعده أبدًا، بل إنه ﷺ لا يُورَث فما تركه كان صدقة، والله ما كانت تفكر إلا في شرف الانتساب لبيت النبوة، وتكون أمًّا للمؤمنين، تُذْكَر في الكتاب المبين، وليست واقعة زيد بن حارثة، ببعيدة عنا، وهو الذي - كما أشرنا - فَضَّلَ الخدمة عنده على الحرية مع أبيه وعشيرته، أيستطيع رجل أن يخدع زوجاته وخدمه في كل أموره طيلة حياته، وهم الذين يطلعون على ما لا يطلع عليه سواهم، ويرون ما لا يراه سواهم، فضلاً عن أصحابه الكثر،

والله، إن ذلك لمن دلائل نبوته ﷺ ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون.

الفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الزهد في الدنيا أولى وأحب إلى الله -عز وجل- من الترف، ولو كان المسلم قادرًا على الترف، لأن النبي ﷺ اختار الدنيا على الآخرة، وما بَرَّرَ ذلك بقلة المال ولكن برره بقوله: **«يا ابن الخطاب أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا»**.

١٢ - شدته ﷺ في الحق

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلاَّ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟»**، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ: **«إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمِ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمِ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»**[1]. [متفق عليه].

الشَّاهِدُ فِي الْحَدِيثِ:

قول النبي ﷺ: **«أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟»**، وقوله: **«لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»**.

بَعْضُ فَوَائِدِ الْحَدِيثِ:

الفَائِدَةُ الأُولَى: في الشمائل النبوية:

١- شدته ﷺ في الحق يتبين من رده ﷺ شفاعة أسامة بن زيد رضي الله عنهما حِبِّه وابن حِبِّه، وقال ﷺ مقولته المشهورة: **«أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟»**، وقد ورد عند مسلم: (فكلمه فيها أسامة بن زيد فتلون وجه رسول الله ﷺ)، فمع أن الشافع هو رجل من أحب الناس للنبي ﷺ اختاره الصحابة بعناية لهذه المهمة، ولكن الأمر لم يختلف عنده ﷺ كما ظن الصحابة فلم ينظر النبي ﷺ إلى من هو الشافع، ولكن نظر إلى المشفوع فيه، وهو حد من حدود الله. وفي هذا دليل على تعظيم النبي ﷺ لحدود الله، وهكذا يجب أن يكون جميع الناس حكامًا ومحكومين.

---

(١) البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث الغار، برقم (٣٤٧٥)، مسلم، كتاب: الحدود، باب: قطع السارق الشريف...، برقم (١٦٨٨).

٢- مساواته ﷺ في إقامة الحدود بين الناس، شريفهم ووضيعهم حيث رد ﷺ شفاعة أسامة بن زيد في امرأة شريفة (قرشية مخزومية) وزاد على ذلك، فقال ﷺ: «وايم اللّٰه لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»، ونقف عند هذه المقولة العظيمة بتأمل فنقول:

أ - بدأها النبي ﷺ بالقسم فقال: «وايم الله» ليزيدنا اهتمامًا بالمقولة، ونعلم أنها ليست على سبيل المبالغة، بل هي واللّٰهِ الحقيقةُ التي لا يماري فيها أحد.

ب - عظيم شرف فاطمة رضي الله عنها حيث مثل بها النبي ﷺ لبيان مساواته بين الحد المتعلق بالضعيف، والحد المتعلق بالشريف، ولو كان هناك أشرف منها، أو أحب إليه منها، لضرب النبي ﷺ به المثل، ومعلوم للجميع حب النبي ﷺ لفاطمة، عليها السلام، فعَن الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي فَمَنْ أَغْضَبَهَا أَغْضَبَنِي»(١).

ج - وتأمل - أخي القارئ - كيف نسب النبي ﷺ فاطمة إليه، ليعظم شأنها ويبين شدته في الحق، فقال: (فاطمة بنت محمد)، ولم يقل: (فاطمة ابنتي)، ليذكرنا بشرفها وقربها منه ﷺ ثم قال في إحدى روايات البخاري: «لقطع محمد يدها»، ولم يقل: (لقُطِعت يدُها)، بصيغة المبني للمجهول، ليعلمنا أن القطع سيكون بأمره، وأن محمدًا الذي هو أبو فاطمة، لن تأخذه الشفقة والحنان الذي يأخذ الوالد بابنته.

٣- حرصه ﷺ على تعليم الأمة حيث قام ﷺ خطيبًا في الناس، عشية يوم أن كلمه أسامة بن زيد، وقال: «إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد»، فحول ﷺ المسألة من مسألة خاصة إلى مسألة عامة، وعَلَّمَ الصحابةَ الحكمة في رده لشفاعة أسامة بن زيد، وبَيَّنَ بذلك مغبة التفرقة في إقامة الحدود على أساس الشرف والنسب.

الفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: يتفاوت حب النبي ﷺ لأصحابه، وقد عَلِم الصحابة ذلك، لذا اختاروا أسامة بن زيد رضي الله عنه ليشفع في المرأة المخزومية وقالوا: (ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول اللّٰه ﷺ)، وهي منقبة عظيمة لأسامة رضي الله عنه.

الفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: حرص الصحابة على الخير والاستغفار على الفور مما قد يقعون فيه من زلات، وعلمهم أن استغفار الرسول ﷺ لهم ليس كاستغفارهم لأنفسهم، لما ورد أن أسامة قال: (استغفر لي يا رسول الله)، وكان هذا منهم امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن

---

(١) البخاري، كتاب: المناقب، باب: مناقب قرابة رسول الله....، برقم (٣٧١٤).

رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

الفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: علم الصحابة رضي الله عنهم بشدة النبي ﷺ في الحق يتبين ذلك من أمرين:

الأمر الأول: قول عائشة رضي الله عنها: (إن قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية)، أي: أقلقهم ولولا علمهم بشدته ﷺ ما أقلقهم أمر المرأة.

الأمر الثاني: بحثهم عن أحد يستطيع أن يفاتح النبي ﷺ يكون مقربًا منه جدًا، قالت عائشة: (فقالوا: ومن يكلم فيها رسول الله ﷺ؟).

١٣ - شجاعته ﷺ:

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ، وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ لَيْلَةً فَخَرَجُوا نَحْوَ الصَّوْتِ، فَاسْتَقْبَلَهُم النَّبِيُّ ﷺ وَقَد اسْتَبْرَأَ الْخَبَرَ وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ، وَفِي عُنُقِهِ السَّيْفُ، وَهُوَ يَقُولُ: «لَمْ تُرَاعُوا، لَمْ تُرَاعُوا» ثُمَّ قَالَ: «وَجَدْنَاهُ بَحْرًا، أَوْ قَالَ: إِنَّهُ لَبَحْرٌ»(١).

الشَّاهِدُ فِي الْحَدِيثِ: قول أنس رضي الله عنه: (كان النبي ﷺ أحسن الناس وأشجع الناس).

بعض فوائد الحديث:

الفَائِدَةُ الأُولَى: كمال شجاعته ﷺ ويتبين ذلك من:

١- قول أنس رضي الله عنه: (كان النبي ﷺ أحسن الناس وأشجع الناس)، أي: إن أنسًا لم ير في حياته، مع ما سمعه من سير الأولين، ومع ما شاهده من حروب وغزوات، مَنْ هو أشجع من النبي ﷺ.

ولكن لماذا وصف أنس النبي ﷺ هنا بقوله: (أحسن الناس) مع أن سياق الحديث عن الشجاعة، وأعتقد أنه قال ذلك، إما لكونه كان يحب أن يمدح النبي ﷺ كلما سنحت له الفرصة، أو أنه كان رضي الله عنه يرى أن من لوازم كونه ﷺ أحسن الناس، أن يكون أشجعهم، وأن الجبان لا يمكن أن يكون محمودًا، أو في مَصَافِّ مَنْ يُحْمَد من الناس.

٢- أنه ﷺ ذهب وحده ليستطلع الخبر الذي أفزعه وأفزع أهل المدينة، وما ذهب وحده

---

(١) البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: الحمائل وتعليق السيف بالعنق، برقم (٢٩٠٨)، ومسلم، كتاب: الفضائل، باب: في شجاعة النبي....، برقم (٢٣٠٧).

ﷺ ليستطلع الخبر من بعيد ثم يأتي أهل المدينة، ولكن ليعالج الأمر، ودليله أنه ﷺ كان متقلدًا سيفه في عنقه. والغريب في هذا الأمر، هو فارق التوقيت الزمني بين خروج النبي ﷺ وخروج أصحابه لاستجلاء الأمر، هو خرج واستطلع الأمر وعاد، والصحابة ما زالوا في طريقهم صوب الصوت، وفارقُ التوقيت يدل على فارق الشجاعة والإقدام، وما عساه ﷺ أن يفعل وحده إذا وجد ما يحتاج إلى منازلة، هل كان ﷺ سيقاتل وحده؟ نعم ألم تسمع لقوله تعالى: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤].

فلا غرابة إذن، ولو لم يكن ﷺ قادرًا وحده على معالجة الأمر لاستنفر غيره معه.

الفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: ما يجب أن يكون عليه القائد، من شجاعة وإقدام، وتضحية بالنفس من أجل مَنْ خلفه، وأن يكون هو صمام الأمن لهم، الذي يهدئهم ويربط على قلوبهم، وألا يؤثر نفسه على نفوسهم في المخاطر، قال ﷺ لأصحابه: **«لم تراعوا لم تراعوا ثم قال: وجدناه بحرًا»**، أي: لا تخافوا ولا تفزعوا.

الفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الشجاعة خلق محمود في الناس ولولا ذلك ما أثنى أنس رضي الله عنه على النبي ﷺ بهذه الصفة، ويتفرع عليه: أن الجبن وصف مشين في المرء، وأقول: إن الشجاعة خلق وسط بين خلقين مذمومين هما الجبن والتهور.

١٤ - صبره ﷺ

أ- صبره ﷺ على أذى المسلمين:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: (كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الْبُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ ضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ)[١].

الشَّاهِدُ فِي الْحَدِيثِ: أن النبي ﷺ تعرض لأذى شديد من الأعرابي، سأذكره مفصلاً، إن شاء الله ومع ذلك صبر بل وأحسن إلى من آذاه.

بَعْضُ فَوَائِدِ الْحَدِيثِ:

---

(١) البخاري، كتاب: اللباس، باب: البرود والحبرة والشملة، برقم (٥٨٠٩).

الفَائِدَةُ الأُولَى: صبر الرسول ﷺ لما يتعرض إليه من أذى، سواء من الكفار، أو المنافقين، أو المسلمين، وتحمل ذلك الأذى في سبيل تألف قلوب الناس، واستمالتهم إلى الإسلام، امتثالاً للتوجيه الرباني، في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وسنستعرض أوجه الأذى الذي تعرض إليه الرسول ﷺ من الأعرابي، ليتبين لنا مدى صبر النبي ﷺ وهو الكريم العزيز على ربه.

١ - جاء الأعرابي للرسول ﷺ من خلفه، وهذا من سوء الأدب، مع مقام النبوة.

٢ - جبذه جبذة شديدة من ردائه، أثرت على عنقه ﷺ.

٣ - لم يناد على الرسول بقوله: يا رسول الله، بل وجه إليه الخطاب مباشرة باسمه، فقال: يا محمد، وهذا منهي عنه، لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

٤ - لم يراع الأدب في الخطاب حيث كلمه من الخلف، وأمره بالعطاء أمرًا لا تلطف فيه، ثم ذكر للرسول ﷺ أن المال الذي عنده لا حق له فيه، لأنه مال الله، قال الأعرابي: (مر لي من مال الله الذي عندك). وهذا منتهى سوء الأدب، ويخالف ما أُمِرْنا به من آداب في الآية التي ذكرتها آنفًا.

الفَائِدَةُ الثَانِيةُ: جميل صبر النبي ﷺ على الأذى، وعدم رد الإساءة بمثلها، بل كان الرد، بما هو أحسن، وليس بالحسن، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، ويتمثل الرد الأحسن للنبي ﷺ في أنه ضحك للأعرابي، مع أن الأعرابي كان غاية أمله العطاء، وليس التبسط معه، ثم أمر له بالعطاء، فلم يمنع الرسول ﷺ أن يعطي جميل ما عنده، بسوء ما عند الأعرابي، قال أصـــدق القائلين: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

الفَائِدَةُ الثَالِثَةُ: ما ينبغي أن يكون عليه الأمراء والرؤساء وأهل العلم وأهل الحسبة، من صبر على أذى الناس، وغلظة قولهم في بعض الأوقات، وألا يحملوا في قلوبهم شيئًا لمن آذاهم حيث ضحك النبي ﷺ للأعرابي، لإعلامه و إعلامنا، أنه لم يحمل له في قلبه شيئًا.

ب - صبره ﷺ على أذى الكفار:

عنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ:

هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ فَقَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَا لِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ فَانْطَلَقْتُ، وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ، فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ -عز وجل- قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ قَالَ: فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، وَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمِ الأَخْشَبَيْنِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»(١).

الشَّاهِدُ فِي الحَدِيثِ: أن النبي ﷺ قد لاقى أذًى شديدًا من قومه فاحتمل ذلك وصبر عليه، ولم يتعجل هلاك قومه، ولم يَدْعُ عليهم بالاستئصال، بل رجا أن يخرج اللَّه من أصلابهم من يوحد اللَّه ولا يشرك به شيئًا.

بعض فوائد الحديث:

الفَائِدَةُ الأُولَى: في شمائل النبي ﷺ:

١- عظيم ما لاقاه النبي ﷺ من أذى في سبيل الدعوة إلى اللَّه تعالى حيث إنه اضطر إلى الذهاب إلى الطائف، بعد موت خديجة رضي اللَّه عنها وموت عمه أبي طالب، رجاء أن يجد فيها من يؤويه وينصره ويمنعه من الكفار، فردوا عليه بأقبح رد، بل أنهم أغروا به سفهاءهم فأدْمَوْا قدمه ﷺ فرجع من الطائف مهمومًا، ولم يُفِقْ إلا في قرن الثعالب (٢)، السيل الصغير حاليًا، وكان هذا اليوم عند الرسول ﷺ أشد من يوم أحد.

٢- مظاهر عظيم اعتناء اللَّه - سبحانه وتعالى - بنبيه ﷺ:

أ- أن اللَّه -عز وجل- أرسل سحابة تظل نبيه ﷺ وعلمنا أن السحابة أُرسلت خصيصًا له، من قوله ﷺ «فإذا أنا بسحابة قد أظلتني»، فإذا هنا تدل على المفاجأة، مما يدل على أن

---

(١) قرن الثعالب: بسكون الراء هو ميقات أهل نجد تلقاء مكة على يوم وليلة. انظر معجم البلدان [قرن].

(٢) البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة، برقم (٣٢٣١)، مسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: ما لقى النبي...، برقم (١٧٩٥).

السحابة لم تكن في السماء وما كان يدل على تكونها شيء، بالإضافة إلى قوله ﷺ قد أظلتني، ولم يقل: أظلت المكان، لإشعارنا أنها جاءت لتظله هو لا غيره.

ب - غضب الله العظيم لِمَا قاله أهل الطائف للرسول ﷺ لقول جبريل عليه السلام: «**قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك**»، ومما يدل على أن غضب الرب جاء لتوجيه خطاب لا ينبغي أن يُتَوَجّه به إلى النبي ﷺ أن جبريل عليه السلام قد استخدم كاف المخاطبة في قوله: «**قول قومك لك**»، وفي قوله: «**وما ردوا عليك**»، ومما يدل على حدوث الغضب إرسال جبريل عليه السلام ومعه ملك الجبال.

ج - إرادة الله - سبحانه وتعالى - التسرية عن رسوله ﷺ عما لاقاه من قومه، وإعلامه أن أهل الأرض، إذا آذوه وعاندوه وعادوه، فإن الله القوي العزيز، هو مؤيده وناصره، وكذا ملائكته الكرام، ويتجلى ذلك في إرسال جبريل، أعظم الملائكة، ومعه ملك الجبال، عليهما السلام، ونلمح في الإرسال ما يلي:

- كان من الممكن إرسال ملك الجبال وحده، للرسول ﷺ لإنفاذ أمره في قومه، ولكن الله -عز وجل- أراد إظهار حفاوته برسوله ﷺ خاصة في هذا الموقف الصعب، فأرسل جبريل، يُعَرِّف النبيَّ ﷺ بملك الجبال، قبل حديث ملك الجبال معه، وهذا منتهى التكريم.

- تلطف ملك الجبال في الحديث مع رسول الله ﷺ إذ قاله له: «**وقد بعثني ربك**» ولم يقل له: (وقد بعثني ربي)، وقد يكون ذلك من باب الأدب أيضًا، وهو أن يضيف لفظ الرب - تبارك وتعالى - إلى الأعلى منزلة، وهو الرسول ﷺ.

- من عظيم إكرام الله - سبحانه وتعالى - لنبيه ﷺ أن أمر ملك الجبال بالذهاب إلى الرسول ﷺ فيأتمر بأمره، وينفذ له ما يشاء في قومه، وكأنَّ هذا تفويض مفتوح من الله - سبحانه وتعالى - لملك الجبال أن يفعل ما يأمره به النبي ﷺ حتى دون الرجوع إلى الله، قبل تنفيذ الأمر، وتَدَبَّرْ قول ملك الجبال: «**لتأمرني بأمرك فما شئت**»، ولم يكتف بقوله: (لتأمرني)، وكان في ذلك الكفاية.

ويتفرع على ذلك: علم الله - سبحانه وتعالى - حكمة النبي ﷺ وإلا ما أمر ملك الجبال بطاعته طاعة مطلقة.

د - حقق الله - سبحانه وتعالى - رجاء رسوله ﷺ أبلغ تحقيق، بأن أخرج من أصلاب

من آذوه وكفروا به، من يعبد اللَّه وحده لا يشرك به شيئًا .

الفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ : عظيم شفقة النبي ﷺ بأمته ، وأنه لم ينتقم لنفسه منهم ، بل غلب عليه جانب الرحمة ، مع أن ملك الجبال قد عرض عليه أمرًا واحدًا وهو الإهلاك ، وإذا تدبرت رد النبي ﷺ : «**بل أرجو أن يخرج اللّه من أصلابهم من يعبد اللّه وحده لا يشرك به شيئًا**» ، رأيت فيه :

١- **أدبه الجم مع مَلَكِ الجبال**، مع أنه دونه في المنزلة حيث إن كل ما قاله له ردًا على عرضه أن يهلك من آذوه : «بل أرجو» ، ولم يقل له : (لا تفعل) ، أو (دعني وشأنهم) ، بل ذكر أدنى حرف يفيد الإضراب عن قوله ، وهو «بل» . ثم ذكر له السبب الداعي إلى عدم قبوله مبدأ الإهلاك ، وهذا أيضًا من الأدب الجم .

٢- **أدبه مع الله ، خالقه ومولاه ، ويتمثل في :**

أ - قوله ﷺ : «أرجو» ، فإذا كان أمر الهداية ، بيد اللَّه وحده ، فليس للعبد إلا الرجاء .

ب - إعلانه أن خروج الذرية الصالحة ، من أصلاب الرجال ، إنما هو بأمر اللَّه وتوفيقه حيث ذكر أن فاعل «يُخْرج» ، هو اللَّه قال ﷺ «**بل أرجو أن يُخْرِج اللّه من أصلابهم**» ، فلم ينسب لنفسه شيئًا .

٣ - كما أنه لم يذكر نفسه أيضًا لما ذكر عقيدة من يأمل أن اللَّه سيخرجهم من أصلاب الكفار ، فقال «**من يعبد اللّه وحده لا يشرك به شيئًا**» .

الفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ : عظيم قدرة اللَّه - سبحانه وتعالى - في خلقه ، تتمثل في خَلْق ملك واحد ، يوكل إليه أمر الجبال كلها ، وهي من أعظم مخلوقات هذا الكون الفسيح ، ونعلم منه أيضًا ، بالغ حكمة اللَّه -عز وجل- في تدبير ملكه الواسع ، بأن جعل لكل قسم من أقسام مُلْكه ، مَلَكا يُنَفِّذ أمر اللَّه في هذا الكون ، ليس هذا من باب عجز الله ، في القيام بذلك وحده - حاشا لله - بل لإظهار حكمته وقوته وعظمته ، فالملائكة لا تفعل شيئًا إلا بإذنه وأمره ، قال تعالى : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، فهو - سبحانه وتعالى - القائم بنفسه على كل ما خلق وذرأ ، بما في ذلك ملائكته الكرام الذين وكلوا بأمور عظيمة .

الفَائِدَةُ الخَامِسَةُ : جواز أن يقول العبد : (أنا) ، وليس في ذلك حرج ، شريطة أن لا يقولها زهوًا أو تكبرًا ، لورود النهي عن ذلك ، كما أنه من التكلف أن يقول المسلم : (أنا

وأعوذ بالله من كلمة أنا)، ودليله من الحديث، قول ملك الجبال: «وأنا مَلَك الجبال» وقوله ﷺ في حديث الشفاعة: «أنا سيد الناس يوم القيامة»(١).

ج- صبره ﷺ على أقدار الله المؤلمة

المثال الأول: عَنْ أَنَسٍ ﵁ قَالَ: (لَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ جَعَلَ يَتَغَشَّاهُ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ - عَلَيْهَا السَّلَام - وَاكَرْبَ أَبَاهُ. فَقَالَ لَهَا: «لَيْسَ عَلَى أَبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ الْيَوْمِ». فَلَمَّا مَاتَ قَالَتْ: يَاأَبَتَاهُ أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ، يَاأَبَتَاهْ مَنْ جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ مَأْوَاهْ، يَاأَبَتَاهْ إِلَى جِبْرِيلَ نَنْعَاهْ، فَلَمَّا دُفِنَ قَالَتْ فَاطِمَةُ - عَلَيْهَا السَّلَام - يَاأَنَسُ أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ التُّرَابَ؟)(٢).

الشَّاهِدُ فِي الْحَدِيثِ: أن النبي ﷺ لما حضرته الوفاة ثقلت عليه سكرات الموت، وكان يُغْشَى عليه ثم يُفِيق، حتى قالت فاطمة واصفة ما كان يلقاه ﷺ من الشدة: (واكرب أباه) ومع ذلك لم يقل ﷺ كلمة تدل على التضجر وعدم الصبر.

بَعْضُ فَوَائِدِ الْحَدِيثِ:

الفَائِدَةُ الأُولَى: إرادة الله - سبحانه وتعالى - الخير بالنبي ﷺ وذلك أنه يضاعف عليه شدة الألم، سواء في المرض أو في سكرات الموت، ليضاعف له الأجر يوم القيامة، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا! قَالَ: «أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ». قلت: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قَالَ: «أَجَلْ، ذَلِكَ كَذَلِكَ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى، شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا إِلاَّ كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا»(٣).

يتفرع على ذلك: أن نعلم أن من مقتضيات حكمة الله -عز وجل- ربط الأسباب بالمسببات، فَرَبَطَ الأجر بالعمل، حتى مع الأنبياء وهم أحب الخلق إليه، وكان من الممكن أن يجازي الأنبياء بالأجر العظيم دون أن يضاعف عليهم شدة المرض وشدة سكرات الموت، فعلى المسلم أن يصبر ويسترجع في كل ما يلاقيه في دنياه، من مصائب وكرب وفتن

(١) البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: ذرية من حملنا مع نوح... برقم (٤٧١٢)، مسلم، كتاب: الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٤).

(٢) البخاري، كتاب: المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته، برقم (٤٤٦٢).

(٣) البخاري، كتاب: المرض، باب: أشد الناس بلاءً الأنبياء...، برقم (٥٦٤٨)، مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض...، برقم (٢٥٧١).

وأمراض، فلعل اللّه -عز وجل- يريد أن يرفع درجته في الآخرة، وقد بينت ذلك في أكثر من موضع.

الفَائِدَةُ الثَانِيَةُ: ما يجب أن يكون عليه المسلم من حسن الظن بالله عند الموت، وأن يُغَلِّب الرجاء على الخوف، لقول النبي ﷺ: **«ليس على أبيك كرب بعد اليوم»**، وعلى المسلم أن يتذكر في ذلك الوقت، ما ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **«قَالَ اللَّهُ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»**[1].

الفَائِدَةُ الثَالِثَةُ: تعظيم الرسول ﷺ في نفوس الصحابة رضي اللّه عنهم حيث قالت فاطمة عليها السلام لأنس رضي الله عنه: (يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول اللّه ﷺ التراب)، فبرغم أن هذا الأمر ضروري، بل هي سنة النبي ﷺ عند الدفن، إلا أنها استعظمت أن يقوم الصحابة بفعل يخالف في ظاهره المحبة والتعظيم، الذي ينبغي أن يسلكه كل أحد مع النبي ﷺ في حياته ومماته، وقد تكون استعظمت أيضًا، أن قيام الصحابة بإحثاء التراب، هو إعلان أن هذا آخر عهدهم في الدنيا بالنبي ﷺ.

وإذا تدبرت أخي القارئ، حال الصحابة مع رسولنا الكريم ﷺ عرفت أوجه تقصيرنا معه، سواء في الحب أو التعظيم أو الشوق إليه. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

الفَائِدَةُ الرَابِعَةُ: جواز نعي الميت بما هو أهله، وليس هذا من النياحة، لقول فاطمة، رضي الله عنها: (يا أبتاه أجاب ربًّا دعاه يا أبتاه مَنْ جنة الفردوس مأواه يا أبتاه إلى جبريل ننعاه).

ولكن ينبغي على المسلم، أن لا يذكر في نعيه لميت، أنه في جنة الفردوس، أو أنه مغفور له، أو يشهد أن اللّه قد أكرمه، لما ورد أن امرأة من الأنصار قالت تنعي عثمان بن مظعون: (رحمة اللّه عليك أبا السائب، فشهادتي عليك، لقد أكرمك اللّه فقال النبي ﷺ: **«ما يدريك أن اللّه قد أكرمه؟»** فقالت المرأة: بأبي أنت يا رسول اللّه فمن يكرمه الله؟! فقال لها النبي ﷺ: **«أما هو فقد جاءه اليقين واللّه إني لأرجو له الخير، واللّه ما أدري، وأنا رسول الله ما يُفْعَل بي»**، فقالت المرأة: فواللّه لا أزكي أحدًا بعده أبدًا)[2]، وهذا القول من الرسول ﷺ على نفسه قبل أن يوحى إليه أن اللّه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

---

(١) البخاري، كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾، برقم (٧٥٠٥). مسلم، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: الحث على ذكر الله تعالى، برقم (٢٦٧٥).

(٢) البخاري، كتاب: الجنائز، باب: الدخول على الميت...، برقم (١٢٤٣).

المثال الثاني: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَبِي سَيْفٍ الْقَيْنِ، وَكَانَ ظِئْرًا لإِبْرَاهِيمَ فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِبْرَاهِيمَ فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ، ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَذْرِفَانِ. فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رضي الله عنه : وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ: يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ. ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى فَقَالَ ﷺ: «إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إِلاَّ مَا يَرْضَى رَبُّنَا وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ»[1].

الشَّاهِدُ فِي الحَدِيثِ: أن النبي ﷺ أصابه مثلُ ما يصيب الناس، من أقدار اللَّه المؤلمة، كالمرض والجوع وفراق الأحباب، وما أصابه في هذا الحديث، هو موت الولد، المحبب إلى الوالد، خاصة إذا لم يكن عنده غيره، فصبر صبرًا جميلاً، وهو الصبر الذي لا نياحة فيه، ولا شكوى ولا جزع ولا اعتراض على قضاء اللَّه وقدره.

بَعْضُ فَوَائِدِ الحَدِيثِ:

الفَائِدَةُ الأُولَى: في الشمائل النبوية

١ - رقة قلب الرسول ﷺ ويتمثل ذلك في:

أ - تقبيل وشم ابنه وقت مرضه.

ب - بكاؤه لما رأى إبراهيم يجود بنفسه، أي يحتضر.

ج - حزن قلبه، لما مات ابنه إبراهيم وأعلم أصحابه بهذا الحزن، فقال ﷺ: **«وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»**.

٢- أدبه مع اللَّه -عز وجل- ورؤيته له في كل أحواله حيث إنه ﷺ لم يقل - مع حزنه الشديد - أي كلمة تدل على جزعه وعدم صبره، وبرر ذلك بعدم إرادة قول ما لا يُرْضِي الربَّ - سبحانه وتعالى - قال ﷺ: **«ولا نقول إلا ما يَرْضَى ربُّنا»**.

الفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بكاء العين وحزن القلب - عند نزول المصائب - لا يقدح في إيمان العبد وتسليمه بقضاء اللَّه وقدره، وقد استشكل الأمر على الصحابي، عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه عندما رأى بكاء النبي ﷺ وحزنه فقد كان يظن أن البكاء والحزن، لا يناسب مقام النبوة، فقال متعجبًا: (وأنت يا رسول الله؟!)، أي: وأنت يجوز في حقك الحزن

---

(١) البخاري، كتاب: الجنائز، باب: قول النبي ﷺ: إنا بك لمحزونون.....، (١٣٠٣).

والبكاء، فبين له النبي ﷺ أن هذا من الرحمة قال ﷺ «يا ابن عوف إنها رحمة».

يتفرع على ذلك: خطأ من يقول: إنني أفرح بكل أقدار الله - سبحانه وتعالى - ويريد أن يجعل هذا الفرح علامة على حبه لله، فأقول له: لن يكون حبك لله -عز وجل- كحب النبي ﷺ له، ومع ذلك أبدى الحزن والبكاء، ونخشى على من لا يبكي ويحزن، أن يكون قد نُزِعَت الرحمة من قلبه؛ قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [النجم: ٤٣].

د - صبره ﷺ على أذى المنافقين وأذى المسلمين وأقدار الله المؤلمة:

عن عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ، فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزَاةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ سَهْمِي فَخَرَجْتُ مَعَهُ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ، فَأَنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجٍ وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلَ وَدَنَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى الرَّحْلِ فَلَمَسْتُ صَدْرِي فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ أَظْفَارٍ قَد انْقَطَعَ؛ فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي، فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ فَأَقْبَلَ الَّذِينَ يَرْحَلُونَ لِي فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ - وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَثْقُلْنَ وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، وَإِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ مِنَ الطَّعَامِ [(١)] فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ الْقَوْمُ حِينَ رَفَعُوهُ ثِقَلَ الْهَوْدَجِ فَاحْتَمَلُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ فَبَعَثُوا الْجَمَلَ وَسَارُوا فَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَمَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ فَجِئْتُ مَنْزِلَهُمْ وَلَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ، فَأَمَمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونَنِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ. فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ فَنِمْتُ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَأَتَانِي - وَكَانَ يَرَانِي قَبْلَ الْحِجَابِ - فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ، فَوَطِئَ يَدَهَا فَرَكِبْتُهَا فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَ مَا نَزَلُوا مُعَرِّسِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى الْإِفْكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ، ابْنُ سَلُولَ، فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ بِهَا شَهْرًا، وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ مِنْ قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكِ وَيَرِيبُنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لَا أَرَى مِنَ النَّبِيِّ ﷺ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَمْرَضُ، إِنَّمَا يَدْخُلُ فَيُسَلِّمُ ثُمَّ يَقُولُ «كَيْفَ تِيكُمْ؟» [(٢)] لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى نَقَهْتُ [(٣)] فَخَرَجْتُ

---

(١) أي القليل منه.

(٢) يعني: كيف هذه؟أو كيف هي؟ بدون ذكر اسمها.

(٣) نقهت: أي قاربت على الشفاء.

أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ مُتَبَرَّزُنَا لاَ نَخْرُجُ إِلاَّ لَيْلاً إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُنُفَ [١] قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا، وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الأُوَلِ فِي الْبَرِّيَّةِ أَوْ فِي التَّنَزُّهِ، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ بِنْتُ أَبِي رُهْمٍ نَمْشِي فَعَثَرَتْ فِي مِرْطِهَا فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ؛ فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلاً شَهِدَ بَدْرًا؟! فَقَالَتْ: يَا هَنْتَاهْ أَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالُوا؟ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الإِفْكِ فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَلَّمَ فَقَالَ: «كَيْفَ تِيكُمْ؟» فَقُلْتُ: ائْذَنْ لِي إِلَى أَبَوَيَّ، قَالَتْ: وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَتَيْتُ أَبَوَيَّ فَقُلْتُ لِأُمِّي: مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ؟ فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ هَوِّنِي عَلَى نَفْسِكِ الشَّأْنَ، فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ إِلاَّ أَكْثَرْنَ عَلَيْهَا، فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! وَلَقَدْ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِهَذَا؟! قَالَتْ: فَبِتُّ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ [٢] وَلاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ [٣] يَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِالَّذِي يَعْلَمُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْوُدِّ لَهُمْ، فَقَالَ أُسَامَةُ: أَهْلُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلاَ نَعْلَمُ وَاللَّهِ إِلاَّ خَيْرًا، وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْكَ وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ وَسَلِ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَرِيرَةَ فَقَالَ: «يَا بَرِيرَةُ، هَلْ رَأَيْتِ فِيهَا شَيْئًا يَرِيبُكِ؟»، فَقَالَتْ بَرِيرَةُ: لاَ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنْ رَأَيْتُ مِنْهَا أَمْرًا أَغْمِصُهُ عَلَيْهَا قَطُّ أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تَنَامُ عَنِ الْعَجِينِ فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ يَوْمِهِ فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«مَنْ يَعْذُرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلاَّ خَيْرًا، وَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلاً مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلاَّ خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلاَّ مَعِي»**، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا وَاللَّهِ أَعْذُرُكَ مِنْهُ، إِنْ كَانَ مِنَ الأَوْسِ ضَرَبْنَا عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا فِيهِ أَمْرَكَ.

فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلاً صَالِحًا وَلَكِنْ احْتَمَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ فَقَالَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ، لاَ تَقْتُلُهُ وَلاَ تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ فَقَالَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَنَقْتُلَنَّهُ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ، فَثَارَ الْحَيَّانِ الأَوْسُ

---

(١) الكنف: المكان الذي يقضي فيه الإنسان الحاجة.

(٢) أي لا ينقطع.

(٣) أي تأخر.

وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ فَنَزَلَ فَخَفَّضَهُمْ حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ، وَبَكَيْتُ يَوْمِي لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، فَأَصْبَحَ عِنْدِي أَبَوَايَ، وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا حَتَّى أَظُنُّ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي، قَالَتْ: فَبَيْنَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي إِذ اسْتَأْذَنَتِ امْرَأَةٌ مِن الأَنْصَارِ فَأَذِنْتُ لَهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجَلَسَ وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مِنْ يَوْمِ قِيلَ فِيَّ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ مَكَثَ شَهْرًا لاَ يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي شَيْءٌ، قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ ثُمَّ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا فَإِنْ كُنتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ، وَإِنْ كُنتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ»، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، وَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أقول لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيمَا قَالَ: قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أقول لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ: وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لاَ أَقْرَأُ كَثِيرًا مِن الْقُرْآنِ فقلت: إني وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ سَمِعْتُمْ مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ وَوَقَرَ فِي أَنْفُسِكُمْ، وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي بَرِيئَةٌ - وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنِّي لَبَرِيئَةٌ - لاَ تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ، وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّي، وَاللَّهِ مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلاً إِلاَّ أَبَا يُوسُفَ إِذْ قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، ثُمَّ تَحَوَّلْتُ عَلَى فِرَاشِي وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يُبَرِّئَنِي اللَّهُ، وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا ظَنَنْتُ أَنْ يُنْزِلَ فِي شَأْنِي وَحْيًا، وَلَأَنَا أَحْقَرُ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يُتَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ فِي أَمْرِي، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ، فَوَاللَّهِ مَا رَامَ مَجْلِسَهُ وَلاَ خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ حتى أُنزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِن الْبُرَحَاءِ [1] حتى إنهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ مِن الْعَرَقِ فِي يَوْمٍ شَاتٍ، فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَضْحَكُ فَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ لِي: «يَا عَائِشَةُ احْمَدِي اللَّهَ فَقَدْ بَرَّأَكِ اللَّهُ»، فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: لاَ وَاللَّهِ لاَ أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلاَ أَحْمَدُ إِلاَّ اللَّهَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ...﴾ الآيَاتِ، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ: وَاللَّهِ لاَ أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ مَا قَالَ لِعَائِشَةَ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فَقَالَ

---

(١) البرحاء: أي الشدة والتغير الذي كان يعتريه ﷺ عند نزول الوحي.

أَبُو بَكْرٍ: بَلَى، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ الَّذِي كَانَ يُجْرِي عَلَيْهِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْأَلُ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي فَقَالَ: «يَا زَيْنَبُ مَا عَلِمْتِ مَا رَأَيْتِ؟» فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلاَّ خَيْرًا، قَالَتْ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالْوَرَعِ)(١).

الشَّاهِدُ فِي الحَدِيثِ:

كانت هذه الحادثة العظيمة في غزوة المريسيع، في السنة الرابعة، كما رجح العلماء؛ لأنه ورد فيها ذكر سعد بن معاذ رضي الله عنه وقد توفي سعد بن معاذ إثر إصابته في غزوة الخندق، والخندق بالاتفاق في السنة الرابعة من الهجرة المباركة، وكان النبي ﷺ إذا أراد الخروج أقرع بين نسائه، فخرجت القرعة لعائشة رضي اللّه عنها وفي طريق العودة من الغزوة ذهبت عائشة تقضي حاجتها بعيدًا عن أنظار الجيش، وبعد قضاء حاجتها فقدت عقدًا لها كان في صدرها فرجعت تبحث عنه، وفي أثناء ذلك أمر النبي الجيش بالرحيل، فلما عادت عائشة إلى نفس المكان، وجدت أن القوم قد ارتحلوا وأن الذين حملوا هودجها ووضعوه على البعير لم ينتبهوا أنها ليست بداخله، وذلك لصغر سنها وخفة وزنها، ثم كان من القصة ما هو معلوم، المهم أن النبي ﷺ في هذه الحادثة صبر على إيذاء المنافقين، ومنهم: عبد اللّه بن أبي بن سلول، فهو الذي أشاع خبر الإفك في المدينة، لأنه أول من رأى عائشة رضي اللّه عنها تلحق بالجيش عند الظهيرة، ويقود راحلتها صفوان بن المعطل رضي الله عنه.

كما صبر على إيذاء بعض الصحابة مثل مسطح وغيره ممن خاض في عرضه، وهو أغلى ما يملك الإنسان، وإذا كان الإنسان يغضب غضبًا شديدًا، لا يملك فيه نفسه، إذا تكلم أحد وخاض في عرضه وقد يقتل خصمه في ذلك، بل قد يقتل نفسه إذا عجز عن الذب عن عرضه وتبرئة أهله، فما بالكم بالنبي ﷺ أشرف الناس، إذا تعرض لذلك، وهو الذي يأمر الناس بالعفة والطهارة وصيانة الأعراض، يتعرض لذلك ولا يستطيع أن يعتزل الناس أو يترك بلده ويسافر بعيدًا لأنه النبي المرسل، بل كان يخرج للناس كل يوم يصلي بهم ويخطب فيهم الجمع ويعظهم، وهو يعلم ما يقال في عرضه أي مصيبة هذه، وكيف تحملها النبي ﷺ، واللّه لو حدثت لأحدنا لتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعه، لكنه النبي ﷺ الذي

(١) البخاري، كتاب: الشهادات، باب: تعديل النساء بعضهن بعضًا، برقم (٢٦٦١)، مسلم، كتاب: التوبة، باب: في حديث الإفك...، برقم (٢٧٧٠).

رباه اللَّه -عز وجل- على الصبر وتحمل الصعاب، ليأخذ من الأجر والثواب ما يسبق به الأولين والآخرين سواء من النبيين أو المقربين، أضف على ذلك انقطاع الوحي عنه طيلة حديث الناس عن أم المؤمنين، وكان يمكن أن ينزل الوحي من أول يوم ليعلن براءتها، بل كان من الممكن أن ينزل الوحي ببراءتها قبل وقوع الحادثة، وهذا يحدث في القرآن كثيرًا، ولكن اللَّه -عز وجل- لحكمة يعلمها، أراد أن يكتمل عقد البلاء على النبي ﷺ فحبس عنه الوحي، فيكثر الخوض من الذين لم يعصمهم اللَّه -عز وجل- ويتأكد الخبر في القلوب المريضة، وهذا ما أردته في عنوان الباب بقولي: (صبره على أقدار اللَّه المؤلمة)، وهو انحباس الوحي، وذلك علمناه من قول عائشة ﵂ في الحديث: (فدعا رسول اللَّه على بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما)، واستلبث أي أبطأ ولم ينزل. ولكن كانت المنحة بعد المحنة، وهو ما ستراه مبسوطًا - بحول اللَّه تعالى في العبر والدروس المستفادة والتي أسردها بحسب تسلسل الواقعة لا من حيث الأهمية وفيها:

الدرس الأول: القرعة بين النساء في الخروج لغزو أو غيره، وهذا يطيب خاطرهن، ويحقق العدل في معاملتهن، وهذا ما كان يحرص عليه النبي ﷺ مع زوجاته.

الدرس الثاني: قولها: (فخرجت معه بعدما أنزل الحجاب فأنا أحمل في هودج)، نعلم من ذلك أن الهودج كان بمثابة تمام الحجاب في حق أمهات المؤمنين؛ لأن عائشة ﵂، إنما بررت حملها في الهودج، بنزول الحجاب.

الدرس الثالث: قولها: (حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني)، فيه أن من يريد قضاء حاجته، عليه أن يذهب بعيدًا حتى لا يراه أحد ولا يؤذي أحدًا برائحة ونحوها، وفيه أيضًا ما كان عليه الصحابة من عفة لسان فتقول عن قضاء الحاجة والذهاب إلى الغائط، (فلما قضيت شأني)، وهذا يدل على كمال الأدب وعظيم التربية، فإذا كان هذا في حفظ اللسان، فهم رضي اللَّه عنهم للأعراض أحفظ، وهذا ليس بغريب ممن رباه القرآن الكريم وأدبه، ألم تسمع لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّنٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، وقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وقوله -سبحانه وتعالى-: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]. بل انظر إلى قمة العفة والتربية الربانية: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]. فما بال بعضنا وصل في الكلام إلى كل ما هو قبيح ومبتذل، في الألفاظ والعبارات، قد خلع برقع الحياء، لا يتغير وجهه إذا سمع كلمة نابية أو جملة مشينة، ليس له في القرآن أسوة ولا في كلام خير البرية قدوة، وليت الأمر توقف عند

ذلك، بل سب وشتم وطعن في الأعراض وهتك للحرمات هزلاً وجدًّا، أيُّ ابتعاد هذا عن القرآن والسنة، بل عن المروءة والنخوة، ونزعم مع هذا أننا نتبع الكتاب والسنة، فهذا قول عائشة رضي الله عنها حجة علينا، أفلا نتوب إلى الله ونستغفره، ونعود إلى أحسن الأقوال والأفعال، لا فرق في ذلك بين رجل أو امرأة، وصغير وكبير، فالحياء كله خير ولا يأتي إلا بخير، فليقل عليك الناس أنك متخلف، و أنك لا تفهم في الدنيا شيئًا، بل حتى لو شبهوك بالنساء في حيائك، وأي فضل لك أعظم من ذلك، أن يشبهوك بما شُبِّه به النبي ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري، عنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، فَإِذَا رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ)[1] . هذه ليست سُبّة بل مِدْحَة ما بعدها مِدْحة، فإذا وصفوك بذلك فاعلم أنك بالأثر مُقْتَفٍ وبالسنة مُحْتَفٍ.

وانظر إلى ما قالته عائشة في نفس الحديث تخبرنا بما دار بينها وبين أمها، تستعلم منها حديث الإفك فقالت: (فقلت لأمي ما يتحدث به الناس)[2]، لم ترو لنا ما قالته لأمها على سبيل التفصيل، لأنه كلام لا داعي للتلفظ به بل يلمحون به فقط، وفي ذلك غناية عن التصريح، فكان كل كلامهم بحساب، تعلموا ذلك من النبي، روى البخاري عن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»، فأدبه جعله لم يعد الجملة الأخيرة فقال: «**فهجرته إلى ما هاجر إليه**»[3] وعف لسانه عن ذكر المرأة والدنيا، خاصة أنها هجرة لا يحبها الله -عز وجل-.

الدرس الرابع: جواز أن تأخذ المرأة شيئًا من زينتها في السفر، ولو كان غزوة، لأن عائشة رضي الله عنها وضعت عقدًا في صدرها، ولكن لا يراه الناس، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١]، وفيه المحافظة على المال وصيانته وعدم إضاعته وبذل الجهد في ذلك، لقول عائشة رضي الله عنها: (فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه). مع أن العقد لم يكن من ذهب ولا فضة، وقد يؤخذ من ذلك حرمة تضييع المال بغير طائل، وصرفه

---

(١) البخاري، كتاب: الأدب، باب: من لم يواجه الناس بالعتاب، برقم: (٦١٠٢)، مسلم، كتاب: الفضائل، باب: كثرة حيائه ﷺ، برقم: (٢٣٢٠).

(٢) ويحتمل أيضًا أن تكون «ما» استفهامية، ويكون المراد أنها سألتها قائلة: بماذا يتحدث الناس؟

(٣) البخاري، كتاب: الإيمان، باب: ما جاء إن الأعمال بالنية...، برقم: (٥٤)، مسلم، كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية....»، برقم (١٩٠٧).

فيما لا ينفع ولا يجدي، أما سمعت إلى العلماء كيف أجازوا قطع المصلي صلاته، إذا تعدى أحد على ماله ولو كان عودًا من أراك (أي سواك)، لا ثمن له، وكان ذلك لصيانة المال وحفظه.

الدرس الخامس: رحيل الجيش لا يكون إلا بإذن قائد الجيش لقولها: (أذن ليلة بالرحيل)، وله أن يكلف غيره بأوامره، لقولها: (فقمت حيث آذنوا بالرحيل).

الدرس السادس: جواز خروج النساء للغزو، لقولها رضي الله عنها (فأقرع بيننا في غزاة).

الدرس السابع: أدب الصحابة الجم خاصة مع أمهات المؤمنين حيث احتمل القوم الهودج، ووضعوه على البعير وهم يظنون أن عائشة رضي الله عنها فيه، حتى إنهم لم يلقوا عليها السلام ولو أنهم قد اعتادوا ذلك لعلموا أن عائشة ليست بداخل الهودج لعدم سماعهم رَدَّها للسلام.

الدرس الثامن: نساء الصحابة في العصر النبوي - أي أغلبهن - كن يقتصدن في الطعام، لذلك كن خفاف الوزن، وهذا يحث عليه الشرع في قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]، وهذا من معجزات القرآن الكريم، لأننا علمنا الآن أن أغلب أمراض العصر من الإسراف في المأكل والمشرب وما يلازمهما من عادات سيئة.

الدرس التاسع: قولها: (وكان صفوان بن المعطل السلمي من وراء الجيش)، أظن أن وجوده من وراء الجيش، لم يكن لحاجة عرضت له كما ذكر الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ، بل أظن أنه كان من عادة النبي في أسفاره أن يتخلف رجل وراء الجيش، يتفقد المكان بعد صدور القوم، والذي يؤكد هذا المفهوم قولها: (من وراء الجيش)، يشعر أنه مكلف أن يكون من وراء الجيش، فلم تقل حبسه حابس، أو أنه تخلف لعذر، فإن صح الاستنباط ففيه دليل واضح على حكمة النبي في قيادة الجيش، ونستدل أيضًا على حكمته في إدارة الجيش، أنه ما قصد غزوة إلا وَرَّى بغيرها، كما ثبت في الصحيح.

الدرس العاشر: فطنة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وحكمتها رغم حداثة سنها، لأنها لما قصدت هودجها ورأت أن القوم قد ارتحلوا لم يحملها جَزَعُها أو خَوْفُها من التصرف المتسرع، فتذهب مثلاً تقتفي أثر الجيش فتضل الطريق، بل انتظرت في نفس المكان الذي فقدوها فيه لعلهم يرجعون، وإلى الآن كثير منا لا يجيد هذا التصرف عند تخلفه عن رفقائه في السفر

خاصة النساء، فيتعطل الركب.

الدرس الحادي عشر: حفظ اللَّه -عز وجل- لعرض نبيه حتى في أصعب الظروف، فعائشة رضي الله عنها قد تخلفت عن الركب وهي حديثة السن، وغلبها النوم، ومعلوم حال من غلبه النوم، ولم يكن مستعدًا له، فقد يتكشف دون أن يدري، ومع كل ذلك قالت رضي اللَّه عنها: (فرأى سواد إنسان نائم)، أي أنه لم ير منها شيئًا حتى وجهها، ولكنه عرفها من هيئتها، فإنه كان يراها ويعرف هيئتها قبل أن ينزل الحجاب وتلتزم الهودج، وفيه أيضًا ورعها وحشمتها حتى في أحوال السفر والنوم.

الدرس الثاني عشر: كمال حياء الصحابة وأدبهم الجم، خاصة مع أمهات المؤمنين، ولو كن حديثات السن، فالأمر سواء، حيث إن صفوان بن المعطل استرجع لما علم حال عائشة رضي اللَّه عنها فكأنه استعظم في نفسه تَخَلُّفَهَا عن الجيش ونومها في الطريق، وشعر أن تلك مصيبة عليه أن يسترجع منها، فقد عَلَّمهم اللَّه - تبارك وتعالى - ما يقولونه عند نزول المصائب، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة: ١٥٦].

ونكتة أخرى أنه لم يكلم عائشة رضي اللَّه عنها كلمة واحدة، ولم تسمع منه غير الاسترجاع، كما ورد في روايات أخرى، فماذا سيحدث لو قال لها: (اصبري، لا تخافي، لن أتركك حتى تعودي إلى أهلك)، ولكن هيهات أن يحدث ذلك منهم.

الغريب أنه ما قال لها: اركبي، بل أناخ لها البعير فركبت، وما أردفها وراءه وقاد هو البعير، وما تحجج بحر الشمس، كل ذلك لم يحدث، فسبحان الله، لم يستطع الشيطان أن يُدْخل عليه ولو كلمة واحدة.

الدرس الثالث عشر: الذي أشاع الإفك هو: عبد اللَّه بن أبي بن سلول، ومع ذلك لم يُقِم عليه النبي حد القذف، فقيل: لأنه لم يتكلم صراحة بل عَرَّضَ في كلامه فقط، وقيل: إن اللَّه -عز وجل- جعل عذابه في الآخرة ولم يشأ اللَّه أن يطهره من هذه الكبيرة بإقامة الحد عليه، لأننا نعلم أن الحدود مكفرات للذنوب في الدنيا قال تعالى في حقه متوعدًا له: ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النور: ١١].

الدرس الرابع عشر: ما كان عليه النبي من ملاطفة أزواجه خاصة عند المرض، لقول عائشة رضي اللَّه عنها: (إني لا أرى من النبي اللطف الذي كنت أرى منه حيث أمرض)،

ولكنه ﷺ ما ترك الكلام مع عائشة بالكلية، فكان يسلم، ويقول: كيف تيكم أي: كيف حالكم، وهذا من عدله وتوسطه ﷺ حيث لا يستطيع أن يتبسط في الكلام بعد الذي سمع وهو بشر يتغير قلبه ويتأثر، ولا يستطيع أيضًا أن يقاطع عائشة رضي اللَّه عنها؛ لأنه لم يعلم صدق ما يقولون.

الدرس الخامس عشر: المؤمن يبتلى بالأمراض، كما حدث لعائشة رضي الله عنها بل يبتلى بالهموم والغموم، كما ابتلي النبي ﷺ وأهله في هذه القصة، وهذا يجري على الصالح والطالح، وقد يُرْفع المرض بالدعاء وبغير دعاء، وقد يستمر المرض مع الدعاء والاحتساب أيامًا طويلة بل سنوات مديدة، وهذا كله لا يدل على رضى اللَّه عن العبد أو سخطه عليه، فزوال المرض بعد مدة يسيرة لا يدل على أن اللَّه يحب هذا العبد، وبقاء المرض فترة طويلة لا يدل على عدم رضى اللَّه عنه، فكل تلك الأحوال غيبيات، لا يعلمها إلا الله، وليس عندنا فيها برهان من الكتاب أو السنة، فلا نحكم بغير علم، ويجب علينا أن لا نتكلف في كل واقعة مثل مرض أو فقر أو غنى، فنسأل: هل ربنا راضٍ عن فلان أم لا؟ أعطاه لأنه يحبه أم لأنه يبغضه؟ وهل شفاه لأنه استجاب دعاءه؟ أم تأخر الشفاء لأنه ما دعا اللَّه مخلصًا، هذا كله ليس من السُّنة في شيء، ولم يتكلم به الصحابة ولم يتكلفوه، ألم تر إلى النبي كم توجع في مرض الموت أيامًا عديدة حتى إنه يريد الصلاة، فيغشى عليه عدة مرات، ألم تر أنه كان يتوجع توجع رجلين، ألم تر إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، السلالة الشريفة الطاهرة، بكى وحزن سنوات طويلة حتى ذهب بصره، ألم يكن في تلك الفترة راضيًا محتسبًا صابرًا، لماذا لم يرفع اللَّه عنه مع أول دعاء له، وكلنا يعرف قصة أيوب عليه الصلاة والسلام، كيف مرض وزاد عليه البلاء، والأمثلة كثيرة، فكل ما يحدث للعبد وينزل به لا يدل على الرضى من الرب - تبارك وتعالى - أو السخط، وكذا في كل الأمور والأقضية، فما الذي يدلنا إذن على رضى اللَّه عنا؟ أقول: إن شيئًا واحدًا هو الذي يدلنا على ذلك، وهو أن يشعر العبد بتقوى اللَّه في قلبه في السر والعلن، هو أن يرضى ويسلم لقضاء اللَّه وقدره، هو أن يحرص على اتباع كل ما جاء به القرآن والسنة الصحيحة، وإذا أساء أو تكاسل أو فرط - وكل ذلك حادث منا - استغفر وتاب وأناب إلى اللَّه وشعر بعظم الذنب لعظم مَنْ أذنب في حقه، هذا الذي يبشر العبدَ برحمة اللَّه ورضاه، أما غير ذلك فلا، إذا أردت أن تعرف منزلتك عند ربك فانظر إلى منزلة ربك في قلبك، إذا أردت أن تعلم هل اللَّه -عز وجل-

راضٍ عنك، فاسأل نفسك هل أنت راضٍ عن الله؟ وهكذا.

الدرس السادس عشر: ما كان عليه العرب الأُوَل وكذا الصدر الأول للعصر النبوي من التنزه عن القاذورات حيث كانوا يتخذون الكنف بعيدًا عن البيوت، لقول عائشة رضي الله عنها: (وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبًا من بيوتنا وأَمْرُنا أمرُ العرب الأول في البرية أو في التنزه).

الدرس السابع عشر: ما كان عليه الصحابيات من الحشمة في الملبس، عند الخروج من بيوتهن ولو كان خروجهن ليلاً، لقول عائشة رضي الله عنها: (فعثرت في مرطها)، ولو لم يكن اللباس سابغًا إلى الأرض ما تعثرت فيه، وكان التعثر فيه أهون عليهن من رفعه قليلاً عن الأرض.

الدرس الثامن عشر: حب الصحابيات لأمهات المؤمنين وتعظيمهن وتقديمهن على أنفسهن وأولادهن، أعز ما يملكون، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، مما يحدو بالمرأة أن تسب ولدها وتدعو عليه، وهي تعلم أن دعاءها قد يستجاب، وذلك لأن ولدها قد خاض في عرض أم المؤمنين عائشة رضي اللَّه عنها يدلك على ذلك قول أم مسطح في الحديث: (تعس مسطح)، ولم يكن هذا الشعور من أم مسطح وحدها، فاقرأ ما ورد في بقية الحديث قالت عائشة رضي اللَّه عنها: (إذ استأذنت امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي)، انظر أخي القارئ، امرأة من الأنصار كأنها غير معروفة أو مشهورة، تأتي لعائشة رضي اللَّه عنها تواسيها وتبكي بالدموع حزنًا مما قيل عن عائشة، فهذا مقام أمهات المؤمنين عندهن.

الدرس التاسع عشر: تعظيم اللَّه والنبي والملائكة و الصحابة -مَنْ شهد بدرًا- وأنه لا ينبغي التعرض لهم أو الطعن فيهم فإن لهم مكانة خاصة في الإسلام، وذلك لقول عائشة رضي اللَّه عنها لأم مسطح: (أتسبين رجلاً شهد بدرًا)، فقد أنكرت عليها السب لولدها لأنه شهد بدرًا، يصدق ذلك الحديث الذي رواه مُعَاذ بْن رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ الزُّرَقِيُّ عَنْ أَبِيهِ - وَكَانَ أَبُوهُ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ - قَالَ: جَاءَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بدْرٍ فِيكُمْ؟ قَالَ: مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ»، أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا. قَالَ: «وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِن الْمَلَائِكَةِ»[1].

ومن هذا نعلم أن الصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا كلهم في مرتبة واحدة من السبق

(١) البخاري، كتاب: المغازي، باب: شهود الملائكة بدرًا، برقم (٣٩٩٢).

والفضل، بل هم متفاوتون في الدرجات، على حسب أعمالهم وسبقهم للإسلام وتصديقهم لرسول اللَّه ﷺ ولكن في النهاية كلهم عدول أخيار، اختصهم اللَّه - سبحانه وتعالى - بنعمة عظيمة، وهي صحبة النبي ﷺ، ويُصَدِّق ذلك أي تفاوت الفضل قولُه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ [الحديد: ١٠].

الدرس العشرون: في الحديث أن المسلم يحزن ويمرض، إذا سمع كلامًا يؤذيه ويطعن في عرضه، خاصة إذا كان من أهل العلم والفضل، حتى وإن كان هذا الكلام كذبًا يعلم من حاله ونفسه أنه مبرأ منه، ولكن لما كثر الخبث واعتاد الناس على الكلام القبيح، والطعن في الأنساب، أصبح كثير من الناس لا يبالي بما يقال عنه ولا يحزن ولا يمرض، كما مرضت عائشة رضي اللَّه عنها بل يقول: كلام الناس كثير، وهذا مما عمت به البلوى، وقد يؤخذ من الحديث أن على المسلم أن يتجنب مظان السوء، وأن يتجنب كل شبهة قد تطوله، فَيُبَرِّئ عرضه قبل أن يخوض الناس فيه، لأن هذا شيء عظيم على النفس، انظر كيف أحزن عائشة حتى مرضت. بل قالت في موضع آخر من الحديث: (فبت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم).

أي: إن بكاءها لم ينقطع طوال الليل ولم تذق طعم النوم، وكيف تنام بعد أن سمعت ما يقول الناس واللَّه لوددت أني افتديتها من هذا بأبي وأمي وأهلي جميعًا، فهذا أهون، من أن تخدش واحدة من أمهات المؤمنين ولو بكلمة أقل من ذلك بكثير، وقالت في موضع آخر: (وقد بكيت ليلتين ويومًا حتى أظن أن البكاء فالق كبدي).

ونستدل على أن المسلم يجب أن يبرأ عرضه، وأن لا يضع نفسه في مظان السوء كما أشرت سابقًا، بما روته صَفِيَّة بِنْت حُيَيٍّ قَالَتْ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُعْتَكِفًا فَأَتَيْتُهُ أَزُورُهُ لَيْلاً فَحَدَّثْتُهُ، ثُمَّ قُمْتُ فَانْقَلَبْتُ، فَقَامَ مَعِي لِيَقْلِبَنِي، وَكَانَ مَسْكَنُهَا فِي دَارِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، فَمَرَّ رَجُلاَنِ مِنَ الأَنْصَارِ، فَلَمَّا رَأَيَا النَّبِيَّ ﷺ أَسْرَعَا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ». فَقَالاَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا سُوءًا، أَوْ قَالَ: شَيْئًا»[1].

الدرس الحادي والعشرون: أن المرأة لا تخرج من بيتها إلا بإذن زوجها، حتى في حال المرض الذي لا يتوق فيه الرجل إلى امرأته في غالب الأحيان، ويؤخذ منه أيضًا: أن من

(١) البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: صفة إبليس وجنوده برقم (٣٢٨١)، مسلم، كتاب: السلام، باب: بيان أنه يستحب لمن رئي خاليا بامرأة وكانت زوجته أو محرمًا له أن يقول هذه فلانة....، (٢١٧٥).

حسن المعاشرة أن يأذن الرجل لامرأته إذا استأذنته للذهاب لأبويها، خاصة إذا كان ذلك في حال المرض أو لمصلحة أخرى، كما هو الحاصل في القصة التي معنه، كل كذلك استفدناه من قول عائشة ﵂: (فقلت: ائذن لي، ثم قولها فأذن لي).

الدرس الثاني والعشرون: الصلة الوثيقة التي تكون بين الأم وابنتها خاصة إذا كانت حديثة السن، وما يجب أن تكون عليه البنت مع أبيها، من حشمة وحياء في الكلام ولو كانت متزوجة حيث ذهبت عائشة لبيت أبويها، وحدثت أمها فقط بما يقول الناس، ولم تفاتح أباها، قالت رضي الله عنها: (فأتيت أبوي فقلت لأمي . . .)، وفيه أيضًا: أن لفظ الأبوين يطلق ويراد به الأب والأم، من باب التغليب، كما تقول العرب على الشمس والقمر: القمران، وهذا كثير في الكتاب والسنة.

الدرس الثالث والعشرون: فضيلة ما بعدها فضيلة لعائشة ﵂ وذلك في قول أم عائشة: (لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها).

والفضيلة العظمى أن النبي ﷺ كان يحبها أكثر من سواها من الناس، هكذا يعلم جميع الصحابة، وكان النبي ﷺ يعلن ذلك عندما يُسْأل عن أحب الناس فيجيب إنها عائشة، كما ورد عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﵁: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَهُ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السُّلَاسِلِ، فَأَتَيْتُهُ. فقلت: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «عَائِشَةُ». فقلت: مِنَ الرِّجَالِ. فَقَالَ: «أَبُوهَا». قلت: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ»، فَعَدَّ رِجَالًا[1].

الدرس الرابع والعشرون: السنة أن الصاحب يقف بجوار صاحبه وقت المحن والشدائد، خاصة إذا كان صاحبه من أهل الفضل والخير، ويعلم براءته، لا أن يوغر صدره ويهيج مشاعره، وهذا ما فعلته أم عائشة ﵂ فقد قالت لعائشة: (هوني على نفسك)، وبررت لها ما يقول الناس بقولها: (لقلما كانت امرأة وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها).

الدرس الخامس والعشرون: الضرائر جمع ضرة، وسميت الضرة ضرة لأنها تتضرر بالغيرة والقسم لوجود زوجةٍ غيرها، نعلم من ذلك أن الضرر اللاحق بالزوجة من وجود أخرى موجود لا محالة - إلا النذر اليسير - بدليل أن اسمها ضُرّة لتضرُّرِها، والله قد أحل

(١) البخاري، كتاب: المناقب، باب: قول النبي ﷺ: لو كنت متخذًا خليلًا....، برقم (٣٦٦٢)، مسلم، كتاب: في فضائل الصحابة، باب: فضائل أبي بكر الصديق....، برقم (٢٣٨٤).

للرجل الزواج بأربعة، وهو يعلم الضرر الواقع عليها.

وهنا بعض الأمور التى يجب ذكرها بالمناسبة وهي:

١- أن الشريعة الإسلامية الغراء لم تبتدع تعدد الزوجات، فقد كان ذلك الأمر موجودًا ومتعارفًا عليه، لا أقول: قبل الإسلام ولكن كان موجودًا على مدى العصور، فما فعلته الشريعة الغراء أن قيدت عدد الزوجات بأربعة فقط وأمرت بتسريح بقية النساء، وقيدت الزواج نفسه بشروط، منها العدل في القسم، و القدرة على الإنفاق، قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣]، والعدل المقصود هنا ليس هو العدل المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩]، فالعدل في الآية الأولى يقصد به العدل في النفقة والقسمة، وغير ذلك من الأمور التي بيد الرجل، أما العدل في الآية الثانية فالمقصود به العدل في حب القلب، وهذا غير ممكن، لأن القلب لا إرادة للإنسان فيه، وعجبت من الذين يجعلون العدلين أمرًا واحدًا، فيقولون: أمرنا اللَّه بالعدل في الآية الأولى، وحكم باستحالة هذا العدل في الآية الثانية وينبني على ذلك - عندهم - عدم جواز تعدد الزوجات.

٢. ولكن إذا ثبت وجود الضرر للزوجة من التعدد، واللَّه يعلم ذلك، فلماذا أباح اللَّه -عز وجل- التعدد؟، أقول:

٣- قبل كل شيء يجب علينا، رجالاً ونساءً، أن نُسَلِّم لحكم اللَّه -عز وجل- وأن نقول كما عَلَّمنا اللَّه تعالى: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، يجب علينا الرضى والقبول، لأننا أولاً وأخيرًا عباد لله رضينا به ربًّا، فكيف لا نرضى به إلهًا يحكم ويشرع، ويجب علينا أن نعلم أنه سبحانه وتعالى ما شرع التعدد إلا لحكمة بالغة أدركها من أدركها، وغفل عنها من غفل، وليس من الأدب أن نرضى بحكم اللَّه إذا وافق مصالحنا، ونسخط ونعترض إذ لم يأت على هوانا وما نحب، كلا والله، الأمر كله لله، قال عز من قائل: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقد ذم اللَّه -عز وجل- من يسخط على حكمه إذا لم يجد هَوًى في نفسه، أو يوافق مصلحة له، ويرضى نفس الشخص، إذا كان الحكم في صالحه فقال في الحالة الأولى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النور: ٤٨]، وقال في الحالة الثانية: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [النور: ٤٩].

٤- أقول للزوجة: إن من حقك قبل الزواج أن تشترطي على الزوج في العقد أن لا

يتزوج بأخرى، فإن خالف وتزوج فلك أن تطلبي الطلاق بغير خلع، وللقاضي أن يحكم بذلك، وإن لم تشترطي وتزوج بأخرى، ولم يعدل فيما يكون فيه العدل فلك أن تطلبي الطلاق للضرر، ويحكم لك القاضي أيضًا، أما أن المحاكم تطول إجراءاتها، والزوج يتلاعب ويتجاهل ويهرب، والمحامي يُزَوِّر ويُرْشي فهذا لا يلام عليه الشرع، ولا يقدح في الحكم، فالعيب فينا، لبعدنا عن الإسلام وعدم تمسكنا بتعاليمه، وحتى إذا طبقت الشريعة وجاء رجل وظلم زوجته، أنعيب على الشرع؟ بالطبع لا.

ونقول للزوجة: إن الظلم واقع في الدنيا لا محالة، وإلا لما كان للآخرة والموازين والحساب والبعث من فائدة، والزوجة التي يظلمها زوجها، وتُرجع باللائمة على الشرع منتقدة أحكامه، قد خسرت كل شيء، خسرت الدنيا بظلم زوجها لها، وخسرت الآخرة بعدم رضاها عن شرع الله.

ويتبين لنا من ذلك وجوب أن نرضى بحكم الله لأنه من الله، ولأنه قطعًا يحقق أقصى مستوى ممكن من العدل في الدنيا، أما العدل المطلق فلا يكون إلا في الآخرة، فإياكم إياكم والاعتراض على حكم الله -عز وجل- أو حتى الظن أنه غير مناسب لزمان أو مكان، فهذا خطره عظيم وشره مستطير، وأكتفي بهذا القدر رغم أن الموضوع مهم، ولكن للأسف فإن المقام لا يتسع لأكثر مما ذكرت، والرسالة واضحة والحمد لله.

٥- أما لماذا أباح الله التعدد مع أن فيه ضررًا على الزوجة؟

أقول: إن الضرر الواقع عليها ضرر يمكن تحمُّله، ويخف هذا الضرر كلما كان الزوج تقيًّا ورعًا يعظم حرمات الله، لا ينتهكها ولا يتعداها.

كما أقول للمرأة: أرأيت بعض البلاد المتقدمة - كما يزعمون - عندما حرموا على الزوج التعدد وألزموه بواحدة، ماذا فعل هذا الزوج! وما الذي آل إليه المجتمع بأكمله، أظن أن الجميع يعلم الجواب كاملاً، ويكفي أن نعلم كيف انتشر الزنا والشذوذ والقتل، والأدهى والأمرّ كيف انتشر مرض فَقْد المناعة المكتسبة (والمسمى بالإيدز)؟

كيف يُدْخِلُ الزوج على زوجته هذا المرض المهلك، بلا ذنب ولا جريرة، بل ينتقل حسب آخر الإحصائيات إلى الأولاد، هل هذه المجتمعات هي التي نطمع ونتطلع أن نحذو حذوها ونقتفي أثرها؟!.

أقول للمرأة: أرأيت إن كنت مطلقة أو أرملة ولك أولاد قصر، ورغب عنك الشباب،

أما كنت تتمنين أن يتقدم للزواج منك رجل ولو كان كبيرًا في السّنّ، يصون عرضك ويحفظ لك كرامتك ويربي أولادك، خاصة لو لم يكن لك مصدر رزق، حتى ولو كان هذا الرجل متزوجًا بواحدة أو اثنتين، أرجو ألا تتكبري في الإجابة ولا تخدعي نفسك.

أرأيتِ أختي المسلمة لو كثر عدد النساء عن عدد الرجال كما أخبر بذلك الصادق المصدوق في حديث علامات الساعة الذي رواه أنس بن مالك ﷺ وفيه: «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيَظْهَرَ الْجَهْلُ، وَيَفْشُوَ الزِّنَا، وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ، وَيَذْهَبَ الرِّجَالُ، وَتَبْقَى النِّسَاءُ حَتَّى يَكُونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةً قَيِّمٌ وَاحِدٌ»[1] أما تتمنين وقتها لو أحل اللَّه التعدد، نعم ستتمناه كل امرأة عاقلة، ولا تغتري أختي المسلمة بما يدعيه دعاة التحرر والتفسخ، أن المرأة الآن يمكن أن تقوم بنفسها، فلها كيان مستقل تستطيع به أن تدافع عن نفسها وتكسب رزقها، هذا كله سفه لا يغني من الحق شيئًا.

وبعد هذا العرض الموجز، نسأل المرأة المسلمة هل الضرر الذي قد يلحقك من الزوجة الثانية أعظم أم الضرر الذي يقع من منع التعدد أعظم؟.

ومن حكمة الشرع التي يعلمها كل دارس له ومتفقه فيه، أن من أولويات الشرع وقواعده أنه عند وجود ضررين، يتم دفع أعظمهما واحتمال أخفهما. وهذه القاعدة مضطردة في جميع الشرع، وهي من محاسنه العظيمة التي لا تعد ولا تحصى، ونصيحة إلى كل مسلم ومسلمة أنه إذا أراد أن يبحث في مسألة، فيجب عليه أن ينخلع من نفسه، حتى يستطيع أن يكون حَكَمًا عدلاً قدر الإمكان، وألا ننظر إلى أي مسألة من جهة واحدة، وهذا في جميع الأمور الشرعية والحياتية.

الدرس السادس والعشرون: ما يمكن أن يكون عليه المستشارون من اختلاف في الرأي، بل وتضاده في بعض الأحيان، وعلينا أن لا نشكك في أحدهما أو نكذبه ونرميه بألفاظ غير مناسبة، ونصدق الطرف الآخر، ولا أن نكذب الاثنين، وإذا كان اختلاف المستشارين واردًا، فاحتمال خطأ الاثنين وارد، وعلى الذي يستشير ألا يسلم أمره لأحد، بل يستشير ويتأمل فيما سمع ويستخير، ثم يستعين باللَّه ويقرر أمره، وعلى المستشير أن يتخير أحبَّ الناس إليه وأعلمَهم بحاله وحال أهله إذا تطلب الأمر، كما يؤخذ من الحديث

---

(١) البخاري، كتاب: العلم، باب: رفع العلم وظهور الجهل، برقم (٨١)، مسلم، كتاب: العلم، باب: رفع العلم....برقم (٢٦٧١).

أن الأفضل على الرجل أن يستشير ولا ينفرد برأيه، ولو كان الأمر يتعلق بأخص خصوصياته، وفي قول السيدة عائشة رضي الله عنها (فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي...) فوائد، ومنها:

الفَائِدَةُ الأُولَى: عظيم أمر الاستشارة وضرورة أن يتخير الإنسان من يستشيره، فالرسول لم ينفرد بالرأي وحده بل استشار في أخص خصوصياته، وهو أمر زوجته، وعندما استشار تخير من يستشير، وهما حِبُّه و ابن حبه أسامة بن زيد، كما استشار ابن عمه وزوج ابنته عليَّ بنَ أبي طالب. وأظن أنه لم يستشر أبا بكر لمكانته من عائشة، فهو أبوها، كما لم يستشر عمر بن الخطاب لقوته الشديدة، وقد يكون لأمر غير ذلك، والله أعلم.

أما ما ذكرناه من اختلاف وتباين آراء المستشارين، فأخذناه من رد أسامة وعلي، فأما أسامة فأشار إليه بما يعلمه من حب النبي ﷺ الشديد لعائشة، ورَغَّبه فيها بأن طهرها مما يقال، فذكر أشرف ما فيها، وهي أنها أهل رسول الله، وهل يتصور أن من تشرفت بهذا الشرف الرفيع، وهو أن تكون حليلة أشرف الخلق قدرًا يمكن أن تزل؟!، هذا من أمحل المحال، كما زكاها بما عرف منها من أمور الخير التي تدفع أي إنسان عن فعل الذنوب والمعاصي، فكان رد أسامة بن زيد شافيًا وافيًا.

أما علي بن أبي طالب رضي الله عنه فرجح مصلحة سكن النبي ﷺ وراحة باله لما يراه عليه من قلق وحيرة، ولا يقال أبدًا: إنه أشار عليه بأن النساء كثيرات لشيء في قلبه من عائشة - نستغفر الله من هذا القول العظيم - والدليل على بطلانه، أنه أشار على النبي ﷺ أن يستشير الجارية وأكد صدقها وعدم كذبها، فالذي أراه أنه أراد أن يبرأ ساحتها، وبذلك تكون مشورته قد وسعت الأمر على الرسول، فإما أن يسرح والنساء كثيرات، وإما أن يسأل الجارية ليعلم طهر عائشة وبراءتها فيمسكها عنده، ولرجاحة مشورة علي رضي الله عنه، أخذ بها النبي ﷺ وسأل الجارية وكان في سؤالها أعظم براءة لعائشة، وقد صدقها النبي كما أشار عليٌّ عليه، وذلك أنه بعد سؤالها مباشرة وقف في المسجد وقال: «**من يعذرني في رجل بلغني أذاه في أهلي**».

وبذلك تأكدنا براءة ساحة علي، بل إنه كان السبب في رفع ما كان النبي يعانيه، أما لماذا لم يقل علي رضي الله عنه للرسول ﷺ نفس الذي قاله زيد؟ فأظن أن ذلك سيكون من التكرار، ويكفي أنه دل الرسول على طريق آخر يتأكد به من طهارة أهله، وبذلك يكون قد تأكد ذلك

عند الرسول مِنْ قِبَلِ زيد، والجارية.

الدرس السابع والعشرون: إذا أراد الرجل أن يسأل عن أخلاق مَنْ لا يعرفه، فعليه أن يسأل خادمه في المنزل أو مَنْ في منزلة الخادم، كالسائق وغيره، وذلك لتداخله الشديد مع مخدومه وعدم قدرة المخدوم أن يُخْفِيَ على خادمه أحواله وأخلاقه، بل قد يفعل أمامه، ما لا يفعله أمام غيره وذلك لاستهانته به وقلة تحرزه منه، ولو يعلم علي أحدًا أعلم بحال عائشة من خادمتها، لدل النبي ﷺ عليه.

الدرس الثامن والعشرون: جواز اتخاذ الخادمة في المنزل، حتى ولو لم يكن هناك أولاد تخدمهم، ولكن بشرط أن لا يكون ذلك خيلاء وتكبرًا على الناس.

الدرس التاسع والعشرون: منقبتان عظيمتان لعائشة رضي الله عنها وهما:

المنقبة الأولى: أن الجارية بريرة رضي الله عنها لم تجد في عائشة ما يعيبها إلا أنها تنام عن العجين، ولو وجدت فيها أكثر من ذلك ولو بقليل لذكرته، لأنها قالت: (قط)، فأي شرف لامرأة لا تستطيع خادمتها أن تعيبها في شيء، إلا أنها حديثة السن تنام عن العجين؟!.

المنقبة الثانية: رغم أن لعائشة جارية، إلا أنها تنام عن العجين مما يتيح للداجن (وهي الشاة التي تألف البيت ولا تخرج للمرعى) أن تأكل من ذلك العجين، والشاهد في ذلك أن عائشة رضي الله عنها كانت تقوم بأعباء البيت مع الخادمة وما كانت تَكِلُ لها كل شيء بل كانت تساعدها، وذلك امتثالاً لما ورد عن الْمَعْرُور بْن سُوَيْدٍ قَالَ: (رَأَيْتُ أَبَا ذَرٍّ الْغِفَارِيَّ رضي الله عنه وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْنَاهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلاً فَشَكَانِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟!» ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ إِخْوَانَكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمْ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَأَعِينُوهُمْ»[(١)].

الدرس الثلاثون: وفيه تنبيهان:

التنبيه الأول: قول بريرة (إنْ رأيتُ منها أمرًا)، إنْ: هنا نافية بمعنى (ما)، أي: (ما رأيت منها أمرًا)، ونبهت على ذلك؛ لأن كثيرًا من غير المتخصصين لا ينتبهون أن (إن) تكون نافية، وهذا يوضح لنا معاني آيات كثيرة من القرآن الكريم، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦]، أي ما يتبعون إلا الظن.

(١) البخاري، كتاب: العتق، باب: قول النبي ﷺ: العبيد إخوانكم، برقم (٢٥٤٥)، مسلم، كتاب: الأيمان، باب: إطعام المملوك مما يأكل.... برقم (١٦٦١).

التنبيـه الثاني: أقوله لأننا كنا بصدد الكلام عن الخليفة الراشد، علي بن أبي طالب رضي الله عنه والتنبيه هو أن كثيرًا من الناس يفضلون أن يقولوا بعد ذكر علي (كرم اللَّه وجهه)، بدلاً من (رضي اللَّه عنه .)، وهذا غلط، لأن الترضي عنه هو دعاء له، أما (كرم اللَّه وجهه) فهذا من باب الخبر الذي يغني معرفته وقوله مرة واحدة، ومعلوم أن الدعاء خير من الخبر وأنفع للناس، كما أن تبريرهم لهذا القول بأن عليًا لم يسجد لصنم قط، لذلك نقول: (كرم اللَّه وجهه)، هذا ليس بتبرير فكثير من الصحابة لم يَرِدْ أنهم سجدوا لصنم، فلماذا نختص عليًا رضي الله عنه بهذا القول، بل لماذا نحرمه من الدعاء له برضوان اللَّه - سبحانه وتعالى - والكل في حاجة لهذا الدعاء ولو كانوا أصحاب رسول اللَّه ﷺ.

الدرس الحادي والثلاثون: في قول الرسول: «من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي»، أي: من يلتمس لي العذر إن عاقبت رجلاً على قُبْحِ ما صنعه معي، أو من ينصرني عليه، ففيه أن الرجل إذا أراد أن يعاقب أحدًا على سوء فعله معه، خاصة إذا كان من أصحابه، فعليه أن يخبر القوم بما حدث حتى يعذروه فلا يلوموه، وينصروه ولا يخذلوه، وحتى لا يفاجأ القوم، خاصة أهل قرابة الخصم، بما سيحدث، كما أن في هذا الإبلاغ فائدة أخرى، وهي أنه قد يكون في القوم من يدله على أمر يكون أصوب مما يراه.

وفي بقية كلامه ﷺ ثناء على عائشة، وعلى الصحابي صفوان بن المعطل - رضي اللَّه عنهم جميعًا- .

الدرس االثاني والثلاثون: في قيام سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج، وفيما قالوه، فوائد منها:

١- ما كان عليه الصحابة من حب النبي، وفدائه ولو بأهل قرابتهم وعشيرتهم، والكل يعلم ما كان عليه العرب من المناصرة والدفاع حتى الموت عن أهل القرابة، فلم يقل سعد بن معاذ: من هو يا رسول الله، أو يقول خَبِّرْنا عنه ونحن نستقصي أمره إن أخطأ حاسبناه، أو أي كلمة مشابهة، بل قال: (إن كان من الأوس ضربنا عنقه): أيًّا كان الرجل ومكانته في القوم، ما علينا يا رسول الله إلا أن نقتله، دون أن يستقصوا هل فعل أم لا، ألم يقل الصادق المصدوق: «**بلغني أذاه في أهلي**» أبعد قوله قولٌ، كيف لا يصدقونه واللَّهُ قد استأمنه على وحيه؟ أفلا نستأمنه نحن على خبره في رجل آذاه، وقد حكم سعد على الرجل

الذي آذى النبي ﷺ بأشد العقوبة، وهي القتل وكيف يحكم بأقل من ذلك في رجل آذى نبيهم وخليلهم وحبيبهم.

٢- فيه تحذير من الحمية أي العصبية، والتي ابْتُلِيَ بها كثير من الناس حيث غضب سعد بن عبادة رضي الله عنه وثار في حضرة النبي ﷺ على مقولة سعد بن معاذ، وما حمله على ذلك إلا العصبية، أعلمتم مغبة العصبية ماذا تفعل بالإنسان الصالح، الذي قالت عنه عائشة رضي اللَّه عنها: (وكان قبل ذلك رجلاً صالحًا)، أي: قبل أن تأخذه العصبية، وانظر أيضًا ماذا يمكن أن يئول إليه الأمر بعد أن تدخل العصبية والغضب بعض أفراد الأمة الصالحين، تقول عائشة: (فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا).

٣- في تنازع الأوس والخزرج، فائدة أخرى، وهي أن الصحابة رضوان اللَّه عليهم بَشَرٌ، يصدر منهم ما يصدر من بقية البشر كالعصبية والغضب والسب، وهذا ما كان يعالجه النبي ﷺ فيهم، ولو كانوا لا يخطئون ما كان من بعثة النبي فيهم من فائدة، ولَحُرِمْنا الكثير من أمور السنة التي تعلمناها مما وقعوا فيه من زلات، ولكن مع هذا فهم خير قرون الأمة، لما ثبت عن عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ رضي اللَّه عنهما قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «خَيْرُكُمْ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»[1]. فعباداتهم وجهادهم ومواساتهم ونصرتهم للرسول ﷺ، لا تقارن أو تقاس بما صدر منهم من أمور صُوِّبَتْ في وقتها بالكتاب أو السنة، وكفى ذلك شرفًا لهم، فزلاتهم ولله الحمد هي ذرة في فلاة بالنسبة لحسناتهم.

الدرس الثالث والثلاثون: قد يؤخذ من الحديث، أن الحد الواجب على من آذى الرسول، هو القتل، لقول سَعْد بْنُ مُعَاذٍ: (إِنْ كَانَ مِن الأَوْسِ ضَرَبْنَا عُنُقَهُ)، ولم يكن هذا من باب التهويل، وذلك لرد سَعْد بْن عُبَادَةَ وقوله: (كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لاَ تَقْتُلُهُ وَلاَ تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ)، وتأكيد أسيد بن حضير على عزمهم قَتْلَه، فقال: (واللَّهِ لَنَقْتُلَنَّهُ)، كل ذلك حدث أمام الرسول، ولو كان القتل فيه مخالفة شرعية، وأنه ليس حكم اللَّه -عز وجل- لبينه الرسول في وقته، ولا يقال: إن الذي آذاه كان منافقًا؛ لأن الصحابة لم تكن تعلم من الذي يقصده الرسول، بدليل قولهم: (إن كان من الأوس)، ولو قال لي قائل لقد سمع النبي من سعد أنه إذا رأى أحدًا مع أهله قتله بالسيف، ولم يعترض ولم يبين له أن هذا الحكم غير

---

(١) البخاري، كتاب: الشهادات، باب: لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد برقم (٢٦٥١)، مسلم، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم....، برقم (٢٥٣٥).

موافق للصواب، بل أثنى النبي على غيرته، قلت: هناك زيادة في الحديث لا يذكرها عامة الشيوخ، تبين أن النبي قد وجه سعدًا أن القتل خطأ، ويجب عليه التروي، لأن اللَّه يحب العذر.

وقد وردت الزيادة عند مسلم، عَن الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ: قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ لَوْ رَأَيْتُ رَجُلاً مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرُ مُصْفِحٍ عَنْهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: **«أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ فَوَاللَّهِ لأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي مِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ اللَّهِ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلاَ شَخْصَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ وَلاَ شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ اللَّهُ الْمُرْسَلِينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَلاَ شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمِدْحَةُ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَعَدَ اللَّهُ الْجَنَّةَ»**.

الدرس الرابع والثلاثون: نستفيد من الحديث كيفية تربية اللَّه لهذه الأمة حيث أراد اللَّه -عز وجل- أن يربيها على المحن والشدائد والصعاب، ليس لأفراد الأمة فقط، بل كانت تلك هي تربية اللَّه لمعلم هذه الأمة وقائدها وهو النبي ﷺ، نأخذ ذلك من قول عائشة رضي اللَّه عنها: (وقد مكث شهرًا لا يُوحَى إليه)، ترى ما فائدة انقطاع الوحي شهرًا كاملاً؟ في وقت يخوض الناس في عرض خير البرية وأخشاهم وأتقاهم، بل أحبهم لله، لماذا انقطع الوحي وامرأة حديثة السن شريفة عفيفة تمرض وتلازم الفراش شهرًا، حتى تخاف على كبدها أن ينفلق من كثرة البكاء؟

لماذا انقطع الوحي والمنافقون يروجون لشائعة لو حاسبنا اللَّه -عز وجل- على ترويجها لهلكت الأمة؟ وما ذلك إلا انتقامًا لمقام النبوة، لم يتوقف الأمر على المنافقين، بل روج للشائعة بعض مَنْ زلَّ مِن الصحابة وإن كانوا نفرًا قليلا، لماذا انقطع الوحي والمدينة تصبح وتمسي وكأن زلزالا قد ضربها؟ والإجابة عن كل تلك الأسئلة هي تربية اللَّه لهذه الأمة بالفتنة و بالابتلاء ليرفع اللَّه بها درجاتِ مَنْ عَصَمه، ويكون درسًا قاسيًا لمن تكلم وخاض، لعله يكون درسًا للأمة إلى يوم القيامة كيف تعمل الكلمة في المجتمع، كيف ترجف به، كيف تجعل الحليم حيرانًا، درس للأمة أن تتثبت ولا تروج للشائعات والأكاذيب، كما عَلَّمَنا القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝﴾ [الحجرات: ٦]، وكما ذكرت من قبل كان من الممكن أن تنزل براءة عائشة رضي اللَّه عنها قبل

الحادثة وليس عند الحادثة، ولكن كان سيفوت على الأمة كل تلك الدروس والعبر التي تعلمناها من هذا الحدث.

الدرس الخامس والثلاثون: استحباب الشهادة قبل الكلام، لقول عائشة رضي اللَّه عنها: (فتشهد)، أي نطق بالشهادتين.

الدرس السادس والثلاثون: بدأ النبي كلامه بعد التشهد بقوله: «**يا عائشة**»، فاستخدم حرف النداء ليسترعي انتباه عائشة، ثم ذكر اسمها لِيُعْلِمَها أنه لم يهجرها ولم يهجر اسمها، ولو أنه عنفها من أول الحديث فقد تفقد صوابها، ولا تستطيع الرد الصحيح المؤدب، فاللطف في القول أولى ولو كان في مثل هذا الحدث الجلل، حتى يتبين الحق.

الدرس السابع والثلاثون: عدم إلقاء التهم بغير بينة وتقديم حسن الظن، لقول النبي ﷺ: «**يا عائشة، فإنه بلغني عنك كذا وكذا**»، ولم يقل لها: أنت فعلت كذا وكذا، وهذا من عظيم التربية والخلق الحميد، ثم قال: «**فإن كنت بريئة**»، فقدم حسن الظن خاصة أنه ليس ثمة دليل، ثم واساها إن كانت بريئة، وأمَّلَها في رحمة اللَّه بصيغة الجزم لا التعليق، وهذا من حسن ظنه باللَّه وثقته به فقال: «**فسيبرئك الله**»، ومن عظيم أدبه ﷺ أنه لم يصرح بما يقول الناس، بل قال في كلام عفيف: «**وإن كنت ألممت بذنب**»، ثم نصحها ووَجَّهَهَا بما يتوجب عليها إن فعلَتْ شيئًا، فقال لها: «**فاستغفري الله وتوبي إليه**»، ثم أملها في رحمة اللَّه الواسعة فقال لها: «**فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه**»، واختار ﷺ الستر على الفضيحة، فلم يقدم لها سؤالاً محددًا حتى لا يحرجها ويفضحها إن هي اقترفت - ونعوذ باللَّه من ذلك - فلم يقل لها: (أفعلت).

أرأيتم عظيم أدبه وفضل إحسانه وحسن معاشرته، مع ما لاقاه ﷺ طيلة شهر، وانظر ما أعطاه اللَّه من جوامع الكلم، فتكلم بعبارات قصيرة تحمل معاني كثيرةً.

الدرس الثامن والثلاثون: كلام الناس - خاصة إذا كان في الأمور العظيمة - له تأثير كبير على القلوب، كالسحر في بعض الأحيان. انظر كيف سأل النبي ﷺ عائشة وهي الطاهرة المطهرة عن براءتها، وذلك لتأثر قلبه بما يقول الناس، بالرغم من أن الذي روج للشائعة هو رأس المنافقين في المدينة.

الدرس التاسع والثلاثون: جواز أن يؤكد الإنسان كلامه، وأن يحكم أن اللَّه يعلم

ذلك، أو يشهد على ذلك وهو من أساليب التوكيد، كالقسم بالله، تعلمنا ذلك من قول عائشة رضي اللَّه عنها: (ولئن قلت لكم: إني بريئة، واللَّه يعلم أني بريئة)، ولكن حذار أن يستخدم المسلم مثل هذا الأسلوب من التوكيد وهو كاذب، أو غير متأكد من حديثه، لأنه إن كان كاذبًا، وقال: اللَّه يعلم صِدْقَ حديثي، فكأنه حكم أن علم اللَّه لا يطابق الواقع، وقد استخدم القرآن الكريم هذا المؤكد حيث قال اللَّه تعالى: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يس: ١٦]، وقد أكدت الأنبياء صدق رسالتهم، بأن أكدوا عِلْمَ ربهم بإرسالهم، وهذا من المؤكدات المعنوية، وقد حفلت هذه الآية الكريمة بكثير من المؤكدات اللفظية أيضًا فتأمل.

الدرس الأربعون: تعظيم الصحابة للقرآن الكريم، وأن له منزلة عظيمة في نفوسهم، فهم يشعرون أنه كلام اللَّه -عز وجل- الذي له شأن عظيم، علمنا ذلك من قول عائشة رضي الله عنها: (ولأنا أصغر في نفسي من أن يُتَكَلَّم بالقرآن في أمري)، فهي ترى أن شأن القرآن أعظم بكثير من أن ينزل ببراءتها، وكل ما كانت ترجوه أن يرى رسول اللَّه ﷺ رؤيا تبرئها، ثم ما لبث أن نزل الوحي قبل أن يخرج أحد من البيت. ويتفرع على ما سبق مسائل منها:

المسألة الأولى: تواضع عائشة رضي اللَّه عنها حيث إنها وهي زوجة خاتم النبيين، وأحب الناس إليه، ترى أنها أصغر من أن ينزل فيها قرآنٌ يُتْلَى.

المسألة الثانية: عظيم قدر أمهات المؤمنين عند اللَّه -عز وجل- والاعتناء بهن.

والدليل على ذلك نزول قرآن يتلى إلى يوم القيامة لتبرئة عائشة رضي اللَّه عنها في آيات عديدة، في سورة سماها اللَّه -عز وجل- بسورة النور، مع أن عائشة لم تتمن ذلك، ونستدل على عظيم اعتناء اللَّه بهن، من عظيم قَدْر القرآن، والذي كانت عائشة تعظمه وترى أنه أعظم قدرًا من أن ينزل ليتكلم ببراءتها.

المسألة الثالثة: في الحديث علم الصحابة وتيقنهم أن رؤيا الأنبياء حق، وتعظيمهم لها، وإلا ما كانت عائشة رضي اللَّه عنها تتمنى أن يرى الرسول ﷺ رؤيا فينكشف بها كل هذا الغم والكرب الذي أرجف المدينةَ أكثر من شهر.

المسألة الرابعة: يستفاد من الحديث وجوب أن يعظم كل مسلم القرآن الكريم، فيقف عند كل آية، وينتهي عند كل نهي، ويمتثل كل أمر، ويكفيه أن يقال: إن ذلك الأمر أو النهي قد ورد بالقرآن، علمنا ذلك من تعظيم عائشة لأمر القرآن الكريم، لا

أقول: إنه يقف عند صريح الآيات، بل يجب عليه أن يقف حتى على التلميحات، فإن فيها علمًا كثيرًا، فإذا كنى بألفاظ عفيفة، وقفنا عند هذا الأدب الرباني، فلا نصرح أبدًا بكلمات تخدش الحياء، فتعف بذلك ألسنتنا وأسماعنا، ومثاله قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فهذا تلميح من القرآن ليأدبنا في كلامنا وانتقاء ألفاظنا، فلا ينبغي لمسلم إلا أن يكني في كلامه، لا لأن القرآن أمر بذلك، بل لأنه لمح تلميحًا، فهذا شأن الذين يعظمون آيات الله، يعلمون أنه ليس فيه آية أو كلمة، بل ولا حرف، إلا وله معنى ومَغْزًى، وفيه تشريع وتربية للأمة، بشرط أن لا نلوي الآيات، ولا نحملها معاني غير ظاهرة من سياق الآيات، وليس لها شواهد في اللغة العربية، فلنتق اللَّه في كلام اللَّه -عز وجل-.

الدرس الحادي والأربعون: ما كان النبي ﷺ يعانيه عند نزول الوحي، وقد تحدثت في ذلك من قبل، ونشير هنا فقط إلى رحمة اللَّه -عز وجل- بهذه الأمة حيث يَسَّرَ لها قراءة القرآن وحفظه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]، ذلك بالرغم من ثقل القرآن عند نزوله على النبي ﷺ قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝﴾ [المزمل: ٥]، أرأيت رحمة اللَّه بعباده المؤمنين؟!.

الدرس الثاني والأربعون: ما حبى اللَّه نبيه ﷺ من جمال في كل شيء، حتى عَرَقه، والذي في العادة يتقذره الناس، لما يسببه من رائحة كريهة، واسمع لعائشة رضي الله عنها ماذا تقول: (ليتحدر منه مِثْلُ الجُمَان)، أي كان عرقه ﷺ مثل حبات اللؤلؤ، لصفاء العرق وحسنه، ولم ينس الصحابة رضي اللَّه عنهم، أن يصفوا حتى حبات عرقه.

الدرس الثالث والأربعون: جواز الضحك، عند حدوث ما يَسُرُّ العبدَ، مثل نزول نعمة أو كشف غمة، بشرط أن لا يكون ضَحِكَ المعجبِ بنفسه، أو الناسي لنعمة الله عليه.

الدرس الرابع والأربعون: حرص النبي ﷺ على تربية أمته على شكر نعم اللَّه -عز وجل- والتي تُظْهِر كمال عبودية العبد لله، حتى في الأحوال الخاصة جدًّا، ويظهر ذلك، أن أول كلمة تكلم بها النبي ﷺ عند نزول الوحي ببراءة عائشة رضي اللَّه عنها أَنْ أَمَرَهَا بالقيام بحمد الله، وما شغله الفرح الشديد عن شكر المنعم.

الدرس الخامس والأربعون: قول عائشة رضي اللَّه عنها: (لا واللَّه لا أقوم إليه ولا أحمد

إلا الله)، فهذا من دلالها وعَتْبها على رسول الله ﷺ وليس لغيرها أن يقول مثل هذه المقولة.

الدرس السادس والأربعون: عدم معرفة النبي ﷺ بالغيب، كثيره ولا قليله، وما ذكرته في هذا الكتاب من معرفته لأمور كثيرة من الغيب، فقد أطلعه الله عليها، والدليل على ذلك، أن هذه زوجته يقال عنها ما قيل، وترجف المدينة من ذلك، ويقلق ويتحير الرسول ﷺ، ولا يعلم ببراءتها إلا بعد نزول الوحي إليه.

الدرس السابع والأربعون: جواز القيام لمن أسدى لك معروفًا وشكره، وأن هذا لا ينافي العبودية لله، ولا يتعارض مع شكر الله، والدليل على ذلك قول عائشة رضي الله عنها: (فقالت لي أمي: قومي إلى رسول الله ﷺ)، ولو كان مثل هذا القيام ممنوعًا شرعًا، لبين ذلك النبي ﷺ، ولكن يجب التنبيه أن على العبد ألا يبالغ في المدح وإظهار الامتنان لأحد، بحيث يدخل العجب والغرور على الممدوح، أو ينسى شكر المنعم الأصلي وهو الله -عز وجل- .

الدرس الثامن والأربعون: في قَسَم أبي بكر الصديق ألا ينفق على مسطح بن أثاثة، ثم رجوعه عن هذا القسم، لما أنزل الله - عز وجل -: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]. وفي هذه الآية لطائف كثيرة نذكر منها:

١- أن المسلم، مهما بلغ من التقوى والخوف والورع، يمكن أن يتأثر قلبه ممن أساء إليه، حتى يدفعه ذلك إلى الامتناع عن بعض أعمال الخير التي يتقرب بها إلى الله -عز وجل- لكن الذي ينبغي على المسلم أن يحسن إلى من أساء إليه، وهذا الخلق الكريم نحتاج إليه جميعًا، لأن كثيرًا منا لا يستطيع أن يتمثل به.

٢- في الآية جواز أن يحنث المسلم في قسمه، ويفعل الذي هو خير، يُصَدِّق ذلك قولُه: (إني والله لا أحلف على شيء) [(١)]، وقد ذكر مبسوطًا في موضع آخر.

٣- في الآية مدح وثناء على أبي بكر الصديق رضي الله عنه حيث وصفته الآية أنه من أولي الفضل، كما أن الآية تثبت عناية الله بصديق الأمة وإرادة الخير له حيث إنه لما حلف على

---

(١) البخاري، كتاب: الأيمان والنذور، باب: لا تحلفوا بآبائكم، برقم(٦٦٤٩)، مسلم، كتاب: الأيمان، باب: ندب من حلف يمينا فرأى غيرها خيرًا منها أن يأتي الذي هو خير منها.....، برقم (١٦٤٩)، بلفظ «أحلف على يمين».

شيء، وكان غيره خيرًا منه، نزلت الآية لإرشاده إلى أحسن الأفعال وأفضل الأخلاق، وكان يمكن أن يوجهه النبي ﷺ لذلك، ولكن نزل قرآن يعلمه ويربيه، كما أن له فضلاً آخر، أنه أعاد النفقة إلى مسطح، دون إنقاص شيء، لقول عائشة رضي الله عنها : (فرجع إلى مسطح الذي كان يجري عليه)، مع أن أبا بكر كان يجد غضاضة في نفسه من تلك النفقة، ولكن ليس عندهم غضاضة في أمر الله ورسوله، امتثلوا حقًا لقول الله : ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور: ٥١]. ولم يقل أبو بكر - ولكن - وهي الكلمة التي ابتلينا بها في هذه الأيام.

وفيه أيضًا وجوب أن يُظْهر العبد افتقاره إلى الله -عز وجل- وحاجته للمغفرة، فالله يحب ذلك. قال الصديق: «والله إني لأحب أن يغفر الله لي».

٤- نتلمس في الآية لطيفَ خطاب القرآن الكريم مع الصحابة، حتى في العتاب و الإرشاد، قال تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢]. فجاء الإرشاد الرباني بصيغة الحث والتحريض، ثم ختمت الآية بتبشيرهم برحمة الله ومغفرته إن هم فعلوا ذلك، وهذا أيضًا من لطيف الخطاب حيث لم يتوعدهم بالعقوبة إن لم يفعلوا، بل توعدهم بالمغفرة إن فعلوا، والمغفرة هي أعظم ما يُبَشّر به المسلم، إذ هي تقي تبعات الذنوب، وتضمن سترها يوم القيامة وهي مأخوذة من المغفر الذي يلبسه المحارب، يستر وجهه فيقيه من ضربات الأعداء، فالمغْفَر يستر ويقي.

الدرس التاسع والأربعون: حب الله -عز وجل- للصدقة والإنفاق حيث إنه كافأ صاحبها بالمغفرة والرحمة.

الدرس الخمسون: في الحديث منقبة عظيمة لأم المؤمنين زينب بنت جحش، فبالرغم من أنها كانت تسامي عائشة، في حب الرسول ﷺ وكانت تلك فرصة لها أن تستأثر بالحبيب ﷺ إلا أنها كانت ورعة تقية، لم تتحمل أُذُنُها وبصرها، سماع كلمة تُسيء لأم المؤمنين، ولم تجد الغيرة التي تجعل الإنسان أعمى البصر والبصيرة، تجاه من يَغار منه إلى قلبها سبيلا، ولكن كما قالت عائشة رضي الله عنها: (فعصمها الله بالورع)، وكفى بالله عاصمًا.

الدرس الحادي والخمسون: بقدر الورع الذي يكون مع المسلم بقدر ما يعصمه الله - سبحانه وتعالى - من الزلات والسيئات، وإذا أراد المسلم أن يعلم قدر ما عنده من الورع،

فعليه أن ينظر في حاله، في النميمة والغيبة والحسد، والخوض في أعراض الناس، وقول الكذب، وعدم الوفاء بالوعود والعهود، وخيانة الأمانة، وإفشاء الأسرار، وحب الاطلاع على عورات الناس، وأكل أموالهم بالباطل، فإن كان بعيدا عن تلك المعاصي والكبائر، فرح وحمد اللَّه -عز وجل- على ما عنده من الورع، ويسأل اللَّه أن يزيده ورعًا، وأما إن كان يجترئ عليها ولا يبالي، بل لا يشعر أنه قد أذنب، ويجد لكل معصية يرتكبها مبررًا، فليعلم أنه ليس معه من الورع شيء.

هذا ما فتحه اللَّه عليَّ من الفوائد والعبر في حديث الإفك، وقد يكون فيه من الدروس والعبر شيء لم أقف عليه، والذي يهمنا أن لا تذهب هذه الفوائد أدراج الرياح، وكأن هذه القصة لا تعنينا في شيء، وكأن القرآن الذي نزل فيها قد نسخ، أو أنه نزل فقط في حق الصحابة رضي اللَّه عنهم، وكيف نضيع هذه العبر والدروس، من حادثة عانى منها النبي ﷺ أشد المعاناة، وربى اللَّه -عز وجل- فيها الأمة أحسن تربية. واللَّه أعلى وأعلم.

١٥ - غضبه ﷺ

عن أَبِي مَسْعُودٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلاً قَالَ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لأَتَأَخَّرُ عَنْ صَلاَةِ الْغَدَاةِ مِنْ أَجْلِ فُلاَنٍ، مِمَّا يُطِيلُ بِنَا، فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي مَوْعِظَةٍ أَشَدَّ غَضَبًا مِنْهُ يَوْمَئِذٍ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَأَيُّكُمْ مَا صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيَتَجَوَّزْ فَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ»[١].

وقد أتيت بهذا الباب في الشمائل لفائدة جليلة، وهي إثبات أن النبي ﷺ كان يغضب، ويشتد في الموعظة، ويعلو صوته، ويحمر وجهه أحيانًا، وأن الغضب لا يتنافى مع ما عُرِف منه ﷺ من اللين والرفق في الأمر كله، كما أردت أن أثبت للناس، أن الغضب ليس دائمًا صفة مذمومة، بالشروط التي سأذكرها - إن شاء اللَّه تعالى -.

والشَّاهِدُ فِي هذا الحَدِيثِ: قول أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه: (فما رأيت النبي ﷺ في موعظة أشد غضبًا منه يومئذ).

---

(١) البخاري، كتاب: الأذان، باب: تخفيف الإمام في القيام وإتمام الركوع والسجود برقم (٧٠٢).

بعض فوائد الحديث:

الفَائِدَةُ الأُولَى: في الشمائل النبوية:

١. حكمته ﷺ وتتبين من:

أ - أنه كان ﷺ يغضب في المواضع التي تستدعي وجود الغضب، لأن الحكمة هي وضع الأمور في نصابها، فمعالجة كل الأمور باللين ليس من الحكمة، بل هو من الضعف المذموم، ومعالجة كل الأمور بالشدة نتيجة الغضب ليس من الحكمة، بل هو من غلظة القلب المذمومة.

ب - أن غضبه ﷺ لم يكن كله بنفس القدر، بل يختلف الغضب، وتختلف لهجته ﷺ في الموعظة، على قدر ما حدث من مخالفات شرعية، وهذا أيضًا منتهى الحكمة، قال الراوي: (فما رأيت النبي ﷺ في موعظة أشد غضبًا منه يومئذ).

ج - مِنْ أَجَلِّ مظاهر حكمته ﷺ أن هذا الغضب الذي تملكه أثناء الموعظة، لم يُخرجه عن المألوف عنه في حسن التوجيه والإرشاد والعدل في الموعظة، ويتبين ذلك من:

- أنه ﷺ لم يُسَمِّ من وقع منه التطويل في الصلاة فقال: «أيها الناس». كما ورد في إحدى روايات البخاري.

- أنه ﷺ في حال غضبه لم يتهم الناس كلهم بالتنفير، بل قال: «إن منكم منفرين».

وصِفَةُ العدل عند الغضب، يحتاج إليها كثير من الناس، فنجد على سبيل المثال، أنه إذا أخطأ أحد الأبناء في البيت، وجدت الرجل يغير من معاملته لكل أهل البيت، حتى زوجته، ويوجه لهم جميعًا العتاب واللوم، وهذا يحدث من بعض المدراء، فقد يقوم بمعاقبة الجميع، ويقول مقولة ظالمة: (الحسنة تخص والسيئة تعم)، وكل هذا مخالف للسنة النبوية.

د - أنه ﷺ لم يأمر المشتكي أن يصبر إذا طول الإمام به، مع أن في تطويل الوقوف والركوع والسجود الأجر العظيم، ولا أمره أن يصلي في بيته، بل أمر الإمام ألا يطول، ومظاهر الحكمة في اختيار هذا التوجيه دون غيره:

- أنه ﷺ وازن بين المفاسد المترتبة على صلاة أحدهم في بيته، وما يضيع عليه من أنواع الأجور المختلفة، وبين مصالح تطويل الإمام في الصلاة، فترجح عنده ﷺ أن عدم تطويل

الإمام هو الأخف ضررًا، فالأجر الذي سيضيع على المصلي من عدم حضوره الجماعة أعظم بكثير من الأجر الذي سيفوت من تطويل الصلاة، خاصة إذا أضيف إليها مفسدة هجر المسلم لجماعة المسلمين، كما أن ثواب التطويل لن يفوت المسلم بالكلية، لإمكانية أن يصلي في بيته النوافل ويطيل فيها ما شاء، أما فضيلة حضور الجماعة فستفوت بالكلية إذا صلى المسلم في بيته.

- أنَّ القضية ليست مقصورة على المشتكي، ولكنها ستتكرر في جميع الأزمنة، وسيزيد عدد المرضى وأصحاب الحاجات، وهو المشاهد اليوم، فَأَمْرُ الإمام بالتخفيف هو الأولى والأنسب.

- علم النبي ﷺ أن المسلم لن ينتفع بتطويل الإمام، وسيخرج عن خشوعه في الصلاة، إذا كان مريضًا أو صاحب حاجة، فليس من الحكمة أن يؤمر بالصبر.

٢ - رحمته وشفقته ﷺ بأمته وتتبين من:

أ - غضبه كل ذلك الغضب، لسماعه أن إمامًا يطيل في الصلاة. مع ملاحظة أن الرجل الذي اشتكى، لم يؤكد شُرّاح الحديث أن تأخره عن حضور صلاة الجماعة كان للمشقة التي تلحقه من التطويل، بل الرأي القوي في المسألة، والله تعالى أعلم، كما قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى -: (أن الرجل كان يتشاغل عن المجيء في أول الوقت وثوقًا بتطويل الإمام وكأنه يعتمد على تطويل الصلاة فيتشاغل ببعض شغله ثم يتوجه فيصادف أنه تارة يدرك الإمام وتارة لا يدركه)، ودليله ما ورد في إحدى الروايات: **«لا أكاد أدرك الصلاة مما يطول بنا فلان»**[1]. ومع ذلك كان كل هذا الغضب من النبي ﷺ.

ب - من مظاهر الرحمة والشفقة، أن النبي ﷺ قد أمر بتخفيف الصلاة لوجود (ذا الحاجة)، وهو الذي يكون عنده شغل سواء كان ذلك قضاء مصلحة لنفسه أم لأهله، أم يريد الضرب في الأرض للتكسب، وهذا يدل على أن هذا الدين، قد جمع بين المصالح الشرعية والمصالح الدنيوية، وأنه لا يصطدم مع الواقع، ولا يلغي احتياجات الناس، بل العكس، يطلب من الإمام التخفيف في أعظم ركن من أركان الإسلام، ليستطيع كل أحد أن يقضي مصالحه المباحة أيًّا كانت، وهذا ينسجم مع قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم

(١) فتح الباري، (٢/ ١٩٨).

مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠]، فخفف الله عن الأمة بهذه الآية ما افترضه عليهم أول الأمر من قيام الليل.

وتخيل أخي القارئ لو أن مأمومًا، ذهب إلى أحد الأئمة، الذين ليس لهم باع طويل في علم السُّنة، وسأله التخفيف في الصلاة؛ لأن عنده شغلا، لقام الإمام يخطب الناس، أنهم قد باعوا دينهم بعرض من الحياة الدنيا، وأن أمر الدين هو آخر ما يشغلهم وغير ذلك من أساليب التوبيخ والتأنيب.

٣- **حسن تقسيم النبي ﷺ لأصناف الناس أصحاب الأعذار:**

فالأول: صاحب العذر المؤقت الطارئ والذي قد يظهر على صاحبه، وهو الضعيف.

والثاني: صاحب العذر الملازم له والذي يظهر دائمًا على صاحبه، وهو الكبير.

والثالث: صاحب العذر غير الملازم له والذي لا يظهر على صاحبه، وهو ذو الحاجة.

قال ﷺ: «**فأيكم صلى بالناس فليتجوز فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة**»، وهذا من جوامع كلمه ﷺ حيث جمع أمثال كل أصناف الناس بذكر هؤلاء الثلاثة.

ولما كان الغالب، أن لا يخلو جماعة المصلين من وجود أحد أصحاب الأعذار، صَدَرَ أمرُ النبي ﷺ بالتخفيف دائمًا، ولذلك أقول: إن الشرع دائمًا يحكم على الأمور بالغالب الأعم وليس بالنادر، ولا يعتد بما يشذ، وهي من الحكم العظيمة لهذا الدين.

وأود أن أنبه هنا، ألا يكون هذا الحديث حجة لبعض أئمة المساجد، هداهم الله، للإخلال بركن الطمأنينة بالصلاة، والذي تبطل الصلاة بالإخلال به، فعليهم التمييز بين وجوب الطمأنينة في كل أركان الصلاة، وبين التخفيف الذي أمر به النبي ﷺ.

الفَائِدَةُ الثَانِيَةُ: على ولي الأمر أن يقتدي في كل شئونه، بالأضعف من الناس وأصحاب الحاجات الخاصة، وأن يراعي حالهم ومصلحتهم أولاً، ولو كانوا قلة في الأقوياء من الناس؛ لأن النبي ﷺ لما شرع التخفيف في الصلاة، راعى مصلحة الضعفاء دون مصلحة الأقوياء، والذين قد يتلذذون بتطويل الصلاة، ولا يجدون في ذلك أي مشقة، ولكن لما استحال الجمع بين مصلحة الفريقين، قدم ﷺ مصلحة الضعفاء.

١٦- كمال أدبه ﷺ مع الله

أ - نِسْبَتُه الخير إلى الله تعالى دون الشر:

قال النبي ﷺ: «لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»(١). من حديث طويل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

الشَّاهِدُ فِي الحَدِيثِ: قوله ﷺ «وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»، واعتقاد أن الخير كله - كما سيأتي - في يديه، والشر ليس إليه، منتهى الأدب مع الله.

ومن فوائد الحديث:

الفَائِدَةُ الأُولَى: إثبات أن كل أنواع الخير - بلا استثناء - هو في يدي اللَّه -عز وجل-، وهذا يشمل خيري الدنيا والآخرة، خير المال النافع والولد الصالح والزوجة البارة، كل الخير من عند الله، لقوله ﷺ «وَالْخَيْرُ كُلُّهُ».

الفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: لفظ «فِي يَدَيْكَ» يشير إلى أن اللَّه وحده هو صاحب هذا الخير والمتصرف فيه، يعطيه من يشاء وقتما يشاء، ويمنعه من يشاء، لأننا إذا أردنا أن نعبر عن تملكنا لشيء غاية التملك، قلنا: (هو في أيدينا)، فهو أجمل معنى وأتم فائدة فيما لو قال: (والخير كله عندك).

يتفرع عليه: وجوب أن نتوجه إلى الله، -عز وجل-، بالدعاء والتضرع الدائمين، لنستجلب ما عنده من الخير، وألا نركن لأنفسنا في تحصيل أي خير مهما قَلَّ، لأن الخير كله، صغيره وكبيره، في يد الله، ولا أقول: عنده، فشتان بين التعبيرين.

الفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أما قوله ﷺ «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»، فهو من تمام الأدب النبوي، أنه لم ينسب الشر إلى اللَّه -عز وجل- مع اعتقادنا أن كل المحدثات فِعْلُ اللَّه تعالى وخَلْقُه، سواء خيرها وشرها، فيكون تأويل الحديث أن الشر المحض لم يخلقه اللَّه - تبارك وتعالى - فاللَّه قد قدَّر الكفر - وإن لم يرضه لعباده -، ولكنه ليس شرًّا محضًا، لأن به يقوم سوق الجهاد والتضحية في سبيل الله، فيميز اللَّه به الصادقين من عباده عن غيرهم، وكذا جميع الذنوب، ليست شرًّا محضًا، لأن بها يقوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومجاهدة النفس والاستغفار والإنابة، ولولاها لما ظهر للعباد فضل اللَّه عليهم وامتنانه، ولما كان للجنة ولا

---

(١) مسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه، برقم (٧٧١).

للنار من معنى. ولكن المعاصي تكون شرًا محضًا لمن ارتكبها، وأصر عليها فمات والله عليه غضبان، ووقتها لا يكون هذا الشر من الله -عز وجل- لأن الله لا يأمر بالشر ولا يرضى به.

وإضافة الخير إلى الله -عز وجل- دون الشر هو أدب رباني علمه الله لنبيه ﷺ قال تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝﴾ [سبأ: ٥٠]، فأمر الله نبيه ﷺ أن ينسب - الضلالة وهي غير حادثة قطعًا - إلى نفسه، وأن ينسب الهداية إلى وحي الله -عز وجل- ، قال ابن كثير في تفسير الآية: (أي: الخير كله من عند الله، وفيما أنزله -عز وجل- من الوحي، والحق المبين فيه الهدى والبيان والرشاد، ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه)(١).

ويتفرع عليه: سوء أدب من يفعل المعاصي، ويبرر ذلك بأن الله قد كتبها عليه، فهو يشابه بقوله هذا قول الكفار حيث احتجوا على كفرهم بمشيئة الله، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: ٣].

ب. الخروج من حوله وقوته ﷺ:

عن جَابِرَ بْن عَبْدِ اللَّهِ السلمِيُّ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ الاِسْتِخَارَةَ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا، كَمَا يُعَلِّمُهُم السُّورَةَ مِن الْقُرْآنِ يَقُولُ: «إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ هَذَا الأَمْرَ، ثُمَّ تُسَمِّيهِ بِعَيْنِهِ، خَيْرًا لِي فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ» قَالَ: «أَوْ فِي دِينِي، وَمَعَاشِي، وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ. اللَّهُمَّ وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ شَرٌّ لِي فِي دِينِي، وَمَعَاشِي، وَعَاقِبَةِ أَمْرِي» - أَوْ قَالَ: «فِي عَاجِلِ أَمْرِي، وَآجِلِهِ» - فَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ»(٢).

الشَّاهِدُ فِي الْحَدِيثِ: قوله ﷺ: «فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ».

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٤٥).
(٢) البخاري، كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ﴾ برقم (٧٣٩٠).

بعض فوائد الحديث:

الفَائِدَةُ الأُولَى: في الشمائل النبوية:

١- حرصه ﷺ على تعليم الصحابة ما ينفعهم من فرائض العبادات وغيرها، ففي الحديث أنه ﷺ كان يعلمهم القرآن سورة سورة، ويعلمهم أيضًا صلاة الاستخارة، ويهتم بتعليمهم إياها كما يهتم بتعليمهم القرآن، وهذا يدل على عظيم حب النبي ﷺ لهذه الأمة وحرصه على إبلاغهم كل ما ينفعهم.

ويتفرع عليه: بيان الأهمية البالغة لصلاة الاستخارة، وذلك لحرص الرسول ﷺ على تعليمها لأصحابه كما يعلمهم السورة من القرآن، ومعلوم مدى أهمية القرآن بالنسبة للمسلم، فعلى كل مسلم، الحرص على هذه العبادة وعدم التفريط فيها.

فمن الفوائد العظيمة لهذه الاستخارة:

أ- أن يتذكر العبد دائمًا حاجته إلى الله -عز وجل- ، وأن يبقى في صلة دائمًا بخالقه ومولاه.

ب - أن يتعلم المسلم حسن التضرع والتوجه إلى اللَّه - سبحانه وتعالى - .

ج - أن يوطن العبد نفسه على التواضع بين يدي الرب - تبارك وتعالى - فهو مهما بلغ فقير إلى علم اللَّه وقدرته وفضله، مع إعلان عجزه الكامل.

د - أن يرضى العبد دائمًا بقضاء اللَّه وقدره، وأن لا يتسخط على ما جاء به القضاء، لعلمه أنه من عند الله، وأنه قد اجتهد قبل العمل، بسؤال ربه التوفيق والبركة.

٢- حسن تعبيده ﷺ الناس لرب الناس حيث أمرهم ﷺ وحثهم على الاستخارة في الأمور كلها، ليتيقنوا أنهم مفتقرون إلى اللَّه - سبحانه وتعالى - في كل أمر، صغير وكبير، عظيم وحقير، وهذا يزرع في قلب المسلم العقيدة الصحيحة، بأن الأمر كله يرجع إلى الله، وأن اللَّه لم يوكل لغيره شيئًا من الملك ولو كان أدنى الأمور، ولو أن اللَّه وكل لغيره أي أمر، لَعَلَّمَنَا النبيُّ ﷺ أن نتوجه لهذا الغير بالدعاء في الأمور الموكول بها، فلله الحمد والمنة، أن جعل قبلتنا في الدعاء واحدة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود: ١٢٣]، فأوضحت الآية أن صاحب الأمر كله هو اللَّه - تبارك وتعالى.؛ ولأن الأمر كله بيده لا يشاركه فيه أحد، فيجب على العباد صرف العبادة كلها له، وضربت الآية مثالاً لأعظم هذه العبادات التي يجب صرفها إليه -عز وجل- وهي التوكل، والذي يبدأ بالدعاء مع حسن الثقة،

وينتهي بالأخذ بالأسباب المشروعة، وانظر إلى جمال الآية حيث بدأت الآية بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وهي حيثية أن الأمر كله لله، واختتمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. وهي حث وتطمين لكل من يتوكل عليه أن الله يرعى حاله ويسمع نداءه، وفيها أيضًا تخويف وترغيب لمن أساء القول والعمل.

٣. كمال أدبه ﷺ مع ربه ومولاه، ويتبين ذلك من:

أ - طلب العون من اللّه - تبارك وتعالى - لقوله ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّيْ أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ...**»، مع ذكر أسباب طلب العون هي قدرة اللّه وعلمه الواسع مع افتقار العبد لتلك القدرة وذلك العلم، لقوله ﷺ: «**فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ**»، ولا يخفى ما في ذلك من حسن الثناء على اللّه - تبارك وتعالى - بمقابلة قدرته وعلمه إلى عجزنا وجهلنا.

ب - الإقرار بأمور عظيمة وهي:

- أن علم اللّه - تبارك وتعالى - قد وَسِعَ كل شيء، فهو يعلم عاقبة كل أمر على حدة، عاقبته إذا حدث، وعاقبته إذا لم يحدث، ويعلم العاقبة في الحالين من جميع النواحي في دين العبد ودنياه، وفي معاشه وآخرته، وهذه العاقبة، يعلمها - تبارك وتعالى - لكل عبد على حدة، وتختلف العاقبة للعبد الواحد، فالأمر الذي يسعده اليوم لو حدث، قد يشقيه غدًا، ولولا إحاطة اللّه بكل ذلك، ولولا تغير عاقبة كل أمر لكل عبد على حدة، ما كان للاستخارة من فائدة قال ﷺ «**فإن كنت تعلم هذا الأمر خيرًا لي في عاجل أمري وآجله...**».

- أن اللّه - تبارك وتعالى - هو الذي يُقَدِّر كل شيء، وأن كل ما يحدث في هذا الكون فبتقديره وعلمه، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القمر: ٤٩]، وقال ﷺ في الحديث الذي معنا: «**فاقدره لي**».

- أن تيسير الأمر منه وحده - تبارك وتعالى -، وهو من النعم المكملة لتقدير الخير، لقوله ﷺ: «**فاقدره لي ويسره لي**».

- أن البركة من اللّه -عز وجل- وهي تأتي بعد تقدير الخير وتيسيره، وهو من تمام نعمة اللّه على عبده، فقد يعدد اللّه وييسر سبل الرزق الواسع، ثم لا يكون في الرزق بركة، فيصرفه العبد فيما لا ينفعه في الدنيا والآخرة، فعلى العبد أن يهتم ويحرص على الدعاء بالبركة.

– أن القلوب بيد اللّٰه وحده، يرضي من يشاء بما شاء، فقد يتسخط الرجل بالرزق الوفير لأنه يطلب المزيد، وقد يرضى الآخر بما هو أقل لأنه يقنع بالقليل، وإرضاء القلوب لا يقدر عليه إلا الله، ورد في الحديث «ثم رَضِّني به».

– أن اللّٰه يحول بين المرء وما يريد ويشتهي لقوله ﷺ واصرفني عنه.

ج – تسليم الأمر في النهاية لله –عز وجل– وترك التقدير له قال ﷺ: «واقدر لي الخير حيث كان».

د – ثقته المطلقة باللّٰه من حيث علم أنه – سبحانه وتعالى – هو الذي يعلم عاقبة كل أمر، في كل حال، وهو الذي يقدر على التقدير والصرف والتيسير.

وفي كل ما ذكر يظهر بجلاء كمالُ أدب النبي ﷺ مع ربه، من حيث خروجه من حوله وقوته، وإعلانه أن الأمر كله لله من قبل ومن بعد، فهذا إعلان منه ﷺ أنه لا يملك شيئًا ولا يعرف ما يضره وما ينفعه وأن التيسير والبركة من اللّٰه وحده وهو القادر على أن يختار للعبد ما ينفعه ويجعل الرضا يتملك قلبه.

الفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وهي متفرقات:

١– ثبوت كمال قدرة اللّٰه –عز وجل– فهو لازم ما ذكر في الحديث، من تقدير اللّٰه لكل شيء وتيسيره للأمور وإحلال البركة أو نزعها وكذا صرف العبد عما يريد ويقصد وجعل الرضى في قلبه، ومن يقدر على إيجاد الرضا، يقدر على نزعه وإحلال نقيضه مكانه.

ويخطئ من يقول: (اللّٰه يقدر على ما يشاء)، والصحيح أن يقال: (اللّٰه قادر على كل شيء)، أولاً لمطابقته الذي ورد بالقرآن، وثانيًا لأنه هو المطابق للواقع فهو سبحانه يقدر على ما يشاء وما لا يشاء.

٢– عظيم أمر الدعاء، كما ذكرت في مواضع كثيرة، لأن الاستخارة ما هي إلا دعاء، وبهذا الدعاء المخصوص يستجلب العبدُ الخيرَ، ويدفع الشر.

٣ – بيان جوامع كلمه ﷺ حيث جمع متعلق الخير والشر للإنسان في ثلاث كلمات وهي: الدين، والمعاش وعاقبة الأمر. وعاقبةُ الأمر تشمل كل نتائج سعي الإنسان في الدنيا والآخرة.

٤– على المسلم أن لا يحكم على أي أمر أنه خير أو شر من ظاهر الأمر، لأن النبي ﷺ

كان يستخير ويعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها، كما أنه ﷺ وَكَلَ العلم ببواطن الأمور من حيث خيرها أو شرها بعلم اللَّه للغيب. ويستثنى من ذلك، أن يكون الأمر مأمورًا به العبد شرعًا، فنعلم أنه خير يجب فعله، أو منهي عنه شرعًا، فنعلم أنه شر يجب تركه، وفي هذين الأمرين، وهما يمثلان دائرة الأمر والنهي لا تشرع الاستخارة أبدًا.

٥- يؤخذ من قوله ﷺ: «فاقدره لي»، ومن قوله: «فاصرفني عنه»، أن هناك محوًا وإثباتًا في الكتب التي مع الملائكة، ويكون الأمر بعد الإثبات والمحو موافقًا لما هو في اللوح المحفوظ، والذي لا يحدث فيه تغيير أبدًا إلى قيام الساعة، وقد بينت ذلك تفصيلاً عند التعليق على حادثة الإسراء والمعراج.

٦- يعلمنا الحديث عظيم أمر الصلاة، وشدة قرب العبد من ربه أثناء الصلاة وبعدها، نقل ابن حجر في الفتح عن ابن أبي جمرة قوله: (الحكمة في تقديم الصلاة على الدعاء أن المراد بالاستخارة حصول الجمع بين خيري الدنيا والآخرة فيحتاج إلى قرع باب الملك ولا شيء لذلك أنجع ولا أنجح من الصلاة لما فيها من تعظيم اللَّه والثناء عليه والافتقار إليه مآلاً وحالاً)[1].

وأقول: لو أن هناك ما هو أعظم قربة إلى اللَّه - سبحانه وتعالى - من الصلاة لفعلها النبي ﷺ بين يدي دعاء الاستخارة، كما يمكن أن يقال: إنه بقدر ما يكون العبد قريبًا من ربه في هذه الصلاة مستشعرًا الذلة والمسكنة والتواضع والافتقار إلى ربه، بقدر ما يمكن أن يُوَفَّق في الدعاء، وبقدر ما يكتب اللَّه له الخير في عاقبة أمره، لأن الصلاة كانت بمثابة المقدمة والمفتاح لذلك الدعاء.

ج - حسن الثناء على اللَّه - عز وجل-:

عن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي اللَّه عنهما قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ: **«اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا**

(١) فتح الباري (١١/ ١٨٦).

قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ، وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ - أَوْ لاَ إِلَهَ غَيْرُكَ -»[1].

الشَّاهِدُ فِي الْحَدِيثِ:

كل جملة، بل كل كلمة في الحديث تنضح بحسن ثناء النبي ﷺ على الله جل في علاه، كما سيأتي في الفوائد - إن شاء الله تعالى.

بَعْضُ فَوَائِدِ الْحَدِيثِ: الفَائِدَةُ الأُولَى: مظاهر ثناء النبي ﷺ على ربه:

١- إثبات أن الحمد كله لله، والحمد هو الثناء على الله بصفات الكمال والجمال، وبأفعاله الحميدة الدائرة بين الفضل والعدل، قال الإمام القرطبي في تفسير الفاتحة: (الحمد في كلام العرب: معناه الثناء الكامل، والألف واللام لاستغراق الجنس من المحامد، فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه؛ إذ له الأسماء الحسنى والصفات العلا)[2].

٢- إثبات أن الله - سبحانه وتعالى - هو القائم على أمر السماوات والأرض فهو - سبحانه وتعالى - الذي يحفظهما ويدبر أمرهما ويتولى رعايتهما، بل هو الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

ويحفظ السماوات أن تقع على الأرض قال تعالى ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، كما أن الله قائم على أمر السماوات والأرض، فهو قائم أيضًا على أمر من في السماوات والأرض، من أجرام سماوية وكائنات حية وبحار ومحيطات، منها ما نعلمه وكثير منها لا نعلمه.

وأقول: إن أجناس هذه الكائنات والمخلوقات لا يمكن حصرها أنواعًا فضلاً عن حصرها أعدادًا، وتدبر أخي القارئ قدرتنا بالنسبة لقدرة الخالق البارئ، فنحن لا نستطيع أن نحصر الكائنات الحية أنواعًا أو أعدادًا، مجرد حصر فقط، على كوكب واحد وهو الأرض، والله -عز وجل- يحصرها أعدادًا وأصنافًا، بل يقدر آجالها وأعمالها وأرزاقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، ويرى مكانها ولا يخفى عليه حالُها، يسمع كلامها باختلاف لهجاتها، ولا يشغله سبحانه أمرُ كوكبٍ عن كوكب.

(١) البخاري، كتاب: الجمعة، باب: التهجد بالليل، برقم (١١٢٠)، واللفظ له، ومسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه، برقم (٧٦٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٣٣).

وأضرب مثالاً بسيطًا ليتصور القارئ سعة خلقه - سبحانه - وكثرة مخلوقاته، ورد في الصحيحين نبأ البيت المعمور الذي يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه أبدًا، قال ﷺ: «فإذا أنا بإبراهيم ﷺ مُسْنِدًا ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه»(١) فكم هو عدد الملائكة، الذين هم جنس واحد من مخلوقات اللَّه - سبحانه وتعالى - وكم سعة هذا البيت الذي يستوعب هذا العدد الهائل من جنسٍ عظيمِ الخلقة كالملائكة، وقِسْ على ذلك بقية الأكوان والمخلوقات.

ومن لوازم قيومته - سبحانه وتعالى - كمال قدرته، وتنزيهه عن أي نقص في ذاته وحياته - سبحانه وتعالى - مثاله أن اللَّه الذي يقوم بأمر السماوات والأرض لا ينبغي له أن ينام بل ولا تعـــرض له مقدمات النوم، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وتدبر الآية كيف ذكرت تنزيهه - سبحانه وتعالى - عن النوم والسِّنة بعد ذكر قيومته.

٣- إثبات أن اللَّه ملك السماوات والأرض ومن فيهن، والملك هو الذي خلق، وهو الذي يربي خلقه على نعمه وآلائه، ومن لوازم ملكه للسماوات والأرض ومن فيهن، أن الأمر كله يرجع إليه، وأن يكون له التصرف المطلق فيهن وبمن فيهن، وأن لا يَحْدُثَ فيهن شيء إلا بعلمه وإذنه، وأن من لوازمه أيضًا أن نتوجه إليه بجميع العبادات صغيرها وكبيرها، سرها وعلانيتها، فهو الملك سبحانه وتعالى.

٤- إثبات أن اللَّه - تبارك وتعالى - هو نور السماوات والأرض، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور: ٣٥]، قال ابن حجر في الفتح: (أي مُنَوِّرُها وبك يَهْتدي مَنْ فيها، وقيل: المعنى: أنت المنزه عن كل عيب، يقال: فلان مُنَوّر، أي مبرأ من كل عيب، ويقال: هو اسم مدح تقول: فلان نور البلد أي مُزَيِّنُه)(٢).

٥- إثبات أن اللَّه - تبارك وتعالى - هو الحق، والحق هو الذي لا يتغير ولا يتبدل، وهو الذي لا يحول ولا يزول، وجاء اللفظ هكذا مطلقًا غير مقيد، ليفيد العموم، فهو - سبحانه وتعالى - حق في ذاته وأسمائه وصفاته وفي أفعاله وكلامه، وهذا أبلغ في الثناء والمدح، وإذا كان اللَّه هو الحق فكل ما ينزل منه حق، وكل ما يَعِدُ به حق، ولذلك قال ﷺ بعد قوله «أنت الحق» قال: «ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والنار حق،

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ، برقم (١٦٢).
(٢) فتح الباري (٣/ ٤)

والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق، والساعة حق».

٦- ومن مظاهر الثناء أيضًا، تقديم الخبر وتأخير المبتدأ في كل جملة، لإفادة التوكيد والحصر، ومثاله «لك ملك السماوات والأرض»، أي الملك لك وحدك لا لغيرك ولا يشاركك فيه أحد. ومن مظاهر الثناء أيضًا، أن النبي ﷺ قد عَقَّبَ كل جملة بقوله «ولك الحمد» ليثبت أن كل ما ذُكِرَ لله - سبحانه وتعالى - فهو محل للثناء والحمد.

الفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بيان ما أُوتيه النبيُّ ﷺ من جوامع الكلم، ويظهر ذلك في تقسيمه ﷺ الثناء على الله - تبارك وتعالى - إلى ثلاثة أقسام رئيسة هي:

القسم الأول: ثناء يتعلق بذات الله العلية، وصفاته البهية، من حيث سعة خلقه وتمام ملكه وعظيم نوره وجمال هديه وكمال قدرته.

القسم الثاني: ثناء يتعلق بما وعد الله به وأرسل، فقد وعد باللقاء ورغب فيه بالجنة وتوعد منه بالنار، وأرسل النبيين مبشرين ومنذرين من هذا اللقاء.

القسم الثالث: الثناء عليه - تبارك وتعالى - بما ينبغي أن يفعله العبد تجاهه سبحانه وتعالى، من الإسلام والإيمان والعبادات القولية، كالمخاصمة به والمحاكمة إليه.

ثم إن ورود هذه الأقسام بهذا التسلسل المنطقي، يدل على كمال فصاحته ورجاحة عقله ﷺ حيث بدأ بذكر عظيم صفات الله بما يُحَبِّبُ الخلق في خالقهم - جل وعلا - وهو مفتاح الإيمان وعموده، وهو الذي يجعل العباد يُقْبِلون على خالقهم طوعًا وكرهًا، فإذا آمنوا به وأحبوه، كانوا على استعداد للإيمان بأنبيائه وما جاءوا به من وعد ووعيد ليطمعوا في كرمه ويخافوا من عذابه، فإذا حدث لهم ذلك وَجَبَ عليهم إعلان كمال الانقياد والتسليم وصرف كل العبادات الظاهرة والباطنة لله وحده.

الفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وجوب تعظيم النبي ﷺ، قال ابن حجر في الفتح قوله: «(ومحمد ﷺ حق) خصه بالذكر تعظيمًا له، وعطفه على النبيين إيذانًا بالتغاير، بأنه فائق عليهم بأوصاف مختصة، وجرده من ذاته كأنه غيره فوجب عليه الإيمان به وتصديقه مبالغةً في إثبات نبوته كما في التشهد»[(١)].

الفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الحث على كثرة الحمد، وبيان فضله حيث إن النبي ﷺ قد بدأ صلاة الليل بهذا الحمد الجميل، وكان يداوم عليه لقول الراوي: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل

---

(١) فتح الباري (٣/ ٤)

يتهجد قال: «اللهم لك الحمد». فلو أن هناك ما هو أثقل في الميزان وأحب إلى اللَّه من الحمد لبدأ به، فقد ورد عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلآنِ - أَوْ تَمْلأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ»(١).

الفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: كمال عبوديته ﷺ لله -عز وجل- حيث ذكر في الحديث:

١- أن كل جوارحه ﷺ قد انقادت وخضعت لله «اللهم لك أسلمت».

٢- أن قلبه وعقله ﷺ قد ملأه اليقين والتصديق التام باللَّه «وبك آمنت».

٣- أن كل أموره قد استعان على قضائها باللَّه «وعليك توكلت».

٤- أنه يرجع إلى اللَّه في تدبير أمره كله «وإليك أنبت».

٥- أن كل مخاصماته مع الغير، قد اعتمد فيها على برهان ربه وما أعطاه من الحجج الدامغات «وبك خاصمت».

٦- أن الذي يحكم بينه ﷺ وبين أعدائه، هو اللَّه الحكم العدل.

٧- أن كل ما فعله من ذنوب - إن حدثت - في حاضره وآجله وسريرته وعلانيته، فإن اللَّه هو الذي يغفرها ويمحوها. ماذا ترك ﷺ لنفسه؟ لا شيء، قلبه وجوارحه وأمره وخصامه وحكمه لله وبالله. ولذلك كان اللَّه له خير كافٍ ومعين وناصرٍ.

١٧- شدة حب النبي ﷺ لأمته:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا»(٢).

الشَّاهِدُ فِي الحَدِيثِ: قوله ﷺ: «فتعجل كل نبي دعوته وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة».

* * *

(١) مسلم، كتاب: الطهارة، باب: فضل الوضوء، برقم (٢٢٣).

(٢) البخاري، كتاب: الدعوات، باب: لكل نبي دعوة مستجابة برقم (٦٣٠٤). مسلم، كتاب: الإيمان، باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته، برقم (١٩٩). واللفظ له.

بَعْضُ فَوَائِدِ الحَدِيثِ:

الفَائِدَةُ الأُولَىٰ: في شمائل النبي ﷺ:

١- عظيم حفاوة اللَّه - سبحانه وتعالى - بنبيه ﷺ حيث أذن - سبحانه وتعالى - أن تكون دعوة النبي ﷺ المستجابة شفاعة لكل فرد من أفراد الأمة يموت على التوحيد.

٢- بركة دعوته المستجابة ﷺ فهي بلا شك أكثر بركة من دعوة أي نبي من قبل، حيث إنها ستنال كل فرد من أفراد الأمة، من عصر الصحابة إلى آخر من يموت منها، في وقت يكونون في أشد الحاجة لهذه الدعوة، قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: (أَخَّرَ ﷺ دعوته في أهم أوقات حاجتهم).

٣- حبه ﷺ لأمته، وتقديمها على خاصة نفسه وأهل بيته، ذكر الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ نقلاً عن بعض العلماء كلامًا جميلاً يوضح فضله ﷺ حيث قال ما نصه: (قال ابن بطال: في هذا الحديث بيان فضل نبينا ﷺ على سائر الأنبياء حيث آثر أمته على نفسه وأهل بيته بدعوته المجابة، ولم يجعلها أيضًا دعاءً عليهم بالهلاك كما وقع لغيره ممن تقدم، وقال ابن الجوزي: هذا من حسن تصرفه ﷺ لأنه جعل الدعوة فيما ينبغي ومن كثرة كرمه لأنه آثر أمته على نفسه ومن صحة نظره لأنه جعلها للمذنبين من أمته لكونهم أحوج إليها من الطائعين)[(١)]. وقال النووي: (في الحديث بيان كمال شفقته ﷺ على أمته ورأفته بهم واعتنائه بالنظر في مصالحهم)[(٢)].

تنبيه: في قول الإمام ابن الجوزي: (لأنه جعلها للمذنبين من أمته) نظر؛ فإن المفهوم أن الطائعين ليس لهم حظ في شفاعته ﷺ وليس الأمر كذلك، إذ نص الحديث يدل على أن الشفاعة ستنال كل من مات لا يشرك باللَّه شيئًا، فستكون تلك الشفاعة للطائعين - بإذن اللَّه تعالى برفع درجاتهم.

ويتفرع عليه: وجوب امتنان جميع الأمة للنبي ﷺ والعمل على رد جزء من جميله الموفور حيث ببركة دعائه ﷺ لن يخلد في النار أحد ممن مات على التوحيد.

وأقول أخي القارئ الكريم: هذا شيء يسير من حُبِّ النبي ﷺ لك وترجمة ذلك الحب إلى عمل تَسْعَدُ به، فسل نفسك كيف حُبُّكَ للنبي ﷺ وهل ترجمت هذا الحب إلى عمل ينفعك

---

(١) فتح الباري (١١/ ٩٧).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٣/ ٧٥).

أنت يوم القيامة، وتُسْعِد به نبيك ﷺ.

الفَائِدَةُ الثَّانِيةُ: ليس معنى أن لكل نبي دعوة مستجابة أنها دعوة واحدة فقط وبقية الدعوات لا تستجاب، ولكن المقصود أن لكل نبي دعوة عظيمة لا ترد، وبقية الدعوات يُوكَل أمرها إلى اللَّه - سبحانه وتعالى - وليس بلازم أن تستجاب، فالأنبياء قد دعوا لأنفسهم بدعوات كثيرة قد استجيبت، وقد أوردت في هذا الكتاب دعوات للنبي ﷺ وقد استجيبت كلها بفضل اللَّه تعالى.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ (قد استشكل ظاهر الحديث بما وقع لكثير من الأنبياء من الدعوات المجابة ولا سيما نبينا ﷺ وظاهر الحديث أن لكل نبي دعوة مستجابة فقط، والجواب: أن المراد بالإجابة في الدعوة المذكورة القطع بها، وما عدا ذلك من دعواتهم فهي على رجاء الإجابة)(١).

الفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: من مات من أهل التوحيد لا يشرك باللَّه شيئًا لم يخلد في النار، لما ورد في الحديث: «**فهي نائلة إن شاء اللَّه من مات من أمتي لا يشرك باللَّه شيئًا**». قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: (فيه دلالة لمذهب أهل الحق أن كل من مات غير مشرك باللَّه تعالى لم يخلد في النار وإن كان مصرًا على الكبائر)(٢).

الفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: قد يقول قائل: في الحديث دليل على أنه يمكن أن يخلد في النار - من الأمم السابقة من مات على التوحيد - من أصحاب الكبائر مثلاً، لأنه لو كان مقررًا أن كل من مات على التوحيد لم يخلد في النار ما كان هناك حاجة أن يخبئ النبي ﷺ دعوته المستجابة لأمته يوم القيامة، ولكن يمكن أن يرد على هذا الاحتمال أن أهل التوحيد من أمته ﷺ سيخرجون بفضل شفاعته من النار قبل استيفاء ما توجب عليهم من العذاب، بعكس من مات على التوحيد من الأمم السابقة فإنه قد يعذب بقدر سيئاته ولا يعجل له الخروج من النار.

١٨- حسن معاشرته ﷺ لأزواجه:

عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان له جار مسلم يقول: «كُنَّا نَتَنَاوَبُ النُّزُولَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَيَنْزِلُ يَوْمًا وَأَنْزِلُ يَوْمًا فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ مِنْ خَبَرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ الْأَمْرِ وَغَيْرِهِ، وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَهُ، وَكُنَّا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ نَغْلِبُ النِّسَاءَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى الْأَنْصَارِ إِذَا هُمْ قَوْمٌ تَغْلِبُهُمْ

(١) فتح الباري (١١/ ٩٦).
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٣/ ٧٥).

نِسَاؤُهُمْ، فَطَفِقَ نِسَاؤُنَا يَأْخُذْنَ مِنْ أَدَبِ نِسَاءِ الأَنْصَارِ فَصِحْتُ عَلَى امْرَأَتِي فَرَاجَعَتْنِي فَأَنْكَرْتُ أَنْ تُرَاجِعَنِي، فَقَالَتْ: وَلِمَ تُنْكِرُ أَنْ أُرَاجِعَكَ؟! فَوَاللَّهِ إِنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ لَيُرَاجِعْنَهُ، وَإِنَّ إِحْدَاهُنَّ لَتَهْجُرُهُ الْيَوْمَ حَتَّى اللَّيْلِ فَأَفْزَعَنِي، فَقُلْتُ: خَابَتْ مَنْ فَعَلَ مِنْهُنَّ بِعَظِيمٍ، ثُمَّ جَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ فَقُلْتُ: أَيْ حَفْصَةُ أَتُغَاضِبُ إِحْدَاكُنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْيَوْمَ حَتَّى اللَّيْلِ؟! فَقَالَتْ: نَعَمْ. فَقُلْتُ خَابَتْ وَخَسِرَتْ، أَفَتَأْمَنُ أَنْ يَغْضَبَ اللَّهُ لِغَضَبِ رَسُولِهِ ﷺ فَتَهْلِكِينَ؟! لاَ تَسْتَكْثِرِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلاَ تُرَاجِعِيهِ فِي شَيْءٍ وَلاَ تَهْجُرِيهِ، وَاسْأَلِينِي مَا بَدَا لَكِ وَلاَ يَغُرَّنَّكِ أَنْ كَانَتْ جَارَتُكِ هِيَ أَوْضَأَ مِنْكِ وَأَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يُرِيدُ عَائِشَةَ»(١).

الشاهد في الحديث:

قول زوجة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل».

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: في حسن معاشرة النبي ﷺ لأزواجه رضي الله عنهن ويتبين ذلك من:

١- إذنه ﷺ لأزواجه بمراجعته وعدم كفهن عن ذلك، لأنني أعتقد أنه ﷺ لو نهرهن أو أمرهن بعدم مراجعته لانتهين وما فعلن.

٢- تحمُّله ﷺ أن تهجره أي من أمهات المؤمنين طوال اليوم، وهذه أعظم من الأولى، ويدل ذلك على أنه كان ﷺ يعاملهن معاملة الزوج لزوجه، وليس بمعاملة النبي لأتباعه، وإلا ما استطاعت إحداهن مراجعته أو هجرانه ﷺ، وهذا من كريم خلقه وحسن معاشرته لأزواجه.

الفائدة الثانية: تعظيم عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - للنبي ﷺ، وهو ظاهر جلي في الحديث، ويتبين ذلك من النقاط التالية:

١- الخوف الشديد الذي انتاب عمر لما علم أن أزواج النبي ﷺ يراجعنه في الأمر، بل قد يتعدى الأمر إلى هجره ﷺ طوال اليوم، ويدل على خوف عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله في الحديث: «فأفزعني».

(١) البخاري، كتاب: المظالم والغصب، باب: الغرفة والعلية المشرفة وغير المشرفة....، برقم (٢٤٦٨).

٢ - الحكم على من فعلت هذا من أزواج النبي ﷺ بالخيبة والخسران، ولو كانت ابنته، ورد في رواية أخرى عند البخاري: «قد خبتِ وخسرتِ».

٣ - حكمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بل أقول: اعتقاده، أن من أغضب الرسول ﷺ فقد أغضب اللَّه ومن ثَمَّ يهلك، ورد في إحدى روايات البخاري: «أفتأمنين أن يغضب اللَّه لغضب رسوله فتهلكين».

٤ - مبادرته للذهاب إلى ابنته لمراجعتها في سلوكها مع النبي ﷺ، ورد في الحديث: «ثم جمعت عليَّ ثيابي فدخلت على حفصة فقلت: أي حفصة أتغاضب إحداكن رسول اللَّه ﷺ اليوم حتى الليل؟!»[1]. بل تعدى الأمر إلى إنكار الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وردعند مسلم: (فدخلت على عائشة فقلت: يا بنت أبي بكر أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول اللَّه ﷺ؟! فقالت: مالي ومالك يا ابن الخطاب عليك بعيبتك). تقصد حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

٥ - تقديمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رضى النبي ﷺ على رضى كل أحد، ولو كانت ابنته، ولو وصل الأمر أن إرضاء النبي ﷺ لا يكون إلا بقتل ابنته حفصة، لقتلها وباشر ذلك بنفسه، ورد عند مسلم: (فقلت: يا رباح استأذن لي عندك على رسول اللَّه ﷺ فإني أظن أن رسول اللَّه ﷺ ظن أني جئت من أجل حفصة، واللَّه لئن أمرني رسول اللَّه ﷺ بضرب عنقها لأضربن عنقها).

٦ - حرصه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن لا يصيب النبيَّ ﷺ أدنى إيذاء من جهة ابنته حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، مع حرصه أيضًا على نصحها أبلغ نصيحة في كيفية معاملة النبي ﷺ، حتى تَضْمَنَ رضاه عنها، فقال لها - كما ورد في رواية البخاري.: (لا تستكثري على رسول الله ﷺ، ولا تراجعيه في شيء، ولا تهجريه، وسليني ما بدا لك). وأعتقد أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يريد من أمهات المؤمنين - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ - أن يعاملن النبي ﷺ المعاملة التي تنبغي له كنبي من عند الله، لا معاملة زوج لزوجه، وأكبر دليل على ذلك أنه ربط غضب النبي ﷺ بغضب اللَّه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - ومن ثم الهلاك، ورفض مبدأ المراجعة أو الهجر، وقد أطلت في الكلام عن الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ ليعلم القارئ الكريم كيف كان الصحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - جميعًا يرون النبي ﷺ في أعينهم، ومهما قلت وحاولت التقريب فحقيقة الأمر أجل وأعظم

(١) البخاري، كتاب: المظالم والغصب، باب: الغرفة والعلية المشرفة وغير المشرفة، برقم (٢٤٦٨).

من أن ندركها .

الفائدة الثالثة : وهي متفرقات :

١ – علم الصحابة بفضل عائشة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – ، وحب النبي ﷺ لها ، ورد عند البخاري قول عمر رضي الله عنه لابنته : (ولا يغرنك أن كانت جارتك أوضأ منك وأحب إلى النبي ﷺ) .

٢ – حرص الصحابة على تحصيل العلم ومعرفة كل أحوال النبي ﷺ أولاً بأول ، فإن لم يستطيعوا حضور مجلس النبي ﷺ تناوبوا الحضور ، ورد في الحديث : (إني كنت وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد ، وهي من عوالي المدينة ، وكنا نتناوب النزول على النبي ﷺ ، فينزل يومًا وأنزل يومًا ، فإذا نزلت جئته من خبر ذلك اليوم وغيره ، وإذا نزل فعل مثله) .

٣ – تعظيم الصحابة للنبي ﷺ ، ودليله من الحديث أن زوجة عمر رضي الله عنهما حاجَّته بمشروعية مراجعته بأن أزواج النبي ﷺ يراجعنه ، وكأنها تريد أن تقول له ، الزوجات يراجعن من هو خير منك وهو الرسول ﷺ .

١٩ـ ملاطفته ﷺ من حوله:

أولا : ملاطفته ﷺ زوجاته وإدخال السرور عليهن :

المثال الأول : عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : دَخَلَ عليَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدِي جَارِيَتَانِ تُغَنِّيَانِ بِغِنَاءِ بُعَاثٍ ، فَاضْطَجَعَ عَلَى الْفِرَاشِ وَحَوَّلَ وَجْهَهُ ، فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ ، فَانْتَهَرَنِي ، وَقَالَ : مِزْمَارَةُ الشَّيْطَانِ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟! فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : **«دَعْهُمَا»** . فَلَمَّا غَفَلَ غَمَزْتُهُمَا فَخَرَجَتَا ، وَكَانَ يَوْمَ عِيدٍ يَلْعَبُ السُّودَانُ بِالدَّرَقِ[1] وَالْحِرَابِ ، فَإِمَّا سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَإِمَّا قَالَ : **«تَشْتَهِينَ تَنْظُرِينَ؟»** فَقلت : نَعَمْ . فَأَقَامَنِي وَرَاءَهُ ، خَدِّي عَلَى خَدِّهِ ، وَهُوَ يَقُولُ : **«دُونَكُمْ يَا بَنِي أَرْفِدَةَ»** ، حَتَّى إِذَا مَلِلْتُ . قَالَ : **«حَسْبُكِ؟»** قلت : نَعَمْ . قَالَ : **«فَاذْهَبِي»**[2] .

الشَّاهِدُ فِي الْحَدِيثِ :

الشاهد الأول : أن النبي ﷺ دخل على عائشة في يوم عيد ، وعندها جاريتان تغنيان ، فاضطجع على الفراش وحول وجهه ، فلما دخل أبو بكر رضي الله عنه وانتهر الجاريتين ، قال له

---

(١) الدرق : الدرع من الجلد .

(٢) البخاري ، كتاب : الجمعة ، باب : الحراب والدرق يوم العيد ، برقم (٩٥٠) .

رسول الله ﷺ: دعهما.

والشاهد الثاني: أن النبي ﷺ كان يقيم عائشة رضي الله عنها وراءه تنظر إلى بعض أهل الحبشة وهم يلعبون في المسجد.

تنبيه: الحديث يشتمل على واقعتين، واقعة غناء الجاريتين في حجرة عائشة، وواقعة رؤية عائشة لوفد الحبشة وهم يلعبون بالحراب في المسجد، وقد ذكر ابن حجر رحمه الله أن بعض الرواة قد جمعوا الواقعتين في حديث واحد، وبعضهم أفردهما في حديثين منفصلين.

بعض فوائد الحديث:

الفَائِدَةُ الأُولَى: في الشمائل النبوية:

١- حكمته ﷺ في التعامل مع المرأة صغيرة السن، ولو كانت زوجته، وتتجلى حكمته في علمه بما تحتاجه صغيرة السن فيتلمس رغباتها وما تتشوق نفسها إليه، فلا ينكر عليها حُبَّها لرؤية وفد الحبشة وهم يلعبون في المسجد، أو حبها لسماع غناء الجارية يوم عيد، بحجة أنها قد تزوجت، وتزوجت بمن؟ بقائد الأمة وقدوتها ﷺ.

ونعلم من ذلك: أن تعاليم ديننا الحنيف، لا تصطدم مع فطرة الله التي فطر الناس عليها، حتى في اللعب واللهو، ورد في إحدى روايات البخاري **«فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن حريصة على اللهو»**(١)، وهذا والله لأبلغ دليل على كمال وجمال الشريعة، وأنها حقًّا من عند الله - تبارك وتعالى- الذي يعلم حاجات من خلق، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

٢- ملاطفته لزوجاته وحب إدخال السرور عليهن، ويتبين ذلك من:

أ - إقراره ﷺ عائشة رضي الله عنها لسماعها غناء الجاريتين، ورد في الحديث: (دخل رسول الله ﷺ وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث فاضطجع على الفراش وحول وجهه)، ثم أَمْرُه ﷺ أبا بكر أن يدع الجاريتين تغنيان، بل بلغ اهتمامه بالأمر أن أقبل على أبي بكر بوجهه ليأمره بذلك، ورد في الحديث: فدخل أبو بكر فانتهرني وقال: مزمار الشيطان عند رسول الله ﷺ؟! فأقبل عليه رسول الله ﷺ قال: **«دعهما»**.

ب - عرضه ﷺ على عائشة أن تقوم تنظر إلى لعب أهل الحبشة بالدرق والحراب في

(١) البخاري، كتاب: النكاح، باب: نظر المرأة إلى الحبش ونحوهم من غير ريبة، برقم (٥٢٣٦).

المسجد، بل ويقف أمامها يسترها بردائه حتى تقضي هي وطرها، ورد في الحديث: (فإما سألت رسول اللَّه ﷺ وإما قال: «تشتهين تنظرين»، وورد أيضًا: حتى إذا مللت قال: «حسبك؟» أي: أنه ﷺ كان يقف لها طويلاً حتى يصل بها الحال إلى الملل، وهو شعور يأتي بعد الإشباع، وفي رواية عند مسلم: (ثم يقوم من أجلي حتى أكون أنا التي أنصرف)[١]، ولا يخفى من هذا الواقعة مدى دلال عائشة على النبي ﷺ.

ج - ومن عظيم التلطف أن يقيم النبي ﷺ عائشة وراءه في حال كون خدها على خده، ﷺ قالت عائشة رضي الله عنها: (فأقامني وراءه خدي على خده)، ويظهر في كل ما ذكر، ما كان عليه النبي ﷺ من التواضع الجم.

٣- رفيع مقام النبي ﷺ، ودليله ما قاله ابن حجر في [الفتح]: (وأما التفافه ﷺ بثوبه ففيه إعراض عن ذلك لكون مقامه يقتضي أن يرتفع عن الإصغاء إلى ذلك)[٢].

الفَائِدَةُ الثَّانِيةُ: ما كان عليه الصحابة من تعظيم جانب النبي ﷺ وحبه والأدب معه، يتبين ذلك من:

١- زجر أبي بكر الصديق رضي الله عنه لابنته الحبيبة عائشة رضي اللَّه عنها لإذنها بالغناء في حضرة رسول اللَّه ﷺ. وهذا يدل على كبير حبه للنبي ﷺ وتقديمه على كل أحد، ولو كانت ابنةً حديثة السن، قالت عائشة: (فدخل أبو بكر فانتهرني).

٢- دل كلام أبي بكر رضي الله عنه أن من دواعي غضبه على ابنته أن هذا الغناء والزمر يحدث في بيت رسول اللَّه ﷺ فكأنه رضي الله عنه، يحكم بحرمة الغناء واللهو، ولكن اشتدت الحرمة عنده؛ لأنها في بيت النبي ﷺ لذلك أقبل النبي ﷺ بوجهه وأوضح له سبب إقراره لهذا الغناء، وهو أنه يوم عيد، ورد عند البخاري: «يا أبا بكر إن لكل قوم عيدًا وهذا عيدنا»[٣].

٣- أما الأدب، فانظر إلى قول عائشة رضي اللَّه عنها: (فلما غفل غمزتهما فخرجتا) لماذا لم تأمرهما بالخروج بالقول؟ أعتقد أن الغمز كان لحكمة، فقد يكون بسبب حرصها على عدم إزعاج النبي ﷺ لقولها: (فلما غفل)، وقد يرجع الغمز إلى أن عائشة أرادت أن تتوسط بين زوجها النبي ﷺ وأبيها، فلا تشعر النبي ﷺ أنها هي التي أمرت الجاريتين بالذهاب،

---

(١) مسلم، كتاب: صلاة العيدين، باب: الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه...، برقم (٨٩٢).
(٢) فتح الباري (٢/ ٤٤٣).
(٣) البخاري، كتاب: الجمعة، باب: سنة العيدين لأهل الإسلام، برقم (٩٥٢). ومسلم، كتاب: صلاة العيدين، باب: الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه...، برقم (٨٩٢).

وكيف تفعل ذلك والنبي ﷺ أمر أباها أن يدعهما، كما أرادت أن تراعي إنكار أبيها بوجود الجاريتين في بيت النبي ﷺ فجمعت بين المصلحتين بالغمز.

الفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: ليس في الحديث حجة على من توسع في أمور الغناء والزمر، بل الواقع أن الحديث حجة عليهم لا لهم، ويتبين ذلك من استعراض النقاط التالية:

١- كانت الجاريتان تغنيان بغناء بعاث، وعند البخاري: (بما تقاولت به الأنصار يوم بعاث) أي: من الفخر والهجاء، ويوم بُعاث يوم مشهور من أيام العرب كانت فيه مقتلة عظيمة للأوس على الخزرج، والشاهد هنا أن ما كانت تتغنى به الجاريتان، لم يكن كلامًا محرمًا، ولا حتى مكروهًا، بل كلام قيل في سياق المدح والذم؛ فلا يقاس ذلك بالكلام الذي يهيج الغرائز ويثير المشاعر ويحث على الرذيلة، فشتان بين الغناءين.

٢- لم يصاحب غناء الجاريتين آلات الموسيقى والعزف، بل كان كل الذي معهما، الدف؛ لقول عائشة رضي اللّه عنها في رواية مسلم: (تغنيان بدف)، فيبقى تحريم المعازف هو الأصل، لما ورد عن أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيُّ: أنه سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الحِرَ وَالحَرِيرَ وَالخَمْرَ وَالمَعَازِفَ»[1].

٣- الجاريتان لم تكونا محترفتين للغناء، قالت عائشة رضي اللّه عنها (وليستا بمغنيتين). قال القرطبي: (أي ليستا ممن يعزف الغناء كما يعزفه المغنيات المعروفات بذلك، وهذا منها تحرز عن الغناء المعتاد عن المشتهرين به وهو الذي يحرك الساكن ويبعث الكامن، وهذا النوع إذا كان في شعر فيه وصف محاسن النساء والخمر وغيرها من الأمور المحرمة لا يُختلف في تحريمه)[2].

وأقول: لولا أن عائشة رضي اللّه عنها ترى فرقًا عندها وعند الناس، بين المغنية وبين الجارية التي كانت تغني عندها، من حيث الخلق والدين وطريقة الغناء، ما تحرزت بقولها: (وليستا بمغنيتين).

٤- المغنيتان كانتا من الجواري لا من الحرائر، وما يُتَجَوَّز في حق الجواري، قد لا يُتَجوز فيه في حق الحرائر.

٥- هذا الغناء الذي وقع من الجاريتين، على هذا النحو، في التحفظ في الأداء

---

(١) البخاري، كتاب: الأشربة، باب، ما جاء فيمن يستحل الخمر...، رقم(٥٥٩٠).
(٢) انظر فتح الباري (٢/ ٤٤٢) نقله ابن حجر من تفسيره الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٥٤).

والكلمات وما يرافقهما من آلة، الأصل فيه التحريم، فالاستثناء هو الطارئ وليس الأصل، ودليله:

أ - أن أبا بكر حَكَم بالأصل لما رأى الجاريتين تغنيان، قالت عائشة رضي الله عنها: (فدخل أبو بكر فانتهرني وقال: مزمار الشيطان عند رسول الله ﷺ؟!) ولو كان غناء الجاريات هو الأصل ومعروفًا عند الصحابة، ما نهر أبو بكر رضي الله عنه ابنته.

ب - الدليل على صحة ما قاله أبو بكر رضي الله عنه أن النبي ﷺ لم ينكر عليه حكمه أن هذا الدف من مزامير الشيطان، ولكن صوب ﷺ اعتقاده بأن الغناء لا يجوز مطلقا بقوله ﷺ «يا أبا بكر إن لكل قوم عيدًا وهذا عيدنا».

ج - لو كان الأصل في الغناء الإباحة مطلقًا، ما تنزه النبي ﷺ عن سماعه بل إن من مبالغته في عدم السماع أنه تَسَجَّى بثوبه - أي التف به - وحَوَّل وجهه، وكأنه غير حاضر لهذا المجلس.

وجملة القول: أن الغناء لا يكون - بنص الحديث - إلا في عيد أو ما شابهه من مناسبات كالأعراس، وبالشروط المذكورة، فهل بعد هذا البيان يستطيع أحد أن يكابر فيقول: إن الغناء حلال ليس فيه شيء، ويستدل ظلمًا بحديث الباب؟!

وأقول لِمَن ابتلي بهذا المرض العضال، وهو حب الغناء والمعازف: إذا لم تستطع الإقلاع عن هذه المعصية، فلا أقل من أن تقر بتحريمها، وتسأل الله - سبحانه وتعالى - المعافاة منها، فذلك خير لك من أن تجادل في أحكام لله، فتحل حرامًا أو تحرم حلالاً، فتقع في محظور أعظم، وتنسحب هذه النصيحة إلى كل من وقع في معصية لا يستطع الفكاك منها، إياك أن تحل الحرام لوقوعك فيه.

الفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الأعياد مناسبة لإدخال الفرحة والسرور على المسلمين، ويباح فيه ما لا يباح في بقية الأيام، كلعب الأولاد في المسجد بالحراب، لقول عائشة رضي الله عنها (وكان يوم عيد يلعب السودان بالدرق والحراب).

ويتفرع عليه خطأ بعض الناس الذين اعتادوا الذهاب إلى القبور أول أيام العيد، فهذا عمل مذموم، لأن الناس يعملونه وينتظمون عليه كأنه سنة بل كأنه من شعائر أول أيام العيد، التي يتقرب بها إلى الله - سبحانه وتعالى - بالإضافة إلى منافاته حكمة الله من سن الأعياد لأن زيارة القبور تجدد الأحزان والعيد قد شُرع ليدخل الفرحة والسرور.

المثال الثاني: عَنْ عَائِشَةَ رضي اللَّه عنها قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنِّي لأَعْلَمُ إِذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيَةً، وَإِذَا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبَى**»، قَالَتْ: فَقلت: مِنْ أَيْنَ تَعْرِفُ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «**أَمَّا إِذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيَةً فَإِنَّكِ تَقُولِينَ: لاَ وَرَبِّ مُحَمَّدٍ، وَإِذَا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبَى قلت: لاَ وَرَبِّ إِبْرَاهِيمَ**». قَالَتْ: قلت: أَجَلْ. وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَهْجُرُ إِلاَّ اسْمَكَ)[1]. وهذا دليل آخر على جميل معاشرة النبي ﷺ لأزواجه رضي اللَّه عنهن وحرصه على مداعبتهن وإدخال السرور عليهن.

والشَّاهِدُ فِي الحَدِيثِ: واضح: وهو قوله ﷺ لعائشة رضي اللَّه عنها: «**إني لأعلم إذا كنت عني راضية وإذا كنت علي غضبى**».

ونذكر سريعًا بَعْضُ فَوَائِدِ الحَدِيثِ:

الفَائِدَةُ الأُولَى: مدى حب الرسول ﷺ لعائشة رضي اللَّه عنها حتى يقسم أحوالها معه (وهو النبي المجتبى)، إلى حالة رضى وحالة غضب، ولا يستحي ﷺ أن يذكر أن زوجة من زوجاته قد تغضب عليه، وتُظْهر بكلامها أنها في حالة غضب.

الفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: في أم المؤمنين عائشة رضي اللَّه عنها:

١- علمها رضي اللَّه عنها بمدى حب النبي ﷺ لها، حتى تتدلل عليه مثل هذا الدلال، ويصل بها الأمر أن تهجر اسمه، أما كانت تخشى أن يغضب ﷺ عليها؟!، بالقطع ما كانت تخشى ذلك، وإلا ما فعلت.

٢- أدبها الجم رضي اللَّه عنها مع النبي ﷺ ويتبين ذلك من:

أ - إذا غضبت من النبي ﷺ ما تزيد على أن تقسم برب إبراهيم بدلاً من أن تقسم برب محمد ﷺ ولو كانت تفعل في حال الغضب أكثر من ذلك لذكره النبي ﷺ.

ب - إخبارها النبيَّ ﷺ أنها إذا كانت غَضْبى منه تقسم برب إبراهيم، فإنها لا تهجر إلا اسمه، أي لا يزيد الأمر بالنسبة إليها إلا هجر لسان ولا يزيد هجر اللسان إلا للاسم فقط، أما عقلها وقلبها وبقية جوارحها فلا تتأثر بهذا الغضب، الحب هو الحب، والإجلال والإكبار لا يتأثران، وأسأل هل هذا يُطلق عليه أنه غضب؟ وإذا كان هذا حالها رضي اللَّه عنها في حال الغضب فكيف كان حالها في الرضى؟ أقصد أنها بعد أن أفصحت للنبي ﷺ أنها لا تهجر إلا اسمه في حال الخصام فإنها في المستقبل لن ينفعها مثل هذا الهجر بعد أن

---

(١) البخاري، كتاب: النكاح، باب: غيرة النساء ووجدهن...، برقم (٥٢٢٨). ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: في فضل عائشة رضي الله تعالى عنها، برقم (٢٤٣٩).

عرف النبي ﷺ الذي يكون في قلبها.

٣- فقهها رضي الله عنها ويتبين ذلك من:

أ - أنها إذا كانت في حالة الرضا، وأرادت أن تعظم قسمها ذكرت في القَسَم رسول الله ﷺ أكرم وأحب الخلق إلى الله - سبحانه وتعالى - .

ب - أنها في حالة عدم الرضى، وأرادت أن تعدل إلى ذكر أحد غير رسول الله ﷺ عدلت إلى إبراهيم ﷺ إما لعلمها أنه خير الأنبياء وخير أولي العزم من الرسل بعد النبي ﷺ أو لأنه الجد الأكبر للنبي ﷺ. وقال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في الفتح كلامًا نفيسًا نصه: (وفي اختيار عائشة ذكر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ دون غيره من الأنبياء دليل على فطنتها؛ لأن النبي ﷺ أولى الناس به كما نص عليه القرآن فلما لم يكن لها بد من هجر الاسم الشريف أبدلته بمن هو منه بسبيل حتى لا تخرج عن دائرة التعلق في الجملة)(١).

تنبيه: الغضب الذي كان يمتلك عائشة رضي الله عنها لم يكن لأمور شرعية، بل هو لأمور حياتية، لأن الغضب لأمور شرعية يقدح في إيمان العبد، وننزه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن ذلك، وهي الفقيهة الورعة.

٣- ما حدث في بيت النبوة الكريم من غَضَب عائشة رضي الله عنها وهي التي سلم عليها جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فمن باب أولى لن يخلو بيت من النزاعات والشجار، مما يغضب الرجل والمرأة، ولكن يجب أن يتم النزاع في الحدود الشرعية.

ثانيا: ملاطفته ﷺ الخادم:

عن أَنَس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا، فَأَرْسَلَنِي يَوْمًا لِحَاجَةٍ فقلت: وَاللَّهِ لاَ أَذْهَبُ، وَفِي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ لِمَا أَمَرَنِي بِهِ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ فَخَرَجْتُ حَتَّى أَمُرَّ عَلَى صِبْيَانٍ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي السُّوقِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ قَبَضَ بِقَفَايَ مِنْ وَرَائِي قَالَ: فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ. فَقَالَ: «يَا أُنَيْسُ أَذَهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟» قَالَ: قلت: نَعَمْ. أَنَا أَذْهَبُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ أَنَسٌ: وَاللَّهِ لَقَدْ خَدَمْتُهُ تِسْعَ سِنِينَ مَا عَلِمْتُهُ قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ أَوْ لِشَيْءٍ تَرَكْتُهُ: هَلاَّ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا؟(٢).

الشَّاهِدُ فِي الحَدِيثِ: قول أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاي من

(١) فتح الباري (٩/ ٣٢٦).
(٢) مسلم، كتاب: الفضائل، باب: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا، برقم (٢٣٠٩).

ورائي قال: فنظرت إليه وهو يضحك).

بعض فوائد الحديث:

الفَائِدَةُ الأُولَىَ: في الشمائل النبوية:

١- حسن خلق النبي ﷺ؛ لقول أنس رضي الله عنه (كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا)، وقد مرت شواهده كثيرًا في الكتاب.

٢- ملاطفته ﷺ للخدم ويتبين ذلك من:

أ - إمساكه بقفا أنس بن مالك رضي الله عنه وهذا منتهى التلطف قال أنس: (فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاي من ورائي).

ب - ضحكه ﷺ لأنس في حالة كان من المفترض أن يكون فيها في أشد حالات الغضب، لأن الخادم لم يذهب لقضاء حاجته، ولم يكن يمنعه من الذهاب عارض من مرض أو غيره، ولكن اللعب مع الصبيان في السوق، قال أنس: (فنظرت إليه وهو يضحك).

ج - نداؤه ﷺ لأنس بالتصغير لإدخال السرور عليه، ولضمان عدم ترويعه قال أنس: فقال: **«يا أُنَيْسُ أذهبتَ حيث أمرتك؟»**.

وتدبر أخي القارئ: كل هذا التلطف من النبي ﷺ قد حدث مع عدم توجيه أي كلمة عتاب أو توبيخ أو نصح بألا يفعل ذلك مرة أخرى، ولم يقل النبي ﷺ: أضربه هذه المرة، حتى لا يكررها، أو أحرمه من الطعام حتى يَعْتبر مستقبلاً، أكانت هذه الملاطفة من النبي ﷺ عن ضعف أو عجز، كلا والله، بل عن قلب رءوف رحيم.

٣- مراعاة النبي ﷺ للحاجات النفسية للغلام الصغير، فهو أحوج ما يكون إلى اللعب مع أقرانه، ولو على حساب تَخَلُّفه عما كُلف به من عمل، فهو يحتاج إلى اللعب ولو كان أجيرًا خادمًا، كما يحتاج عند تعليمه إلى الملاطفة والبشاشة في وجهه، يفعل النبي ﷺ هذا مع خادمه، وأحدنا والله لا يستطيع أن يفعله مع أولاده الذين هم من صلبه، وعليكم أيها المسلمون اتباع السنة النبوية حتى مع أولادكم، في حال جدهم ولعبهم، لأننا مسئولون عن ذلك لا محالة، ولا يسعنا اتباع السنة في أمور ومخالفتها في أمور، والحذار الحذار أن يقول أحدنا: هم أولادي وأنا حر فيهم، فأقول: لا لستَ حرًا، سيسألك الله، - تبارك وتعالى - عنهم، هل طبقت فيهم السنة، فالحرية لفظ وشعار لا يعرفه المسلمون، فالمسلمون عبيد عند خالقهم ورازقهم، والعبد مملوك وليس حرًا، ونحن نفتخر بذلك، بل وندعو ليل

نهار، أن يتقبلنا اللَّه عنده عبيدًا، لا أن نمن عليه بعبوديتنا، قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

وللتتمة أقول: للعبد المسلم حيز من الحرية، وهو نطاق المباح شرعًا.

٤- حسن معاشرة النبي ﷺ لخادمه، ولو استمرت تلك المعاشرة عقدًا كاملاً من الزمان، وكانت من علامات حسن المعاشرة:

أ - عدم توجيه أدنى كلمات الضجر وهي كلمة أف لأنس، ورد في إحدى روايات البخاري: (خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما قال لي أف)[١].

ب - ترك معاتبته بالكلية، فلم يصدر من النبي ﷺ أدنى معاتبة على المفعول أو المتروك، قال أنس: (ما علمتُه قال لشيء صنعتُه لِمَ فعلتَ كذا وكذا، أو لشيء تركتُه هَلاَّ فعلْتَ كذا وكذا)[٢].

وعند البخاري: (فما قال لي أف ولا «لم صنعت» ولا «ألا صنعتَ»)[٣].

وأسأل من كان عنده خادم، أَلَمْ يفعل أنس ما يستوجب العقاب، ولو مرة واحدة، طيلة عقد من الزمان؟ كلا واللَّه لقد فعل، ودليله حديث الباب، وفيه أنه لعب مع أقرانه وتأخر عن قضاء حاجة رسول اللَّه ﷺ. هذه الأولى. أما الثانية فإنه لو لم يقصر، ما كان هناك وجه لتوجه أنس بالثناء على النبي ﷺ في الحديث الذي معنا، ولكان هو - أي أنس - الأولى بالثناء، لعدم تقصيره في عمله، اسمع أول ما بدأ به أنس حديثه (كان رسول اللَّه ﷺ أحسن الناس خلقًا).

فشتان ما بيننا وبين سنة المصطفى ﷺ والتي ندعي كُلُّنا التمسك بها، فأحدنا لا يستطيع أن يمر عليه يوم واحد دون توجيه كلمة لوم أو عتاب لخادمه، بل يحب من قلبه أن يقول للخادم على كل شيء فعله: «لم فعلت»؛ لرؤيته أن كل ما يقوم به الخادم خطأ، أو لشعوره أن هذا اللوم والعتاب من مستلزمات الظهور على الخادم، والأدهى والأمَرُّ أن يبخل كثير من المخدومين بتوجيه كلمة شكر وثناء للخادم، بحجة أن ذلك يجعله يقصر في عمله، حتى نشعره دائمًا بالتقصير والإهمال.

وأقول: إذا كان هذا هو مسلك النبي ﷺ مع خادمه، فكيف كان سلوكه مع زوجاته -

---

(١) البخاري، كتاب: الأدب، باب: حسن الخلق والسخاء...، برقم (٦٠٣٨).
(٢) انظر السابق.
(٣) انظر السابق.

رضي الله عنهن- .

٥- جميل عفو النبي ﷺ وتسامحه في كل ما يخصه، مع عدم غضبه وانتقامه لنفسه أبدًا، وتركه اللوم والعتاب ولو كان الذي أمامه خادم، وفي مقابل ذلك غضبه الشديد والإنكار العظيم إذا انتهكت حرمة من حرمات الله - سبحانه وتعالى - ولو كان أمرًا يسيرًا في نظرنا، وهذا جانب عظيم في أخلاقه ﷺ فكيف يجمع بشر مهما أوتي من حكمة وصبر، بين عدم الغضب إذا كان الأمر خاصًا بنفسه، ولو كان أمرًا عظيمًا، وبين شدة الغضب، إذا تعلق الأمر بحرمات الله، ولو كان أمرًا يسيرًا، إنها النبوة ونعمت.

الفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: ما يجب أن يكون عليه الخادم من كتمان سر مخدومه؛ لأن أنسًا لم يحك لنا طبيعة الحاجة التي أرسله إليها النبي ﷺ بل ورد عند البخاري أنه ما كان يفشي أسرار النبي ﷺ لأقرب الناس إليه، وهي أمه فعن أَنَس بْنِ مَالِكٍ قال: (أَسَرَّ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ سِرًّا، فَمَا أَخْبَرْتُ بِهِ أَحَدًا بَعْدَهُ، وَلَقَدْ سَأَلَتْنِي أُمُّ سُلَيْمٍ فَمَا أَخْبَرْتُهَا بِهِ)[1]، وكتمان السر من الأمانة التي يجب أن يتمتع بها الخادم.

وفيه أيضًا ما يجب أن يكون عليه الخدم من الثناء على مخدومه بما هو أهله، وأن يقر بمعروفه الجميل، وألا يقابل طيب خلق المخدوم بعصيان أوامره، قال أنس: (نعم أنا ذاهب يا رسول الله).

ثالثا: ملاطفته ﷺ أصحابه:

عن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: (كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «**أَخْبِرُونِي بِشَجَرَةٍ تُشْبِهُ، أَوْ كَالرَّجُلِ الْمُسْلِمِ لاَ يَتَحَاتُّ وَرَقُهَا، وَلاَ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ**». قَالَ ابْنُ عُمَرَ: فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، وَرَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ لاَ يَتَكَلَّمَانِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ، فَلَمَّا لَمْ يَقُولُوا شَيْئًا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**هِيَ النَّخْلَةُ**». فَلَمَّا قُمْنَا. قُلْتُ لِعُمَرَ: يَا أَبَتَاهُ وَاللَّهِ لَقَدْ كَانَ وَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ. فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَكَلَّمَ؟ قَالَ: لَمْ أَرَكُمْ تَكَلَّمُونَ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ، أَوْ أقول شَيْئًا. قَالَ عُمَرُ: لأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا)[2].

الشَّاهِدُ فِي الحَدِيثِ: أن النبي ﷺ كان يلقي على مسامع أصحابه بعض المسائل التي تتطلب إعمال الفكر والعقل، وهذا من باب الملاطفة، وكذا زيادة العلم.

(١) البخاري، كتاب: الاستئذان، باب: حفظ السر، برقم (٦٢٨٩).

(٢) البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله: كشجرة طيبة...، برقم (٤٦٩٨).

بعض فوائد الحديث:

الفَائِدَةُ الأُولَى: حسن تعليم النبي ﷺ أصحابه حيث ألقى عليهم المعلومة المراد تعليمهم إياها، عل هيئة لغز، ليجعل المتعلم يفكر ويتأمل ويعمل عقله، لمعرفة الحل، فإذا عجز عن الإجابة، كان أشد اشتياقًا لمعرفة الجواب، فيكون ذلك أدعى لحفظ اللغز وما اشتمل عليه من أقيسة وتشبيهات، وهذا يحقق فائدة اكتساب العلم على أفضل وجه، بالإضافة إلى دفع الملل عن المتعلم، الذي قد يحدث إذا كانت كل أساليب التعلم على وتيرة واحدة، مع ما يحققه هذا الأسلوب من إدخال السرور والبهجة في نفوس السامعين.

ويتضح من ذلك خطأ أسلوب التلقي البحت الذي ينتهجه بعض الشيوخ، رحمهم الله، لأنه يصنع من طالب العلم آلة صماء، كل هدفه أن يحفظ ما يلقى عليه من المسائل، دون إعمال للعقل.

الفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عظيم بركة المسلم، وما يجب أن يكون عليه من نفع له ولغيره، في حياته وبعد مماته، والعجيب أن النبي ﷺ قد شبه النخلة بالمؤمن ولم يشبه المؤمن بالنخلة، وكأن المؤمن هو الأكمل في نفعه وبركته، والنخلة أقل منه نفعًا، وقد وصف ابن حجر في الفتح النخلة بأوصاف جميلة حيث قال ما نصه: (وبركة النخلة موجودة في جميع أجزائها، مستمرة في جميع أحوالها، فمن حين تطلع إلى أن تيبس تؤكل أنواعًا، ثم بعد ذلك ينتفع بجميع أجزائها، حتى النوى في علف الدواب والليف في الحبال وغير ذلك مما لا يخفى، وكذلك بركة المسلم عامة في جميع الأحوال ونفعه مستمر له ولغيره حتى بعد موته)[1].

أعلمتَ أخي القارئ، بعد هذا الوصف الجميل للنخلة، مقدار المسلم في ميزان الشرع، فعليك أن تقارن نفسك بأوصاف النخلة، لتعلم أين أنت في ميزان الشرع.

الفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: ما ينبغي أن يكون عليه المسلم الأصغر سنًا مع الأكبر منه سنًا، من أدب واحترام وعدم الإكثار من الكلام، إذا لم يترتب على عدم الكلام كتمان علم أو تفويت مصلحة أو هضم حق، وحتى إذا بدت مصلحة وتكلم الصغير يجب عليه أن يراعي آداب الحديث المعروفة، فهذا ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قد سمع المسألة التي ألقاها النبي ﷺ وقد ألقاها على مسامع كل الحاضرين، ولم يخص بها الكبير دون الصغير، وقد عَلِمَها ابنُ عمر، وكان هناك مصلحة أن يجاوب الرسول ﷺ ليظهر فضله ويقر عين الرسول ﷺ بما عليه أبناء الصحابة من علم وفكر، إلا أنه مع كل ذلك، آثر السكوت، كراهية التكلم في حالة سكوت أبي بكر

(١) فتح الباري (١/ ١٤٥).

وعمر - رضي الله عنهما - فهلا علمنا أولادنا هذا الأدب الرفيع من آداب المجالس والحديث، أم تركناهم يتجادلون ويتخاصمون بل ويحتدون في الكلام معنا، قال ابن عمر: (ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم).

الفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: حرص الآباء على إظهار فضل أولادهم، خاصة في مجالس العلم وبحضرة أهل الفضل، وأن يكون ذلك أحب عند الأب من الدنيا وما فيها، قال عمر لابنه رضي الله عنهما: (لأن تكون قلتها أحب إلي من كذا وكذا).

الفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: التفاوت بين أهل العلم في ملكة الاستنباط والفهم، وقد مر ذلك مبسوطًا في موقع آخر من الكتاب، ودليله من حديث الباب، أن ابن عمر فهم مراد الرسول ﷺ من المثل المضروب، بينما استشكل حله على بقية الصحابة الحاضرين، مع أن فيهم من هو أعلم كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما جميعًا.

٢٠- همته ﷺ:

أولاً: همته العالية في حفظ التنزيل:

عَن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾، قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَالِجُ مِن التَّنْزِيلِ شِدَّةً، وَكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَأَنَا أُحَرِّكُهُمَا لَكُمْ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَرِّكُهُمَا، وَقَالَ سَعِيدٌ: أَنَا أُحَرِّكُهُمَا كَمَا رَأَيْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يُحَرِّكُهُمَا، فَحَرَّكَ شَفَتَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾، قَالَ: جَمْعُهُ لَكَ فِي صَدْرِكَ، وَتَقْرَأَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. قَالَ: فَاسْتَمِعْ لَهُ، وَأَنْصِتْ، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ تَقْرَأَهُ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ اسْتَمَعَ، فَإِذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ، قَرَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَسَلَّمَ كَمَا قَرَأَهُ)[1].

الشَّاهِدُ فِي الحَدِيثِ: قول ابن عباس رضي الله عنهما: (كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل وكان مما يحرك شفتيه). والحكمة من تحريك الشفتين، خوفه ﷺ أن ينفلت منه شيء من القرآن.

بَعْضُ فَوَائِدِ الحَدِيثِ:

الفَائِدَةُ الأُولَى: همة النبي ﷺ العالية في حفظ القرآن، وذلك أنه كان يحرك شفتيه ولسانه بالقرآن الذي ينزل به جبريل عليه السلام مخافة أن ينسى منه شيئًا بعد انقضاء قراءة جبريل عليه السلام بالرغم أن تحريك الشفتين فيه مشقة بالغة عليه ﷺ لقول ابن عباس رضي الله

(١) البخاري، كتاب: بدء الوحي، باب: بدء الوحي، برقم (٥).

عنهما: (كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة وكان مما يحرك شفتيه)، وأعتقد أن هذه الشدة التي كان يعانيها ليست من مجرد تحريك الشفتين، بل مما كان يشعر به من خوف واضطراب من تفلت القرآن، بالإضافة إلى استجماع كل قوته الذهنية لتحصيل الحفظ من أول سماع للآيات، فمن الطبيعي حدوث مثل هذه المشقة ووجه بيان همته العالية هنا، أنه ﷺ حمل نفسه عملاً فيه مشقة بالغة، مع أن الله -عز وجل- لم يكلفه به.

الفَائِدَةُ الثَانِيةُ: عناية الله - سبحانه وتعالى - بنبيه الكريم ﷺ، وتتبين مظاهر هذا الاعتناء في:

١- رؤية المولى - سبحانه وتعالى - لكل أحواله ﷺ وهي رؤية خاصة، أي رؤية عناية لا رؤية إحاطة، ودليله أن الله - سبحانه وتعالى - إذا رأى منه تحريك اللسان والشفتين، فمن باب أولى قد رأى ما هو أكثر من ذلك وأعظم.

٢- إنزال المولى -عز وجل- قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة، يثبت للنبي ﷺ تلك المعالجة، والعجيب أن الآية الكريمة لا تثبت المشكلة -وهي استعجال النبي ﷺ حفظ القرآن- وحلها فحسب، بل تثبت قيام النبي ﷺ بتحريك لسانه، ولولا علو شأنه ﷺ عند ربه، ما ذكرت الآية أقل الأمور - في نظرنا -، وهو تحريك اللسان.

٣- إرادة المولى - سبحانه وتعالى - رفع تلك المشقة عن نبيه ﷺ قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ فلم يأمره - سبحانه وتعالى - أن يحفظ القرآن بعد انصراف جبريل عليه السلام بل وعده أن يجمعه له في صدره ويقرأه كما قرأه جبريل عليه السلام دون أدنى كلفة أو معاناة من النبي ﷺ، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: (فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذ آتاه جبريل استمع فإذا انطلق قرأه النبي ﷺ كما قرأه).

يتفرع على ذلك: عظيم عناية المولى - سبحانه وتعالى - بالقرآن العظيم حيث تكفل بحفظه في صدر النبي ﷺ ولم يوكل هذا الحفظ لمخلوق سواء من البشر أو من الملائكة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ فالجمع في الصدر من الله، أو في أقل تقدير بأمر الله - سبحانه وتعالى - أما قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾، أي تلوناه، فالتلاوة قطعًا من جبريل عليه السلام وإن كان نسب القراءة إليه سبحانه، وذلك لبيان أنه سبحانه هو الآمر بها.

وبذلك ضمن الله -عز وجل- لهذه الأمة عدم وجود أي اختلاف بين القرآن الذي في اللوح المحفوظ، وبين ما جمع في صدر النبي ﷺ فالذي نزل به من اللوح المحفوظ، هو

جبريل عليه السلام الذي لا يُضَيّع ما استُحفِظَ عليه، لأمانته وقوته، والذي جمعه في صدر النبي ﷺ هو اللَّه القادر على كل شيء، وتدبر قول ابن عباس، - رضي اللَّه عنهما -: (فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأه)، فقوله: (كما قرأه)، يفيد المثلية في كل شيء، من لفظ وإعراب ووقف ووصل، ولبيان قدرة اللَّه - سبحانه وتعالى - ننبه القارئ الكريم أن بعض سور القرآن الكريم كانت تنزل دفعة واحدة.

كما يتفرع عليه: أن من زعم أن شيئًا من القرآن - مهما قَلّ - تفلت من صدر النبي ﷺ بالكلية فقد كَذَّبَ بظاهر القرآن، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾، وقلت: (بالكلية) تحرزًا مما وقع منه ﷺ من نسيان آية أثناء صلاته.

الفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: كذب مَن ادعى مِنْ بعض الفِرَق أن النبي ﷺ كان يَعلم القرآن ويحفظه، قبل أن ينزل به جبريل عليه السلام ويروون في ذلك حديثًا منكرًا، ملخصه أن النبي ﷺ طلب من جبريل أن يستأذن ربه بكشف الستار في حال تلقيه القرآن، فلما أذن اللَّه لجبريل بكشف الستار رأى النبي ﷺ هو الذي يلقنه القرآن، فنزل جبريل إلى الأرض، فسأله النبي ﷺ وهو يضحك: «ماذا وجدت يا جبريل؟ فقال جبريل: يا رسول اللَّه منك وإليك»، وقد سمعتُ هذا الكلام السمج يقال في المساجد وعلى المنابر في خطب الجمعة، في إحدى البلاد الإسلامية، فأين عقول الناس التي تصدق مثل هذه السخافات، الواضح فيها الكذب على اللَّه ورسوله وأعظم ملائكته.

وكل حجة المبطلين في هذا الكذب، أن النبي ﷺ كان يحرك شفتيه بالقرآن ففسروا ذلك أنه كان يحفظه عن ظهر قلب قبل تلقيه من جبريل، وغضوا الطرف عما جاء في القرآن وبقية الحديث الشريف، وتفسير حبر الأمة لهذا الحديث.

وأقول لهؤلاء: اتقوا اللَّه فيمن تَدَّعون حُبَّه، وإياكم والكذب عليه، فإن الكذب عليه ﷺ ليس كالكذب على غيره، ويكفي قبحًا لأفعالكم وأقوالكم أن الرسول ﷺ سيردكم عن حوضه، لما يعلم ما بدلتم، بل سيكون خصمكم يوم القيامة، فضلاً عما هو أعظم من ذلك، وهو غضب الرب - تبارك وتعالى - فعليكم بظاهر الكتاب الكريم وصحيح السنة الشريفة وفهم الصحابة لها، ففيها العصمة من كل شبهة، ودعوا الخرافات والخزعبلات التي تشوه هذا الدين الحنيف.

الفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: حرص الصحابة والتابعين على نقل العلم، ونقل كل صورة توضحه، ما أمكنهم ذلك، ودليله من الحديث قول ابن عباس رضي الله عنهما: (فأنا أحركهما لكم كما كان

رسول اللَّه ﷺ يحركهما، وقال سعيد بن جبير: أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما).

فالحاصل: أن أحد الصحابة بلغ ابن عباس كيف كان رسول اللَّه ﷺ يحرك شفتيه، لأن هذه الحادثة كانت بمكة قطعًا، وابنُ عباس وُلد قبل الهجرة بثلاث سنين، ولما حكى ابن عباس ذلك للتابعين، ومنهم سعيد بن جبير، حرك شفتيه بيانًا لما كان يفعله النبي ﷺ ولما حكى سعيدٌ هذا الحديث لمن بعده، حرك لهم شفتيه كما رأى ابن عباس يحركهما، وهذا من أبلغ الأدلة على حفظ الصحابة ﷺ للسنة النبوية وأدائها على الوجه الأكمل والأتم، وكذا التابعين وتابعيهم.

ثانيا: همته ﷺ العالية في العبادة:

عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ. فَافْتَتَحَ (الْبَقَرَةَ) فَقلت: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِئَةِ، ثُمَّ مَضَى. فَقلت: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى. فَقلت: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ (النِّسَاءَ) فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ (آلَ عِمْرَانَ) فَقَرَأَهَا يَقْرَأُ مُتَرَسِّلاً، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ»، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ»، ثُمَّ قَامَ طَوِيلاً قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ. فَقَالَ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى»، فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ [1].

الشَّاهِدُ فِي الْحَدِيثِ: أن النبي ﷺ صلى ركعة واحدة من صلاة الليل بسورة البقرة وسورة النساء وسورة آل عمران، قرأ بهم مترسلاً.

الفَائِدَةُ الأُولَى: في الشمائل النبوية:

١- همته ﷺ العالية في العبادة حيث صلى ركعة واحدة من صلاة الليل، بثلاث سور طوال [البقرة / آل عمران / النساء]، ولا يخفى على أحد طولُ الوقت الذي تستغرقه تلك السور الطويلة، خاصة إذا أضيف إلى تلك القراءة الطويلة جدًا الأمورُ التالية:

أ - كون القراءة بتمهل وترتيل، وليست حدرًا.

ب - الوقوف عند كل آية وعمل ما يناسبها، فإذا كانت الآية تحث على التسبيح أو تأمر به سبح، وإذا كان فيها ذكر للجنة أو نعم اللَّه تعرض لتلك النعم بالسؤال، أما إذا كان فيها ذكر لعذاب اللَّه تعوذ وسأل اللَّه العافية والسلامة.

ج - تطويل الركوع والرفع منه والسجود جدًا، حتى تتناسب تلك الأركان مع طول القيام.

---

(١) مسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، برقم (٧٧٢).

كل هذا التطويل، ولم يجلس النبي ﷺ في هذه الصلاة، لأنه لو جلس لأخبرنا راوي الحديث، حذيفة رضي الله عنه.

٢- قراءته ﷺ القرآن بخشوع وتدبر للمعاني، أما الخشوع، فدليله: (يقرأ مترسلاً)، وأما تدبر المعاني (إذا مر بآية فيها تسبيح سبح وإذا مر بسؤال سأل وإذا مر بتعوذ تعوذ).

يتفرع على ذلك: قلة نفع الصلاة التي يقرأ فيها الإمام بسرعة (دون تدبر وخشوع) وكذا تكون كل حركات الصلاة من ركوع ورفع وسجود، ويكون كل هَمِّ الإمام أن يختم القرآن في صلاة التراويح خلال شهر رمضان المبارك، ولو أنه تأنى وصلى ولو بنصف القرآن أو ربعه في الشهر، بتدبر وخشوع وطمأنينة، كما كان يفعل رسول الله ﷺ، لكان متبعًا للهدي والسنة ومحصلاً للخير والبركة، فليس الشأن كثرة القراءة، ولكن الشأن خشوع القلب وتدبر الآيات، وكثرة التسبيح، واستحضار عظمة المولى - سبحانه وتعالى - أثناء الصلاة والقرب منه، والحكم على تحصيل هذه الأمور، ألا ترى أنه يستوي إيماننا قبل دخول الصلاة وبعد الخروج منها؟.

ويتفرع على ذلك أيضًا، خطأ بل سوء أدب، من يحب أن يستمع للقرآن كحبه للاستماع إلى الطرب، بتمايل عند سماعه من حسن صوت القارئ، وينشغل عن تدبر القرآن بعبارات المدح والاستحسان لصوت القارئ، فأين هو من سنة النبي ﷺ في تدبر القرآن، وينطبق هذا الكلام على من يكون كل همه في رمضان أن يذهب ليصلي خلف الأئمة المعروفين بحسن أصواتهم، دون الاهتمام بأي أمر آخر، كاتباع الإمام للسنة أو خشوعه في الصلاة والاطمئنان فيها.

الفَائِدَةُ الثَانِيَةُ: وهي متفرقات في حديث الباب:

١- جواز أن يشق الإنسان على نفسه في العبادة، ولو أضر بدنه، شريطة أن لا يدخل على الإنسان الملل، أو تأخذه سِنَة أو نوم أثناء الصلاة، لما رواه أَنَس بْن مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ، فَقَالَ: مَا هَذَا الْحَبْلُ؟ قَالُوا: هَذَا حَبْلٌ لِزَيْنَبَ، فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ، حُلُّوهُ؛ لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ»[1].

(١) البخاري، كتاب: الجمعة، باب: ما يكره من التشديد في العبادة، برقم (١١٥٠) واللفظ له، ومسلم كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: أمر من نعس في صلاته...، برقم (٧٨٤).

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يُصَلِّي، فَلْيَرْقُدْ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا صَلَّى وَهُوَ نَاعِسٌ لاَ يَدْرِي لَعَلَّهُ يَسْتَغْفِرُ فَيَسُبُّ نَفْسَهُ»(١) .

٢- جواز قطع القراءة بالتسبيح والسؤال والاستعاذة، وإذا جاز ذلك في الصلاة، فيجوز من باب أولى خارجها.

٣- جواز تطويل القيام بعد الرفع من الركوع لقول حذيفة: (ثم قام طويلًا قريبًا مما ركع).

٤- جواز أن يحدث الإنسان نفسه في الصلاة، لقول حذيفة: (فقلت يصلي بها ركعة فمضى فقلت يركع بها)، والمراد بالقول هنا حديث النفس، لأن القول في الصلاة يبطلها إجماعًا، وترك حديث النفس في الصلاة أولى، لأنه أدعى للخشوع والتدبر.

٥- جواز أن يجتهد المسلم في العبادة أمام الغير، إذا كان هذا دأبه وأمن على نفسه الفتنة والرياء، وإلا فالإسرار بها أولى، فالنبي ﷺ طول جدًّا في الصلاة في حضرة حذيفة رضي الله عنه .

٦- مشروعية أن يذكر الإنسان أسماء سور القرآن، بدون ذكر لفظ (سورة) لقول حذيفة رضي الله عنه : (فافتتح البقرة)، وقوله: (ثم افتتح النساء) فلا يشترط أن نقول: (سورة البقرة).

٧- جواز عدم التقيد بترتيب سور القرآن عند القراءة، لأن النبي ﷺ قرأ بالنساء ثم آل عمران، وهما في ترتيب المصحف الذي بين أيدينا، آل عمران ثم النساء ولا يعتبر ذلك من التنكيس.

وبالمناسبة فإني أعتقد خطأ من يقول: إن ترتيب السور في القرآن ليس توقيفيًّا، وإنما كان باجتهاد الصحابة، والدليل على ذلك أن المتأمل في ترتيب السور على النحو الموجود في المصحف الآن يجد فيه إعجازًا كبيرًا.

٨- جواز أن يطيل الإمام جدًّا في الصلاة، إذا أمن عدم تضرر المأمومين، خاصة في صلاة الليل.

٩- جواز أن يُحَدِّث المسلم الناس، بما فعل من عبادات حسنة، شريطة أن يكون بغرض تعليم الناس السنة، وأن يأمن المتحدث الرياء على نفسه، وإن لم يكن هناك مصلحة

(١) البخاري، كتاب: الوضوء، باب: الوضوء من النوم. . .، برقم (٢١٢).

شرعية فعدم التحدث أولى. - لم تكن همة النبي ﷺ عالية فقط في قيام الليل، ولكن كانت كذلك في كل أنواع العبادات، ولنأخذ أمثلة سريعة لتلك الهمة العالية لنتأسى بها ونقتفي أثرها فإن خير الهَدْي هَدْيُ محمد ﷺ.

أ - همته العالية في حضوره صلاة الجماعة:

روى البخاري عن عَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ: (أَنَّهُ رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَحْتَزُّ مِنْ كَتِفِ شَاةٍ، فَدُعِيَ إِلَى الصَّلاَةِ، فَأَلْقَى السِّكِّينَ، فَصَلَّى وَلَمْ يَتَوَضَّأْ)[١].

والشَّاهِدُ فِي الحَدِيثِ: أنه لم يتم أكلته، ولكن فور سماعه الداعي، ألقى السكين وذهب إلى الصلاة، وما أخره أَكْلُ الذراع التي يحبها عن صلاة الجماعة، فحبه ﷺ للصلاة كان أكبر وأعظم.

وعن عَائِشَةَ قَالَتْ: (لَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ وَاشْتَدَّ بِهِ وَجَعُهُ اسْتَأْذَنَ أَزْوَاجَهُ فِي أَنْ يُمَرَّضَ فِي بَيْتِي فَأَذِنَّ لَهُ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ رَجُلَيْنِ تَخُطُّ رِجْلاَهُ فِي الأَرْضِ بَيْنَ عَبَّاسٍ وَرَجُلٍ آخَرَ)[٢].

والشَّاهِدُ فِي الحَدِيثِ: أن النبي ﷺ ومع وجعه الشديد الذي كان يعاني منه في مرضه الذي توفي فيه، تحامل على نفسه بمشقة بالغة، لحضور صلاة الجماعة، تقول عائشة ﵂: (فخرج بين رَجُلين تخط رجلاه الأرض)، أي ما كان يستطيع ﷺ أن يقيم صلبه، ولو بمساعدة رجلين، وما استحى، وهو الذي عَرَفَه أصحابه بالقوة الجسمانية، أن يراه أحد على هذه الصورة، مع أنه ﷺ قد أعذر المريض في حضور صلاة الجماعة مع حصوله على الأجر الكامل، ولكنه ﷺ ألزم نفسه العزيمة.

ب - همته العالية في صيام رمضان:

روى مسلم عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﵁ قَالَ: (خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ حتى إن كَانَ أَحَدُنَا لَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ، وَمَا فِينَا صَائِمٌ إِلاَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ)[٣]. فبالرغم أن النبي ﷺ كان مسافرًا، ويجوز

---

(١) البخاري، كتاب: الوضوء، باب: من لم يتوضأ من لحم الشاة والسويق، برقم (٢٠٨)، ومسلم، كتاب: الحيض، باب: نسخ الوضوء مما مست النار، برقم (٣٥٥).

(٢) البخاري، كتاب: الوضوء، باب: الغسل والوضوء في المخضب والقدح...، برقم (١٩٨). ومسلم، كتاب: الصلاة، باب: استخلاف الإمام إذا عرض له عذر...، برقم (٤١٨).

(٣) مسلم، كتاب: الصيام، باب: التخيير في الصوم والفطر في السفر برقم (١١٢٢).

للمسافر إذا كان سفره في رمضان أن يفطر ويقضي، وكان الجو شديد الحرارة، لم يحتمل الصحابة حره مع إفطارهم، يقول الراوي: (حتى إن كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر)، إلا أنه ﷺ كان صائمًا، ولم يكن صائمًا معه إلا عبد اللّٰه بن رواحة رضي الله عنه ومما يؤكد أن صوم هذا اليوم كان فيه مشقة بالغة، أن الصحابة ما استطاعوا أن يصوموه مع حبهم الشديد لموافقة النبي ﷺ في كل أفعاله وكراهيتهم الشديدة لمخالفته، خاصة في أمر كالصيام.

ج - همته العالية في إحياء العَشر الأخيرة من رمضان:

عَن عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ وَأَحْيَا لَيْلَهُ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ)(١).

كان ﷺ يخص العشر الأخيرة بالاعتكاف الذي فيه اعتزال النساء، وإحياء الليل كله، ويحث ﷺ أهله على صلاة الليل، والحاصل أن النبي ﷺ كان يجتهد في العبادة العشر الأخيرة من رمضان، ما لا يجتهد في غيرها، وذلك التماسًا لليلة القدر.

د - همته العالية في استدراك ما فاته من العبادات:

عَن عَائِشَةَ رضي الله عنها: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا فَاتَتْهُ الصَّلَاةُ مِنَ اللَّيْلِ مِنْ وَجَعٍ أَوْ غَيْرِهِ صَلَّى مِن النَّهَارِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً)(٢).

فمع أن صلاة الليل قد فاتت النبي ﷺ لعذر شرعي، كوجع أو غيره، إلا أنه لم يعذر نفسه ﷺ فكان يصلي في نهار اليوم التالي اثنتي عشرة ركعة كاملة، وهو ما اعتاده ﷺ من صلاة الليل، وما كان يفعل ذلك إلا ليدرك ما فاته من الخير، ويبذل كل ما في وسعه لاسترضاء الرب تبارك وتعالى.

وأحب أن ألفت نظر القارئ أن ما ذكرتُه في هذا الباب ما هو إلا أمثلة على همته العالية ﷺ وإلا فإن همته ﷺ كانت عالية في كل أمر من الأمور التي يحبها اللّٰه -عز وجل- ، كالزكاة والصيام والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصلة الرحم وعيادة المريض وغيره.

---

(١) البخاري، كتاب: صلاة التراويح، باب: العمل في العشر الأواخر من رمضان برقم (٢٠٢٤) واللفظ له، ومسلم، كتاب: الاعتكاف، باب: الاجتهاد في العشر الأواخر...، برقم (١١٧٤).

(٢) مسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها باب: جامع صلاة الليل...، برقم (٧٤٦).

٢١- وفاؤه ﷺ:

أولا: وفاؤه ﷺ لأنبياء الله:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : أنه قِيلَ لرسول الله ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: «أَتْقَاهُمْ». فَقَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: «فَيُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ، ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ». قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ. قَالَ: «فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِ؟ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا»[1].

الشَّاهِدُ فِي الحَدِيثِ: أن النبي ﷺ لما سئل عن أكرم الناس فقال: «يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله».

بَعْضُ فَوَائِدِ الحَدِيثِ:

الفَائِدَةُ الأُولَى: في الشمائل النبوية:

أولا: وفاؤه بثنائه على الأنبياء:

أ- ثناؤه على يوسف عليه السلام حيث إنه لما سئل عن أكرم الناس، ذكر يوسف عليه السلام من حيث كونه نبيًّا ابن نبي ابن نبي ابن نبي، فهو يوسف بن إسحاق بن يعقوب ابن إبراهيم، عليهم جميعًا الصلاة والسلام.

ويتفرع عليه: أن نبي اللَّه يوسف عليه السلام هو أفضل الناس على الإطلاق نسبًا، من حيث اجتمع له شرف الأب والجد وجد الجد، ولو اجتمع لأحدٍ غيره مثلُ هذا الشرف لذكره النبي ﷺ خاصة أنه ذكر لفظ (أكرم) بصيغة أفعل التفضيل. وفي الحديث أيضًا إثبات نبوة يوسف ويعقوب وإسحاق وإبراهيم - عليهم جميعًا الصلاة والسلام..

ب- ثناؤه ﷺ على النبي الكريم، إبراهيم عليه الصلاة والسلام حيث أثبت له الخلة، بقوله «ابن خليل الله»، وقد ثبتت هذه الخلة له في كتاب اللَّه العزيز بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥].

ويؤخذ منه عظيم قدر إبراهيم، عليه الصلاة والسلام حيث إنه اتصف بصفة، وهي الخلة، لم يشاركه فيها أحد إلا نبينا محمد ﷺ، وقد ذكرت من قبل أن إبراهيم، عليه الصلاة والسلام هو النبي الوحيد الذي تتنازع فيه كل أمة لإثبات انتسابها إليه، ولقد رد اللَّه عليهم

(١) البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، برقم (٣٣٥٣).

بقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٦٧﴾ [آل عمران: ٦٧] وبذلك تكون الأمة الوحيدة الآن المنتسبة بحق إلى إبراهيم عليه السلام هي أمة الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٨﴾ [آل عمران: ٦٨].

٢- طهارة ونقاء قلبه ﷺ وأنه ليس فيه أدنى حقد ولا حسد ولا غل، لإخوانه من الأنبياء عليهم جميعًا الصلاة والسلام، ودليله أنه كان ﷺ يكثر من ذكرهم، ويعدد محاسنهم ومآثرهم ليحبب الناس فيهم، بل ويمدحهم بما يظن السامع أنهم جميعًا أفضل منه مكانة وأشد قربًا إلى الله، فهو ﷺ يقول عن يوسف: إنه أكرم الناس كما في حديث الباب، من حيث شرف النسب، وسيأتي - إن شاء الله - فائدة مستقلة لبعض نماذج الثناء على الأنبياء، فلم يكن ﷺ ينظر إلى الأنبياء على أنهم منافسون له عند ربه أو عند الناس، بل المتتبع لسيرته العطرة ﷺ يتأكد أنه كان يريد أن يجعل الناس يتعبدون إلى الله - سبحانه وتعالى - بحب الأنبياء وتعظيم شأنهم، وكان ينظر إلى الأنبياء جميعًا بما فيهم هو ﷺ بالعقد الواحد والبناء الجميل الذي لا يكمل جماله إلا باكتمال جميع لبناته، واللبنة لا يمكن أن تقوم بمفردها، بل هي في أشد الحاجة إلى غيرها ليشد عقدها ويقوي دعامتها. وهذا من أعظم دلائل نبوته ﷺ وأكبر دليل على أن الله - سبحانه وتعالى - قد نزع من قلبه حظ الشيطان، وأن قلبه قد غُسِل قبل وبعد البعثة، ليكون قلبًا طاهرًا زكيًا، مبرءًا من كل ما يعيب المرء من الأدناس والأنجاس بل فيما هو أقل من ذلك بكثير، فإذا كنا نثني على من طَهَّرَ قلبه من الحسد والغل، فماذا نقول عمن حَرَصَ كل الحرص أن يحبب الناس في غيره ويظهرهم أنهم أفضل منه، والصحيح أنه ﷺ الأفضل منهم منزلة، وهذا الإيضاح وتلك الفائدة هما المقصود الأول من إيراد هذا الباب.

٣- ارتباط علمه ﷺ بآيات الذكر الحكيم حيث إنه لما سئل عن أكرم الناس ذكر ﷺ أن أكرم الناس هو أتقاهم، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: من الآية ١٣]، كما أنه ﷺ لما ذكر أكرم الناس من حيث المعدن اشترط تحصيل الفقه، وهو العلم في الدين، حتى يكون العبد من أكرم الناس منزلة، قال ﷺ «**خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقُهوا**»[1]، يصدقه قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: من الآية ١١].

(١) مسلم، كتاب الفضائل، باب: من فضائل يوسف عليه السلام، برقم (٢٣٧٨).

وقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، فقد قرن اللّه شهادته وشهادة ملائكته، بشهادة أولي العلم، يدل ذلك على أنهم أعدل الناس وأكرمهم عند الله.

وقد ذكر ابن حجر في الفتح أن المقصود بخيار الناس في الجاهلية هو من اتصف بالخصال المحمودة من ملائمة الطبع، وأن الشرف في الإسلام يكون بالخصال المحمودة شرعًا.

ويتفرع على ذلك: علمنا بعظيم قدر التفقه في الدين حيث اشترط النبي ﷺ وجوده فيمن اتصف بالخصال المحمودة ليكون من أكمل الناس، وإذا كان صاحب الفقه في الدين محمودًا، فإن صاحب الجهل في الدين مذمومٌ، خاصة إذا كان عنده قُدْرة من ناحية العقل والوقت، على تحصيل العلم الشرعي ثم تقاعس أو انشغل عنه بما هو أدنى منه.

٣- فصاحته ورجاحة عقله ﷺ في تقسيم الناس: حيث إن الصحابة لما سألوه عن أكرم الناس، وكان سؤالاً واسعًا، يحتمل عدة معانٍ، قسَّم هو الناس، وبنى تقسيمه ﷺ على ثلاثة أمور، بدأ فيها بالأعظم، ثم الأهم، ثم المهم، فلما كانت تقوى اللّه والخوف منه هي أعظم الأمور - لأنها الباعث لكل خير، والرادع عن كل شر - بدأ ﷺ بها دون غيرها، وقد تحققت ثلاث حِكَم بالبدء بالتقوى وهي:

أ - إثبات أن الأنبياء عليهم جميعًا الصلاة والسلام، هم أكرم الناس على الإطلاق ولا ينازعهم في ذلك أحد، لأنهم أتقى الناس لله -عز وجل- ولو بدأ بيوسف مثلاً لضاعت تلك الحكمة.

ب - إثبات أن ما يكتسبه الإنسان مقدم على ما لا دخل له فيه، والذي هو منحة خالصة من اللّه - سبحانه وتعالى - لذلك قدم ﷺ التقوى على شرف النسب، وهذا منتهى العدل الرباني.

ج - إثبات ما أثبته القرآن، أن أعظم مظاهر التفاضل بين الناس إنما يكون بتقوى الله، وقد مر قريبًا.

ثم ثنى النبي ﷺ بالنسب الشريف الطاهر، والذي هو منحة خالصة من اللّه - تبارك وتعالى - وهي للنبي يوسف عليه السلام، ثم اختتم بعموم الناس الذين لهم فضل في الجاهلية باتباع العادات المحمودة وفضل في الإسلام باتباع المأمور شرعًا مع الفقه في الدين.

قال ابن حجر: (الجواب الأول من جهة الشرف بالأعمال الصالحة، والثاني من جهة الشرف بالنسب الصالح)(١).

كما أن من جوامع كلمه ﷺ أنْ شَبَّهَ أصول الناس بالمعادن، قال ابن حجر، في الفتح، (شبههم بالمعادن لكونهم أوعية الشرف كما أن المعادن أوعية للجواهر)(٢).

الفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَصَّلَ النبيُّ ﷺ قاعدة عظيمة في التفاخر بالنسب، وهو أن يكون النسب المتفاخر به نسبًا صالحًا، فالصلاح هو المعتبر الوحيد للنسب السليل الذي يتشرف الإنسان بذكره، وغيره ليس محلاً للذكر ولا التفاخر حيث إنه ﷺ لما ذكر أن يوسف هو أكرم الناس ذكر الحيثية وهي أنه نبي ابن نبي ابن نبي ابن نبي، فَعُلِمَ أن مبعث إكرام اللَّه - سبحانه وتعالى - ليوسف عليه السلام هو اختصاصه بالنسب الصالح ولو كان هناك أساس آخر للتفاضل بين أنساب الناس لعَلَّمَه لنا النبي ﷺ.

ويتفرع عليه: خطأ من يتفاخر بالنسب غير الصالح، ولو كان نسبًا ينظر إليه الناس أنه شريف، لمال أصحابه أو مناصبهم أو قوة نفوذهم أو قربهم للحكام، فكل ذلك غير معتبر شرعًا.

الفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وأختم بها الباب، وهي ذكر بعض الأحاديث التي تذكر جميل ثناء النبي ﷺ على إخوانه من الأنبياء ووفائه لهم، مع ذكر شيء يسير من الفوائد عقب كل حديث حتى لا يطول المقال.

١- وفاؤه لأخيه سليمان، فعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنكَ، ثُمَّ قَالَ: أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللَّهِ، ثَلاَثًا» وَبَسَطَ يَدَهُ كَأَنَّهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئًا، فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلاَةِ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ سَمِعْنَاكَ تَقُولُ فِي الصَّلاَةِ شَيْئًا لَمْ نَسْمَعْكَ تَقُولُهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَرَأَيْنَاكَ بَسَطْتَ يَدَكَ! قَالَ: «إِنَّ عَدُوَّ اللَّهِ إِبْلِيسَ جَاءَ بِشِهَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِي وَجْهِي، فَقلت: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قلت: أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللَّهِ التَّامَّةِ، فَلَمْ يَسْتَأْخِرْ، ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ أَرَدْتُ أَخْذَهُ، وَاللَّهِ لَوْلاَ دَعْوَةُ أَخِينَا سُلَيْمَانَ لَأَصْبَحَ مُوثَقًا يَلْعَبُ بِهِ وِلْدَانُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ»(٣).

وفي الحديث:

أ - أن النبي ﷺ كان يود أن يوثق الشيطان الذي تفلت عليه (أي تعرض له في صلاته) في إحدى سواري المسجد ليلعب به الولدان، بعد أن مكنه اللَّه - تعالى - منه

---

(١) فتح الباري (٦/ ٤١٤). (٢) فتح الباري (٦/ ٤١٤).

(٣) مسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة، برقم (٥٤٢).

حيث قال: «والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقًا يلعب به ولدان أهل المدينة»، ولكنه ﷺ لم يفعل، تحقيقًا لرغبة أخيه سليمان عليه السلام بأن يكون له ملك لا ينافسه فيه أحد من العالمين بعده، قال تعالى، ذاكرًا دعوة سليمان عليه السلام ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٣٥﴾ [ص: ٣٥]. مع أن النبي ﷺ لو ربط الشيطان، لأضيف هذا إلى شمائله، معجزة عظيمة وهي تسخير الجن، ولكنه ﷺ آثر أخيه سليمان على نفسه.

ب - أن الله -عز وجل- قد أجاب دعوة النبي سليمان، عليه الصلاة والسلام، في منحه مُلكًا لا يكون مثله لغيره، ودليل أن الدعوة قد استجيبت، أن النبي ﷺ لم يرض أن يكون له مثل ما كان لسليمان من تسخير الجن، وما كان ذلك إلا لعلمه ﷺ أن سليمان ما زال يتفرد بمثل هذا الملك، وإلا ما امتنع النبي ﷺ أن يشاركه فيه.

ج - شجاعته وثباته ﷺ حيث لم يتحرك من مكانه، لما جاءه إبليس بشهاب من نار ليجعله في وجهه، وما زاد عن قوله: **«أعوذ بالله منك»**، وقوله: **«ألعنك بلعنة الله التامة»**، قالها ثلاث مرات، كما أن فيه حسن ثقته بالله -عز وجل- وأنه كافيه، ولن يُمَكِّن الشيطان من إيذائه أو التسلط عليه، ولولا ثقته بالله، ما استعاذ ﷺ به.

٢- حسن ثنائه ﷺ على أخيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فقد روى مسلم في صحيحه، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام»**(١).

وهذا من عظيم تواضعه ﷺ مع ما فيه من حسن الوفاء والثناء، قال النووي: (قال العلماء: قال ﷺ هذا تواضعًا واحترامًا لإبراهيم عليه السلام لخلته وأُبُوّته، وإلا فنبينا ﷺ أفضل؛ لقوله: **«أنا سيد ولد آدم»**، ولم يقصد به الافتخار، ولا التطاول على من تقدمه بل قاله بيانًا لما أمر ببيانه وتبليغه ولهذا قال ﷺ: **«ولا فخر»**. لينفي ما قد يتطرق إلى بعض الأفهام السخيفة، وقيل: يحتمل أنه ﷺ قال: إبراهيم خير البرية قبل أن يَعْلم أنه سيد ولد آدم، وقيل: إنه أراد خير البرية في عصره، ولكنه ﷺ أطلق العبارة الموهمة للعموم لأنه أبلغ في التواضع)(٢).

(١) مسلم، كتاب: الفضائل، باب: من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ، برقم (٢٣٦٩).
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/ ١٢١).

٣- كما أثنى ﷺ على أخيه داود عليه السلام أبلغ الثناء حيث أثبت أن صلاة وقيام داود كانت هي الأحب إلى اللَّه - سبحانه وتعالى - روى البخاري عن عَبد اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ: «أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ عليه السلام وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ، وَكَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا»[1] .

وموطن الثناء أن النبي ﷺ قد بين أن أحدًا لا يستطيع أن يتقرب إلى اللَّه بصلاة أو صيام أفضل صورة مما كان يتقرب به نبي اللَّه داود عليه السلام أما موطن تواضعه ﷺ في الحديث، فهو أنه حكم على نفسه أنه إذا أراد أن يتقرب إلى اللَّه - سبحانه وتعالى - بأفضل الصيام والقيام، فعليه أن يقتدي بأخيه داود عليه السلام أفضل الناس قيامًا وصيامًا، فلو فرض أن رجلاً صام الدهر كله فلم يفطر يومًا، إلا لعذر شرعي، ما عبد اللَّه بالأفضل من صيام داود عليه السلام.

فائدة: أعتقد أن النبي ﷺ ما صام صيام داود عليه السلام وهو صيام يوم وإفطار يوم، مع أنه أتقى الخلق إلى اللَّه -عز وجل- حتى لا يشق على أمته ويحرجهم وحتى لا يجعلها سنة فيهم، كصيام الاثنين والخميس، ولكنه ﷺ علَّمنا كيف نحوز أجر صيام الدهر كله، روى مسلم في صحيحه، عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ»[2] .

الفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: يجب أن نتعلم أن نثني على كل من هو أهل للثناء والذكر الحسن، ولو كان ينافسنا في شيء (دين أو دنيا) وأن نوطن أنفسنا على هذا الخلق النبوي الرفيع، وأن نعاند قلوبنا وعقولنا إذا وجدنا فيهما غضاضة من ذلك، فإن لم نستطع فلنعلم أن في قلوبنا شيئًا، وعندئذ فلا أقل من أن لا نذمهم ونغمزهم ونلمزهم، وهذا أضعف الإيمان.

وأختم فأقول: هذا طرف من ثناء النبي ﷺ على إخوانه الأنبياء - عليهم جميعًا الصلاة والسلام-، وغيره كثير.

ثانيا: وفاؤه ﷺ لأزواجه

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: مَا غِرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ،

(١) البخاري، كتاب: الجمعة، باب: من نام عند السحر، برقم (١١٣١).
(٢) مسلم، كتاب: الصيام، باب: استحباب صيام ستة أيام من شوال إتباعًا، برقم (١١٦٤).

وَمَا رَأَيْتُهَا، وَلَكِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً ثُمَّ يَبْعَثُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ، فَرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ: كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إِلاَّ خَدِيجَةُ. فَيَقُولُ: «إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ، وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ»[1].

وفي رواية قالت: (اسْتَأْذَنَتْ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ أُخْتُ خَدِيجَةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ فَارْتَاعَ لِذَلِكَ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ هَالَةَ»، قَالَتْ: فَغِرْتُ، فَقُلْتُ: مَا تَذْكُرُ مِنْ عَجُوزٍ مِنْ عَجَائِزِ قُرَيْشٍ حَمْرَاءِ الشِّدْقَيْنِ[2] هَلَكَتْ فِي الدَّهْرِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهَا)[3].

الشَّاهِدُ فِي الحَدِيثِ:

قول عائشة ﵂ (ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة).

بعض فوائد الحديث:

الفَائِدَةُ الأُولَى: في الشمائل النبوية:

١- عظيم وفائه ﷺ لخديجة ﵂ ومن مظاهر هذا الوفاء:

أ- كثرة ذكرها، لقول عائشة ﵂: (ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة وما رأيتها ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها).

ويتضح من قول عائشة ﵂ أن مِنْ أكثر أسباب غيرتها من خديجة ﵂ هي كثرة ذكر النبي ﷺ لها، وهي أرادت أن تبين ذلك بقولها: (وما رأيتها).

فأقول: كل تلك الغيرة وما رَأَتْهَا فما بالنا لو رأتها كيف يكون حالها؟

وأتعجب أن تكون كل تلك الغيرة من زوجة قد ماتت! وكان من المفترض أن تغار عائشة ﵂ من امرأة حية تساميها عند النبي ﷺ مثل زينب بنت جحش مثلاً، وهذا يدل قطعًا على قدر حب النبي ﷺ لخديجة ﵂.

ونستدل من شدة غيرة عائشة ﵂ أن النبي ﷺ ما تكلم أبدًا عن خديجة ﵂ في

---

(١) البخاري، كتاب: المناقب، باب: تزوج النبي ﷺ خديجة، برقم (٣٨١٨).

(٢) أي: عجوز كبيرة جدًا حتى سقطت أسنانها ولم يبق لشدقها بياض شيء من الأسنان إنما بقي فيه حمرة لثتها.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: المناقب، باب تزويج النبي ﷺ خديجة برقم (٣٨٢١).

كل حياته بكلمة سوء واحدة، بل من المؤكد أنه ما كان يذكرها إلا بأفضل ما فيها، ولولا ذلك ما كانت كل تلك الغيرة من عائشة رضي الله عنها ودليله من الحديث، قول النبي ﷺ «إنها كانت وكانت وكان لي منها ولد».

ويتفرع عليه: أن من أبلغ مظاهر حب الإنسان لغيره، هو التحدث عنه وعن أفضاله ومآثره، فعلى كل مسلم أن ينظر هل يحب ذكر اللَّه ورسوله، وهل يفرح إذا ذكر الله ورسوله في مجلسه، وهل يغضب إذا ذكرهما أحد بسوء، فعلى قدر فرحه في الأولى، وغضبه في الثانية، يكون الحب.

ب - قيامه ﷺ بذبح الشاة وتقطيع أعضائها ثم توزيعها في صدائق خديجة رضي الله عنها بعد، ولا يخفى ما في ذلك من حسن الوفاء، لما فيه من التكلف في تقطيع أعضاء الشاة، وإرسال رسول إلى بيوت الصاحبات مع ندرة أن يكون للرسول ﷺ شاة يطعمها أهل بيته.

ويتفرع عليه: جوده ﷺ وشاهده في الحديث أنه ما كان يُبْقِي من الشاة شيئًا، لقول عائشة رضي الله عنها: (ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها) ولولا إرسال جميع الشاة، لقالت: (ثم يبعث منها).

ج - فرحه وسروره ﷺ عندما تزوره هالة بنت خويلد، أخت خديجة رضي الله عنها ورد في رواية مسلم: (فارتاع لذلك)، أي هَشَّ لمجيئها، مع ظهور علامات الفرح على وجهه، فمن شدة حبه ﷺ لخديجة، أنه كان يحب ما يُذَكِّره بها، وكان يقول من شدة فرحه: **«اللهم هالة»** أي: يا رب اجعل المستأذن في الدخول تكون **«هالة»**.

قال الإمام النووي رحمه الله في شرح مسلم: (وفي هذا كله دليل لحسن العهد وحفظ الود ورعاية حرمة الصاحب والعشير في حياته ووفاته وإكرام أهل ذلك الصاحب)[1].

هذا الوفاء من النبي ﷺ لخديجة رضي الله عنها كان كله بعد وفاتها، ولكن أهم مظاهر الوفاء، كان في حال حياتها، وهو أنه ﷺ لم يتزوج معها في حياتها امرأة أخرى، وهي منقبة عظيمة لها رضي الله عنها، وقد نقل الحافظ ابن حجر في الفتح عن القرطبي قوله: (ومما كافأ النبي ﷺ به خديجة في الدنيا أنه لم يتزوج في حياتها غيرها، فروى مسلم عن عائشة قالت: (لم يتزوج

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/ ٢٠٢).

النبي ﷺ على خديجة حتى ماتت)(١) .

وهذا مما لا اختلاف فيه بين أهل العلم بالأخبار، وفيه دليل على عظيم قدرها عنده وعلى مزيد فضلها لأنها أغنته عن غيرها وكانت مدة حياتها معه منفردة توازي ضعفي ما عاشت معه بقية الزوجات مجتمعات، لأنه ﷺ عاش بعد أن تزوجها ثمانية وثلاثين عامًا انفردت خديجة منها بخمسة وعشرين عامًا وهي نحو الثلثين من المجموع، ومع طول المدة فقد صان قلبها من الغيرة ومن نكد الضرائر الذي ربما حصل له منه ما يشوش عليه بذلك، وهي فضيلة لم يشاركها فيها غيرها، انتهى كلامه (٢) .

٢- حكمته ﷺ ويتبين ذلك من معايير تفضيله لزوجاته، فلم يكن أساس تفضيله ﷺ للوضاءة وصغر السن وعدم سابقة الزواج، وقد تجمعت كل تلك الصفات على أكمل وجه لعائشة رضي الله عنها ومع ذلك فَضّل عليها زوجة قد توفيت، وهي خديجة رضي الله عنها وأسبابُ تفضيلها لا تخفى على أحد، فمن تلك الأسباب، سَبْقُها للإسلام بلا منازع، ولا أقول: إنها أول من آمنت بالنبي ﷺ على الإطلاق فحسب، بل أقول: إنها أول من سمعت منه خبر الوحي، فكانت رضي الله عنها الوحيدة التي شاركته ﷺ صعوبة هذا الموقف، بل وحلاوته أيضًا عندما أكد ورقة بن نوفل أن محمدًا ﷺ هو نبي هذه الأمة، وقد ذكرتُ ذلك تفصيلاً في باب: (تزكية خُلقه ﷺ).

كما أن من أسباب تفضيلها رضي الله عنها مواساتها للنبي ﷺ بمالها ورأيها ومكانتها، فقد كانت رضي الله عنها غنية ذات حكمة ورأي مع نسبها وحسبها، وإذا كان كثير من الصحابة قد شاركها في هذه الأعمال، إلا أن الأمر لا يستوي، لأن خديجة رضي الله عنها قد فعلت ذلك في وقت عَزَّ فيه الصاحب والنصير، فقد كان النبي ﷺ أحوج ما يكون لمن يؤنسه ويصدقه ويُصَبّره، بل مَنْ يُدْخِل عليه السرور بإنجاب الأولاد.

٣- فراسته ﷺ حيث كان يعرف حضور هالة بنت خويلد، من مجرد مشابهة استئذانها لاستئذان خديجة رضي الله عنها .

٤- براءة ساحته ﷺ مما يُنْسَب إليه كذبًا وبهتانًا، أنه أكْثَرَ من الزواج لأجل الشهوة والمتعة.

أقول: وإن كان حب معاشرة النساء في الحلال ليس بحرام، ولكننا لا نثبته له ﷺ إلا

---

(١) مسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، برقم (٢٤٣٦).

(٢) انظر فتح الباري (٧/ ١٣٧) بتصرف بسيط يوضح المعنى.

بدليل من كتاب أو سنة، تعظيمًا لحقه علينا ﷺ وإجلالاً وإكبارًا أن نقول في حقه ما لا نعلم، سواء بكلمة مدح أو ذم، لأن كلمة المدح في حقه ﷺ ينبني عليها حكم في شرع الله، وأحكام الشرع لا تثبت إلا بدليل. وأورد بعض الأدلة تبرأ ساحته ﷺ مما ينسب إليه:

أ - تزوج النبي ﷺ في عنفوان شبابه، وفي حال لم يسبق له الزواج من قبل، بخديجة رضي الله عنها وهي أكبر منه بخمسة عشر عامًا، وقد تزوجت مرتين قبله، وبقي معها خمسة وعشرين عامًا، لم يجمع معها زوجة أبدًا، أي بقي معها وحدها كل فترة شبابه وتعداها حتى بلغ الخمسين من عمره أو يزيد، وقد كبرت هي أيضًا رضي الله عنها حتى قالت عائشة عنها في حديث الباب: (ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين)، وهو وصف صحيح من عائشة لخديجة رضي الله عنهما لأنه لو لم يكن صحيحًا لأنكره النبي ﷺ خاصة مع حبه الشديد لخديجة رضي الله عنها وقال الحافظ ابن حجر في معنى وصف عائشة: (والذي يتبادر أن المراد بالشدقين ما في باطن الفم فَكَنَّتْ بذلك عن سقوط أسنانها حتى لا يبقى داخلَ فمِها إلا اللحمُ الأحمر من اللثة وغيرها)[1].

ب - أما ما رواه النسائي من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «حُبب إليَّ من الدنيا النساء والطيب وجعل قرة عيني الصلاة»[2]، فقد ورد في شرح السندي للحديث كلام نفيس نصه: (إنما حبب إليه النساء لينقلن عنه ما لا يطلع عليه الرجال من أحواله ويُسْتحيا من ذكره وقيل: حُبِّبَ إليه زيادةً في الابتلاء في حقه حتى لا يلهو بما حُبِّبَ إليه من النساء عما كلف به من أداء الرسالة فيكون ذلك أكثر لمشاقه وأعظم لأجره وقيل غير ذلك)[3]. انتهى كلامه. ومعنى لمشاقه: أي زيادة في مكابدة المشقة.

الفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عظيم فضل خديجة رضي الله عنها وقد ذكرت طرفًا منه أعلاه، ولكن أود أن أضيف هنا - ما يثبت من الحديث - عظيم شأن خديجة رضي الله عنها وهو قول عائشة رضي الله عنها: (كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة)، ونخلص منه، أن من كثرة فضلها رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان ينظر إليها ويتكلم عنها كأن لم يكن في الوجود امرأة غيرها، أي أن أحدًا من نساء الدنيا لا يساميها؛ بل لا يقاربها في فضلها.

---

(١) انظر فتح الباري (٧/ ١٤٠).
(٢) النسائي، كتاب: عشرة النساء، باب: حب النساء، برقم (٣٩٣٩).
(٣) انظر حاشية السندي (٦١/٧).

الفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: يتسامح في أمور الغيرة بين النساء، وما يصدر منهن بصدده، ما لا يتسامح في غيره، ذكر النووي في شرح صحيح مسلم: نقلاً عن بعض العلماء أن(الغيرة مسامح للنساء فيها ولا عقوبة عليهن فيها لما جُبِلْنَ عليه من ذلك ولهذا لم تُزْجَرْ عائشة عنها)[1].

ويتفرع عليه: أن نعلم عظيم ما تجده المرأة في قلبها من غيرة بسبب حب زوجها لغيرها من النساء، وإن كانت قد ماتت، فيجب على الرجال مراعاة هذا الجانب جيدًا، فالأمر يحتاج إلى معالجة وصبر، فالغيرة قد دفعت عائشة ﵂ إلى أن تقول ما قالت في حق واحدة من سيدات نساء العالمين، ولِعِلْمِ النبي ﷺ بغيرة النساء، قد عَذَرَ عائشة ﵂ في مقولتها.

الفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وجوب حسن الوفاء ورد الجميل لأصحاب المعروف أحياءً وأمواتًا، وأُذَكِّر نفسي وإخواني بأنّ حق الوالدين أعظم من حق الزوجة أو الزوج، فيجب على الزوج أن يفي بحق والديه، وإن تسبب هذا الوفاء في غيرة الزوجة، وعليه أن يتبع الحكمة عند بر والديه وذويه، بحيث لا يشعل نار الفتنة بينهما قدر الإمكان، فإن تعذر ذلك، وأبت المرأة إلا أن تحول بين الرجل ووالديه أو أصحاب الحقوق عليه ولم ينفع معها النصح والإرشاد، فعلى الرجل أن لا يتخلى عن والديه أبدًا.

فإن سأل سائل: ولماذا لم يُخْفِ النبيُّ ﷺ حبه الشديد لخديجة ﵂ حتى لا تشعر عائشة ﵂ بكل تلك الغيرة بل لماذا كان يُكْثِر ذكرها؟.

قلت: الأمر يختلف فإن ذكر خديجة ﵂ والتحدث عن أفضالها ومآثرها هو من الدين الذي يجب تبليغه للأمة، وعدم التحدث به يكون من باب كتمان العلم الذي نُهِيَ النبي ﷺ عنه.

الفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الأولاد نعمة يجب شكر اللَّه - سبحانه وتعالى - عليها، بل ويجب شكر الزوجة والثناء عليها ورد جميلها، لكونها السببَ الظاهر في وجود تلك النعمة، وهي التي تحملت المشاق في سبيل ذلك، ودليله من الحديث، أن النبي ﷺ قد ذكر في سياق مدح خديجة ﵂ وذكر محاسنها وأسباب كثرة ذكرها، أنها أنجبت له الولد، قال ﷺ: «**إنها كانت، وكانت، وكان لي منها الولد**»، وإذا كان الأولاد نعمة من الله، فإن فقدان أسباب وجودهم ابتلاء من اللَّه -عز وجل- يجب مقابلته بالصبر والاحتساب والتضرع إليه لرفع ذلك البلاء.

---

(١) انظر شرح النووى على صحيح مسلم (١٥/ ٢٠٢)

الفهرس

* * *